وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب
The Syrian General Organization of Books

# قراءات في الرواية الإيرانية

سليم عبد الأمير حمدان

في النقد الأدبي (٩)

## سليم عبد الأمير حمدان

- ولـد سـنة ١٩٤٠ في مدينـة الكاظميـة شـمال العاصمة العراقية بغداد.
- درس في قـسم اللغـة العربيـة في كليـة الآداب جامعة بغداد، وتخرج منها سنة ١٩٦١.
- اختـار وتـرجم عـدداً مـن قـصص مـارك تـوين، اختار لها اسم «مـذكرات آدم وحـواء، وقـصص أخرى»، نشرتها له دار الفـارابي في لبنـان عـام ١٩٧٤.
- ترجم روايتي «قـصة جاويـد» و «آلام سـياوش» للكاتـب الإيرانـي إسـماعيل فـصيح، وكـذلك روايـات أخـرى نـشرها ضـمن سلسلة المشروع القـوم للترجمـة في القـاهرة، ونـشرت لـه دار المـدى في دمـشق، ترجمتـه لـ «نـداء البـداءة» لجـاك لنـدن سـنة ٢٠٠٠ و «مكـان سـلوج الخـالي» لمحمـود دولـت آبـادي سـنة ٢٠٠٣، ثم «كأس من ذهب» لجون شتاين بك سنة ٢٠٠٣.
- وافته المنية في يوم ١٤ نيسان عام ٢٠٠٧.

# قــراءات
# في الرواية الإيرانية

سليم عبد الأمير حمدان

# قـــراءات
# في الرواية الإيرانيـة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة — دمشق ٢٠٠٧

# بدلاً عن مقدمة

ليس هذا الكتاب تأريخاً للرواية الفارسية في إيران، وإنما هو ــ بقدر ما يدل عنوانه ــ قراءات فيها: إنه محاولة تعريف بها اعتماداً على نصوصها.

لقد كان الدافع إلى كتابة الكتاب قراءتي لترجمة ــ لم أجدها جيدة ــ لإحدى روايات إسماعيل فصيح، ومقدمة أقل جودة وضعها المترجم، نسب فيها لهذا الكاتب الإيراني ميزات مبالغاً فيها. فأردت حينذاك أن أضع هذا الرجل في موضعه الصحيح. وقد جرّني ذاك إلى مراجعة ما كنت قرأته من روايات إيرانية، فعمدت إلى إشراك القارئ العربي في متعة القراءة، واستخرجت من قراءتي ما يشبه التاريخ، وتاريخ التطور، وتوصلت إلى نتائج وأحكام عسى أن تكون صائبة، أضعها هنا بين يدي القارئ.

وقد أفادني عدد من الروائيين الإيرانيين كثيراً، وخاصة أحمد محمود، إبراهيم يونسي وأمير حسن چِهِل تَنْ، في أحاديث خاصة سمحوا بنشر ما أريد منها، وقد نشرت أجزاء مهمة من تلك الأحاديث

بعيد إجرائها(*). وينبغي أن أنوّه هنا، بشكل خاص، بالمرحوم أحمد محمود، الذي فتح لي مكتبته الخاصة، التي ما كنت أستطيع لولاها قط أن أكتب عن صادق هدايت، ولا عن غلام حسين ساعدي، وما كانت كتابتي عن بزرگ علوي لتكون بهذا الاكتمال.

ولقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة أقسام، جعلت الأول منها للمؤسسين، وضعت فيه صادق هدايت وبزرگ علوي، والثاني لكتّاب الجيل الثاني؛ الذي تناولت فيه سبعة منهم. وإذ يؤسفني أنني لم أستطع أن أتناول غيرهم هنا، إلا أن عذري أن للآخرين – أولاً : سمات وخصائص من ذكرت، وثانياً : لأنني ما كان لي أن أتناول الجميع لأن ذلك كان سيوسع الكتاب إلى آلاف الصفحات – إن كنت أتبع النهج ذاته بالنسبة لهم جميعاً. وفي القسم الثالث، تناولت واحداً من الكتّاب المحدثين، نموذجاً لزملائه من الجيل الثالث – وإن كانوا يرفضون أن يوسموا بذلك، بل ولا يؤمنون أساساً بـ«ترقيم الأجيال» الأدبية، بل حتى بالتقسيم إلى أجيال أساساً.

---

(*) للاطلاع على هذه الأحاديث، يمكن الرجوع إلى:

١- مجلة (الثقافة الجديدة)، العدد ٢٨٦ كانون الثاني ـ شباط ١٩٩٩: سياسات إيران من خلال حوار مع الروائي الأشهر أحمد محمود.

٢- مجلة المدى، العدد ٢٦ (٤)، ١٩٩٩: غالب الموت مرتين: لقاء مع إبراهيم يونسي.

٣- مجلة المدى، العدد ٣١ (١) ٢٠٠١، مع القاص والروائي الإيراني أمير حسن چهل تن.. الباحث عن هموم المرأة.

# القسم الأول

# المؤسّسون

# الفصل الأول

## صادق هِدايَتْ

إذا كان هناك مالئ دنيا وشاغل ناس في الأدب الإيراني الحديث، فهو صادق هدايت. وإذا لم يكن ذلك لقيمته الأدبية فهو لحياته، وإن لم يكن لحياته فهو لمماته الفاجع.

ولد صادق هدايت لعائلة متوسطة في طهران سنة ١٩٠٣ ومات في مسكنه في باريس منتحراً بالغاز. ودُفن في مقبرة الغرباء هناك: پير لاشيز، سنة ١٩٥١.

وبين الميلاد والممات أنهى صادق هدايت دراسته الأولية والإعدادية في طهران وكتب، ثم سافر إلى باريس لإكمال دراسته العليا، فتنقل بين المدن الأوروبية ليتعلم دون منهج، فزار المتاحف والمعارض، واستمع إلى محاضرات وحضر حفلات موسيقية، وعاش بين الناس، وكتب.

وعاد إلى طهران فاشتغل مدرّساً فترة، وكتب.

وألّف مع ثلاثة من أصدقائه جمعية رباعية، في ما يشبه المزاح والتسلية، لتصير فيما بعد جمعية أدبية فنية تؤثر في أبناء الجيل الذي عاصرها: يقرأ كل واحد من أعضائها نتاجه على الآخر، وينتقد أحدهم نتاج الآخر، ويكتبون أعمالاً

مشتركة حيناً، أو ينشرون كتباً فيها أكثر من موضوع يكتبها أكثر من واحد منهم أحياناً.

وقام بجولة في أنحاء إيران، وكتب.

وسافر إلى الهند فتعرف عليها، وعلى مَواطن المهاجرين الإيرانيين من الزرادشتيين فيها، وكتب.

وبعد أن عاد إلى بلاده، حيث بقي مدة، تلقّى دعوة جوليو كوري للمشاركة في المؤتمر التأسيسي لحركة أنصار السلام العالمية لسنة ١٩٤٩، لكنه مُنع من السفر! فبعث برقية إلى جوليو كوري قال فيها: «إن كمّاشات الإمبريالية في بلادي عرقلت حضوري المؤتمر.. اعتبروني معكم.. تمنياتي لكم بالنجاح».

وفي أول فرصة سنحت له، سافر إلى باريس، فعاش، وكتب، ثم انتحر.

* *

تقول الحكاية إنه أحس بالإحباط لأنه لم يلق ناشراً لكتبه، أو لأن ناشريه غبنوه، أو.. وتدور كل هذه التبريرات والتفسيرات حول الكتابة والنشر. ولكنني لم أستطع أن أهضم هذا التفسير، فقد أحصيت ما رأيت من كتبه، أو ما وجدته مكتوباً عن كتاباته، ما يصعب عدّه. وأكتفي بالقول إنه كتب منذ سنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٥١ إثنين وعشرين كتاباً، كما رأيت له خمسة كتب بلا تاريخ نشر. ويتوزع نشرها على بومبي في الهند شرقاً، ليمر بطهران وبرلين فيصل باريس غرباً. وصحيح أن بعض كتبه كراريس تقع في بضع عشرات من الصفحات، إلا أن جهد البحث فيها بيّن، وسعيه لإيجاد لغة كتابة جديدة أكثر وضوحاً.

وشملت كتاباته المقالة الأدبية و/أو العلمية والسياحة والتاريخ والقصة القصيرة والتحقيق العلمي والترجمة من التراث البهلوي[1] والمسرحية وحتى

المونولوج الغنائي الساخر. ولكن مأثرته المهمة تبقى في مجال الرواية: فهو أول من كتب رواية حديثة في الفارسية، لذا استحق أن يُعتبر مؤسس الرواية الفارسية الحديثة، كما كان محمد علي جمال زاده مؤسس القصة القصيرة الحديثة.

* *

وتعددت موضوعات كتابته أيضاً، من «فوائد النباتية» إلى «الإنسان والحيوان»، فموقف الإيرانيين من الفتح الإسلامي لإيران، كما في «پروين بنت ساسان ــ ١٩٣١» وإلى التحقيق العلمي في التراث، «أناشيد الخيام ــ ١٩٣٥»، فالحديث عن «أسطورة الخلق».

* *

كان في أدبه يجرب، لذا يجد القارئ تأثير الأدب الألماني ــ خاصة لمطلع القرن العشرين ــ واضحاً في كتاباته، والمفاجأة التشيخوفية شاخصة في قصصه، وتكاد بداية قصته «الكلب السائب»[٢] تكون ترجمة لأحد فصول رواية جاك لندن (Call of the Savage)، وتناوله أحاسيس الكلب ومشاعره منقولة عن الكاتب الأمريكي دون شك.

والروح العاشقة للجمال والطبيعة، التي تسم كتابه القيم «أناشيد الخيام» تجعل المرء لا يصدق أن محباً للجمال والطبيعة هذا الحب يمكن أن ينتحر. ولكن فكرة الموت تسكن أكثر كتاباته. ففي كتابه «پروين بنت ساسان» مادتان تلفتان النظر: الأولى، مقالة كتبها في مدينة «گان»[٣] البلجيكية، يقرر فيها أن «الموت لو لم يكن لتمناه الجميع»، ثم ينصرف إلى مخاطبة الموت قائلاً: «إنك لست رسول الحزن، بل أنت علاج الروح الذابلة، إنك تفتح بوابة الأمل بوجه اليائسين...». والثانية، قصة قصيرة باسم «سامپينگه»، وهي فتاة هندية تحزن لمرض أختها وفشل عمليتها الجراحية، فيدفعها حزنها إلى الانتحار.

ثم يتكرر مسلسل الموت. فالكلب السائب يموت؛ وسيمويه، بطلة قصة (تخت أبو نصر) تموت؛ والمضيف في قصة (الغرفة المظلمة)(٤) يموت، والسيد نصر الله، بطل (محب الوطن) يموت. وكل هذه الوفيات يضمها كتاب واحد: (الكلب السائب) يجمع ثماني قصص.

والموت مصير كثير من أبطال وشخصيات قصصه الأخرى، ومن ينجون منهم يصيبهم موت من نوع آخر: الجنون.

ويلوح لي أن صادق هدايت أعد غرفته التي انتحر فيها على هيئة «الغرفة المظلمة» أو «غرفة التطهير»، وربما كان مات فيها كما مات بطل القصة: «وضع يديه أمام وجهه وجمع ساقيه إلى بطنه، فصار مثل جنين في رحم أمه وقد استلقى على التخت».

* *

لم يكن صادق هدايت صاحب إيديولوجية معينة، ولكن فكرتين تنازعتاه طوال حياته الفنية: النهيلستية، والوجودية، مما حدا بـ«جلال آل أحمد» ـ الكاتب الإيراني الذي صار مقدساً عند رجال الدين الإيرانيين بعد أن تنكّر لفكره الماركسي ثم لأهوائه الوجودية ـ إلى اعتباره نموذج المثقفين المتأثرين ـ أو المضروبين، المصابين، كما يسميهم ـ بالغرب، مما جعل مجرد ذكر اسمه والإشارة إلى مأثرته في تأسيس الرواية الفارسية يستنفر أجهزة الدعاية الرسمية الإيرانية لتدبيج المقالات عن عدميته، والقدوة السيئة التي يضربها للشباب، كسلسلة المقالات التي نشرتها جريدة كيهان في أوائل شباط ١٩٩٩ لتفند ادعاء زهده بادعاءٍ مقابل عن قضائه أوقاته في مقاهي «لاله زار»(٥)؛ وادعاء معاداته للنظام الملكي بتعييره بأن زوج أخته، الفريق رزم آرا، كان رئيس أركان جيش النظام ثم صار رئيس وزرائه؛ وادعاء

اضطرابه النفسي بتهويل إدمانه سلسلة متنوعة من المواد المخدرة؛ وعدميته بـ«إلحاد مطلق»، لتنتهي أخيراً إلى نقل حكم أبي الشعر الإيراني الحديث (نيما يوشيج) عنه بأنه سيئ الطوية يخذل الأصدقاء ويطعن من خدموه في ظهورهم. من دون أن تتناول بالدرس والتقويم آثاره الفكرية والأدبية، وتجلّي الأوصاف التي أسبغتها عليه فيها، بل إنها ـ بدل أن تقدم عرضاً لأعماله تدرسها في ضوئه ـ اكتفت بتقديم أحكام كلية لبعض الأدباء اعتبروا أعماله تافهة، عديمة القيمة، منحطة، وإلخ.

* *

يقول ناقد إيراني: «.. في تلك السنوات [أواسط الأربعينيات] لم يكن يوجد، بالنسبة لي ولأقراني، فرق كبير بين قصتي (باباكوهي)(٦) لحجازي و(داش آكل)(٧) لهدايت، وكان لابد من صبر طويل وتجربة وافرة كي ندرك الدقائق الفنية في أعمال هدايت».

ولكن الكتّاب المحدثين، والشباب منهم بخاصة، يبالغون في امتداحه والاستشهاد بأعماله واقتباس أقواله، بشكل أتصوره رد فعل على تهجم الصحافة الصفراء عليه، أكثر مما هو تأثر ـ أو مجرد إعجاب ـ بأعماله. وكان الانطباع الأول الذي خرجت به من قراءة العديد من أعماله، في الواقع، سلبياً، لذلك سألت روائياً كبيراً من الجيل الذي تلاه ـ وقد قرأت له هو الآخر بعض المدح لصادق هدايت ـ عن قيمة هدايت الحقيقية، فقال إن قيمته الكبرى ـ وحتى الوحيدة ـ هي في كونه مؤسساً.

ولكنني عندما أعدت قراءته توصلت إلى اكتشاف فضيلتين أخريين له: الأولى، أنه منذ أول رواية له، قدمها كاملة دون نواقص أو ثلمات تؤخذ عليها ـ فنياً. وعندما قدم «البوم الأعمى»، اختار لها موضوعاً وقالباً معقّدين، خاصة

لقارئ ذلك الزمان، ربما ليبعد القارئ عن الموضوع كي ينصرف إلى تأمل بناء هذا العمل الفني فيتعرف على هذا النوع الأدبي الجديد. و

الثاني، أنه عمد إلى العودة إلى اللغة الفارسية القديمة، والنأي بها عن المفردات العربية الدخيلة ــ وكانت كثيرة في أيامه خصوصاً ــ حتى أنني لم أعثر في المشهد الأول ــ مثلاً ــ من «پروين بنت ساسان» على لفظة عربية واحدة، ولم أعثر في غيرها من كتاباته إلا على القليل من الألفاظ العربية.

* *

وقد جردت ما أتيح لي قراءته من كتابات هدايت فوجدت الكثير من قصصه الطويلة نسبياً، هي روايات بمعنى الكلمة، لا مجرد مخططات لروايات. فهل نضيف التكثيف والاختصار إلى فضائله الأخرى؟

على أية حال، سأعرض لهذه هنا أيضاً، كما سأعرض لمسرحياته التي تندرج عقدتها في خانة تقربها من الرواية:

## ١ ــ پروين بنت ساسان (١٩٣١):

هذه مسرحية في ثلاثة فصول، تتناول معركة العرب الثالثة ضد الفرس، سنة ٢٢ للهجرة. ولينتبه القارئ إلى أن الكاتب لا يذكر عن الإسلام شيئاً هنا، بل هو يتحدث عن غزو عربي، مع أن المعركة هي معركة القادسية المعروفة.

كتب هدايت هذه المسرحية في باريس سنة ١٩٢٩. وأفكارها الرئيسة هي: سبق لإيران أن تعرضت لحروب عديدة، ولكنها لم تجد عدواً بهذه الوحشية، لا يعرف إلا القتل والحرب، ولا يفعل غير الهدم والتخريب، وهدفه إبادة الدين

السليم والشعب كله! «إنهم يسعون إلى إسقاط لغتنا، ديننا، وكياننا، وبذريعة المجيء بديانة جديدة والتمسك بها لا يتورعون عن أي ظلم». والأنكى من ذلك أن هؤلاء الغزاة هم «العرب، عابرو الصحارى، أكلة الجرابيع، **الذين كانوا لسنوات طويلة تحت أيدينا ويدفعون الضرائب لنا**».

ولكن هذا الموقف الذي يطرحه الكاتب في الشعارات، يتهافت أمام حقيقة سلوك القائد العربي، الذي ـ مع أنه، مثله مثل قومه، لا يشغله إلا البطن وما تحته ـ لا يجبر أسيرته، الفتاة الجميلة، على مضاجعته وهي ملك يمينه! مع أنه يريدها، وقد عرض عليها الزواج.

فالكاتب دخل مسرحيته، إذن، بموقف مسبق، وأراد أن يرفع شعاراته ضد الغزو الإسلامي (رغم عدم تسميته بذلك). ولكن عمله، وروحه الفنية خذلاه، فلم يصور لنا وحشية الغزاة بشكل مقنع. ولو كان صور اغتصاب الأسيرة مثلاً لوصل إلى فكرته بأفضل من هذه الشعارات الساذجة. ولنواصل:

هذه الأسيرة، هي ابنة رسّام، يطلق القائد سراحها، ويسمح لها بالعودة إلى بيتها. ولكن المقاومة ضد الغزاة مستمرة، وتدور معركة أمام البيت ثم داخله، يقتل فيها خطيب الفتاة، فتنتحر مفضلة الموت على التسليم ـ (ربما لأن من سيفوز بها واحد من العرب الذين وصفهم الكاتب قبلاً بتلك الوحشية والتخلف، ولو كان من سلالة أخرى لم تكن لتمانع!).

هذه المسرحية، كما شاهدنا، ضعيفة، لأنها لم تخدم حتى الفكرة التي كان واضحاً منذ البدء أنها تنادي بها. والسبب ـ في رأيي ـ أن الكاتب وضع نصب عينيه مقدماً فكرة معينة استولت على منطق أحداث المسرحية نفسه، وأنه من أجل تسويقها كتب المسرحية.

## ٢ ــ آباء آدم:

هذه إحدى قصص مجموعة (الظِلال)، التي أصدرها سنة ١٩٣٤.

ومع أنها صغيرة الحجم، وأن الكاتب ضمها إلى عدد من القصص القصيرة فنشرها معها في كتاب واحد، إلا أن من الواضح أنها رواية، أو رواية قصيرة، حسب التعاريف المعروفة للرواية.

وهي قصة عائلتين من القردة الآدميين، كانت فرحتهم في الأكل والشرب، والشهوات، والسعي والتعاسة والجوع والشيخوخة والمرض ومكافحة الوحوش، حتى حلّ فيهم (كيسا)، الذي علّمهم الحقد والحسد.

وقد ترقّى هذا، وخدمته الظروف، فصار رئيساً لأكبر العائلتين. يعاشر ابنته زوجياً، حتى تملّه وتحب إنساناً ــ قرداً غيره (هو ابن الملك السابق)، وتحبل منه، فتشتد مضايقة أبيها لها، حتى يصمم حبيبها على الفرار بها، ويتواعدان على ذلك.

ينتظرها في الموعد، فتأتيه خائفة وجلة. يلتقيان، يمرحان، ويمارسان الحب.

ينتبه الأب إلى فرارها فيصرخ باحثاً، وآمراً بالبحث عنها.

يثور بركان «دماوند»[٨] فتهرب الحيوانات، إلا القردة ــ الآدميين، الذين ينتظرون زعيمهم ليهديهم. ويأتي، فيرتقي صخرة ويخطب فيهم: أنا قاتل النمور، خانني (زي زي) وسرق ابنتي، فعليكم بقتله والمجيء لي بابنته وبكل ثماره، لتتخلصوا من البركان، لأن الأرض ثارت انتقاماً لي!

يهجم القردة على بيت ملكهم السابق، ويجلبونه وعائلته. يلطمه الأقربّون، ويرجمه الأبعدون، ويأتون بابنته، التي تهرب أولاً، ويقدمونها لــ(كيسا).

ويقتلون الملك السابق وزوجته، ويمزقون أحشاءهما التي راح صغار القردة يتلاعبون بها وكيسا يتفرج، وابنة الملك السابق تنظف له بدنه من الحشرات، حتى يقوم ــ متكئاً عليها ــ ليدخل وجاره.

ولكنه لا يتمتع طويلاً، فالبركان يثور، بينما ابنته، وحبيبها ينامان في غابة بعيدة، وقد نسيا غابتهما القديمة تماماً!

أهي قصة بداية استغلال الإنسان لأخيه الإنسان؟ ــ ربما.

أهي القصة المكررة للنزاع على السلطة، ودور الآيديولوجيا في التبرير للنظام؟ أيضاً ربما.

أم هي قصة تسلم رضا خان السلطة في انقلابه على سلالة آل قاجار في إيران، وتزوجه واحدة من بناتها إكمالاً لــ«سيطرته» على «ممتلكات» الحكام السابقين؟ وهذا أيضاً ربما.

أو، أهي تقرير لحقيقة أصبحت الآن شبه بديهية تقول: إن من اعتاد الخضوع وتربى في الجهل ينتهي به الأمر إلى خدمة قاتل أمه وأبيه؟ ربما أيضاً.

مع أنه ــ ربما أيضاً ــ لم يكن أي من هذه الموضوعات في ذهن صادق هدايت عندما كتب هذه الرواية، وإنما كان الأمر كله عنده مجرد هلوسة.

## ٣ ــ أسطورة الخلق:

وهذه مسرحية عرائس في ثلاثة فصول، كتبها هدايت سنة ١٩٣٠. وهي تحكي ــ دون تزويق، أو حتى مجرد تنكر، بل حتى دون تبديل أسماء (فأبطالها: خالق (أوف)، جبرائيل (پاشا)، ميكائيل (أفندي)، (ملاّ) عزرائيل،

إسرافيل (بيگ)، (مسيو) شيطان، (بابا) آدم، (ننه) = (الأم، ماما) حواء، وعدد من الحوريات والغلمان، وفيل ونعامة)، وبأسلوب ساخر ــ قصة الخلق.

تنفرج الستارة عن اليوم الذي تقرر فيه خلق الفيل، وقد وضع خالق طيناً جيداً إلى جانبه، كي يخلق منه آدم.

والجديد في أسطورة الخلق أن خالق ينتبه إلى أن آدم صار يشبهه، فيتصور أن جبرائيل تلاعب بالطينة، وبعد التحقيق يعرف أن القرد سوّاه، فلا يمانع: «ليس سيئاً، فقد عجّل عملنا»، ويؤيده جبرائيل پاشا في ذلك «ليرحم الله أبا القرد، فقد سهّل عملنا».

وما أن تحل الروح بآدم حتى يلوب جائعاً! فيرسله خالق إلى الجنة، محذراً إياه من أكل الحنطة.

وفي الفصل الثالث نجده وحواء خارج الجنة، وقد سئم العمل لتحصيل رزقه، فيوسط جبرائيل كي ينال العفو.

يعرف بابا آدم وننه حواء من جبرائيل أن خالق أوف نادم على خلقه كثير من الأحياء، ومع ذلك فهو عازم على تجهيز آدم وحواء بأطفال يتسليان بهم، كما يعرفان أيضاً أن كل الخلق كان عبثاً، أراد به خالق أن يتفرج ويتسلى.

* *

إن هدايت، في مرحلته العدمية، يرى عملية خلق الإنسان عبثاً، على عكس ما يؤكده مصدرها الديني من إرادة الخالق إيجاد مخلوق على هيئته هو ليستخلفه في الأرض.

أما إحلال الحنطة محل التفاحة الممنوعة كما نعرفها، فهي فكرة منقولة عن «مارك توين» ــ في إحدى قصصه حول موضوع مشابه[٩].

## ٤ ــ ماء الحياة:

وهذه حكاية، في قالب رواية قصيرة، تبدأ بداية قصص الأطفال الفارسية «ذات يوم وذات زمان..» وتنتهي نهايتَها محوَّرةً: «انتهت قصتنا، ولم يصل الغراب إلى بيته» ــ إذ أن الغراب في قصص الأطفال يصل إلى بيته.

يحدثنا هدايت عن إسكافي له ثلاثة أولاد، الأكبر والأوسط منهم شبه عاطلين، أما الثالث، الأصغر، فهو عامل عاقل مطيع. يحل بمدينتهم قحط، فيجمعهم الأب ويعطي كلاً منهم رغيف خبز وكوز ماء، ويطلقهم ليذهبوا فيكسبوا معاشهم: إن نجحوا فبها، وإن فشلوا فليعودوا إليه، ويقنعوا بلقمة خبز معه.

في المرحلة الأولى من خروجهم، يقرر الأكبران التخلص من الصغير (أحمدك)، فيلقيان به في غار يسدان عليه منفذه، ويلطخان قميصه بدم حمامة ويرسلانه مع قافلة عابرة إلى أبيه، مع خبر أكل الذئب له. ثم يتخذ كل منهما وجهة، ويفترقان.

يستنفذ الأكبر، حَسَني قوزي (= حسني الأحدب) مؤونته، ويلفه ظلام الليل وهو في غابة. يلوح له من بعيد ضياء يقصده، فإذا هو كوخ ساحرة، يرجوها إشباعه فتعنفه، إلا أنها «تشفق» عليه فتشترط عليه أن يطيعها في عمل ما لتؤويه، فيقبل.

تكلفه أن ينزل بئراً، ليخرج شمعة سقطت فيها. تدلّيه بزنبيل، فينزل ويلتقط الشمعة وتسحبه، وعندما تريد أن تأخذ الشمعة يشترط أن يستقر على الأرض أولاً، فتغضب وتترك الحبل ليسقط الزنبيل، وهو فيه، مستقراً على أرض البئر. يدخن غليونه، فيخرج له عفريت مطيع، يكلفه الأحدب بأن يخرجه أولاً ثم يهيئ له المال والحياة.

يخرجه العفريت، إلا أنه بدلاً من إعطائه الثروة يدله على طريقها: «إن أردت مالاً ورفاهاً ومعيشة، فهذا طريقها: اذهب حتى تصل مدينة، فيزدهر عملك، ولكن امتنع ما وَسَعَك عن ماء الحياة!».

فيتجه إلى الطريق الذي دلّه عليه العفريت، ويصل عند الفجر مدينة قرب نهر يكتشف أن كل سكانها عميان. يغسل وجهه ويسأل أعمى قريباً منه: أين هنا؟ فيجيبه: بلاد نثر الذهب. وعندما يستجدي الأعمى لقمة خبز يكلفه الأحدب بأن يعطيه حفنة من حصى النهر، إذ «هنا، لا يعطون لأحد شيئاً بالمجان»، فيفعل الأعمى نائلاً كسرة خبز مجهزاً حسني بحفنة ذهب.

يمشي في المدينة فيرى بيوتها كمآوي الخراف، ويسأل أحد الناس عن سبب عماهم فيقول: «هذه البلاد ترابها مخلوط بالذهب، ومن خصائصه أنه يعمي العيون ـــ إننا ننتظر نبياً ينبغي أن يأتي فيشفي عيوننا...».

يفكر حسني في أن يخدعهم، بأن يصير نبياً لهم.

يبشّرهم بالحياة الأخرى الأبدية، مبلغاً إياهم أن الله حرمهم من البصر فأبعد عنهم الأهواء. صدّقه بعضهم، وراح «يلقي فيهم كل يوم خطبة عن الجن والحور واليوم الذي طوله خمسون سنة والجنة والنار والقضاء والقدر وضغط القبر وأمثال هذه الأمور»، حتى آمن به كل أهل بلاد نثر الذهب، وطوّعهم للعمل معه في غسل الذهب، فحصل الأغنياء والبلطجية على منافع جمة، حتى صار حسني سريعاً من مقربي البلاط.

ثم فرض إجبار الجميع على العمل في الذهب، وربط الأهالي بسلاسل من بيوتهم إلى النهر، وجعل لهم نواقيس تقرع، فتحدد ساعات عملهم من شروق الشمس إلى غروبها، ولم تعد لهم من تسلية إلا الخمر والأفيون. ولمّا لم يكن لهم عمل آخر، فقد كانت مدينتهم تبيع ذهباً وتشتري طعامها وخمرها

وأفيونها من البلاد المجاورة، حتى بارت الأرض وعلت القاذورات فوق رؤوس الناس.

ومع أنه فقد عينيه بالتدريج، إلا أنه كان ينام على فراش من ذهب، ووضع على حدبته صفيحة ذهب، وصار يشرب في كأس ويدخن الأفيون في وافور[١٠] من ذهب، بل إنه صار حتى يتطهر بإبريق ذهب. ويعقدون له كل ليلة على فتاة في زواج مؤقت. وينسى أباه وأخويه، ورجاء أبيه.

أما أخوه الأوسط، حسيني كچل (أي حسيني الأقرع)، فسار نحو المشرق حتى وصل متعباً إلى أجمة فنام عند أسفل شجرة فيها، وفي الفجر سمع ثلاثة غربان تتحدث فيما بينها، ليفهم منها أن ملك المدينة مات، وأن المسؤولين سيطلقون في الصباح العُقاب، فمن استقر على رأسه يصير ملكاً[١١]. وأن النائم تحت هذه الشجرة سيكون الملك شريطة أن يضع على رأسه كرش خروف. سيرفضه الناس أولاً ويحبسونه لأنه أجنبي، ولكن عليه أن يفتح نافذة محبسه كي يأتيه العقاب مرة أخرى ويحط على رأسه. ويفهم من حديث الغربان أيضاً أن البلاد بلاد الصم، وأن علاج الصمم هو ماء الحياة، ولكن الناس إذا شفوا فهم لن يعملوا لأسيادهم، ولهذا فهؤلاء الأسياد يعاقبون من يعمل على علاجهم بالشنق، كما شنقوا هؤلاء المعلقين على الأشجار هنا. ولما يطلع الصبح ينظر حسيني فيجد شخصين مشنوقين على الأشجار حقاً، فيهرب حتى يجد طلياً متخلفاً عن قطيعه، فيمسكه ويذبحه ويسلخه ويلبس كرشته على رأسه وينطلق حتى يصل، عند الغروب، إلى مدينة كبيرة تقوم فيها ضجة مدوية. يذهب إلى خربة قريبة يقف فيها، وإذا بعقاب صيد محلّق في السماء يهبط حتى يستقر على رأسه متشبثاً فيه بمخالبه.

تجمع الناس حوله، وطردوا العقاب وهللوا له، ولكن ما أن رأوه خارجياً

حتى أخذوه فألقوه في غرفة أرتجوا بابها. ذهب حسيني ففتح النافذة، ومرة أخرى حلّق العقاب وجاء من النافذة ودخل وحط على رأسه. فجاء الناس هذه المرة وأخذوه إلى عربة ذهبية ذات أربعة أفراس، ونقلوه إلى القصر بأبهة، «وغسلوا رأسه وجسده في حمام مرتفع جداً وألبسوه لباساً فاخراً وقباءات ثمينة، ثم أخذوه فأجلسوه على عرش مرصع، كما وضعوا على رأسه تاجاً»، وتقدم منه شخص مُرحِّباً نيابة عن الأهالي، معرّفاً نفسه بأنه تاجر غريب يقوم بدوز المترجم لأن أهل البلاد صُم بُكم جميعاً. ويسأله الأقرع أي بلاد هذه فيجيبه التاجر المترجم أنهم يسمونها بلاد القمر الساطع. فيطلب منه أن يُفهم الأهالي بأنهم على باله، وأنه يفكر في راحتهم. وطلب منه الإيعاز بتحضير عشائه والتقليل من الثرثرة.

ولما رأى طعام العشاء لم تسعه الفرحة، فأكل وشرب حتى التخمة.

فرض على الأهالي زراعة الأفيون وشرب الخمرة، كي يحصلوا على الذهب من بلاد نثر الذهب، حتى «صار الناس يعيشون في الفقر والبؤس، وانتقل مرض العمى من بلاد نثر الذهب إلى بلاد القمر الساطع، كما ذهب الصمم أيضاً، تحفةً، من «القمر الساطع» إلى «نثر الذهب»».

وثقلت أذن حسيني أيضاً، ثم أصيب بالصمم، ولكنه واصل العيش والتلذذ مع حفنة من «مهرجي البلاط المتملقين والتجار العمي، الذين كانوا أعوانه، ويهيئون أمور بذخه ولذاته، وغاب أبوه وأخواه عن باله، كما نسي رجاء أبيه أيضاً».

أما الأخ الأصغر، أحمدبك، فصحا في المغارة إثر إحساس ما يهز مرفقه. فتح عينيه ليرى درويشاً طويل الشاربين، سأله: ماذا تفعل هنا، وما الذي جاء بك؟ فحكى له حكايته. فك الدرويش وثاقه، وجاءه بطعام ما أن أكله حتى قال للدرويش: «حسناً، الآن أريد الذهاب عند أخويّ ومساعدتهما»، ولكن الدرويشّ نصحه ألا يفعل، بل أن يذهب إلى بلاد الربيع الدائم فيعثر على ماء الحياة لينقذ

كل التعساء. ثم دلّه على الطريق إلى بلاد الربيع، حيث ماء الحياة، الكائنة وراء جبل قاف. صحا على صوت نفخ، فتح عينيه ليرى تنيناً يصعد الشجرة ليهاجم عش طيور، فرفع حجراً ضرب به التنين، الذي أصيب برأسه، وسقط إلى الأرض ميتاً. كان هذا ديدن التنين في كل عام: كلما تضع العنقاء بيضها يراقبها حتى يبلغ فراخها سن الطيران فيهاجمهم ويأكلهم، وهو قد جاء هذه السنة كعادته، إلا أن أحمدك لم يدعه يفعل.

ويعود أحمدك إلى النوم، فتجيء العنقاء من الجبل لتطعم فراخها فتجد شخصاً نائماً تحت الشجرة، فتعود إلى الجبل لتجيء بصخرة تضربه بها على رأسه لأنها تتصور «هذا الذي يأتي كل سنة فيأخذ فراخي، ولا شك في أنه جاء هذه السنة ليفعل الشيء ذاته، فلأعلمنّه!».

ولكن الفراخ تشرح الموقف للأم، فتلقي العنقاء الصخرة جانباً، وتأتي فتفرد جناحيها فوق النائم لتظلله، وعندما يستيقظ تعلمه بأنها ستقضي له كل حاجة.

تطلب منه أن يخبرها عن وجهته، فيفعل. تعطيه أولاً ريشة من جسدها كي يحرقها عند الحاجة إليها. ثم تحمله على جناحيها، وتوصله إلى مدينة كبيرة، أبوابها ضخمة، ملأى بالخضرة والبساتين والناس العاملين في الزرع والحصاد والعزف والرقص. «الحيوانات هناك لا تخاف من البشر، والغزال يرعى في أمان، ويأكل الأرنب علفه من أيدي البشر، وتغني الأطيار على الأشجار وقد اصطفت أشجار الفواكه على كل جانب».

ذهب إلى نبع غسل وجهه بمائه، فصار يرى البعيد، وانجلى بصره أكثر، وزادت قوة سمعه. وإذ عزف في مزماره، جاءته الخراف من أطراف الجبل حيث كانت ترعى، وفي أثرها فتاة في منتهى الجمال.

سألها: «ما هذه البلاد؟»، فأجابت: «هنا بلاد الربيع الدائم».

ـ «إنني أبحث عن ماء الحياة، فأين نبعه؟»، فضحكت الفتاة وأجابت: «كل المياه ماء حياة، ليس لهذا الماء نبع خاص».

ويحكي للفتاة حكايته، فتكرر قولها أن ليس لماء الحياة نبع هنا، بل كل المياه هي ماء الحياة، ولكن «إن لم يكن لأخويك حسّ حرية فلا تتلف وقتك بلا جدوى، لأن ماء الحياة لن ينفعهما».

وبدلاً من الذهاب إلى المدينة كما كان يريد، تدعوه الفتاة إلى بيتها حيث توصي به أمها.

يزداد حباً للفتاة يوماً بعد آخر، ويفرغ من مشاهدة المدينة، فيطلب من أم الفتاة أن تدله على عمل، ولما كان في مدينته الأصلية صبياً لعطار، وهو يعرف الأعشاب، فهي ترسله إلى العطار في رأس شارعهم، لأنه بحاجة إلى صبي، على أن يعود إلى البيت ليعيش فيه.

يعمل عند العطار نهاراً، ويعيش بقية الوقت مع المرأة وابنتها، ويتعلم القراءة والكتابة فيصير بمقدوره أن يدير المحل بمفرده، ويتعلم الحدادة والنجارة، لأن أباه سبق أن أوصاه بأن يتعلم حرفة. ثم أقام دعوة كبيرة وتزوج الفتاة وعاش معها بسعادة، غير أن همّه الوحيد كان أنه لا يدري ما الذي حلّ بأبيه وأخويه، وأنه مهما سأل من التجار والمسافرين لا يلقى جواباً، إلى أن يأتيه زبون مرة من بلاد نثر الذهب، وبعد أن يستمع لسؤاله وشروحه، يطلب منه هذا ألا يكفر، فمن يسأل عنه «ليس حَسَني الأحدب بل نبينا»، ويشرح له أفضال هذا النبي وهدايته لهم، ووعوده لهم، ومواعظه، فحق عنده كلام الدرويش.

وعندما يحصل على معلومات عن أخيه الآخر، حسيني الأقرع، ويعرف أنه منشغل بالنهب هو الآخر، يعزم على إنقاذ أخويه.

يستأذن من معلمه، فيحذره هذا أولاً، ثم يسلّم بطلبه، طالباً منه أن يسأله شيئاً، فيطلب أحمدك علاج العمى والصمم. يوضح له معلمه أن علاجهما ماء حياة بلاد الربيع الدائم، فليأخذ معه قمقمة ملأى ماء، محذراً إياه: «ولكن ما تريد أن تفعله خطير جداً لأن العميان والصم أعداء عريقون لبلاد الربيع الدائم، متعطشون لدم أهلها، ذلك لأننا لا نعبد الذهب والفضة ونعيش أحراراً».

وتوادعا، وذهب إلى البيت فودع زوجته وطفله، وانطلق إلى بلاد نثر الذهب.

عندما وصل أول مدينة من تلك البلاد وجد أهلها عمياناً قذرين مرضى مقيدين بالسلاسل، تشبه بيوتهم أوجار الحيوانات، يعملون من الصبح حتى الليل، تحت ضرب السياط. «أرضهم موات، فرّت طيورهم ويبست أشجارهم»، متعتهم الوحيدة تدخين الأفيون وشرب العرق. فرقّ لحالهم، وعزف على مزماره لحناً تعلمه في بلاد الربيع الدائم فتجمع الناس حوله، وجاؤوه بأكياس الذهب، وسقطوا أمامه على الأرض ساجدين، فرفض ذهبهم وطلب أن يسمحوا له بعلاجهم.

يقوم بينهم صخب كبير، وأخيراً يوافق نفر منهم. مسح أحمدك على أعينهم بماء القمقمة فأبصروا، وما أن أبصروا حتى ارتعبوا من بؤس حياتهم، فعزموا على مخالفة الأثرياء والبلطجية وكسروا سلاسلهم، وأحرقوا كلام حسني ـــ الذي كان ينشر بينهم بحروف بارزة. وصل الخبر إلى العاصمة، فارتبك حسني، وتذكر ما قاله العفريت في البئر: احذر من ماء الحياة. فأوعز بالقبض على من شفيت عيناه، وخاصة «ذلك الكافر الملحد، الذي جاء من بلاد الربيع الدائم كي يضلل الناس عن طريق الدنيا والدين»، وحشوهم بالشمع الموقد والدوران بهم في المدينة ليصيروا عبرة للآخرين.

ولكن الذي قبض على أحمدك كان تاجر عبيد طمح أن يبيعه بأكثر من مبلغ الجائزة الموعودة، فلم يسلمه بل باعه، وأخذه من اشتراه إلى بلاد القمر الساطع. وفي الطريق يشاهد قوافل الأفيون والعرق في اتجاه، وقوافل الذهب في الاتجاه المقابل. وعندما وصل أولى مدن بلاد القمر الساطع رأى البؤس والعذاب، وبليّة الصمم والبكم. وبدلاً من الحقول لم يجد غير مزارع الخشخاش، ومداخن معامل التقطير شغّالة ليل نهار «لم يكن هناك كتاب ولا جريدة ولا آلة موسيقى ولا حرية، وقد طارت الطيور هاربة من هذه البلاد...». راح يعزف فلم يقترب منه غير جمل هزيل. رقّ لحال الناس، فأعطى بعضهم ماء الحياة، ولما شربوه صارت آذانهم تسمع وانطلقت ألسنتهم وتحركت رؤوسهم، «فألقوا بأحمال الذهب في النهر، وفي الليلة ذاتها أحرقوا عدة معامل عرق، وداسوا مزارع الأفيون بالأرجل».

وصل الخبر إلى العاصمة فجاء أمر حسيني الأقرع بحبسه. جاء الشرطة والعسس وقيّدوه، وتقرر حشوه بالشمع المذاب والدوران به في المدينة كي يصير عبرة! وتذكر في سجنه ريشة العنقاء، فتحايل على سجانه وصعد إلى السطح حيث أشعل الريشة فجاءت العنقاء وحملته على جناحها، وعادت به إلى بلاد الربيع الدائم.

ولما عرف حسيني الأقرع ثارت ثائرته، ثم تواطأ مع حسني الأحدب على شن الحرب ضد بلاد الربيع الدائم.

ويشنان هجوماً ليلياً، وحذراً من ماء الحياة عزما على ملء الآبار بالماء القذر وسدّ عيون الماء كي لا يشفى جنودهم ولا يعوا، ولما كان مواطنو الربيع الدائم فوجئوا بالهجوم، فقد أعمل المهاجمون تقتيلاً وفساداً، وأجبروا الناسَ على تدخين الأفيون وشرب العرق.

أما أحمدك، فأخذ يكافحهما وجيشهما باقتناص البعض، وإتلاف مياههم، وإيصال ماء الحياة إلى بعض جنودهم.

ونظراً لأفضلية سلاح الربيع الدائم، ولنفاد مياه المهاجمين، وشرب جنودهم من ماء الحياة، فشل الهجوم وتمرد جنود المهاجمين على قادتهم، واتحدوا مع الربيع الدائم وعادوا إلى بلادهم، حيث تخلصوا من حسني وحسيني.

وعاد أحمدك مع زوجته وطفله إلى أبيه، الذي عمي على فراقه، فأعطاه من ماء الحياة حتى أبصر، وعاشوا جميعاً حياة هنيئة وديعة.

* *

هذه واحدة من قصص وروايات صادق هدايت القليلة المكتوبة من دون هلوسة، بل هي مكتوبة ببساطة تامة، بأسلوب حكايات الأطفال، كما أن حبكتها بسيطة دون تعقيد ويضفي الجو الخيالي، جو ألف ليلة وليلة، عليها سحره الخاص. وليس في لغة القصة ما يلفت النظر، فالكاتب ــ في ما يبدو ــ عازم على إبلاغ رسالة، ولا يريد لقارئه أن ينشغل عن هذه الرسالة بأمور أخرى.

## ٥ ــ البوم الأعمى(*):

وقد كتبها هدايت في بومبي، الهند، سنة ١٩٣٧.

وهي نتاجه الوحيد الذي نشره في كتاب مستقل، مصرحاً بأنها رواية. وهي ما يستشهد بها كل من يمجد صادق هدايت بوصفه رائد الرواية.

حدث يحكى على لسان متكلم مفرد يروي أحداثاً تجري له، وتدور معه:

---

(*) ترجم الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا هذه الرواية ونشرها مع قصص قصيرة للكاتب في سبعينيات القرن الماضي، وقد ترجمتها ثانية الدكتورة زبيدة أشكناني وأصدرتها عن دار قرطاس في الكويت سنة ١٩٩٥.

يرى يوماً فتاة يحار في وصف جمالها. وبعد أيام، عندما يعود إلى بيته، يجدها عند بابه تنتظر، يفتح الباب ويفسح لها، فتدخل البيت كمن يعرفه، ويلحق الراوي بها. تدخل غرفة نومه، وتستلقي على فراشه. «لم أكن أدري إن كانت تراني أم لا، أكان يمكنها أن تسمع صوتي أم لا. يبدو أنها لم تكن في حال خوف، ولا ميل للمقاومة عندها. كما لو أنها أتت بلا إرادة».

ينظر إليها فإذا هي لا تتحرك. يلمسها فإذا بها باردة تماماً. يتحسسها فلا نبض عندها. «جلبت المرآة ووضعتها أمام أنفها، ولكن لم يكن فيها أدنى أثر لحياة». فيتعرى أخيراً وينام جنبها ويلتفّ بها، علّ حرارته تبعث فيها الحياة، ولكن بلا جدوى!

وبما أنه رسام، فهو يشرع برسمها، ولكنه لا يوفّق «لا أدري كم مرة رسمت وجهها حتى قريب الصبح، ولكن أية صورة منها لم تكن توافق هواي، فكنت أمزق كل ما أرسم ــ لم أكن أتعب من هذا العمل، ولا أحس مرور الزمن». ولما يرسم ما يجده أحسن صورة لها لا يستطيع رسم عينيها ونظرتها! ولكنه يحس بها تتورد قليلاً، وتفتح عينيها، وكأنها تحس بوجوده لأول مرة، لتغمضهما مرة أخرى، فيتلقف النظرة ويرسمها، ولا يمزق الصورة هذه المرة!

يتصورها بعثت، ولكن عندما يفحصها يجدها ميتة، وقد بدأت الحشرات تتجمع حولها. أبعثت حقاً؟ كيف بعثت؟ أكان ذلك رؤيا؟

ينوي أن يدفنها، ولكنه لا يريد أن تقع عليها عينا أحد. فيقرر تقطيعها، وأخذها إلى مكان بعيد، ودفنها بعيداً عن أعين البشر!

يقطعها، ويجمعها في حقيبة، ويغطيها بالثوب الأسود الشفاف نفسه الذي جاءت به، ويحملها. يا لثقلها! يتمنى لو يجد أحداً يساعده في حملها، فلا يجد.

يحدق، في غبش الصبح، إلى البعيد، فيرى شخصاً. قبل أن يطلب منه شيئاً يعرض هو عليه أن يخدمه، ويجده مستعداً لا للحمل فقط، وإنما معه عربة موتى، ويعرف أنه يمارس نقل الموتى حرفةً، كما أنه يصنع توابيت أيضاً! وهو يخبره بهذا ضاحكاً. يأخذ الراوي إلى منطقة غريبة. ثم يقول إنه خبير في حفر القبور أيضاً، ويحفر له فعلاً. ولا يأخذ نقوده ــ القليلة أصلاً ــ فهو يعرف بيته، ثم أنه عثر على كوز من آثار مدينة ري القديمة أيضاً، يعتبره بديلاً جيداً عن أجرته.

وقبل أن يدفن الراوي الفتاة، يشتهي رؤيتها، فيفتح الحقيبة ليجد الديدان شرعت بالعمل، ولكنه يرى أيضاً أن عينيها تحدقان إليه. يغلق الحقيبة، ويدفنها، وينقل إلى تراب قبرها بعض زهور النيلوفر، ويسوّي الأرض. وقبل أن ينصرف يتفحص وضعه فيجد نفسه مترباً ملطخاً بالدم، وقد بدأ زنبوران ذهبيان يحومان حوله، وقد التصقت ديدان صغيرة ببدنه!

وأراد أن يزيل الدم بلعابه، ولكنه ينتشر على كل جسده، ويزداد كثافة ولزوجة. وعند العودة، لا يجد العجوز ولا عربته، وهو لا يستطيع الرؤية أصلاً، بل لا يبالي إن وصل إلى مكان ما أم لم يصل. وإذا بقهقهة العجوز تأتيه. ويوصله بعربة نقل الموتى إلى المدينة، بعد أن يهديه زهرية وجدها في قبر.

عندما يصل الراوي إلى بيته يتفرج على الزهرية، وإذا عليها صورة امرأة ذات عينين سوداوين كبيرتين لوّامتين (عينا الفتاة إياها!). «ربما كانت روح رسام الزهرية، أثناء رسمه، قد حلّت بي فتحركت يدي بإرادته هو».

ويدخل في مونولوجات، وتداعيات، يصف فيها حزنه وانفعالاته المختلفة على فراقها، ويصف شكل الفتاة ولقاءه إياها، وتواصله مع رسام الكوز وتفكيره فيه، ويتأمل حاله ــ وهو في بيته بعد كل ما جرى. ثم يستعرض الرؤى الكابوسية لحياته: قصاب، شقق اللحم، وإلخ.. وهو لا يذكر له أماً، وقد ربته

قريبته، لذلك أحب أن يتزوج ابنتها. وقد كان أبوه وعمه توأمين، لا فرق بينهما حتى في الصوت والأخلاق. ويصاب أبوه في عقله، فيختلط ذهنه وينسى ابنه، حتى يتصور الأهل أنه العم لا الأب!

ويتذكر أن ابنة عمته التي تزوجها هي أخته في الرضاعة، أي أنه كان مجبراً على الزواج منها. وهي قد سلمته نفسها مرة واحدة، على سرير موت أمها. ولأبيها أوصاف العجوز سائق عربة نقل الموتى. وقد شهد تسليمها نفسها للراوي من نافذة الغرفة المجاورة، فضحك مثل ضحكة ذاك.

لذا، فلنا أن نتساءل: أهو نفسه؟!

كما أن الأم الميتة تتفرج بنظرة ساخرة.

وبما أن زوجته لم تكن عذراء، فهي لم تسلمه نفسها مرة أخرى! ولم تسمح له حتى بقبلة! مع أنها أعدت منديل العرس المعروف حين سلمته نفسها.

ثم يعرف أن لها عدداً من العشاق، وما أن يعرف بأحدهم حتى يبذل أقصى جهده للتعرف عليه.

إنهم مختلفون، ولكنهم جميعاً صبيان بائع كوارع! «أعرف الآن أنها أحبتهم لأنهم كانوا عديمي الحياء، حمقى، ومتعفنين».

«أسميتها القحبة، لأنه ما من اسم غيره ينطبق عليها هذا الانطباق ـــ لا أريد أن أقول (زوجتي) لأنه لم تكن ثمة حال زوجة وزوج بيننا، فأكون كذبت ـــ .. لم تكن تحبني قط ـــ كيف يمكن أصلاً أن تحب أحداً؟ امرأة مهووسة تحتاج إلى رجل للشهوة، وآخر للغرام، وآخر للتعذيب ـــ لا أتصور أنها تكتفي حتى بهذا التثليث. ولكنها انتخبتني للتعذيب قطعاً».

وتبقى هذه الكوابيس والرؤى تطالعنا على مدى صفحات الكاتب المائة

والثمانية والعشرين. وبما أن البطل ــ الراوي يستعمل المخدرات، فلا ندري على وجه الدقة إن كانت هي التي توحي له بهذه الرؤى، أم أنه يستخدم المخدرات لهضم رؤاه، أو أنه لم يعد يتأثر بالمخدرات فهي لا تؤثر فيه.

* *

أمجمل القصة عبارة عن هلوسة أفيون أو كوكايين انتقل إليه صادق هدايت لاحقاً في ما يقال؟ أم أن الرواية ــ كما يقول أحد أبرز النقاد المعاصرين في إيران، الدكتور رضا براهني:

«فرار فني لرجل متنفر من سوءات عصر تبدل رجاله إلى حفنة ظلال، ووظيفة الفنان هي التذكير بوجوه ظل أكبر ينبغي أن تجده حفنة الظلال تلك في حالة اكتساب قوة الاستشراف»؟

* *

ولا يمكن اعتبار تنقلات الكاتب في الزمان تحطيماً للزمن بالمعنى الذي راج أخيراً، فهو إنما يتنقل بين طفولته وحياته الراهنة. وإذا أعجبنا بقدرته على الوصف والتحليل النفسي، فإننا لابد أن نتساءل عما أراد بهذه الرواية؟

* *

ولكن على أية حال، تبقى مأثرة صادق هدايت، كما قلت قبلاً، أنه قدم رواية حديثة خالصة: شخصيات تنمو، وأحداث ــ ولو في ذهن الراوي/ الشخصية ــ تدور وتتصاعد. بل لقد ذهب هدايت أبعد من ذلك، بالنسبة لتلك الأيام، إذ ترك نهاية القصة مفتوحة، مؤجلة.

وإذا لم يكن في لغة القصة ما يلفت النظر، فلعل بساطة هذه اللغة هي مما يزيد في قوة جذبها، إذ ابتعد بها الكاتب عن نثر زمانه المتقعر، المسجوع.

## الهوامش

(١) عصر ـ ولغة ـ ما قبل دخول الإسلام إلى إيران.

(٢) من مجموعة تحمل الاسم نفسه، صدرت سنة ١٩٤٣.

(٣) Gent أو Ghent.

(٤) المقصود غرفة تظهير وطبع الصور الفوتوغرافية.

(٥) شارع الملاهي في طهران قبل الثورة الإسلامية، وخاصة إلى عقد الستينات الماضي.

(٦) = (الأب، أو العجوز، الجبلي). وهي قصة ـ حكاية تجارية.

(٧) = (الأخ السيد كل).

(٨) بركان خامد يقع شرقي طهران، يقترن اسمه بأساطير عن منشأ إيران وأبطالها، ويُتخذ تصويره رمزاً للدلالة على إيران.

(٩) لمارك توين أربع قصص تتعلق بقصة الخليقة وما حولها: «مذكرات آدم»، «مذكرات حواء»، «ذلك اليوم في الجنة»، و«أوراق من مذكرات الشيطان». وهذا التشابه يؤيد عندي تأثر صادق هدايت بمارك توين.

(١٠) وسيلة كالغليون، أضخم، مكان الأفيون فيها من طابقين بما يسمح لتستقر تفالة الأفيون في أدناهما.

(١١) تحكي الأساطير الإيرانية عن اختيار ملك بعد وفاة آخر ـ لا وارث عنده عادة ـ بهذه الطريقة، حيث يقوم طائر الـ«هُما» ـ وهو من فصيلة العقبان، ويسمى أيضاً، لذلك، بطائر السعد ـ باختيار الملك الجديد.

# الفصل الثاني

## بُزُرْگ عَلَوي

عاش بزرگ علوي، أو كاد، القرن العشرين كله، فقد ولد سنة ١٩٠٣ وتوفي سنة ١٩٩٧.

ورغم كونه من عائلة دينية ــ أو ربما لكونه منها؟! ــ فقد استهوته الأفكار الاشتراكية التي كانت تنشرها مجلة «دنيا» ويعمل الحزب الاشتراكي الإيراني على ترويجها، وعن طريقها اطلع على الفكر الأوروبي الجديد عموماً، واستفاد من الكتابات الماركسية الكلاسيكية.

وعندما ألقي القبض على الدكتور «تقي أراني» ــ أحد أعضاء الحزب الاشتراكي الذي كان يعمل على تشكيل تنظيم شيوعي ــ ألقي القبض معه على كثير من أصدقائه وطلابه والموظفين العاملين تحت رئاسته في وزارة التربية، باعتبارهم أنصاره وأعضاء تنظيمه جميعاً! وهؤلاء من عرفوا في تاريخ الحركة السياسية الإيرانية الحديثة، والاشتراكية منها بوجه خاص، باسم جماعة الثلاثة والخمسين. وكان علوي من هؤلاء، وقد أمضى في السجن خمس سنوات، تمكن أثناءها من تهريب بعض أوراقه التي نشرها في ما بعد باسم «قصاصات السجن».

وكان قد تعرف قبل ذلك على صادق هدايت، وشكل معه ومع آخرين، المجموعة الأدبية التي ذكرناها في الفصل الأول والتي كان أفرادها يطلعون على الأدب العالمي الحديث، ويتبادلون تجاربهم الأدبية، يقرأ أحدهم على الآخرين ما ينتج، ويكتب بعضهم مع بعض أعمالاً مشتركة، أو ينشر أكثر من واحد منهم كتاباً مشتركاً مع آخرين يضم مواد مستقلة لكل منهم.

وعند تأسيس حزب توده (= الجماهير)[1] في أوائل الأربعينات، كان بزرگ علوي عضواً في لجنته المركزية.

وبعد الانقلاب ضد حكومة القائد الوطني الدكتور محمد مصدق، بقي علوي متخفياً، حتى سافر إلى النمسا لتسلم جائزة، ومنها عرّج على برلين الشرقية ليقيم فيها. وهناك عمل أستاذاً وباحثاً، وأسس عدداً من المجلات التي عنيت بالأدب والتراث الفارسيين، وترجمت له رواية «عيناها» إلى الألمانية مرة، وإلى الإنكليزية مرتين. ولم يعد في هذه الأثناء إلى إيران إلا في زيارات قصيرة، ولكنه كان قد أوصى بأن يكون دفنه في إيران، وكان له ما أراد.

عدا كتاباته التراثية، صدرت له في حياته مجموعات قصصية وروايات هي: «دِيْو، ديو (= عفريت، عفريت) ــ ١٩٣١»، «حقيبة الملابس ــ ١٩٣٤»، «قصاصات السجن ــ ١٩٥١»، «٥٣ نفراً ــ ١٩٥١»، «عيناها ــ ١٩٥١»، «المتزعمون ــ ١٩٧٨»، «ميرزا (= الأفندي) ــ ١٩٧٨»، و«الأرضة ــ ١٩٨٩»، وصدرت له بعد وفاته «گيلك» (= الرجل الگيلاني) و«الرواية».

قرأت الكثير من كتابات علوي، ولكن ما يؤسفني أنني لم أتمكن من الوصول إلى «حقيبة الملابس» التي تعتبر واحدة من أبدع إنجازاته.

وبوصفه من المؤسسين، فمن الطبيعي أن يجد القارئ في كتاباته هفوات البادئين وسقطات المجربين. وسأستعرض هنا ما قرأت:

### ١ ـ ثلاثة وخمسون نفراً:

ليس هذا تقريراً عن حياة السجن ـ فقد كان علوي وضع ذلك التقرير في ما أسماه بـ«قصاصات السجن» ـ ولكنه لا يرقى أيضاً إلى مستوى العمل الروائي. وأسارع فأقول بأن الكتاب ليس قصة كل واحد من المعتقلين الثلاثة والخمسين وإنما هو قصتهم جميعاً. ولكن شخصية الدكتور أراني فرضت نفسها ـ دون مراء ـ على العمل كله، لذلك فهي تتألق فيه ويزهو قلم الكاتب بها عندما يتعرض لها.

لقد سجن الثلاثة والخمسون في أواخر عقد الثلاثينات، وأجريت محاكمتهم في ١٩٣٨/١٢/٢٢، وحكم عليهم بالسجن مدداً طويلة أحكاماً هي الأولى من نوعها، لأنها اعتبرت أول أحكام بسجن أفراد لمعتقداتهم السياسية، كما شجبت لاعتبارها قاسية طويلة المدة. وخرج كل المحكومين قبل انقضاء محكوميتهم، نظراً لإسقاط الحلفاء دولة رضا شاه أثناء الحرب العالمية الثانية، إلا الدكتور أراني الذي اغتيل في سجنه.

سجن شرقي في بلاد عريقة في الدسائس والمؤامرات، وفي امتهان كرامة الإنسان الطليق، فكيف بالسجين! وفي عنفوان تفرعن رضا **خان**، ضابط القوزاق الذي استولى على السلطة من آل قاجار ليقيم نظاماً جديداً اعتبره تحديثاً لإيران، لم ينس ـ مع إقامته ـ الاستئثار لنفسه بكل ما هو جيد في إيران، من كنوزها القديمة إلى أراضيها الشاسعة، ومن إغداق الألقاب على نفسه إلى

الاستحواذ على واحدة من بنات العائلة المالكة السابقة ليؤكد **بامتطائها** استيلاءه الكامل على السلطة!

وإذا عرفنا أن رضا **خان**، الذي استهل تسلله إلى السلطة بقتل شاعر داخل منزله واغتيال صحفي أمام مبنى البرلمان، ووطد حكمه بأن خاط فم شاعر ودس السم لرجل دين معارض[٢]، حتى صار رضاه **شاه**، فلنا أن نعرف كيف كان سجنه، خاصة وأنه كان له في السجن، السياسي طبعاً، طبيب[٣]، كان السجناء يرجون ألا يزورهم ويرفضون برعب قاتل أن يزوروه!

وقد كان رضا شاه معجباً بكمال أتاتورك، وأراد أن يحول بلاده إلى جمهورية، كما فعل ذاك، ولكنه فشل، فاكتفى بأن حدّث بلاده بأن وحّد زي رجالها ومنع الحجاب عن نسائها! ثم انتهى معجباً بهتلر الصاعد حديثاً إلى السلطة، والمقتحم حكومات أوروبا القديمة، ولكن حساباته جانبت التوفيق هذه المرة، فكلفه ذلك الإعجاب عرشه في ما بعد، ولكنه تعلم من هتلر سادية النازية الحديثة ليصنع من خلطها مع الاستبداد الشرقي ملغمة جديدة هي ما يصفها بزرگ علوي في حياة السجن!

في سجن «قصر»[٤] عاش هؤلاء السجناء على حصة «من كاسة نقيع لا يُعرف ما هو، وكاسة حساء، وكأس شاي وأربع حبات قند في اليوم.. ولكنهم كانوا يحسون الخزي من أن يستفيدوا من فواكه شجرة زرعوها وسقوها بأيديهم». في هذا السجن «رأيت سجناء يصلون ليالي سجن «قصر» الشتوية الباردة بأصباحها ببطانية واحدة، وأجدهم في الصباح التالي سعداء نشيطين.. وإن حصلوا ــ نتيجة لشغل السجن المتعب والرتيب ــ على بضعة قروش فقد كانوا ينفقونها أيضاً من أجل جلب صحيفة مهربة إلى السجن»!

ويصف الكاتب في فقرات طويلة ممتعة مراسم الحصول على الجريدة يومياً، وتبديل الطريقة أكثر من مرة تجنباً للانكشاف لسلطات السجن، وتمكن السجناء من مواصلة ذلك ثمانية أشهر، رغم التشديد والرقابة! ولم تكن تلك بالمهمة اليسيرة، فقراءة السجناء السياسيين لجريدة، عند سجانيهم، «كما لو أنه في بلد، مثل إيران، يرى الدكتاتور شخصياً، بأم عينيه، عدداً من مصانع الأسلحة تعمل ليل نهار في إنتاج المدافع والدبابات».

ليس ذلك فقط، بل والكتب أيضاً: يتفننون في استقدامها وتهريبها إلى الداخل والاستفادة منها: «تعلم بعضنا القراءة والكتابة، وتعلم كثيرون لغات أجنبية.. وتعلّم كثير من الثلاثة والخمسين، خلال السنوات الثلاث التي قضوها في السجن، لغتين على الأقل، بينما تعلم إحسان طبري(٥) اللغات الإنكليزية والألمانية والتركية بشكل جيد، كما تعلم قليلاً من الفرنسية». ويحفظون الكتب من غارات التفتيش المتكررة، ولكن وسائلهم في ذلك تنكشف، فيدفنونها في أرضية ساحة السجن، ويكتشف سجين عادي ــ كان حاقداً عليهم ــ الأمر فيشي به إلى إدارة السجن، و:

«فوجئنا في اليوم التالي. كل حارس دخل الممر السابع [حيث كان الثلاثة والخمسون] مصحوباً بسفود طويل. لا أظن أن أية هيئة حفريات قد توصلت ــ في حفرياتها وتحقيقاتها الأثرية ــ إلى كل هذه النفائس. في إحدى الروايات أنهم أخرجوا سبعة وخمسين كتاباً، وفي رواية أخرى: مائة كتاب ونيف، من تحت الأرض! كتباً سميكة جعلت رئيس السجن يتعجب متسائلاً من أي طريق دخلت السجن: معجم لاروس، تاريخ البيهقي، أنواع وأشكال كتب الطب والرياضيات، روايات بلغات مختلفة من روسية وإنكليزية وفرنسية وألمانية، وخارطة لأوروبا طبعت ونشرت بعد ضم تشيكوسلوفاكيا إلى ألمانيا».

ويروي الكاتب أمثلة عن النتائج الإيجابية لمساعي السجناء التثقيفية والتثقفية، فشعبان «الذي كان في وقت ما عاملاً أمياً، هز بخطابه البسيط المحكمة عند محاكمة الثلاثة والخمسين. باع خبزه عدة مرات فهيأ كتابه الأول كي يتعلم القراءة. أخذ مأمور السجن الكتاب منه عدة مرات. أخيراً ذهب إلى رئيس السجن، فسأله: (ما المانع في أن أتعلم داخل السجن؟ أي مكان في الدنيا سيتضرر؟)، فقال له رئيس السجن مجيباً: (أنت الآن أمي ولسانك بهذا الطول، أتريد أن تتعلم لتصير قائداً؟ اذهب، فلا داعي لأن تتعلم). ولكن، على عمى عيني رئيس سجن العهد الأسود ذاك فإنه لم يتعلم مجرد القراءة فقط، بل وما يمكنه أن يعلّم رئيس السجن أن ما من قوة تستطيع الصمود أمام العلم والمعرفة».

ولا ينسى الكاتب الإشادة بالسياسيين الذين أودعوا السجن قبلهم، بتهمة إنشاء تنظيم شيوعي أيضاً، الذين أضربوا في السجن ليحققوا مطالبهم وليعرف بهم مواطنوهم خارج السجن.

ويتحدث عن أنواع التعذيب التي تحمّلها السجناء، وهي بشعة وبدائية، ولكنه يصر على أن: «الشيء غير القابل للاحتمال في السجن.. هو الإهانة»، ولذلك فليس غريباً أن يموت أهالي عدد من السجناء من غصة الإهانة! فقد كانت «الإهانة أكبر بلاء ينزل على رؤوس هؤلاء». وكان السجناء أنفسهم يحتملونها، والسبب: «أن الإهانات التي كانت توجه إلينا لم تكن ذات تأثير يذكر. لو كان رضا خان، وجهازا الشرطة والعدلية، يوجهون إلينا إهانة، فإن هذه الإهانة ما كانت تؤثر فينا كثيراً، لأننا كنا نعتبر أنفسنا أكبر من ذلك، لقد كنا نعتبرهم مجرمين يتفانون من أجل وجودهم وبقائهم، وإضافة إلى ذلك، فقد كنا نعتقد أن الإهانات التي يوجهها هذا الجهاز لنا تشبه رفسة يوجهها حمار لصاحبه»!

وإذ يشير الكاتب إلى دناءة السجانين في معاملتهم للسجناء، فهو لا ينسى الإشارة إلى تضامن السجناء، من غير الشيوعيين، معهم: «مع أن فَرُخي[٦]، وكان مايزال حياً، لم يشاركنا في الإضراب، إلا أنه كان من صميم قلبه معنا، وقد نظم لنا هذه الرباعية:

مائة رجل كالأسود تعاهدوا وأعلنوا للسجن الجوع الأسود الجائعة لحفظ أهدافها

تسابقت في التخلي عن رؤوسها وأرواحها بمنتهى الحماس والاندفاع

* *

والكتاب، وإن كان مجموعة ملاحظات، أو أنه تقرير عن حياة المجموعة في السجن، إلا أنه ينتظمه خيط يضم كل عناصره إليه: التعريف بقائد المجموعة، الدكتور أراني، والإشادة ببطولته وعمله على رفع معنويات رفاقه وتوجيههم وتعريفهم على بعضهم بعضاً عندما فتحت الزنزانات الانفرادية (بعد أن ضاق السجن بعدد السجناء الكبير).

«وكان الدكتور أراني يساعد معنوياً حتى المجرمين حقاً من المعتقلين، وكذلك العقداء والعمداء الذين أدخلوا السجن عن السرقة وخيانة الأمانة. وكان رأي الدكتور بشأن هؤلاء أنهم إن كانوا مقصرين فإن هذه الحكومة وجهازها، القائمين على السرقة والجريمة، لا يحق لها القضاء بشأنهم...».

«كان الدكتور أراني يعلم هؤلاء جميعاً كيف يقاومون إزاء الإدارة السياسية ومديرية المعتقل.. كان يقول لهم الآتي: (افرضوا أن رأسكم موضوع في مستقره العادي، وأن حربة موضوعة تحت **حنجرتكم** بحيث أنكم إن هززتم رأسكم [يقصد إلى أسفل، بعلامة نعم] تنغرز الحربة في **حنجرتكم**. وعلى هذا، ينبغي أن ترفعوا رؤوسكم دائماً ولا تنزلوها. إن أي سؤال تطرحه الإدارة السياسية على السجين، يشبه رأس الحربة الموضوع على حناجركم هذا. إن

**قلتم «لا» فقد أبعدتم وخز الحربة عن حناجركم، وإن قلتم «نعم»، وأيدتم، فإنكم تقتلون أنفسكم بأنفسكم)».**

وقد صارت كلماته هذه شعاراً للمناضلين السياسيين، على اختلاف مشاربهم ومواقفهم، ورمزاً للصمود في الأدب الإيراني.

«كان يحرص بكل طريقة على محادثة السجناء، يخادع السجانين أو يغريهم. يلقي شعراً من إنشائه، يغني بالفرنسية أو بالألمانية لإيصال ما يريد قوله». وبلغ من نشاط أراني أن رئيس المعتقل قال: «ينبغي تسمية المعتقل بمعتقل الدكتور أراني». ولذلك، فليس غريباً أن أخته، في أول زيارة لها إليه في السجن، حيته قائلة: «لا عار على الأسد في السلاسل!».

ويعرج الكاتب ليصور لنا محاكمة الثلاثة والخمسين: أجريت محاكمتهم في مبنى محكمة الجنايات، المزينة قاعاته الداخلية برسوم مجالس الأنس والحرب لملوك إيران القدامى: «لو بعثت الروح في تصاوير الملوك المرسومين على هذه الجدران، فلابد أن المحتفلين والمحاربين كانوا سيطأطئون رؤوسهم ويكفّون عن الأنس والقتال، وينصرفون إلى البكاء على حالهم وحال الشعب الإيراني.. كان القضاة ورئيس المحكمة، المدعي العام والمحامون جميعاً، بأرديتهم السوداء وياقاتهم البيضاء وتزييناتهم وأكمامهم الفضفاضة يبدون، أمام هذه التصاوير والأشعار المخطوطة على الجدران، خنافس مدعوة لعرس طاووس».

«لأن أحداً من الثلاثة والخمسين لم يذكر، حتى في استجواب الإدارة السياسية، حتى اسم الشيوعية، وقال أغلبهم إنه تعرّف على أفكار الماديين على أثر قراءة مجلة (دنيا)، فقد اعتبر قضاة المحكمة كلمة «مادية» مرادِفة للـ«شيوعية»، فإذا ما ذكر أحدنا ـ ضمن دفاعه ـ اسم المادية، كان

القضاة، ورئيس المحكمة ـــ الذين كانوا يعتبرون الملا صدرا آخر فلاسفة الدنيا، وغيره كفرة وزنادقة مطلقاً ـــ يعتبرون قوله ذاك اعترافاً ضمنياً بشيوعيته. ولهذا، فعندما رأى المتهمون أنهم إزاء حمقى وبلهاء من هذا النوع يعتبرون المنهج الفكري جريمة، فإنهم كانوا كلما يسأل رئيس المحكمة: هل تكلمت في منزل الدكتور أراني... عن الفلسفة المادية، يجيبونه فوراً: لا، أبداً، ليس أننا لم نتكلم عن المادية فقط، بل لم نتكلم حتى عن المثالية... سأل رئيس المحكمة الدكتور أراني: لماذا أسميت بيانات گوستاف لوپون بالترهات؟ وكان ذلك بالنسبة لرئيس المحكمة ـــ الذي يبدو أنه سمع باسم گوستاف لوپون في إحدى جلسات المنقل[٧] ـــ اعترافاً ضمنياً بأن الدكتور أراني شيوعي وقام بنشاط ضد أمن البلاد».

«وكانت رائعة محاكمة الثلاثة والخمسين نفراً خطبة الدكتور أراني. تحدث الدكتور ست ساعات ونصف. أذهل الأصدقاء والأعداء. كان الشرطة والضباط ينظرون إليه بأفواه فاغرة.. كان المتهمون يضحكون، والقضاة يخافون، وقلوبهم جميعاً تدق..

«أراد المدعي العام... مرة، أن يقاطع كلمته ولكن رئيس المحكمة لم يسمح له. كان رئيس المحكمة مجذوباً، نسي رئيس المحكمة لحظةً أنه أجير الحكومة السوداء وشريك المجرمين.. لم يكن رئيس المحكمة يستطيع أن يسمح لهذه الديدان الطفيلية أن تخدش هدوء ووقار رجل كبير كالدكتور أراني».

أما حضيض المحاكمة فكان يوم إعلان الأحكام: «كانت المحكمة جديرة بالتفرج: لم يعد ثمة خبر عن ذينك الجلال والجبروت الكاذبين، أو عن الأردية الطويلة والأكمام الفضفاضة ـــ التي هي تقليد سمج لملابس رجال الدين الأوروبيين في القرون الماضية. في أيام المحاكمة كان القضاة، بهذه

الملابس المزينة، يقلدون، ولكن قرار الحكم ــ الذي فرض على المحكمة من جانب مقامات أعلى ــ استولى عليهم بشكل صاروا معه يخجلون أن يقلدوا».

ولما كانت محكومية أراني أخف كثيراً من حجم «جريمته»، فإن السلطات تقتله في سجنه!

«إنني اليوم كلما أسمع أن أحداً، ولو من أقربائي الأقربين، توفي، فإنني لا أتعجب، لأنني أتذكر فوراً أن الدكتور أراني أيضاً مات. الدكتور أراني ــ الذي خلق من أجل نجاة الآخرين، الدكتور أراني، الذي ولد من أجل إنقاذ الحق من مخالب الظلم والنكبة والتعاسة ــ مات، فما العجب في أن تموت العجوز الفلانية في فراشها؟!».

ويعلن الاتحاد السوفييتي وإنكلترا الحرب على إيران، وتدخل قواتهما إيران، وتنتشر إشاعات عن فرار الشاه والوزراء، فتبدلت أوضاع السجناء:

«لو كان أحدنا ينظر قبلاً شزراً إلى حارس ما، كان عمله يعتبر إهانة للجهاز الحاكم وشخص الشاه، ولكن من يجرؤ اليوم أن يمتدح الشاه؟ لقد طالت ألسننا الآن».

ويتم إطلاق سراح المجموعة الأولى من جماعة الثلاثة والخمسين، وقبل أن يخرجوا يقترح أحدهم ــ إيرج إسكندري[٨] ــ الوقوف صمتاً خمس دقائق تجليلاً لذكرى الشهيد أراني: «خمس دقائق صمت... وقف كل الضباط والحرس الموجودون في القاعة الأولى بحالة استعداد. لم يجرؤ العقيد [رئيس السجن] على الخروج من غرفته».

* *

كما قلت سابقاً إن هذا الكتاب ليس رواية، كما إنه ليس مجرد خواطر عن السجن، ولكن هذه اللمحات الإنسانية، والاستطرادات التأملية، تقرّبه كثيراً من روح الرواية، وإن لم تكتمل شروطها فيه.

## ٢ ــ عيناها:

وعيناها اسم لوحة رسمها «الأستاذ»، الذي تبدأ القصة برواية وفاته مبعداً مغضوباً عليه سنة ١٩٣٨، وتضطر الحكومة إلى مواصلة الاحتفاء به نظراً لسمعته، ولأن الناس يرون أنفسهم في لوحاته. وهذه اللوحة بالذات «يقفون ويحدقون إليها ذاهلين، يتناقشون في ما بينهم، ويسعون إلى أن يدركوا سر العينين اللتين تقولان كل شيء، وفي الوقت نفسه تنظران إلى الجميع. كان الناس يسائلون أنفسهم، أي سر تخفيه هاتان العينان، ماذا تظهران، وكان كلٌ يقول ما يفهم. ولكن الآراء كانت مختلفة، ولهذا السبب كان النقاش يحتدم.

ونعرف أن الأستاذ عاش أكثر من ثلاث سنوات مبعداً في «كلات»، وأنه قليل الكلام، ورغم الملق المنتشر فهو لم يرسم صورة للشاه قط.

ولا يُعرف عنه أنه كانت في حياته امرأة، لكنه سمى لوحته «عيناها» لا مجرد «عينان». وعندما زار الشاهُ المدرسةَ التي يدرّس فيها، أراد ــ عند المغادرة ــ أن يكلمه وهو قرب سيارته، فوجده يوشك أن يولع سيجارة فانصرف مغضباً. كان وجوه المملكة يتوسلون إليه أن يرسم وجوههم، ولكنه لم يفعل رغم حاجته المادية.. ولكنه رسم عدة لوحات لخادمه «رجب».

أعجب بأحد وزراء الشاه، وعرف الوزير بذلك، فصار يزوره والأستاذ يرسمه، حتى سأله يوماً، بعد أن قال له إن الشاه معجب بعمله: ألم يرد أن يرسم

لوحة للشاه؟ فقال: كلا. انظر إلى هذه اللوحات حولك، أنا أحب هؤلاء فرسمتهم! فغضب الوزير، وكفّ عن زيارته لإكمال لوحته، ولكنه بقي مع ذلك يتظاهر بالإعجاب به واحترامه.

ولما كان الراوي يؤرخ لحياة الأستاذ (ماكان)، فهو يسعى للبحث عن ذات العينين، حتى يكتشفها ويلتقيها، وهو يجمع أكثر ما يمكن من معلومات من «رجب»، مع أن هذا لا يبوح بالكثير، لكن الراوي «ناظم» المدرسة، بينما رجب «فرّاشها»، لذلك يحصل منه على بعض المعلومات.

يعمل الناظم على تعطيل الدراسة في يوم ذكرى وفاة الأستاذ، وينتظر مجيء المرأة. كانت قد جاءت في السنة الرابعة أو الخامسة من تنفيذ هذه الخطة، بعد خمس عشرة سنة من وفاة الأستاذ.

مع أن عيني هذه المرأة لا تشبه عيني امرأة اللوحة، إلا أن نظرتها وفمها وأنفها، وما حول فمها، هي هي. وينتبه الراوي إلى أنها ذكية لعوب، فيدرك أنها تحتاج إلى طريقة معاملة خاصة وإلا فهي ستفلت منه. وتقول له أثناء الحديث إن اسمها (فرنگيس)، فيتأكد أنها هي، لأن رجباً سبق أن قال إن المرأة جاءت إلى المتحف، والراوي كان قد بحث في سجل أسماء الزائرات فوجد إحداهن باسم فرنگيس. كم كان يتحرق إلى أن يكون رجب حياً للتأكد، ولكن ذكرها اسمها أكد له شخصيتها. وأثناء توسلها إليه بأن يفتح لها المتحف ذلك اليوم، تلقي عليه نظرة لا يستطيع وصفها، بل يدري أنها كنظرة اللوحة، فينهار ويسمح لها.

ويعتبرها عدوته، لأنها في رأيه قتلت الأستاذ بفتنتها. ويواصل وصف حركاتها ونظراتها وأحاسيسه تجاهها. وفجأة تؤاتيه فكرة فيقوم لتنفيذهًا دون التفكير في عواقبها: كان الفرّاش قد فتح المتحف وأوقد فيه مدفأة، فذهب إليه

وصرفه، نظف لوحة «عيناها» ونقلها إلى المخزن، ثم ذهب إلى المرأة عارضاً عليها مرافقتها.

عندما فتح باب المتحف وأشعل النور جعل يراقبها ليرى رد فعلها، ولكنها كانت أبرع من ذلك! إذ لم يبدُ عليها أنها انتبهت إلى غياب اللوحة! وأخذت تدور وتتفرج وهو يراقبها.

ويتفق معها على أن يسلمها ــ في بيتها ــ اللوحة، ويأخذ منها «ما يريد» بشرط ألا يكون عديم الأدب. وتأتيه عربة ليلاً، فيخفي نفسه ما استطاع عن الحوذي «والسيارات عديمة الحياء تزمر». ويلتقيان، فيسلمها اللوحة، ويصارحها بأنه يريد كل ما يمكن من معلومات عن الأستاذ، فتبدأ الحديث: نشأت مدللة، في عائلة متوسطة، تعيش في رفاه، وتعودت أن تفتن الآخرين بجرأتها وكلامها في كل موضوع، حتى ما لا تفهم. ترسم. يخبرها أبوها بوجود الأستاذ، وبشهرته، وبأنه يعلّم. تذهب إليه ذات يوم فجأة، ومعها بعض لوحاتها. وإذ هي تنتظر منه ولو أبسط مديح، يجابهها بعدم اهتمامه وبرودته الشبيهة بالسخرية وعدم فسح أي مجال أو التلويح لها بأي أمل. وأثناء قصتها تحكي عن نفسها، وتشرح قلقها وتمردها ويأسها، وتعطيه قصة الأستاذ على دفعات.. أول حقيقة: لو أنها ذهبت معه فربما ما كانوا ليقتلوه، ربما كانوا يريدون إبعاده، ولكن هذا غير مؤكد. وقد سلمته نفسها مرة.

تشرّق وتغرّب في حديثها عن حياتها في باريس، ثم زيارتها لإيطاليا وملاقاتها أكبر رسام في العالم. سألها عن الأستاذ، وعن رسام آخر إيراني يعيش في فرنسا، فتبحث عن هذا لتجده بعد لأي إذ يتجنب الجميع إعطاء معلومات عنه. تجده، تلاقيه، وهو يمتدح الأستاذ: أنقذ حياتي. «لم أر في حياتي رجلاً بصلاحه وشجاعته».

لم تفهم معنى بساطة حياة هذا الرسام، وحماسته واندفاعه في العمل السياسي، وصراحته وحياته البسيطة مع خطيبته، وإلا لما كانت بلغت هذا المبلغ، ولما تسببت في موت الأستاذ. كانت الشرطة قد طاردت بضع مئات من الأشخاص واعتقلتهم، وكان الرسام من بين المطلوبين، ولكن الأستاذ أنقذه: خبأه في بيته أسبوعين، ثم استحصل له دفتر نفوس مزيفاً، وعندما تبدل مدير الشرطة حصل له على جواز سفر.

إن خطيبة الرسام، التي تقص هذا الجانب على فرنگيس، لا تعرف اسمه الحقيقي، فاسمه الذي يُعرف به إنما هو اسم زائف.

وينفق عليه الأستاذ مدة حتى يتدبر أمر منحته الدراسية.

تحب فرنگيس الرسام وخطيبته، وتعمل في تهيئة وإرسال الجريدة التي يوزعها على الطلاب، وترسل له بالبريد مرتين بعض المال لمساعدته. تزوره ذات يوم فتجده مريضاً جداً، كبده عليلة، ويسألها إن كان عندها مال تقرضه إياه، ولما تجيب بالإيجاب يطلب منها أن تفتح حقيبته وتعطيه مظروفين فيها: هما المظروفان اللذان أرسلت له بهما المال! يعطيها إياهما، وينهرها مانعاً إياها أن ترسل له مالاً مرة أخرى، فهو غير مرتاح! ويقول ذلك بحسم! يفتح عينها على الحياة، وعلى استحالة صيرورتها فنانة. يحثها على الذهاب إلى إيران، ومحاولة التقرب إلى الأستاذ بتواضع، وإعلامه أنها عملت مع «خداداد» بضعة أشهر. «لا أدري أجئت إلى إيران كي أنقذ نفسي من البؤس والذل اللذين وقعت فيهما في طهران، أم أنني جئت إلى إيران كي أذهب إليه فألقي نفسي على قدميه وأطلب حبه، أم أنني جئت إلى إيران لأجعل من توصية خداداد وسيلة للتقرب منه والتعرف عليه، فأنتقم من الرجل الذي ألقى بي إلى سوء المصير هذا، أم أنني جئت إلى إيران كي أعيش حياة شريفة وأصير إنسانة نافعة».

ولم يعرف الأستاذ السبب أيضاً، لذا رسمها بهاتين العينين الوقحتين، فقد كان يتصورها جاءت إلى إيران للانتقام منه ولنكبته.

تعود إلى إيران وفي ذهنها أنها ستسيطر على الحركة المضادة للاستبداد، مادام الأستاذ (ماكان) هو الذي يديرها، وهي قد نسيت إهانته لها في مقابلتهما الوحيدة. ولكنها عندما تواجهه تنسى كل ذلك: «أحزنَ إحساسٌ غامض متقطع باطني فبدا لي أنني أواجه رجلاً يحتاج إليّ، يحتاج إلى روحي وجسدي. لا، أواجه رجلاً أعبده وأريد أن أسعده وأجد في أحضانه تلك السعادة التي كنت أتمناها».

يستجوبها الأستاذ عن الطلبة وعلاقة خداداد بهم، ويحذرها من وضع إيران، وضرورة التكتم والحذر وضرورة عدم اتصالها به، خاصة في البداية، لأنها قادمة حديثاً من أوروبا فهي تحت المراقبة. ولكنها لا تقدر خطورة وضعها في إيران بسبب علاقاتها العائلية، ومراكز أفراد عائلتها، ثم «إن حياتي من الشؤم والرتابة بحيث أن التورط مع الشرطة لا يمكن أن يكون إلا تغييراً مفرحاً». ولكن الأستاذ، مع ذلك، يعطيها رقم تلفونه! وبعد شبه إصرار منها يسمح لها بأن تتصل به تلفونياً وقتما تريد!

يطلب منها تعلّم الضرب على الآلة الكاتبة، فتتعلم: «أي عمل صعب متعب هو الضرب على الآلة الكاتبة!».

ويطلب منها ذات يوم أن تطبع خمسمائة رسالة من نص واحد، ويحذرها من مخاطر الأمر، فتقبل وتفعل. يعرف أبوها بما فعلت، فينبهها ويحذرها، لأنه جرى يوم انتشار الرسائل اعتقال ثلاثمائة شخص، وأقيل وزير البريد، ويجري الحديث عن تبديل مدير الشرطة. ويخبرها أنه حطم الآلة وألقى بها في خزان الماء، فتهدد أباها بأنها ــ إن لم يتركها حرة ــ ستغادر بيته.

تتصل بالأستاذ وتلتقيه وتخبره بما جرى. ينصحها بأن تبقى في بيت أبيها لأن له الآن سراً مشتركاً معهم. وهو معاد للنظام، لأن أملاكه في مازندران صودرت، وما عُوض به عنها في طهران لا يبلغ خُمس قيمتها. وهكذا، تبقى في بيت أبيها، ويهيئ الأستاذ مكاناً آخر تطبع فيه. ويطبعون رسالة لتعلم الشرطة أن النشاط مستمر، وأن من اعتقلتهم لا علاقة لهم بالأمر.

عندما تعود من طبع الرسالة الجديدة تجد في بيتهم مأمور أمن يفتش باحثاً عن رسالة وصلتهم! ثم يفتش عن الآلة الكاتبة. وفي اليوم التالي يتصلون بأبيها هاتفياً، ويطلبون مراجعته لدائرة الشرطة. وفي اليوم الذي يلي تعلم من أمها أن أباها «يرغب» في الانتقال إلى أملاكه قرب قزوين! يستدعي إليه ابنته وزوجته، ويعهد لابنته بإدارة أمواله، ويوصي بأكثرها لها، مع سهم لأمها.

ولم يكن الأستاذ علم بذلك، مع أنه علم بتفتيش البيت.

وعندما تخبر الأستاذ بكل ذلك، وتعلمه بأنها لم يعد لها ملاذ غيره، يمسك بذراعها فتذوب وجداً وفرحاً، وتحس في الوقت نفسه حرارة حبه الذي يسعى لإخفائه. وتعترف للراوي بأنها مريضة، وإن كانت سليمة الظاهر، وهي في كل أسفارها إلى أوروبا تعرض نفسها على الأطباء، الذين يؤكدون سلامتها، مع الإشارة إلى إصابتها بحساسية فائقة.

تنفعل من ضغط الأستاذ على عضدها بحيث لا تتحمل البقاء في السينما ــ حيث التقيا ــ فتقوم للانصراف. يطلب منها الانتظار لأن حارسه يريدها في شغل، فترفض، وتنصرف، فيضطر للحاق بها. يركبان عربة، وعند مفترق الطرق، لما يسأل الحوذي أين يذهب بهما وتوشك أن تعطيه عنوان بيتها، ينطق هو فيعطيه عنواناً عاماً.

تنظر إليه ممتنة. يقبّل عينها، فتقبّل شفتيه.

تشارك في نضاله الخطر من دون إيمان، من أجل حبها له فقط. أما هو، فلا يحب غير نضاله. وفيما كان الجميع يعبّرون عن إعجابهم بحسنها، لم يشر هو إليه ولا مرة. ولكنه قال لها: «عيناك هما اللتان سببتا لي هذا. نظرتك هذه هي التي جرجرتني إلى هنا، ولم تكن لي طاقة على احتمال نظراتك، أفلم تري كيف كنت أسمّر عيني في الأرض؟».

وقبل أن يفترقا يتفقان على أن تأتيه في اليوم التالي، ولكنه سيتلفن لها ليعين الوقت. وإن سئلت، فهي لا تعرفه، وإنما جاءت ليرسمها! وعندما تعود متأخرة ليلاً إلى بيتها تريها أمها الجريدة لتقرأ فيها أن رئيس الشرطة قد استُبدل.

كان يتوافد عليها الخُطّاب، وتذهب هي إلى دعواتهم.

وعندما يتلفن لها الأستاذ لتحديد موعد تخبره أنه ربما كان الأفضل ألا تذهب إليه، فيرجوها، لكنها تكرر قولها، فيقطع المكالمة. وربما كان رسم صورة عينيها في هذا الظرف في ذلك اليوم.

على كل حال، إنها لا تطيق صبراً فتتلفن له، مخبرة أنها عائدة إليه، وتذهب فعلاً. تتمنى لو يستقبلها بقبلة كي تتمنع، ولكنه لا يفعل! إنه يريد روحها لا جسدها.

يقتربان بحيث تطلع على كل أسراره، ويجعل (رجب) الصامت الكتوم يتحدث أمامها بأسرار لا يبينها أمام أحد. يجيئه هذا ذات يوم ليخبره أن أحد أعضاء تنظيمه اعتُقل، وأن بيته خضع للتفتيش. ومع أنه يغضب لأن رجباً جمع هذه المعلومات شخصياً فعرّض نفسه للكشف، إلا أنه يريد أن يعرف إن كانت «وسائل العمل» قد كبست أيضاً، وكيف اعتُقل أصلاً. أما هي، فقد:

«تملكني الخوف، ولكن لا على نفسي. لو كنت واثقة أنني إذ أتورط فهو سيحبني لكنت أصير سعيدة».

تتطوع للمعرفة بأن تزور المعتقل في السجن، بادعاء أنها زوجته أو خطيبته، خاصة وأن رئيس الشرطة الجديد قريبها، وكان كالوصي عليها عندما كانت تدرس في باريس، ولكنها تسعى للمقابلة برشوة حراس السجن أولاً.

تذهب وتدخل السجن بالرشوة، في يوم ملاقاة عامة ــ للسجناء عدا السياسيين والمختلسين ــ ولكن المسؤول الأمني يخبرها بضرورة مراجعة الإدارة السياسية والحصول على إذن خاص وإلا فهي لا تستطيع مقابلته. وتفهم من كلام مسؤول الأمن هذا المسألتين اللتين كانت تريد جوابهما: أنه اعتُقل بسبب توزيع المنشورات، وأنه لم يدلّ على بيته وإنما جعلهم يفتشون بيتاً آخر! (هكذا يتصور رجال الأمن لما لم يعثروا في بيته على شيء!).

وبعد أيام يستدعيها الأستاذ طالباً منها مراجعة رئيس الشرطة لاستخلاص المعتقل (بأي ثمن). وعندما تسأله: (حتى مقابل..)، يفهم ما قال فيعدّله قائلاً: (هذا لا.. ليس بهذه القيمة).

تدعو رئيس الشرطة على العشاء، وتهيئ له وليمة تليق برد أفضاله عليها في باريس، وفي طهران ــ إذ نقل أباها إلى كربلاء (في العراق) ــ وفي حين يذكّرها بخطبته لها، تعلمه أن عندها رجاء، فيجيبها بأن رجاءها أمر! ويتبسط معها في الحديث، كما كان يفعل في باريس، فإذا هو ينوي الابتعاد عن البلاد لأن وضعها لا يناسبه، فالبلاد تدور على تقارير كاذبة! والملك يشتم رئيس وزرائه لأنه يفكر في توجيه ضربة للنظام، ثم يبتعد ليصير بطل الحريّة في الحرب الوشيكة فيضطر الإنكليز إلى البحث عنه والسعي وراءه!

ويرى العقيد ــ رئيس الشرطة، الذي صار عميداً ــ إحدى لوحات الأستاذ في بيتها، فيقول عنه إنه مشاغب عليه أن يكف عن التدخل في السياسة وينصرف إلى عمله! سأقتلع جذور الجميع!

وعندما ينصرف واعداً بإطلاق سراح المعتقل، آمراً إياها ألا تطلب منه شيئاً كهذا مستقبلاً، تتلفن للأستاذ كي تحذره ولكن لا يرد عليها أحد. وفي الصباح التالي يعلمها أن رجباً اعتُقل، وعندما تريد أن تذهب إليه يأمرها ألا تفعل، إلا إذا طلب هو ذلك منها.

ولكنها لا تراه بعد ذلك. تتلفن فلا يرد عليها. وذات مرة يرد غريب قائلاً إن الأستاذ غير موجود.

تعود إلى باريس، وحياة البذخ والتفاهة، حتى تقرأ في جريدة إيرانية خبر اعتقاله. وترى في جريدة ألمانية آخر لوحاته، هذه اللعينة: «عيناها».

ولما ترى أنه كان مستعداً ليجعلها تبيع نفسها أبد العمر من أجل إنقاذ صديقه، ولكنه لا يطلب شيئاً لنفسه، تتلفن مرة أخرى للعميد ــ الذي كان يطاردها خلال الشهر الأخير فتتهرب منه، وعندما يأتي تعرف منه أنهم ألقوا القبض على الأستاذ، فلا تدري كيف تفاتحه! وأخيراً تحزم رأيها. تتلفن له صباحاً قبل العمل وتستقبله في غرفة النوم، وتعلنه بأنها تريد شيئاً وهي مستعدة لتقديم كل ما يريد مقابله، حتى طلبه الأصلي السابق. إنها تعرف أن ذلك مطلب صعب، ولكنه غير مستحيل. تقترح عليه أن يجمع أمواله وينقلها إلى الخارج، ويهيئ وسيلة فرار الأستاذ إلى الخارج ويهرب هو أيضاً، فيعقد مؤتمراً صحفياً يعلن عن نفسه وخلافه مع الشاه، الذي يطلب منه أشياء تتعارض وضميره الإنساني، ويفضح مساوئ الشاه وتدخّل الإنگليز، فيكسب بذلك انتباه الإنگليز! ومحبة الشعب، مادام يتوقع أن تقوم الحرب قريباً وأن يزول النظام الحالي.

لم يقتنع بكلامها، وإنما اقتنع بأن يشرح للشاه أن سجن (ماكان) لم يعد مفيداً بعد أن كشفوا تنظيماته، بل هو مضر لأن له نفوذاً بين المتعلمين، كما أن قتله سيسبب مشكلة كبيرة مع العالم الخارجي نظراً لشهرته ومكانته، ولذلك سيتمكن من إقناع الشاه بإبعاده. وعلى هذا يخرج من بيتها إلى البلاط رأساً.

وهكذا كان، فقد أبعدوا الأستاذ إلى (كلات)، وبمعيته ضابط أمن ومأمورين سياسيين.

وتتزوج، ولكن عندما يموت الأستاذ تنقض عهدها لزوجها، وتعود إلى إيران.

لو أن الأستاذ سمح لها بأن تزوره، فلربما أمكنها أن تنقذه من الإبعاد بعد سنة أو سنتين، أو من القتل إن كان مات مقتولاً!

وتطلب من الراوي أن يكف عن أسئلته بعد، وأن يأخذ لوحته وينصرف، فهي لا تحمل صورتها! وهذا ما سبق أن عرفناه من تفكير الراوي، ومن قول المرأة نفسها: إن الأستاذ لم يعرفها على حقيقتها!

* *

لا يستطيع القارئ أن يمنع نفسه، طيلة قراءته الرواية، عن مقارنة الأستاذ (ماكان) بـــ(كمال الملك)، الرسام الإيراني الشهير[٩]، مع أن المؤلف أضفى عليه صفات نضالية لم تكن له، وأدخله في خضم عمل حزبي لم يعرفه.

* *

في هذه الرواية، يلفت نظرنا اكتمال العناصر الفنية، إضافة إلى ابتعادها عن الشوائب والتفاصيل غير المبررة، وابتعادها عن بلاغة العصر القاجاري التي لم يعايشها الكاتب فقط، وإنما نشأ وترعرع في خضمها.

ولعل ما يميزها بشكل خاص أن الكاتب لا يقدم بطلته جاهزة منذ البداية، وإنما يعرض علينا أوصافها ــ الجسدية والفكرية وحتى ملابسها ــ جزء فجزء: «لم تنكر، خفضت رأسها. شابكت أصابع يديها، كانت تجلس مثل تمثال لا يتحرك. كان الثوب الأخضر الذي تلبسه يناسبها. كان لخصلات شعرها المدلاة على كتفيها عدة أمواج، فلم يكن يبدو إلا استدارة وجهها»، ونحن لم نرَ وجهها واضحاً بعد.

ومع أنها تقول للراوي إنها من عائلة متوسطة، فيصدق ونصدق معه، إلا أننا نكتشف بعد ذلك أن حياتها أغنى من متوسطة، إلى أن نعرف لاحقاً أنها من الأعيان، وأن أملاك أبيها من السعة بحيث تحتاج إلى مدير.

كما يميزها انعدام المباشرة فيها، فالرواية سياسية المضمون، ولكن يتعذر أن نجد فيها شعاراً يطلق. وحتى عندما يعنّف الرسامُ المهاجر البطلةَ لأنها أرسلت إليه نقوداً، فهو لا يتحدث عن الإباء والكرامة مثلاً، بل هو يحدثها حديثاً ودياً، معنفاً، بشكل صريح يدخل القلب مباشرة.

## ٣ ــ من مجموعة «ميرزا»:

و«ميرزا» مجموعة تضم خمس قصص قصيرة هي: الماء، ميرزا، تحت الحنكي، أحسن القصص، والشريدة.

من بين هذه المجموعة تتميز قصتان بأنهما لو لقيتا مزيداً من العناية والجهد من الكاتب لصارتا روايتين، وروايتين جيدتين.

أ ــ ميرزا:

وهي قصة مهاجر هارب تأتيه ابنة زوجته ــ وكانت تتصوره أباها قبل اليوم ــ تبحث عن أبيها الحقيقي، فقد صارحتها أمها قبل موتها بأن لها أباً آخر غير هذا.

يعرّفها زوج الأم على مهاجر يمارس عدة أعمال، من جملتها كشف الأشخاص والوصل بينهم. يكتشف هذا المهاجر أنه أبو الفتاة، ولكنه لا يستطيع مصارحتها بسبب الظلم الذي أوقعه بأمها حينما نشرت جريدة حزبه، بعلمه، عنها تتهمها بالخيانة. ويقرر عدم مصارحتها بالأمر، وإعلامها بأنها ابنة المهاجر الأول الذي كان يتصور نفسه أباها.

ب ــ تحت الحنكي:

والاسم صفة مأخوذة من طريقة لبس بطل القصة للعمامة ــ تحت الحنك، حيث كان يمرر ذيلها من تحت حنكه ليوصله من طرف آخر إلى رأسه.

هي قصة فتاة يتيمة، شبه لقيطة، تنشأ في عائلة وجهاء. يتقدم لخطبتها تحت الحنكي، وبعد التحقيقات اللازمة يزوجونها له، إذ لا غبار عليه، وهو متمول، رغم أنه شبه أمي، وهي في سبيلها لإكمال الدراسة الثانوية.

يُعتقل الزوج بتهمة التلاعب بالأسعار، ويتورط ابنها الوحيد بالقضية ذاتها، فتأتي إلى أحد أبناء عائلة الوجهاء ــ بعد ست عشرة سنة من انفصالها عن تلك العائلة ــ ليساعدها من أجل ابنها. ولما كانت مسألة الابن بسيطةٍ، فإن الوجيه يساعد، ويعاشر الأم. وهو لا يحتاج إلى مغازلات زائدة وحيل، فهي مستعدة، لأنها كانت تحبه منذ الطفولة من جهة، ولأنها مشمئزة من

زوجها من الجهة الأخرى. «بعد سنوات وجد السيد لهراسب خاني امرأة تحترق في تار الهوس وتحرق معها ضحيتها. امرأة تقبله، وتضغطه في عناقها، وهي لا تولي أدنى اهتمام لشغله ومقامه وملكه وحيثيته واعتباره وماضيه ومستقبله... إن أكثر الفتيات والنساء حميمية يعتبرن بدء المغازلة مدخل الزواج. وبهذا القصد تبدأ عندهن الأحداث. ولكن (رقية) أكدت منذ الأيام الأولى أنها لا تفكر في الانفصال عن تحت الحنكي بل، بالعكس، تريد أن تجني أكبر استفادة من ماله...».

تدوم هذه العلاقة أربع سنوات، يتمتعان فيها بالحب والأسفار. تحكي له حكايتها المأساوية نتيجة إصابة ابنها بما يشبه الصرع، بسبب مرض عند الأب. وكانت في أول زواجها قد اكتشفت جرحاً في فخذها، وعند إجراء الفحوص وتحليلات الدم يشير لها الطبيب أن ذلك من زوجها، فتمتنع منذ ذلك اليوم على زوجها. وهكذا تبقى محرومة، فيما يسافر هو إلى المراكز الدينية ــ في إيران والعراق ــ ليتزوج زيجات مؤقتة في كل سفرة.

وهي ترفض الزواج من عشيقها، لأن الأوان قد فات.

وذات يوم «.. كان الوقت أوائل الربيع، ولم تكن الأشجار قد خرجت من صدمة البرد بعد ولم تلبس رداءها الأخضر. كان الشتاء المسرع في الرحيل يرش جليداً هنا وهناك بعد، وطاقية [جبل] دماوند البيضاء أكبر من المألوف، تأتيه لتعلن له أن زوجها اكتشف سرهما، وأنها اعترفت له متحدية بأنه يتصيغ [يتزوج زواج المتعة، المؤقت] فمن حقها معاملته بالمثل. وهي قد جاءت إلى عشيقها نهاراً، سافرة، ولا تريده أن يتحدث عن زوجها اليوم. (ينبغي أن تكون الليلة إحدى أسعد ليالينا)».

وفي الصباح ترتب بيته، وكأنها تهيؤه لسهرة الليلة القادمة، وتخرج. وعندما يلبس ملابسه يكتشف رسالة منها في جيب معطفه، تودعه فيها وتطلب منه عدم البحث عنها!

يموت زوجها في حادث غامض، ويموت ابنها في إحدى نوبات صرعه، تاركاً زوجة وطفلاً. وتبدو رقية كالمصدومة.

بعد عشرين سنة نجدها في أوروبا، تطلب من حفيدها الاتصال بعشيقها السابق واستدعائه ليزورها في المستشفى الذي ترقد فيه.

يعرف العشيق من الحفيد أن أم هذا تزوجت بعد موت أبيه، وأن جدته هي التي ربته، وكانت تربيتها منفتحة.

يلتقي العاشقان، وتطلب من لهراسب خاني أن يحكي كل قصة حياتها لحفيدها، بينما تروي هي له، هو، الفصل الأخير منها:

بعد أن مات ابنها قررت الحفاظ على أعز موجودَيْن: عشيقها، بأن ابتعدت عنه، وحفيدها بأن شجعت أمه على الزواج، وسهّلت زواجها فأخذت منها ابنها.

وعندما يجيئها زوجها ذات يوم معلناً أنه قرر السفر إلى كربلاء ليصير مجاوراً ــ لابد أن جريمة أخرى من جرائمه اكتُشفت ــ ولا يريد أن يأخذها معه فقط، وإنما يريدها أن تتخلى عن الحفيد بأن تعيده إلى أمه، تقرر قتل زوجها، وتنفذ قرارها!

## ٤ ــ الأرضة:

ساواكي[١٠] يكتب مذكراته بعد الثورة، بلا أسماء، يفضح فيها زملاءه كي يفهموا ويضطروا لإعطائه مالاً فلا يضطر للاستجداء من هذا وذاك!

كان قريب له قد أخذه إلى الساواك، حيث طلبوا منه كتابة تفاصيل حياته. ومع أنه جاء إليهم مفتوح العينين، إلا أنهم داخل المبنى يعصبون عينيه! ويجد كل من يقابله واضعاً على عينيه نظارة سوداء.

يتقرر أن يعاود السفر إلى ميناء (لنگه)[١١] ــ حيث ذهب مع مفتش المالية كمساعد له، وبدلاً من جباية الضرائب اشتغلا بالتهريب، فألقي بصاحبه في السجن بينما فصل هو من عمله ــ فيراقب الأوضاع هناك ويقدم تقاريره. ولكن تأتي خطوبة أخته، فينشغل ويؤجل سفره.

يتأخر زواج أخته، ولكنها تحبل، وتسقط حملها في مستشفى ما بمساعدة أمها.

وخطيب أخته ساواكي هو الآخر. يعلمه مسؤوله في الساواك بأن أخته هي المسؤولة عن الحمل، ولم يكن التقصير من «السيد». ويضطر هو إلى السكوت، لأنه إن لم يفعل فعليه إما أن يقتل أخته أو خطيبها، أو أن ينتحر، وهو لم تكن عنده الجرأة للقيام بأي من ذلك.

ثم يباشر عمله: التجسس على الطلاب الجامعيين اليساريين. ويطور عمله، بحيث أنه بدلاً من مجرد التجسس يعمل على ترغيب الطلاب بالتمرد، فيمهد الطريق لهجوم الجيش على الجامعة. وفي جلسة غامضة يحضرها أجانب، يشجعه رؤساؤه على نشاطاته، وربما كان الذي شجعه بختيار (مؤسس الساواك وأول رؤسائه) نفسه.

ويكتشف من ملفات الساواك أن الطالب آهاري، الذي حرضه هو على التخريب بين الطلاب وتحريضهم على التمرد، إنما هو ساواكي أيضاً.

ثم يطلب منه الساواك دخول الحزب، فيفعل. وإذا بذلك الطالب (آهاري)

في الحزب أيضاً، بل إنه يرقى في صفوفه سريعاً حتى تعهد إليه مهمات حراسة تبرعات استثنائية، فيسرقها ويختفي! لنجده في باريس مواصلاً دراسته.

ويتحدث الراوي عن الحزب بأن له مقراً! ولا ندري أي حزب معارض هذا، شبه سري، وله مقر في الفترة ١٩٥٧ ــ ١٩٥٨؟! علماً بأن مهمته هو العمل مع اليساريين و«من يتعاون مع الروس»!

ونمضي مع أحداث الرواية، أو مكاشفات كاتب المذكرات عن فعاليته داخل الساواك أو لمصلحته: تتوطد علاقته بشخص غامض (شيخك)، ويتصل به ذات يوم يطلب مساعدته في استخلاص فتاة من أيدي الساواك، كانت اتهمت بالمشاركة في قتل ضابط ركن. فينسق مع رئيسه المباشر، ويطلقان الفتاة، ويحصلان على مال وفير.

يتزوج، ويولد له طفلان.

وخلال زمن قصير يصير صاحب قصر في أرقى منطقة سكنية شمالي طهران.

ثم يكلَّف بمتابعة شؤون المثقفين، وفي حملة تطهير الساواك يستدعي عملاءه في الخارج لبحث أوضاعهم، فينتقي إثنين منهم ويعمل على تدريبهما وتشجيعهما على تشكيل تنظيم طلابي.

وفي حين تتوفى زوجته، تترك أخته البيت ويبحث هو عنها، حتى ليتصورها في فلسطين، ولكنه لا يندهش لاتصالها به، بل يذكر أنها لاتزال في محل عملها! وهي عندما تتصل تخبره أن صديقها القديم معدوم الأثر منذ مدة.

يستدعي (شيخك) للاستفسار منه عن صديق أخته، ولكننا نفهم من شيخك

أن أخت الراوي متزوجة. وفي حين أن الراوي لم يذكر لنا ذلك قبلاً، فهو لا يستغربه عند سماعه!

وقبل ذلك، كان (شيخك) قد أنبأه بأن بختيار سيطرد، ويطرد فعلاً.

ويستعرض الراوي نشاطات بختيار ضد الشاه.

وهاهو الآن يقدم طلباً لمعاون رئيس الساواك ـ خفية عن زملائه وعن المجرى الإداري ـ يتضمن اقتراحاً للتخلص من بختيار، فيستقبله المعاون ويوصيه بقراءة إضبارة بختيار مجدداً.

ثم تقبل خطته، فيشرع في تنفيذها.

يتم تنفيذ عملية خطف طائرة إيرانية وإنزالها في العراق، ليقوم قاتلان مدسوسان بين الركاب بعد ذلك بالاقتراب من بختيار وقتله. تنجح العملية، ويترقى الراوي ليصير من رجال الصف الثاني البارزين في الساواك، ويقترب من هدفه في إنقاذ أخته التي صارت من نشطاء الحركة الثورية المسلحة!

ونظراً لاتساع هذه الحركة، تُحشد كل قوات الساواك ضدها، مما يتيح له فرصة الاشتراك في التحقيقات أيضاً.

ويوالي صعوده في سلم الساواك، حتى يصير نائباً للرئيس، وأخيراً يعرض عليه الشاه الرئاسة، فيقرر الانتظار لحين تشكيل الوزارة الجديدة.

ومع تصاعد حركة الثورة سنة ١٩٧٨، تتصل به أخته ـ عن طريق فيلم فيديو ـ تحثه فيه على الكف عن نشاطاته الإجرامية، والانضمام إلى المناضلين، وتقديم دعم مالي لاتحاد الطلاب في الخارج!

ومع انتصار الثورة تكون صحة أمه قد انهارت، فيأخذها إلى المستشفى، ويبيت معها هناك، في حين يحتل الثوار بيته.

تأتي أخته إلى المستشفى فتعانقه، بينما يأتي زملاؤها فيتناوشون معه إطلاق النيران حتى يصاب في فخذه، فتشل ساقه. ويطلب منه زميلا أخته، إذ نجا، أن يجلس جانباً فيكتب مذكراته ويسلمها لأخته.

والرواية ملأى بأحداث وتفاصيل أخرى، لا تضيف شيئاً، ومعلوماتها مرتبكة: فالراوي، رغم مسيرته الطويلة في الساواك، لم يعذب أحداً! بل لم يشاهد آلات التعذيب! وفي أول الرواية يقول إنه يكتبها ليبتز زملاءه القادمين، وفي آخرها يفاجئنا اقتراح زميليْ أخته المذكور آنفاً. وأعمال أخته البهلوانية تقفز من فراغ، ولهذا فليس عجيباً أنها، بعد إنذاره، تعانقه في المستشفى وهو لم يحقق بعد أي مطلب من مطالبها، وإلخ.. وإلخ..

ولا ندري إن كان يروي من مشاهداته ــ وهو يصرح بذلك عند مشاهدته تعذيب فتاة ــ أم لأنه قرأ وثائق للساواك نشرتها صحف أجنبية.

وتعاني الرواية من عيب أن أحداثها لا تطابق الواقع التاريخي: فالساواك تأسس سنة ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦، بينما يذكر له الكاتب فعاليات في سنة ١٩٤٨! وهو يذكر أحداثاً وقعت سنة ١٩٤٢ على أنها من أحداث سنة ١٩٥٨!

ويبدو الكاتب عاجزاً عن متابعة خيوط روايته، فهو ينسى ما يقول هنا ليقول بعده بصفحة أو أقل ما يختلف عنه، قليلاً أو كثيراً.

ويبدو أن اهتمامات الكاتب التراثية ــ عند كتابته الرواية ــ أبعدته كثيراً عن لغة العصر الجارية في إيران، فصارت تعابيره غامضة أحياناً، لا توصل ما يريد، وتكثر في كتابته المفردات القديمة، المماتة.

### ٥ ــ الرواية:

يقول الناشر إن بزرگ علوي أكمل هذه الرواية في برلين أواخر سنة ١٩٧٨، الأمر الذي يجعل القارئ يسأل: لماذا لم ينشرها علوي إذن، وبقيت تنتظر إلى ما بعد وفاته، لتنشر سنة ١٩٩٨؟

* *

يدرك (فرود) أنه لم يعد بالإمكان «تسخين الماء»، أي تثوير الشعب، بالجريدة. وقد علّمه شغله في جريدة «صبح» أنه: «ينبغي السرقة، الغارة، النهب، وشرب جرعة شراب فوقها». ويكون الانطباع الذي يتكون عنده من أول اجتماع حزبي، إذ يتكلم المسؤول بحماس ــ ولكن بلا معنى ولا ربط ــ هو «إن أردت الحق، فإنني أخشى أن نصير نحن أيضاً يوماً ما مثل هؤلاء. عندنا إيمان، ولا يعود عندئذ المنطق والاستدلال ضروريين».

وترسل لجنة الحزب المركزية أحد أعضائها إلى مدينة فرود للتحقيق في أعمال عنف رافقت مظاهرات، فيتعرف فرود في ذلك الموفد على أحد معارفه السابقين، الذي يدري «أنه من غير أهل السياسة والألاعيب»، فيتعجب كيف وصل إلى صفوف قيادة الحزب. ولكنه يفهم من كلامه أن «الحزب ليس على تلك الوحدة والتماسك اللذين يتصورهما الآخرون من الخارج عنه أو يتهيأ لأذهان أناس بسطاء مثل فرود. ففي الخفاء، وحتى في العلن أحياناً، كانت توجد تكتلات تأكل، كالدود، لبّ الثمرة من الداخل، فتفرغها».

وربما أمكننا أن نفهم في هذا الضوء المفارقة العجيبة التي وضع حزب (توده)[١] نفسه فيها في منتصف الأربعينيات، أو ما يسميه فرود بــ«الخطأ ــ المأساة»، المتمثل في مشاركته في وزارة «ملاك الأراضي»، «الثعلب

العجوز»، «الذئب الذي تمرس بالأمطار» ـ أحمد قوام ـ بثلاثة وزراء، في حين كان الناس يعتقلون في المحافظات لمجرد أنهم يقرأون جريدة الحزب!

ومع المضي في قراءة الرواية، يتأكد لنا أنها رواية سياسية بامتياز، فهي تاريخ لحزب توده وخصوصاً في علاقته بالسلطة، كل سلطة، وهي علاقة يدينها الكاتب، لا ينتقدها فقط. ومع أن الكاتب يوفق في عرض سياسة الحزب المترددة، غير الحاسمة، التي تنم على أن الحزب نفسه لم يكن يدري ما يريد، فكان يتخبط في أعماله ومواقفه، حتى «جاء الذئب وأكل القطيع»، في إشارة إلى انقلاب زاهدي ـ الشاه، الذي خططت له الولايات المتحدة وبريطانيا ونفذته وكالة المخابرات المركزية، إلا أن القصة الموازية التي تصور علاقة فرود بـ«نرگس» تبدو نافلة لأنها لا تغني الحدث بشيء، كما أن طابع التقرير يسود الرواية أكثر من عملية السرد، أو القص.

ولا ينفي هذا طبعاً وجود التماعات هنا وهناك: فالكاتب يصور عضو اللجنة المركزية، مسؤول اللجنة الفلاحية مريضاً، شبه جاهل، نصف شجاع! ويتساءل على لسان فرود: «ألم يجدوا إنساناً أصح وأسلم وأذكى لانتخابه إلى اللجنة المركزية؟»، فيذكّرنا ـ قاصداً أو غير قاصد ـ بوضع الحزب كله.

وبعد عدد من الانهيارات والخيانات، تتسع الانشقاقات وتزداد، ثم تتصدر النساءُ العملَ الحزبي «عندما أحدث رجالهم (رجال التودويين) مثل تلك الفضائح فعلى النساء أن ينهضن». ومع أن فرود سبق أن اعترف بكل شيء في اعتقاله الأخير، إلا أننا نجده في آخر الرواية يقول لأحد رفاقه: «أنا قاتلهم (رجال السلطة). لا يمكن أن نضع يداً على أخرى وننتظر الفاجعة». «ومنذ ذلك اليوم لم يرَ (كلهر) و(فيروز) فرود. صار قطرة وامتصته الأرض»! إذن، فهو قد التحق بعمل ثوري من طراز جديد، هو

العمل المسلح الذي انطلق في الغابات في شمال إيران وسمعنا بشيء من أخباره قريباً من نهاية الرواية.

* *

تختلف هذه الرواية ـ مضموناً ـ عن مجمل أعمال بزرگ علوي الروائية، في كونها تشكل لائحة اتهام لحزب توده، وتتميز على روايته الأخرى التي كتبها خارج إيران ـ الأرضة ـ بأن لغتها أصح وأنصع.

وكما ذكرت قبلاً، فإن روح كتابة التقرير تتسيد في مواقع كثيرة منها، إذ يُراكم الكاتب أحداثاً، صغيرة وكبيرة، لا يجد القارئ لها ضرورة ولا تغني الرواية ذاتها بشيء جديد.

## الهوامش

(١) وهو الحزب الشيوعي الإيراني.

(٢) هو السيد حسن المدرس. وعندما لم يفعل السم فعله، أوعز رضا شاه بخنقه بعمامته!

(٣) لم يكن للسجناء العاديين من طبيب، كما لم يكن من مهمات طبيب السياسيين مداواتهم!

(٤) مايزال قائماً في وسط طهران.

(٥) كان يعتبر من منظري الشيوعية في إيران والعالم، حتى اعتقله النظام الإسلامي، وعند التحقيق معه اعتبر كل نتاجه الفكري السابق تخريفاً اعتذر عنه! واكتشف كنوزاً معرفية جديدة كانت غائبة عنه في كتب رجال دين ووعاظ إيرانيين!

(٦) فرّخي يزدي، شاعر ملّ رضا خان من معارضته له وهجائه إياه فأوعز بخياطة فمه! وتم ذلك فعلاً!

(٧) المقصود بساط تدخين الأفيون.

(٨) صار سكرتيراً لحزب توده في وقت لاحق.

(٩) رسام نشأ من أصول متواضعة وتتلمذ على يد رسام لعائلة قاجار المالكة، التي تبنته وطورت قابليته الفنية، فرسم لوحات كثيرة لملوكها وقصورها، ولكنه لم يرسم أية لوحة لرضا خان ــ شاه، الذي انقلب عليها، رغم أنه ــ كمال الملك ــ كان موضع نقمة العائلة في آخر عصرها.

(١٠) نسبة إلى (س. ا. و. ا. ك = منظمة أمن وضبط البلاد، وهي جهاز الأمن الداخلي للنظام الملكي السابق).

(١١) ميناء صغير قصي متخلف في جنوب إيران.

# القسم الثاني

# كتّاب الجيل الثاني

# الفصل الأول

## أحمد محمود

(١٩٣١ ــ ٢٠٠٢)

أحمد محمود أحد أكبر كتاب الجيل الثاني من الروائيين الإيرانيين، إن لم يكن أكبرهم إطلاقاً. ولست أطلق هذه الصفة من باب المبالغة أو لمجرد إعجاب شخصي بهذا الكاتب، بل سأحاول أن أبين على الصفحات التالية حقيقة قولي وأبرهن عليه.

بدأ محمود[١] يكتب القصة وينشرها مبكراً، (منذ سن العشرين كما قال في حوار)[٢]، وفي سن السادسة والعشرين جمع قصصه في كتاب نشره على نفقته، وحقق الكتاب نجاحاً حيث سدد مصاريف طبعه وتوزيعه. ثم أتبعه بمجموعتي قصص أخريين.

وقد بدأ كتابة أولى رواياته «الجيران» سنة ١٩٦٢، وانتهى من كتابتها، كما يذكر التاريخ بدقة، في شهر أيار/ مايو ١٩٦٦.

ولكن نشرها تعذّر عليه، بسبب حجمها[٣] ــ كما ذكر ــ وبسبب موضوعها في ما أرى، فراح ينشر فصولاً منها منجّمة في المجلات.

ولما رأى أن قصصه القصيرة تلقى رواجاً، أعاد تحرير «الجيران» وركنها جانباً مرة أخرى، لينشر عدداً من المجموعات القصصية.

وقد خدمته وساطة صديق، وحيلة ناشر[٤]، فتمكن من نشرها سنة ١٩٧٤ بتعداد قليل[٥] ــ لامتحان السوق ــ وعندما نفدت وأراد تجديد طبعها لم تحصل الموافقة على ذلك، حتى جاءت أيام الثورة «حين كان حكم الشاه ضعيف السلطة» وتراخت الرقابة على المطبوعات، فحصل على إجازة إعادة الطبع ونشرها عدة مرات في ما بين أحد عشر ألف وإثنين وعشرين ألف نسخة كل مرة، حتى تجاوز ما طُبع منها حينذاك ربع مليون نسخة[٦].

واستوى له طريق النشر حتى صدر له خمسة عشر كتاباً نفد أكثرها من الأسواق، مع أنه كان ينشرها بتعداد كبير. وفي حين حصل على جواز تجديد الطبع على بعض مجموعات قصصه القصيرة، بقيت رواياته محرومة من تجديد الطبع، حتى «الأرض المحروقة» ــ التي تروي حكاية عدوان النظام العراقي على إيران، والتي كانت الرواية الوحيدة التي تناولت موضوع الحرب لسنوات بعد صدور طبعتها الأولى[٧]. وأعماله المنشورة حتى الآن هي:

أ ــ القصص القصيرة:

١- مول ــ ١٩٥٧

٢- لايزال البحر هادئاً ــ ١٩٦٠

٣- العبث ــ ١٩٦١

٤- زائر تحت المطر ــ ١٩٦٧

٥- الفتى المحلي ــ ١٩٧١

٦- الغرباء ــ ١٩٧١

٧- اللقاء ــ ١٩٩٠ (مجموعة ضمت قصتين قصيرتين بناءً طويلتين حَجماً، ورواية قصيرة نسبياً هي «العودة»)

٨- قصة معروفة ـ ١٩٩١

٩- من مسافر إلى لطمة حمى ـ ١٩٩٢ (وهي مختارات من قصصه القديمة أعاد طبعها)

ب ـ الروايات:

١- الجيران ـ ١٩٧٤

٢- قصة مدينة ـ ١٩٧٩

٣- الأرض المحروقة ـ ١٩٨٢

٤- العودة (ضمن مجموعة «اللقاء») ـ ١٩٩٠

٥- مدار الدرجة صفر ـ ١٩٩٣

٦- الإنسان الحي ـ ١٩٩٧

ج ـ قصص الأفلام:

سيناريوهان ـ ١٩٩٥

وقد نشر قصة قصيرة بعنوان «همّ النسيان، همٌّ خالد» تختلف تماماً عن كل ما كتب سابقاً، إذ أنها تتناول موضوع خلود الفنان، والأديب خصوصاً. كما أنه كتب قصة انتقادية، حد المباشرة، قرأها لي، ولكنه لن يستطيع نشرها في المستقبل القريب المنظور.

وقد ذكر في حواره المنشور في (حكايت حال)، سنة ١٩٩٥، أنه شرع في كتابة رواية باسم «الرجل الرمادي»، ولكنه كتب نصفها فقط وهو لا يدري ما

يفعل بها. «لا أدري، لأن القصة غير مألوفة، فإنها لم تكتمل بعد، أو لأنني تصورت نفسي أعرف أشخاصها، ولكنهم غير معروفين لي في الحقيقة». وقد صرح لي في شباط/ فبراير ١٩٩٩ أنه فهم السر الذي أوقفه عن كتابتها، وأنه سيستأنف الكتابة بعد الفراغ من رواية أخرى كان يعمل عليها.

وهذه الرواية الأخرى هي «شجرة تين المعابد»، التي «مع أنني مسيطر عليها من باء (بسم الله) إلى تاء (تمّت)، إلا أنني لا أدري ما ستكون نهاية العمل ــ ونتيجة العمل».

وفي آخر لقاء لي معه، أخبرني أنه أدرك ما أخّر إنجازه لهذه الرواية، ولذا فهو قد مزّق آخر مائة وخمسين صفحة منها، وباشر بإعادة كتابة هذا القسم، الذي يقدّر له أن يقع في أربعمائة صفحة(٨).

وهكذا، فإن هذا الكاتب الذي كتب «الأرض المحروقة» (٣٢٠ صفحة) في شهرين فقط، وقصة «أين تذهبين يا ننه أمرو؟» (أكثر من ٤٠ صفحة) في ساعات، يصارع روايتين منذ أكثر من خمس سنوات ولا يدري متى سيتمّهما.

* *

نظراً للموضوعات التي يتناولها أحمد محمود ــ وهي موضوعات سياسية اجتماعية ــ وزاوية تناولها ــ وهي زاوية الضعفاء والمقهورين والمحرومين ــ وطريقة تناوله إياها ــ وهي واقعية ــ فإنه يواجه مشكلة دائمية مع الرقابة في بلاده. ولعله قد يكون عجيباً أن يعرف القارئ أن «الجيران» تعذّر طبعها في السنوات التسع الأولى من عمرها، ثم تعذر تجديد طبعها أربع سنوات ــ كانت هي ما تبقى من عمر العهد الملكي ــ بوصفها رواية شيوعية، امتنع نشرها بعد مرور سنة على انتصار الثورة الإيرانية، وبقي المنع قائماً حتى يومنا هذا (٢٧ سنة)، لأنها «مبتذلة»: أي خليعة، مكشوفة!

وقد ترجمت الجيران، والعودة، إلى جانب عدد من قصصه القصيرة، إلى كثير من اللغات.

## ١ ــ الجيران(*):

أنهى «خالد» الصف الرابع الابتدائي، فقطع أبوه دراسته ــ بناء على نصيحة الحاج الشيخ علي، المرجع الديني لأبيه. وهو يسكن مع أمه وأبيه وشقيقته، التي تصغره، في غرفتين متداخلتين في بيت تؤجِّر غرفه لنزلاء.

ويقيم في البيت نفسه:

* رحيم المكاري وولداه التوأمان: حَسَني وإبراهيم، وزوجته المريضة، التي اشتد عليها المرض على أثر انتحار نزيل آخر، ثم تموت مع تقدم الرواية.

* خواج توفيق، مدمن الأفيون، وزوجته آفاق، المتاجرة بالمواد المهرّبة، وابنتهما التي أدمنت الأفيون بفعل الدخان الذي تستنشقه ــ بانو.

* صنم وابنها كرم ــ بائع اللفت المطبوخ، كبير الفم، الذي يراهن على إدخال صحن شاي فيه ويكسب الرهان عادة، إلى أن يفشل مرة!

* ثم يأتي آخر النزلاء: بلور خانم وزوجها أمان آقا، صاحب المقهى. ولا أطفال لهما.

* وعدد آخر من النزلاء لا يبرز لهم دور محدد في الرواية.

في أيام الصيف الحارة يتجرد خالد من ملابسه فينزل إلى حوض ماء البيت ليتبرد في مائه ورواسبه الموحلة، وهناك تتلقاه بانو، راجية منه أن «يلعب» معها، وعندما يلعب مرة تتوسل إليه أن يعاود اللعب. ومع أنه

---

(*) ترجمتها إلى العربية وقدمتها إلى المجلس الأعلى للثقافة في مصر، حيث ينتظر أن تصدر عنه قريباً.

يشمئز منها لأن «ثدييها مثل بادمجانتين مهروستين تماماً، طويلان مليئان بالتجاعيد والغضون، ملقيان على صدرها»، أو ربما لأن «جلدها من الصفرة بحيث يتصور المرء أنها نقعت الكركم بالماء فمسحت به جسدها»، إلا أنه يواصل اللعب.

وبلور خانم، الوافدة الجديدة، بضّة ممتلئة، تعرض أجزاء وافرة من لحمها. يسمع من النزيلات أنها وزوجها لا ينجبان، بسبب زوجها الذي أصيب بالسفلس مرات وبورم الغدة اللنفاوية مرة، ويسمعه خالد ـ والجيران ـ يضرب زوجته كثيراً. بلور خانم هذه لا تلبس سروالاً داخلياً، «لأن شريطه المطاط يخلّف على جسدها أثراً»!، ولأن «كون الواحدة بلا سروال أفضل، فهي تكون حاضرة جاهزة على الدوام»!

تثير بلور خانم استغراب، ثم خيال، خالد المراهق، بأن تصعد السلّم عندما تراه يجلس في أسفله، وتجاذبه الحديث فيضطر لرفع رأسه إلى أعلى كي يحدثها، ويتطلع محدقاً إلى ما بين فخذيها.. ثم تواعده على أن تريه آثار ضرب زوجها لها، على بطنها! حتى تصطاده، وتدعوه إلى غرفتها مساء في الليالي التي يبيت فيها زوجها خارج البيت مسافراً، فتولم له على جسدها، الذي بعد أن يذوقه لا يعود يتعرى ويدخل الحوض مع بانو، التي صارت «إذ تتكلم يصيبني الغثيان من أسنانها الصفراء».

وبما أنه لمّا يخرج من طفولته بعد، أو بسبب أوهام البطولة التي تراود المراهقين، فهو مؤذ، و«مستعد لكل عمل». وهكذا، فهو يرافق ولدي المكاري عندما يذهبان لمضايقة غلام علي خان، الذي يشتغل في الشرطة ولكنه يرتدي ملابس مدنية. إنهم عازمون على مضايقته لأنه أرسل عياله إلى همدان، وهو كلما يرسل عياله يأتي بعاهرة إلى بيته.

يضربون زجاج بيته بحجر فيكسرونه، ويهربون، ثم ينتظرون خروج العاهرة ليضربوها، ولكن يفاجئهم غلام علي بأن يخرج لهم هو، ويصطاد من بينهم خالداً فيوجعه ضرباً ويصبّ عليه سيلاً من الشتائم البذيئة وغير البذيئة تشمل الأموات من أهله والأحياء، ولا يكتفي بذلك وإنما يأتيه بشرطي يأخذه من البيت إلى مركز الشرطة، حيث يستقبله عريف بصفعة شديدة، ثم يُرمى في حديقة المركز بالانتظار.

يناديه شخص لا يرى منه سوى عينيه تطلاّن من ثقب في باب، ويبلغه رسالة يرجوه تسليمها إلى (شفق)، صاحب مكتبة (مجاهد)، مؤداها أن (پندار)[٩] قد ألقي القبض عليه.

ثم يأتي أمان آقا إلى المركز فيضمنه، ويطلق سراحه.

يذهب إلى المكتبة ويبلّغ الرسالة، ويجتذبه شفق من النظرة الأولى.

وفيما يستعد أبوه للسفر إلى الكويت بحثاً عن عمل، بعد أن بار عمله، يكون شفق قد اجتذبه إلى «الحزب»، وجعل (پَيْمان)[١٠] ــ البائع عنده في المكتبة مسؤولاً عن تنظيمه، لينقله بعدها إلى المعلم (بِيْدار)[١١]. ويذهب للعمل في المقهى عند أمان آقا، حسب وصية أبيه.

ومع اشتداد بؤس معيشة العائلة ــ حتى تضطر أمه لغسل ملاءات بيت رئيس التجنيد بأجر (بوساطة ابن أختها) ــ يتعرف خالد في المقهى على الناس، أنواع الناس، ويكتسب مهارات صبيّ مقهى، وهو يرى أمان آقا في المقهى غيره في البيت حُسْنَ معاشرة.

ومنذ بدأ خالد يعمل في مقهى أمان آقا لا يعود قلبه يطاوعه على مسّ بلور خانم.

يكلّفه مسؤوله التنظيمي بتسليم حقيبة ملأى بالمنشورات والكتب إلى أحد مساعدي سوّاقي شاحنات النفط.

يعي شيئاً فشيئاً أن كلام أبيه وكلام الشيخ علي واحد، وأن كلام محمد الميكانيكي ـ نزيل آخر في البيت ـ وجان محمد ـ عامل النفط زبون المقهى ـ واحد، وأن كلام عنكبوت ـ عامل المقهى ـ خاص به.

لا يكتفي بيدار بأن يشرح له مضامين المنشورات والشعارات المكتوبة على الجدران فقط، وإنما يحدثه عن المدرسة التي يشتغل فيها، حيث يتكدس في الصف الواحد سبعون طالباً بينما تنص اللوائح على ألاّ يتجاوز العدد الثلاثين.

ثم يكلفه بيدار ـ بعد أن يحس بالثقة فيه ـ بتوزيع نشرات سرية، موصياً إياه بالحذر.

وتقوم تظاهرة، من شعاراتها المطالبة بتأميم النفط، تهاجمها الشرطة فتتفرق وينحصر خالد في زقاق غير نافذ، فيلجأ إلى بيت يرجو سيدته أن تؤويه وقتاً. معها في البيت ابنها الصغير وابنتها الفتية ذات العينين السوداوين اللتين «تسلبان المرء»، وعندما تتهامس مع أمها بشأنه يتبدل لون عينيها إلى الزيتوني.

يذهب ـ بمعاناة شديدة ـ إلى بيته، ويأتيه شفق بمجبّر يعالجه، ولكن يترتب عليه البقاء في البيت أياماً بسبب رجله من جهة وتخفياً عن رجل أمن صار يراقبه منذ مدة، من الجهة الأخرى.

يزداد تفكيره بسوداء العينين، وهذا التفكير «يختلف عن التفكير ببلور خانم اختلاف الأرض عن السماء»، ويسعى لرؤيتها.

يتسلم الجريدة السرية في هذه الأثناء، وهو لا يستغرب فقط، بل يكاد يستنكر أن يتصدر كل عدد منها تصوير الرجل ذي الشاربين، وهو لا يهضم تبرير بيدار أنه سيدرك ضرورة وجود التصوير عندما يفهم التضامن الأممي!

ويطلق سراح پندار فيلتقيان، ويتعارفان. وپندار يتكلم جيداً، أفضل حتى من شفق، وليس فيه من عيب غير شاربيه الشبيهين بشاربي صاحب التصوير.

ينتظر رواد المقهى خطاباً مهماً لرئيس الوزراء، وعندما يسمعونه لا يرضون عنه[١٢]، ولا يفهم خالد لماذا، ولكنه يفهم ما يقوله رئيس الوزراء من أنه يراهن أن إيران لو تسلمت نفطها يوماً واحداً بيدها فستفلس. ويراهن كرم علي على وضع صحن الشاي في فمه كالعادة، ولكنه يفشل هذه المرة، ويتمزّق خده! وعندما ينتهي رئيس الوزراء من خطابه يقدم الراديو برنامجاً عن «مسرح العرائس» يقول فيه مقدمه: «إن إجراء برنامج عرائس صحيح يرتبط بفن وقدرة الأصابع التي تسيطر على خيوط العرائس»!

ويجري اغتيال رئيس الوزراء.

ونرى خالداً صار الآن عضواً يحضر الاجتماعات الحزبية، ويشارك في السفرات الحزبية أيام العطل، لزيارة الفلاحين وتثقيفهم، ولكن يزعجه أن يدور اجتماع أساساً عن الحركة الستيخانوفية، ويتصور أن الأكثر منطقية هو أن يدور حول خطاب رئيس الوزراء.

ويخبرنا الكاتب أن مجلس الشورى الوطني وافق على لائحة تأميم النفط، فنفهم أننا انتقلنا إلى عهد مصدق، ونشاهد الفرحة الشعبية الغامرة بالتأميم.

ويذهب خالد إلى بيت سوداء العينين مرات، فلا يجدها: لابد أنها مسافرة مع أهلها بمناسبة العيد، ويلتقيها بعد العيد فعلاً.

مع أن وضع رجله يتحسن، إلا أنه لا يحس ميلاً للعودة إلى المقهى: إنه يفكر بمواصلة الدراسة.

وينتقل إلى المنظمة التي يقودها پندار، ويصير مسؤولاً عن خلية لعمال

الغزل، ويتعلم، وهو دون الثالثة والعشرين من عمره، التملص من مطاردة الجواسيس.

ويقسم ألا يمس بلور خانم بعد.

يُدعى، ظاهرياً، إلى جلسة لتقويم إمكان إعلان إضراب في المعمل لانقطاع الإدارة عن إعطاء العمال الحليب، واجتماع العمال فطرُد بعضهم من العمل، واستدعاء الشرطة للسيطرة على الموقف، فتقوم هذه بضربهم واعتقال عدد منهم. أقول «ظاهرياً» لأنه عندما يسمع رفاقه يتحدثون عن رفع الاقتراح إلى «فوق» يفكر بهذا الـ«فوق» تفكيراً مضحكاً. كما أن كلمة «أولتيماتوم»، التي سمعها من أحد رفاقه، ودار حولها نقاش، ظلت تحيّره لأنه لم يفهمها. نحسّ أن ثمة عازلاً بينه وبين الحزب: إنه لما يعتبر نفسه الحزب أو جزء منه. كما أن الكاتب يريد أن يقول لنا إن تلك المنظمة لن تقرر الإضراب، بل سيتم القرار بشأنه مركزياً.

ويبقى خالد ينفعل كلما رأى سوداء العينين وكلمها، وتفهم أنه يحبها.

ويطارده المخبر «علي شيطان» بشكل يصير معه حاضراً في ذهنه دائماً. ويفاجئه يوماً وهو جالس إلى فتاته في متنزه، ويتعرض له أمامها.

يكلَّف بنقل حقيبة منشورات وصحف وبيانات وبعض الكتب إلى الميناء، وفي آخر نقطة تفتيش للسيارات تُكتشف الحقيبة. ومع إنكاره عائديتها له، إلا أن شحوب لونه، وإصرار السائق يورّطانه.

يُعتقل، ويُفتح له محضر، ولكنه يمتنع عن توقيعه مصراً على أن الحقيبة لا تخصه. يرسلونه بيد مأمور إلى إدارة الشرطة لإجراء التحقيق الروتيني معه. ينتهز دخول المأمور غرفة المحقق، ليهرب.

وعندما يصل إلى البيت، يكون رفاقه قد جاؤوا قبله، ونظفوه من الكتب؛ إذ كان أحدهم قد رآه عندما ألقي القبض عليه.

ويرسل أخته لإبلاغ رفاقه بفراره، إلا أن أمه ترفض ذهاب البنت، وتذهب هي رغم رفضها نشاطه لخطورته.

* *

كلما يتمشى تقوده قدماه ـــ وهو لا يدري ـــ إلى بيت سوداء العينين! وفي كل مرة تخدمه المصادفة فيراها! وحتى عندما يجبن عن قرع بابها ـــ بعد فراره من يد الشرطي ـــ يخرج أخوها فيلتقيه!

يعزم على مفاتحة الفتاة بحبه، فيواعدها. وفي يوم الموعد يذهب إلى الحلاق كي يتهيأ للقاء، وهناك يحاصره المخبر «علي شيطان»، قاذفاً بوجهه أنه يعرف بأنه هو بطل الفرار من يد الشرطي في مركز الشرطة، وعندما ينكر، يطلب منه مرافقته إلى مركز الشرطة لامتحان الأمر. ولكنه يتخلص منه بأن يعطيه وعداً بأن يتفاهم معه حول تعاونه مع رجال الأمن!

يلتقي حبيبته، وينطلقان بالحافلة إلى نادي شركة النفط حيث تتدرب على لعب كرة التنس، فيجلسان في ركن هناك، حيث يعترف لها بأنه مرشح للاعتقال، ويحدثها بقصة هروبه، مع بعض المبالغة المغرورة. وتعترف بحبها له. ولا يدري كيف تلتقي شفتاهما.

وعندما ينهضان للعودة تقطع طريقهما نخلة صغيرة، سعفها كأسنة الرماح، فيتجه هو يساراً وتمضي هي يميناً.

وفي البيت، تخلو غرفة رحيم المكاري ـــ فقد قتل زوجته الثانية وراح إلى السجن، بينما ترك ولداه البيت ـــ فينزل فيها «ملاّ أحمد» وزوجته وبناته

الخمس، مشترطاً أن تكون السقيفة له أيضاً، ليهيئ فيها كُتّابه. ويلاحظ خالد أن زوجة الملا وبناته لا يهتممن بالحجاب كثيراً، وأن «نظرات ليلى، ابنة ملا أحمد الكبرى، جريئة جداً».

يأتيه بندار ليحدثه. وهنا نفهم أنه لم يصر عضواً بعد، بل هو مرشح للعضوية تحت التجربة. يسأله بندار عن موضوع حبه لفتاة، وخلوته الطويلة مع علي شيطان في صالون الحلاقة. يصدّق بندار أجوبته، ولكنه يحذّره من علي، الذي لابد أنه يعدّ له خططاً، خاصة وأن عند خالد الآن نقطتا ضعف: حبه وهروبه.

لا يفهم خالد ما علاقة حبه بالأمر، فيوضح له بندار أن الحب يمكن أن يورطه ـــ من أجل الحفاظ على سمعة الفتاة ـــ في أشياء لا يريدها، وربما يلحق أضراراً بآخرين أيضاً! ـــ إذن؟ «ـــ نعم، يجب أن تنساها».

وفي البيت، نجد جرأة ليلى أكثر مما تصورنا: إنها تطارده، حتى تسأله لماذا هو قعيد البيت؟! يبدو أنها فهمت شيئاً. كما أن علاقتها بنساء البيت، خاصة بلور، وثيقة. وهي تشجع بلور على الدراسة «لتفهم الدنيا أفضل»! إذ «ما فرق المرأة عن الرجل؟».

ويخرج ذات مساء، عازماً على ملاقاة شفق ليفهم منه لماذا يجب أن يقطع علاقته بحبيبته، إذ أن كلام بندار لم يقنعه. وسرعان ما يكتشف خطأه، فيتراجع في الظلمات، ولكن ما أن يدخل زقاقهم حتى يأتيه صوت علي شيطان من دكان الخباز.. يهرب، فيطارده، ويطارده آخر على دراجة، وهما مسلّحان. يلقي عليه القبض، ويضع الجامعة في معصميه. وتهمس له ليلى «لا تهتم يا خالد، فأمثال هذه الأمور تقع للرجال»، وتعده بلور بأن ترسل في طلب أمان آقا، ولكنهّ يعرف أن أمان آقا عاجز عن هذا الأمر. يفتش علي شيطان جيوبه، فلا يجد معه شيئاً.

يلقى به في زنزانة اعتيادية في معتقل، بعد أن أخذه علي شيطان مشياً عبر شوارع المدينة، صاباً عليه شتائمه وإفحاشه، انتقاماً للمقلب الذي سبق أن رتبه له.

يجري التحقيق الأصولي، القانوني، معه، فيصرّ على إنكار معرفته بالأمر وعلاقته به، فيستدعي المحقق جلوازاً يأمره بأن يأخذه و«يُفهمه مصلحته».

يتعرض لتعذيب وحشي بالسياط كي يذكر أسماء من سلّموه المطبوعات، لكنه يصمد متحملاً.

ويأتيه علي شيطان في زنزانته في منتصف الليل، محاولاً التحايل عليه لاستدراجه، ويفكر هو في القصص التي يدبرها مسؤولو الأمن لقتل المعتقلين بحجة سعيهم للهرب.

وفي الصباح يأمر له بإفطار جيد «نسبياً»، ثم يأتيه ليساومه، ولما يفشل في مسعاه يتركه مغضباً وينتظر خالد عودة الجلواز «شهري»، الذي يأتيه بسوط، ولكن من نوع آخر! إنه يزعم له بأنهم اعتقلوا فتاته(١٣). ويشرح الكاتب مخاوفه واستعداده للبوح بكل شيء إن رآها تتعذب ـ مؤيداً تحذيرات بندار.

يمر بتجارب التعذيب المألوفة في تلك الأيام، وكانت آخرتها تعليقه من يده مدة. ولما يعجزون عن الحصول على معلومات منه يحيلونه إلى حاكم التحقيق، الذي يضبط له إفادته ـ التي ينكر فيها كل شيء ـ ويحيله إلى دائرة الادعاء العام، ومنها إلى الموقف والإجراءات الروتينية.

ثم يساق إلى النيابة العامة، وفي باحة مبناها يلتقي بأمه. ولما كان الجو في الباحة أكثر انفتاحاً، فإن بيدار يفاجئ الحراس و، بذريعة التحية، يدسّ له في يده رسالة.

وعند عودته إلى الموقف يقنع أمان آقا ــ الذي جاء مع زوجته وأم خالد وابن خالته ــ الحارس بأن يتناولوا الغداء في مطعم، وهناك يقرأ خالد الرسالة فيجد فيها ترتيب التماسّ الجديد به، ورمز الاتصال.

ويوضع هذه المرة في السجن العمومي، فقد انتهى التحقيق معه.

ويتم الاتصال به، ورابِطُه أحد حراس السجن!

يحاكم، ويحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات. يزوده الرابط بالكتب، وينقل له أخبار الخارج، مما يؤكد لنا أن الأحداث تدور في عهد مصدق.

يزداد تذمر السجناء من طعام السجن لرداءته وقذارته وقلّته، حتى يمتنع خالد عن تناول الطعام، وينتشر الخبر بين السجناء، ويبدأ بطرح فكرة الإضراب عن الطعام. يكلفه التنظيم بمتابعة الفكرة، وطرحها على الجميع لإقناع السجناء بها.

و«يصاب» أحد السجناء، (غلام)، بالجنون في هذه الأثناء.

ثم يبلغ الرابط خالداً بأنه تم نقله، وأن رابطاً جديداً سيتصل به قريباً، ويعطيه رمز الاتصال.

ويستأنف حكمه، فيخفف إلى سنة واحدة.

وفيما يستدعى لملاقاة زائريه في أحد أيام المقابلات، يعرف أن غلاماً فرّ من أيدي المأمورين عندما كانوا ينقلونه بالقطار إلى دار المجانين!

ويذهب إلى مقابلة زوّاره، فإذا هما أمه وليلى، ابنة الملا! وإذا بهذه رابطه الجديد! وتوصِلُ له رسالة مفادها حثه على إدامة جهده من أجل تنظيم الإضراب.

ويزوره بيدار، فيخبره بأنه لم يعثر على سوداء العينين رغم بحثه عنها، ويبدو أن أهلها نقلوا بيتهم، فيمر بفترة عصيبة بحيث يصاب بالحمى.

ويتصاعد نشاط التحضير للإضراب.

يستدعيه رئيس السجن فيتهدده، ويضربه، ويسجنه انفرادياً ليومين، ثم يستدعي آخر من النشطاء في التحضير للإضراب، ويضربه الحراس، ويسجنون آخر في الحبس الانفرادي. ثم يستدعون خالداً لمقابلة زائر، في غير أيام الزيارة، ورغم خوفه من أن تكون تلك مؤامرة لحبسه في الانفرادي والاعتداء عليه مجدداً، لابد له أن يذهب. وبين الخوف والرجاء يُفاجأ بأن الزائر أبوه! لقد عاد من الكويت.

يسجن بندار معهم، فتلتهب تحضيرات الإضراب، الذي لا يعود سببه الطعام فقط وإنما خزان الماء الصدئ، والمطالبة بثلج للماء، وبحمّام، ثم بكفّ إهانات السجّانين ورئيس السجن، ثم احتجاجاً على الملابس والتجهيزات. لقد تبدل وضع السجناء تماماً بمجيء بندار.

وفي حديث له مع بندار يعرف أن هذا اعتقل مع ليلى، إذ كانا يكثّران المنشورات. ونتأكد من تاريخ الأحداث من العريضة التي قدم فيها السجناء إنذارهم بالشروع بالإضراب: إنها سنة ١٩٥٢.

يطالبون بتحقيق مطالبهم خلال خمسة أيام، وإلا فإنهم سيضربون عن الطعام وعن ملاقاة ذويهم. ومع أنهم كتبوا نسخة من الإنذار إلى المدعي العام، إلا أنهم لم يوصلوها مسبقاً، فيتعذر عليهم إيصالها الآن بعد معرفة رئيس السجن بنيّتهم، وتشديده عليهم.

ويؤتى بسجين جديد، يبدأ بالتحريض على إلقاء خزان الماء أرضاً، ويتحدث بصوت عال وباطمئنان يثير الريبة، وإذ يعملون على تهدئته وضبطه، يتذكر أحد السجناء أنه رآه في مكان ما. ويتعجب السجناء جميعاً من جرأته، ومن هدوء الحارس الداخلي إزاءه وعدم مبالاته بأعماله وأقواله الفوضوية الاستفزازية.

ثم يشرع بمهاجمة الخزان، ولكن پندار يمسك به، وفيما يعمل السجناء على تهدئته، يتذكر من رآه أين رآه: إنه كاتب الشعبة الثالثة في إدارة المخابرات!

وتضطر إدارة السجن إلى سحبه من بينهم.

ويستدعي رئيس السجن پندار وخالداً وسجيناً آخر ــ محكوماً عادياً بالمؤبد، لذلك لقبه السجناء بــ«أبدي»، وكان عضواً في لجنة الإضراب ــ ويحاول تهديدهم وترغيبهم لإفشال الإضراب.

ولكن الإضراب يبدأ.

ويأتي رئيس السجن مرة أخرى محاولاً ثنيهم فيفشل، ويهددهم ويذهب.

يُستدعى پندار بأمر رئيس السجن، فيرفض الذهاب، ويعود المأمور الذي جاء لمرافقته، فيخادعه ويسحبه إلى باب رحبة السجن، حيث يُختطف من هناك!

وتجتمع لجنة الإضراب لتقرير ما يعملون لاستخلاص پندار، ويتوصلون إلى ذلك: أن يقرعوا على صحونهم النحاسية ليلاً. ولكنهم يشرعون قبل الغروب.

يهدد رئيس السجن برميهم بالنار، ويريهم أنه جاد في ذلك، فيتراجعون إلا أبدي، الذي يخطف أحد مخالفي الإضراب، ويهدد بقتله مع بقية المخالفين إن لم تُعِد إدارة السجن پندار. وعندما لا ينفع معه التهديد ينسحب رئيس السجن وضابط الحرس، ويرمي عريف الحرس أبدي بالنار فيرديه قتيلاً، ويسجنون خالداً انفرادياً لما تبقى من محكوميته. وعند إطلاق سراحه، يجد مأموري التجنيد في انتظاره ــ وكان ذلك من جملة ما هدده به رئيس السجن قبل الإضراب وأثناءه ــ ويقول له رئيس السجن شامتاً: «أرجو أن تكون اتعظت، فلا يدور في مخّك الإخلال في الثكنة».

* *

هذه، باختصار، قصة الرواية.

عفواً، هل قلت قصتها؟ إنها مجرد عظام القصة والعضلات التي تربطها، ولكن يعوزها اللحم والشحم لكي تقدم فكرة عن قصة الرواية، لكي تقترب من قصة الرواية.

ولحم الرواية وشحمها في بقية شخصياتها:

فرحيم المكاري يتزوج بعد وفاة امرأته، لأنه يريد امرأة تعد له طعامه وتغسل له ثيابه وتعنى بولديه، ويأوي هو إلى أحضانها عند الحاجة. ولكن زوجته لم تتعود القبوع في البيت والاحتشام في مكالمة الرجال والتحفظ في اللباس. وابنه إبراهيم تتحسن حاله، حتى ينقطع عن مرافقة أبيه إلى معمل الطابوق للنقل والتحميل. وابنه الآخر، الطيب الوديع، حسني، يصاب بالزهري فيبذل خالد وسعه لاستشارة موظف صحي بشأنه، ثم يتدبر له المال اللازم لمعالجته بأن يبيع طيوره التي يحبها كثيراً.

وبانو، بعد أن «هجرها» خالد، ترمي نفسها على هذا وذاك، فتنتقل من ملاعبة إبراهيم في الحوض إلى مهارشته في برج حمام خالد الذي صار هو يعتني به هذه الأيام.

وآفاق، أم بانو، التي ترسم الخطط لتزويج ابنتها لكرم علي بائع اللفت. وفي عرسها تتجاوز زوجة رحيم المكاري كل مألوف، فتبدو مستهترة للغاية، ولا تبدي أدنى اهتمام لزجر زوجها، على رغم تكراره، وتعنيفه إياها. ولكي تبعده صنم (أم كرم علي) عنها، ترقص بينهما، ولكن ذلك لا يجدي، إذ تقوم بينهما معركة، تؤدي بأن يضرب زوجته بغليون تدخين التبغ على رأسها حتى يقتلها.

وخباز المحلة، الذي يتجاهل الصبي خالداً حين يأتيه ليأخذ خبزهم اليومي

ـ لأن عائلة الفتى مدينة له ـ حتى يبيع لكل المشترين نقداً ويهمله أيضاً، حتى يأتي آخرون فيشترون، ثم يعطيه حاجته مما تبقى من خبز محروق شائه بارد.

وأبو خالد، الغائب الحاضر، الذي تتردد كلمات رسالته في أذن الفتى: «في الكويت مال، ولكن في ذل ومهانة».

وإلى آخر ذلك من لمسات جانبية، لا يطرحها الكاتب من أجل الإطالة، ولا كحيلة فنية لمجرد أن يجعلنا نصدق الأحداث، وإنما تتحد جميعاً لتمد الرواية وأشخاصها بحياة حقيقية.

أما أعصاب هذه الرواية، فقد أمسك الكاتب بخيطها منذ البداية: إنها الموازاة والمقابلة.

مقابلة بانو العجفاء الصفراء ذات البادمجانتين المتهدلتين ببلور البضة البيضاء ذات النهدين الممتلئين، مقابلة ممارسة «اللعب» مع بانو في وحل الحوض وممارسة الجنس مع بلور على فراشها النظيف.

ثم مقابلة سوداء العينين ـ التي يتبدل لون عينيها مع انفعالاتها ـ ببلور التي لم يرَ منها غير حالة واحدة، سوداء العينين التي لا يدري، ولم ندر، كيف التقت شفتاه بشفتيها، ببلور التي يعرف جيداً كيف عرّت له أدناها ويعرف ـ رغم ارتباكه ـ كيف عرّت له أدناه.

ولعل خير مثال يجمع المقابلتين معاً هو في وصفه اللقاء بسوداء العينين عندما التوت رجله واضطر إلى دخول بيتها:

«.. الآن، الفتاة هي التي تتكلم. أسنانها مائلة للزرقة. في تكلمها لطافة تهز قلب الإنسان.

ـ قم تعال إلى الغرفة حتى يخلو الطريق

يصعب عليّ الكلام. حتى الآن لم أحادث فتاة تتكلم بهذا اللين وبهذه الرقة.

ـ هَيْ أنت، جيدٌ اختلاطك ببلور خانم

ـ بانو، إن تكلمت هكذا مرة أخرى، فكل ما ستنالينه هو من فعل يدك أنت»!

والمقابلة الأشمل والأهم تتمثل في توازي خطي الرواية الأساسيين: بلوغ خالد جسدياً مع نضجه سياسياً، وتوازي حركته في الاتجاهين، الأمر الذي يفسر، على نحو ما، منع الرواية في العهد الملكي الاستبدادي بوصفها تروج للشيوعية، ومنعها في العهد الثوري المتحرر، «الإسلامي»، بوصفها تروج للإباحية والابتذال.

ولعل من أبرز تأثيرات المقابلة التي لجأ إليها الكاتب، وصفه مقتل «رضوان» امرأة رحيم المكاري. فصنم، أم كرم علي، ترقص حتى لتنسى نفسها، والقدر تغلي، وأطفال المحلة يضجون مع أصوات الطبول والمزامير، ويضرب رحيم زوجته «برأس الـ(چپق) على صدغها. تنطرح أرضاً. يطفئ ماءُ القدر اللهبَ، وكأن رضوان مضت عليها سنوات وهي ميتة».

والدم في جسد الرواية غزير، دافئ، بل فائر، وأظن مثالاً واحداً يكفي للدلالة على حيوية السرد: يعود خالد ذات مغرب إلى البيت ليخبر بلور أن زوجها سافر إلى (شوش)، فتطلب منه موافاتها الليلة، ثم تؤكد ذلك. لا يجيبها، وإنما يكتفي بالابتسام. إنه لا يريد الذهاب نظراً لحبه الجديد، ولأفضال أمان آقا عليه، ولكن لشهوته العارمة حقها أيضاً.

«كما لو أن قلبي لا يريد أن أذهب إلى غرفتها. ما أن أذكر أمان آقا حتى أعرق، لو لم يكن أمان آقا بكل هذا اللطف معي، لكانت مسألة أخرى، عندئذ

يمكن للمرء أن يقنع نفسه. أصلاً، لا يهوى قلبي أن أذهب عند بلور خانم. إن عيني أمان آقا الدقيقتين تلومانني...

ـ خالد.. أنت ابني

ليته عاركني مرة، ليته صرخ بي مرة..».

بل إنه عندما يذهب إليها:

«تملأ رائحة أمان آقا أنفي..»، وعندما يضاجعها:

«تهزني عينا أمان آقا الدقيقتان..

ـ خالد، أنت كابني.. أصلاً أنت ابني

يبرد كل جسدي».

* *

ومن الواضح أن الفترة الطويلة التي مرّت ما بين كتابة الرواية ونشرها، واستلال الكاتب مقاطع منها لنشرها مستقلة بين آونة وأخرى، قد أتاحا للكاتب مهلة إضافية، إجبارية، لتحسين روايته خلال السنوات التسع التي بقيت فيها تنتظر أن ترى النور، لتخرج بعدئذ، أول ما خرجت على الناس، ناضجة بديعة مكتملة الحلاوة والرواء:

* فالكاتب يدخل قصته دون تمهيد، إنه يدخل والحدث، ثم الحديث، جار. وهذا لا يخلّص الكاتب من المقدمات غير الضرورية فقط، وإنما يشعرنا بإلفة مع عالمه، إذ يعتبرنا كنا معه قبل قليل؛ كان يحدثنا وتوقف لشاغل ما ثم هاهو يعاود «مرة أخرى تلوّى صوت بلور خانم في الباحة الصغيرة».

* ونجده بارعاً في وصف أجواء الأحداث، وتصعيدها: تأخذ بلور خانم خالداً لتريه ـ كما وعدته ـ آثار ضرب أمان آقا على بطنها بحزامه الجلدي:

«ــ سألتها أيوجع؟

قالت ــ ليس الآن

قلت ــ حتى قليلاً؟

قالت ــ ضع يدك تر

كان قلبي يدق. جف جذر حنجرتي. كانت يدي ترتجف. كما لو أنني أصبت برعشة. عندما مسحت بيدي على موقع الحزام، سخن جسدي فجأة. سحبت يدي.

قالت بلور خانم ــ لا تخف، إنه لا يؤلم.

وسحبتْ تنورتها إلى أعلى وقالت مرة أخرى

ــ انظر هنا.. أمان آقا أصلاً لا رحمة عنده

مرة أخرى مسحتُ بيدي. وضعتْ يدها فوق يدي وضغطت. كانت ركبتاي ترتجفان. تكثف لعابي. سحبتْ يدي أعلى. كم كانت بشرتها صافية. مثل حجر الرخام بالضبط، صلبة وصافية. كان فخذاها ملتصقين أحدهما بالآخر. كما لو لم تكن ترتدي سروالاً داخلياً».

وعندما يصف انتظار حلول الليل:

«بقيتْ سنة كاملة حتى يحل الظلام».

* في استعجال الكاتب كتابة جمل متوترة ــ يريد بها نقل موقف متوتر ــ لابد له من سرعة الكتابة، مما يحملنا على سرعة القراءة أيضاً، ولهذا فهو لا يستعمل التنقيط: فلا نقطتان شارحتان قبل القول، ولا نقطة ختم بعده، كما لاحظنا في النص المنقول أعلاه.

* وهو مقتصد تماماً في تعابيره:

«عندما انتحر جعفر (أحد نزلاء البيت السابقين) شنقاً، وخلت غرفته وجاء أمان آقا فاستأجر الغرفة ثم أمر ـ على نفقته ـ فجرى تبييضها وانتقل..»، بهذا النص أطلعنا الكاتب على أمرين أساسيين بسطر واحد أو اثنين:

١- إن الأحداث تدور في بيت تؤجر غرفه لنزلاء مختلفين متعددين.

٢- إن النزيل الجديد موسر نسبياً.

وابتعد الكاتب بهذا الأسلوب عن تدخل ممطوط ممجوج.

وعندما تهدأ الأمور في الشارع ـ بعد التجائه إلى بيت سوداء العينين ـ وتتحتّم مغادرته البيت، مع إصابته التي لا يمكنه معها المشي، تقول أم الفتاة إنه لا يستطيع الذهاب بوضع رجله ذاك:

«تقول الفتاة

ـ هات رقم تلفون بيتكم نتلفن فيأتي عليك أحد.

أبتسم. تفهم المرأة كل شيء.

ـ هات عنوان بيتكم».

* وهو متمكن من الوصف السردي:

«بالغَ الجو في أعماله المزعجة. في الصبح، إذ نستيقظ، نجد الفراش كله مبتلاً، لزجاً، أصابه «الشرجي»[١٤]. كما لو أن المرء بال في فراشه.

السماء كالحليب المقطّع الذي تنتشر فوقه خيوط الدم. وفوق المدينة، كما لو أنهم وضعوا غطاء. غطاء من البرونز. الشمس أصلاً لا ترحم. يوماً فيوم تقترب من الأرض. ويوماً فيوم تصير أكبر وأسخن». أو

«عندما ذهب أبي إلى الكويت، صارت الليالي قابضة للروح بشكل عجيب. ماتزال رائحته في الغرفة لم تزايلها».

تشبيهاته بسيطة، حتى ليبدو ظاهرها نمطياً، إلا أنها ذات دلالة واسعة معبّرة. فهو يشبّه انتظار خالد لمن يريد تسليمه حقيبة المنشورات ـــ وتلك أول مهمة حزبية جدية له ـــ بعاشق يلتقي معشوقه أول مرة! فهو هناك لا يصور لنا قلقه فقط، بل وعشقه لما يفعل أيضاً.

* يحسن الاستفادة من التراث بدون افتعال وإقحام:

«منذ أن أعطى الحاكي، في مقهى أمان آقا، مكانه للمذياع، زاد عدد الرواد. خاصة عمال النفط، الذين كما لو أن أحداً كان **يحرق شعرهم وقت الأخبار**»! وكذلك المخبر «علي شيطان» فهو يبزغ فجأة، لا حين لا يتوقعه فقط، بل حين لا يريده قطعاً، كما «لو أنك أحرقت شعر جسده، يطل فجأة من عالم الغيب»[١٥].

* ويتميز بانسيابية الإيحاء، كما شاهدنا في فهمه دواعي معاملة الخباز له، ومثلها في معاملة العطار، أو في نقده لسياسات الحزب الإعلامية، أو في هذا النص:

«هذا الكتاب الأخير ما أملأه بالأحداث. كم هو مليء بالأحداث وكم التذذت من قراءته. أي مخلوق هو «پافل» هذا. عميَ ولم يتوقف.

أعجوبة. لا يستطيع أي امرئ أن يعيش مثل پافل. ينبغي أن يكون المرء من فولاذ كي يتمكن من تحمل كل هذه المصاعب ليتفولذ»: هكذا عرفنا الكتاب من دون ذكر لاسمه، كتاب بطله الأعمى المتفولذ پافل.

أو في قوله: «عندما أصمم على العناد، فالشمر[١٦] نفسه لا يستطيع أن يقف بوجهي».

* وهو لا يتردد في الاستفادة من التشبيهات كلما وجد حاجة إليها لإغناء وصفه: ففي وصف التعذيب بالسوط، أو في تذكر خالد ـ عندما كان رئيس السجن يحاول إقناعه بصرف النظر عن الإضراب بحلو الكلام ـ وموقف هذا الرئيس، الفظ البذيء القاسي، عند بدء الحديث عن الإضراب. أو «نظرة ناصر دواني (أحد السجناء العاديين) أصيبت بالسكتة على كفل هاجر خانم»، ولك أن تتصور كفل هاجر هذه، خاصة وأن ناصراً ليس ممن لم يروا امرأة من قبل، بكفلها أو بغير كفلها. و:

«فجأة أسمع صفيراً. مثل صفير ممتد لأفعى غاضبة. يلتهب ظهري كما لو أن قضيباً حديدياً أخرج من كانون فالتصق بلا إنذار على جلد ظهري..».

* وجمال الوصف عنده لا يقتصر على وصف الجميل، كسوداء العينين أو الطبيعة أو ممارسة خالد الجنس النظيف على فراش مريح، وإنما يتجاوزه إلى وصف القبح والسوء أيضاً:

يهدد الجلواز (شهري) خالداً بأنه سيعد إلى العشرة ليتلقى جوابه، وإلا فعليه أن يوصي:

«وينوي العد

ـ واحد.. إثنان..

كما لو أنني أسمع صوت خالتي رعنا

ـ كم هذا الولد لجوج يا أختاه

ـ .. ثلاثة.. أربعة..

الآن، صوت أبي:

ـ لو أنكِ لا تتسترين عليه إلى هذا الحد، ما صار بهذا العناد

تصب أمي الدمع بهدوء

ـ ... خمسة.. ستة..

عندما أصمم على العناد فالشمر نفسه لا يستطيع أن يقف بوجهي».

وفراش البيت البائس، الذي جاؤوه به في السجن:

«في كل عقدة حياكة من السجادة المهلهلة تعشش رائحة أبي ورائحة تبغ أبي.. أمسح وجهي بالسجادة.. أريد أن أبكي. مخدة أمي. أغرز خدّي بالمخدة وأشم. تخنقني الغصّة. يكفي أن ينادي أحدهم عليّ ويكلمني لأنفجر بالبكاء. لم يكن قلبي في أي وقت رقيقاً على هذا النحو. كما لو أن لمّةَ أمي منشورة فوق المخدة. كما لو أن أبي جالس على السجادة يلف سيجارة. أسمع صوت أبي المغتم. من بعيد، من قعر بئر».

ولا يطاوعني قلبي على أن أنهي الحديث عن الجيران دون الإشارة إلى لقاء خالد بأبيه وقد عاد هذا من الكويت، وحصل على إذن مقابلته في خارج مواعيد الزيارة الاعتيادية:

«من وراء باب المطبخ أدور إلى ما وراء الحمام فأدخل غرفة الملاقاة. أتسمر فجأة. أبي واقف خلف القضبان. صار شعر رأسه أبيض تماماً كله. لا رمق في نظراته ولكن في قعر عينيه يستقر لون من غرور. حالة تجعل شعر بدني يقفّ. استقرت بسمة باهتة على شفتيه. يبدو أن أهدابه مبللة. تخنقني العبرة. لا أستطيع الكلام أصلاً. يمد يده عبر القضبان. أمد يدي. أضع، بمعاناة، كتفي بين قضيبين. تصل يدي يده. تجعل عقدة كفه الخشنة قلبي يرتجف. يزدرد ريقه. تصعد تفاحة آدمه وتنزل. صوته يخشخش..».

## ٢ ـ قصة مدينة:

هذه الرواية هي الامتداد الطبيعي لـ«الجيران»، كما أنها ثاني رواية تصدر للكاتب. إنها، أساساً، قصة (خالد)[١٧] الذي يعيش مبعداً سياسياً في مدينة ـ ميناء في أقصى الجنوب، في خواء تام، يقضي يومه في النوم ومساعدة الخباز ومرافقة صديقه ـ الذي تعرّف عليه هناك، والذي يعمل في وحدة حراسة السواحل ومطاردة المهربين ـ في الأوقات التي يختلسها هذا للتحشيش داخل بستان يدير بساط التحشيش فيه رجل غريب و«امرأته» الجميلة المشتهاة عند آخرين، ولكن التي لا تلقى اهتماماً من خالد، وأمسياته في الشرب: «عملي كل ليلة، عندما تغيب الشمس، إما أن أذهب إلى ساحل البحر، أتمدد على الرمال وأشرب العرق، أو إلى التلة حيث أجلس مع الصحاب حتى ينتصف الليل فأتخدّر وأذهب لأنام إلى اليوم التالي حين يحلّ المساء».

وكما لو كان الكاتب يقشر بصلة، فهو يدخل ذهن الراوي لينقل لنا عنه تسليمه من السجن إلى مأموري الانضباط العسكري، حيث نقلوه إلى سجن الفرقة المدرعة الثانية (حيث اعتُقِل بعض وجوه حكومة الدكتور مصدق بعد الانقلاب عليه سنة ١٩٥٣، ومجموعات أعضاء تنظيم ضباط حزب توده الذين حوكموا وحُكم عليهم بالإعدام وتم تنفيذ الحكم ضمن سياج مقر الفرقة). وبالطريقة نفسها أيضاً يحدثنا الراوي عن تعذيبه ورفاقه، ومشاهدته ـ وإياهم ـ تعذيب آخرين، وعن مجاورته ـ وإياهم أيضاً ـ في معتقلهم العمومي، للضباط المسجونين في زنزانات انفرادية، كما ينقل لنا صوراً رائعة عن سلوكهم ومعنوياتهم العالية، ثم إعدامهم، فهجوم عوائلهم على السجن لتسلّم جثثهم، ومقابلة إدارة السجن ومأموريه لهم بالهراوات أولاً ثم بالنار!

وخالد في حياته هذه لا يهتم لشيء، ولا يحاول تبديل حياته: إنه يعيش تسليماً مطلقاً ويأساً مطبقاً: لا علاقة له بزملائه المبعَدين إلى «موانئ» مجاورة، لا متابعة لأخبار الوطن والعالم، لا قراءة لكتاب أو جريدة ــ وحتى عندما يأتي كتاب صغير يفتحه لقراءته، يجد حروفه دقيقة جداً فيكون ذلك ذريعته لتأجيل قراءته، إذ يسعى لتأمين مكبّرة أولاً! ثم ينسى الأمر كله ــ ولا محاولة ــ بالطبع ــ لتثقيف من حوله وتثويرهم وكسبهم إلى حزبه كما هو منتظر.

وإذا ما تذكّرنا وصف الراوي لبطولات الضباط، وإعجابه ــ ومجموعة السجناء المدنيين وأشباه العسكريين معه ــ بهم، وعرضه مشاهد من التضامن الشعبي معهم، ومشاهد من التضامن الشعبي مع مجموعته هو يوم إبعادها، فإن موقفه الجديد يبدو لنا غريباً. ولكن إشارة، ربما كانت الوحيدة، تدلنا على ما يدور بذهن الكاتب:

تأتي هيئة تفتيش إلى الميناء للتحقيق في شكوى رفعها نائب ضابط كشف اختلاسات اتهم فيها ضباطاً بأسمائهم بتسلّم رشى من المهرّبين ومساعدة هؤلاء على حماية تهريبهم بجنود الحكومة وأسلحتها! ولكن الهيئة ــ بدلاً من محاسبة الضابط ومساعدة المتهمين ــ تهدد المخبِر عنهما بالعقاب لأنه يتهم الآخرين بلا دليل!

ويلتقي خالد بزميل له سابق في الكلية العسكرية، يرافق الهيئة الآن عضواً فيها، وكان قبلاً على ارتباط ما بالحزب، فيحيي أحدهما الآخر ويتعانقان. يسأله صاحبه إن كان يريد أن يرسل له شيئاً عند عودته فيقول: نعم، عرق إن أمكن. لكنه عندما يتجاذب أطراف الحديث مع هذا الزميل السابق يجد أفكاره تبدلت جميعاً. كان يؤمن بأن عقيدة شخص واحد إن كانت صادقة يمكن إثباتها

وسيادتها، أما الآن فهو يتظاهر بأنه صدّق أن الذي أخبر عن التهريب والرشى كان تقريره «واهياً»، وعندما يحاصره خالد مشيراً إلى رأيه القديم يتضاحك قائلاً إن ذلك كان مجرد كلام! ثم ينبّه خالداً: «كنت أتصور أن الظروف الراهنة صارت تجربة لك!».

مع بداية الرواية تأتي الميناءَ ـ المدينةَ عاهرةٌ جديدة: «شريفة»، الجميلة الممشوقة، ذات النزوات، التي تنتقي رفاقها على هواها، ولكن التي قد لا تمنحهم وصالها حتى عندما تدعوهم.

وتستحكم علاقتها مع خالد، في حين أن صديقه علياً لا يزورها قط ـ لا ورعاً منه! في حين ينزعج علي من كل من يذكر شريفة، أو يسمع أنه مرّ على شريفة، حتى أن اتصالاته بخالد نفسه تتناقص، ويبدو كالمتهرب منه.

وإذا ما علمنا أن علياً حدّث خالداً مرة عن صديق له فرّت أخته من البيت وهو يبحث عنها ليقتلها، وليس عنده غير صورة جماعية لها معه في طفولتهما، مع أبيهما حيث يجلس الأب في الوسط ويطوّق بذراعيه عنقي ابنيه، فإن مجيء شريفة إلى هذه المدينة المنزوية لابد أن يثير في نفوسنا ريبة أن تكون هي الفتاة المقصودة، جاءت إلى هنا للابتعاد عن أهلها، وإلا فأية عاهرة شابة وجميلة تترك المدن الكبيرة حيث الأضواء والمكسب المادي لتأتي إلى ميناء ليس فيه غير شارع واحد، وقد شغلته قبلها بضع عواهر؟!

ولعل الإشارة الأخرى في المدلاّة التي تعلقها شريفة: فعندما يحاول خالد فتحها ليرى ما فيها تمنعه بشدة، مدّعية أنها مجرد حاوية فارغة، لا شيء فيها. وهو يعثر عليها بين أغراض علي التي تسلّم له بعد مقتل هذا!

وتنتهي الرواية بمقتل شريفة، وإلقاء جثتها في البحر، من دون أن تعثر الشرطة على الفاعل. وعندما يرى خالد في المدلاة صورة طفلة وطفل مع

رجل، يفهم الأمر: لقد قتل علي أخته «غسلاً للعار»! ولكن، كأنما كان لا يؤمن بقتل كهذا فانتحر هو أيضاً.

* *

بقدر ما يبدو خطا الرواية الرئيسيان ــ حياة خالد وماضيه السياسي ومشاهداته ومعايشاته أثناءه، ومأساة شريفة ــ منسجمين رائعين إذا ما نظرنا إليهما كلاً على حدة، إلا أن الجمع بينهما في رواية واحدة، أو الجمع بينهما لخلق رواية واحدة، لم يكن له مبرر، فدخول شريفة المسرح لم يبدّل شيئاً من سلوك خالد، ولا ألقى حجراً في بركة حياته الراكدة في المدينة ــ الميناء: إذ كان يزورها ويضاجعها ويشرب عرقه، وربما في اندفاع أقل، وما كان اهتمامه بها ليزيد عن اهتمامه بزوجة منظم بساط التحشيش في البستان ــ التي لم يكن قد نالها بعد.

ولهذا، فبقدر ما بدت «الجيران» وحدة متماسكة تطورت تطوراً طبيعياً يصعب معه ــ إن لم يكن يستحيل ــ حذف جزء منها دون تخريب بنائها، نجد من اليسير بمكان هنا أن نحذف كل ما يتعلق بشريفة دون أن يتأثر بناء رواية قصة خالد، أو العكس، بحيث تكاد الرواية تكون روايتين.

ولعل ذلك هو ما يجعل الأقسام التي خصصها الكاتب في الرواية لوصف تعذيب ومحاكمات ومعيشة وإعدام ضباط حزب توده ــ على روعتها الذاتية المستقلة ــ تكتسب روعة خاصة في هذه الرواية.

* *

وإذا كانت «الجيران» من أدب الواقعية الاشتراكية بامتياز، فإن «قصة مدينة» واقعية كلاسيكية، بل ربما تهبط في جوها العام إلى طبيعية، أو واقعية

تصويرية في حال أفضل. فصحيح أن الحركة الوطنية الديمقراطية للشعب الإيراني اتسمت بالتراجع والسلبية بعد إسقاط حكومة مصدق وتسلط الكارتل النفطي العالمي، بقيادة الولايات المتحدة الأميركية ـ على مقدّرات إيران الاقتصادية والسياسية، وأن الحركة الشيوعية تعرضت لضربة شبه ماحقة بكشف تنظيم ضباطها وإعدام قادته ومسؤوليه جميعاً، إلا أن المؤلف لم يرَ في الأفق شيئاً يدل على أي مخرج من ذلك الوضع مطبق السواد.

* *

ولكن هذا لا يعني أن الرواية لا تمتاز، فهي:

* تبدأ مثل كبة خيوط متشابكة، يبدأ الكاتب بفكها من ذهن الراوي وعرضها علينا، أو مثل بصلة يبدأ بنزع قشورها واحداً واحداً ليرينا بين طياتها ما يريد. فهي تبدأ من آخر الحكاية: مراسم عسكرية لدفن «علي»، يشرد ذهن الراوي خلالها فيتذكر أول تعرّفه على علي، كما يتذكر التقاط جسد شريفة من البحر: وهكذا قدّم لنا أبطال الرواية الثلاثة دون أن نعرف عنهم شيئاً، وإنما قدّمهم مغلفين بالغموض.

وتبقى قصة علي مع شريفة محكومة بطابع قشور البصلة أيضاً: وهو يزيل القشرة الأولى بهذا الوصف: «مرة أخرى، تملأ الابتسامة عرض وجهه فتلتمع عيناه و ـ لا أدري لماذا ـ تُحيي نظرته الخبيثة ووضع عينيه الممتلئتين ألقاً غير القابلتين للتصديق، تُحيي في ذهني شريفة»!

يتعطل سائق شاحنة في المدينة ـ الميناء، وإذ يرافق علياً وخالداً في صعودهما التلة إلى مقهاها، يسألهما: أين مبغى المدينة؟ فينفي خالدٌ وجود مبغى!

«إهه! ليس هناك مبغى!.. طلا.. شريفة.. أليستا قحبتين؟.. يستشيط علي غضباً. يتوقف عن المضي لحظة فيواجه السائق.. ويقول: ـــ امض لسبيلك..»!

وعندما يغادر السائق مقهى التلة، ينتظر علي قليلاً ويطلب مزيداً من العرق، ثم ينصرف زاعماً أنه ذاهب إلى [ميناء] كنگ، ولكنه يسأل خالداً في الطريق أين يتصور السائق قد ذهب. «.. لا أرتاح أصلاً.. لعينيه الخضراوين..».

وفي اليوم التالي لاكتشاف جسد شريفة يأخذ رئيس الشرطة كل من كانت لهم علاقة بشريفة إلى بيتها لمعاينته. وفي ذلك اليوم يعود علي ـــ وكان غائباً منذ أيام ـــ إلى الظهور، فيفهم الراوي من حركاته وتصرفاته أنه لم ينم ليلته، وأنه شرب صباحاً. في حين يبدو أن رئيس الشرطة «قد أغلق إضبارة شريفة إلى الأبد». وإذ يعرف علي بذلك، يصرّ على أخذ خالد معه إلى البستان، ويصمم خالد ألا يدخن الأفيون هذه المرة، ليرعاه، فينتبه إلى أن «خورشيد كلاه» (زوجة مدير بساط التحشيش) تميل إليه.

وتذهب شريفة إلى [ميناء] خارك ذات يوم، فيذهب خالد إلى بيتها ليرى إن كانت قد عادت، ولكن يرى بدلاً منها علياً! ـــ «إذن فأنت أيضاً؟»، ولكن هذا لا يجيبه.

ويقترح عليه علي أن يتزوج شريفة، مادام يذهب لينام معها كل ليلة، إذا كان يحبها. لكنه يعترض لأنها ـــ كما يعرف علي ـــ... فيقول علي: قحبة؟ لا يريد خالد أن يذكر هذه اللفظة، ولكن علياً يواصل: «ـــ لو كانت قحبة، فنحن الرجال صنعنا منها قحبة! في كلامه ظل من غضب، أو من عصبية، أو شيء بين الغضب والعصبية».

ويقول السائق لخالد إن رفيقه غريب التصرف والكلام، فقد طلب منه أن

يتأخر بضعة أيام (بعد أن واعدته شريفة على السفر في شاحنته إلى مدينة أخرى عند غروب شمس ذلك اليوم) لأنه قد يرسل معه شيئاً! ويشير من طرف خفي إلى أنه كسر جزءاً من أجزاء شاحنته كي يعطلها!

الكاتب، كما في الجيران، لا يقول شيئاً، تقريباً، مباشرة. فميناء لنگه، الذي أُبعد إليه خالد ويقيم الآن فيه، صغير، ولكننا نعرف ذلك عن طريق تعابير وصفات مثل هذه:

* «إذا أردت أن أبحث كل بيوت لنگه بيتاً بيتاً فلن يأخذ ذلك مني أكثر من ساعتين».

* «تنتشر الأخبار سريعاً في ميناء لنگه، ما أن تطرف عينك حتى يكون الخبر قد قطع طول سوق المسّاح من فم إلى فم ثم عاد».

* ويقول سائق الشاحنة:

«[كيف تتحملون؟.. لففت كل مكان في ساعتين. فيها مقهيان أحدهما أبأس من الآخر. فيها مخبزان وسبعة وثلاثون دكاناً من بائع الصحف إلى بائع العرق وبائع الأحذية. جمعاً تصير سبعة وثلاثين، أحد عشر منها محلات بيع سمك]. من طريقة كلامه، أستدل أنه قد لفّ كل مكان».

ولتأكيد صغر الميناء ـ المدينة، ولبيان فراغ الناس وثرثرتهم، يلجأ الكاتب إلى الأسلوب نفسه أيضاً: يريد الراوي أن يأخذ إجازة من مكتب النقطة للذهاب إلى كنگ للاطمئنان على عليّ، فيعرب نائب الضابط المسؤول عن خوفه من أن يكتشف الرائد أو العقيد أنه منحه الإجازة، ولكن خالداً يسأله: وكيف يفهمان؟

«[كيف يفهمان؟] فجأة يستدق صوته: [«كيف يفهمان؟.. في هذه المخروبة عندما يحل الصباح يعلم الجميع من نام الليل مع زوجته!.. كيف يفهمان؟!]».

وكذلك في حديثه عن سأم خالد ولا أباليته:

* فقد رأيناه لا يقرأ الكتاب الذي أرسله زميله، لأن حروفه صغيرة، ويفكر في الحصول على مكبرة، إلا أنه لم يتابع الأمر فلم يحصل عليها.

* يأتونهم في السجن بعربة يد فيها ما يتصورونه قطع آجر، ولكن يتضح أنه خبز! يكسره أحدهم بجزمته العسكرية. يأخذ خالد قطعتين ليستعملهما وسادة بدلاً من الجزمة! ولكن صلابتهما لا تطاق فيعود إلى الجزمة! وبذلك لا يحتاج الكاتب أن يشرح كيفية منامهم أو يطيل الحديث عن سوء غذائهم.

* ومن فراغ الناس نجد دعاواهم ومعاركهم مستمرة، في خلاف يثيره «محمد نور» أو الـ«مرشد» فيما بينهما عن السنة والشيعة، حتى تنشب معركة بالأيدي تؤدي إلى اعتقال أربعة عشر شخصاً منهم في إحدى المرات!

* ولا يبالي خالد بتحديد دقيق للوقت. يسأله علي: «ـ كم الساعة؟» فيجيب: «ـ لايزال الوقت أول الليل».

* كما لا نشاهد ردة فعل منه على توبيخ نائب الضابط له، لإهماله هندامه، فلا حافز عنده للرد عليه، بل يكتفي بإعلامنا أن الضحكة تخنقه من سلوك نائب الضابط، الذي لم يتناول أفيونه ذلك اليوم!

* وقد يلعب الحر الخانق دوراً في كسله وسأمه: «وصلتْ إلى «علي دادي» رسالة من ابنه. يريدني أن أكتب جوابها، ولكن لا دافع عندي. أفرغتني الحرارة من الطاقة».

* وفي إظهار تعاطف المواطنين مع الفتية المبعدين أيضاً، لا نجد نصاً مباشراً، وإنما إشارات:

* مقابل موقف حرس السجن الخشن والقاسي منهم ـ فقد لقّنهم رؤساؤهم

أشياء عنهم ـ نجد مجموعة الحرس التي تسلمتهم لنقلهم إلى نقاط إبعادهم تعاملهم بشكل طبيعي. فعندما يصلون مقهى المرأب الذي ستنطلق منه سيارتهم، يفك العريف جامعات أيديهم، ويسمح لهم بتجفيف أنفسهم قرب مدفأة المقهى.

* يقدم لهم صاحب المقهى الشاي والإفطار، ويعد لهم شاياً جديداً يقدمه لهم بعد الإفطار، وينتهز فرصة أثناء تحركه بينهم وبين مرافقيهم الجنود فيهمس لخالد «إن كانت عندكم رسالة لأحد قولوا!». وعندما يريدون أن يعطوه مالاً عند مغادرتهم مقهاه، لا يأخذ، بل يدس هو مالاً في يد أحدهم!

* يسمع رواد المقهى في الأخبار عن إعدام الوجبة الثانية من الضباط، و«فجأة تخمد كل الأصوات». وكان عجوز يحاول الاقتراب منهم ولكن العريف يبعده لأن أمرهم لا يخصّه، يحاججه بالقول: «إنهم أولادي، فكيف لا يخصني الأمر؟».

* في مدينة على الطريق تتوقف بهم الشاحنة. تفهم فتيات مدرسة وضعهم، وتقترب اثنتان منهن منهم لتسألاهم إن كانوا يريدون شيئاً بإمكانهما أن تفعلاه لهم!

* حتى أفراد مركز نقطة الإبعاد، رغم أنهم يعرفون وضعه، ورغم أن ثمة رائداً يتربص به، يتحينون الفرص لإظهار تعاطفهم:

ـ يلاقيه عريف مركز الحدود ذات يوم ويطلب منه زيارته في مقره حين يجد وقتاً، ويستغرب الطلب ظاناً أنه أمر عسكري، خاصة وأنه لابد أن يذهب إلى النقطة كل يوم في الساعة العاشرة كي يسجل حضوره في المدينة. ولكنه عندما يذهب إلى هذا العريف، يريه هذا ملصقاً يحمل صور ضباط هربوا حديثاً من المعتقل! ويتعرف خالد على بعضهم.

ـ يُعتقل عريفان من الوحدة التي تشكل نقطة الميناء جزءاً منها، بتهمة الشيوعية. وإذ ينتشر الخبر في كل ميناء لنگه، تدور الإشاعات حول ما الذي انكشف: تنظيم ضباط الصف أم تنظيم الميناء، ومع أن آمر المعسكر ومعاونه يحرصان على إبعاد خالد عن المعسكر سريعاً، إلا أن ضباط الصف الاعتياديين يتحدثون إليه، أو فيما بينهم، عن المعتقلين، فهم يعرفونهم، ويمتدحون طيبتهم.

ـ ويكاد هذا التعاطف يسبب له مشكلات: جاء جندي إلى لنگه في زيارة إلى أهله، وأرسل رسالة إلى أصدقائه، في محل خدمته، نقل لهم فيها تحيات الجميع، ومن جملتهم خالد «الضابط الاحتياط، مخلوع الدرجة، المُبعد، الذي أرسل [تحياته النارية]»، مما يؤدي إلى تحقيق الرائد، معاون آمر المعسكر، معه، وقراره بإبعاده إلى جزيرة نائية!

* وقد صار وصف الكاتب للمشاهد الجنسية أكثر اختصاراً وأشد ابتساراً مما كان في الجيران، ولكن لعله ازداد تألقاً:

ـ «.. فجأة تفور الشهوة. نتمدد على الـ«گليم»[١٨] الريفي مهلهل الحياكة الذي يضم كل ألوان الدنيا في مكان واحد.. يلتف أحدنا بالآخر.. تكويني بحرارة جسدها ونبضها والتهابها.. تترك كل وجودها في حضني».

ـ «.. كأن نهديها نافدا الصبر، تتملكهما رعشة هادئة..».

ـ «وضْع وجهها يوحي بارتخاء وكسل لذيذين لما بعد عناق أرضي».

* وقد صقل الكاتب هنا لغته، فصار ينتقي الألفاظ ليرسم صوراً أكثر تعبيرية:

ـ «يصب صوتُه النومَ في عيني».

ـ «النسيم الملائم.. يصب النوم في عيني».

ـ «صوت خشن، مثل غرغرة محنقة لخنزير أصيب بطلقة، جرح ظلمةَ ما تحت خيمة الشاحنة».

ـ «صدر العجوز يفور في الخشخشة. كما لو أن أحداً يخرط شيئاً. كما لو أن أحداً ينشر جذع شجرة يابساً».

ـ «كما لو أن الخوف التصق بكل مكان وعانق البيت».

ـ «القمر يشبه قنديلاً كبيراً علق فوق البحر».

ـ «[هو] من النحافة بحيث يمكن عقده».

ـ «ينظر الناس إلينا. رؤوسهم كزهرة عباد الشمس تدور معنا».

ـ «موج البحر، مثل بعير سكران حقود مزبد، يرتفع ويتلوى ويلتفّ على نفسه في الهواء ثم ينهار، كالأنقاض، على سطح البحر».

ـ وإليك وصفه نضوج التمر:

«شهريور[١٩] موسم «انطباخ التمر». يصير الجو من الحرارة والوخامة بحيث لا يعود البلح يَحتمل. يتخذ قليلاً قليلاً لوناً ذهبياً. ثم، تُلوِّن نقطٌ أرجوانية الجلدَ الذهبي للبلح وتنقّشه. تشتد الحرارة. تتراكض النقط، تصل بعضها إلى بعض: يصير البلح أرجوانياً كله. تسطع الشمس. يصير البلح بلون المغرة الداكنة ثم، مع تليّن باطن البلح يحل لونٌ قهوائي حاد محل لون المغرة ويصير الثمر، كالعسل، حلواً».

* ولا حاجة إلى القول بأن النماذج التي سقتها أعلاه تنطوي أيضاً على دقة التصوير، وملاحته، النابعين من حدة ملاحظة الكاتب.

ـ وتمتد حدة الملاحظة هذه، وحلاوة الوصف هذه، لتشمل أقبح شيّء في الوجود: سوط الجلاد:

«يرتفع سوط (شهري) في الهواء ملتفاً، ينفتح، يتطاول، يتقوس، يشق الهواء، يصفر وينزل فيستقر على قدميْ (إحسان) الحافيتين.. ثم يرتفع السوط مرة أخرى، يتلوى ــ كحية جريح، مثل حية سحرت صيدها، تمد عنقها ــ ثم يتقوس مرة أخرى فيهبط لاهثاً...».

ــ والوصف ينسجم مع حالة الراوي النفسية تماماً:

كان خالد يحب (بيدار) فلا يجد فيه عيباً، ولكن هذا انهار الآن فخان، فصار هكذا:

«ينبغي أن يموت بيدار، مع أنه ميت الآن أيضاً.. بضحكته عديمة الملح تلك التي تبعث على الغثيان وبهيكله غير المنتظم ذاك الذي يصلح لخيال مآتة في بستان، بلون وجهه ذاك الذي يجعله يبدو كمن فرّ من قبر».

وعندما يهيئون الراوي وزملاءه للإبعاد يستدعونهم فرداً فرداً إلى مكتب مقر الفرقة، ويجري تفتيشهم هناك! يطلب منه عريف ــ يمارس الرياضة التقليدية[٢٠]، وكل صدره وذراعيه موشوم بقصص الشاهنامة ــ أن يتعرى! وإذ يخلع قميصه يكرر عليه الأمر، فيخلع بنطلونه، فيأمره بأن يتعرى كما ولدته أمه! «يبدو أن العريف العجوز يتعمد تعذيبي بالنظر. ينظر إليّ من رأسي إلى قدمي ثم يقول: استدر! يسيل العرق من صدغيّ فيرسم خطّين على خدَّيَّ وينزلق على طول عنقي [ــ اليد على الجدار!] أحس نظرة العريف الرياضي العجوز على قفاي وظهري. كل مؤخر عنقي وظهري يصير إبراً، ويغلي عرقي هادئاً».

وعندما ينعي إليه (خروشي) علياً:

«لا أسمع صوت خروشي القطني. فكه يتحرك، كما لو أنه يبكي. تخدرت

أذناي. إن الكلمات التي تخرج من فم خروشي، بدلاً من أن تدخل أذني، تصطدم بكومة قطن فلا يرتفع منها صوت».

وعندما ينتبه ويتأكد مما سمع ويفهمه، يقوم راكضاً للذهاب إلى حيث الجثة، وهنا يتألق مرة أخرى سرد محمود (أقول: أخرى، لأنه تألق قبل ذلك في وصف إعدام الضباط، الذي سأفرد له مكاناً آخر من هذا البحث). ففي ضربات فرشاة أو عصا مايسترو، يأتي بلغة مضغوطة تكشف جلياً وضعه النفساني في نحو صفحة ونصف صفحة حملت أكثر من خمسين فعلاً! أكثرها أفعال حركة: رحت، أسرعت، ركضت، انزلقت، خلّفت ورائي، والخ...

* وفي الرواية لمسات إنسانية هي، على قصرها، آيات في الدلالة والتعبير:

ـ ثمة عجوز معتقل مع كنّته الحامل التي يريدون منها استقصاء مكان زوجها المختفي، فيعذبونهما بالتناوب وليعترف منهما من يعترف قبلاً! يأتون بالعجوز من مكان التعذيب إلى حيث خالد وجماعته، فيعطيه هؤلاء شاياً في الصباح، وينقع له خالد خبزاً بالشاي فيطعمه، ويرى الامتنان في عينيه. يلحّ العجوز في السؤال عن ابنته، ويريد أحدهم أن يوقف أسئلته: «يخلط يعقوب الكلام ـ أعندك خبر عن ابنك؟ فجأة تصير نظرة العجوز ـ رغم كل الضعف ـ معاتبة. يتوقف عن مضغ الخبز، وتستقر شفتاه بإحكام في مكانيهما».

هي نظرة عتاب معناها: أأنا طفل لتخادعني؟ كيف تريدني أن أذكر أخبار ابني، إن كانت عندي، هنا، وللجدران آذان؟ أما زمُّ شفتيه بإحكام ففيه معنى إضافي: قد تكون أيها السائل جاسوساً، محققاً، وجوابك الصمت (عند من لا يستطيع الإنكار!).

ـ يعود الجلاوزة بأحد الضباط، بعد أن عذبوه ساعات، مسحولاً فهو لا

يقوى على السير، دامياً مهشماً. إلا أنه «يرسل بياناً للجميع»! بأن يدقّ بطرف ملعقة على ظهر صحن طعامه علامة مورس: سكوت! فيرد عليه من يريد، بنفس الطريقة والوسيلة: تحية!

ـ موزع الشاي شرس، مشاكس، نافد الصبر. ولكنه عندما يرى معتقلاً، جيء به من مركز التعذيب حديثاً، دامياً مكسور الجمجمة فاقد الوعي، يرق للمعتقلين قلبه فيعطي أحدهم شاياً، مع أنه جديد لا حصة له! رغم أنه يعنّف المعتقلين لمّا يرى رفيقهم الدامي: ماذا يعطيكم ستالين بحيث تتخلون عن كل شيء؟!

ـ بعد إعدام الضباط يبدأ أحد المعتقلين يصلي، ويحس في الصلاة راحة عميقة، ولما يطلب منه أحد زملائه أن يدعو لهم، يتصوره يسخر منه، فيطأطئ رأسه خجلاً، ولكن زميلاً آخر يخبره أنه لم يقصد سوءاً.

* يستخدم الكاتب التكرار لتصعيد الجو، أو لتأكيده، كتكراره رقم سيارتي الإسعاف اللتين تحملان الضباط إلى ساحة الإعدام: «أرقام سيارتي الإسعاف تلتصق بأذني مثل «القرار»: ٢٢٢١ و٢٢٢٢!». أو إعادته «قتلوا» في مشهد إعدام الضباط لتصير «قراراً» رائعاً، أو تكراره وصفاً سبق أن ذكره في الجيران لمدينته «إن المدينة من الصغر وقلة السكان بحيث لو أنني قطعت عصر ذات يوم شارع (پهلوي) ذهاباً وإياباً لرأيت كل أهل المدينة».

* ويستعمل الكاتب هنا أسلوب الحوار مع الذات، كما نرى في حديث خالد مع نفسه أمام المرآة بعد معرفته بمقتل شريفة ورؤية جسدها، وبدون مرآة بعد إنهاء التحقيق الأولي معه بخصوص الأمر نفسه.

ولكن كل هذا المديح الذي دبجته لهذه الرواية لا يعني أنها تخلو من عيوب. لقد أوضحت عيبها الأساس في أنها قصتان، لا ترتبط قصة شريفة ومقتلها بقصة المبعد الذي يتذكر أيام سجنه واعتقاله، وتعذيبه، ومشاهداته فيهما.

والعيب الثاني أن بعض تداعياته غير مقنعة، لا نحس انسيابها بشكل طبيعي إلى ذهنه، وبعضها الآخر يطول، كما لو أن الكاتب ينسى نفسه، أو يستجيب لرغبته في استعراض سرده الجميل.

كما أن بعض شخصياته غير مقنع، في تفكيره على الأقل. فثمة معتقل جديد، هو رائد في الجيش، يتعاطف مع الحركة منذ زمن، وربما له علاقة أكثر من مجرد التعاطف، إذ أن خالداً يتذكر له مأثرة معه قديمة. هذا المعتقل، الذي له معرفة بشؤون السياسة، والرائد في الجيش، عندما يرى الجلاوزة يعودون بأحد المعتقلين بعد «وجبة» تعذيب يتعجب ويندهش! ويأخذون معتقلاً آخر، فيسمع من كلام المعتقلين أنه «لا أحد يدري إن كانوا سيعودون به سالماً»، أو «إن كان سيعود أصلاً»، يفهم ماذا يعني التحقيق!

«ـ إذن، فالتحقيق يعني..!».

* *

إعدام الضباط

إن رواية قصة مدينة هي، بلا مراء، رواية إعدام قادة تنظيم ضباط حزب توده أساساً وحصراً. وقد أثرت هذه الواقعة في الكاتب لأنه كان عضواً ـ وإن خارجاً لتوه ـ في الحزب الذي كان ينتمي إليه أولئك الضباط ذاتهم، ولأنه كان شاهد عيان على الإعدام، ولأن أحد الناجين منها كان صديق عمره إلى الممات. وهو يتذكر تفاصيلها، بما في ذلك وقت التنفيذ: دقيقة وساعة ويوماً، ورقمي سيارتي الإسعاف اللتين نقلتا المعدومين إلى ساحة الرمي حيث أطلقت عليهم النار، والنشيد الذي أنشدوه وهم يتجهون إلى ساحة الإعدام، والهتافات التي أطلقوها قبل الإعدام، وحتى تعابيرَ الشماتة والفرح والارتياح على وجوه المدعي العام العسكري وممثل السلطة

العسكرية التي حاكمتهم وأنزلت بهم الأحكام، ومندوبي الولايات المتحدة اللذين أشرفا على تنفيذ الإعدام.

وقد صرح الكاتب لمحاورته المذكورة سابقاً[٢١]: «في الفترة التي قضيتها في [مقر] الفرقة المدرعة الثانية كنت ناظراً وشاهداً على جميع الأحداث المذكورة في (قصة مدينة). سجنت شهراً في الحمام الخرب للفرقة..، الذي كان محل التعذيب، أنا وإثنا عشر طالباً آخرين. ثم نقلونا إلى الصالة العمومية لمقر الحرس، المكان الذي يقع في نهاية الزنزانات الانفرادية التي جرى فيها التحقيق مع الضباط وتعذيبهم ثم إعدامهم. هناك كنا نمر يومياً مرة أو مرتين من أمام هذه الزنزانات في طريقنا إلى الساحة، وفي بعض الأحيان ــ إن أنِسْنا غفلة من عيون الحرس ــ كنا نتبادل بعض الكلمات مع السجناء الانفراديين.. من نافذة الموقف العمومي لمقر الحرس، رأينا الوجبة الأولى من الضباط، التي أخذوها إلى ساحة الرمي للإعدام. لم يكن ميدان الرمي يبعد عنا كثيراً. رأينا كيف أخذوا المجموعة الأولى، وسمعنا الطلقات عند السادسة وأربع دقائق من صبيحة السابع والعشرين من شهر مهَر سنة ألف وثلاثمائة وثلاث وثلاثين [١٧/١٠/١٩٥٤]. أذكر الساعة بدقة، لأنه ما أن انطلقت أول صلية رصاص حتى نظرت إلى ساعتي»[٢٢].

وفي حوار لي مع الكاتب تحدثنا ــ فيما تحدثنا فيه ــ عن هذه الرواية، وقد قال لي:

«.. رأيت كثيراً [من الواقعة].. لم أرَ كل المنظر عن بعد، بل رأيت بعضه عن قرب أيضاً. لقد لعب بعض المعدومين الشطرنج على بطانيتي.. وببيادقي التي صنعتها من خمير الخبز. [وبعد أن أعاد ما قاله للسيدة گلستان عن الموقع ومشاهدة سوْق المعدومين، أضاف] رأيت بعيني الحاكم العسكري العام والمدعي

العام العسكري. جاء ضابطان أميركيان حقاً. عندما سمعت الإطلاقات نظرت إلى ساعتي فوراً: كانت السادسة وأربع دقائق! إنها معي، تملك ذهني، لا أنساها. [وأعاد ذكر التاريخ لي]. سجلت ذلك بإظفري على جص الحائط».

ولكي يتضح مدى تأثره بالواقعة التي ظلت تسكنه، لنستمع إليه يقول لي:

«لم أسجل أياً من ذلك. ففي سجني لم تكن عندي الوسيلة. وفي مدينة الإقامة الإجبارية، ميناء (لنگه)، لم أكن في حالة نفسية مساعدة. ولكن عندما جلست لأكتب الرواية [بعد أكثر من عشرين سنة! ــ سليم]، كان ذلك كله في ذهني».

وقد سألته ضمن أحاديثي المتعددة معه سؤالاً كانت مقدمته كالآتي:

«واضح أنك أردت هنا أن تؤرخ للواقعة دقيقاً: لا اليوم والشهر فقط، وإنما الساعة وحتى الدقيقة..»، فلم يعترض على ذلك.

إن أي اختصار للوصف الكامل لهذا الإعدام سيذهب بجماله، ولكن اقتباسه كان سيثقل هذا البحث، ويستدعي استشهادات أخرى من كل نص جميل، سواء لأحمد محمود أو لغيره ممن يجري تناولهم في هذا الكتاب. وعليه فإنني سأكتفي بالآتي:

يشاهد الموقوفون في المعتقل العام بعض نزلاء الانفرادي يخرجون إلى الممر قبيل منتصف الليل، ويفترشون بطانيات، ويماحك أحدهم حارساً جاهلاً متشدداً، ثم يلعبون الشطرنج، فيحس الموقوفون أن ثمة شيئاً غير اعتيادي. ويشير الكاتب إلى نزلاء الانفرادي في لمحات هنا وهناك تدل على برودة أعصابهم وصلابتهم، ويتذكر هو وزملاؤه لقاء السجناء جميعاً مع أهاليهم بعد ظهر اليوم، وفجأة تلوح لأحد الموقوفين الفكرة: ربما كانت هذه ليلتهم الأخيرة!

وتتجه أفكار كل المعتقلين العموميين إلى هذه الفكرة، يقلّبونها على وجوهها باحثين في مضاعفاتها: أول إعدام سياسي! لو صار الإعدام سنّة!

ثم تبدأ سيارات سوداء تتوارد: الحاكم العسكري العام، المدعي العام العسكري، سيارة عليها رقم خارجي يحيي حرس المعسكر ركابها «تحية الأمراء»[٢٣]، شيخ معمم، مصور، وشخصان بملابس مدنية. يتأكد لهم ما توقعوا.

تأتي سيارتا إسعاف، لايزال رقماهما محفورين في ذهن الكاتب!

تأخذ السيارتان سجناء الانفرادي إلى ما وراء المبنى، حيث ميدان الرمي. ما أن يصعد السجناء إلى السيارتين حتى تعلو أصواتهم في نشيد ثوري.. «يرتبك السائقان. يتحركان وينقلان ويضغطان أسلحتهما بقبضاتهما.. وترتفع الأصوات في كل لحظة»، في حين يرتجف فك المدعي العام العسكري لسماعه النشيد. ويبدو راكبا السيارة الخارجية للسجناء العموميين: عسكريَيْن، حاسريْ الرأسين.

«وفجأة، يكتم صوتُ رعدِ رشٍّ الرصاص كل الأصوات وكل الصرخات. ترتجف ركبتاي وينهار قلبي. أنظر إلى الساعة. انقضت أربع دقائق بعد السادسة صباحاً».. «والآن يأتي صوت طلقة مفردة. يستقر صوت المهندس سيف في أذني. كما لو أن ضمير كل الصحاب هو الذي يتكلم: ــ طلقة الخلاص! فجأة، يتكلم إسلام: ــ قتلوا».

وتتجول «قتلوا» هذه متحولة إلى «قتلوهم» لتصير لازمة يرددها إسلام فتختلط في وعي الراوي مع مشاهداته وذكرياته عن الواقعة.

وعندما يأتيهم شاي الصباح لا يأخذ أحد منهم سهمه!

ويتمردون على جلاّدهم شهري حتى ليدفعونه خارج القاعة.

وتأتي عوائل المعدومين:

«ما أن أذاع الراديو خبر الإعدام حتى انتُزِع الجميع فجأة، من كل مكان في المدينة من بيوتهم، واتجهوا إلى [مقر] الفرقة المدرعة الثانية. ويزداد الحشد لحظة فلحظة».

«وإذ يخرج المعتقلون إلى دورات المياه يعود المهندس سيف بخبر: لم تسلّم جثثهم لأهاليهم.

و«الملازم يونس» نال تخفيف درجة من محكوميته، فصار حكمه السجن المؤبد، وذلك لأن إحدى ساقيه مقطوعة».

ويواصل الكاتب فيصف هجوم أهالي المعدومين وذعر حراس السجن، بتفاصيلها، ثم صحوة الحراس ومجابهتهم الأهالي بوحشية.

* *

ولكن هذا لا ينبغي أن يدفعنا إلى الوهم فنتصور أن أحمد محمود كاتب حزبي: فقد رأينا بطله وهو يتذمر في الجيران من تصدير كل عدد من الجريدة بتصوير ستالين، وتكريس الجلسة الحزبية ــ بعد خطاب رئيس الوزراء الذي يرفض تأميم النفط ــ لبحث الحركة الستيخانوفية لزيادة الإنتاجية، واستعراضه هنا لسلوك «بيدار» المريب وكيف أن الحزب لم يتخذ إجراءً لفحص هذا السلوك والتحقق منه حتى انهار واعترف، ولا ندري مدى الخراب الإضافي الذي ألحقه هو أيضاً. ويبقى الانتقاد الأكبر الذي يدخره محمود للحزب في واقعة المعتقل «إحسان»، الذي رآه المعتقلون عندما كانوا في حمام التعذيب، صامداً صموداً بطولياً تحت أقسى أنواع التعذيب ــ إذ كان المحققون يريدون الحصول منه

على مكان مطبعة الحزب التي كان مسؤولاً عنها ــ منكراً معرفته بأي شيء أو علاقته بأي كان. يراه المعتقلون عندما يتم نقله إلى المعتقل العمومي، ويلتقيه خالد في حمام المعتقل فيتجاذبان الحديث ليعرف منه أنه اعترف أخيراً. ولما كان خالد يعرف أن مطبعة الحزب قد انكشفت، فهو لا يصدق أن إحساناً هو الذي كشفها للسلطات بعد صموده الشامخ ذاك، ولكن إحساناً يخبره بأنه صمد شهراً ــ وهي فترة تكفي لنقل المطبعة لا إلى شارع آخر في المدينة، وإنما لإيصالها إلى أقصى زوايا الكرة الأرضية ــ وأنه عندما اعترف فقد اعترف مطمئناً إلى أن الحزب لابد قد نقلها في هذه الأثناء. ولكن «عندما وصلوا وجدوا الطفل نائماً والفراش مبتلاً»!

## ٣ ــ العودة:

إنني إذ أتناول «العودة» في هذا المكان فإنما أخرق النهج الذي اتخذته في هذه القراءات، وهو متابعة الكاتب تاريخياً، ولكن عذري أن هذه الرواية هي الجزء الثالث من ثلاثية تضم «الجيران»، «قصة مدينة»، و«العودة». ولا يبدل من هذه الحقيقة شيء أن الكاتب اختار لبطل العودة أن يكون اسمه «گشتاسب» ــ ويخفف إلى «شاسب» ــ بعد أن عرفناه «خالداً» في الجزأين السابقين.

ولنأخذ بنظر الاعتبار أن خالداً لم يرد اسمه في «قصة مدينة» غير مرة واحدة، وقد تبدل من مَن يُفترض أن يكون جندياً يقضي خدمته الإلزامية بعد انتهاء مدة محكوميته في السجن، إلى طالب في الكلية العسكرية يعتقل بعد سقوط حكومة مصدق ومطاردة حزب توده وتلقيه ضربة فاجعة بانكشاف تنظيم ضباطه وإعدام قادة هذا التنظيم.

صحيح أننا نلاقي خالداً مرة أخرى في رواية سبقت «العودة»، ولكنه هناك لا يلعب دوراً رئيساً، وإنما هو شخصية ثانوية جاء بها المؤلف لغرض خاص، إذ قدمه لنا شهيداً ــ وسنتعرض لهذه التفاصيل في بحثنا لتلك الرواية: الأرض المحروقة.

وقد ربط الكاتب نفسه هذه الروايات معاً ــ إن لم يكن النقاد فعلوا ــ في حديثه المطول المذكور آنفاً، إذ قال:

«(العودة) حكاية عودة (گشتاسب) من الإبعاد («خالد» الجيران، و«خالد» قصة مدينة) ــ في قصة مدينة ورد اسم «خالد» مرة واحدة فقط»(٢٤).

* *

نواجه (شاسب) وقد «انتهت ــ خمس سنوات!»، وعليه أن يبدأ من جديد. والوقت؟ إنه عند تحسن الأوضاع الاقتصادية في إيران، حين لم يعد السفر إلى الكويت ــ أو غيرها من إمارات الخليج (الذي صار كالحمى ذات يوم في إيران) ــ ضرورياً: نحن إذن إما بعد استقرار كونسرسيوم النفط، الذي حل محل شركة النفط الأنكلو ــ إيرانية في استخراج ونقل وتسويق النفط الإيراني، أو بعد ارتفاع أسعار النفط في السبعينيات. ولكننا سنتعرف عما قريب أن الأحداث تقع بعد استقرار الكونسرسيوم.

وما قصة هذه الخمس السنوات؟ نعرف أن شاسب تحرر: من السجن ومن الإقامة الإجبارية في مكان ما!

ونعرف بعدئذ، من استذكاره رسالة ابن خالته، أنه كان مبعداً.

وهو يتذكر في هذه الرسالة أيضاً أن (صدرا)، رفيقه السابق، تحسنت أوضاعه بعد فقر، وقد أوفد للعمل في المدارس الإيرانية في دولة الإمارات

العربية المتحدة! «إنك تعرف أنهم لا يرسلون أحداً بلا سبب، أنت تعرف حكمة ذلك».

ويتذكر غلاماً صديق طفولته، وأقوال غلام، ثم نعرف بعد قليل أن غلاماً ممن نشروا «براءة» في الصحف.

ويتذكر مراجعته بيت غلام بعد الانقلاب بعشرة أيام، وما بعد ذلك، وكيف كان يدق الباب فلا يرد عليه أحد أو يجيب، حتى أجابته أخت غلام في اليوم الثالث عشر لتقول له إنه ليس هناك، وإن عليه هو ألا يأتي بعد! يترك لغلام خبراً، ويعود في اليوم التالي، فيفتح له الأب، ويشير له إلى السرداب، حيث يجد غلاماً مع قناني فارغة وبقايا طعام وجهاز راديو عاطل ورائحة عرق وعطن... يمازحه شاسب قليلاً، ثم يعنفه على انطوائه، منبهاً إياه إلى أن النضال الحقيقي لم يبدأ إلا الآن، ويطلب منه أن يرفع رأسه ويقوم معه، وعندما يرفع رأسه «يرى شاسب أن الخوف قد التف على نفسه في عيني غلام مثل حية جريح وهو يتحرك قلقاً». يطلب منه غلام أن يربطه، على الأقل، بخليته الحزبية، ولكن هذا يقول له: الدنيا ضاعت، وأنت تفكر بخلية معمل النسيج! (وهذه إشارة واضحة إلى خالد «الجيران»). ثم يتركه بعد أن يتدخل أمه وأبوه.

وعندما يخرج شاسب من هذه العودة إلى الماضي، نجده عائداً إلى بيته من أهواز: تتوقف السيارة التي تقله عند ظهر اليوم التالي في ميناء معشور، فيجد في بائع الكبدة رفيقاً قديماً يتخفى. يماحكه قليلاً، ثم يعرف منه بأنه بعد سجنه لم يستطع العيش في أهواز، فجاء إلى هنا ليعمل.

ينزل من السيارة قبل بيت أهله بمسافة، متذرعاً أمام نفسه بأنه يريد أن يرى شارعهم، ولكنه في الحقيقة لا يريد لأهله أن يجفلوا من صوت فرامل السيارة في بعد الظهر هذا!

يتعرف عليه بائع اللفت المطبوخ، ومن جملة ما يحكيه له أن أمه (أم شاسب) طلبت منه بعد سجنه أن يشتري خروفاً سميناً صغير العمر، وأنه فعل. وعندما يدخل بيت أهله الآن، فإن أول كائن حي يراه هو خروف عجوز، «أبيض، اختلط الدمن بقرنه».

تحس أمه بالقادم، وعندما لا يأتي جواب على استفسارها عن القادم «تراجعت ظلفة باب غرفة المروحة. كانت عطري ــ عطر گل، أم شاسب. تقدمت يداها، ارتعشت شفتاها وارتخت ركبتاها. جلست عند العتبة، وفي المكان نفسه، في مواجهة القبلة، سجدت».

ويحس أباه منكسراً، ويجد أخاه «شهرو» يفكر في العمل فيحثه على مواصلة الدراسة قائلاً إنه هو سيعمل.

ويجد أخته الطفلة قد كبرت، وجدّته أصابها الخرف، وهو يعدُّ نفسه مفلساً.

وتأتي لزيارته الأخوات وأزواجهن وأطفالهن. يناقشون مستقبل شاسب: عمله، ثم زواجه. ويتساءل:

«إذن، فهذا معنى الحياة! ــ مثل أكثر الخلائق؟ ــ يعني، الكل مخطئون! ــ عمل وامرأة وحياة؟ من الإدارة إلى البيت ومن البيت إلى الإدارة؟ ــ مثل بعير العصّار؟ ــ ثلاثون سنة عمل ثم الشيخوخة فالتقاعد ثم الموت؟ لو كان الأمر كذلك فالإنسان يصاب بغبن! ــ كل هذا الألم والوجع والفكر والابتلاء من أجل هذا؟! ــ ولكن يبدو أن الجميع قبلوا!».

ومنذ اليوم الأول الذي يصحو فيه في البيت، يشغل نفسه بتعميرات جزئية فيه، حتى يحتج أبوه: ــ «لمَ لا تخرج فترى الدنيا بيد من، بدل هذه الأعمال التافهة؟».

ويخرج عصراً ليتمشى في المدينة، يواجه صديقاً قديماً من أولاد الجيران، يسعى للتهرب أولاً، ولكنه يضطر للمواجهة فيحيي ويمضي، في حين كان شاسب يتوقع منه أن يتوقف ويسأله عن الصحة والأحوال. و: «كان [شارع] پهلوي محشراً ـ نيونات ملونة، سيارات، ناس، مصابيح، مصابيح، مصابيح. أوووَه! في تلك الأيام لو كان ثمة مصباح واحد ذو خمسمائة في رأس الشارع، لكان آخر الشارع يبدو للعيان!». وتبدل لباس الناس، تغير سلوكهم ـ تصوير ملون لامرأة عارية يملأ أعلى باب السينما كله. المرأة تنام على بطنها على رمل ساحل البحر، وساقها اليمنى مثنية من الركبة إلى أعلى. وقف في طرف الشارع وراح يراقب الناس. عيناه تبحثان عن المعارف. سيقان النساء بلا جوارب، جيوب الشبان مفتوحة إلى نصف الصدور. على صدورهم ميداليات ذهبية. («خمس سنوات فقط؟ ـ كل هذا التغيير!»). انطلق».

بدلاً من المكتبة قام محل لبيع الجعة! ويأتي فتى مسرعاً نحو فتاة فيضرب كتفها بكتفه، حتى لتريد ضربه على رأسه بحقيبة يدها: «المخنث، جاء من السرعة بحيث تصورته سيدسّ في يدي منشوراً!». ويجد واحداً آخر من معارف الزمن القديم يطلب منه ألا يقف قريباً منه لأنه [ذلك المعرفة] قدّم تعهداً! (ـ «لمن..؟» ـ «ما كل ما يعرف يقال يا عاقل!..»). ويضرب أحد أصدقاء طفولته له موعداً، فهو الآن مشغول، ولأنه الآن كثير الأعمال، فهو يطلب منه أن يتلفن قبل قدومه! ويقول عنه ابن خالة شاسب إنه حشر أباه في غرفة أقفلها عليه كي لا يراه أحد، وإن رآه أحد فهو يدّعي بأنه خادم البيت!

تبيع أم شاسب قرطاً كانت قد اشترته لابنتها، وذلك كي تؤمن نفقات شهرو، الذي ينبغي أن يذهب إلى طهران للمشاركة في امتحان الجامعة.

ويذهب، وفقاً لموعد، مع عمه لملاقاة (الحاج ملك)، الملاّك الذي يقام على

أرضه مبنى مصرف جديد، وذلك كي يتوسط ليجد له عملاً في ذلك المصرف، وفي الطريق تُذهل كثرةُ المصارف شاسبَ «في شبر واحد من مكان كل هذه المصارف! علامات اقتصاد مريض!».

يأخذ توصية من الوسيط، فيذهب إلى المصرف. يجلس في مقهى حديث ينتظر حلول وقت معين. يجد في المقهى فتاة تدخن. يجد عينيها مألوفتين، ثم يتذكرها «معصومة؟ بنت ملا أحمد؟» (ولعل القارئ يتذكر ملا أحمد الذي نزل إحدى غرف بيتهم في (الجيران) وصارت ابنته الكبرى (ليلا) رابط خالد ذات يوم!).

ثم يجد في مدير المصرف خائناً قديماً! ويجد ذريعة ليعارك أحد معاونيه ويترك المبنى! وتزداد شكوكه في كل أحد ومن كل شيء، حتى ليتحسس حتى من جلب أخته سمكاً لطعامه!

ويزور صاحبه غلاماً في بيته، فيجده يحيا في نعيم، إلا أنه يدعي أنه أُخصي في التعذيب! ولكنه لابد يكذب، ليبرر وليستدر العطف. يستجوبه ليعرف كيف أطلق سراحه مبكراً، وكيف أثرى، فيقدم غلام أجوبة مهلهلة حتى يفجأه شاسب بسؤاله عن لجنة معمل النسيج.

ــ أنت عرّفتني عليها، ولم يكن يعرفها غيرك، وأنا لم أسلمها، فمن فعل؟ ويقضي ليلته في صفّة بمحطة السكة الحديد، حيث يصحو ليجد بعض أشيائه سرقت.

ويبقى عاطلاً.

يستدعيه رئيس أمن المدينة، ويطلب منه أن يودع تعهداً بألا يفعل ما يعتبر مخالفة، وأن يحلق شاربه. ويؤكد على شاربه: «لا يعجبني»!

يقدم التعهد، ولكن مأمور الأمن لا يقبل تعهده فيحبسه إلى أن يأتي الرئيس! ثم يكتّفونه، ويحلقون شاربه!

يبدأ التفكير في قتل العقيد رئيس الأمن. وعندما يماحكه المأمور الذي حلق شاربه في الصباح التالي «حمي شاسب! خبيث! أنت أيضاً أقتلك!».

وعندما يخرج يجد أن ابن خالته قد بحث عنه في كل مكان، حتى محلات تدخين الشيرة! فينزعج من ذلك، ومن مداهنات غلام ابن خالته: «أوشك شاسب أن يقول [أغلق قربتك!]. ولكنه لم يقل. خجل من نفسه، أحس خزياً من هذا الكلام الذي وصل حتى إلى ما وراء أسنانه: «إلى أين أذهب؟ إلى أين أُشَدّ: ــ ابن خالتي يبحث عني في محلات تدخين الشيرة، والآن هذا الكلام!.. تنمّل كفّاه، خدر باطن فخذيه إلى خاصرته، واحترق طرفا قدميه اللينان كلاهما داخل الحذاء..».

يستقر تفكيره على قتل العقيد رئيس الأمن، وعلى إحراق محل بائع الكتب لأن شاسب عرض أن يبيعه كتباً ممنوعة ــ مزاحاً أو اختباراً ــ وإذا بخبر الكتب عند رئيس الأمن! الذي يطالبه بالكتب الممنوعة التي لديه!

ولكنه بدلاً من قتل العقيد يحرق سيارته! وينفذ العملية بسيارة ابن خالته!

تجمع أجهزة الأمن كل السيارات من ذلك النوع وتعتقل أصحابها.

يسعى في المدينة باحثاً عمن يشهد له أنه كان معه وقت الحادث، دون نجاح، وعندما يعود إلى البيت يجد أمه خاطت له بيجاما جديدة. ينام قيلولته ليصحو عازماً على تسليم نفسه لإنقاذ ابن خالته ــ وربما المعتقلين الآخرين أيضاً.

ولكن يطلق سراح ابن الخالة قبل ذلك، فيأتيه معاتباً: لقد فهم أنه هو الذي

أشعل الحريق. ويشرح له ابن خالته أنه تعرض لبعض الضرب وجرت مواجهته، كبقية المعتقلين، بالفلاح الذي ذكر أنه رأى شخصاً على «دراجة هوائية من نوع رالي قديمة خضراء اللون». وكان هو ذلك الشخص في استطلاعاته التحضيرية للإشعال.

ويعود شاسب للتفكير بالتسليم مرة أخرى، فهو يتألم لاحتراق كلب العقيد كثيراً!

يظهر شروده وغرابة أطواره، ويشتدان، حتى تجتمع العائلة لتتداول ــ بعد أن صرفت الأطفال ــ في وضعه، فيتم الاتفاق على أخذه إلى العاصمة لعرضه على طبيب نفسي. ويعلن غلام بأنه يتبرع بكل النفقات.

يسمع شاسب حديثهم من غرفته التي أغلق عليه بابها. «قال: (إذن انتهى!) نهض ثم بحث مرة أخرى عن عقب سيجارة. قال: (إذن فأنت مجنون يا شاسب وأنت لا تدري!) وأولع عقب السيجارة. قال: (سأُبقي حسرة تقديم المساعدة في قلبك يا غلام!)، سحب نفَساً وقال أيضاً: (في قلوب كل أولئك الذين يريدون الحصول على راحة ضمائرهم المعذبة بمساعدة أمثالي!)».

وهو يفكر بأنه لن يأخذ من أحد شيئاً، سيعمل، ولو عامل بناء بسيطاً، لكي يواصل أخوه، شهرو، دراسته «ليصل هو على الأقل إلى مكان ما!..».

وفي الصباح التالي، عندما تخرج الأم لتربط الخروف في محل مناسب استعداداً لذبحه، تجد الخروف عالقاً في أغصان الشجرة المقطوعة المكوّمة على الأرض، وشاسب يلبس البيجاما الجديدة وهو منقوع بماء المطر.

ولأن وقفته غريبة، ولأن ثمة نصف عتمة، ولأن أمه تتساءل: ماذا حلّ بك يا ابني؟ نتصوره قد مات.

ولكن ينبغي ألا نتوهم: فقد قضى أول ليلته يفكر، فتوصل إلى الخطأ المطلق لفعلته، وقام في الليل وتحت المطر ليشذب الشجرة ــ التي غرست يوم ولادته! ــ ووقف تحت المطر، متطهراً ــ وربما عائداً إلى يوم مولده!

* *

هكذا إذن، يعود المبعد فيجد وجه المدينة قد تبدل، وذوات النفوس تبدلت. وإذ أنه قضى خمس سنوات في المنفى الداخلي، فهو لم يستطع أن يهضم ما يجري، ولذلك كان رفضه له أخرق، فردياً، ولهذا لم يكتب له النجاح.

هل كان ماضيه «العملي»، المنضبط، هو ما هداه سريعاً إلى غلطته؟ ربما. ولكن ما يهمنا، هو أنه أجرى مراجعة للذات، وحرر نفسه من الشوائب التي تلبستها وأحاطت بها، إذن فهو سيحيا مستعيداً توازنه، وقد تعلم كيف يحقق الأهداف نفسها، بطريقة أصح.

* *

وإذا كانت «الجيران» انتهت بفراق الحبيبين التام وانتقال خالد من السجن إلى الخدمة العسكرية، وهي لا تقل مشقة وبؤساً، وما يعنيه الأمر من نهاية أسيفة، إلا أن شعوراً باليأس لا يتولد عند القارئ من هذه النتيجة، فهو واثق ــ نظراً لصمود خالد في التعذيب وأمام مشاق السجن الانفرادي ــ بأن الخدمة العسكرية لن تكون، لخالد، إلا مجالاً آخر يمارس فيه نشاطه السياسي.

أما «قصة مدينة» فتبدأ بالجنازة وتنتهي بالجنازة، وما بينهما حياة رتيبة خاملة مملة لا يعمل من يحياها على إحداث أدنى تغيير فيها. صحيح أن أمثلة بطولات السجناء تحت التعذيب، والبطولة الأسطورية للمحكومين بالإعدام وهم يساقون إلى الموت، ماثلة على طول الرواية تتخلل فصولها، إلا أن حياة المدينة

ـ الميناء ذات الشارع الواحد وبضع عشرات الحوانيت تلف في حضنها ـ بل تكاد تبتلع ـ أية حياة أخرى، فكيف إذا كانت هذه الحياة مجرد ذكريات؟! وقد يجد القارئ المتفائل، أو المغرم بالواقعية الاشتراكية كإيديولوجية لا كمجرد وسيلة للتعبير، في هذه النهاية سوداويةً وتراجعاً عن الأمل الذي ينبغي لهذه الواقعية أن تفتح بابه، إلا أنه سيجد في نهاية «العودة» النهاية التي تحقق له ما يريد، وإن كانت ملفوفة بجو سوداوي ظاهرياً.

* *

وقد تمكن أحمد محمود في «العودة» من لغته، التي كانت جيدة أصلاً، وربما كانت قد صقلتها سنوات «تخمّر» (الجيران) قبل صدورها. وصار الآن يقلل من «القص» و«الإخبار» مكتفياً بحواره، أو تداعياته، أو تيارات وعي أشخاصه، وخاصة «شاسب»، لينقلنا إلى الجو الذي يريد:

* كان شاسب قد عرف أن العقيد منزعج لأن كلبه مريض، فلما رآه في اليوم التالي أكثر عصبية قدّر أن الكلب قد مات. وهكذا، فعندما يعنّفه العقيد ويهينه، يقدم لنا الكاتب هذه الصورة:

[«أستطيع أن أدخن؟

نظر العقيد إلى التعهد ولم يقل شيئاً. وضع شاسب سيجارة بين شفتيه وأشعل الكبريت. قال العقيد:

ـ أطفئ!

أطفأ وبقي ـ والسيجارة المطفأة في فمه «سأرسلك لتنام إلى جانب كلبك»].

وهكذا، بجملة واحدة نقل إلينا خطته ـ التي أنفق وقتاً يقلّبها على وجوهها.

* وهو يفكر في امرأة، يتشهى امرأة؛ وهكذا فعندما تمر أمامه فتاة نجد

رد فعله هكذا: «أذهله عطر المرأة. التفت كي يرى. كان ساقا المرأة بلا جوارب «أو ربما كانت جواربها بلون الساق» كان رسغا القدم، في الحذاء ذي الكعب العالي، مشدودين. تصور الرسغين ـــ الرسغين بالذات ـــ لهما حياة منفصلة مفعمة بالنشاط. تصور لو أنه مسح بيده على الرسغين فسيجيبان، يتكلمان ـــ بإحساس. حمي، تلاطم، أحس عطشاً شديداً، أراد قلبه أن يصرخ، أصمّ أذنيه (ويززززز، ويززززز..) صرّ أسنانه، أغمض عينيه «غووووم م م م، غووووم م م م، غووووم م م م..»[٢٥].

* *

ولكن التوفيق لم يحالفه، في مجال اللغة، عندما استعمل لفظة كردية للتعبير عن هياج الخروف جنسياً وبحثه عن الأنثى، مما اضطره إلى شرحها في الهامش. إذ لم يكن شاسب ولا أهله يعرفون الكردية، وليست تلك اللفظة، ولا غيرها من الألفاظ الكردية، شائعة في موطنه ـــ خوزستان ـــ كي ترد على خاطر الناس.

## ٤ ـــ الأرض المحروقة:

بهذه الرواية نعود إلى السياق التاريخي لكتابات أحمد محمود ونشره. فقد كتب هذه الرواية ونشرها قبل «العودة» بزمن.

وهي أول رواية تكتب عن الحرب التي شنها النظام العراقي على إيران سنة ١٩٨٠، وتحكي ـــ أساساً ـــ قصة مقاومة الشعب للمهاجم المحتل، وإجرام المهاجم في تعريضه السكان الآمنين لأفتك الأسلحة، ومع ذلك فقد منع الرقيب إعادة طبعها بعد نفاد طبعتيها الأوليين، وبقيت محجورة نحو سبعة عشر عاماً!

* *

في أحد أيام الصيف الأخيرة، في مدينة هواؤها «شرجي»[١٤](*)، تدور الإشاعات منذ أسبوعين بأن الجيش العراقي هاجم إيران. وإذا أخذنا أقوال أهل البيت الذي تبدأ فيه الرواية ـــ وتقع فيه أحداثها الأكثر والأرأس ـــ على أنها تمثل آراء الشعب الإيراني ـــ ولن يكون أخذنا هذا بلا مبرر ـــ فسنجد هذا الشعب يفكر على النحو الآتي:

* لا أحد يصدّق أن رأس النظام العراقي ـــ صداماً ـــ يجرؤ على مهاجمة إيران.

* إن صداماً لا يحتاج إلى الجرأة لهذا العمل، بل يكفيه قليل من انعدام الشرف.

* ولكن، عند التفكير ملياً في الأمر، فخير وقت للهجوم هو الآن: لضرب الثورة[٢٦]، لإسقاط الحكومة[٢٧]، ولوضع كل خوزستان[٢٨] على حافة السكين.

ويقدم الكاتب إشارات هنا وهناك: الجسر الأبيض، جسر نادري، نهر كارون، فتتكشف لنا المدينة: إنها أهواز، مركز محافظة خوزستان، مدينة الكاتب ومسرح رواياته السابقة والكثير من قصصه القصيرة أيضاً. وهي، عدا ذلك، أفضل موقع لتصوير الحرب، لكونها على خط النار.

والحكومة لا تخبر الناس بما يجري، لذلك يلجأ الناس إلى تلفزيون العدو لمعرفة الأخبار! حتى أن مطار المدينة يتعرض للقصف الجوي فلا يذيع الراديو الوطني، ولا المحلي، الخبر، مما يجعل الناس يفكرون أن في الأمر خيانة.

ومع اشتداد الحرب، وإعلان الحكومة ووسائل إعلامها عنها، نعرف أن الأشخاص الذين يتداولون في آخر النهار الأخبار هم أهل الراوي، وأن محل

---

(*) في هذا السياق، نفهم أننا قريبون من البحر.

لقائهم، ومسرح الأحداث الخاصة في الرواية، هو بيتهم، بعد أن عرفنا أن مسرحها الكبير هو أهواز، ولا بأس في أن نعتبره إيران كلها.

ويندفع الناس، حتى الأطفال، لجمع المواد اللازمة لصنع قنابل مولوتوف وتهيئة أكداس الرمل، ويهرعون إلى معسكر المدينة مطالبين بالأسلحة.. ولكن الجيش لا يعطيهم سلاحاً، ويخرج إليهم ضابط يؤكد لهم أن فرقة واحدة يمكنها شق الطريق والوصول إلى بغداد! ولكن بين هذا وذاك يأتي خبر سقوط معسكر «حميد» ــ أكبر معسكر في الإقليم وأقرب معسكر إلى المدينة ــ بكل تجهيزاته ومواقعه، بأيدي القوات الغازية!

ومقابل هؤلاء الناس نجد من يفكرون في استغلال الظرف الجديد للانتفاع، فتبدأ السوق السوداء في البنزين!

ويفكر الأخوة في ترك المدينة ــ كما كان يفعل كل من توفرت لديه الوسيلة في المدينة، عدا من كانوا يسعون للانتفاع ــ إذ لا كهرباء ولا وقود، وغداً لن يكون ثمة خبز أيضاً، فيما القصف الجوي مستمر. ولكن الأم لا تريد التشرد «عند الشيخوخة».

ويعلن الراديو أخيراً عن استدعاء الراغبين في المشاركة في الحرب «غير المنظمة»[٢٩] لمراجعة مراكز التعبئة والجوامع. يتذاكر الأخوة في ما يفعلون، فيتوصلون إلى أن تكون الخطوة الأولى إبعاد الأطفال والنساء عن منطقة الخطر، ومشاركتهم هم في أعمال المقاومة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ويصل القصف، ومفعوله، إلى وراء جدران بيتهم في انفجار شديد تطير فيه سماعة التلفون من يد الراوي! وبعد القصف يقرر أحد الأخوة ــ محسن ــ الخروج ليرى أين وقع الانفجار، فيخرج معه الراوي ويلحق بهما أخوهما «شاهد» أيضاً. يجدون قنبلة انفجرت وسط الشارع، وثانية في البيت الملاصق

لبيتهم، وكان كل أفراده قد غادروه، عدا أبيهم الشيخ الذي رفض الرحيل! ويجده الأخوة مقتولاً وسط الدار.

هنا يقرر الأخوة أن يرحلوا هم أيضاً، فيتصلون بأخيهم العامل في إدارة السكة الحديد ليهيئ لهم التذاكر اللازمة.

ويعجزون عن الذهاب إلى محطة القطار للسفر في الموعد المقرر، نظراً لاستمرار القصف ــ الذي أضيف القصف المدفعي إليه ــ تلك الليلة، ويقررون تأجيل الرحيل إلى اليوم التالي.

يتأخر القطار عن موعده في اليوم التالي فيحدث هرج ومرج عند وصوله، ولا يعود لتذاكر السفر من فائدة، إذ من ركب ركب! ويتحرك القطار مخلّفاً أربعة من الأخوة: الراوي وأحمد وخالد وشاهد.

وبينما تشيّع المدينة شهداءها، يجلب عطّار المحلة «كَلْ شعبان» شاحنة صغيرة ملأى بالرز والزيت إلى مخزنه! وينشط دلاّل أملاك في شراء سيارات الناس المستعملة، ويبدأ اللصوص بسرقة البيوت التي خلت من سكانها!

ويذيع الحرس الثوري بياناً يدعو فيه الناس إلى تشكيل لجان لضبط تحركات الطابور الخامس، بينما تدعو إدارة التجنيد مواليد ثلاث سنوات متتالية للالتحاق خلال أربع وعشرين ساعة.

وتدخل الصورة لأول مرة «ننه [= أم] باران»: امرأة لها قلب أسد، تنقّ في طلب الذهاب إلى الجبهة كي تحارب إلى جانب ابنها. وفي ما عدا ذلك لا نجد على المستوى الرسمي شيئاً عن الحرب: فراديو طهران ــ المركزي ــ يذيع أخباره خلواً من أخبار الحرب، وراديو أهواز ــ المحلي ــ يبث القرآن.

وكما فرّ كثير من الأهالي مسرعين، فقد عاد بعضهم بالسرعة نفسها أيضاً:

مفضلين الموت بالصواريخ وقذائف الهاون على الغربة والتشرد وسماع شتائم الناس! إذن، ففي المدن الأخرى لم يعرف الناس شيئاً عن الحرب وفجائعها بعد.

ويتولى الانتهازيون المسؤوليات!

ينتظر أخو الراوي، خالد، إجازة ولكن دائرته لا تمنحه إياها، فيخطط لأخذ إجازة بلا أجر وربما يسافر لدراسة الدكتوراه، فهو قد تحمّل مصاعب كثيرة في حياته، حتى تمكن أن يشتغل ويصير له بيت وسيارة، ولكنه لا يكف في هذه الأثناء عن الدراسة.

وعندما يصل شطر العائلة المهاجر إلى طهران، يذهب محسن فيراجع لقيد اسمه متطوعاً: لابد أنهم سيرسلونه إلى الجنوب، وبما أنه سبق أن خدم في صنف الدروع فسيرسلونه إلى إحدى وحدات الدروع.

ويرتفع عدد شهداء المدينة ليصير بعدد شهداء الجبهة، أو يتجاوزه.

ويدعو الراديو المضمدين والممرضات للالتحاق بالمراكز الصحية، ثم يدعو المواطنين لتقديم مواد الإسعافات، وخاصة ظروف الماء العازلة للحرارة.

ويتسع شراء الأغنياء لبيوت المدينة! وشراء المواد المسروقة أيضاً.

ويرفع «كل شعبان»، الذي تساعده زوجته في إدارة المحل، الأسعار باستمرار. وفيما تتأفف إحدى ابنتيه من بقائهم هناك مع أن أكثر الناس هاجروا، تقوم ابنته الثانية، البلهاء، بفضح خبايا شغله: عنده مخازن ملأى بالمواد الاستهلاكية.

وتعاني معسكرات المشردين من نقص الحصة التموينية، وانعدام العناية الصحية، ولكن يبقى همّ الناس الأكبر تشتت عوائلهم.

يسافر خالد إلى بهبهان للاطمئنان على ابنه المريض ــ إذ لم تذهب زوجته

مع الباقين إلى طهران، بل إلى بهبهان للعيش مع أهلها ـــ، وهو يريد التوجه من هناك إلى طهران لرؤية أمه ـ فقد كان شديد التعلق بها ـ ولكنه ينزل من الحافلة بعد أن تقطع ساعة في الطريق، ويعود إلى أهواز. إنه يتمنى أن يلحق بأمه، ولكنه يتذرع بعمله الوظيفي الذي يشده إلى أهواز! ويشرح لأخوته وضع أمه، التي تتشرد هكذا بعد عمر ستين ـــ سبعين سنة، فكيف سيمكنها العيش بعيداً عن بيتها، عندما تجد كل ما حولها غريباً! ولكن أخويه يعرفان أن ثمة شيئاً آخر يعذبه.

وتنفجر قنبلة على سطح بيتهم، فتطير منها شظية وتصيب جارهم المقابل، فيخرج خالد كي يوصله ـــ بالسيارة ـــ إلى المستشفى.

يقتل خالد، ويصاب شاهد بذهول يطول زمنه، فيرسله الطبيب إلى طهران في طائرة حمل.

ومع ازدياد نشاط الطابور الخامس، وخلو بيت العائلة، ينتقل الراوي إلى بيت «ننه باران».

تسمع ننه باران الشكاوى على كَلْ شعبان: فقد رفع سعر البطاطا عند الغروب عن سعرها صباحاً! فتقول إنها ستجعله يفهم ذات يوم أن ليس بمقدوره أن يفعل ذلك. ثم تقنع «شورى»(٣٠) المحلة بالسماح لها بالمشاركة في أعمال الحراسة في ميدان المدينة عند الفراغ من عملها اليومي.

ينفد صبر الناس فيغيرون على مخزن كَلْ شعبان ـــ الواقع في بيته ـــ فينهبونه، ويستغل اللصوص والفتوات الفرصة لنهب نقوده، بينما لا يمسّ الناس شيئاً من حاجاته المنزلية. ويؤخذ كل شعبان إلى الـــ«كُميته»(٣١) حيث يأخذون منه تعهداً بعدم رفع الأسعار، لأن ذلك عمل يؤدي إلى تحريك الناس. فيعود إلى عمله، وهو الآن أقل حماساً، ولكنه لم يعد يتحرج حتى من التلاعب بالميزان.

وتعود إلى المحلة امرأة، «گلابتون»، كانت انتقلت منها عندما تزوجت، مع زوجها وطفلها. إنها جميلة تلفت النظر. لها أخ فتي، يلتحق بالكميته، ونتيجة لجهل زملائه وخرقهم يصاب بصلية رشاش في يده، فيضطر الأطباء إلى قطعها. ولها أخت صغرى بارعة الجمال هي الأخرى، ويحبها «ميرزا علي» لكنه لا يجرؤ على مكاشفتها. وهو قد سفّر أمه وأخته منذ أيام الحرب الأولى وبقي في أهواز وحده.

وتعود إحدى النازحات مع أطفالها.

ويستشهد باران، فلا تبكيه أمه: فهو بطل، شهيد!

يلقي الناس القبض على إثنين من لصوص المنازل الثلاثة وهم متلبسون بالجرم في وضح النهار. ويتناقش أهل المحلة في مصيرهما: إعدام؟ تسليمهما للكميته؟ يشدونهما إلى جذعي نخلتين ويتداولون في أمرهما. يحاكمونهما! يحكم «محمد الميكانيكي» بإعدامهما، ولا يصدق أحد أن الحكم سيُنفذ! ولكنه يُنفّذ، على أيدي أم باران وعادل (الفتى الذي قطعت يده).

يعتقل رئيس الكميته ننه باران وعادلاً، منفذيْ الحكم، ومحمد الميكانيكي الذي أصدره، و«أمير سليمان» الذي أصدر إيعاز الرمي، يومين في المسجد، وسط همهمة الجمهور المعترض، التي تتصاعد لتصير اجتماعاً احتجاجياً، يهدد بانفجار. ويطلق سراح محمد وأمير، ولكن عادلاً وننه باران يبقيان سجينين، فيقرر المواطنون التظاهر في اليوم التالي. وفيما هم يتباحثون في أمر المظاهرة، يقترح أحدهم: إذا كنتم تريدون شعار «الموت لأمريكا» فعندي واحد! ولكن آخرين يعترضون لأن هذا الشعار خارج الصدد. يخرج إليهم رئيس الكميته من مكتبه داخل المسجد ليحاججهم، فيرد عليه محمد، حيث نجد صراع منطقين مختلفين تماماً:

الرئيس: هذا هرج ومرج.

محمد: ما يبدو هرجاً ومرجاً هو منطق الثورة!

ويستطيل النقاش حتى يتم إطلاق سراحهما بكفالة شخص، من أجل بحث موضوعهما أكثر! ويسحبون منهما سلاحيهما. وفي حين يسعى عادل للبحث عن عمل، تصاب ننه باران بما يشبه الصدمة، فتترك كل شيء وتتجه إلى المسجد تدرّس القرآن.

ولما يجد ميرزا علي أن فتاته لا تتساهل بنظرة يعزم على الزواج منها، ولكنه يخشى أن يرفضه أبوها. وعلى هذا، فهو ربما سيجلب في سفرته القادمة أمه معه، فـ«النساء يمكنهن أفضل أن يدبرن هذه المسائل».

ويفاجئنا أحد أبناء المحلة، ممن يسافرون أواخر الأسابيع مبتعدين عن المدينة، بأن يقرر ـ بمجرد أن عاد، وحتى قبل دخول بيته ـ الرجوع مستعجلاً جداً، لا يدري هو نفسه لماذا ـ «كأنني أخاف من البيت»! ويريد ميرزا علي أن يرافقه، فينذره بأنه لن ينتظره أكثر من خمس دقائق، وفعلاً، فعندما يتأخر ميرزا ينطلق صاحبنا.

ويصيب صاروخ المقهى الذي اعتاد الراوي الجلوس فيه في الأيام الأخيرة، والميدان الذي يقع المقهى في طرفه، فتزول المحلة كلها!

وتموت كل عائلة گلابتون، ولا تبقى إلا هي الغائبة عن الوعي ورضيعها.

تصحو. تسمع صراخ الطفل فتخطفه من يدي الممرضة وتحتضنه. تفتح عينيها. كأن لا سواد فيهما. تنهض فجأة صارخة، وترفع طفلها إلى أعلى وتضربه بالأرض فينشق رأسه ويندلق مخه إلى الأرض!

وإذ الراوي شبه ذاهل، تتساق نظرته إلى أعلى فـ«عيناه على يد انفصلت

بالانفجار عن الكتف، وذهبت مع موج الانفجار إلى أعلى، فاشتبكت بالسعف اليابس للنخلة الطويلة في زاوية باحة ننه باران.

نوّرت الشمس قذال النخلة المظلم.

«يغطي الدم اليابس كل اليد. يتجه خنصر اليد، المقطوع من سلاميته الثانية، وسبابتها، مثل ألم، مثل اتهام، ومثل سهم ثلاثي الشعب نحو قلبي»!

إن يد محمد الميكانيكي تشير إلى الراوي، وإلى الصحفي الذي يقف إلى جانبه.

* *

والرواية ملأى بالشخصيات الطيبة، وذاك طبيعي، لا لأنه هكذا تعلم الكاتب من فكرة فقط، وإنما لأن الإنسان طيب بطبعه، وخاصة من كان مسحوقاً، وهم الأغلبية، فكانوا أغلبية في الرواية أيضاً. وهكذا، تطالعنا شخصيات كالدكتور شيدا، الطبيب العربي، وعلي ناز، المضمد، اللذين بقيا في المدينة لأنهما إن ذهبا «فمن يسعف كل هؤلاء الجرحى؟!». شخصيات كالطفل ابن العاشرة، الذي يعيل أمه وأخته مما يصطاد من سمك، ولكنه قطع عهداً لأخته ذات يوم أن يطعمها سمكاً، فيصطاد سمكة كبيرة لا يبيعها، رغم ما يُدفع له فيها من ثمن مغر، «لأن قول الرجل واحد»، وكننه باران، الحاضرة أبداً، التي يستشهد ابنها ولكنها «.. لا تذرف دمعاً أصلاً. لا تتحرق أصلاً»، والتي تصاب بالذهول لأنهم يحاسبونها على تنفيذها الحكم الطبيعي، **بداهةً**، بضباع الحرب ــ سرّاق بيوت المهاجرين! وكأبناء خرمشهر الذين سقطت المدينة **وجعلوها لم تسقط!** ببطولاتهم. وميرزا علي، الذي يحب دون أن يجرؤ على مفاتحة من يحبها، أو خطبتها من أبيها.

وثمة سيئون أيضاً، فليست دنيا الكاتب مسطحة أحادية الجانب، ولكنهم قلة، وهكذا هم في المجتمع حقاً، ويمثلهم في الرواية الشخص الذي تعينه الكميته لإصدار تراخيص إخراج المواد من المدينة فيعمل على سوء الاستفادة ثم يهرب عندما ينكشف أمره قبل إلقاء القبض عليه، ودلاّل السيارات والعطّار «كل شعبان»، اللذان ينقّان لأن الحكومة فرضت تقنين المواد الاستهلاكية، زاعمَيْن لنفسيهما نضالات «إسلامية» ليبررا شرعية احتجاجهما بأن ثمة أيدٍ خفية تريد «تلويث ثورتنا بالوحل!» بهذه الإجراءات الـ«شيوعية!»، وأسوأهم بالطبع هم ضباع الحرب.

* *

تجري الرواية متسلسلة رواية وأحداثاً، منقولة لنا بضمير المتكلم، فالراوي في وسط الأحداث، والأحداث ليست في مدينته حسب، وإنما في محلته، وصواريخ الحرب على باب بيته، وقنابلها تنغرز إحداها في بيته دون أن تنفجر! وقد قتل أخوه ــ أخو الراوي وأخو الكاتب في الحياة الواقعية ــ شهيداً فيها.

ويبدو هذا الأسلوب منسجماً تماماً مع الموضوع، فالموضوع بسيط جداً لا يحتاج إلى تعقيدات في العرض، بل لا يحتملها: عدوان جرى والمعتدى عليهم يدافعون عن أنفسهم.

ربما يكون الكاتب قد حصر نفسه في إطار ضيق باختياره الموضوع، وربما يتصور من لم يقرأ الرواية أنه كتب مادة دعائية في الحرب الدفاعية، ولكن أحمد محمود ــ وكان قد تمرّس بكتابة روايتين وست مجموعات قصصية ــ عرف كيف يقدم لنا الحرب في أهدأ نبرة، رغم أنه كتب الرواية في عنفوان الحرب، بلّ وقد أنجزها، فيما يذكر، خلال شهرين فقط! وإذا كانت ظروف الحرب،

والأسلوب الذي اختاره لروايتها، حدداه مكانياً، فهو انطلق من المكان بأفكاره ليصور لنا ما حوله، فرصد الناس البسطاء وسلوكهم وممارستهم حيواتهم الاعتيادية في جو الحرب، في ثنايا الرواية بكثرة يتعذر معها إيراد شواهد.

فوصف الطبيعة من حوله: «في أيام قبل الحرب، ما أن يطرّ الفجر حتى يوقظنا ضجيج حشد العصافير النشط، العصافير التي كانت قضت ليلتها بين أغصان وأوراق السدرة في وسط الباحة. أما الآن، فكأنه لم يكن في المدينة ذات يوم طائر. لقد أجفل صوت انفجار قذائف المدافع حتى الحمائم المنزلية، فهربت من المدينة جميعاً».

ويصف هجرة الهاربين من ويلات الحرب، ثم عودتهم بعد قليل، لماذا؟ «ـ يجب أن تذهب كي تفهم. إن شريد الحرب كالضيف: في الأيام الثلاثة الأول محترم. ثم، قليلاً قليلاً، ينتن كالميت فيصير عبئاً على المجتمع!.. في الأيام الأولى يعطونه محلاً، مثلاً، في مدرسة. يعطونه طعاماً. يعطونه راتباً شهرياً من مسجد. بعد أن تنقضي بضعة أيام يقطعون غذاءه أولاً. ثم يقطعون تلفون المدرسة. ثم الكهرباء. ثم الراتب. وإن كنت صموتاً إلى حد ما فإنهم يقطعون الماء أيضاً. ما أن تتكلم حتى تصير طفيلياً وعبئاً على المجتمع. وإذا تكلمت أكثر تصير بالوناً.

ـ بالون؟.. ما البالون يا عبد؟

ـ لا شيء!.. يقولون إن مشردي الحرب يضخمون المدن! جعلوها تتورم! نفخوها! وأخيراً، إذا قلت: بابا نحن أيضاً بشر، كان لنا ذات يوم عمل، كانت لنا حرمة، كان لنا مكان.. قطع الله لساني... تصير معادياً للثورة!.. أنا أروح فداء قذيفة المدفع هذه، فداء هذه الخمسة خمسة[٣٢].. فذلك خير من أن أصير معادياً للثورة!».

* *

وتتميز هذه الأوصاف جميعاً بأن النفَس والتنفس والرائحة تلعب دوراً بارزاً فيها.. أهي رائحة دخان الحرب التي نشّطت شامّة الكاتب فجعلته حساساً لها بهذا الشكل؟

* «وجه امرأة لحيمة متوسطة القامة تمسك بيدها دفاً وتغني أغنية عربية. يملأ وجه المرأة اللحيمة كل شاشة التلفزيون. زيّنت نفسها كثيراً بحيث تبدو **رائحة** الزيوت التي مسحتها على رأسها ووجهها وكأنها تنفذ إلى أنفي، فأقشعر». إنه ينظر إليها في المرآة التي تعكس شاشة التلفزيون، وتأتيه رائحتها!

* «في السرداب، اختلطت **رائحة** الفم **برائحة** السجاير».

* يتدافع الناس على أبواب القطار للركوب: «في هذه اللحظة، يوقف صوتُ انفجار ــ يسمع من قريب ــ الجميعَ عن الحركة. تشبه نظرة الكل نظرة خراف وصلت المسلخ فصدمت أنوفَها **رائحةُ** الدم..».

* فيما القصف يهز سرداب البيت، وموج الانفجار يرمي بهم هنا وهناك، يقطع الراديو قراءة القرآن: «بضع لحظات صمت ثم يقول المذيع ــ كمن أصيب بضيق النفس، لاهثاً، ولكنه مستعجل ــ (انتباه!.. انتباه!..). تنحبس في صدورنا **الأنفاس**. كما لو أننا إن **تنفّسنا**، إن خرجت حرارة **الأنفاس** من حناجرنا، فلن نسمع صوت المذيع...».

* *

ولكنه يخرج من كل الحدود والأسوار في وصف المشاعر والأحاسيس، بحيث ننسى ــ كقراء ــ أن الكاتب قد حصرنا معه في مدينة محاصرة معرضة للقصف من البر والجو:

* عندما يضطر الأولاد أمهم للهجرة، ابتعاداً عن أجواء الحرب «انطلقت

لتذهب فتسدد ديونها. يناديها [ابنها] شاهد: ــ انتظري يا أماه. انتظري كي آخذك بالسيارة... انتظرت أمي لحظة. رفعت رأسها وقالت: ــ «لا يا أماه، أذهب على الأقدام. أريد أن أرى كل مكان».

تحب أن تنطلق بهدوء في الأزقة والحواري والشوارع، فتودع حتى الأحجار وحيطان المدينة. كان الغم الذي سكن عينيْ أمي أثقل من غم أيام وفاة أبي».

* ويصف أخاه شاهداً، الذي مات خالد أمام ناظريه:

«مقابلي، يقف. يرفع رأسه وينظر إليّ. يرتبك فؤادي. لنظرة شاهد لون الموت. وتبدو عيناه كما لو أنهما شاهدتا الموت. شحب سواد عينيه. ينظر إليّ لحظات، ثم يقيم ظهره و ــ كما لو كان يصدر أمراً ــ تخرج الكلمات يابسة قصيرة قاسية من حنجرته: ــ لا تبك يا رجل!.. أنتبه إلى أن عينيه مخضلتان».

* ويشرح شاهد، في حوار، للراوي كيفية استشهاد أخيهما، وينتبه إلى أنه يؤلم أخاه، فيتعهد بالصمت:

«يضع يده على فمه ويسكت لحظة ثم، مرة أخرى، ينصبّ الكلام من بين شفتيه كما الرصاص المذاب فينزل قطرة قطرة على قلبي...».

* والأخ الآخر محسن، يذهب إلى الجبهة، وهو ليس مهموماً من ذلك، لأنه في الأصل تطوع للقتال. يزور الراوي في البيت فلا يجده، فيترك له رسالة، ينطلق فيها فيتحدث عن مشاعره: «أنا وقذيفة الــ(آر بي جي)، ننطلق كلانا معاً. هي من مخزن ذخيرة العدو وأنا من البيت. نأتي خطوة خطوة ولحظة فلحظة باتجاه أحدنا الآخر إلى أن..». أُغمض عيني وأفكر. ليت المرء يعرف

أي شكل وأية صورة للقذيفة عندما تبدأ حركتها. شكلها وصورتها معروفان.. ماذا إذن؟.. ليس الشكل والصورة!.. ليت المرء يعرف كيف يتنقل الصندوق الحاوي للقذيفة. في كل لحظة أين تكون وأي مسير تقطع. الجندي الذي يسحبها من مخزن الذخيرة، ما شكله؟ كيف قامته؟ أسود؟ أبيض؟ طويل؟ قصير؟ أعنده زوجة، أم لا و.. بم يفكر..؟ هل يفكر أنه في اللحظة التي تندفع فيها إحدى قذائف الصندوق، طائرةً، أية فاجعة ستسبب؟.. من ستقتل؟.. قلب أي أم سترُعش!.. ضحكة أي طفل ستجفف على شفتيه إلى آخر لحظة ميتة من الحياة؟.. أم لا!.. يسلم الصندوق، وعلى شفتيه ابتسامة، وينفض يديه قائلاً: ــ حسناً، يا أخي، تمام. خمسمائة وسبعون صندوقاً.. هيا، وقّع هذا الإيصال! ثم يمضي إلى متراسه أو إلى خيمته فيشرب قدح شاي ويولع سيجارة، وإن أتيحت فرصة يكتب لأمه، لزوجته، أو لخطيبته رسالة يقول فيها (عزيزتي. أحبك. اعتني بولدنا. في اليوم الذي أتيت فيه إلى الجبهة كأنه كان على شفته لطمة حمّى ــ هل عرضته على الطبيب أم لا؟..) ثم.. أية تخيلات شغلت ذهن محسن (.. مثل تلك القذيفة التي بدأت حركتها من مخزن ذخيرة العدو مع حركة أخي من الإدارة..)».

* والراوي، لم يكد يغفو ذات ليلة حتى «يوقظني من النوم صوت ممتد مخيف. يشبه صوت ريح فالتة قوية تعصف بآلاف الأعلام المرفوعة. كما لو أنه صوت مكتوم لحريق عظيم في مجرى الطوفان. الصوت مجهول. أجلس على الحشيّة. دائخ من فعل الأقراص المنوّمة. ينصبّ قلق عجيب في روحي. كما لو أن شيئاً يتهددني، وكما لو أنني أفرّ من شيء لا أعرفه. تضاء النافذة لحظة. يملأ صوتٌ أزرق مخادعٌ إطار النافذة ثم، فجأة، يهز انفجارٌ عظيم كل المنزل. تهتز باب السرداب وظلفات النوافذ. أغيب عن الوعي، كما لو هجر

الوعي رأسي. ثم أحس أنني فقدت كل قدراتي. كما لو قبضت روحي. لا أستطيع حتى أن أفكر. وبعدئذ، يغمر روحي عدم تصديق، كما لو أنني عار. أنا عار كما ولدتني أمي، وقد فقدت إيماني بجدران وسقف السرداب وأنا واقف في صحراء جرداء معرّض للأذى. أهزّ يديّ. أحس كوني حياً، ولكنني لا أصدق أنني حي. وفجأة، يفعم الخوف روحي. تشرع أسناني بالرجفة. أحس الآن السرداب وكوني حياً، ولكنني لم أستعد بعد إيماني بجدران السرداب وسقفه. كما لو أنها جميعاً من المقوى، وكما لو أنها ستلتف على بعضها بهبّة هواء هادئة من انفجار بعيد..».

ويدخر الكاتب أحسن الأوصاف لتصوير تلقّي الراوي خبر استشهاد أخيه. يتصل به الدكتور شيدا بالهاتف: «أرفع السماعة. ـ نعم؟ هو الدكتور شيدا. ـ ماذا قلت يا دكتور؟ كأنني لم أعد أسمع كلامه. مرة واحدة ينتقع كل جسدي عرقاً. يملأ أذني طنينُ آلاف الدبابير. لا أدري كيف أخرج من السرداب وكيف أفتح باب البيت وأشغّل الدراجة النارية وأخرج بها من البيت بحيث يبقى باب البيت مفتوحاً..». ويصل المستشفى: «(ـ قتل؟). يرتفع جفن الدكتور شيدا إلى أعلى ويبلل الدمع شبكة أهدابه. تضعف ركبتاي، فأقرفص قرب الجدار».

* *

سبق للكاتب أن استعمل في إحدى قصصه القصيرة، المنشورة قبل هذه الرواية، ما أسميتُه في رسالة خاصة إلى الكاتب بـ«القفز إلى أمام، أو إلى المستقبل»، وهو قد استخدمه في هذه الرواية أيضاً، وإن بصورة أظرف حتى أن القارئ لا يحس تلك الحركة، إذ يجدها جزءاً من جو الحرب، ونتيجة طبيعية للوضع النفسي الناتج عنها: تشاؤم وانتظار للموت في كل لحظة، رغم أن الإشارة إليها تأتي على هيئة توقع للحدث، إحساس مسبق به:

* فجارهم فاضل، الذي ما أن وصل قادماً من سفرته الأسبوعية حتى يقرر العودة سريعاً، فوراً من حيث أتى، وانفجار الصاروخ بعد ذلك مباشرة.

* الأخ شاهد المهاجر، يتوهم الراوي مقتولاً في أهواز ويخشى أن تضرب قذيفة مدفع الليلة منزلهم، ويحدث ما يشبه ذلك فعلاً.

ومرة أخرى يحتفظ الكاتب بخير الأوصاف لخالد، وانطباع الراوي عن حركاته ونظراته:

* «خالد مكتئب. لا طاقة له على التكلم.. كما لو أن قلبه لا يريده أن يتكلم. في نظرته شيء لا أعرفه. حسرة؟.. ألم؟.. رجاء؟.. التماس؟.. لا!.. لا شيء من هذا، وفي الوقت نفسه كل هذا! لم تكن نظرة خالد في أي وقت هكذا..».

* «لا يتكلم براحة. في كلامه، في رجفة صوته وفي صمته شيء لا أعرفه. كما لو أنه معرفةٌ تُطرد إلى الغربة، وكما لو أنه غريب يطلب المعرفة ويسعى لدفع الغربة».

* عندما يخرج خالد ليوصل الجريح إلى المستشفى: «عندما يمر من أمامي يهتز طرف عينه، وينظر إليّ. نظرته تبعدني عن نفسي بشكل سيئ. لا أعرف لون عينيه أصلاً. كما لو أنه غريب يطلب التعرف ملتمساً، وكما لو أنه معروف يذهب، متحسراً، إلى الغربة. يرتجف قلبي من نظرته وتضعف ركبتاي. أتكئ على الجدار وأنظر..».

وهذا، في الوقت نفسه، نموذج آخر لما أسميته بـ«القفز إلى المستقبل»، وهو ما يؤكده الكاتب حين يصف عيني خالد بعد مقتله، فإذا فيهما النظرة ذاتها.

* ويبلغ الكاتب غاية الوضوح في «القفز إلى المستقبل» عندما ينقل إلينا هاجس الراوي هذا: «ما أن تبتعد السيارة حتى يعرق جسدي. لا أدري ما جرى

بحيث يهجم ألف نوع من الفكر والخيال على ذهني. ركْض خالد، نظرته، جلوسه وراء المقود وتحريكه المفاجئ للسيارة، يستدعي إلى ذهني طيران طائر غادر قفصه فجأة ولم تتح لي فرصة حتى رؤية فراره وكيفية خفق جناحيه».

* *

ومع أنني لا أقدم هنا نقداً لأعمال الكاتب، شأني مع غيره، وإنما مجرد تعريف بها وإعطاء القارئ أوضح صورة ممكنة عن أفكاره وأسلوبه وتكنيكه في نقل هذه الأفكار، إلا أنني لا يسعني أن أنهي الحديث عن «الأرض المحروقة» دون الإشارة إلى نقيصتها: سبق للناس أن هاجموا مخزن المحتكر فعرفت السلطات بتوتر الجو في المدينة، وعندما ألقى الناس القبض على سارقيْ بيوت المهاجرين وأجروا محاكمتهما، فقد طالت محاكمتهما ــ لحرص الناس على إجرائها بشكل قانوني جدير باسم المحكمة ــ كما ازداد جدال «القضاة» والجمهور ومنفذي الأحكام مع السارقيْن. فكيف لم تسمع الــ«كميته» بكل ذلك، ولم تتحرك لإيقافه؟!

* *

بعد هذه الرواية بثماني سنوات أصدر الكاتب مجموعة وصفها بأنها «قصص»، كان من بينها «العودة»، التي تناولتها سابقاً لاعتبارات ذكرتها في موضع التناول، وعليه فسأنتقل هنا إلى روايته التالية: مدار الدرجة صفر.

## ٥ ــ مدار الدرجة صفر:

إذا استخدمنا معيار الكاتب نفسه[٣٣]، فهذه الرواية عمل «رجال»، لأنها تقع في نحو ١٨٠٠ صفحة.

والزمن الذي تشغله الأحداث الرئيسة من الرواية سبع سنوات، ومكانها محدود، فهو مدينة أهواز، مركز محافظة خوزستان في جنوب غربي إيران، وشخصياتها محدودة أيضاً، وإن شئنا الدقة فهي رواية بطل، فرد، بامتياز، فما الداعي لطولها إذن؟

* *

نطل على عالم الرواية من عيني «باران»، الذي يرى سمكتي قرش تأكلان أخاه «بابان» ــ بابو ــ ولا يستطيع هو، مع حشد من الصيادين، أن ينقذوه. يؤكل ولا يبقى له أثر!

ثم نتعرف على البيت الذي يعيش فيه باران ــ بيت أبيه المتوفى ــ مع أمه (خاور)، وجدته (بي بي سلطنت)، أمِّ أبيه، التي سنعرف أنها تعاني خرف شيخوخة متقطعاً ــ وتعيش في غرفة ثانية ــ وأخته (بلقيس) التي تعيش مع زوجها (نوذر) في غرفة أخرى. وسنعرف لاحقاً أن بلقيس وزوجها لا ينجبان، ولا نعرف ممن العيب، فمراجعة طبيب في هذا الشأن خارج الصدد! كما سنعرف أن نوذر يرتزق من مراجعة حسابات تاجر في سوق الخضر وتعقيب ديونه، وأنه يمارس هواية كتابة العرضحالات: من أجل كل الناس، موجهة إلى كل الجهات، شاء ذوو العلاقة أم أبوا، ولا يهمه ما يلقاه في سبيل ذلك من عنت ممثلي السلطات أولاً، ثم استهزائهم بعد أن يتعرفوا على شخصيته. أما الغرفة الرابعة، التي كان يشغلها بابان، فيأتي الأخ الآخر ــ برزو ــ اللص المشاكس، ليحتلها أولاً ثم ليؤجرها لنزلاء ــ لأن له في البيت سهماً، تريد عائلته أن تأكله! ولأن بابان مات مديناً له!

وعندما يأتي النزلاء نجدهم عائلة من شيخ شبه مقعد وامرأته البدينةً وابنتيهما الشابتين. وللأب دكة ينصبها في باب البيت يبيع فيها السكاكر واللبان

للأطفال، والسجاير للكبار، وتعمل امرأته في البيت أيضاً، أما البنتان فتشتغلان عاملتين، ونعرف أن إحداهما مخطوبة لسجين سياسي.

نتعرف على شخصية برزو، الذي يحيّي عند دخوله البيت ولكن أحداً من أهله لا يرد عليه! ولا يجلبه إلى بيت أهله إلا المطالبة ببيع البيت لقبض دينه المزعوم لأخيه أولاً، ولتقاضي حصته من ميراث أبيه ثانياً.

أما الأم، فهي نموذج الأم البسيطة الاعتيادية، تسعى للحفاظ على بيتها بعد أن فقدت ربه.

وفي نوذر وضع الكاتب جماع الشخصية الإيرانية العادية، مؤكداً على جوانبها السلبية: الادعاء والتطفل والنفاق والجهل، دون أن ينسى البساطة ــ حد السذاجة ــ والطيبة.

وإذا كان بابان قد مات، وهو الوحيد الذي كان قادراً على الوقوف بوجه برزو ــ كما تبين الأم ــ فإن باران يسعى للقيام بذلك الدور.

أما بي بي سلطنت، المفجوعة بمقتل ابنها ــ رب العائلة ــ قبل بضع عشرة سنة(٣٤)، إلى حد الجنون الخفيف، وبلقيس التي لا يخطر ببالها أصلاً التفكير في طبيب أو طبيبة لعلاج حرمانها من الإنجاب، فهما نموذجان آخران لتكملة صورة المرأة في إيران، وفي شرقنا الإسلامي كله.

ولكن الفتاتين اللتين تحلان في البيت مع والديهما تقدمان صورة للمرأة الجديدة، المرأة التي نزلت سوق العمل خارج المنزل، وانخرطت ــ ربما لهذا السبب ــ في العمل السياسي أيضاً ــ رغم نظرة المجتمع السلبية لهما ولأمثالهما، وذلك لعملهما خارج البيت(٣٥).

* *

يترك باران المدرسة ويعمل، للقيام بأمور العائلة، صبياً عند الحلاق (بارولي)، الذي يحمّله الكاتب بقية الصفات السلبية التي لم يلصقها بنوذر، فهو جبان دسّاس نمّام، مما يؤهله بجدارة لممارسة دور المخبر الذي ينجرّ إليه، كما أنه بخيل، محتال لا يتورع عن سرقة صبيّه نفسه.

* *

وفي وصف جو محيط عمل باران نجد نماذج الحركات السياسية القديمة ـــ الشيوعيين وأنصار مصدق ـــ سلبيين، إلا في مناسبة واحدة، نفهم منها أن المجموعتين تتعاونان لنشر أخبار النشاطات الثورية الجديدة.

هذا، في حين نجد المتدينين يحملون راية النشاط: فالعطار ينقل الأخبار ويوزع النشرات، وربما أشرطة الصوت، وعندما يعتقل يجد رجال الأمن في محله «رسالة علمية» لـــ«الإمام»، وصورة الإمام. وهو يدافع عن ذلك: لابد للشيعي من إمام يقلّده، والصورة صورة مرجع تقليد، فما العيب في الاحتفاظ بها؟!

ولكن في خلفية الأحداث، وبصمت، تلفت نظرنا شخصية نامدار ـــ خطيب منيجه، البنت الكبرى للنزلاء الجدد ـــ الذي يطلق سراحه فيأتي لينزل في البيت نفسه مؤقتاً، حيث نتعرف عليه، فنجد أن به ظَلَعاً ـــ إشارة إلى إصابته ـــ وهو هادئ وقور رغم شبابه، حذر ـــ إذ بعد أن تعتقل الشرطة باران بثلاثة أيام تعود للبحث عنه هو ولكنه يكون قد هرب في هذه الأثناء، كما أنه يتصرف بجرأة غير معروفة سابقاً في ذلك المكان والزمان: أخذ منيجه معه إلى مدينة أخرى فتزوجا هناك!

وهو يحث فيروز، عم باران، على التحصن أمام إدارة العدل ـــ مع بقيةّ العوائل، سؤالاً عن ـــ واحتجاجاً على ـــ اعتقال ابنه، حتى لكأنه هو منظم

الاعتصام. ومشاركة زوجته منيجه في إحدى عمليات السطو الثوري ـ لابد أنه كان مشاركاً أيضاً في العملية ـ على مصرف.

كما تزداد وقائع التفجير تكراراً وتقارباً إحداها من الأخرى زمنياً.

* *

وفي هذه الأثناء نتعرف على الوضع الجاري في البلاد: تهدم الدكاكين العتيقة الصغيرة لتقام بدلها شركات تجارية وفروع مصارف بواجهات زجاجية، تقام مشاريع صناعية وجمعيات تعاونية وهمية لمجرد سرقة أموال المساهمين فيها، وتكدس الثروات لدى بعض الناس بحيث يبذرونها بلا حساب من أجل الحصول على مزيد منها!

* *

لكن لبّ الأحداث يأتي مع السنة السابقة للثورة الإيرانية، حيث نتابعها بتفصيل وتركيز: مقالة جريدة (اطلاعات)[٣٦] التي ألهبت الأحداث، ثم مضاعفاتها التي استمرت وتأججت حتى حققت نجاحها في انتصار الثورة التي عرفت بـــ«الإسلامية».

ونتابعها على صعيدين: الصعيد الواقعي الذي نسمع أخباره في دكان الحلاق من زبائنه، والدكاكين المحيطة به حين يتناقلها الحاج العطار ومبارك الخياط وبرات علي المصور وأصدقاؤه الذين يسكرون أو يحششون معه، أو نراها من عيني نوذر وباران ومبارك ـ الذي يخفّ إلى مسرح الأحداث على دراجته مع كل واقعة فيشاهدها ثم يخف هارباً مع إطلالة المآزق، على الدراجة أيضاً. وعلى الصعيد الرمزي: إذ يشتري باران قبيل العيد سمكتين[٣٧] للزينة، حمراء وذهبية، فيضعهما في حوض البيت استعداداً لاستقبال العيد. ويخاف

عليهما نوذر من وحل الحوض الزائد فيجلب ما يظنه آكل وحل ــ يتضح أنه آكل فراخ سمك، ولكنه لا يتخلص منه رغم ذلك! ــ ويكون هذا أسود اللون. والرمز هنا واضح: فالذهبية تمثل الثروة ــ المستعملة في السياق لتمويل الثورة، والحمراء تمثل الثورة، أما آكل الوحل ــ آكل السمك، الأسود، فهو يمثل القوى المضادة للثورة: نظام الشاه وأجهزته من جهة، والقوى المشاركة في الثورة التي تبلغ حد قيادتها. ومن حركة السمك وتسلط الواحد منه على الآخر، نرى أحداث الثورة ونفسر اتجاهاتها. فمرة نجد الذهبية غائبة حتى لنظنها أُكلت، ولكن باران يجدها ــ عندما يبحث عن خاتمه داخل الحوض ــ سمينة ناشطة وقد لطأت في قعر الحوض مختفية، ومرة نجد الحمراء على السطح حتى لكأنها وحدها في الحوض، ولكننا نجد آكل الوحل ــ آكل السمك متحركاً نشيطاً متحرشاً في كل الأحوال، حتى نجده ضم إلى جانبه السمكة **الذهبية في مطاردة الحمراء.**

* *

مع انتصار الثورة، والسمكة الذهبية تسرح وحدها في حوض السمك بينما الحمراء غائبة، يموت نوذر في ما يشبه الانتحار، وتلد بلقيس ابنها ميتاً، وتُقتل منيجه في هجوم على مركز للشرطة بينما يُجرح زوجها!

ويهرب يارولي!

أما شهروز، ابن عم باران، الصبي الخام القادم حديثاً من الريف والذي موّله الحاج عطار ليشتغل فيقاسمه الأرباح، شهروز هذا تعلم أسرار السوق: يُفرغ محله مما فيه، ثم يحرق الدكان ــ وليحترق السوق كله! ــ مدعياً أمام الحاج أنه سُرق.

ويقوم أوباش المدينة، الذين كانوا إلى أيام قليلة مضت يرافقون قوات النظام

في الاعتداء على المواطنين، بالإمساك بمفارق الطرق وابتزاز الناس أموالهم بذريعة أنهم يجمعونها لعوائل الشهداء!

ولكن خيط الأمل الذي يسلمنا الكاتب رأسه أن باران ومائدة، أخت منيجه، يتسلمان طفل منيجه ليتعهدا تنشئته.

* *

هذه رواية سياسية بامتياز، وهي عندي أكثر سياسية حتى من «قصة مدينة»، فموضوعها الأول والرئيس هو التأريخ للثورة وأحداثها، بينما يتوزع «قصة مدينة» ـ وقبلها «الجيران» ـ موضوعان: السياسة والحب. وهي بهذا مثل «الأرض المحروقة»، التي كانت رواية حرب بامتياز.

* *

ولكنها ليست رواية حزبية: فصحيح أن «التودويين»(٣٨) و«المصدقيين»(٣٩) يتحركون، إلا أن حركتهم لا تزيد عن الكلام. وصحيح أن الخمينيين، ممثَّلين في الحاج العطار، فعّالون، إلا أن سمكتهم (الذهبية) تتحد مع آكل السمك (الأسود)! ومع أن تعاطف الكاتب محفوظ دون شك لليسار الجديد: للحركة الثورية المسلحة، دون أن يغمط الواقع حقه، فينسب لها دوراً أكبر مما كان لها ويزعم لها انتصاراً لم تجده في التاريخ الحقيقي.

* *

تروى هذه الرواية على لسان الغائب، ولكن هذا الغائب يتراءى لنا حاضراً في قلب الحدث والجو الروائي، ويصعب علينا تمييزه عن باران، بطل الرواية.

ويجري السرد فيها متسلسلاً تاريخياً، والتداعيات التي نشاهدها تتعلق

بأحداث الماضي: اختفاء الأب أيام التآمر على حكومة مصدق، فراره بعد إسقاطها، مقتله بعد حركة الخميني الأولى.

ولإعطاء القارئ صورة بانورامية عما يجري، استفاد الكاتب من أسلوب الحوار ــ الذي ينقل فيه الأخبار ــ إلى درجة كبيرة، فتغلّب على الملل الذي قد يحدثه سرد يتصل على مدى مئات الصفحات.

وقد وظف أحمد محمود الحوار في هذه الرواية بشكل لم يفعله في رواياته السابقة:

١- فهو قد استخدمه ناقلاً للأخبار مكملاً لقص الأحداث.

٢- واستعمله بدلاً من السرد بشكل آخر، وعلى امتداد الرواية. فهو لا يقول لنا إن سمك القرش أكل بابان ولم يُبقِ منه شيئاً. ولكن عندما تريد الأم زيارة قبر فتاها، وتأخذ طعاماً توزعه عن روحه، يسألها باران: «أي قبر يا أماه؟ أين؟». وحين يأخذ نوذر العم فيروز إلى أخيه «رئيس المعمل»، متصوراً أن أخاه سيحل مشكلة العم، متباهياً بنفسه، يكتفي الكاتب ــ لإظهار تفاهة تلك المباهاة ــ بالحوار، فأخوه يستقبلهما ــ بدلاً من الترحاب ــ بالسؤال: «لماذا المجيء إلى هنا؟»، ويودعهما بـ«ماذا أستطيع أن أفعل؟»!

٣- ويستخدمه متقاطعاً متداخلاً، أحياناً، لحشد أكثر ما يريد من الأخبار فيه من جهة، وليصور جو الفوضى السائد أثناء التحرك الثوري من جهة أخرى، فحيثما اجتمع أربعة أو أكثر، يتحدث إثنان في موضوع، والإثنان الآخران في غيره، وينظم الكاتب عملية مونتاج يضع فيها جواب متكلم في غير محله، ليسخر من تحليلات المتحاورين، أو ليقدم وجهة نظره في المسائل المطروحة.

٤- ويستخدم لهجته أو نبرته للاستغناء عن الوصف، فكثيراً ما نقرأ: «بلـــ.. قيـــ... س» بدلاً من «بلقيس»، و«با.. ر.. ا.. ا.. ا.. ن» بدلاً من «باران»، للتعبير عن الزجر أو التنبيه.

* *

إن أحمد محمود، وقد تمكن الآن من عمله الفني، راح يستعرض مهاراته التي بدأها بشكل تجريبي في أعمال سابقة.

فمنذ بداية الرواية يسحرنا بوصفه المتوتر، كتوتر صراع الإنسان حقاً مع سمك القرش الذي يصفه: «من الفاصلة بين زورقين ظهر خط دم. تحرك باران، جذّف وذهب نحوه. كان عِرْق دم يفور من تحت الماء وينتشر. ذهب باران إلى خط الدم. كان زورق (رزاق) وراءه. بهت لون خط الدم ــ بهت أكثر ــ ثم لم يعد موجوداً. ارتخت يد باران. توقف المجذاف عن الحركة.. سحب باران المجذاف من الماء ورماه في قعر الزورق وغطى وجهه بيديه الاثنتين».

أو وصفه المساير لسرعة الأحداث وإيقاعها: «على رؤوس أصابعه ذهب إلى قرب الباب. فتح ظلفة الباب. رأى أن الحمامتين على حافة الحوض تلهثان ــ أصغى ــ لم يكن ثمة صوت. خرج من الغرفة. نظر من النافذة إلى غرفة خاور. انفتحت إحدى ظلفتي باب بي بي سلطنت. عاد نوذر مسرعاً إلى الغرفة. طارت الحمامتان. أمسكت بي بي سلطنت بعمود الباب.. جاء صوت سيارة ــ فرملتْ. انفتح باب الدار ــ صفق الديك جناحيه. خرجت خاور مسرعة من الغرفة. جلست بي بي سلطنت عند أسفل الدرج. تنقل الدجاج في ظل التنور. قالت بي بي... جاء صوت برزو من المجاز..». حتى حرف العطف معدوم!

ولا يكاد الكاتب يقرر حقيقة، تقريباً، مباشرة. فبدل أن يقول: لم يعد الناس يخشون قوات الأمن مثلاً، يصف مأمور أمن يطلب من الناس التفرق فيرفضون ويعترضون عليه لأنه أفزع طفلة: «رأى باران أن الجميع سكتوا وراحوا ينظرون إليه [رجل الأمن].. لا يحرف أحد بصره، لا يرمش جفنه، الكل ينظر إلى عين الرجل ذي الشعر البني، غارزين أبصارهم فيه».

وينتظر باران أن تأتيه مائدة لينقلا الآلة الكاتبة خوف انكشاف أمرها: «**أغلق** باران الباب، **أضاء** المصباح.. **جلس** عند المنقل.. **رفع** كأس الشاي... **نظر** إلى غلاف الرسالة و**شرب** الشاي. **قرأ** الرسالة مرة أخرى و**وضعها** في جيبه»، وهكذا ليضع في أقل من صفحة مقطعاً يحوي نحو سبعين فعلاً، أكثرها ــ إن لم تكن كلها ــ أفعال حركة، ليصور لنا نفاد صبر باران وقلقه.

وعندما يأتي رجال الأمن إلى البيت لاعتقال باران، لا يقول الكاتب إن أهل البيت ذهلوا، أو إنهم نسوا الدجاج على النار. إنه لا يطيل الحديث، وإنما يكتفي بالقول: «ملأت رائحةُ اللحم المحروق البيتَ».

* *

لذا، لم يكن غريباً أن تمثل هٰذه الرواية أعمال الكاتب لعشرين سنة، ويرشَّح من ورائها الكاتب، للفوز بجائزة أحسن كاتب روائي خلال عشرين سنة من عمر الثورة، لولا أن اعتبارات سياسية ضيقة الأفق حالت دون ذلك، وبقيت الجائزة دون أن تُعطى لأحد! في احتفال أقيم خصيصاً لهذا الغرض أوائل سنة ١٩٩٩.

### ٦ ـ سيناريوهان:

ثم كتب أحمد محمود «سيناريوهان» أو «قصتا فيلمين»، ونشرهما في كتاب واحد سنة ١٩٩٥، هما:

#### أ ـ بنو الأجلّ:

يطل بنا هذا السيناريو على «ناصر» ـ وهو صاحب محل وعامل تأسيسات صحية ـ في مركز للشرطة حيث يريد تقديم شكوى على «شير شيران» [= أسد الأسود] الملقب بـ«الأجلّ»، الذي عمل ناصر في إصلاح التأسيسات المائية في بيته، مبدلاً الأنابيب والتوصيلات، دون أن يدفع له الأجلّ قيمة المواد ولا أجرة أتعابه، وليته أكل حقه «بأخلاق حلوة»! يحاول عريف شرطة إقناعه بالانصراف عن الشكوى حرصاً عليه! ولكن ناصراً يرفض. وفيما هما يتناقشان في الأمر، يدخل شخص فيسكت العريف، ويؤشر لناصر كي يخرج، فينظر هذا إلى القادم، وعندما يرى شكله يتفهم الموقف فيستجيب ويخرج.

القادم هو الابن الأكبر لأسد الأسود: يلبس بلوزا يشمي اللون، ياقته وكتّافيتاه عنابية، وله أربعة جيوب، شارباه طويلان مفتولان. في باحة مركز الشرطة يفاتح محام ناصراً مقترحاً عليه أن يوكله عنه في دعواه، على أن يعطيه عُشر المبلغ، بعد استحصاله. (وفي هذه الأثناء يقوم بتحية منافقة لـ«شير شرزه» (= الأسد الغاضب)، الابن الأكبر لأسد الأسود. يعود ناصر إلى البيت، حيث نعرف أنه شريك في المحل لأخي زوجته، وأنه يدرس تحضيراً لامتحان مسابقة دخول الجامعة.

يذهب، مع نسيبه، لملاقاة المحامي، الذي يعلن الانسحاب من الدعوى ـ

قبل دخولها ـ ولو أعطاه ناصر نصف مبلغها، بل حتى لو أعطاه إياه كله! بعد أن عرف المشكو منه. ـ لماذا؟ من هو هذا الشخص؟ ـ إنه لا أحد، وهو كل أحد! إنه لا يعطي مالاً لأحد! لقد تعلم على هذا.. علّموه! ويشرح لهما بالتفصيل:

ابنه الأكبر معد الشاي وموزعه في مركز الشرطة. ابنه الأصغر مراسل شرطة النجدة، والثاني هو المستخدم الخاص لمكتب حضرة الحاكم، والثالث منفذ كل أشغال حضرة الحاكم، وهكذا.. وابنته الوحيدة زوجة مسؤول إرجيلة كاتب أدعية المدينة!

وهكذا، فليس غريباً أن يكون أبناء أسد الأسود أسوداً كلهم: المحدّق، الصوف، الغاضب، الخفي، الطويل، العلم، وإلخ.. وهم يلبسون جميعاً الملابس نفسها، لا يميز أحدهم عن الآخر سوى أن حواشي جيوبهم العنابية تختلف ما بين هذا الجيب وذاك.

وأخيراً، يبيعهما المحامي نصيحة: عليهما تجنب الأبناء ليتمكنا من إيصال الشكوى إلى جناب الحاكم. تفشل محاولة ناصر الأولى، ويلقى عليه القبض في الثانية تحت وابل من اللكمات والصفعات حتى ينزف أنفه دماً. ويجرون تحقيقاً معه:

عنده مسكوكة أجنبية ـ من أعطاه إياها؟

هو يسأل عن أوقات مجيء وذهاب الحاكم ـ لماذا؟

ويضيف له الحارس تهمة أخرى، زاعماً أنه سأل عن تسليحات الحرس أيضاً!

ويتدخل الابن الثالث ـ في صالح ناصر! ـ فيحمله على تقديم ورقة

يتنازل فيها عن كل شيء، ويُفهمه بأنه مدين يجب أن يسدد نحو نصف المبلغ الذي كان يطالب به! لأنه حسب فيه أسعار المواد بأعلى من سعر التعرفة! ويتلطف بأن يتغاضى عن دعوى محاولته اغتيال الحاكم! والعمالة للأجانب!

عندما يخرج ناصر، ويراجع المحامي، ينصحه هذا بمحاولة دخول منزل الحاكم سراً، وعندما يحاول ذلك يسقط عن السياج فيرعب الحاكم، الذي يأمر باعتقال «القاتل!»، فيحاصَر ناصر من كل جانب ومكان.

ومع أنه يتمكن من شرح موقفه للحاكم، إلا أن هذا يكلف «الأسد الغاضب» بتعقيب الموضوع وتقديم تقريره عنه!

ويحاكَم ناصر، ويُحكم عليه بالسجن خمس عشرة سنة!

تضطر زوجته للعمل سائقة لسيارة شحن، ولكنها تُغرَّم لعدم تجديدها إجازة سوقها! تراجع لتجديد الإجازة، وتنجح في فحص العيون، ولكن أحد أبناء أسد الأسود يتعرف عليها فيصرخ بالفاحص: لا!، لأن رجلها معيوبة! وهكذا تُحرم من التجديد!

ويذهب النسيب لمراجعة المحامي فيجده انتقل إلى مكتب فخم في مبنى جديد! وهو يقف هناك أمام صورة أسد الأسود! وقد ارتدى لباس العائلة نفسها! واتخذ لنفسه شارباً كشوارب أفرادها، ولكن أصغر قليلاً! وصار اسمه أسد الحلوى!

وفي صفقة لا نتعرف على تفاصيلها بين ناصر وأحد أولاد الأجلّ: دلاّك رئيس السجن، يدّعي هذا لرئيس السجن بأن ناصراً مجنون، ويلح على الرئيس ويراوغه حتى يوافق هذا على عرضه للفحص. ويمثّل ناصر على الدكتور، الذي يأمر بنقل ناصر إلى مستشفى المجانين، فيأخذونه إلى هناك بالقطار، ولكنه يهرب في الطريق! حيث يأتيه ابن الأجلّ ذاك، مع المحامي، فيستقبلانه.

وإذ تعجز زوجته وأخوها (شريكه) في البحث عنه، يذهبان إلى دار الأجلّ. ومن يفتح لهما الباب؟ إنه ناصر نفسه، في لباس وشاربي...!

ويهرب منه طفله مذعوراً، حتى يقع في حفرة ويسيل من رأسه الدم.

ينبهه نسيبه إلى أن الأجلّ قادم، فيسلّم ابنه إلى أخي زوجته، ويخلع بلوزه وشاربه، ويحمل قدوماً، فتتبعه زوجته حاملة مسحاة، فيهرب أسد الأسود إلى بيته ولا يسمح للمحامي بالدخول معه، ويغلق الباب على من فيه من أهله محتمياً بإحكام الباب ومتانة بنيان البيت.

يضع حميد الطفل أرضاً، ويطارد أسد الحلوى!

ويطير الطفل راكضاً إلى أبيه!

وعندما تنهار شرفة بيت الأجلّ تحت وقع الضربات، يتعرف الطفل على أبيه فيناديه: بابا! لأول مرة منذ رآه.

**ب ـ الميدان الترابي:**

يأتي «قاسم» مع عائلته في شاحنة صغيرة تحمل أثاثه ومتاعه، منتقلاً إلى بيت قريب من الميدان الترابي، وتتعطل الشاحنة لأنها تغطس في حفرة، ويتلوث قاسم بالوحل فيما هو يكافح لدفعها. وليس في المنطقة كلها ماء، بل هو يجلب إليها في صهاريج، كما أن شوارعها غير مبلطة.

بعد تحضيرات، يخطب قاسم في الناس، واعداً بأن يجلب الإسفلت لشوارعهم والماء والكهرباء والتلفون لمنازلهم، فيصفق الناس، و.. حتى تمثالاً للشاه! فيبرد حماس الناس حتى يسحبوه فينزلوه عن المرتفع الذي كان يخطب فوقه، دون إعطائه مهلة للتوضيح!

ويدور الحديث بين أهل المحلة عن مبلغ من المال يريد قاسم جمعه منهم لتأمين الحاجات المذكورة، وهم ما بين مؤيد ومخالف يخشى أن يكون قاسم محتالاً، فثمة شائعات تقول بأنه موظف مفصول بسبب اختلاس. وفي مبنى البلدية يتحايل قاسم حتى يتمكن من الاختلاء برئيس البلدية ليحدثه، ويتحايل عليه أثناء الحديث موحياً له بأنه فاتح البلاط الملكي بما يريد أن يصنع للمحلة، بحجة أنه يريد أن ينصب تمثالاً للشاه في الميدان، ويبذل من السماجة والإلحاف ما يحمل رئيس البلدية على الكتابة على عريضته بأن تسجل في سجل الوارد، تمهيداً لبحث أمرها! ولكنه يكتب ذلك بالحبر الأحمر، الذي تواضع مع مأمور الوارد على أنه يعني: حفظ!

ويواصل محاولاته، حتى يأتيه عن طريق بيته وزوجته، ليتمكن من تقديم رشوة له، ويبدو أن الحواجز قد زالت!

ويتحايل رئيس البلدية على صاحب مخزن أنتيكات في طهران ـــ التي سافر إليها ـــ ويشتري منه بثمن بخس تمثالاً لرضا شاه! بينما المفروض أن ينصب تمثال محمد رضا!

وبالمقابل، يحرجه قاسم ـــ عند إزاحة النقاب عن التمثال ـــ بأن شكره أمام الجمهور والصحافة على وعده بدراسة مطالب أهل الميدان وتوفير الإسفلت والماء والكهرباء لهم! ويعزز ذلك بنشر تصوير ـــ لقاء ثمن ـــ في الجريدة المحلية عن التمثال، مع تعليق يكرر الوعد المزعوم من جانب رئيس البلدية عن الإكساء بالإسفلت!

ثم يجمع الأهالي في مظاهرة تحمل لافتات أمام مبنى البلدية لتقدم الشكر للرئيس على وعده...! وينفرد برئيس البلدية، بعد تكرار زوغان الرئيس، ويلوح بالتهديد بالصك الذي أعطاه إياه، فيعطيه الرئيس وعداً بأن يبلط الميدان شريطة ألا يضايقه بمطلب آخر بعد ذلك.

ويباشر العمال بتبليط الميدان فعلاً، ولكن الميدان فقط، وبقشرة خفيفة من الإسفلت يعرف قاسم أنها ستتهشم بعد أول زخة مطر.

مع أن رئيس البلدية فرض تبليط الشارع على أحد المقاولين، إلا أنه يخشى من المطالبات التالية، فيشاور مشاور البلدية، الذي يبتزه! لأنه يعرف بأن الرئيس ما كان ليوعز بالتبليط لو أنه لم يأخذ شيئاً!

وينظم قاسم مظاهرة «شكر»، كي يبتز رئيس البلدية من أجل الماء، فيهرب الرئيس لمجرد رؤية مقدمة المظاهرة. ثم يأتي المشاور برأيه: أن يسرق رئيس البلدية التمثال، ويتهم قاسماً بالسرقة، فيسجنه!

تتكشف محاولة السرقة، ويصحو الناس فيعيدون التمثال إلى مكانه، ويقومون بعد ذلك بتنظيم خفارات لحراسته، كما يصنعون تمثالاً احتياطياً للطوارئ غير المحسوبة!

وتتم السرقة أخيراً!

وتفشل محاولات الأهالي في نصب البديل. ويقود رئيس البلدية قوة من أفراد شرطته وكنّاسيه ويعتقلون أهل المحلة ويخطفون التمثال البديل، ويعتقلون قاسماً والقريبين منه، في حين تقوم حادلة بقلع قاعدة التمثال وتسويتها بالأرض. وتقترب سيارة الرئيس وسيارات البلدية، بالمعتقلين، من مبنى المصرف ـ واليوم هو يوم صرف صك الرشوة ـ فيدبر قاسم مع أحد مساعديه خطة يهرب بها لوقف صرف الصك لرئيس البلدية.

* *

واضح مما قدمناه من تلخيص أن حبكتي القصتين طريفتان جيدتان، ونضيف أن الكاتب استفاد من نصاعة عبارته وقدرته الفائقة على الإيجاز لتقديم

سرد بديع للأحداث الكثيفة فيهما... ولكن الملاحظ أنه لم يعمل شيئاً يذكر على بناء شخصياته فيهما، فلا نكاد نحس تغييراً أو نمواً فيها مهما مضينا في السيناريوهين. قد يكون لطبيعة العملين كقصتي فيلمين أثر في ذلك، ولكن لهما ــ مع ذلك ــ فضل كونهما أهجيتين سياسيتين ــ اجتماعيتين، كتبتا بتهكمية لاذعة، وقد جرى استخدام الرمز فيهما بشكل واضح الدلالة.

## ٧ ــ الإنسان الحي:

نشر الكاتب هذه الرواية سنة ١٩٩٧، مقدماً لها بهذه النبذة: «هذه ترجمة للطبعة الأولى من «الإنسان الحي»، التي كتبها ممدوح بن عاطل أبو نزّال، طبع ببغداد سنة ١٩٨٤!».

مع أن «محمود» اسم مستعار للكاتب، استخدمه في نشر قصصه الأولى في الصحف والمجلات، وحافظ عليه عندما صار ينشرها في كتب، وواصل ذلك في أعماله اللاحقة، إلا أن حقيقة ذلك الاسم عرفت ولم تعد له سرية ما، وعلى هذا فقد صار اسماً فنياً لا اسم تخفٍّ.

واختياره لهذه الرواية، الإنسان الحي، هذه الحيلة الفنية، من ادعاء كونها ترجمته لا كتابته، وتقديمه للرواية بسيرة مزعومة لكاتبها المزعوم، يدل على خطورة ما كتب محمود فيها، وهو قد أراد ــ في تصوّري ــ استغفال الرقيب، بتعزيز الوهم بأن موضوعه لا يخص إيران[٤٠]، للحصول على إجازة الطبعة الأولى للرواية، وليقدّر الله أمراً بالنسبة للطبعات التالية!

تنطبق السيرة المزعومة على سيرة الكاتب نفسه، فممدوح من مواليد ١٩٣١ كما هو محمود، وممدوح هاجر في شبابه من موطنه البصرة (جنوب

العراق) إلى بغداد (عاصمة العراق)، وكذلك فعل محمود إذ غادر أهواز (جنوب إيران) إلى طهران (عاصمة إيران)، ويعيش ممدوح معتزلاً، ويكاد يكون محمود معتزلاً أيضاً.

ماذا تروي (الإنسان الحي)؟

يعرف حنطوش أبو نؤاس قرقاوي أن الرئيس المهيب الركن ألقى كلمة وعد فيها بتغيير وجه البلاد وتحويلها إلى جنة، شريطة أن يتعاون المواطنون فيدلّوه على المفسدين. يجلس قرقاوي فيكتب تقريراً يذكر فيه بالأسماء والوقائع أسماء مهرّبي أسلحة ومخدرات، محتكرين ومرابين ورؤساء بلديات، مديري دوائر ومديرين عامين ومديري مصارف ومقاولين.

بعد يومين يقرع بابه صباحاً، ويأتيه عقيد وملازمان، يطلب منه العقيد أن يعجل بمرافقتهما معزّزاً مكرَّماً إلى عند الرئيس المهيب!

بعد أن يزور الرئيس المهيب ويلاقيه، يحتفل به أهل محلته، وتفخر به زوجته، ويتودد إليه الحزبيون الانتهازيون الذين كانوا يتجاهلونه سابقاً. ثم يؤخذ إلى التلفزيون حيث يلقي كلمة ينثر فيها المدائح للرئيس المهيب، ويحكي ما جرى معه، ويطلب من الناس أن يحذوا حذوه فيكشفوا كل المساوئ وفاعليها للسيد المهيب!

يأتيه أمر بالتهيؤ للسفر لإتمام دراسته في الخارج، حيث تقرر إيفاده للدراسة التخصصية، كما طلب إليه عدم القلق على زوجته لأن الدولة ستعنى بها خلال غيبته، التي يفترض أن تطول خمس سنوات.

ويحدث للطائرة خلل فني (ينكره الطيار!) فتعود إلى بغداد!

وفيما تنتظر الطائرة إصلاحها يستدعى قرقاوي إلى غرفة قائد المطار،

ومن هناك يأخذه القائد إلى قائد حرس الرئيس المهيب، وهو يوصيه بأن يتوسط له عنده، إذ صار هذا ينظر إليه نظرة سوء نتيجة اعتقال ابنه لأنه شكا من نقصان حجم الخبز مع بقاء سعره مرتفعاً!

وعند القائد يتصرف قرقاوي بطبيعية وبلا كلفة ــ نظراً لكونه صديق الرئيس ومدلّله! ــ ولكن قائد الحرس يصفعه صفعة تطير صوابه. ويحذره قرقاوي بأنه سيشكوه إلى الرئيس، فيستدعي قائد الحرس حارساً يأخذه إلى المعتقل معصوب العينين تحت الضرب والإهانات!

ويعدم مع نزيل الزنزانة المجاورة لزنزانته!

وتبدأ حياته الجديدة!

إنه يعيش بين الناس دون أن يروه أو يسمعوه! ولا يحس به إلا زوجته، التي تحس بوجوده من أعقاب سجائره التي يرميها في صحن الدار.

وفيما يتوصل إلى طريقة للارتباط بزوجته، تتسلم هذه رسالة من زوجها (زعماً) يقرأها قرقاوي فيجدها بخطه دون خلاف!

ثم تعلن أجهزة إعلان الرئيس المهيب أن قرقاوي ضاق صدره في أوروبا شوقاً إلى أديبة، زوجته، لذا قرر السيد الرئيس إرسالها إلى أوروبا! هي الأخرى.

ولما كان قرقاوي لايزال يعتقد أن الرئيس المهيب جيد وطيب، وأن بطانته هي الرديئة، فهو لا يشك في شيء.

في المطار مرة أخرى: يدخل غرفة قائد حرس المطار، فيأتي جاره الحزبي إلى الغرفة ويفهم قرقاوي من حديثه مع قائد الحرس ــ خطأً ــ أن زوجته قتلت! يخف إلى غرفة الرئيس المهيب، فيرى ملف امرأته هناك! ويفهم أن زوجته نقلت إلى مستشفى الأمراض العقلية!

وعلى هامش هذه الأحداث، نجد الرئيس المهيب يحب أحد الورّاقين إلى حد أنه عندما يختفي يتصوره الرئيس اختفى في صفحات كتاب ما! فيأمر بإحراق الكتب كي يجبره على الخروج!

وعندما يتجول قرقاوي في مستشفى الأمراض العقلية يجد طابقاً أرضياً مخصصاً للتعذيب! ويختلي في ركن بزوجته، ولكن آلات التصوير السرية تصطاد الزوجة فتصور حركاتها وتسجل كلامها، مما يجلب إليها الجلاوزة، الذين يسعى قرقاوي إلى مضايقتهم كي يخف أذاهم لزوجته، حتى يتركوها.

ويموت قرقاوي مرة أخرى ـــ ميتة تامة بحيث يأخذ روحه معه! ـــ بعد أن أعطى «اللاشيء الذي بقي منه لأديبة».

* *

إنها أهجية سياسية حقاً.. واضحة وصريحة، ولذلك فهي بسيطة. تلفّت الكاتب فيما حوله فالتقط حدثاً من هنا وآخر من هناك، زاوجهما مع أوضاع العراق، كما عرفها من قراءاته في الصحف، وحديث مواطن عراقي من أصل إيراني هجرته السلطات العراقية في أوائل السبعينيات في حملة التهجير الأولى، ليصوغ من ذلك كله حدثاً درامياً يجعل قرقاوي و ـــ خصوصاً ـــ زوجته يعيشانه، ويموتان فيه.

وتتجلى في هذه الرواية براعة الكاتب في صنع الحبكة أكثر مما تتجلى في خدمته البلاغية للنص، وإن كان ذلك لا ينفي وجود التماعات طرّز بها محمود هذه الرواية أيضاً:

* يأتي جاره الحزبي المتملق، ليتسلمه من كبير مرافقي الرئيس المهيب فينقله إلى السجن، فيدفعه ويهينه في الطريق فيما هو مكتوف معصوب لا

يستطيع أن يفعل شيئاً دفاعاً عن نفسه. يلوم هذا الجار على فعله، ويصفه بأنه «عديم الغيرة، جداً!»، فماذا كانت النتيجة؟:

«أمام عينيّ، من وراء عصابة العين، حدث رعد وبرق، واشتعل خدي»! إنها مجرد صفعة!

* ويقول في وصف الصمت المطبق:

«كان ساكتاً إلى حد أن صوت السكوت كان يسمع».

* *

بقي أن نعرف أن الكاتب قال في مقدمته إياها، إنه لا يعرف لممدوح بن عاطل غير ثلاث روايات، هذه إحداها، أما الاثنتان الأخريان فهما «الإنسان الساذج» و«الإنسان الماكر»، وقد قال لي إنه سيكتبهما حقاً، فعلاً.

وإذ انتهى من «شجرة تين المعابد»، وتوصل إلى معرفة سر الاستعصاء الذي واجه كتابة روايته «الرجل الرمادي»، فيؤمل أن ينجزها قريباً.

وعندئذ سيكون لنا موعد تكميلي معه في رواياته الجديدة.

## الهوامش

(١) اسمه الحقيقي أحمد إعطاء.

(٢) حكايت (= حكاية) حال ـ گفتگوبا (= حوار مع) أحمد محمود، ليلي گلستان، نشر: كتاب مهناز ـ طهران ١٩٩٥، وستكون جميع المعلومات التاريخية التي أذكرها من هذا الكتاب، إلا حيث أشرت إلى غير ذلك.

(٣) تقع في نحو خمسمائة صفحة من القطع الصغير، ولم تكن قد صدرت في إيران آنذاك إلا رواية واحدة بهذا الحجم.

(٤) أضاف الناشر للرواية مقدمة ذمّ فيها حزب توده، الذي يلعب نضاله دوراً كبيراً في بناء الرواية وموضوعها.

(٥) انظر (٢) و(٦) أيضاً.

(٦) حوار للكاتب مع كاتب هذه السطور، منشور في «الثقافة الجديدة ـ فكر علمي، ثقافة تقدمية» العدد ٢٨٦ ـ كانون الثاني/ شباط ١٩٩٩، بعنوان: سياسات إيران من خلال حوار مع الروائي الأشهر أحمد محمود.

(٧) صدرت طبعتها الثالثة سنة ١٩٩٩، بعد أن نفدت طبعتا ١٩٨٢ خلال أشهر من صدورهما.

(٨) صدرت «شجرة تين المعابد» أخيراً، في ربيع سنة ٢٠٠٠.

(٩) = الفكر، التفكير.

(١٠) = العهد، الميثاق.

(١١) = الصاحي اليقظ. ولا يحتاج اسما (شفق) و(مجاهد) إلى ترجمة.

(١٢) هو الخطاب الذي قال فيه (رزم آرا) إن الإيرانيين لا يستطيعون صنع إبريق سالم، فكيف يريدون إدارة صناعة النفط بعد تأميمه!

(١٣) إن وصف مساعي رجال «الأمن»، وتنقلهم بين التهديد والترغيب، بين تقديم الطعام والضرب بالسياط، وتنقلهم من معاشرين اجتماعيين إلى وحوش كاسرة، من الدروس الجيدة للمناضلين السياسيين، فليس غريباً أن يستعمل حزب (توده) الرواية مادة تثقيفية لأعضائه ومرشحيه!

(١٤) الطقس مرتفع الحرارة كثيف الرطوبة حتى ليكاد هواؤه يخنق ولا يتبخر فيه العرق عن الأجساد ويهبط حاجز من الرطوبة فيغطي كل شيء.

(١٥) ألم تتذكر عفريت ألف ليلة وليلة؟

(١٦) شمر بن ذي الجوشن، قاتل الإمام الحسين، وقد تميز بالقسوة والعناد إذ نفّذ قتلاً لم يجرؤ غيره على الإقدام عليه.

(١٧) ولكن خالداً هنا يختلف عنه في «الجيران». فبدلاً من الجندي المكلّف، المساق للخدمة الإلزامية، هو هنا طالب مدرسة عسكرية يعتقل إثر الانقلاب الذي أطاح بحكومة الدكتور محمد مصدق.

ولعل الكاتب يريد أن ينبهنا إلى هذا الاختلاف عندما لا يذكر اسمه إلا مرة واحدة، بعد انقضاء نحو ربع الرواية، ثم لا يعيد ذكر الاسم بتاتاً حتى نهايتها.

(١٨) بساط أخف من السجاد، صغير المساحة عادة، ناعم الملمس حاشد التلوين.

(١٩) آب (أغسطس) ــ أيلول (سبتمبر).

(٢٠) يعني أنه ضخم ذو كرش.

(٢١) لَيْلي گلستان. وقد أوردت ذلك في كتابها (حكايت حال).

(٢٢) ص ص١٥١-١٥٢ من الكتاب المذكور.

(٢٣) من يحملون رتبة «عميد» فما فوق.

(٢٤) حكايت حال، ص١٤٣.

(٢٥) يجدر التنبيه هنا إلى أن هذه محاولة أحمد محمود الأولى لاستعمال تكرار الحرف وسيلة لتأكيد ما ينطوي عليه التكرار. إنه يريد بتكرار الحروف أن يؤكد صورة، حالة ــ وسيعود إلى استعمال ذلك بشكل أكثر مهارة لاحقاً.

(٢٦) «الإسلامية»، التي قادها الخميني وأسقطت حكم الشاه.

(٢٧) التي جاءت بها الثورة.

(٢٨) المحافظة الجنوبي ــ غربية في إيران، المتاخمة للعراق. وقد خرقتها القوات العراقية منذ لحظات الهجوم الأولى وتوغلت فيها لاحقاً واستقرت في بعض أجزائها نحو سنتين بعد ذلك.

(٢٩) أي حرب العصابات، المقاومة الشعبية.

(٣٠) = مجلس، وقد تشكلت مجالس المحلات منذ نجاح الثورة، لإدارة شؤون محلات المدن.

(٣١) معنى الكلمة الحرفي هو «اللجنة»، وهي تنظيم شعبي مسلح مهمته حفظ الأمن الداخلي.

(٣٢) نوع من القاذفات.

(٣٣) في (حكايت حال) يقول أحمد محمود لمحاورته عن رواية (كليدر) لمحمود دولت آبادي: «إن كليدر عمل رجولي! يجب أن يكون المرء كاتباً كي يفهم معنى كتابة كليدر بهذا الحجم...» [تقع كليدر في نحو ٢٨٠٠ صفحة].

(٣٤) في التظاهرات التي قامت تأييداً للخميني واحتجاجاً على اعتقاله ثم نفيه سنة ١٩٦٣.

(٣٥) تعتبر الأم صغراهما ـ وعائلتها ـ غير كفء لعائلتها، حين يدور الحديث حول حب باران لها ونيّته في الزواج منها، ويحاول مدير المعمل التحرش بالكبرى متصوراً فيها صيداً سهلاً.

(٣٦) مع ازدياد نشاط الخميني في العراق ضد نظام الشاه، وتنظيم ارتباطه بأنصاره داخل إيران ورواج أطروحاته، نشرت جريدة اطلاعات المسائية واسعة الانتشار افتتاحية بتوقيع وهمي، فيها تهجم شخصي واتهامات غير لائقة للخميني، أريد منها تشويه سمعته في نظر مواطنيه، لكنها أدت إلى العكس: ازدياد تمسكهم به واحتجاجهم على المقال المذكور.
وعرف لاحقاً أن المقال كان مكتوباً في البلاط ونشر بإصرار شخصي من الشاه رغم نصيحة بعدم نشره!

(٣٧) يرمز السمك في الموروث الفارسي إلى البَركة: في المال والأطفال، لذلك يزينون به مائدة الاحتفال بعيد رأس السنة، التي تهيأ قبل حلول السنة الجديدة وتبقى منصوبة إثني عشر يوماً بعد العيد، حتى ترفع في اليوم الثالث عشر، كي «تدور» عليها السنة. ومن هنا، يحبه الإيرانيون ويزينون به أحواض منازلهم (وكان لابد منها في البيوت تقليدية المعمار) أو يضعونه في زجاجات في غرف المعيشة، قبل استعمال صناديق الماء (الأكواريوم).

(٣٨) أنصار حزب «توده» = الشيوعي.

(٣٩) أنصار رئيس الوزراء الوطني، بطل تأميم النفط وضحيته، الدكتور محمد مصدق، الذي أطاحه الانقلاب الأنكلو ـ أميركي سنة ١٩٥٣.

(٤٠) ولكننا ينبغي ألا يذهب بنا الظن بعيداً فنتصور أن الكاتب يتبرأ من كتابته لها. فكونه مترجماً للرواية يعني تبنياً لها، واسم مؤلفها المزعوم: (ممدوح)، هو قلب لاسم الكاتب: (محمود)، وهي طريقة لجأ إليها الكاتب سابقاً في التلاعب بأسماء شخصيات قصصه. إنه لا يلغي نسبتها إليه. وأكثر من ذلك، فقد حاورته عنها وأجابني بصراحة، ولم ينكر كتابته الرواية، وجعل من تبديل اسمه نكتة، ولم يطلب مني حجب ذلك. انظر الهامش (٦).

# الفصل الثاني

## محمود دولت آبادي

عندما قرأت «كليدر» دولت آبادي أصابني الإحساس الحزين الذي يتملكني كلما أقرأ كتاباً لگراهام گرين وأتذكر أنه لم يحصل على «نوبل» الآداب. صحيح أن الأكاديمية الملكية السويدية لم تكن منصفة تماماً دائماً، ولكنها صارت شاملة تقريباً. وإذا كان من سوء حظ دولت آبادي أنه ــ كغيره من روائيي إيران الجيدين ــ معتَّم عليه في بلاده، فهو معروف خارجها إلى حد ما، ولو كانت الأكاديمية تعمل وفق مقاييس الأدب وحدها فقد كان حرياً بها أن ترشحه للجائزة على الأقل.

ولكن، يبدو أنني أستعجل الأمور، فلأرجع مع القارئ إذن إلى البداية.

* *

محمود دولت آبادي واحد من كتّاب الرواية الذين يجري تجاهلهم عمداً على المستوى الرسمي وشبه الرسمي، مع أنه حظي ــ فيما أذكر ــ بذكر، مجرد ذكر، يزيد قليلاً عن ذكر غيره! فقد قرأت في مقابلة صحفية مع الدكتور رضا براهني أنه قال عنه: «بلغني أن محمود دولت آبادي كتب أشياء جيدة، وأنه يترقى»! وفي ربيع سنة ١٩٩٤ كتب ناقد مقالة بعنوان «أليس في إيران

روائي حقيقي؟» استشهد فيها بمقطع من مشهد استشهاد گل محمد، بطل كليدر، على كونه مثالاً لتكريم الأبطال الحقيقيين، ممن يستحقون التكريم في الأدب، وذلك دون أن يتحدث عن المستوى الفني العالي لهذه الرواية شكلاً أو مضموناً، مكتفياً بعرض المشهد المقصود، وخلاصة لخلفية أحداث الرواية، كل ذلك ـ مجتمعاً ـ في أقل من ستمائة كلمة من مقالة شغلت ثلاثة أعمدة كاملة من جريدة يومية بالقطع الكبير!

وفي خريف ١٩٩٧ علّق محرر الصفحة الأدبية بإحدى الصحف على نجاحات فريق كرم القدم الإيراني في المباريات التمهيدية لكأس العالم سنة ١٩٩٨، التي أثارت تكهنات بعض المراقبين الرياضيين بـ«تعولم» كرة القدم الإيرانية، قائلاً: إننا نحس الغيرة لعدم صيرورة أدبنا عالمياً «مع أن «كليدر» تُرجمت إلى اللغة الألمانية، كما تُرجم قبلها من كتابات دولت آبادي «مكان سلوچ الخالي» إلى اللغة الألمانية، فيما أظن».

ذلك كل ما قال، والسلام!

ومع تعرفي على الحياة الأدبية في إيران بشكل أوسع نسبياً ـ نتيجة لازدهار الصحافة النسبي في «الجمهورية الثالثة» ـ كما يجدر أن يسمى عهد الرئيس خاتمي ـ أدركت السبب الذي يؤدي إلى التعتيم على دولت آبادي بشكل خاص: فهو من النشطين لإحياء «كانون نويسندگان» [= مركز الكتّاب]، وهو تنظيم نقابي ـ مهني للأدباء، كان لندواته وأمسياته دور تبشيري وتحريضي كبير في العهد الملكي، وقد تعرض عدد من زملاء دولت آبادي في هذا النشاط إلى مضايقات أجهزة الأمن، واضطر هو نفسه إلى السفر خارج البلاد فترة، كما أن الاغتيالات البشعة لبعض الكتّاب ترتبط بشكل ما بهذا النشاط.

وقد تكللت جهود دولت آبادي وزملائه أخيراً بالنجاح، إذ أُعلن عن تشكيل

المركز، وصياغة هيكله التنظيمي وانتخاب هيئاته القيادية، وإعلانه عن مباشرة أعماله، وإن بقيت مسألة المباشرة الحقيقية للأعمال غامضة إلى حد ما، فقد جرى ذلك دون استحصال «موافقات» من جهة رسمية.

وقد لقي دولت آبادي نفسه تقديراً عالياً، على الصعيد الرسمي، حين جرى منحه أعلى جائزة تقديرية عن مجمل أعماله الأدبية خلال العشرين سنة الأخيرة، وذلك في أواخر السنة الفارسية ١٣٧٧ (أوائل ١٩٩٩م).

* *

كتب محمود دولت آبادي العديد من القصص القصيرة والروايات والمسرحيات وسيناريوهات الأفلام، والمقالات ـ في الموضوعات المختلفة، وأهمها في المسائل الثقافية والفكرية والنقد الأدبي ـ منذ سنة ١٩٦٢ إلى ١٩٨٨، أي «إلى عتبة كليدر» كما يحلو له أن يقول.

كما أنه مارس التمثيل والإخراج المسرحيين.

وعليه، وحرصاً على التسلسل التاريخي من ناحية، ولعرض صورة ـ على بساطتها ـ عن تطور فن هذا الكاتب، سأبدأ بقراءة كتابه الموسوم بـ«صحيفة أعمال الزائل»، الذي يغطي كتاباته القصصية لما قبل «كليدر».

### أولاً ـ ما قبل كليدر:

صدرت من «صحيفة أعمال الزائل» ثلاثة مجلدات، تضم القصص القصيرة والروايات، تشكل ـ حسب تقسيم الكاتب ـ القسم الأول من كتاباته، أما القسمان، الثاني ـ الحاوي مسرحياته وسيناريوهاته ـ والثالث ـ الحاوي مقالاته ومحاضرته ـ فلم يصدرا بعد.

وخلال هذه المسيرة الطويلة «الشاقة، حابسة الأنفاس»، كما يصفها، تضيع له كتابات أخرى بسبب مداهمات زوار الفجر، أهمها رواية «أهل الأسفل» أو قل: (الناس اللي تحت)، ومسرحية «الشجرة».

إنه يكتب ويكتب، وفيما بين الكتابة والكتابة يكتب أيضاً:

«الكتابة لعنة لا تتركك لحظة. لا تعرف ليلاً ولا نهاراً، ولا شهراً أو عاماً. لا تحس انقضاء العمر: يموت أخوك، تكتب. مأتم، تكتب. عرس، تكتب. تتذكر أن حتى مأمور الــ«ساواك» كان متذمراً «أفليس عندك عمل آخر حتى تجلس من المساء إلى الصباح فتكتب؟» ــ «ذاك هو شغلي، يا سيد».

«الوقت صباح، قريب الساعة الرابعة صباحاً. دخلت فراشك للتو، ولايزال ذهنك مشغولاً بمسألة تلك الحياة التي أجريتها بالحبر على الورق فإذا... تكتشف ظل أمك قرب إطار الباب. تعروك رجفة: «عسى ألا يكون أبي مات؟» ــ «كأنه... تعال... تعال أنت وانظر».

«لا حاجة للنظر، هو ميت وعليك أن تفكر باستحصال تقرير طبيب. يا للسهولة! أفلم يكن من الواجب أن تكون في تلك اللحظات الأخيرة عند رأسه؟ طبعاً، ولهذا السبب جلبته قريباً منك، ولكن... كان من الواجب أيضاً أن تكتب، أفلم يكن واجباً؟».

«ــ [حال الوالدة غير حسنة. اختل تعادلها النفسي].

نعم، إنه عَرَض الوحدة. الإحساس بالزوال. أنت تعرف ذلك. ولكن... ولكن تلك القصة الأخيرة، تلك القصة التي تنبغي كتابتها تستغرق وقتك. تلك القصة الأخيرة متى تصل نهايتها؟ ربما...، ليس ربما، بل يقيناً مع آخر أنفاسك!».

* *

## صحيفة أعمال الزائل ـ الكتاب الأول

### السفَر، أو ملاحظات الزائل

يضم الكتاب أربع قصص قصيرة، لعل أروعها «عند أسفل منارة الولي شعيب»، لينتقل إلى «هجرة سليمان»، التي هي قصة قصيرة ممتازة لولا أن الكاتب واصل أحداثها إلى ما بعد عراك الزوج وزوجته.

### ١ ـ هجرة سليمان:

سليمان فلاح أجير يشتغل على أرض سيد. يطلب منه السيد أن يرسل زوجته إلى بيته في المدينة لتعنى بزوجته هو أثناء حملها ووضعها. تذهب فتساعد ثم ترضع الطفل بعد مولده. عندما تعود إلى بيتها، بعد شهرين، يؤاخذها الزوج لأنها ذهبت! تحتج بأنه هو الذي أمرها، فيقول لها كان يجب أن ترفضي! إنه يتصور عاراً لحقه، ويتصور الناس يتغامزون عليه، فيقرر طرد زوجته من البيت، وحدها: دون طفليها، فيتعاركان.

كانت زوجته قد وضعت صرة عند امرأة في القرية، على سبيل الأمانة. تدعي هذه المرأة أن بيتها سُرق، وراحت الصرة مع بقية المسروقات. ولكن سليماناً يدعي أنه لم يُسرق ــ في الواقع ــ غير الصرة! ويتهم المرأة بالتواطؤ مع ابنها الذي أخذ الصرة وباعها في المدينة، ويأتي بشاهد على ذلك. يضربها ويفضحها، حتى يفصل الناس بينهما.

تكثر السرقات في القرية، حتى يسرق بيت تلك المرأة مجدداً، فتتهم سليماناً لسابقة العراك والتهديد.

يلقى القبض على اللصوص، ولكنهم يعترفون ــ كذباً ــ بأن سليماناً كان شريكهم!

يضربهم ابن أخي السيد فيعترفون، عدا سليمان، ثم يأتي رجال الشرطة من المدينة ـ فالعجوز اشتكت رسمياً ولم تكتف بإجراءات السيد.

يبقى سليمان في الاعتقال مدة، وعندما يعود تعود معه فكرته القديمة في ترك زوجته فيأخذ طفليه ويرحل.

واضح أن القصة الأصلية، الرئيسة، انتهت عند معركة سليمان مع زوجته، ولو اكتفى بها الكاتب لكانت قصة جيدة، ولكنه أضاف إليها قصة السرقات، فجعل منها رواية غير موفّقة.

لغة القصة سلسة، تكثر فيها الصور والتشبيهات فتقترب بها من لغة الشعر:

**«كان النور يشع من وجنتيها. ويبدو كما لو أن فمها ضاق وخديها تدوّرا. وراحت شفتاها تميلان إلى العنّاب حمرة وتلمع عيناها كقطعتي ماس. وكما لو أن شعرها قد طال وصار أحلك سواداً. كما أن صندوق صدرها اتسع، وكان واضحاً أن ماء المدينة لاءم مزاجها»** (ص١٤١).

**«في تلك الحال كان جسدها يبدو مثل قطعة رخام وشعرها هالة من حرير أسود انصبّ على كتفيها»** (ص١٤٥).

تأتي بعد «هجرة سليمان» قصة «الظلال التعبى»، وهي قصة قصيرة رغم صفحاتها التي تتجاوز الستين، ثم «الصحراوي»، وهي قصة قصيرة أخرى في أكثر من أربعين صفحة.

ولما كان بحثي يتناول الرواية فقط، فإنني أتجاوزهما كما تجاوزت القصيرات قبلهما، مسجلاً فقط ملاحظة عن طول نَفَس الكاتب المبكر، المتبدي في قصصه القصيرة.

ونصل بعد ذلك إلى رواية «السفر»، التي يحمل الكتاب اسمها.

## ٢ ــ السفر(*):

«مختار» عامل في مشغل حدادة قديم، يسكن بيتاً عند حافة المدينة قرب خط السكة الحديد وتحويلته، ومع أن البيت خارج منطقة الأحياء السكنية إلا أن مختاراً اشتراه بورقة مقاولة، أي بدون سند رسمي، وهو يؤجل إكمال سياجه لعدم توفر الوقت لديه.

يقرر أستاذه أن يغلق المشغل، نظراً لكساد الشغل، فيقرر مختار أن يسافر إلى الكويت ليعمل ويجمع مالاً. وعلى هذا، فهو يكمل سياج البيت ويرحل.

يتأخر المال الذي يُفترض أن يرسله مختار، بل وحتى أخباره، عن زوجته «خاتون»، ونظراً لنفاد ما عندها تبيع بعض سقط متاعها التافه ثم تسلم السجادة ــ التي اشتراها الأستاذ لزوجها بالتقسيط ــ للأستاذ نفسه، صاحب محل الأثاث المستعمل الآن. بعد تسليم السجادة، وإذ هي عائدة إلى البيت تأتي رسالة من أحد أصحاب زوجها يخبرها فيها أن زوجها غرق في البحر أثناء محاولة التسلل إلى الكويت.

وتعجز أمها عن العثور لها على عمل، فتحدث بشأنها ابن صاحب البيت الذي تعمل عنده خادماً وغاسلة ملابس ــ فيأتي هذا إلى بيتها علّه...! تطرده خاتون من بيتها شر طردة، حتى لتخاف أمها أن يطردها أهله من عملها بسببه.

يدخل القصة «مرحب»، وهو فتى فوضوي المزاج يعمل هنا وهناك ولا يتحمل التحكم والكلام القاسي. يأتي إلى المنطقة ويسكن مدة في مقهى قريب، ويعثر سريعاً على عمل.

---

(*) ترجمتُها إلى العربية، وهي لدى المجلس الأعلى للثقافة في مصر الآن، بانتظار طبعها ضمن «المشروع القومي للترجمة».

يرى خاتون فيطاردها مدة حتى يلتقيان ويتعاشران، بعد أن تصلها رسالة زميل زوجها التي يخبرها أن زوجها قتل في الطريق إلى الكويت.

يعيش مرحب وخاتون مدة معاً سعيدين، كما تسعد أمها «بي بي» وابنتها «خاور»، فالرجل يتصرف تصرف رب عائلة محب مع الجميع.

ثم يغيب مرحب فجأة.

في هذه الأثناء يعود الزوج، مقطوع الساق متوكئاً على عكازتين، ولكنه لا يجرؤ على دخول بيته ومواجهة زوجته. يكتفي بمراقبة البيت من بعيد ويتألم ــ بل لا يصدق ــ لمشاهدة غريب (يتصوره أكثر من واحد) يدخل بيته.

يحاور صاحب المقهى، ويتساءل: أهي زوجته؟ أهو بيته؟ (فقد كان قرب البيت محل لتربية المواشي جرفه السيل وأبقى على البيت المبني على مرتفع، فتبدل وجه المنطقة دون أن يدري الزوج بما جرى). ويبقى متردداً لا يدري أيذهب فيدخل البيت أم لا.

يسأل صاحب المقهى، فيشير عليه هذا بأن يذهب، خاصة وأنه يريد التخلص منه لأنه «نحس» عليه، ويتشاءم منه المشترون، وأنه يفقد بسبب وجوده دخلاً من بيع الشاي وتأجير مكان نوم لمبيت المشترين.

في هذه الأثناء تبحث خاتون عن مرحب، فتفهم أنه طُرد من عمله.

طُرد مرحب دون أن يُزوَّد بشهادة خدمة، لأنه متورط في الشؤون العمالية، فيصمم على السفر إلى الكويت للعمل وجمع المال! ولهذا يذهب إلى خاتون ويخبرها بعزمه، ويقاسمها قليل المال الذي عنده، ويودعها وينصرف.

عندما يخرج من البيت، يلاحقه الزوج ــ الذي كان يراقب عن بعد ــ بأسئلته من بعيد، فيهرب منه تاركاً له بعض فكة المال على الطريق، إذّ يتصوره سائلاً سمجاً.

يذهب إلى المقهى منتظراً القطار، ويعود مختار إلى المقهى أيضاً بعد أن عجز للمرة الـــ... كم؟ عن العودة إلى بيته. وبعد نقار بين هذا وصاحب المقهى، يسأل مرحباً ألم يكن هو الذي كان في بيته؟ فينكر مرحب. ولما يعلم مختار أن مرحباً يريد السفر إلى الكويت يحذره ألا يفعل.

وبعد اشتداد وطأة صاحب المقهى على مختار يخرج هذا من المقهى، في حين يأتي محوّل سكة القطار ليأخذ شاياً.

يأتي القطار، ومحول السكة في غير مركزه. عويل عجلات القطار على السكة، ثم ضوضاء وصخب: دهس القطار رجلاً يتوكأ على عكازتين!

هل انتحر مختار؟ ربما.

* *

إن قصة كل واحد من الرجلين، مختار ومرحب، كانت ستشكل قصة قصيرة رائعة، وإن كانت لا تخلو من ميلودرامية، ولكن دمجهما وتقسيم حيز الكتابة بالتساوي عليهما تقريباً، حوّل ما كتبه دولت آبادي بشأنهما إلى رواية، فقدت ـــ في نظري ـــ كثيراً من حرارتها.

* *

النثر هنا واضح جلي:

**«كان غروب ثقيل قد ملأ دكان الأستاذ صفي. كانت تسعة أيام وتسع ليال. كان الهواء كدراً. مثل غبار اختلط بالدخان. في لون الهواء الداكن، كان سواد الجدار ونقرشاته غائبة عن النظر»** (ص٣١١).

وحسّي: فبعد أن يخبر الأستاذ مختاراً فجأة عن عزمه على تعطيل الدكان ويودعه:

**«سحب مختار، بلا نظر ولا كلام، نَفْسه من إطار الباب إلى الخارج وانطلق يمشي على الرصيف. لم يكن يحس قدميه. كانت ساقاه، بحكم عادتهما، تحملانه معهما. لم يكن مغتماً. كما لم يكن مغضباً. كان سئماً متعباً. نوع من الارتخاء المتوجع. كما لو أنه ما كان مرتبطاً بأي مكان. وكما لو أنه لم يكن حتى اليوم أي ماض وراءه. كأنه كان متروكاً. أسقط من السماء؟ إذن فما حاصل هذا العمر؟ أضاع؟ أفيمكن أن يخسر الإنسان بهذه السهولة عمره ولا يفهم إلا أخيراً بأنه خسر؟» (ص٣١٣).**

وملاحظة «بي بي» عن ابنتها:

**«عدة ليال ولم يأت مرحب إلى البيت. وهاهي خاتون ــ مع أنها ذهبت ولم تعلن، إلا أن بي بي تعرف أنها ذهبت ــ تبحث عن مرحب. إذا ما تأخر مرحب ليلة واحدة ينفد صبرها. كطائر أكلت القطةُ قرينَه. تصير لها أخلاق الكلاب فلا يعود يمكن تحويل الكلمة معها إلى كلمتين. تضرب خاور [ابنتها]، تصرخ بوجه أمها، تدعو على نفسها، وفي بعض الأحيان تجد ذريعة ما فتُعوِل» (ص٣٧٨).**

ومختار نفسه:

«قبل أن يذهب في سفره، لو كانت الريح تُبلغ أسماعَه أن خاتون ألقت نظرة ــ متكتمة ــ على ديكٍ لكان يُنزل، بالمطرقة، مخها إلى فمها. ولكنه الآن لم يعد يمتلك جرأة تصديق أي شيء. لم يكن يريد أن يصدق أن بيته هناك، لم يكن يريد أن يصدق أن ثمة من يذهبون إلى بيته. لم يكن ثمة من يذهب إلى بيته أصلاً. لا أحد يذهب. لا أحد يروح: «يتهيأ لي»! تلك المرأة، تلك التي لفّت نفسها بشادرها[1] وكانت تتجه إلى البيت، لم تكن زوجته. لم يكن يصدق أنها كانت خاتون» (ص٣٩٧).

ومرحب، إذ يحاصره مختار بأسئلته في المقهى:

«لم يكن بمقدور مرحب أن يصغي إلى كلام «مشير». كما لم يكن بمقدوره أن ينظر إلى مختار أيضاً. كان شيء ــ مثل إبرة تنغرز تحت ظفره ــ يؤذيه. كان قد انهار من داخله...» (ص٤٣٣).

* *

والمادة الأخيرة في هذا الكتاب هي لقاء «البلوجي»، وهي كما يسميها الكاتب «كتاب سياحة»، ولهذا فهي خارج نطاق بحثنا.

## الكتاب الثاني: دعوى بابا سبحان

ويضم هذا عدة روايات، قصيرة، وقصة قصيرة واحدة.

### ٣ ــ دعوى بابا سبحان:

«بابا سبحان» فلاح يشيخ فيحمله ابنه الأكبر، المتزوج، «صالح»، على التقاعد، خاصة وأنه يشكو من وجع الظهر علاوة على الشيخوخة. ولا يريد صالح لأبيه حتى أن يجلب الماء من شريعة القرية إلى البيت، مع أنه يدري أن «العجوز المسكين تعذبه البطالة...».

يضم البيت، إضافة إلى صالح وأبيه، زوجته «شوكت» وأخاه الأصغر «مسيب».

يصور الكاتب حياتهم فنجدها هينة هنيئة رضية. فيها مصاعب، إلا أنها مصاعب حياة الريف العامة. ولكن ثمة خطراً يتهددهم «ولكن على النحو الذي

تهب فيه الريح فتهز الأغصان، فهذه آخر سنة نزرع فيها هذه الأرض!»، فصاحبة الأرض يبدو أنها لا تكره أن تصير صاحبة لأرض يعمل عليها «غلام فسنقري»، ابن «صديقة المكدية».

ولكن ابن صديقة هذا ممن يحبون البطالة، فما السر وراء سعيه لاستئجار هذه الأرض؟

نتعرف على غلام شيئاً فشيئاً، فإذا هو عاطل متسكع يلف بدراجته النارية هنا وهناك، يأكل كبد الذبيحة نيئاً ويهارش الديكة مراهناً. «قليلاً ما يحل في الرباط وبين ناس الرباط. يبقى ساعة ــ أقل أو أكثر قليلاً ــ يثرثر، ثم يقفز على دراجته ويتجه إلى المدينة. كان الفلاحون والأرض والعمل والجراد قد صاروا جميعاً أموراً قديمة بالنسبة لغلام. لأنه لا ربط لهم به: فلم تكن لديه أرض ولا محصول ولا أحد... وكان يهرب من ذاته دائماً».

وهو كان قد أرسل، قبل سنتين، خاطباً وراء شوكت (امرأة صالح الحالية)، التي سرعان ما ردته أمها وزوّجتها صالحاً بعد شهر. ونتيجة لذلك صار يشنّع على صالح وشوكت.

يتحرش به مسيب ذات يوم، وقد أزعجته تلميحاته، فانتقم لنفسه بقسوة، ومع ذلك أغضى صالح تجنباً للمشكلات. وفي يوم العرس حاول مهاجمة الزفاف فتصدى له صالح، وأسرع منه مسيب، الذي ضربه بعصا ضربة طرحته أرضاً، وشرع بالضربة الثانية فأمسكه أخوه.

ومنذئذ راح غلام يسعى لاستخلاص الأرض من صالح. فلازم بيت عادلة، صاحبة الأرض، لإقناعها بتأجيرها له، إلا أن هذه كانت ترفض دائماً. ولكن ذات يوم، وقد تحمّل مهموماً هزيمة ديكه في آخر هراش، جاءه رسولٌ منها.

وعادلة أرملة تطارد عيناها الرجال، وكانت تطاردهم حتى في حياة زوجها. كانت معجبة بغلام، ولكنها تصده كي تزيده شوقاً لها.

وعندما يجيئها صالح ليدفع إيجار تلك السنة، تسأله إن كان خبرها قد أتاه، فيستفيد هذا من الفرصة التي أتاحتها له كي يناقشها في الأمر، فوجدها مصرة على أن يبيعها سهم زوجته في الأرض أو أن يشتري هو سهمها هي (عادلة) ـــ وهو الأكبر، الذي لا يطيق صالح شراءه إذ لا مال عنده يكفي ثمنه ـــ وإلا فهي تريد تأجير الأرض لغيره! ويزيدها نقاش صالح، ووقوفه بوجهها، تصميماً في عزمها، فتذهب باحثة عن غلام وتجيء به إلى بيتها.

وعدا عن إتمام الصفقة، وربما لتحكيمها، تسلّمه نفسها أيضاً.

يتحرش غلام بصالح، وتنشب معركة يضرب فيها غلام مسيباً بسلسلته المعدنية، ولكن الناس يفصلون بين المتعاركين، فيبدو وكأن المعركة انتهت.

يخرج صالح في اليوم التالي كي يجمع مع أخيه بقية حاصله من الأرض، ويريد الأب اللحاق بهما إلا أن صالحاً يثنيه عن ذلك، ويؤيده مسيب. يتراجع الأب في الظاهر، ينتظر ذهابهما فيلحق بهما.

وفيما هما منشغلان بلقط الحبوب وقلع الأصول المتبقية في الأرض، يرى صالح غلاماً يهدم السقيفة التي أنشأها هو على الأرض. بعد حوار تنشب معركة جديدة، يسيطر فيها صالح على غلام ويكاد أن يخنقه. من البعد يشاهد مسيب ما يجري فيخف لنجدة أخيه. يرى غلام موته في خطوات مسيب الراكضة فيعتق نفسه من قبضة صالح ويطعنه طعنة قاتلة بمدية! وإذ يهرب غلام من مسرح الجريمة إلى بيت عادلة كي يختفي عندها حتى الصباح التالي، تطرده.

يجن مسيب.

تسقط شوكت حملها، وتنام مريضة في بيت أمها.

وتقنع عادلة أم شوكت بأن تبيعها ابنتها حصتها في الأرض.

وتعود أم شوكت بعد أيام إلى البيت كي تسترد جهاز ابنتها المترملة، فيما يكون بابا سبحان قد عاد بمسيب ــ بعد أن كان قد ربطه بضريح أحد الأولياء ثلاثة أيام بلياليها دون جدوى ــ إلى البيت.

ولا يتحمل غلام عذاب ضميره، فيراجع مركز الدرك ويسلم نفسه معترفاً بقتله صالح.

ويفلت مسيب ــ في إحدى نوبات سعار جنونه ــ من أبيه والجيران ليهيم على وجهه في القرية. ومع أن الأب يعثر عليه، ويمسكه بمعونة أحد أصدقائه، إلا أنه يغافلهما ويهرب مرة أخرى.

وفي اليوم الذي تأخذ سيارة الدرك غلاماً إلى المدينة للتحقيق معه، يظهر مسيب أمام مقهى الطريق وينقضّ فجأة على دراجة نارية كانت هناك، فيركبها ويقودها منطلقاً بها مجرد ثوان ليصطدم بشجرة ضخمة، فيطير مع الدراجة في الهواء، ويبدو أنه يموت!

* *

نثر دولت آبادي، كما عهدناه سابقاً، سلس وتصويري، يمكنه ــ بعبارات قصيرة ــ أن يوصل المعنى. فعن شوكت، قبل المأساة، يقول:

**«تمددت شوكت عند قاعدة الباب. كان رأسها يدور دائماً، وقلبها قلقاً، وعيناها يدور أمامهما السواد وتحس لذة الوجع في كل عروقها وأعصابها. لم يكن بقي أمد طويل حتى تضع. حتى أقل من خمسة وعشرين يوماً. وهي تعد الأيام»** (ص ٥١١).

وعندما يصرخ صالح بوجه أبيه، لعصبيته هو ولكثرة أسئلة الأب، نجد الأب:

**«انختمت شفتا بابا سبحان. تدلى رأسه إلى أسفل وبقي صامتاً. خجل صالح. لم يكن قد صرخ بوجه بابا سبحان قبل الآن...»** (ص٥٢١).

وفي وصف تحفز ديك غلام للهراش:

**«وكان (دوك) خائفاً مترقباً كله. يبدو وكأنه يتفحص، بكل ريشه، (لاله)** ــ [الديك الخصم]» (ص٥٢٩).

وفي وصف بدايات المعركة التي انجرت إلى مقتل صالح:

**«... ركز عصا المسحاة على صدر غلام البارز، أمسك بإحكام طرفيْ عصا المسحاة وشدهما نحوه بقوة بحيث أن غلاماً ــ رغم متانة صدره ــ لم تبق أمامه غير لحظة كي ينسى بعدها التنفس. وصالح ــ الذي انتفخ الشريان العمودي على جبهته ــ كان يرى عروق عنق غلام الحمراء ــ من وراء رأسه ــ قد انتصبت كغصينات الرمان حتى لتريد أن تشق الجلد. كما لو أن غلاماً كان يكافح تحت حملي حمار[٢] من الوزن»** (ص٥٩٥).

كما أنه ــ وهذه ملاحظة أخرى أرجو أن يتذكرها القارئ فيما بعد أيضاً ــ قادر على الاقتصاد في التعبير إلى حد كبير. ففي وصف تسليم عادلة نفسها لغلام يقول:

**«تنمّل ظهر غلام، نخرته حلاوة الألم وأضعفته. تثاءب، دق على صدره بجمع يده. وخلع سترته فألقاها جانباً. انجذب نحو عادلة، والتف الإثنان كزوج من الأفاعي الشائخة في الشمس شاحبة اللون القادمة من أسفل النافذة»** (ص ٥٥١). فقط!

وفي حوار لصالح مع زوجته وقد جاءها بهدية:

**«البسي هذا الحذاء كي أرى إن كانت عيناي تعرفان قدمَيك أم لا. مادمت أنا الذي اشتريته فهو لن يختلف قيد شعرة»** (ص٥٥٥).

ويعنف صالح أخاه مرة على خوان الطعام، فـ:

**«صمت مسيب من القلب. دقيقاً مثل مصباح نفطي نفخوا عليه فانطفأ»** (ص٥٥٧).

* *

يمكن اعتبار «دعوى بابا سبحان» أول رواية تلتزم الأصول المتعارف عليها للرواية الجيدة، في إنتاج دولت آبادي، ولنسجل أنه كتبها سنة ١٩٦٦ ــ ١٩٦٧.

**٤ ــ راعي البقر:**

يسمع السيد «عاشق»، وهو «مرعوش نوعاً ما... سالم من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، وغير سالم كذلك، بأن مفرزة تجنيد قادمة إلى قريتهم لتجمع المجندين والهاربين، فيسعى لإبلاغ أهل القرية كي يتدبر الشبان حالهم، وخاصة ليتخلص «قنبر» ــ ابن العم قربان علي ــ وذلك أداءً لبعض أفضال قربان علي عليه من جهة، ولتخليص مصارع القرية من مصير الجندية، خاصة وأنه هارب مرتين سابقاً، فإن قبضوا عليه سيحتفظون به أربع سنوات أو خمساً وتبقى القرية بلا مصارع يرفع رأسها بين القرى الأخرى.

يبلغ النبأ قنبراً ــ الذي عنده سبب مهم للهروب، فهو خاطب، ويحب خطيبته صفورا، وإن سيق إلى الجندية فسيتأخر زواجه ممن يحب سنتين على الأقل. فيصمم لا على الابتعاد عن المفرزة فقط، وإنما على تنبيه كل القرية ليهرب كل فتيانها أيضاً: لذلك يصعد إلى سطح الجامع وينادي من هناك محذراً الجميع!

تدخل المفرزة القرية، وأول ما يبدأ عريفها بالعمدة فيصفعه صفعتين مدويتين دون كلام، ويجرجره أمامه. ثم يذهب، بدلالة أخي صفورا، إلى دكان عطار القرية، وفيما يشتري منه علبة سجاير يسأله عن رجال القرية وعددهم وسبب عدم وجود أحد منهم، فيجيب هذا بعدم معرفته، إلا أنه يتورط فيذكر أنه سمع شخصاً يحذر الناس ــ من فوق الجامع ــ من قدوم المفرزة.

في هذه الأثناء، يأخذ قنبر لنفسه زاداً ويذهب ليختفي، في حين يهاجم مأمورو المفرزة بيتهم فيسوقون أمه إلى الجامع، فيما يشاهد الأب الأحداث من مخبأ ينطلق منه إلى المرعى، ويختفي قنبر في حفرة كان أعدها كالبئر في باحة بيتهم.

ويصطاد جنديٌ الأبَ عند مشارف القرية فيسوقه إلى المسجد، مانعاً إياه من اللحاق بقطيع البقر.

ويعذب العريفُ السيدَ عاشق حتى يضطر هذا إلى البوح بأن قنبراً هو الذي نبّه الناس.

ويحصل هذا مع قدوم الجندي بقربان علي، أبي قنبر، فيبدأ العريف بتعذيبه لمعرفة مكان ابنه.

لا تتحمل صفورا المشهد فتعود إلى بيت قربان علي صارخة: قتلوه، قتلوه، إلحقه يا قنبر! ويطرحها الجندي، الذي يطاردها، أرضاً ويمسك بفمها، إلا أن قنبراً يعاجله بأن يرفعه عنها إلى أعلى ثم يطرحه أرضاً، ويصرفها، ويذهب وحده عن طريق أسطح الدور إلى الحسينية حيث يفاجئ العريف بأن يلاويه فيأخذ منه بندقيته ويوجع له ظهره وساقه، ويضرب جندياً على ركبته فيشله عن الحركة ويضطر آخرَ إلى الهرب. ينصرف للعناية بأبيه ثم يتجه نحو باب المسجد للخروج إلا أن العريف يعاجله بطلقة مسدس تحذيريه فيجبره على

التوقف. وإذ أحس بأن العريف يبحث عن ذريعة لـ«جعله ناقصاً: في ساقه، كتفه أو يده»، فهو يضطر للسكون.

يأخذونه إلى نقطة تجميع المجندين، ومنها إلى مدينة (مشهد) (مركز محافظة خراسان).

تلحق به صفورا إلى نقطة التجمع، ولكنها لا تراه لتقدم له صرتها الحاوية لباساً وطعاماً. ثم تراه ــ إذ ينقلونه مع بقية المجندين ــ وهو يصعد الشاحنة الثانية فتفاجأ قبل أن تستطيع إبلاغه بأن متاعه في الشاحنة المتقدمة. ولما تذهب إلى مشهد كي ترسل له رسالة ومتاعاً، تفاجأ بأنه يخطط للهرب، بمساعدتها، ويفعل.

ولكنهما عندما يصلان القرية يجدان الأب قد مات، وقد جرى جلب جنازته من المرعى إلى الجامع حيث غسله الأهالي وكفنوه، بانتظار دفنه صباحاً. وفي الوقت نفسه، تطوق مفرزة جديدة القرية. وينتظر الناس أن يقول قنبر شيئاً، إلا أنه لا يجرؤ، إذ: «أن الكلام إذ يخرج من فم الرجل ليس هواء. إنه كلام. كان يريد أن يقول: [ينبغي أن نسحب عصيّنا من مكمن بيوت النحل، يجب أن نرفع العصي]. كان يريد أن يقول: [احملوا العصي]. ولكنه لم يكن يجرؤ على الإيعاز للآخرين. كان قول شيء كذلك شاقاً. ربما جرّ إلى بنادق وإطلاقات، وبعد ذلك، ربما، قتل ودماء. أهل وأولاد ودم. قالوا: [قل!] فقال: [أنا شخصياً سأرفع عصاي!]».

* *

هذه القصة، كما هو واضح، تراوح ما بين القصة القصيرة والرواية.

* *

وأسلوبه، كما في قصصه التي استعرضنا، تصويري معبّر:

أخو صفورا، وهو يشاهد سيارتي مفرزة الباحثين عن الجنود الهاربين، يخاف فيهرب:

**«إنه يركض فقط، ولا يفكر إلا في أن يركض أسرع. كان يخشى أن يلتفت وينظر خلفه. كان يظن أنه إن التفت فإن أحد الأفراد ـ الذي كان يلف على وسطه حزام رصاص ويعلق على كتفه بندقية ـ سينقضّ عليه مثل نسر. وجعلته هذه الخشية يركض أكثر، بحيث علقت قدمه بساق شجيرة قطن فوقع على وجهه في الساقية. كانت الساقية موحلة لاتزال، بفعل ري ليلة أمس، وكان أخو صفورا يخوض حتى رسغ رجله في الوحل، ولكن لم يكن ليستطيع أن يقف، كان يجب أن يركض، لأنه كان يسمع صوت تنفس رجل. ليت الله لا يجعله عريفهم نفسه. كان أخو صفورا يحس صوت خشخشة تضارب شجيرات القطن فيما بينها وكذلك صوت جزمتي نفرٍ ما ويفهم معنى شتائم نفرٍ ما، كما أحس ظله ـ الذي سقط فوقه هو وراح يركض بمعيته ـ وسمع صوت النطاق الذي دق رأسه فأحس ألمه حتى أظافر قدميه...»** (ص ص٦٥٥-٦٥٦).

أما العريف:

**«... تجرأ أخو صفورا أن ينظر من وراء إلى قامة العريف الطويلة وقفاه المغضن وكتفيه العريضتين. كان عدد من لهم مثل قامة العريف في القرية قليلاً. حتى قنبر علي، خطيب صفورا، لم تكن له قامة العريف. كتفاه فقط كانتا بالعرض نفسه. كما أن قفا قنبر كان أكثر امتلاءً من قفا العريف. ولكن، أي عرق كان يمتد من جذر أذني العريف وينغرز داخل ياقته!... كان أخو صفورا يريد أن ينظر مزيداً إلى العريف، ونظر. ولكنه لم يكن يتصور أن العريف سيلتفت نحوه وينظر إليه، بعينين كالفحم وشاربين أغمق من العينين، وجبين**

عابس وصغير وأنف ضخم وشفتين زرقاوين وخدّين جلدهما كالدخن: حبة حبة. تيبس أخو صفورا في مكانه خوفاً، وبقي فمه فاغراً» (ص٦٥٧).

وفي وصفه لـ«لقاء» قنبر علي بصفورا، التي جاءت تدعوه لإنقاذ أبيه، يقول إنها صاحت باسم العم قربان علي فأجابها قنبر من الحفرة، ويضيف:

«لو أن صفورا لم تقل عمو قربان علي، لعرف قنبر صوت خطوها، ولو أن قنبر أيضاً لم يناد صفورا فإن صفورا كانت ستعرف مكانه... رأته صفورا ثم حورت نظرها فرأت قعر البئر... لم يكن قنبر يريد أن يقول لصفورا تعالي إلى البئر، كما لم تكن صفورا تريد أن تذهب إلى البئر. كانت مترددة. ما كان لها أن تضع قدماً في بيت عريس المستقبل إلا لدعوة أبي قنبر وأمه. ولكنها الآن قد جاءت. جاءت فجأة ولم تكن تدري ما ينبغي أن تفعل. كان لسانها قد تخدر، لا، كما لو أنه جف وتورم. هكذا كانت تحس. كانت وجلة. من كل جانب...

وجاء صوت جري ولهاث رجل من الزقاق، وراء الجدار الخفيض لمنزل العم قربان علي، فأنزل صفورا داخل البئر. استقرت قدماها ثم خصرها ثم صدرها فرأسها وبعد ذلك كلها في حضن قنبر. كانت هذه المرة الأولى التي يحس فيها صفورا لصق بدنه... كانت صفورا قد توحدت معه. كانت قدماها فوق قدمي قنبر وركبتاها تحت ركبتيه، فخذاها على فخذيه وبطنها وصدرها على سرة قنبر وصدره واقترن خداهما. كانا يحسان حتى تنفسهما ونبض قلبيهما ورمش أهدابهما. رفعت صفورا ــ في حال بين خوف امرأة وميلها وحياء فتاة وخجلها ــ يديها قليلاً قليلاً فطوقت عنق قنبر وأنامت وجهها عند أسفل وجهه. ذاب قلب قنبر، أحس حالة مثل ماء نبع زلال حين ينبجس. حمي جفناه ورموشه وقفاه وأخمصا قدميه، حرارة، حرارة، وزحفت يداه، مثل حيتين نجيبتين على جانبي فخذيها إلى أعلى. وفي انحناء ما فوق ردفي

**صفورا الناهضين استقرتا متشابكتين فعقدتا جسديهما معاً. طعم جديد وميل غريب. حالة برعمة تفتح عينها للدنيا. نسيان كل شيء، حتى الذات. تجاوز كل اللحظات التي صارت قباءاً يلف الأمر. الابتعاد، الابتعاد، الابتعاد إلى تلك الأطراف، إلى الأنحاء الموجودة أو غير الموجودة...**

**ابتعد التجنيد الإجباري والضجات والمساعدات والشتائم المقذعة والمخاوف والخيالات جميعاً من الذاكرة. حتى أنهما لم يريا فم البئر ينفتح ودائرة السماء الكبيرة تطل داخل البئر. كانا بعيدين عن الوجود والعدم ولا يحسان حاجة. كان جسداهما وشعرهما قد تعرق. ونام رمشا صفورا على قرينيهما، وكان شعرها يفوح برائحة امرأة تحت ذقن قنبر»** (ص ص٦٦٩-٦٧١).

ولا شك أن القارئ لاحظ عفة الكاتب في تناول الجنس، سواء ما نتج عن براءة عفيفة وحب نظيف كما بين صفورا وقنبر هنا، أو عن رغبة واغتلام جسديين، لا أكثر، كما حصل بين غلام وعادلة في دعوى بابا سبحان.

وإذا كان دولت آبادي احتاج إلى ثلاث صفحات ليستعرض امتزاج العشق، فإن ذلك لا يلغي ما سبق وأوضحت عن مقدرته الفائقة في الاختصار. فبعد أن يصف، مثلاً، تعذيب العريف للعم قربان علي وعجزه عن حمله على البوح بمكان ابنه، يقص بسكّينه بعض شاربه:

**«فلم يستطع هذا إلا أن ينعر نعرة ويخفض رأسه، والعيون التي كان بمقدورها أن ترى لم تستطع إلا أن تغمض أجفانها، فصار بإمكان الرجال ــ كل منهم على نحو ما ــ أن يقتلوا العريف في خيالهم ويقطعوا شرايينه وأعصابه قطعة قطعة فيعلكونها ويدفنونها، وينهضون فيذهبون إلى بيوتهم»** (ص٦٨٢).

٥ ــ مع شبيرو:

تهبط «حله» مع حقيبتها، من سيارة كرمان ــ الميناء، وتعبر شوارع الميناء، التي شهدت طفولتها ومدرستها وسني عملها. تتقدم، وعندما تقترب من البيت، تتوقف وقد استولى عليها ــ هي التي قطعت كل ذلك الطريق الطويل ــ اضطراب لا ندري مصدره.

تصل البيت، تفتح بابه، وتدخل. أخوها الأكبر يغتسل بأنبوب ماء مطاطي. يجفل من دخولها عليه عارياً، وينادي على أخيه الأصغر كي يجلب له المنشفة. يأتي الأصغر وعينه على كتاب مدرسي بيده، والمنشفة بيده الأخرى، فلا ينتبه لأخته حتى تناديه فينطلق نحوها. ولكن نداء الأخ الأكبر، (عبيد)، يبتر لقاءهما العاطفي. ينتقل الأخ الأصغر، (جاسم)، إليه فيساعده على الالتفاف بالمنشفة. يلتف ويدخل البيت، وسرعان ما يلقي بالمنشفة جانباً ويلبس سروالاً داخلياً، منتظراً دخول أخته. كان يدري أن علاقتها بزوجها متوترة، لذلك لم يكن يريد أن يجعلها تشعر بالاطمئنان إلى أن لديها مكاناً تعود إليه.

في بداية الحوار بينهما تعلمه أنها تطلقت لأن زوجها «لا يليق إلا بأمثاله»، فينزعج أخوها لأنه لم يكن يريد عبئاً ــ إضافة إلى جاسم ــ على كاهله. ولكنها لم تعد تطيق الحياة مع رجل يعتاش من تهريب المسافرين، وتهريب البضائع عموماً والمخدرات خصوصاً، و«يحمل في جيبه ثلاث بطاقات هوية» «وشغله دائماً مع الشرطة والتهريب والإطلاقات النارية».

يدعي عبيد أنه لا طاقة له على إعالتها، خاصة وقد سرق خالهم منه نخلهم وزورق صيدهم.

وبما أنها لا تريد العودة إلى زوجها وبيتها، فسيترك لها البيت لأن أمر نقله قد وصل، على كل حال. ثم يغادر البيت. تبكي مدة، ثم تنهض حاملة الحقيبة.

ينتبه جاسم إلى خروجها من البيت فيلحق بها ويعود بها رغم تمنعها، مُفهماً إياها أن من مصلحة عبيد أن ترحل، لأنه يريد التصرف وحده بإرثهم، وأن ما يدّعيه عن سرقة خاله إياهم كذب، لأنه متفق معه على ذلك كي يتزوج ابنته. فتعود إلى البيت.

يعود جاسم بعد وقت ليخبرها بأنه قد أخبر معلمه (خدو) بمجيئها، وبوضع بيتهم الحالي، وبمشاريعه للمستقبل، وأن خدو وعد بأن يدبر لها شغلاً كمعلمة بأجور يومية. ويعود عبيد سكراناً ليخبر جاسماً بأنهما راحلان بعد غد. ولتبق حله وحدها، فإن وصله خبر عن سوء في سلوكها فسيريها ما يفعل: سيعلقها بقلاّب قصابين ويدلق أحشاءها. إلا أن جاسماً يعالنه برفضه رفقته، وبأنه لن يترك أخته وحدها. فيصمم عبيد على الذهاب وحده، ويترك البيت في تلك اللحظة، على أن يرسل شخصاً لأخذ حاجاته فيما بعد. يخرج مغضباً، ويحدث نفسه في الطريق فنفهم أن خاله يريد تزويجه ابنته ولكنه لا يريد أن يرضخ لذلك.

يفكر جاسم بحياته أثناء غياب حله، حيث كان أخوه يستخدمه لخدمة أصحابه في جلسات سكرهم وعربدتهم، ولترتيب البيت وغسل الثياب وجمع فضلات موائد الصحاب، ليجلس متابعاً دروسه آخر الليل.

بعد شهر، يأتي من يأخذ أثاث عبيد ليرسلها له، وتخرج حله لأول مرة. تبتعد عن المدينة وتتجول في الميناء، فتقودها رجلاها إلى كوخ (شبيرو)، وهو من بقايا عبيد زنجبار، أحب ابنة عمه (فزه) ثم فقدها فحاول الانتحار بإلقاء نفسه في البحر ــ حيث كان يعمل غواصاً ــ إلا أن البحارة أنقذوه وقيدوه حتى وصلوا إلى الشاطئ حيث ربطوه بنخلة إلى أن هدأ، وأقام له الناس كوخاً راح يعمر شيئاً فشيئاً، وصار هو يدخله ليلاً كي ينام، ويستيقظ مع الفجر ليجلس عند بابه مواجهاً البحر منتظراً ابنة عمه! وهو صامت لا ينطق. وهو يُعتبر عم أم حله وأخويها.

تجالسه قليلاً، ثم يتركها ويدخل كوخه. تقوم فتتمشى عائدة. تتصور أخاها يناديها، وتهيم على وجهها متصورة أنها توهمت حضور جاسم. يحل المساء، تتعثر في طريقها بسبب الظلام حتى يعثر عليها أخوها فيعنفها. وكان خدو بصحبة الأخ، فيبلغها بأنه دبر لها عملاً تمارسه في السنة الدراسية التالية.

يفكر خدو فيها، ويريد أن يعرفها أكثر، ولما يجالسها قليلاً يصمم على أن الوقت قد حان ليشاور الربان (زبيراً) في «الأمر». يتزوجان. ويعزم جاسم على الرحيل إلى طهران فيقيم له خدو حفل توديع يحضره أصدقاء خدو: الربان زبير، رئيس عمال المنجم «قريش»، المضمد «داديار» و«جيروك»: الذي يعمل في بلدان الساحل، والذي سجن مرة بتهمة التهريب. إنه «تاجر». علماً بأن الحفل ــ في توضيح حله لجاسم ــ هو أيضاً حفل عرسها نوعاً ما.

وعند توديع جاسم نعرف أن خدو أوصاه بالاتصال بشخص في طهران كي يساعده، اسمه خليل، هو طالب في دار المعلمين، ولابد أنها الآن سنته الأخيرة.

يذهب خدو وحله إلى الزورق الحكومي الذي يقوده زبير حيث سيأخذهم في جولة للتسلية، ونجد جيروك هناك أيضاً، ونعرف أنه هو الذي أعطى اسم ذلك الشخص في طهران لخدو، وأنه ــ جيروك ــ مطارد الآن ولذلك فسيهرب عن طريق البحر.

بعد أيام يزور قريش خدو في بيته، ويعلمه أن الأوضاع خطيرة، فقد كان ذاهباً إلى بيت للاجتماع برفاقه فتصدى له ثلاثة يلبسون السواد، شهر أحدهم بوجهه سكيناً وطلب منه الكف عن أعماله وترك العمال بحالهم، وإلا فإنه سيخصيه بهذه السكين! ويسأل خدو: ما العمل، فيعلمه هذا بأن عليه ممارسة حياته الاعتيادية مع الكف عن اللقاء بأحد في هذه الأثناء، وإفهام الجميع بذلك.

ويتهيأ خدو للخروج لرؤية داديار، ذي الشم القوي في مثل هذه الأمور، وزبير، الذي يبعث الاطمئنان في النفس، ولكنه قبل ذلك يسأل قريشاً إن كان لاحظ أن أحداً يتعقبه أثناء مجيئه. يدهش هذا ويعترف بأنه كان مشغولاً بأفكاره حيث لم يلاحظ شيئاً ولم يفكر بذلك. فينصرف خدو عن فكرة الخروج وينتظر عودة حله ليكلفها بالذهاب والاستفسار.

يأتي داديار نفسه، ويعلمهما ــ مستغرباً ــ بأن الزقاق مراقب من قبل غرباء. ويخبرهما أن سبب مجيئه كان لإخبار خدو بأن خليلاً في طهران أرسل محذراً بأنه مراقَب هو الآخر.

يبلغ خدو رفيقيه أن بإمكانهما الهرب عن طريق سطح المنزل، فلعل بإمكانهما الإفلات بمصادفة ما. وسيبقى هو لعل حله تجلب خبراً.

تأتي حله، وبدلاً من الأخبار! تأتي بثلاثة من المراقبين الأربعة، الذين يعتقلون الرجال، ويجمعون الكتب والأوراق في جوال، ويسوقونهم أمامهم.

تذهب حله لتسأل عن زبير فتجده خرج تواً من بيته. تبلغ ابنه بما جرى وتعود إلى بيتها.

أما جاسم، فنجده يعيش في أحد أزقة طهران مع خليل: جيب واحد ومصرف واحد. تعاقدا على غسل إحدى دور السينما، فذاك هو عملهما. وهما يعاشران «وهابا»، عامل معمل الحلويات، و«هدايت الله» ابن الحوذي، حيث يقضون أغلب العصارى وأوائل الليل معاً.

يجد جاسم خليلاً مهموماً فيسأله ما الخبر. يتردد جاسم ثم يخبره أن عليه تركه ليستطيع النفاذ بجلده، لأن بالإمكان أن ينجو لو كان وحده، أما مع خليل ــ وخليل وحده ــ فليس ذلك بمقدوره، لأن كل ما يخص خليلاً معروف عند

«هؤلاء». لا يمكن أن ينجو إلا إذا غادر البلاد، ولا يمكن مغادرتها عن طريق الميناء لأن الأوضاع هناك أيضاً خطرة حسب حدسه.

لما يخرج جاسم للرحيل، يخرج خليل وراءه، وسرعان ما يسمعان «قف!»، وإذا باثنين يترصدانهما. يهاجمهما خليل فيتيح فرصة الهرب لجاسم بينما يقع هو في أيديهما.

تبحث حله عن زوجها، وبعد المماطلة يخبرونها أنه ليس هناك وإنما تم نقله إلى المركز. تطلب من مديرها إجازة فيمنحها إياها، ولكنه يزورها في بيتها ليلاً ليتقاضى ثمن الإجازة! تطرده.

تذهب إلى طهران بعد أن تترك خبراً عند ابن زبير. لا تجد جاسماً.

ثم تعثر على خدو في سجن بمدينة ما: يلتقيان، ثم يفترقان دون كلام.

ونجد جاسماً عاملاً في فرن خبز في (دبي). يضيق بالوحدة فيتحرش بإنگليزي ويطيح به أرضاً ويهرب، فتطارده وتحاصره الشرطة، ثم تسلمه للسلطات الإيرانية مع إضبارة سميكة!

يلتقي خدو في السجن ويحدثه بما وقع له. يسأله عن رفاقه فيعرف بأنهم تفرقوا. ويسأله عن أخته فيعرف بأن أخبارها تصله.

يطلق سراح جاسم فيذهب إلى بيت خدو، ولكنه لا يجد أخته. يبحث عنها هنا وهناك فلا يجدها. يخطر له أنها ربما ذهبت إلى عبيد، فيذهب إلى هناك ولكنه لا يجدها أيضاً، في حين يطلب منه هذا أن يترك مدينته لئلا يسبب له مشاكل بسبب سجنه السابق، ولما يجده معانداً يبلغ عنه فيعتقل، ليأتي بعد ذلك أحد أصحاب عبيد ليكفله، ويفهمه بأن أخاه لا يريده في تلك المدينة، فهو يخاف وجوده فيها لسبب ما!

يذهب إلى الساحل فيسبح قليلاً، إلا أنه يرى أخاه فجأة مع صاحبه وكأنهما يترصدان له، فيخشاهما ويخرج من الماء مبتعداً.

وفي الميناء الجنوبي نجد حله تأتي إلى حيث شبيرو، تريد أن تحدثه هو الذي لا يسمع غير صوت البحر ولا يرى غير لون البحر، ولا يتكلم قط. ولكنها لا تستطيع أن تبوح له، وإنما تحدث نفسها. لقد هوجمت في بيتها، واغتُصبت، وهي الآن حامل. اشتكت، ولكنهم طلبوا منها أن تتذكر أسماءً! وهي لا تعرف المعتدين. لقد ألقت بفراشها في البحر، لأنه نجس بعد خدو، وهي نفسها نجسة، وهكذا فهي تتجه إلى البحر.

يأتي جاسم إلى الميناء، فلا يجد أحداً في البيت. يخرج إلى الساحل ويذهب إلى ابن زبير مستفسراً. يرافقه هذا إلى شبيرو، ويسأل شبيرو بالإشارات، فيشير هذا إلى البحر.

يقفز (صباح)، ابن زبير، إلى الزورق ويأخذ جاسماً معه. يبحثان هنا وهناك فيعثران عليها، عائمة ميتة. يأتيان بها إلى الشاطئ. وعندما يراها شبيرو يسألها: «فزه! فزه! أجئت أخيراً؟»، ثم يصمت مرة أخرى.

يرسل زبير (صباحاً) ابنه في طلب جاسم ليضماه إليهما. وعندما يأتي يراه صباح يعانق أباه وهما يبكيان. يرى لأول مرة بكاء الرجال.

يقضي صباح وجاسم الليل متجولين على الساحل، وعند الصباح يسرع جاسم إلى البحر ليسبح، ثم يلحقه صباح. ويسأله صباح: ماذا تفعل الآن؟ فيشير جاسم إلى جيروك، الواقف عند كومة ملابسهما على الساحل.

* *

وصف دولت آبادي، هنا أيضاً، تصويري معبر. ولعل وصفه لحرارة الجو ورطوبته داخل حافلة نقل الركاب من كرمان يؤيد ما أذهب إليه:

«كان كتفها وزندها يحسان ألماً خفيفاً، كما كان بقية جسدها من مبدأه إلى منتهاه متعباً مهروساً. عرَق ما تحت إبطيها، فيما كان ما تحت ثدييها يحترق من العرق اللاصق. كانت تحس داخل خديها قد سقطا فالتصقا بجلد أضلاعها. كانت تتصور أن تحت آباط بقية المسافرين قد عرقت أيضاً، وأن تحت أثداء بقية النسوة التصقت أيضاً وأن الآخرين أيضاً، تحت السقف الواطئ لحافلة الركاب، كانوا يحسون حتماً ضيق النفس من رائحة الحرارة الرطبة وعرق الأجساد والبنزين وأنفاس العجائز الثقيلة. لأن هواءً لم يكن يدخل حتى من النوافذ المفتوحة. وإذ كانت الحافلة متوقفة على أرض المرأب المتربة، فكما لو كان الهواء قد توقف أيضاً. فائر مرطوب ومختنق. مثل ميت انتفخ. وقد تشبث هذا الاختناق بحلقوم حله. فكان يزيد اختناقَها رؤيةُ العباءات السميكة للنساء وأغطية وجوههن السوداء، والخدود الزرقاء والجباه المغضنة للعجائز والعيون الجاحظة السائلة ماءً، التي هي جزء من حياة أكثر مسني الجنوب، وعرق أقفيتهم اللزج وحركاتهم الثقيلة قليلة السرعة في لملمة أنفسهم وأحمالهم مع الضجة العبثية وصراخ الأطفال والأبواق المتتالية للسيارة المكتظة بالناس المتهيئين للحركة» (ص٧٠٨).

كما أن وصف مشاعر وسلوك جاسم، المراهق وقد بلغ، تأييد آخر:

«نهض وذهب إلى الغرفة. كانت حله جالسة عند الجدار، وقد سحبت عباءتها فوق وجهها، تبكي بلا صوت. لم يكن جاسم يدري كيف يكلمها. مضت سنتان وهو لم يرها. لقد تغيرت أمور كثيرة. صارت أخته امرأة وهاهو نفسه يصير ـــ شيئاً فشيئاً ـــ رجلاً أيضاً. اخضرّ ما فوق شفته وأصيب صوته ببحة، وسينهي هذا العام الدراسة الثانوية فيخلفها وراءه. كان يجد حساً جديداً تجاه الآخرين تحت جلده. حساً كالغرور. فالكلام والتلميحات تثيره سريعاً، وتجعل النظرات دمَه يغلي. علامات

**الرأفة والمحبة تحيل شحمتي أذنيه إلى لون الفلز المذاب. وتملأ كلمات التشجيع تحت إبطيه هواءً. وتهبط به أقوال الملامة، التي يسمعها أحياناً، وتحرق فؤاده. أما النظرات المتلصصة لفتاة ما فهي تُرجف صدره. قبل أن يعطي عبيد حله لـــ(حبيب ياسين)، كانت حله تغسل جسد جاسم ورأسه، تمشط شعره الخشن المفتول، وتدعك ملابسه في الطست وتخيط خروق لباسه. كانت أختاً وأماً وصديقة معاً. أما الآن، بعد هاتين السنتين والبضعة الأشهر فلم يكن جاسم يعرف كيف يسرّي عن أخته. لقد نسي طريقة التكلم معها. كان يخاف أن يكون الكلام الذي يقوله غير مناسب! لابد أن حله قد اعتادت، خلال هذه المدة، طريقة أخرى من الحوار؟ ثم، أفكان جاسم نفسه شيئاً غير هذا؟»** (ص٧١٥).

ومرة أخرى، نشاهد هنا الاقتصاد في التعبير أيضاً:

«**كانت أضواء المدينة تثقب من بعيد ستارة الشرجي** [الهواء الحار الرطب الوخم اللزج] **السميكة**» (ص٧٢٧).

«**هي نفسها لم تفهم كيف مرت هاتان الساعتان، ولكنها كانت تحس أنهما تختلفان عن الساعات الأخرى كثيراً. أبطأ، كانتا تنصرمان أبطأ كثيراً. مثل حجر تدحرجه إلى أعلى الجبل**» (ص٧٢٧).

* *

والمادة التالية في هذا الكتاب قصة قصيرة، ننصرف عنها لنصل إلى:

### ٦ ــ من الأزقة الملتفة:

يفتش «طاهر» مزرعة محصولاته الصيفية فيجد مكان أربع بطيخات ناضجات خالياً. يقدر أن السارق هو «ابن ميرجان»، الذي لا طاقة له على العمل فيفضل السرقة، أو أنه ربما يريد أن يبقي محصول أهله كاملاً كي يبيعوه

بثمن جيد أول الموسم، فيسرق. ولهذا، يصمم على اصطياده بالجرم المشهود في ليلة لا قمر فيها. كما أن ابن ميرجان لا يكتفي بالسرقة، وإنما يطارد «مارو»، زوجة طاهر، بنظراته ولا يضيع فرصة لمحادثتها مع أنها لا تود محادثته، ولكنه من السماجة بحيث لا ينفع معه إعراض أو توبيخ.

ولا يريد طاهر أن يضربه فيتعرض لسخط عشيرته، التي ستعتبره ـــ عندما يُضرب ـــ ولداً صالحاً، هي التي تتنكر له الآن. كما أنه يخشى أن يحرمه آل ميرجان ـــ وهم ملاكون صغار ـــ من شغل الحراسة ومن تأجير قطعة الأرض التي يزرعها.

يقطف بطيخة يحملها معه إلى البيت، حيث يقيم عندهم مدير المدرسة، الذي تخدمه أم طاهر، فالبيت ملك لشخص رحل إلى المدينة ودبر لنفسه عملاً في إدارة المالية، وهو يطمع في تزويج ابنته لمدير المدرسة ذاك. وقد افتتح المدير فصلاً لمحو الأمية يدرس فيه طاهر أيضاً.

يقدم البطيخة للمدير. ترافقه زوجته ـــ التي كانت في غرفة المدير ـــ عند الخروج حاملة سراجاً، إلى غرفتهما. لا يتعشى، ويخبر زوجته أنه عائد بعد قليل. يذهب إلى بيت ميرجان فلا يجد ابنه. يشكوه إلى أمه، التي تصرفه لأنها «لم تذق البطيخ» وتطلب منه أن يشكوه لأبيه! يجد الأب في دكان العطار، ويلقى من الأب جواباً أتعس من جواب الأم.

يعود إلى البيت فيتعشى، وينهض ليهرس العلف دون الذهاب إلى المدرسة، رغم تأكيد المدير وتذكير أمه.

«إسماعيل»، ابن ميرجان، الملقب بـ«گروز»، طالب في محو الأمية هو الآخر، يلحق بالمدير في الطريق إلى المدرسة ليبتزه النجاح وليعرض عليه ملاعبته القمار عندما ينقص مجلسه لاعباً.

يعود المدير إلى البيت وذهنه مشغول بغيبة طاهر. يدخل غرفته فتطالعه صور النسوة أشباه العرايا، التي ألصقها بنفسه على الجدران، ويتذكر عدم ارتياح مارو [زوجة طاهر] لها، ثم استفسارها:

[ــ «أفلا تذهب صيفاً إلى طهران أو مشهد من أجل أمثال هذه الأمور؟»، ولكنه يجيبها:

ــ «لا، أبداً. إنني لا أستبدل شعرة من شعرك بمائة من هاته. فإنهن ملعوب بهن»].

وقد تبدل المدير عن وقت أول مَقدمه، حين ساهم في تطهير ماء القرية وردم الحفر في طرقاتها. أما الآن فهو منطو على نفسه، كثير التفكير في مارو، وقد ازداد تدخينه. «صارت مشكلته الآن هي المدير نفسه». حتى أنه ملّ عمله وانتبه إلى أنه لم يعد يحب الطلاب.

لا يطيق الجلوس في غرفته، فيخرج ليتمشى. ويعيد نصف البطيخة لطاهر.

تصعد أم طاهر إلى سطح المنزل لتفرش فراش ابنها وزوجته، وتنزل لتنام ــ كعادتها ــ عند الباب. أما المدير فينام على الإيوان عادة.

تراقب الأم خفية لترى إن كانت مارو ستتباطأ في الصعود مرة أخرى أيضاً. وتتباطأ مارو فعلاً.

وتتذكر الأم أن مارو، وهي ابنة أختها، هذا دأبها، وهي حتى لم تسلم نفسها لطاهر إلا بعد ستة أشهر من زفافها. وكانت أمها، عندما رحلت مع زوجها ليتدبرا معيشتهما، قد سلمتها بيدها لرعايتها وخوّلتها تزويجها لطاهر. فزوجتها بعد شهور، وهي لم تتجاوز الثالثة عشرة وخمسة أشهر. «وعندما احتلها طاهر كانت قد أتمت عامها الرابع عشر». وهي الآن في الخامسة عشرة. (لا ندري

على وجه الدقة، أهي تشمئز من طاهر أم تخافه، وقد قال لها المدير إنه لن يتزوج من «گل آرا» ابنة «ذي حقي» صاحب المنزل). وتحثها أم طاهر: «اذهبي إليه يا ابنتي الحبيبة، فما العمل؟ ما التدبير؟ أشغليه بشكل ما. تصوري أنك تحلمين».

تصعد مارو إلى السطح ولكنها لا تجرؤ على الذهاب إلى الفراش، يشدها زوجها فتنفر. يدعوها فترفض. يجبرها على الخضوع فتلتف على نفسها «كالجنين في الرحم»، فيكفّ. لم يكن يعرف الكلام الحلو، ونسي كل ما علمته إياه أمه. لم يكن يعرف المضاجعة، وإنما عندما ظفر بها طرحها أرضاً ونام فوقها! إلى أن علّمه حادي إبل كيف يفعل.

يحاول ثانية فتتجمد رعباً وتنطوي وتصرخ حتى يتركها مرة أخرى. تهرب إلى أسفل فيطاردها، ويلحق بها إلى الغرفة فتهرب ويلحقها إلى الإصطبل، ويمسك بها فتصرخ بكلامها المعتاد في مناسبات سابقة: «أقبضت على أسير يا مخروب البيت؟ لا أريد، لا أريد، يا إلهي، لا أريد». ويزيده هذا القول التهاباً، ولكنه دائماً ما يحول رغبته إلى نفور. يضربها، ويطاردها، وبعد كرّ وفرّ ينالها عند المعلف فتهرب إلى باب المعلف، إلا أن رِجلها تعلق بشيء فيلحق بها ويجردها من سروالها ويرفع ثوبها عالياً، وإذا بها قطعة لحم باردة. (لا نفهم ما إذا كان ينالها أم لا، إلا أنه يقوم عنها غاضباً بارداً نافراً).

عند مقبرة القرية، على حافة حقل القطن، نجد المدير يفكر في ورطته بابنة ذي حقي. ويستعرض حياته. إن أكثر ما يفكر فيه ويعذبه، القول الذي قطعه لمارو بأن يأخذها معه! زلة لسان! فهي متزوجة وهو خاطب! وسلوك عائلتها معه ورعايتها وخدمتها له يأسره ويضخم جريمته في عينيه. فذات ليلة، وقد ذهب طاهر يتسلم أجرة مائه من إحدى الأراضي، وذهبت أمه، (خاله آتكه)، إلى الحسينية، تأتيه مارو، تسلمه نفسها، وتبكي، طالبة منه أن يأخذها معه.

وطاهر، الهائم على وجهه هو الآخر، يجده عند المقبرة فينضم إليه.

ينهض المدير، فيتمشيان متحدثين.

ومن يجد طاهر أفضل من المدير كي يكاشفه بهمومه؟

ويتصور المدير ــ بعد أن يسمع مقدمات كلام طاهر ــ أن هذا يدري، فيتمنى لو ينهي عذابه فيستنطقه ثم يقتله كما يشاء! ولكن طاهراً يشكو همومه: من إعراض زوجته، ويقينه بأن «ابن حرام ما» قد قرأ في أذنها أشياء، وعجزه هو عن إلقاء طفل في حجرها ليربطها به! ثم يرجو المدير أن «يدفن شكواه تلك في التراب»، وتركه واختفى.

وهام المدير على وجهه، ليجد نفسه في طاحونة ابن ميرجان.

يثرثر هذا قليلاً، ثم يلاعبه القمار، فيجد أنه لا يطيقه، ويتركه عائداً إلى البيت، حيث تلحق به مارو إلى غرفته، وتعرض نفسها عليه. يأبى. يعترف لها بأنه كذب عليها وأنه يحتقر نفسه.

تتركه وتنضم إلى خالتها، حيث يسمعها المدير تعلنها بأنها سترحل لتعثر على أمها وأبيها.

أما طاهر، فيذهب إلى طاحونة ابن ميرجان. يرتعب هذا لرؤية طاهر على تلك الهيئة، فيشل ويعجز عن الحركة. يهاجمه طاهر ويوشك أن يخنقه، حتى ليخاف أن يكون مات فيتركه ليجده ــ لحسن الحظ ــ حياً. ويكتفي بأن يجز قطعة من سرواله الداخلي يأخذها معه، ويعود إلى البيت، فيسلمها لأمه طالباً أن تعطيها لابنة أختها لــ«تؤطرها وتنظر إليها كل صباح!».

عندما تميز الأم الخرقة التي بيدها ترتعب، فهي علامة طعن بالشرف، و«آل ميرجان عشيرة. بينما طاهر، ابن الخالة آتكه، فرد. وهذا العمل لا يقع إلا

مرة كل عشر سنوات أو عشرين، وكثيراً ما يجر إلى الدماء. إن هذا العمل يوقظ أعمق الأحقاد». وفيما هي تتصور ما سيقع عندما يعرف آل ميرجان، يتهيأ لها أنهم جاؤوا، وأن طاهراً هرب إلى الحقول وهم يطاردونه، فيعقر عدداً منهم إلا أنهم يصيبونه أخيراً ويوجعونه ضرباً.

وتفكر مارو بالفرار من مصيرها.

كما يفكر طاهر بالفرار من فعلته.

بينما يبقى المدير يصارع أفكاره، في غرفته، ليركب دراجته عند الفجر ذاهباً إلى المدينة طالباً نقله.

وفي اليوم التالي يأتون بطاهر بين الموت والحياة. لقد فعل آل ميرجان فعلتهم. ويتصور الأهالي أنه كان ذاهباً يبحث عن مارو ليعيدها. ويقول رئيس جمعية القرية: «يجب أن نفكر في حارس حقل جديد، ومدير مدرسة آخر». بينما تقول آتكه: «فتاي، فتاي. التراب على رأ...».

* *

الجديد في هذه الرواية وصفها مشهد ما يشبه الاغتصاب في مطاردة طاهر لزوجته.

أما الأسلوب، فهو كما عهدناه سابقاً. وإن كان لنا أن نضيف شيئاً، فهو أن نلاحظ بأن الكاتب لجأ فيها إلى السخرية:

«**لم تبق «تاج بانو»** (أم ابن ميرجان، عندما راجعها طاهر شاكياً). **قالت ذلك، ثم سحبت رأسها وسالفها وأسنانها المتهرئة إلى الداخل، و...»** (ص٨٣١).

أو إلى ما يبعث الابتسامة إلى شفتي القارئ في الأقل:

**«مارو الآن في الخامسة عشرة. وضاءة لون البشرة، غليظة الشفتين**

**وما حولهما، ولها عينان براقتان عسليتان، وسالفان أسودان. من ذلك النوع من النسوة اللاتي يتمنى كل رجل، عند رؤيتهن، لو كنّ أرامل أو مطلقات»** (ص ص٨٥٣-٨٥٤).

**٧ ــ عقيل، عقيل:**

تهدمت (خاف)، من قرى (گناباد). هذا ما نعرفه بعد وصف يستغرق صفحتين لآثار الخراب. وإذا لم نكن فهمنا من السياق فسنعرف من النص بعدئذ أن ذلك كان بفعل زلزال.

يأخذ عقيل الحبل، الذي ربط بطرفه الدجاجات والديك، بيد، ويد ابنته التي تجر معزاهما باليد الأخرى.

كان الناس قد أخرجوا من تمكنوا إخراجه من تحت الأنقاض. موتى وعلى جرف الموت. دفنوا الموتى في قبر واحد كبير، وأنصاف الموتى طرحوهم في المسجد، تحت الشمس. ومات أنصاف الموتى بعد معاناة، ولم يبق منهم إلا «محمد جان». ولم يبق من أهل القرية كلها غير ستة رجال وأربع نساء، ولد واحد وثلاث بنات، بدون احتساب محمد جان. ونقص بالأمس أحد الرجال، إذ انطلق يبحث لنفسه عن مكان.

وإذ يرحل عقيل وابنته فسينقص العدد المزيد.

ولكن ابنته تعجز عن مواصلة الحركة، فتجلس. جبينها ملتهب، وقد صارت بنصف حجمها، «لم يبق في جسدها لحم ولا في وجهها لون ولا في عينيها دمع ولا على شفتيها آهة».

يجد عقيل ماءً ولكنه لا يجد ما يبلله به كي يمسح وجه «شهربانو» ويبلل شفتيها. يقطع جزءاً من غطاء رأسه بأسنانه، يبلل الخرقة ويمسح خدي ابنته

ووجنتيها ووجهها، منتظراً أن تند عنها حركة. ولكن: لا حركة. ثم يحس نأمة. فيأتي بمزيد من الماء ويعاود المحاولة. وعندما يجدها اكتسبت رمقاً، ينذر لشجرة المراد أن يذبح معزاة إن بقيت له ابنته. تصحو ابنته وتسأله:

[ــ «أين نذهب يا أبت؟» ــ «إلى عند أخيك يا ابنتي الصغيرة. إلى «تيمور». نذهب إلى (بيرجند)»]. ولكن لا يمكن أن تكون شهربانو سمعت كلام أبيها الأخير، فقد أطبقت جفنيها وماتت.

ونعرف أن عقيلاً هو الذي سبق أن دفن زوجته بيده: أخرجها من تحت التراب ودفنها تحت التراب! كانت تخبز عندما انهار سقف الإيوان فوقها، فرمى نصف جذعها الأعلى إلى داخل التنور حتى ماتت اختناقاً، فاحتراقاً. وقد كان هو في الحقل، وعندما عاد إلى بيته ظهراً وجد خاف خربة وبضعة أنفار يجلسون على الأنقاض الطينية يتلوون ويتأوهون ويبكون ويحثون التراب على رؤوسهم.

وإما يواصل عقيل سيره يلتقي «يامين»، الذي ذهب إلى المدينة ليبلّغ عن الواقعة، ويجلب للناس خبزاً، وهو الآن عائد، ويعرف منه عقيل أن كل القرى والمدن في طريقه أصابها الخراب، كما يعرف يامين أن المساعدات جاءت إلى هناك من كل مكان: الجيش، الناس، من المدن الكبرى وحتى من العاصمة. وقد أتى ناس كثيرون للمساعدة، أكثرهم شباب من الجامعة (وهي شيء لم يسمع به قبلاً)، ولكن ثمة هرج ومرج إذ «يريد الجميع أن يفعلوا شيئاً ولكن لا أحد يدري ماذا يجب أن يفعل».

عندما يعرف يامين أن عقيلاً ذاهب إلى بيرجند، يسأله متى سيعود فيجيب هذا بأنه لن يعود! في حين كان يامين يعلق عليه، وعلى ابنه تيمور، الأمل في أن يعيدوا معاً بناء خاف.

يصل عقيل المدينة فيجد الخراب الشامل، ويجد أفواجاً تعاون وتقدم الخدمات: طلبة جامعيين، عسكريين، وغيرهم، وقد عاد أبناء السوق بعد أداء دورهم.

يسأل عن ابنه العسكري، ولكن لما لم يكن يعرف عنوانه، لا ينال جواباً.

يسأله أكثر من واحد إن كان يبيع معزاه، فيرفض: «لا أستطيع أن أبعدها عني. إنها في مقام أحد أولادي».

ويمر على كوخ درويش فيستضيفه هذا، ولما يستيقظ في الصباح يجد معزاه قد سرقت.

يدلونه على طريق السفر إلى بيرجند: بواسطة شاحنات النفط. وفي الشاحنة يفكر: كيف سيواجه تيموراً وكيف يخبره بالتفاصيل.

يصل المعسكر، يسأل عن ابنه ولكن الوقت متأخر. يجد حارساً خافراً، يسأله، فيصرفه على أن يعود يوم الجمعة. يتسكع، يجد إحدى الدجاجات ميتة. يحفر لها قبراً فيأتيه حارس ويطرده: ممنوع هنا! يغفو قليلاً ويصحو وقد أضاءت السماء! الصبح؟ الفجر الكاذب؟ يسير بمحاذاة أسلاك المعسكر. يصرخ به صوت: من أنت؟ كأنه يعرف الصوت: ـ قف! إنه تيمور حقاً. ولا يطيق صبراً. أخذ يجري نحوه والدجاجات تتقافز مشدودة فوق كتفه. يصرخ به الحارس: قف، كائناً من كنت، فأنا في مركز حراستي. ولكن عقيلاً لا يصدق أن يكلمه تيمور هكذا. ويقول له: تيمور، إنني أنا، تحرك أنت خطوة على الأقل. ولكن تيمور يخبره أنه لا يستطيع ويطلب منه التوقف. لكنه يتقدم، فهو لا يطيق صبراً، في حين يركع تيمور على إحدى ركبتيه ويهدّف.

ولكننا نكتشف أن ذلك كان حلماً، وبقي عقيل يصارع الحلم والأفكار ويهذر.

* *

هنا يرينا دولت آبادي، في أسلوبه، مزيداً من الشعر:

**«يا للأزهار المنيرة! كم هي نظيفة جميلة! كما لو كانت لا تحمل هماً»** (ص٩٤١).

## الكتاب الثالث: مكان سلوج الخالي(*)

يضم هذا الكتاب رواية واحدة فقط، تقع في نحو أربعمائة وثمانين صفحة.

### ٨ ـ مكان سلوج الخالي:

القسم الأول ـ الفصل الأول

تصحو «مرگان» ذات يوم فتجد زوجها «سلوچ» غير موجود. كان منذ أيام منطوياً على نفسه، يعود إلى البيت متأخراً ويغادره مبكراً، وينام قرب التنور. لم يعد مساء الأمس واليوم. اختفى فجأة. لا تدري ـ كالعادة ـ أين يذهب. تحس أنه هجرها، لأنه «عندما يذهب كل يوم يبقى منه شيء، أما اليوم فلم تبق منه علامة، لا شيء!».

تذهب لتستشير العمدة في الأمر. أبو العمدة، العائد من الحمام، يعنفها: وماذا إن ذهب؟ سيعود. وتتساءل زوجة العمدة: ألا تدرين أنه إن لم يجد مكاناً أفضل فسيعود؟! وبعد أن تساعد زوجة العمدة في أعمال البيت الصباحية تغادر بيته دون أن تكون استشارته هو!

في بيتها، يخرج ابنها الأكبر «عباس» إلى العمل مطالباً إياها بالطعام، وهو الخبز الخالي، بعد أن يكون أكل كل خبز البيت ولم يُبق شيئاً لأخيه وأخته!

تفكر في رحيل زوجها حتى لتتصوره قد عاد، ثم تنكر على نفسها التفكير فيه، ولكنها تفكر، حتى تكتشف أنها تحبه! الحب المنسي عاد! الرجل الذي نام قرب التنور طويلاً فلم تحس به، إذا بها تحبه وكانت تحبه أيضاً!

---

(*) صدر هذا الكتاب بترجمتي عن دار المدى/ دمشق، سنة ٢٠٠٢.

تصيبها لطمة ثلج فيسعفها «سالار عبد الله»، ويحدثها أثناء ذلك أن زوجها واعده على تسليمه أربع قطع ظروف نحاسية مقابل الحنطة التي اقترضها منه، فتقول له: جده وخذها منه! فتنشب بينهما معركة، يشترك فيها أطفالها، حتى تهدده بالمسحاة ويجد في عينيها أنها ستقتله، ولا يخلصه من يديها إلا ابن عمه العمدة.

الفصل الثاني

يعمل عباس وأخوه «أبراو» في الأرض: يقتلعان العاقول، يتشاجران دائماً لأن عباساً يحب إصدار الأوامر من جهة ويكثر الانتقاد من جهة أخرى ولا يضيع فرصة ــ وهذا هو الأهم ــ لسرقة ناتج عمل أخيه من الجهة الثالثة، إذ أن عمل كل منهما مستقل عن عمل الآخر.

يفاجئهما سالار عبد الله: صحيح أن الأرض في حوزته فهو مستأجرها، ولكن قلع العاقول من الأرض ينفعها، فماذا يريد؟ يطردهما، ويطالبهما بآلة القلع التي أقرضها أبراو ذلك الصباح. يأخذها عباس من أبراو ويبتعد تاركاً سالار يدمدم. يشتد النزاع فيطارد سالار عباساً، الذي يهرب منه ويتبادلان الشتائم على بعد. ولكي يفرغ سالار غيظه يعود إلى أبراو، الذي لا يلحق أن يهرب، فيوجعه ضرباً ويحمله كيلاً من الشتائم لأمه وأخيه.

يلتقي الأخوان في الطريق مرة أخرى، وفي حين يريد أبراو المضي في طريقه يستبقيه عباس بأسئلته، ثم يتحايل عليه لجمع حملهما في حمل واحد يأخذه هو ليبيعه ويشتري بثمنه خبزاً. وبعد عناد وإصرار يهاجم أخاه ــ لجوعه الشديد ــ ويوجعه ضرباً ويطرحه أرضاً، ولما يعجز عن فك الحزمة عن ظهر أخيه يضربه ويغرز ركبته في ظهره ويعض أذنه فيعلك شحمتها! يضم الحزمة إلى حزمته وينصرف.

يلحقه أبراو طالباً منه آلة القلع ليستعملها في العمل مجدداً.

يعود أبراو إلى البيت في ضوء القمر متعباً غائباً حتى لا يستطيع أن يفك حمل العاقول عن ظهره. يتقيأ ماءً أصفر. ينطرح أرضاً. يتقيأ دماً. يرتجف برداً. بمعاناة بالغة يفك الحمل عن ظهره ويزحف إلى داخل البيت فيجمع كل لحاف يجده ويتغطى بها جميعاً، ولكن مع ذلك يرتجف. يعود أخوه حاملاً خبزاً، آكلاً خبزاً. يناكفه. ثم لما يكتشف أنه مريض يبذل جهده لإشباعه وتدفئته. تزايله وحشيته ولاأباليته. يدخل بين طيات اللحاف ويعانق أخاه ليدفئه.

تتحسن حال أبراو قليلاً فيكثر من الأكل ويطلب من أخيه تقليل أغطيته. ينتبه عباس إلى أن الخبز يتناقص حتى ليتهدده خطر الانقراض، فيسحب آخر لقمة دفعها أبراو بين أسنانه. يطلب منه أبراو أن يأتيه بحمله. يذهب إلى الحمل فيتعجب من حجمه، يحاول حمله فيعجز لثقله. يحاول عدة مرات، ويستعمل كل فن يعرفه حتى يحمله. يخرج به، يلاقي أمه وأخته العائدتين.

تنتبه الأم إلى ابنها المريض. تهيئ له بعض أوراق الأشجار كي تغليها. تبرّد ما غلت وتبدأ بسقيه. تكتشف أذنه المصلومة، فتثير ضجة.

يأتي سالار، وبمعيته العمدة، مرة أخرى، للمطالبة بقطع النحاس. بعد جدال تقول لهما مرگان: خذاها أنتما! يخرج سالار قطع النحاس وإذا بها ناقصة. عند المطالبة تنكر معرفتها بمصير القطع الأخرى. وعندما يطالبها سالار بأن تقسم بأنها لم «تسرق» منه، تحمل ابنتها «هاجر» بأن تدفنها إن كانت تعلم شيئاً عن القطع الأخرى. وتطلب من العمدة أن يتدخل فيقول شيئاً. يفهم العمدة أن هذه الحركة تعني أن مرگان مستعدة أن ترمي ابنتها على رأس سالار، وهو لا يريد أن يقع شيء كهذا في محضره، فيطلب من سالار أن يأخذ الموجود على أن تُتم تصفية الحساب فيما بعد. وفيما تؤكد أنه لا باقي بعده، يأخذ سالار الموجود ويخرجان.

كان عباس قد سمع الكلام. فلما ذهبا يستنطق أمه عن مصير القطع الأخرى فتهمله، وتخرج لتأتي ببعض الحطب. يستفرد عباس بأخته ويحاول أن يعرف منها أين ذهبت أمه بقطع النحاس، ولما يشتد عليها ضرباً يقوم أبراو من الفراش فيتشبث بعنقه وتهرب هاجر، ولكن غير بعيد. يخاف عباس من غياب أخته فيتحايل عليها ويتهددها أن تعود، ولكن بدون جدوى.

تعود الأم، ومعها هاجر، مهددة فيختفي عباس من أمامها. وبعد أن تعد الفراش ووسائل التدفئة تأتي بقبضة قمح تعطي نصفها لابنتها، واعدة إياها بأن تهيئ طحيناً في الغد. وعندما تجلس ينشغل ذهنها بعباس، الوحيد في العراء داخل البرد! فليأت وليعمل ما يشاء! ليحرق البيت! ليضرب أمه!

الفصل الرابع

تحت قسوة البرد فوق السطح يقرر عباس أن يتسلل إلى جحر أحد الأهالي، واستعرض في ذهنه الأماكن المحتملة. عند الانتقال الحذر فوق الأسطح يمر ببيت العمدة، فيجده متأهباً للخروج. يصل البيت الذي كان يقصده فإذا بصاحبه، الحاج سالم، يقوده ابنه إلى الخارج فييأس عباس من بيتهما أيضاً، ويتبعهما. يذهبان إلى حيث ذهب العمدة وآخرون. يبقى الحاج سالم هناك بعد انصراف الرجال، ليتفضل عليهما أهل الدار بالعشاء.

بينما يعود سالار وابن عمه إلى بيت الأخير، تأتي أخت هذا لتخبره بأن ولادة بقرتهم تعسرت، فيركضان، ويلحق بهما عباس. يسحبون العجل الميت من بطن أمه، ويقرر ابن عم سالار أن يبقى مع بقرته تلك الليلة فتذهب آمال عباس ــ في أن يبقى مع البقرة تحت سقف ــ سدى.

القسم الثاني ـ الفصل الأول

يتشاغل عباس بجمع الحطب وبيعه، وفي الشتاء عند سقوط الجليد يقوم وأخوه بكنس الجليد عن أسطح بعض الناس ـ من كبار السن الذين ليس لديهم في بيوتهم من يجرفه لهم. كما يدير عباس لعبة قمار للصبيان ـ حتى يأتي العمدة، وهو أبو أحد هؤلاء الصبية، فيضرب عباساً الذي يبتلع نقوده ونقود آخرين يسرقها.

ينهار بيت العجوز أم «علي گناو» فتقع طريحة بين الحياة والموت. وينهال علي على زوجته بالضرب ـ لأنها ألحت عليه أن يطرد أمه من البيت فحدث لها ما حدث ـ ويصيبها بعدة كسور. ويبعث أبراو ـ لقاء أجر ـ ليجلب مجبّراً لأمه من قرية مجاورة تحت وابل الجليد. وفيما يعود أبراو ـ من دون المجبّر ـ تعود مرگان من بيت الأم لتنعيها لابنها.

الفصل الثاني

يفكر أبراو في رحيل أبيه، ويسأل علي گناو عنه، فيحدثه هذا عن المهاجرين قبله. ويعاود التأمل بأبيه وسفره ووسيلة السفر ومخاطره واحتمالات مصير أبيه.

*في الصباح، يذهب علي، وتصحبه مرگان*، لدفن أمه. يحدثها عن خططه لترك امرأته، لحاجته إلى غيرها تنجب له ويمكنها العمل في الحمام ـ الذي يديره ـ في نوبة النساء. تتعجب مرگان: لماذا يكلمها هي بهذا الشأن؟ ولماذا هنا؟ حتى لتخاف! وإذ تمد له المسحاة ـ حسب طلبه كي تسحبه ـ يمسك بيدها ويجرها إليه، إلى القبر، حيث يطلب منها يد ابنتها! إن لديه مشروعاً كاملاً للزواج ولتقرير مصير امرأته الحالية!

ويجلب بعض الأهالي الأم المتوفاة ويدفنونها، بعد أن تغسلها مرگان.

ويتصدق علي گناو على بعض معدمي القرية نقداً أو طعاماً أو غسلاً في حمامه.

أما مرگان فيأخذها إلى بيته كي تفطر، ثم يحمّلها خبزاً لأولادها.

ويهيئ وسيلة لنقل امرأته إلى المدينة كي ينيمها في المستشفى.

وفيما تعود مرگان إلى البيت تجد عباساً يغسل قطع المسكوكات التي لفظها من بطنه، فيقول لها: «أتصور أن اثنتين من فئة الخمسة قرانات لاتزال بين أمعائي»!

**القسم الثالث ـ الفصل الأول**

يقوم بنو مرگان بجمع العلف. يقرر الولدان الذهاب إلى «أرض الله» فيقنعان أختهما بالعودة حاملة العلف. ثم يذهبان، ويتذكران غياب أبيهما، ويتذكر أبراو أيامه.

عند العودة، يجدان خالهما وعلي گناو في البيت، بينما هاجر مختفية. يفهم عباس. وعندما يقوم علي گناو للانصراف يفهم عباس أنه قد تم الاتفاق على كل شيء، حتى التفاصيل.

الفصل الثاني

*اعتراض هاجر، غير المجدي، على الزواج وتوسلاتها.*

عمل مرگان في تبييض جدران وأسقف بيوت موسري القرية.

يأتيها «كربلائي دوشنبه»، المرابي، خال سالار، ليعرض عليها خدماته مع تسهيلات خاصة. ويبطّن كلامه بطعون ضد زوجها، خلاصتها أنها صارت في حكم المطلقة، إذ لا خبر عندها عن زوجها بعد غيبته الطويلة.

يقوم بعض صغار الملاكين بإغراء العاملين على «أرض الله»، وغير العاملين أيضاً ـ لمجرد جمع تواقيع أكثر ـ على التنازل عن حقوقهم فيها. وترفض مرگان التوقيع.

الفصل الثالث

فيما يشتغل أبراو على الجرار الجديد، ويهاجر شباب القرية للعمل الموسمي، يبقى عباس ـ الذي أضاع المال الذي تقاضاه عن «حصته» في «أرض الله»، على القمار ـ ليعمل راعي إبل عند «سردار».

يهيج بعير، وبعد عراك معه وضربه شديداً بالعصا يطارد عباساً، الذي يضطر إلى الاختفاء منه في بئر. تتحرك الأفاعي السابتة في البئر، وتلتف عليه وتتسلق فوق جسده لتخرج. ينقذونه في اليوم التالي، وإذا به قد شاب!

الفصل الرابع

لم يشب عباس فقط، وإنما هو لا ينام أيضاً! ولا يتكلم!

كربلائي دوشنبه ـ الذي يضطهد بيت مرگان بحضوره ـ لا يحضر لمجرد المطالبة بدينه من «مولا أمان» ـ أخي مرگان ـ وإنما ليخطب مرگان لنفسه! بعد أن كان طلق زوجته الثانية، لاتهام الناس لها بالحبل قبل مجيئها إلى بيته. وبعد أن طردتها زوجته الأولى بعد أن صار لها ولد كبير تعتمد عليه! لأنها نزلت ضرة عليها. تثور مرگان لما تعرف بهذه النية ـ أمام أخيها ـ وترفض بشكل قاطع التفكير بالزواج أصلاً، سواء أكان سلوچ قد مات حقاً أو لايزال حياً.

يذهب عباس فجأة، بعناء كبير، إلى صاحب الإبل ليطالب بأجره، وعند العودة خائباً ـ يسقط على الدرب مغشياً عليه. تسعفه أمه.

يأتي أحد الذين تملكوا «أرض الله» إلى مرگان ويطلب منها حسم أمرها،

علماً بأنه اشترى موافقة ابنتها أيضاً، ولكنها ترفض التنازل عن حقها، وتطرده. ثم تقوم فجأة، حاملة مسحاة صغيرة وتذهب إلى الأرض فتفرز سهمها منها وتؤشره بعلائم.

ثم تذهب هي إلى صاحب الإبل مطالبة إياه بأجرة عمل عباس، إلا أن هذا يطالبها بقيمة هجانه الذي تلف! (فقد لدغته الأفاعي). تلجأ إلى التوسل وعذوبة اللسان. يطلب منها أن تناوله ماءً ليفكر بالأمر فيما بعد. تذهب لجلب الماء فيلحق بها، ويحاصرها ثم يغتصبها! فتترك بيته وتهرب إلى ظلام الصحراء.

الفصل الخامس

يلتقي كربلائي وسردار في بيت مرگان. يتلامزان ويتغامزان حتى يتراهنان على «التلاوي» بالأيدي، والشرط: ألا يعود الخاسر إلى هذا البيت!

يفوز كربلائي! وإذ ليس للرجل إلا كلمته، يغادر سردار المنزل!

يعود أبراو ـ وكان ذهب لذبح ضحية لماكنة الماء الجديدة ـ فيجد كربلائي وحده. يتحداه ويطرده، ثم يحقق مع أمه عن سبب وجود هؤلاء الأكباش في بيتهم؟! أيريدون أن يحتلوا مكان سلوچ؟!

**القسم الرابع ـ الفصل الأول**

يعود الفتيان من عمل الصيف في المدينة، إلى القرية.

يكمل المالكون الجدد عملية تسجيل «أرض الله» باسمهم، ويأتون بممثل عن دائرة التسجيل العقاري ورجل أمن للإشراف على تخلية الأرض وتسلمهم إياها.

تعتصم مرگان ـ مع عباس ـ في حفرتين بالأرض. وبعد أن يفشل المالكون في طردهما يوشك أبراو أن يدفنهما بوساطة الجرار لولا أن يمنعه أحد

المالكين. ثم يربط أبراو أمه بالجرار فيما هو يستعمله لتمهيد الأرض وتسويتها وتوحيدها مع كل أرض القرية!

الفصل الثاني

يأتي أبراو ليلاً فيلاقي عباساً. يعطيه علبة سجاير، لأنه عرف أن أخاه صار يدخن. يتحدث معتذراً عما فعل ذلك اليوم، ويقول إنه أرسل لأمه نقوداً ردتها عليه. ويكرر ندمه على فعلته.

إنه ينام، منذ ذلك الوقت، قرب الجرار، ولكن البرد يزداد. كما أن الجرار أوقف عن العمل فمحركه عاطل، وقد أخذه السائق للتعمير وربما سيأخذه لنفسه ــ عن باقي أجرته ــ ولن يعود. لقد تم زرع الفستق وعليهم الآن الانتظار سبع سنوات لقطافه، وليس للجرار من عمل، إلا إذا أجّروه لأعمال أخرى.

ويأتي «مراد»، ابن الخالة «صنم» يجالسهما. يدور الحديث ويتشعب. يعرض مراد أن المالكين الجدد كانوا بصدد الحصول على أرض مزعومة، أية أرض، لمجرد إراعتها لإدارة الزراعة لضمان الحصول على قرض! وهم قد تملصوا الآن من سداد القرض، بل إن «ميرزا حسن»، متولي أمور مضخة الماء، ترك الديون عليهم واختفى!

وفي آخر هذا الفصل يعود أبراو إلى البيت، ويعمل مراد على مصالحته مع أمه.

ويعود أخو مرگان فيصادر كربلائي حماره وحمالة أكل الحمار لقاء دينه، ويدعي الأخ أنه رأى سلوج يعمل في منجم.

الفصل الثالث

تسمع مرگان خبراً عن رجلها: يأتيها الخبر «معه بقوة. بحركة في العروق. الدم يقرع جدران العروق. لا يستطيع القلب ألا ينقبض. يتلخبط نظام

التنفس القديم. يرتفع الاضطراب من الفؤاد موجة موجة. تستيقظ الذاكرة ذرة ذرة. روح جديدة. الربيع».

وتتمنى لو تفعل خيراً لكل الناس.

يُسقط أحدهم بعيراً في بئر المضخة.

ونفهم أن عباساً فقد رجولته أيضاً.

الفصل الرابع

يعمل الناس على إخراج البعير من البئر، فيفشلون، فيعملون على ذبحه وتقطيعه لإخراجه، فالبئر عميقة جداً.

تعزم مرگان على الرحيل، فتقابل ابنها عباساً ــ المقيم الآن مع زوجة علي گناو شبه الكسيحة ــ وتسوي أمورها معه.

تخرج من البيت ليلاً وتستعين بابن صنم لتحفر عن دفينتها: قطع النحاس.

وإذ تغادر القرية مع ابنها أبراو، فجراً، تجد مراداً ينتظرها حسب الموعد عند الساقية، التي يجري فيها دم بدلاً من الماء: لا شك أن البعير قد ذبح.

ومن البعيد، يتراءى قادم: سلوچ، لابد أنه هو الذي فتح المجرى!

* *

إذا كان بمقدور التلخيص ــ الذي يُنشأ لغرض العرض والتعريف ــ أن يقدم فكرة عامة عن الرواية وأحداثها، فهو مضطر ــ من ناحية ــ إلى تجاوز الكثير من التفاصيل في الأحداث، ومن ناحية أخرى فهو يعجز عن تقديم صورة أمينة لأسلوب الكاتب في تصويره لهذه الأحداث وتصعيدها والبلوغ بها إلى غايتها.

فمرگان يعذبها ابنها عباس بطمعه وقسوته وإيذائه لأخويه، ولكنها:

**«يمكنها أن تتحمل عواءه. عويله. شتائمه وضربه الباب بكل بدنه. ولكن عباساً لم يكن يفعل هذا. ماذا كان يفعل إذن؟ أين ذهب؟ لماذا لا خبر عنه؟»** (ص١٠٦٢). وتستمر تأملاتها وعذابها الروحي من أجله وصراعها مع هذا العذاب طوال ثلاث صفحات.

وإذ تتذكر مرگان بلوغها، وأحاسيسها آنذاك وعشقها لسلوچ وعشق سلوچ إياها على مدى خمس صفحات، فليس بالإمكان اختصار سرد الكاتب بهذا الشأن قط.

وإذ تختلي مرگان بابنتها تحت الكرسي[٣] فهي لا تهدهدها كي تنام فقط، وإنما تحدثها عن حياة البنت ومستقبلها، وتحشو حديثها بأكاذيب لا تنتهي (ص ص١١١٢-١١١٣) لتحمل فتاتها على قبول الزواج.

ويتأمل أبراو، خفية ــ على مدى صفحة كاملة (١٢٥٠) ــ حديث أمه التي تسترضي أخته للزواج. أو الإشارات اللمّاحة التي ــ وإن بدت صغيرة عابرة ــ لا يمكن أن يستقيم عمل أدبي بدونها. ففي وصف توديع الفتية الذاهبين للعمل الموسمي:

**«ولكن الجمع ينبغي أن ينطلق. أخذوا الصرر والحقائب على الأكتاف. مرة أخرى صارت أيدي الأمهات على أعناق الأولاد، ووقفت الأخوات جانباً. رعشات الشفاه»** (ص١٢٦٣). أو في صراع هاجر بين الخوف من الزواج والفرح الطفولي بما جاء لها به الزواج: «زوج حذاء أحمر، غطاءا رأس من الحرير، قميصا من الشيت وشادر صلاة»، الذي يستغرق نحو صفحتين. أو إعجاب مرگان بقوة ابنها أبراو وهو يخرجها من الحفرة بالقوة رغم كراهيتها لسلوكه (ص١٣٩٩)، بل إن وصف الموقف كله بينهما (ص ص١٣٩٠-١٤٠٣) هو من هذا الباب.

لقد استغرق الكاتب أكثر من خمس عشرة صفحة (١٢٧١-١٢٨٦) في وصف جنون البعير ومعركته مع عباس ومحاصرته إياه وإجباره إياه على

اللجوء إلى البئر ثم مرور الأفاعي من حوله وفوقه، إلى عثور الأهالي على عباس، فكيف يمكن تصوير هذا لمن يقرأ عرضاً مختصراً؟

في ليلة العرس، تفر هاجر من تحت زوجها فيطاردها حتى بيت أمها ويستعيدها (ص ص١٣٠٩-١٣١٦)، ولتصوير سرد الكاتب أكتفي بالإشارة إلى هذا الانتقال البديع:

**«كانت مرگان ماتزال تجلس في مكانها. عيناها جافتان وقد استطال وجهها نحولاً. كان رأسها يدوي وقلبها غير مطمئن. مشوش. كانت أعضاؤها وكل بدنها بلا قرار، ومن دون أن تنتبه فقد كانت عيناها على الباب. كانت شفتاها ترتعشان. ربما كانت تتلو دعاءً. ربما كان لها مع نفسها حديث. مهما كانت تفعل، فهي لم تكن تنتظر النوم. لم يكن بمقدورها أن تضع رأسها على الوسادة: ـ «متى يمكنك أن تنامي مطمئنة القلب، عندما تكونين قد بعثت بابنتك للتو إلى حجرة العرس؟»**. صراخ وصراخ وصراخ! رماح مكسورة في قلب الليل. صوت هاجر المرتبك في أزقة (زمينچ). ـ **«ماما واي... أمي الحبيبة واي... أمي الحبيبة هووووي.. أسعفيني يا ماما!»**.

واغتصب سردار مرگان، ولكن ذلك استغرق من الكاتب أربع صفحات ليقوله. فبعد أن تجلب له كاسة ماء، حسب طلبه: **«رفع رأسه، وقبل أن يتسلم الكاسة سمّر عينيه عليها. كان شيء غريب يخفق في بؤبؤي عيني سردار. شيء مهيب. وحشي وبدائي»**. ثم: **«يسيل الماء من الكاسة. ترتجف مرگان. كانت منغلقة وترتجف. لم تكن تدري كيف تخلص نفسها. يا إلهي! سقطت الكاسة من يدها فتمكنت مرگان بلحظة واحدة أن تقلع قدمها عن أرضية منام الإبل. ركضت. دخل بعير من باب منام الإبل إلى الداخل. بعير! وإلى أن تمكنت مرگان أن تنتبه إلى نفسها كانت ساقها بين يد سردار الخشنة الضخمة، التي**

**كانت تجرها إلى الظلمة، إلى الطرف القصي لمنام الإبل: ــ «أين تفرين، يا دجاجة؟!». ــ «لا! لا هذا!... لا هذا.. لا!... الصراع إلى تسليم. خلاص!».**

ولكن هل انتهى الأمر حقاً؟ كلا، فهي تفكر في الأمر على مدى أربع صفحات أخرى:

**«كانت مرگان تبدو غير مبالية. دعي الدنيا يجرفها الماء. عندما تكونين أسيرة العاصفة فما معنى التفكير في ما إذا كنت زرّرت ياقتك أم لم تزرريها؟»**(ص١١٣٤)، و:

**«كلا! لم تكن مرگان تجد في نفسها الشجاعة اللازمة. كيف يمكنها أن تغرز خنجر الخصومة في صدرها؟ النتيجة، ما هي؟ لكي يزول وهم الآخرين عنك؟ إن حصل ذلك، فهل ستستقر روحك؟ لا، يقيناً لا!»** (ص١٣٣٥).

* *

وإذ نطوي صفحة «مكان سلوچ الخالي»، فلابد أن نلاحظ:

١ ــ جاءت هذه الرواية في نحو أربعمائة وثمانين صفحة، مما أفسح المجال للكاتب لمزيد من التفسير والتعليل والتحليل ــ للأحداث والشخصيات ــ في حين كانت رواياته السابقة تتراوح ما بين أربع وخمسين صفحة (هجرة سليمان) ومائة وثلاثين صفحة (دعوى بابا سبحان). فلنسجل إذن، وأرجو أن يتذكر القارئ هذا، أن دولت آبادي تتجلى مهارته في الإطناب.

٢ــ دخل هنا أسلوب جديد، غير السرد المباشر أو المونولوج أو الحوار الاعتيادي. إنه تأملات أحد الشخوص التي يلقيها بشكل خطاب موجه إلى شخصية أخرى في الرواية ــ دون أن يسمعها المخاطب. هنا تخاطب مرگان سلوچ (ص ص١٤٠٩-١٤١٠)، وسيستعمل الكاتب هذا الأسلوب كثيراً في كليدر.

بقي أن أضيف أن كثيراً من النقاد والكتاب الإيرانيين اعتبروا هذه الرواية رواية لبطلها سلوچ، الذي «يحسه القارئ، يحس وجوده وأنفاسه، في كل موقع من مواقع أحداث الرواية، رغم غيابه»، في حين وجدتها أنا رواية المرأة، المرأة الريفية المقهورة: هاجر، والمرأة الريفية المكافحة، التي تفعل كل شيء من أجل إدامة الحياة، وتتحمل في سبيل ذلك بصبر وصمت كل شيء، بما فيه الاغتصاب!

وإذ نطوي صفحة كتابات دولت آبادي ما قبل كليدر، فلابد أن نلاحظ:

١ ـ إنها تتسم بفجائع خاصة، إضافة إلى الفجيعة الأصلية للحياة اليومية الاعتيادية لشخوصها. ولكن هذه الفجائع لا تضفي طابعاً تشاؤمياً، رغم مأساوية نهايات تلك الروايات.

٢ ـ أسلوب الكاتب سلس، تصويري، وفي أحيان كثيرة شعري.

٣ ـ أبطاله، ومجمل شخوصه، يعيشون على الحافة: حافة الريف ـ بمعنى أنهم ليسوا فلاحين حقيقيين أو ملاكين كباراً. إنهم مزارعون، يعمل الواحد منهم في شغل آخر أو أكثر، لتكملة دخله. أو حافة المدينة، بمعنى أنهم مهاجرون إلى المدينة لم يتأقلموا معها بعد، أو لم يستقروا فيها. وهو نفسه يدرك ذلك. ويقول عنه، ولو أنه يقصد بقوله معنى آخر، معناه المادي عن حياته الشخصية: [يقول صديق مازحاً: «إنك معلق دائماً على حواشي المدينة»..

نعم، المقهى مكان جيد، ولكن قبل غداء السوق...

عيناك تبحثان دائماً عن مكان خال... وقلبك وراء أمنية غرفة خالية. غرفة صغيرة مع منضدة صغيرة وسرير نوم صغير ـ وهذه الأماني الصغيرة لا تخمد فيك قط ـ والحر والبرد ليسا بمشكلة...].

**ثانياً ــ كليدر وما بعدها:**

تلت تلك المرحلة رواية كليدر الضخمة، ورواية باسم «عصر مقضي لأناس مسنين» صدر منها جزءان، ويبدو أنها لم تنته بعد، لذا سأصرف النظر عنها في هذه القراءة، وسأقصر بقية البحث على «كليدر».

**٩ ــ كليدر:**

«كليدر» اسم سهل في محافظة خراسان ــ شمال شرقي إيران ــ هجّر إليه نادر شاه (مؤسس السلسلة الأفشارية في أوائل القرن الثامن عشر) بعض العشائر الكردية التي تمردت، ثم انضمت إليها مجاميع أخرى من الكرد، أفراد وعشائر لأسباب مختلفة. وكليدر دولت آبادي قصة شاب من إحدى هذه العشائر تحتشد عليه ظروف غير مؤاتية، بفعل القحط والعجز عن دفع الضريبة والتورط في قتل مأموري الحكومة وإهانة قائد فصيلة درك لأمه وأبيه، إلى التمرد. وهو لا يقدّر ــ نتيجة لسذاجته الرعوية ــ تعقيدات الوضع الذي صار فيه، ولا حتى أنه يتمرد، وأن تمرده هذا يضعه وجهاً لوجه أمام «الحكومة». وعندما يدرك هذه الحقيقة يكون الطوق قد أُحكم ضده بحيث لم يبق أمامه إلا الفرار، الذي لا يحبه لأنه لا يدري متى سينتهي، أو التسليم بالحصول على تأمين الحكومة الموعود، وهو لا يحبه لأنه يعرف أنه سيحيله إلى شرطي من شرطة الحكومة، أو القتال، وهو يعرف نتيجته الحتمية، ويؤكدها عندما يصرف أفراده المقاتلين ليلة الحصار، ويذهب إليه طائعاً.

وقد روى دولت آبادي هذه القصة على مدى نحو ألفين وثمانمائة صفحة! لا ليجعلنا نصدقها فقط، ولا لمجرد تعبئة التفاصيل في هذا الهيكل العام الذي شرحناه أعلاه فقط، وإنما، أيضاً، بل أساساً، ليقدم لوحة نابضة بالحياة لهذا

المتمرد وكل من عاش أو تعاطى معه أو تآمر عليه أو خدمه. بل إنه عرض حياة عارمة في هذا السهل بكل ما فيها من حب وبغض، غيرة ورضا، بساطة صريحة وغش متآمر، خشونة حد الفظاظة ووداعة طفولية.

* *

تقود «مارال» حصانها في شوارع إحدى مدن خراسان (مدينة سبزوار؟) حتى تتجه إلى مقر الشرطة، وتسأل الحارس عن كيفية رؤيتها خطيبها وأبيها المحبوسين منذ سنة.

أبوها «عبدوس» كردي، ولكن أمها بلوجية نشأت في عشيرته فتحابا وتزوجا مما تسبب في طرد العشيرة، ونبذ أهله الأقربين، له. لجأ إلى عشيرة أخرى. جدّ وسعى، باع واشترى، وسرق، حتى زاد غنمه من رأس واحد إلى خمسين، ووسع خيمته لتكفي ابنته وزوجته في عيشة رضية. عندما شبت ابنته لفتت أنظار الرجال حتى خطبها ابن أخي «خان» العشيرة فرفض عبدوس محتجاً بأن ذلك من «الأكابر ونحن من الصغار»، وعقد لها على «دلاور»، الراعي.

يبيت له الخان وابن أخيه شراً: يرسله يوماً مع دلاور وراع آخر، ليسرحوا قطعان عشيرته في أرض خان آخر. وإذ يأتي هذا ومباشره، يضربون الغنم بسلاسل الحديد ويشتمون رعاتها وأصحابها. لا يتحمل عبدوس ورفيقاه ذلك فتنشب معركة يضرب فيها دلاور رأس المباشر، وهو إنما يريد يده، فيسقط هذا متلوياً ولا «يرفع رأسه عن التراب» بعد ذلك، ثم يسرقون بغلته.

يأخذهم الدرك إلى نقطة الأمن، ومنها إلى سجن المدينة.

وفي الأثناء ذاتها يحل الجفاف بالمنطقة، ويأتي معه وباء الأغنام، فترحل العشيرة: لم يبق شيء من ممتلكات عبدوس، بل وتموت زوجته قهراً أيضاً.

ولكن مارال لا تستطيع أن تقول ذلك لعبدوس، فتزعم له أن أمها مريضة، وأنها أرسلتها إلى عمتها بلقيس! (التي انقطعت علاقة عبدوس بها منذ خمس وعشرين سنة عندما انفصل عن عشيرته).

وتخبر مارال أباها وخطيبها أنها لن تعود إلى العشيرة: «لم يعد لي في العشيرة أحد أعود إليه». ويسألها دلاور: أمات الحصان أيضاً؟ فتطمنه.

تنظر إلى أبيها فتراه منكّس الرأس، وتعرف أنه قد عرف! تريد تلافي قولها، ولكنها تحس أنها ستضطر إلى مزيد من الأكاذيب التي لا تدري كيف ستوفق بينها: كيف تتستر على خدمتها أكثر من ستة أشهر في مضارب العشيرة، خوفها من ابن أخي الخان والتجائها إلى خيمة إحدى العجائز ليلاً للخلاص منه، وخضوعها لكل طلبات تلك العجوز، وطمعه في الحصان، وسعي الخان، ونجاحه، في إنقاذ الراعي الآخر وإبقائهما هما في السجن!

وإذ تقضي مارال ليلتها في رباط المدينة، تعرف من صاحبه أن ابن عمتها الأكبر، «خان محمد»، وعمه «خان عمو»، وابن أخت بلقيس «علي أكبر حاج پسند» كانوا في السجن أيضاً: يقال إن السبب سرقة قطيع غنم. على كل حال، وجد المسروق ماله واسترجعه، ولكن الإثنين الأولين أخذا إلى السجن، ثم ألقي القبض على الثالث في مقهى. وقد أطلق سراح العم وعلي أكبر مؤخراً، فيما يبدو أن خان محمد لايزال سجيناً.

وتعرف من ثرثرة صاحب الرباط أن أخا خان محمد الأصغر منه، «گل محمد» يبلغ ما بين ٢٦ ــ ٢٧ سنة، ولكنه رزين رصين ناضج. وأن أخاهما الأصغر، «بيگ محمد» يعزف الــ(چگور) ــ آلة ذات وترين ــ وأن له صوتاً يفعل به الأعاجيب، وعندهم أخت عاشقة! «شيرو».

في الصباح التالي تنطلق نحو منزل عشيرة عمتها. تستريح عند بركة في الطريق فيغريها الماء والشمس بالاستحمام فتخلع لباسها وتنزل إليها. مع أنها تأكدت قبلاً من عدم وجود أحد، إلا أنها تخجل من عيني الحصان فتغطي صدرها بيديها. تستمتع بالماء والدفء اللطيف حتى يتسلط عليها إغواء أن تلقي رأسها على صخرة فتستريح، وتغمض عينيها! «ويغمض الرجل أيضاً عينيه السوداوين، فلم يعد بمقدوره أن يتطلع. لقد تملكت الرعشة كل بدنه، وكان قلبه يغلي، كما لو أن قبضتين طريتين تهصرانه. ارتخت ركبتاه وجفت رطوبة شفتيه...». وينشب صراع داخل الرجل، الذي جاء لسرقة الحصان، فإذا أمامه الحصان وراكبه «مع أنك، يا رجل، لم تنفتح تكة سروالك حتى اليوم في فعل حرام، إلا أن هذه المرأة ليست حراماً على الإنسان، إنها أطهر حتى من حليب الأم!، تحرك!». ولكنه لا يتحرك.

يحس به الحصان، فيصهل. تنتبه مارال، فتخف إلى ملابسها. تتابع نظرات الحصان فتكتشف بين عيدان القصب عينين آدميتين: نقطتي سواد. تلبس ملابسها مسرعة. ويتحرك الرجل مسرعاً، فتتابعه نظراتها، لتجد جمله بعيداً وهو متجه نحوه. يركبه، وتستقر نظراته الخجلى عليها قليلاً، ثم ينطلق.

تتبعه مضطرة، فطريقهما واحدة. تصل مقهى طينياً تشرب فيه ماءً بارداً وشاياً. تجد جليساً تعرفه: «ماه درويش». وهو درويش سائل يمر على مضاربهم أحياناً حاملاً أدعية وأوراداً وحروزاً، ويعود منهم محملاً بمنتجات الألبان. يرافقها بعضاً من الطريق، ويستودعها سراً ويحمّلها رسالة، على ألا تبوح بها لغير صاحبتها: أن توصل منديله الحريري إلى شيرو ابنة «كلميشي»، وتبلغها أنه ينتظرها عند حلق الجدول عند طلوع القمر مساء الغد.

تصل قرية آل عمتها، وتستقبلها العمة، عندما تعرفها، بمحبة وحفاوة.

كانت العمة تخبز وحولها النسوة، فتترك الخبز وتوصل الفتاة إلى الخيمة. وتتولى امرأة أخرى الخبز فتتلف بعضه. تعود بلقيس لتجلب شيئاً ولكن وضع الخبز يستبقيها. تلحق بها مارال فتخبز التنور الأخير، في حين تعنف بلقيس تلك المرأة، كنّتها «زيور»، لجهلها وهي المرأة الكبيرة، بينما هذه الفتاة ــ التي بعمر ابنتها ــ تجيد الخبز. ونفهم من نقار بلقيس الدائم أن كنّتها أرملة رجل قتل في معركة، شارك فيها ابن بلقيس گل محمد، أيضاً، الذي تزوجها بعد مقتل زوجها!، «ليته عَمِيَ ولم يَرَك!».

تعود مارال إلى الخيمة، فتجد الكنّة، وتحاول التودد إليها. تسألها: أهناك ما يمكن أن أؤديه فتجيبها بأن البيت ليس من الكبر بحيث تقوم على خدمته ثلاث نساء أو أربع. [«ضيفة غير مدعوة!» كان هذا في جوابها أيضاً. أكثر من الجواب نفسه].

ونعرف أن عمر زيور ٣٥ سنة، أكبر من زوجها بسبع سنوات! وهي لا ترتاح إلا لأبي زوجها الذي هضم زواج ابنه بها ووجودها في بيته وهو ينظر إليها بعطف.

زرع الأب حنطة ديمية ولكنها لم تأت بحاصل يذكر. وگل محمد غائب الآن لأنه ذهب يشتري ــ إن استطاع ــ بعض المؤونة نسيئةً من «بابقلي بندار».

وإذ يعود گل محمد، وتراه مارال، لا تطيق الوقوف وحيدة.

يحدث گل محمد أمه عن معاناته في جلب القمح من بائعهم الاعتيادي، واستغلال هذا لجوعهم وحالة القحط الراهنة. فهو «يحسب بشكل يجعل المرء يضع أصبعه في فمه» و«يسحر الناس فعل السحرة» بحيث أبقى أمامه لا أحير كلاماً. ولكن «ما الحيلة؟ إن على أفراد العشائر أن يكون لهم واحد أو إثنين من هذه الطينة، يحتفظ بهم لنفسه، مهما كلف الأمر! فالقدر لا يخبر سلفاً!... وكذلك المرض...».

وفيما يتذكر گل محمد جسد مارال العاري عند الترعة، تفكر فيه مارال أيضاً.

يأتيه ابن خالته، علي أكبر إياه، ليخبره أنهم (علي، خان عمو وصهر العم) قرروا مساعدة خالهما «مديار» في «نهب» «صوقي»، التي عشقها الخال، وربما ستقع معركة بالرصاص، فإن أراد الاشتراك معهم ــ ولابد أن يشترك ــ فعليه امتطاء الحصان واللحاق بهم. يلتحق مكرهاً ــ ألم يكن بمقدور الخال أن يؤجل غرامه حتى نحصد بضعة عيدان الحنطة هذه؟ ــ وتسلّم الأم أمرها لله ــ فلابد من التحاقه، وإن تكن تنعي على أخيها مفاجآته!

يطلب حصان مارال، ورغم أن هذا «وحيد الراكب» (لا يسلس قياده لغير صاحبه)، إلا أن گل محمد يروضه.

تكشف شيرو لمارال أنها راقبتها وأخاها وهي تعلم أن أحدهما يعشق الآخر وأنها تدري أن زيور أيضا انتبهت إلى ذلك وهي إن كانت ساكتة فمرد سكوتها إلى عقمها.

مرة أخرى تحاول مارال التودد إلى زيور ولكن هذه تصدها مرة أخرى أيضاً، فتقرر مغادرة منزل عمتها، إلا أن هذه ترفض، وتعدها بأن يسوي گل محمد الأمر عند عودته، فهي تعرف منشأ الأمر!

إذ تُبلِّغ مارال رسالة ماه درويش، فإن شيرو تهرب وتلحق به.

وتفشل مهمة أصحاب مديار في خطف صوقي، إذ يقتل مديار نفسه. تهرب صوقي من بيت خالها، الذي كانت شبه محجورة فيه، لتهيم على وجهها.

تحس مارال نفسها متعلقة بگل محمد. وينشأ داخلها صراع بين عاطفتها القديمة نحو دلاور والجديدة نحو گل محمد.

ويخصص الكاتب الفصل الأول من القسم الثالث لوصف معيشة آل كلميشي: فقد حصدت بلقيس وزوجها، بمساعدة مارال، أرض الديم وكوّموا حاصلها وهرسوه وعفّروه وخزنوه ثم عادوا إلى المضارب.

بيگ محمد منشغل مع صهر عمه «صبراو» برعي القطيع.

و«ماهك»، ابنة العم، تحوك الـ«جاجيم» (بساط صغير قصير الزئبر).

وزيور تدور بين الخيام وتعنى بشؤون الطبخ والرتق والفتق.

وبلقيس تهيئ طعام العائلة.

وكلميشي يعالج الأمور هنا وهناك، وإن تطلب الأمر يذهب إلى المدينة.

أما العم، فهو «كالذئب، يقضي الوقت في خيمته، ويأكل خبز الساج، ويشرب الشاي وعاءً وعاءً».

ليس للعم عمل شخصي، فهو يعتمد على النعاج والماعز التي يمتلكها، فيجز شعرها وصوفها مرة في السنة، وإن وجد الأمر مربحاً يسمّن بعضها فيبيعها شتاءً لتجار الحيوانات، وإن تيسّر الأمر فهو يطرح بعيراً قرب «قلعة» ما فيذبحه ويقطع لحمه فيبيعه قطعاً صغيرة، وإن تهيأ حيوان غُفل يتلقفه ويبيعه بثمن بخس.

أما گل محمد فهو مشغول بحياكة عدة البعير للشتاء. وإذا نفد صبره يتلهى بغزل الخيوط لتهيئة شال له أو غطاء أو حبل للبعير. وقد يلحق بصبراو وأخيه عند القطيع ويحوك للقطيع وسائل الأكل أو يتباحث مع السادة وأشباه السادة بشأن الأرض والماء والعلف. «لم يكن فارغ القلب هادئاً، ولكن حراً واسع البال». وكان يحذر من أن يكتشف أحدٌ سرّه!

وليس لمارال عمل معين، فتجد نفسها أكثر غربة وأكثر وحدة وأكثر تعرضاً للمراقبة.

وتتظاهر زيور بأنها لا تكنّ حقداً ولا ضغينة لمارال.

في هذا السياق تتكشف لنا جوانب مهمة من شخصيات شخوص الرواية ونفسياتهم. فزيور مثلاً ترى إثنين من رجال الدرك بين الخيام، فتخبر بذلك ماهك ومارال ــ على مقعد حياكة الجاجيم ــ لأنها لا تستطيع أن تخبر به بلقيس. «لم تكن تمتلك الجرأة لذلك. كان يمكن أن تهاجمها بلقيس كالفهد وتعيد حشر الكلام في فمها. إن زيور لتعرف خلق أم زوجها. إن أم آل كلميشي لا تتحمل قط أي نوع من السلوك الخائف والجبان من عيون وألسنة أهل بيتها».

وبعد أن تبعد بلقيس رجلي الدرك عن خيمتها بأجوبة نافية منكِرة لا تخلو من خشونة، «جلست قريباً وأغمضت جفنيها وانكسرت في حلقها آهة تعبى... أفرغت بقية كاسة الماء على التراب أمام الباب، وتناولت عنق المشك لكي تصب لنفسها ماءً. شاءت أم أبت: جفّ ممر حلقها، وكانت الغصة والاضطراب يصطرعان داخلها... كان الماء شفاءً فكرعت الكاسة».

ويصاب القطيع بــ«الدود يأكل كبده» نتيجة الجفاف.

ومنذ البدء نجد گل محمد عاقلاً ذا شخصية متينة، فأبوه ينتظره كي يقرر بحضوره ما يفعلون بشأن وباء الخراف، وهو الذي عقد الصفقة لاستئجار أرض يرعى فيها قطيعهم كما أنه هو الذي يدير الجلسة التي يتقرر فيها عمل الغد.

يجلب گل محمد بيطاراً فيعلن هذا أن مرضاً حل بالقطيع، ولابد من العلاج. والعلاج لا يتوفر في القصبات والمدن القريبة، بل ينبغي الذهاب إلى «مشهد» (مركز محافظة خراسان) لجلبه ومعالجة الخراف والماعز.

ويفشل «ناد علي چارگوشلي» (ابن خال صوقي، وخطيبها بالإكراه) في العثور على قاتل أبيه، فيعود إلى بيته مريضاً من التعب والسهاد. وتحذره أمه

من الاستمرار في ذلك، كما تحذره من إهمال زرعه وقطيعه، مؤكدة أن خاله ــ بابقلي بندار ــ لن يهتم به أو بها، ولن يبحث إلا عن مصالحه، فعليه هو الاهتمام الجدي بمصالحهما.

وفيما هو يحاول استجواب ابنة عمته ليعرف منها من هو عشيقها، ومن أية عشيرة هو، وهي تصمد لتعذيبه، يأتيه حفار القبور في المقبرة التي دفن فيها مديار خلسة، عارضاً عليه سره لقاء شيء من القمح والسمن. يذهبان معاً، ينبشان القبر، وبدلاً من أن يتعرف ناد علي على القتيل، يصاب بما يشبه اللوثة: إذ يرى أفعى تأكل من رأس القتيل. يلقي بالفانوس على رأس الحفار ويهرب على غير هدى.

وتهرب صوقي من بيت خالها وتلجأ إلى خيمة آل كلميشي وتطلب أن تبقى هناك.

وعندما يعود گل محمد إلى المضارب تلك الليلة، وتخبره أمه بلجوء صوقي، يرفض بحسم، ويطلب من أمه أن تصرفها عند الصباح. ولكن يبدو أن صوقي كانت يقظى فسمعت الحديث، فانصرفت قبل طلوع الصبح. ولكن راعي ابن خالها يصطادها فيعود بها إليه مقيدة، وتتوسل هي إلى ناد علي فيطلقها، وترحل، فيما يتوسل الراعي إلى ناد علي أن يهتم بأمر قطيعه الذي أصابه الوباء وهو يتلف، ولكن هذا يحدق إلى الفراغ وراء صوقي، ولا يصدر أمراً أو حتى يحير جواباً.

كل هذا والشك العميق يساور زيور فيما يجري بين گل محمد ومارال، في حين أن مارال تجد نفسها منساقة رويداً رويداً إلى حب گل محمد [كأن قلبها يهوى لو أنها تستطيع أن تقول لگل محمد «ساعدك الله» وأن تسمع منه «حفظك الله»].

وفي القرية أو «القلعة»، نجد ماه درويش قد انكسر تماماً لمقاطعة أهل زوجته له، ثم مهاجمة بيگ محمد له وقص قطعة من سرواله! «كنت بلا اعتبار ولكنك لم تكن بلا حرمة، في عدم الاعتبار ذاك، كانت ثمة حرمة كامنة». ولهذا يراود منزل «صنما» ـ حيث يجلس لتدخين الـ«شيره» (تفالة الأفيون). ونفهم من حوار «قدير» معه أنه صار خادماً لبيت بندار، مخبره، وـ باختصار ـ عبده! كما نعرف أن بندار ينوي أخذ ابنة علي أكبر ـ ابن خالة گل محمد ـ زوجة لابنه الأكبر «أصلان».

أما قدير هذا فهو ابن صاحب إبل كسيح، باع باقي إبله لبندار مؤخراً، كما أنه كان له شأن مع زوجة خاله قبل أن يطلقها هذا! وهو لذلك لا يتحمل النظر في وجه خاله أو نظرات هذا إليه.

رغم تصور گل محمد أنه سيتمكن من جلب مسؤول بيطري مع الدواء اللازم، باعتباره يدفع الضرائب، وقد خدم في الجيش حيث تعرض للمخاطر في سبيل الوطن، إلا أن أحداً «لم يتذكره»، وجوبِه بالصد أينما ذهب! فيذهب لرؤية أخيه الأكبر في السجن، الذي يشير عليه بمراجعة ابن خالتهما، علي أكبر، لاستحصال الخراف التي سرقها خان محمد وقضى، ويقضي، من أجلها سنوات سجنه، علّه يستحي قليلاً فيعيدها إليه.

يذهب گل محمد. وهناك يعرف أن ابن خالته اشترى أرضاً، فلابد أن يزرعها، وأن عنده ماءً كافياً للقطيع وأنه تعلم نوم القيلولة! ولكن ابن الخالة لا ينكر فقط أن ثمة حساباً بينه وبين خان محمد، بل يعتذر عن المساعدة بأي شكل ـ حتى على سبيل القرض ـ بحجة أنه اشترى علفاً وذخيرة للشتاء، فلم يبق عنده مال!

وأخيرا نتعرف على بابقلي بندار، الذي سمعنا به من قبل، بشكل أولي. هو

عطار القرية، وعنده عدد من الإبل اشتراها من «كربلائي خداداد»، أبي قدير، يرعاها ابنه الأصغر، «شيدا»، أما الأكبر، أصلان، فيساعده في الدكان. وهو عندما يعرف أن قديراً يراقب الإبل، ويطارد ولديه بسماجة، يفكر في كيفية التخلص منه فيستقر فكره أخيراً على تشغيله بنقل وتداول المخدرات لإلهائه من جهة ولتوريطه من جهة أخرى. كما أنه يوصي ابنيه بالحذر والاحتياط والتسلح: فالناس في مضيقة القحط، «الجائع لا إيمان له». كما أنه لا يهتم بزوجته المريضة المستلقية في فراشها، حتى أن ولديه ـ وأحدهما منها ـ يخافان أن يحسّ بأنهما يزورانها! وزوجته لا تريد أن ترى «وجهه النحس!». وابناه، رغم مزاحهما ومجاملاتهما، إلا أن أحدهما يراقب الآخر ويحسده. وهو كأنه لا يحس بمرض زوجته حتى ليتصور ابنه الأصغر أنه لابد قتل زوجته الأولى، أم أصلان، بإهماله.

يأتي گل محمد إلى بابقلي بندار راجياً، متوسلاً، مستجدياً حتى، مساعدته لاجتياز الفترة العصيبة. ويذهبان معاً إلى المرعى كي يرى بندار حيوانات آل كلميشي ليقرضهم بضمانتها، على أمل شراء جلدها وصوفها وشعرها في المستقبل. والحقيقة أن بندار رضي بهذا الاتفاق خوفاً، ولذلك فهو يفكر ـ في الطريق ـ بالانتقام لنفسه بأن يغبنهم في المعاملة. ولكن عندما يصلان يجدان أكواماً من الجلود فيما تضاءل عدد الخراف! يجنّ گل محمد من القهر والغيظ، ويهجم ـ ويحرض بقية الرجال على الهجوم ـ على الخراف تقتيلاً، حتى تمنعهم النساء بالقوة.

وينسحب بندار طالباً منه أن يأتيه إلى سبزوار بالجلود.

ينتقل آل كلميشي إلى مصيف (طاغ) لتسرح حيواناتهم فيه.

ينفر بيگ محمد فجأة فيترك القطيع مخبراً صبراو أنه ربما لن يعود إلى

القطيع. يهيم على وجهه في الصحراء فيتعرف على جامعي شوك، يفتح رئيسهم في صدره نافذة أمل بأن سيدهم قد يستخدمه. وعندما يعود ليخبر أهله ويودعهم يعلم من أمه أن گل محمد خرج عند الغروب، ولا أحد يدري أين يقصد، إذ أنه لا قرار له هذه الأيام، وكذلك ذهب العم دون إشعار هو الآخر.

يهطل مطر غزير، فيرجو الأب كلميشي أن تتحسن الأحوال.

* *

يقصد گل محمد «عمو مندلو»، الذي يعمل في تهيئة الفحم وجمع الحطب، لكي يقنعه بقبوله عاملاً معه شراكة، ولكن هذا يرفض متذرعاً بحجج واهية، ثم يعد بأن يفكر بالأمر ويعطيه الجواب في مضارب أهله. في حين يحتقر گل محمد نفسه لأنه اضطر لتقديم هذا الطلب وسماع هذا الجواب.

في حين يشرع العم بقطع الطرق وسلب العابرين، مبرراً ذلك بأنه إنما يسرق من الأرباب، وبأن قطع الطريق سنّة أسلافه في سنوات القحط، وإذ يحاول إقناع گل محمد بذلك يرفض هذا لأن «السكين لم تصل العظم بعد».

ويعمل گل محمد في قلع الشوك ونقله للمدينة لبيعه وقوداً.

تأتيه مارال حاملة له طعاماً. يتبادلان نظرات حب حذر. تكاشفه بأنها تريد أن تعمل معه لأنها لا تستطيع البقاء عالة عليهم بلا عمل. تنغرز في رجله شوكة، تنشغل مارال بإخراجها، فيما يستجوبها عن زيارتها الأخيرة، مع أمه، لأبيها وخطيبها.

إذ تفرغ من إخراج الشوكة ويجلسان مقابل أحدهما الآخر على الأرض المرطوبة، يجد أنه يراها لأول مرة مواجهةً، رغم أنه نظر إليها سابقاً كثيراً. ويتذكر ندمه على ما لم يفعله عند البركة ذلك اليوم، فيفعله هنا، واليوم!

مع أن مارال شاركت في الشوق والتوقع واللذة، إلا أنها جلست الآن تبكي.

تأتي زيور إليه حاملة غداءه، فتفهم بما جرى!

يأخذ گل محمد مارال إلى قلعة «ملا معراج» القريبة (وهذا الملا صاحب حيوانات يعرف شيئاً من القرآن والكتابة ويؤدي الأعمال الشرعية للبدو) فيعقد له عليها، ويعودان إلى محلتهم ليبلغ أمه: «إنها منذ الليلة زوجتي، مثل هذه». وتخلع هي قرطيها فتسلمهما له ليشتري أدوات عمل وبما يتبقى «حرزاً»، ثم شعر ماعز لتحيك لهما خيمة. وتعلن: «غداً، نذهب معاً لجمع الشوك».

ونسهر تلك الليلة مع زيور المسهدة، ونتحمل معها برد الصباح القارس وهي خارج خيمتها.

يأتي فارس غريب متعب يسألها عن گل محمد، فتدله ـ من خوفها ـ على المكان الذي يعمل فيه. ثم تخاف، فتلحق به. يسقط الفارس مغشياً عليه، وبالماء والتدليك يصحو. إنه نادعلي، الذي يقول لگل محمد إنه عرف بما جرى، وإنه يعتبر نفسه قد صفى حسابه مع گل محمد، فقد قتل هو خال گل محمد بينما قتل گل محمد ومجموعته أباه. ولكن ابنة عمته صوقي قد هربت، وهو يريدها، يريد أن يراها.

يعده گل محمد أن يجلبها له بنفسه إن وجدها.

ويأخذ گل محمد أول حمل شوك إلى المدينة، فيما يوصي زوجتيه بأن تجلبا أباه ليقلع الشوك معهما كي لا تبقيا وحيدتين في الخلاء. ويقبل بنادعلي رفيق سفر، في حين يكاد هذا ينام على فرسه تعباً وسهاداً واضطراباً.

ومع حلول الليل يلاقي گل محمد عمو مندلو في الطريق، فيتظاهر بأنه قاطع طريق ويخيفه ليبين له أنه لو كان ينوي سرقة إبله لسرقها من دون أن يعرض عليه الشراكة.

ويدخل مدينة سبزوار في الصباح.

وفيها يلتقي ــ صدفة ــ بابقلي بندار، الذي يبحث عن حطب لــ(أرباب الاجاقي) ــ وهو ملاّك المنطقة التي ينزل فيها آل كلميشي وربّ قلعتها ــ التي يديرها بابقلي نيابة عنه.

في الحوار بين گل وبندار نتعرف أعمق على خصيصة بندار في البحث عن المنفعة من كل حديث أو رفقة أو عمل يراه.

كما نتعرف على مرقّع الگيوات[٤]، «ستار»، الذي يراه گل محمد لأول مرة.

ولما كان قلب گل محمد لا يطاوعه على بيع قرطي مارال، فهو يرهنهما ــ متوسلاً ــ عند ألاجاقي.

ولأن ستاراً مستقر في المقهى الرئيسي بالسوق، فإن گل يراه في ذهابه وإيابه ويجده محدقاً إليه أو محيياً إياه.

وفي طريق عودته يمر بأخيه بيگ محمد في مكان عمله الجديد.

وإذ يواصل سفره ليلاً يقطع عمه عليه الطريق! دون أن يعرفه. ولكن گل يغافله ويشتبك معه فيتصارعان، وإذ يستل سكينه يكشف عمه عن نفسه ــ وقد عرف گل ــ طالباً ألا يضرب. ثم يستجديه أن يعيره بندقيته ليتمكن من ممارسة عمله باطمئنان، ولكن گل يرفض أن توجه بندقيته إلى صدور من هم أكثر منهم بؤساً!

ثم نطل على بيت بندار ومنطقة سيادته، إذ يذهب نادعلي إلى بيت بندار، حيث يستقبله أصلان ويثرثر معه ثم يتركه ليجيب طارقاً، فينام نادعلي. ونشم شيئاً من تجارة المخدرات في لقاء أصلان بالطارق.

ونجد شيرو سئمت حياتها الجديدة، بعد العار الذي أصابها ــ فقد هاجمها بيگ محمد وجزّ ضفيرتها كما قطع قطعة من سروال زوجها! ــ ونبذ عائلتها لها وعملها حالياً أشبه بالجارية في بيت بندار، كما أنها تعمل الآن في حياكة السجاد له. وابنه شيدا يدخل بيتها بحجج واهية، وهي لا تجرؤ على رده فهو «ابن بابقلي بندار! صاحب شغلي وسيدك في الوقت نفسه!»، وتتوسل إلى زوجها أن لا يتركها ليلاً. ولكنه يخرج، ليحشش ويبحث عمن يثرثر معه. يجد قديراً وشيدا، وإذ يطلب منه قدير أن يروي لهما قصة، يحكي لهما عن درويش طلبت منه زوجته ألا يتركها ليلاً فيتركها ويترصد، فيجد أن رجلاً يزاحمها فيهجم عليه ببلطته. ثم ينام تحشيشاً وتعباً، وقبل النوم يتوسل إلى شيدا ألا يذهب إلى بيته!

يتركانه، وينفصلان عن أحدهما الآخر، وقبل أن يذهب شيدا إلى بيته يعرّج على بيت ماه درويش!

وإذ يذهب قدير إلى بيته تتاح لنا فرصة التعرف عليه. إنه يعيش، وينام، في مخزن البيت. وهو يخدم أباه الكسيح الذي يوسخ نفسه إن هو تأخر عليه. والبيت الآن خال بعد أن كانت مائدته تضم الأقارب والجيران عند كل عودة للأب من سفره على رأس قافلة إبل إلى (عشق آباد) ــ عاصمة تركمنستان ــ كما كان البيت يزهو بزينات من منتجات عشق آباد أيضاً، ولكنه خلا من كل شيء الآن!

ويعنّ لقدير أن يؤذي أباه فيماحكه، محاسباً إياه على بيع الإبل، في حين أن الأب بحاجة قتّالة للذهاب إلى دورة المياه!

ونعرف أنه ضاجع زوجة خاله السابقة ودخل من أجل ذلك السجن، ولايزال في نفسه شيء منها، ولكنها تحاول الآن الإيقاع بشيدا. ولهذا فهو

يخطط للربط بين شيدا وشيرو ليخلو له جو مطلقة خاله! وليتضرر ماه درويش في النتيجة، عقاباً له على ممارسة دور الوسيط في صفقة بيع إبل أبيه لبندار!

ويأتي عمو مندلو لزيارة ابنه «موسى»، الذي يشتغل رئيساً لمشغل حياكة سجاد بندار. ومن حديث موسى مع أبيه نفهم شيئاً عن طبيعة العلاقات الاقتصادية ــ الاجتماعية في الريف: كيف يضطر الفلاحون للاستدانة لقاء عملهم، ثم شراء حاصل كدّهم بأضعاف سعره، إضافة إلى تلاعب وكيل الإقطاعي عليهم في الكيل والحساب.

ونعرف أن شيدا تجاوز على بيت ماه درويش في الليلة السابقة وهاجم زوجته، وهاهو يهاجمها اليوم في مشغل السجاد ببيت بابقلي، فينال منها غرز خطمه بين نهديها وتقبيل عنقها وأدنى حنكها!

وإذ نجد قديراً يراقب «پهلوان بلخي» وستاراً الرقاع، نعرف أن الأخير يأتي في أوقات معينة إلى هناك فينزل بيت پهلوان، الفلاح المعدم، وأنهما صاحبان.

* *

يأتي مأمورا أمن إلى مضارب آل كلميشي، ويذكران أنهما قادمان برفقة جابي الضرائب الذي سيلحق بهما.

يبدأ أحدهما بالتحرش بزيور، وأثناء حديثه معها نفهم أن هذا الفخذ من العشيرة انفصل عن (خان) العشيرة وقسمها الرئيس احتجاجاً على عدم اهتمام الخان بحيوانات صغار الملاكين، التي أهلكها المرض واكتفى بالاهتمام بحيواناته وإنقاذها، عن طريق علاقاته بالسلطة. ويعدها المأمور ــ في تحرشه ــ بخفض حساب ضرائبهم!

تهرب زيور، بعد أن تكون مارال وماهك قد ابتعدتا بحجة طلب الحطب، وليس في المضارب غيرهن.

كانت بلقيس تجمع الحطب، فسمعت من مارال وماهك بنتف عن هرب زيور ولحاقها بگل محمد وشكواها له، فتعود وتعد النار للمأمورين وتسمع ــ إذ تتنصت على حديثهما ــ تفاصيل عن التحرش تملأها غيظاً.

يأتي گل زاعماً للمأمورين أنه يريد مصالحتهما مع زوجته، التي هربت منهما لجنونها! في حين كانت أمه قد أقنعت المأمورين ــ تحت طائلة تهديد مبطن بوشك عودة الرجال إلى الحي ــ بأن ينصرفا بعد أن نالا الدفء ومغلياً حلّ محل الشاي. ولكن گل محمد يداهن المأمورين ويحملهما على البقاء! وعندما تنفرد به أمه تتوسل إليه بحياة أخيه أن يدعهما وشأنهما!

واضح أنهما جاءا من أجل الضريبة. وقد اقتنعا بشرح گل محمد من أن حيواناتهم ماتت، وأن أرضهم الزراعية المزعومة إنما هي ديمية لم تنتج شيئاً بسبب الجفاف، ولكن المأمور الأعلى يطلب من گل محمد مرافقتهما إلى المدينة لتوضيح ذلك، ومخفوراً! يحاول زميله المتحرش أن يقنعه بقبول ادعاء گل محمد أنه سيراجع قيادتهما عندما يذهب إلى المدينة بعد أيام ــ دون حاجة إلى اعتقاله ــ ولكن هذا يرفض لأنه يدري أن عندهم بعض الذخيرة المخبوءة! وهو يريد أن يحصل لنفسه على شيء مقابل تعرضه للبرد والتعب!

وگل محمد لا يدرك ذلك فقط من معلوماته العامة عن سلوك كهذا، بل هو يسمعه من الحوار بينهما وهو يتنصت عليهما خارج الخيمة! وفي حين يجد گل أن أحداً من رجال آله لم يعد، ويتألم لوحدته هذه، يبدو وكأنه ندم على استبقائهما، بحيث يضطر الآن للمماشاة والتملق وإظهار الخضوع!

وأثناء الحديث يلوّحان له بدعوى «چارگوشلي» ومقتل الحاج حسين، أبي نادعلي، وعليه فالأفضل له أن يحسموا الأمر هنا، لا في المدينة!

ويأتي العم، فيأخذه گل جانباً ــ قبل رؤية المأمورين له ــ ويُدخله في صورة الموقف.

كان گل قد قرر أمراً، فينظم العملية مع عمه. وهاهما ينفذان: يفاجئان المأمورين بالهجوم، وتعاونهم النسوة، فيأخذونهما ويقتلونهما ويلقيان بهما في حفرة إعداد الفحم.

ولكن شيدا يأتي ليباشر عمله في جمع الشوك والحطب مع عمو مندلو، حيث مشغله القريب، كما يأتي ابن خالة گل، الذي يريد دعوة خالته لحفل زواج ابنته ومصالحتها مع أمه. ويصل أيضاً جابي الضرائب، الذي كان مأمورا الأمن ينتظرانه، مستجدياً استراحة ليلة!

يتجسس ابن الخالة شيئاً وراء متكأه، فيتفحصه وإذا هو جزمة عسكرية!

وفي چارگوشلي يأتي قدير مبعوثاً من أرباب ألاجاقي إلى نادعلي. ونجد نادعلي كريماً قولاً وفعلاً، ربما لحد السفه، حيث لم يعد يهتم بالمال قط. نتيجة لكرم نادعلي، ورفقة الطريق، ولطموحات ذاتية خاصة، ينصح قدير نادعلي أن يتمسك ــ تجاه ألاجاقي ــ بأرضه وحيواناته.

في مقهى الطريق يسمعان بخبر فقدان إثنين من رجال الأمن في المنطقة.

إن لقدير ــ رغم بؤسه وافتقاره وطمعه وحسده ــ بقايا روح إنسانية، فهو يحس حزناً حقيقياً على نادعلي عندما يدفعه خاله، بابقلي بندار، إلى الغرفة التي يجلس فيها ألاجاقي، الذي يجالسه الرائد «فربخش»، قائد أمن المدينة، المشغول بأفكاره: كان ملازماً سنة ١٩٤١ ــ حين دخول القوات السوفييتية شمال إيران

ـــ وعانى، كما عانى صغار الضباط والمراتب والجنود من هزيمة جيشهم بلا قتال أمامها، في حين كان الأسياد يحتكرون القوت ويتآمرون، ويفر كبار الضباط والقادة.

يطرح ألاجاقي فكرته عن ضم قطيع نادعلي إلى قطيعه هو، وأرضه إلى أرض ألاجاقي بوصفه مستأجراً! فيما يستغل قدير الفرصة فيطرح على ألاجاقي مطلبه بالحصول على إعفاء من الخدمة العسكرية.

وفي حوار لألاجاقي مع بندار نفهم أن عين الأول على شيرو! وأنه وراء تهريب المخدرات في المنطقة!

وهناك نسمع مرة أخرى بضياع رجلي الأمن.

وفي طريق عودة قدير ونادعلي، يتحدث الأول عن ألاجاقي: إن له جيشاً من الأوباش، يهرّب ويوزع المخدرات، والويل لمن يتأخر في السداد أو يشتري من غيره، فإنه يوجه نحوه رجال الأمن أو «جيشه»، حسب مقتضى الحال!

وفي مقهى الطريق نجد ستاراً مرة أخرى. ونعرف أنه «يعرف الناس بالطريقة التي يعرفها. يعرّف كلاً ـــ قبل علامته ـــ بمركزه»، وهو مثل «كرة المغناطيس، تجذب ـــ في تدحرجها المستمر ـــ البرادة فتنقلها معها»، وهو ينقل كل ملاحظاته إلى المدينة، فيسجلها في دفتره ـــ الذي لا يحمله معه أبداً. وهو يريد أن يعرف الكثير عن الناس.

ويلتقي قدير أخاه «عباس جان» ـــ الذي كان متغرباً حتى الآن ـــ فينذره ألا يلصق نفسه بنادعلي، بينما يتحرش عباسجان بستار، محدثاً إياه عن مشاهداته في عشق آباد ـــ عند مجيء البلاشفة ـــ حيث شنقوا بعض التجار. كما يعترف لستار بأنه لا مانع عنده من التجسس للقائمقام على الناس ونقل أخبارهم.

وإثر معركة بين الأخوين يفشل قدير في مخططه لجعل نفسه مباشر أعمال نادعلي.

وفي المضارب، تنوي زيور ـــ وتشرع في ـــ قتل جنين مارال وهو في بطنها، ولكنها عندما تصل خيمتها تضرب الصخرة التي جلبتها لهذا الغرض على كتفها هي بدلاً من بطن مارال، وتنهار معترفة بنيتها.

وعندما تأتي بلقيس تعترف لها أيضاً، وتطلب منها أن تقتلها فهي تستحق ذلك.

ثم تتوسل إلى مارال قائلة إنها ستصير جاريتها، وستتولى تربية ابنها، شريطة أن تعطيها هذه جزءاً من زوجها!

ويفهم كلميشي بمقتل رجلي الأمن فتثور ثائرته. وهنا نعرف رأي گل محمد بابن خالته: «فاسد! مائة مرة أفسد من بابقلي بندار».

يأتيهم خبر اقتراب مفرزة درك تبحث عن المفقودين، فينقلب گل محمد وعمه، بحصاني الفقيدين، مبتعدين عن الخيام.

يأتي موسى وستار، وبعد أن يتناولا إفطاراً في المضارب، ويجلس ستار ليخيط گيوة كلميشي وحرزاً لبلقيس، تصل المفرزة، بقيادة رأس العرفاء «علي إشكين»، الذي يعرفه ستار.

من التحقيق الذي يجريه مع ستار، يقدر إشكين أن هذا من المخربين، الذي يتجولون «لإفساد الناس ضد الأرباب»، خاصة وأن نوابهم في المجلس وجدوا حرية الكلام»! ـــ في إشارة واضحة إلى حزب توده ـــ ويداهنه ستار بأنه مشهور في هذه الأطراف لأنه أجبر «جهن خان البلوجي» على التسليم للحكومة.

وإذ لم يحصل إشكين على معلومة تفيده، حتى بعد أن نزع الخمار عن فم بلقيس وأنفها، اكتفى بالتهديد، وضرب وجه كلميشي بطرف زمام حصانه!

وفي حوار بين ستار وموسى ينتقد الأول الحزب: «أخيراً، سيأتي يوم يجمعون فيه هذا البساط الذي نشرناه فسيحاً وهانحن نمشي فوقه بهذه العلانية ونغني! لست أدري، رفاقنا الذين فوق، بماذا اشتبه عليهم هذا المكان!».

وفي كوخ عمو مندلو ـ أبي موسى ـ يلتقيان خان عمو وگل محمد، المختبئين مؤقتاً. وگل محمد لايزال غير مرتاح لستار ولنظراته: «كما لو أن بين عينيه أفعى ملتفة. تحك نظرته قلب المرء. كما لو أنه يبحث في قلب المرء عن دفينة. ولكن، عمَّ يبحث؟».

يحدثهما ستار عما جرى في مضاربهما.

يعود شيدا من المدينة ـ حيث باع حِمل حطبه ـ إلى البيت فيحدث أباه بما رأى في المدينة: تحشد الناس واتجاههم إلى مكان يتوقع أن يلقي فيه أحدهم خطاباً. يشخص بابقلي هذا الأحد، بأنه إن لم يكن «طبيب المسلخ» فهو «السيد فربود نفسه، رئيسهم!»، الطهراني أو المشهدي، المنفي تقريباً من عمله بشركة النفط في أهواز أو آبادان، فهو الذي يجمع الناس حوله ويتكلم معهم، وصار عمله الآن علنياً، ولكن ما إن «تغيم السماء، حتى يختبئون جميعاً». وبابقلي يفهم أنهم في كل مكان، وأن على ابنه أن يوسع عينيه لكي يعثر عليهم في من يحرضون الفلاحين والجياع.

ثم يذهب شيدا إلى بيت شيرو خلسة، فيرمي لها من بعيد منديل رأس اشتراه لها من المدينة، ويخبرها بأنه سمع أنهم يريدون إرسالها إلى المدينة، ويطلب منها ألا تذهب: «قولي لهم لا أذهب! سيسودّ يومك يا شيرو، لا تذهبي!». ويلتقي في طريق عودته بماه درويش، فيلحقه خفية، ويتلصص على

حديثه مع زوجته، التي تطلب منه أن يغادرا «قلعة چمن»، فيعتذر بعجزه، لأنه مدين حتى بحصانه لبندار!

وينتهز الكاتب فرصة حلول عيد النوروز في الغد، فيصف لنا حمام الرجال ونشاط الناس لغسل وسخ العام عن أجسادهم و«كنس صوف الشتاء» عنها.

وأمام إصرار شيدا على عدم ذهابها إلى المدينة، والسكوت الجبان لزوجها، تحس شيرو أن حب هذا انخلع من قلبها.

ونتعرف على جانب آخر من نشاط ألاجاقي ومعاملاته وروابطه: نجده مع قائد الأمن في خلوة مع «شمل»، القصاب في المدينة، ابن «مشدي ياخوت»، المهاجر التركمنستاني الذي فرض نفسه فتوة، وهو يعاتب قائد الأمن على تهديدات ضابط شرطة جديد، يهدده هو ــ شمل ــ ابن من سخّر عشق آباد يوماً لشقاوته!

وتأتي بلقيس إلى المدينة لتزور ابنها الأكبر في سجنه وتستخلص قرطها من رهن ألاجاقي فتفاجأ بابنتها وتفاجأ بها ابنتها أيضاً. تتحادثان ، تتلاومان، وتثرثران بالأخبار.

ويأتي جهن خان مطالباً ألاجاقي بقيمة الأفيون الذي سلمه لبندار، والذي أحاله بندار بشأنه على ألاجاقي، ولكن ألاجاقي يتنكر محتجاً بكذب بندار! فيهدده جهن، تلميحاً، وينصرف.

لا تتمكن بلقيس من استرداد القرطين، فتأخذ ابنتها لزيارة أخيها وخالها في السجن. نفهم أن عبدوس يدري بزواج ابنته! وأن دلاور أوشك أن يقتل نفسه حزناً وقهراً. وينذره خان محمد، عن طريق خاله، ألا يعود لذكر «زوجة أخي» مرة أخرى! كما يتوعد خان محمد، في لقائه بأمه، ابن خالته «شريك اللص رفيق القافلة».

ويلتقي ستار وبلقيس مرة أخرى. ويعدها ــ كي يتحدثا بانفتاح أكبر ــ بأن يزورهم في مضاربهم مرة أخرى.

ونجد عند ستار شوقاً ــ كنا سنفهمه لو كان لبلقيس مجردةً، بوصفه شوقاً للأم مثلاً ــ ولكنه شوق لأم گل محمد!

ثم يذهب ستار مع موسى وأبيه، وأبيه بالتبني، ليخطبوا لموسى، فيهجم أحد أزلام شمل حبيب ــ الملقب بــ«لاشخور»، أي آكل الجثث ــ وهو يريد الفتاة نفسها لنفسه، على بيت أمها ويتشاجر معها فيضربها حتى تغيب عن الوعي، ويهدد الباقين ألا يتحركوا، ثم يدخل شمل فيضرب الضارب ويطرده. وفجأة، يأتي صوت من الخارج: أخو شمل منادياً: لقد جاؤوا! يدخل رجال الأمن، فيعتقلون ستاراً وشمل.

نعود إلى مضارب آل كلميشي لنجد كلميشي قلقاً على عودة ابنه، ويثور نقار بينه وبين أخيه، خان عمو، فيتحداه هذا بأنه مستعد ــ لو أراد گل ــ أن يتحمل مسؤولية قتل رجلي الشرطة ويدخل السجن مكانه! ليريه ما هو مستعد أن يفدي لگل محمد، فماذا يريد هو ــ الأب ــ أن يفدي؟! وأخيراً، يقول العم للأب إن عائلتهم قد تشردت، وإن أيديها قد تلطخت بالدماء، وإن الخبر انتشر وما بقي إلا أن يقتفوا أثرهم فيجدونه! وهو يفهم أنهم لم يعودوا أهل حيوان ورعي أو أهل أرض وزرع، بل صاروا أهل جبل وبندقية! فالحكومة لا تغفل عن حقها!

ويعود خان محمد، مطلق السراح، جالباً زوجته وابنه الذي أصيب بالخرس!

ويلتقي أخاه، ويتباحثان ــ مع عمهما ــ الموقف.

ويتذكر گل محمد علي إشكين، ويذكّر نفسه وأخاه بأنه صفع أباهما وأماط لثام أمهما! ولكنه يبدي، في الوقت نفسه، إعجابه بمتانته وحسن بنيانه وظاهره الجسور!

وبعد قضاء ليلة في المضارب، وإذ يذهب العم موفداً إلى ابن الخالة للتخلص من شره المتوقع، وتعود شيرو إلى بيتها ـــ إذ نبذها أهلها ـــ يفاجئ رجال الأمن صباحاً گل محمد وهو نائم بقميصه الداخلي وسرواله فيعتقلونه، ومن أجل الاطمئنان يعتقلون معه أخاه خان محمد.

لما وجدت شيرو أن مضرب عشيرتها ضاق بها قررت العودة إلى بيتها، ولكنها هنا تحس تغير شعورها نحو زوجها، كما أنها تخشى شيدا، فتخاصم زوجها وتتركه في بيته! لتبقى هي في بيت بندار، ويضطر هو ـــ جبناً ـــ إلى تركها هناك. ولكن بعد قليل من التفكير وكثير من تحريض قدير، يرسل «قربان بلوج» لاسترجاعها فترفض. ويذهب للمطالبة بها، ولكنه ينهار أمام نظرات شيدا وينهزم. ومع أن شيرو تريد شيدا إلا أنها ترفض غزله، وتصده، وتطلب منه أن يلزم السكون إذ يجلس قربها، فهي لا تريده هكذا، إنها لا تريد الذل للحب! وعندما يعود شيدا، مضطراً، إلى «لالا» ـــ مطلقة خال قدير ـــ تصده هذه وتتمادى فتطرده، ثم تندم.

* *

يأتي جهن خان البلوجي، مع أربعة من فرسانه، لمطالبة بندار بدينه. ومع أن شيدا كان انصرف تواً لرعي جماله، ومع أن بندار وأصلان غائبان، إلا أن الخوف من بندار يلجم ماه درويش فلا يتمكن من إجابة جهن عندما يسأله هذا عن بندار وأولاده، حتى يرفعه جهن ويلقي به من سطح المنزل إلى باحة الدار!

وبعد تدخّل گودرز «پهلوان» بلخي (أحد الفلاحين المعدمين) وصرعه أحد الأفغان من مرافقي جهن، وسعي هذا لقتله، يتدخل قدير ليقول إن بندار وابنه أصلان في المدينة، ويلح جهن في طلب شيدا فيخبره قدير ـــ بعد تظاهر بالتردد ـــ بأنه يرعى إبله.

يتجه جهن ورهطه إلى المرعى. وعندما يصل بندار وأصلان، ويعلم بما جرى، يتظاهر بأنه لحق بهم.

يخطف جهن شيدا ويأخذه أسيراً.

يعول بندار ويلطم، وعندما يعلم بأن أحد أفراد جهن لايزال في القلعة، يهجم على بيت گودرز محاولاً استخلاصه وصلم أذنيه وجدع أنفه! ولكن مقاومة گودرز ـــ ثم تأييد قدير فـــ«علي خاكي» (وهو فلاح معدم آخر) ـــ تمنع بندار من ذلك.

يهرّب پهلوان بلخي الأفغاني ليلاً. ولكن اتصالات بندار بألاجاقي تؤتي أكلها فيطارده رجال الأمن ويعتقلونه. يلقون به في سجن سبزوار، حيث عبدوس ودلاور، وستار وشمل، وـــ أخيراً ـــ گل محمد.

ونعلم أن خان محمد أُطلق سراحه بعد الوصول بگل محمد إلى سبزوار. كما نعلم أن علي أكبر حاج پسند أخذ معه فردة جزمة أحد رجلي الأمن وسلمها لعلي إشكين، وأن رجال الشرطة أروها لگل محمد أثناء التحقيق.

والنقار بين دلاور وگل محمد على قدم وساق، باستفزاز من دلاور غالباً، بينما يفكر گل بالهرب.

ورغم محاولة شمل مصالحتهما يبقى دلاور متحدياً، فيضطر گل إلى مصارعته، فيغلبه، ولكنه يندم لأنه كسره! يتمنى لو يستطيع أن يقول لدلاور إنه لم يصرعه حقداً أو بغضاً، وإنما اضطراراً.

ويفكر گل في ستار، الذي لا يحبه، فيجد أنه يتضايق منه ولكنه لا يكرهه. ثم يختلي ستار بگل ليقول له إنه إنما اعتُقل بسببه هو ـــ گل محمد. فقد طلبت منه الشرطة عنوان گل محمد قبل إلقاء القبض على هذا، وهم يريدونه أن يشهد

بأنه قاتل المأمورين! وأنه علم بأنه باعتقال گل سيطلق سراحه هو، ولكنه غير سعيد بذلك! ويلمح لگل أنه ربما أمكنه مساعدته في تفكيره بالفرار. وفي خلوة أخرى بينهما، يسأله گل: لماذا تريد مساعدتي دائماً؟ فيتذرع ستار بالخبز والملح. ــ ولماذا لم تشهد ضدي؟ ــ لأنني لا أصل مستواك (؟).

وينوي دلاور أن يخنق گل محمد أثناء نومه، ولكن «الرقّاع السمج» يلازم گل محمد دائماً، وينقذه! ويفاتح گل محمد ستاراً بنيّته في الفرار من السجن.

وفي يوم ملاقاة الموقوفين، نتعرف على جانب آخر من انتقاد ستار ــ وهو الحزبي المحترف ــ لأسلوب عمل حزب توده. إنه يرفض قيام الحزب بإرسال «الصبية ذوي الأربطة من أعضاء منظمة شباب الحزب» إلى منطقتي!

ثم تموت «آتش» ــ أم خطيبة موسى التي ضربها أحد صبيان شمل ــ فيقتنع ستار بأن شمل لابد سيشترك في الهروب.

ونرى موسى في المدينة ــ بناء على طلب ستار ــ وهو لا يفكر بغير نقب جدار الخان الملاصق للسجن. والخطة كاملة لا شائبة فيها: يحفر موسى من الخان، والسجناء من الداخل (بسكين هُرِّبت إلى شمل). ويأتي خان عمو وخان محمد لمنع پيرخالو ــ صاحب الخان وأبي موسى بالتبني ــ من التدخل والحركة.

ويهربون فعلاً، في حين يبقى ستار، طالباً منهم تقييده.

يتركهم شمل على مشارف المدينة ــ عائداً ــ لأنه لا يستطيع عملاً في الصحراء، ويعلمهم أنه ربما سيسلم نفسه.

وعندما يريد دلاور مفارقتهم يطلب منه گل أن يعاهده بأنه إن أراد مقاتلته فليأته من أمام، بصراحة. ويشد على يديه. ولكن دلاور لا يحرك ساكناً، ثم يغيب في الظلام. يؤاخذ خان عمو گل على عمله ذاك، إذ ليس من الحكمة

ترك العدو حراً! كما أن خان محمد ـ حين يعود من إيصال شمل ـ ينعي على أخيه عمله.

ثم ينطلقون إلى، ويصلون، مرعى العائلة ومعهم الأفغاني. يرسل گل محمد أخاه بيگ في جلب البنادق. والهدف: مداهمة ابن خالتهم، علي أكبر، الذي نعرف أنه تسلّم بندقية من الدولة جزاء وقيعته بگل محمد!

وإذا أردنا مرافقتهم في هجومهم فسنجد گل يفكر: «لقد أدرك، ولو بغير تأكد، ولكن بشكل مبهم، أن طريقه منذ اليوم ليس طريق الأمس. كان يتجه إلى أن يكتشف أنه يجب أن يشغّل فكره أكثر. يجب أن يصقل خياله أكثر. مزيداً من الجهد، أما الهدوء: فلا! لم يعد الهدوء من ذلك النوع الذي كان. النار قد أثيرت. البيدر، في وحدة النار. راحة القلب، ينبغي ألا تطلب بعد. ينبغي أن تفتح الغضب أكثر. يبغي أن تتناول عصا باليد، فأمامك مليء بالحفر. حفرة في كل خطوة، في كل نظرة. لا، لم يعد بالمقدور أن تكون هادئاً. كان أشبه بالدجاجة أثناء تشويش وضع بيضة. عش، مكان أمين. ليل. كان يبحث عن الليل. الليل والصحراء، بمقدورهما أن يغطيا گل محمد ورفاق طريقه، بالتدليل، في رداءيهما. في الليل، يمكن ستر الوجه».

ويصلون «كلاته (قلعة صغيرة) كالخوني» ـ ملك علي أكبر ـ فيقتلون هذا بينما يفقدون رفيقهم الأفغاني. ورغم إصرار العم يرفض گل أن يمس أحدهم شيئاً من تركة علي أكبر، فهي لم تعد له، بل تعود لقاصر!

ويتذكر گل محمد أيضاً طفولته وصباه مع ابن خالته: «أمامه، عدا الليل والصحراء، لم يكن ثمة شيء ـ الليل والصحراء، متحاضنان. أقام الدمع غشاءً على عيني گل محمد. بأية فجأة تحطم قلبه! كان يحس أنه ينهار من الداخل. فكرّة جديدة، لقد أدرك عميقاً أنه قتل ابن خالته! كانت كتفاه ترتعشان بدون إرادة...».

وإذ يجد الخالة العمياء تتلمس طريقها بين النحيب ونتف الشعر ولطم الوجه، وإذ تصرخ به: أكملت عماي! لا يتمالك نفسه أن يجهش بالبكاء ولا يتكتم فيه. ويجلس أولاد الخالة الثلاثة ينوحون في عزاء علي أكبر! وتدعوهم أمه إلى العشاء بعد ذلك! ثم يأخذون قطيع خراف التسمين وراعي ابن خالتهم معهم.

بعد الهروب من السجن، يتم تعذيب ستار ــ تحت أنظار موسى، الذي يتألم ويتعجب كيف يشتم المرء إنساناً ويضربه، وهو لا يعرفه ولا خصومة له معه!

وتدلنا تداعيات ستار، تحت التعذيب، أن الأحداث تقع بعد استعادة إيران سيطرتها على أذربيجان إثر انسحاب القوات السوفييتية وانهيار حكم «الفرقة الديمقراطية» ــ يعني سنة ١٩٤٦ ــ، وأن الذي يخطب في المدينة «مفسداً الشباب» كما وصفه بندار سابقاً، هو السيد «فربود» المبعد، حقاً كما خمن بندار. كما نعرف أن معاونة ستار في تهريب گل محمد والمجموعة لم تكن فكرة الحزب ولا خطته، بل هي تصرف فردي منه. وأن السلطات تعرف ستاراً، ولكن لأن الحزب يعمل قانونياً، زعماً، فهي تدبر تهماً غير سياسية لأعضائه.

وينتقل بنا الكاتب إلى لقاء بين عباسجان، أخي قدير، وموسى، الذي يقول فيه الأول إنه يعرف الشيوعيين الذين في المنطقة. كما يحاصر موسى بالادعاء أن ستاراً ــ لغرابة تصرفه وشدة تكتمه ــ قد يكون جاسوساً للروس! وهو يحدث موسى أيضاً، ضمن ثرثرته، عن اتفاق ألاجاقي مع بندار كي ينجز له هذا معاملة شراء تركة چارگوشلي كي يعاونه هو على استخلاص ابنه من أسر مهربي المخدرات. كما أن ألاجاقي ينوي مشاركة بندار في الاستحواذ على تركة علي أكبر حاج پسند بأن يصير قيّماً على ابنته!

ثم يلتقي موسى ببهلوان فيسلمه حصته من المنشورات الحزبية.

ويلتقي بعد ذلك قديراً، الذي يطفح كلامه بالسم، ويحاول استدراجه للكشف عن خطط(ـهم) ونوايا(هم). ويلفت نظرنا هنا أن قديراً يفهم مواقف الشيوعيين ويدرك أهدافهم! وهو خبير بعلم النفس ووسائل الاستدراج! كما أنه ـ إذ يستعرض ما فعل آل گل محمد بابن خالتهم ـ يقول لموسى إن فعلهم ذاك إنما هو تمرد على الدولة!

ولما يلتقي نادعلي، وقد أسكروه واستولوا على أمواله، بقدير، يحدثه قدير عن تاريخ ألاجاقي، وإذا به سارق غدّار.

يأخذ قدير ونادعلي ماه درويش إلى المدينة لمعالجته، يعود شيدا هارباً، جالباً معه فتاة أفغانية.

وينتهي التفكير ببندار ـ للتخلص من ورطته بين ألاجاقي والمهربين ـ إلى اللجوء إلى گل محمد للحفاظ على حياة ابنه. ويتفق الطرفان على أن يؤوي آل گل محمد شيدا، بينما يعمل بندار رابطاً لهم مع الحكومة ومنْفذاً لتأمين احتياجاتهم.

يتداول گل مع عمه أمر صفقتهم مع بندار، وبقدر ما يبدوان كلاهما مفكرين ذكيين، يرجح ذكاء العم الفطري طيبة گل محمد البالغة حد السذاجة، إذ يفهم العم أنه لا يهم بندار أن يستفيد آنياً من الحكومة أو يكون ذا ضغينة خاصة ضد آل كلميشي ليغدر بهم، وإنما «لا يمكن التورط مع ذات امرئ مغشوش. فالعقرب تلدغ بحكم العادة!». وهو يحرض گل محمد على الاستحواذ على تركة ابن خالته، وتزويج ابنته لأخيه بيگ محمد، طالباً من هذا الانصراف عن غرامه بابنة «حاج خرسفي». ولكن گل محمد يفكر على هذا النحو: «في ذهنه أمور تختلف كلياً عن ذلك... ما يفكر فيه گل محمد هو العمل الذي تلوثت به يداه وتلوث به. القتل والمجزرة. المجزرة والفرار. انعدام الأمن والإجبار. أي

نوع من الناس صار الآن وكيف ينبغي أن يتصرف. ما العمل الذي أمامه وما ينبغي أن يفعل. كان گل محمد يركز تفكيره على الغد، أما خان عمو فهو يطلب نفع اليوم. كان خان عمو يعتبر المجازر حذفاً للمانع من الطريق، أما گل محمد فيعتبر المجزرة مانعاً».

إن گل محمد يفكر في تجنيد أنصار، لأنه يعرف أنه ليس بمقدورهم ــ منفردين ــ أن يصمدوا طويلاً. وهو يفكر في أنه كان ضرورياً أن يطلب من بندار ــ كجزء من الصفقة ــ قربان بلوج الذي «أحسن التخفي كل هذه المدة ولزم الصمت!».

ويتجهون بعدئذ إلى قلعة «نجف سنگردي»، خطيب محبوبة بيگ محمد، حيث يطالبه گل ببنادق سرقها جندي هارب ــ يعرف گل أنها استقرت عنده ــ ويعده بأن يعطيه لقاءها بعض الماعز، التي يدري أنه راغب فيها، وحسب انتقائه هو.

وبلباقة فائقة يحذر گل الأرباب نجف من كشف ما جرى الليلة، لرجال الأمن. ولكن گل محمد، رغم بساطته ــ التي شاهدناها ونتصورها ــ يعرف التمييز جيداً، فهو يقول لأخيه بيگ محمد، الذي يريد معرفة العدو من الصديق: «إن نجف أرباب سنگردي عدونا، فاعرف»، كما يقول لعمه: «من الآن فصاعداً، بيتنا هو بيوت الناس». وكما تحرزوا عند دخول قلعة نجف، يتحرزون عند دخولهم بيت مزارع صغير ليبيتوا ليلتهم عنده، فيتفحص گل محمد خبايا البيت ومنافذه ــ بدون فجاجة ــ ويُعلم عمه وأخاه بذلك.

وكما أن گل محمد يدرك: «نتكئ بظهورنا على الناس، ولكن على أقدامنا نقف»، نجد مواقف الناس عامة متجاوبة معهم. فالمزارع الذي باتوا عنده يأتيهم بلحاف ووسادة إضافية، وهو لا يبقى معهم كي «لا يرى ظهور امتنان ضيوفه

بعينيه أو يسمعه بأذنيه». كما أن گل يعي أنه «ما من طريق إلى الماضي، يا گل محمد! ما هناك، إلى أمام. وما هو إلى أمام موجود. كائن، كائن، كائن. هذه هي الحقيقة»، وأن «الاعتقاد بسذاجة الخصم هو عين السذاجة».

مع أذان الصبح يقعون في حصار. يتناوشون مع المهاجمين، ويخرج بيگ محمد والعم مع حصان گل محمد ليطوقا المهاجمين. يصطاد گل محمد أحد المهاجمين، ويستدرج قائدهم ـ علي إشكين ـ إلى أمام الباب فيصيبه بإطلاقة في زنده بدل أن يقتله، وذلك عمداً. يحذره عمه من إطلاق سراح إشكين قائلاً: «أي امرئ عاقل يترك الأفعى الجريح.. يجرح الأفعى ويطلقها لتتصرف؟ إن في صدرك لقلب أطفال، يا گل محمد! لا يا عمو، لا! عندما ترحم الذئب فإنك إنما تظلم الخروف». وعندما يقول إشكين للعم: «أنت أيضاً ستقتل، يا خان عمو»، تلعلع ضحكة عمو في الفضاء، وسمعه گل محمد يقول جواباً لإشكين: «إنني أعرف هذا، أيها الحمار الشبيه بالرجل! ولكنني لا أدري متى! في أي وقت! الذي أعرفه أنني أؤجل يومه!».

يتناول الناس گل محمد ورهطه بالإشاعات المغالية، مدحاً وقدحاً، وينتشر صيته في كل مكان.

ويعرض الرائد فربخش على ستار أن يطلق سراحه ليرتب هذا لقاءً بينه وبين گل محمد، أينما يريد گل، مقابل أن يغلق إضبارته هو ـ ستار. ونجد فربخش يفهم الناس، فهو يحب گل محمد، ويحترم ستاراً.

يذهب ستار لرؤية رفاقه، ولدى الاستفسار منه عن سبب تهريبه گل محمد يقول بأنه أدرك أن گل معرّض للإعدام في حين أنه لا يستحق «الإعدام على خشبة هذه العناكب». وهو يعلن موقفه من كيفية عمل الحزب في الريف، ورفضه لها، كما يصر على البقاء في المنطقة لأنه الآن فقط بدأ يعرفها، وبدلاً

من دفع شباب الحزب من أبناء المدن لزيارة المنطقة يطلب إصدار جريدة خاصة للريف، بمواصفات تلائم وضعه وروحية ناسه. ويؤيده فربود في موقفه، ويلح عليه أن يعرّف گل محمد بمصير أشباهه من المتمردين وموقف الحكومات الغادر والقاسي منهم. ويوصيه بأن يبقيه حياً أطول مدة ممكنة.

في مقهى الطريق التي مررنا بها مرة، قهوة الخالة سكينة، يتحدث رجل بأخبار رهط گل محمد. ونجد دلاور وسكينة يستمعان، كما أن شيرو موجودة هناك أيضاً. وهي تحدث الخالة سكينة عن أفضال نادعلي على ماه درويش، ولكنها تختم كلامها قائلة: «لست معتادة على خبز الشحاذة. خوفي هو أن أعتاد ـ عند ماه درويش ـ على هذا الخبز. خوفي... لا جعل الله يوماً كهذا من نصيبي».

ويأتي ستار، كما يأتي نادعلي ـ الذي يريد السفر إلى مشهد، والذي يدرك أن ستاراً يسعى للقاء گل محمد.

وعندما ينصرف الجميع، يطلب ستار من الخالة سكينة أن تدلّه على طريق الوصول إلى گل محمد، فيما يطلب منه دلاور أن يبلغ گل محمد بأنه وراءه حتى يستعيد مارال!

ويريد دلاور العمل حاصداً عند ألاجاقي.

أما نادعلي فهو يحاور ستاراً في ما يشبه الهذيان، ولكنه هذيان مشحون بإدراك عميق للروح الفلاحية.

وننتقل إلى إحدى أراضي ألاجاقي حيث نجد «غضنفرا» يحرض زملاءه الفلاحين على أن يأخذوا حصتهم زائداً النسبة المقررة حديثاً، جميعاً وفي وقت واحد، عند الحصاد، كي لا يضطروا لاستجدائها وقت الحاجة من الأرباب،

ويتعرض له العمدة ضامناً ألاجاقي! رافضاً أن يأتي شخص من مبعدة أربعة فراسخ ليثير البلبلة!

وتأتي مفرزة جديدة من رجال الأمن في مطاردة گل محمد ورهطه.

يلحق عباس جان ـ وهو على فرس الأرباب ـ بماه درويش الذي يركب حماراً تقوده زوجته. ويماحك شيرو، وعندما تسأله هذه عن سبب عدائه لگل محمد يجيب: «إن أردت الحق، فإنني أنتبه لنفسي أحياناً وأظن أنني اعتدت بعض الأعمال، أدمنتها. عندما أنظر إلى نفسي، أتذكر العقرب!». إنه يتجسس ويثير الفتن والتوجس. وهو ينقل رسالة من الأرباب ألاجاقي، مدعومة بطلب من رئيس الأمن فربخش، إلى بندار، مؤداها أن يضلل مفرزة الأمن: لا يمنعها من مطاردة گل محمد، بل يجعلها تذهب في الاتجاه الخاطئ، وليشيع في كل مكان أنها جاءت تطارد گل محمد! ويتلفن ألاجاقي لبندار مؤكداً عليه الطلب نفسه فيرسل ابنه أصلان لتنفيذ ذلك، بينما يبعث هذا شيدا إلى مضارب كلميشي ليوصل إليه وأهله تحذيراً من المبيت في المضارب تلك الليلة (وكان شيدا قد فرّ من أسره جالباً معه فتاة أفغانية ساعدته على الهرب عشقاً له).

وإذ يأتي موسى ببعض الطعام لدلاور ـ حسب توجيهات ستار ـ يفاجئهما عباسجان. وبعد انصراف موسى، يغري عباسجان دلاور على العمل في ظل بندار على أرض ألاجاقي والتعاون مع رجال الأمن لاصطياد گل محمد.

وقد رأينا موسى في مناسبات سابقة، وكذلك هو الليلة، حتى بعد هذه الحادثة، كثير الخوف قليل التجربة سرعان ما يفاجأ ويجفل من المفاجأة.

يعود شيدا ليخبر أباه بما أنجز، ولكن بندار يتألم لأن ابنه «رماد نزل من نار!»، ويثقف ابنه بضرورة عدم الاطمئنان إلى أحد، وضرورة ذهابه هو لإبلاغ گل محمد ليحصل على حظوة لديه، منبهاً إياه إلى أن قربان بلوج ربما كان ذات يوم يضع أربعين شخصاً مثل گل محمد في جيبه.

ويرسل گل غنائمه ــ خرافاً وغلاّت ــ إلى بندار وألاجاقي على سبيل الوديعة!

يلتقي ستار راعي گل ويسلمه ناظوراً ــ هدية فربخش إليه ــ ويتفقان على موعد يأخذه فيه الدليل إلى گل.

يتحاور ستار وقربان بلوچ، فيعرف أنه «قربان قوچ»، وينبهه هذا إلى أن أحداً لا يعرف بذلك في هذه الأنحاء، مع أن بندار يعرف أشياء مبهمة، يعرف ما يكفي لكي يخشاه! إنه من المشاركين في تمرد الضباط بخراسان قبيل سنة ١٩٤٥.

ويعود قربان إلى بندار بنقد، علاوة على الحيوانات والغلة، ويطلب منه أن يعد مكاناً وعلفاً لمائة رأس، وذخيرة للأسلحة!

ويعقد ستار جلسة للمنظمة الحزبية تتدارس وقت التحرك للمطالبة بسهم الفلاحين السنوي الاعتيادي زائداً الإضافة الجديدة.

ويعود أصلان من مرافقة مفرزة الأمن، لينبه أباه إلى شرارة وقسوة آمرها ــ الذي يخرّب كل شيء أمامه في تقدمه! مطالباً أباه بأن يفعل شيئاً!

وتحمل لالا (زوجة خال قدير السابقة) شيدا تلك الليلة على مواقعتها دون الاهتمام إلى صحو الأفغانية، بل حتى مراقبتها لهما، عامدة ــ فيما يبدو ــ لتحمل هذه على اليأس منه فتستحوذ هي عليه كلياً لنفسها. فتهرب الأفغانية على البعير الذي جلبها وشيدا من أسره!

يذهب ستار للقاء گل محمد مع دليله إليه: أخيه بيگ محمد. يجدان مفرزة الأمن تتجه نحو محلة ملا معراج، فيختفيان عنها ثم يواصلان طريقهما.

يلتقيان گل محمد ومعه خان محمد، ولكن ستاراً يعجز عن تفسير قصد فربخش من طلب اللقاء بگل.

يشاهد خان محمد، من بعيد، حرق محلة ملا معراج على أيدي مفرزة الأمن، فيتهيأ وبيگ لإطلاق النار، إلا أن گل يمنعهما ويراقب المشهد بالناظور، محذراً أخويه بأنهما إن أطلقا فسيقتل رجال الأمن عشرة من آل ملا معراج. وفيما يحرق قائد المفرزة لحية ملا معراج، يقول گل محمد: «نحن لا نلعب بدماء الناس، كما يرجو رجال الحكومة...»، وإذ يصرّ خان محمد على أسنانه غيظاً، يبكي بيگ محمد، فينتهره گل: «أهي أول مرة ترى فيها ظلماً يقع؟».

وإذ يعلن خان أنه سيقتل الليلة قائد المفرزة وإلا فإنه سينفجر، يبعث گل محمد ستاراً رسولاً إلى ملا معراج ليساعد أهله ويخبره بأن ينتظره على العشاء الليلة.

ويأتون، حسب الموعد، ولو متأخرين. ويلقي خان محمد، دون تحية، رأس قائد المفرزة بين رجلي ملا معراج.

ويجري ستار لگل عملية يخرج بها طلقة من ساقه!

وفي القرية توزع المنظمة الحزبية منشوراتها.

ويطلب قدير، بشكل غير مباشر، من گودرز بلخي ــ الحاصد الممتاز ــ أن يتوسط له عند بندار كي يستخدمه في الحصاد. فإذا ببلخي يدخل ــ لشهامته ــ بيت بندار، هو الذي لو كان أضاع شيئاً في هذا البيت لما عاد لأخذه!

وقد صار من عادة ماه درويش أن يفكر بصوت عال، كما صار يتوهم أنه لا شغل للناس إلا غيبته. ويستغل عباسجان ذلك، فيحرضه للتجسس على علي خاكي والمجتمعين بكوخه في جلسة حزبية.

ونعرف أن عباسجان إنما يراقب بيت خاكي بأمر من بندار.

وإذ يجد عباسجان شيرو يخبرها بأن زوجها ذهب إلى رباط الغجر، بينما هو يدري أنه اتجه إلى بيته، وأن من ذهب إلى رباط الغجر هو شيدا! ملاحقاً

إحدى فتياتهم. تذهب شيرو إلى هناك لتكتشف الأمر بنفسها! ولما تنصرف مغضبة، ويلحق بها شيدا لمصالحتها، يفاجئهما ماه درويش، الخارج من بيت علي خاكي، فيترك زوجته ويرفض الذهاب معها إلى البيت.

ويَستل عباسجان من ماه درويش، بالخديعة، ما شاهده وسمعه في بيت علي خاكي.

ويلجأ ماه درويش إلى گودرز ــ الذي عنفه لأنه تصوره كان يتجسس عليهم ــ ليبيت ليلته عنده. فيما يوصي ستار گودرز بأن ينفتح على اقتراح قدير بمشاركتهم نشاطهم، رغم كل ملاحظاته على قدير، لتجنب عداوته على الأقل.

وعندما يجد شيدا شيرو تجمع أغراضها ويعرف أنها تريد العودة إلى مضارب أهلها، ويخبرها أنه سيذهب إلى هناك أيضاً، تحذره من اللف والدوران حولها هناك، لأنها ستخصيه عندئذ.

ويعرض لنا الكاتب وصفاً حياً للحصاد ومشكلاته، من تسابق الحاصدين ومحاولات اللاقطين التجاوز على أماكن غيرهم وسرقة أحدهم من الآخر. ونجد دلاور اشتغل في بيت بندار.

وإذ يحاول أصلان إبعاد قدير عن الحصاد، بحجة كسله وقلة إنتاجيته، ويحرض الحاصدين ــ بدعم من المتملقين حوله ــ ضده، يتصدى له گودرز، أحسن الحاصدين، متحدياً الجميع أن يحصدوا مثله هو، وإلا فالعار لهم!

وفي إشارة عرضية إلى قيام ابنة گودرز بفرك عينيها، يطلعنا الكاتب على جانب من حياة حاكة السجاد ومعاناتهم.

ولما يأتي ألاجاقي للإشراف على الحصاد، تنغرز سيارته في التراب فيخف الحاصدون ــ خوفاً أو نفاقاً ــ لإخراجها، ولكن گودرز يرفض أن يذهب.

وإذ يخسر نادعلي ما تبقى له، وإذ تموت أمه، يُطرد علي خاكي من العمل في الأرض، بينما تموت أم زوجة گودرز.

يُبلَّغ الفلاحون والحاصدون بأن المحصول الذي حصدوه سيذهب إلى المطحنة ومنها إلى مخزنٍ في (زعفراني) ــ غير محل عملهم ــ وأن عليهم ــ لاستحصال حصصهم ــ أن يذهبوا فيتسلموها من عمدة زعفراني على أربعة أقساط!

يجتمع الفلاحون لبحث هذا الأمر، وينضم إليهم فلاحون من المزارع القريبة أيضاً. يحضر الاجتماع ستار، ومعلم غريب يقرأ النشرة الحزبية ويفسرها للفلاحين، ونفهم أن الأحداث تقع، دقيقاً، سنة ١٩٤٨.

ويدبر قدير أمراً ينتظر، لتنفيذه، أن تخلو القرية من الغرباء!

ويشتعل حريق في البيدر!

ولأن المريب يكاد يقول خذوني، فقدير لا يجرؤ على الخروج بين الناس والتظاهر بالبراءة وتشجيعهم على الإطفاء. ولكنه لما يلتقي بأخيه في البيت، وحدهما، يحكي له هذا قصة ليفهمه بأنه يدري أنه هو الفاعل. ثم يقول له: «لقد تداركتُ الأمر، لا تحمل همّاً! لقد أخذوهم تواً!».

وفعلاً، يتم اعتقال ستار وعلي خاكي، بينما البحث جار عن گودرز!

إن عباسجان يريد استغلال أخيه في قتل أبيهما!

ويدلنا (فلاش باك) في ذهن عباسجان أن فكرة اتهام أولئك جاءته من بندار.

ويعذب رجال ألاجاقي ــ بقيادة ابنه جليل ــ المعتقلين، عقاباً.

وفجأة يتدخل ضابط الشرطة الجديد، لفك قيود ستار وإطلاقه، زاعماً أنه «منّا»!

ويسكت الفلاحون. هل نجحت خطة رجل الأمن في تشويه سمعة ستار (الحزب)؟ أم أن الفلاحين سكتوا نتيجة تحفظهم وخوفهم المعهودين؟

ولكن نادعلي ينتفض فجأة، فيأخذ بندقية أحد أفراد الشرطة ويهاجم الضاربين فيجبرهم على إطلاق سراح المعذَّبين.

ورغم معاناة علي خاكي، يصرف زوجته وبندار لينطلق وحده إلى منزل قدير، الذي يرتجف خوفاً إما يراه، ويضطر للاعتراف بفعلته الشنيعة.

يتركه خاكي، وبينما نسمع صوت أبيه يناديه، يأتيه أخوه ليقول له إنهم يطلبونه.

* *

عندما يخرج عبدوس من السجن تكون شهرة گل محمد قد طبقت الآفاق، لا باعتباره مجرد متمرد سيضطر يوماً للتسليم ليصير سلاحاً بيد الحكومة ضد أبناء الشعب، وإنما بوصفه عيّاراً حقيقياً، له قانونه الخاص، وهو الذي ينفذه.

ثم نجد منادياً ينادي في إحدى القصبات: جاؤوا باللصوص. نعرف أنهما لصان يسطوان على أموال الفلاحين، ظفر بهما گل محمد وأمر باللف بهما على القرى كي يراهما الناس ويعرفونهما.

وعندما يأتي گل محمد إلى الميدان ليشرف على تنفيذ الحكم فيهما، يرى عبدوس إلى كل من جانبيه رجلاً، يعرف عبدوس منهما ستاراً. ولكن هذا سرعان ما يضيّع نفسه بين الناس.

يسأل گل محمد اللصين من الذي يحرضهما على سرقة الفقراء والادعاء بأنهما يفعلان ذلك لحساب گل محمد؟ فيطلب اللص الأول الاختلاء به ليعترف له، ولكن گل يرفض، فيتطوع اللص الثاني قائلاً إنهم أعداؤك، الذين تعرفهم،

ولا أجرؤ على ذكر أسمائهم! ثم يقول الأول إن الأمر غير مقتصر عليهما، وإنما يشمل كل السرقات الصغيرة التي تحصل في المنطقة!

وتحت الضغط والتهديد، وقليل من الضرب، يعترف اللص الثاني بأنهما تعرضا للتهديد بقلع الأظافر إن تطاولا على أموال الأغنياء، وأُفهما بضرورة أن يصورا سرقاتهما على أنها لحساب گل محمد، وأن لسان الآمرين هو نجف أرباب سنگردي، وقد شكلوا حديثاً مجموعة تهاجم بيوت الناس ليلاً وتهتك أعراضهم باسم گل محمد أيضاً. ثم يصدر الحكم: يدار باللص الأول – الذي لم يذكر اسماً للمحرضين – مربوطاً بذيل حصان، ويجلب الذي اعترف إلى المنزل، ثم يجمع الناس الذين سرقت أشياؤهم في الميدان بعد ذلك.

وإذ يغادر گل محمد الميدان، يحاط مرة أخرى بستار والآخر.

وبعد لقاء عاطفي لعبدوس بگل محمد، ثم ستار، نرى ديوان عدالة گل محمد، ولكن قبل ذلك يأتي مأموران حاملين رسالة من فربخش. يقرأها ستار: إنه يوصي گل محمد بطلب الأمان، مذكراً إياه بأنه عمل ما في وسعه لتمييع مطاردته، ولكنه مغضوب عليه هو نفسه الآن.

ثم ينصرف گلٍ للفصلِ في دعاوى الناس: صاحب بستان يشكو الفلاحين الذين يدعون ملكيتهم للأرض وأشجارها، مدعين أنه احتال على أجدادهم وانتزعها منهم. ينتهز خان محمد خروج گل في شأن قادم جديد، ليصرف ستاراً وينفرد بالشاكي فيقبل منه مالاً! (لم يتابع الكاتب هذه المسألة، فلم نفهم المقصود منها: أكان خان ينوي حرف گل عن إقامة الحق في هذه المسألة؟ أكان ينتهز الفرصة لأخذ مال من غني بشكل مجرد؟ أم أنه كان يسعى بذلك إلى مزيد من معاقبته؟!).

وتتعلق شكوى القادم الجديد بمحاولة أحدهم انتزاع أرملة أخيه – التي لم تنقضِ عدتها بعد. يأمر گل أخاه خان بأن يوعز للرجال للتهيؤ للحركة، على أن

يبقى هو. يتناول بندقيته من يد مارال ويستعد للذهاب. في حين يبقى خاله للتحدث مع ابنته و«كسر الغربة» مع حفيده، كما يُبقي أخاه لاستقبال أمه وأبيه.

وينطلق هو إلى محلة الشاكي (سرمزار)، ومنها إلى (سنگرد)، حيث قلعة نجف.

عندما يصل وأفراده إلى سرمزار نعرف أن المتجاوز عمه.

يأمره بارتداء ملابسه وإسراج فرسه. ويستدعي الأرملة، وأخا زوجها، فيأمر هذا: عندما تنتهي عدتها اعقد لنفسك عليها، ولا تضربها!

ومع أن عمه يصحبهم، إلا أنه لا يتكلم معه.

يضعون حرساً حول قلعة نجف، وآخرين داخل بيته. يستدعي گل كل المسروقين وينبههم ــ وعمه ــ إلى أنهم أتوا كي يؤدبوا نجفاً، لذا يجب عدم إراقة قطرة دم واحدة.

يدخلون. من الواضح أن بيگ تولى مهمة الحراسة الشخصية لأخيه ــ كما سنعرف لاحقاً أنه راصد الجماعة ورائدها. يطلب گل نزول حارس السطح ليحتل بيگ مكانه.

يجتمع إلى نجف، وينصحه بتهديد قاس مبطن ــ ألاّ يُدخل نفسه في «هذا الأمر»، ويحذره بأنــ«ــهم» يدفعونه إلى الواجهة، وواضح أنه لم يحسب حساب النتائج، وإلا فمن الواضح أن خسائره أكيدة بينما منافعه، له، مشكوك فيها، وإن حصلت فهي لا تنفعه كثيراً. وإذ يسلم بندقيته لــ«علي چخماق» ــ اللص الذي اعترف ــ ويطلب منه أن يلصق أسطوانتها بصدغ نجف، تثور إطلاقة سهواً ويكاد نجف يموت خوفاً!

يفرض على نجف رد المسروقات، عيناً، نقداً، أو على صورة حنطة

وشعير، إلى أصحابها. ويصر صاحب حَمَل مسروق على استيفاء عجل، وإلا فهو لن يأخذ شيئاً. يفرض گل تعويضه بعجل. وبعد أن يهدد نجفاً تهديداً مبطناً آخر، ينصرف ورهطه دون أن يتناولوا العشاء!

وإذ ينعتق نجف من خوفه الجبان، بعد انصراف گل، مهدداً بعدم السكوت على الأمر، يدله حاج خرسفي على الطريقة: «جاء گل محمد إلى قلعتك فأحرق وقتل ونهب!» وعليه، فلابد من قتل حارسه وإحراق مخزن التبن، وليمت فيه فلاحاه اختناقاً بالدخان! فالقاتل والحارق هو گل محمد! وإذ يتردد نجف لأنهما خدماه وأباه من قبله أكثر من ثلاثين سنة، يواصل خرسفي التحريض مبرراً ذلك بأنه يمكن العثور على مثلهما!

وبالفعل، يقتل خرسفي بنفسه الحارس الشخصي، بينما يحبس نجف ــ وفي معيته البواب ــ الفلاحيْن ويصب عليهما النفط من السطح ويشعل مخزن التبن، بهما.

ويصعد خرسفي سطح القلعة ليصرخ مستنجداً!

وفي طريق العودة، يحاول العم مرة أخرى استدراج گل محمد إلى الحديث، بعد أن صرفه هذا عنه قبلاً، ولكنه الآن يقول له: «كنت سأقتلك يا عمي، لو لم تكن لك عندي حرمة الأبوة والعمومة». وإذ يحاول العم تهوين الأمر بوصفه أنه ضجة من أجل امرأة، يعنفه گل بالسؤال: أهو من أجل امرأة؟ ألا تدري ما أقول؟ ثم يعنفه لأنه استولى على امرأة، وضرب قيّمها، وسكر، وربط فرسه في معلف الناس. لقد تصرف كرجال الأمن! أخيراً، يُفهم العم گل محمد بأنه أدرك خطأه ويعده بألا يكرره.

ويعودون إلى مقرهم السكني الجديد، حيث جاءت الأم، كما جاء قربّان بلوج حاملاً أخباراً: دعوة بندار إياه إلى عرس ابنه، علماً بأن مدعويه كثر

بارزون من بينهم ألاجاقي وربما الرائد فربخش. كما أن ألاجاقي يطلب منه أن يفكر في الحصول على الأمان، وأنه يمكن تدبيره له! ولكنه يكلف مالاً، نحو مائة ألف تومان! (نحو عشرين ألف دولار في تلك الأيام). كما أن ألاجاقي أعاد له أمانته: قرطي زوجته!

وأثناء الحديث بينهما يعرف گل محمد أن «دوست محمد خان» ـــ المتمرد البلوجي، قتله الإنگليز بالحيلة، بينما كان في طريقه لطلب الأمان ـــ الذي هيئت مقدماته سلفاً!

ويستشير گل محمد قرباناً في ما يفهم من ربط هذه الأمور: دعوة العرس، لقاء جهن، ودعوة فربخش له بالذهاب إلى مشهد. ويسأله عن جهن خان، فيجيبه: إنه مهزوم، ولذلك يحقد على الواقفين على أرجلهم! يحقد على ذوي الكبرياء، لذلك يجب اعتباره عدواً، سواء أراد هو قتل گل أم لم يرد!

وينبهه قربان إلى أن من أعدائه أيضاً: بابقلي بندار.

وينتبه گل محمد أيضاً إلى أن قربان بلوج هو «قربان قوچ»: رفيق ضباط خراسان.

وعندما يتركه گل محمد للانضمام إلى أسرته، تنصحه أمه بألا يأكل مع الأغنياء، مع رجال الحكومة، فإنهم لا يرفعونه على أيديهم كي يرتفع وإنما ليتمكنوا من رميه على الأرض! وأن الناس عندما يعرفون أنه يقتل رجال الأمن ويعاشر رؤساءهم وأصدقاءهم لا يدرون ما يصدقون! وتلمح له أن ألاجاقي لا يكفيه مال گل محمد الذي عنده فيريد أن يأخذ مائة ألف تومان فوقه، قبل ذبحه!

ثم تفاتح بلقيس ابنها بأنها أتت بشيرو، وتطلب منه ألا يُخجلها. يتردد ليعرف موقف أبيه فترفض، لأن الحكم الآن صار حكمه! ويحاول إلقاء الأمر

على عاتق عمه وأخويه فترفض: جئتك طالبة الحل منك، أخبرهم أنت! وعندما يستقبل العم وخان وبيگ شيرو استقبالاً بارداً، تتدفق بلقيس في خطبة صادقة حارة مريرة تسوطهم فيها.

ولما تيأس شيرو من قبولها تتصرف، وتخرج الأم من البيت بحثاً عنها، إذ لا تجدها داخل البيت.

يبعث گل محمد عمه للبحث عن بلقيس وإعادتها. ويعنفه وأخويه ـ الذئاب ـ على موقفهم من شيرو، طالباً منهم أن يغيبوا عن عينيه!

ثم ينبه عمه أن عليه الذهاب منذ الغد ليراجع ذوي العلاقة فيفهم ما الذي يعدونه لهم: أغلق فمك وافتح أذنيك!

وعلى أخيه خان أن يذهب إلى المرعى ويرسل له صبراو، وابنه هو، لأنه يريد رؤيتهما. وأن يذهب بعد ذلك إلى مشهد ويقدم نفسه لقائد الشرطة ليفهم ما يريد. والملتقى يوم الجمعة، في مقهى الطريق، حيث اللقاء بجهن خان.

وهو سيقوم بالخفارة الليلة.

ويطرد بيگ محمد من أمام ناظريه.

وإمّا يختلي بستار، أخيراً، يشرح له هذا تطور قصة فلاحي ألاجاقي وحرق المحصول. ويحاول أن يفهمه بأن الملاكين أعداؤه. ولكن گل محمد لا يستطيع أن يتصور ذلك: فماله عندهم، وهم ينحرون له الأبقار والعجول عندما يزورهم!

ويفهمه ستار بأنه مندوب الفلاحين إليه فهم يريدون أن يعرفوا موقفهم. وينبهه إلى أنه لا يمكن أن يُحِقَّ حق كل من يشكو، سواء أكان من الملاكين أو المعدمين، وأنه يمكنَ أن يحرق الملاكون المحصول، وأن الأرض ـ إنصافاً ـ أرض الفلاحين.

ولكن گل يحتقر الفلاحين: إنهم طماعون، متمسكون بالشبر من أراضيهم، جبناء. هل رأيت فلاحاً يتمرد؟ الذي يقتلني أنهم يخافون على شيء لا يملكونه!

ويحذره ستار من أن يصير بين ألاجاقي وبندار من جهة، وجهن والأفغان من جهة أخرى. فألاجاقي وبندار هما اللذان فتحا للأفغان الطريق وهما اللذان يريدان الآن أن يسده لهما گل، الذي سواء قُتل أو قَتل فذلك في صالحهما. وبعد أن يطرح عليه السؤال: أنت مع الفلاحين أم مع عدوهم فلا يلقى عليه جواباً يطرح سؤاله المثير والصادم: لم تحارب؟.

ثم يجري له لقاؤه المدمر الآخر مع زوجته مارال، هذه المرة، عندما يعود إليها آخر الليل: لا يدري من هو!؟ بعدئذ يأخذ ستاراً ويخرجان إلى البرية، وكأنه يريد أن يقتله، دون أن يفهم ستار السبب. ولكن السبب هو أن گل لا يفهم ستاراً، يخافه، يكرهه، يحبه، لا يدري ما يفعل به!

يحسان بوجود غريب في الظلام، يطارده ستار فيخرجه من مكمنه، فإذا به اللص الذي لم يعترف، ويجبر گل ستاراً على قتله. ويفهمه أنه حمله على القتل ليجعله شريكاً حقيقياً!

وعند العودة إلى البيت يفهمان بما فعل نجف من حرق وقتل، فيأمر گل رجاله بالتهيؤ للخروج، وتخرج معه مارال هذه المرة.

* *

تتجه بلقيس بشيرو إلى مرعى العائلة، ويصاب صبراو بالحمى المعاودة من قلة النوم وبرد الخريف، وتعزم بلقيس على إجراء عملية استئصال «جذر» كلميشي: يبدو أنه مصاب بالبواسير.

في الصباح التالي يأتي إلى المحلة شيدا ودلاور.

ولأنه ليس ثمة راع هناك، يأمر شيدا دلاور أن يسرح بالقطيع.

وتهدد شيرو دلاور أنه إن «التف بساقيْ» أخيها فهي «ستُنيم» خنجرها في صدره! وقد شهدناها شجاعة حقاً عند هجوم الأفغان ورمي زوجها.

ويأتي خان محمد، مع عبدوس وأحد الأفراد، في الطريق إلى مهمته، فيجد صبراو مريضاً. وعندما يعرف أن دلاور هناك، وأنه يرعى قطيعهم، يستفزه الغضب فيخرج محدثاً نفسه: أخاف أن أقتله!

وعندما يختلي عبدوس بأخته يتحدثان عن وضع العائلة وانتشار سمعة گل محمد، فنجد الخال مغروراً والأم خائفة، خصوصاً من التأمين المزعوم.

ويحاصَر دلاور بأنظار عبدوس، وسؤال كلميشي: عم تبحث يا دلاور؟

ويعترف شيدا لبلقيس بأنه أتى لاجئاً، وهو خائف.

ويتردد دلاور كثيراً قبل الانصراف عله يرى مارال، ثم يغمره اليأس من رؤيتها من جهة، والعجز من الكلام إن رآها من جهة أخرى، حتى يرى ركباً قادماً، يجد فيه گل محمد ومارال ــ التي يدرك أنها تحمل طفلاً على ظهرها ــ وما يشبه الأسير.

ينزل الرهط عن خيلهم، ويشعل گل محمد ناراً يجتمعون حولها.

وينتظر الأسير ــ نجف ــ أن يقتله گل، ولكن هذا ينكر أن يقتل «ضيفاً»، ويعلمه أنه سيأخذه إلى عرس ابن بندار، فهو مدعو إلى هناك!

ويفهم گل محمد أن جسارة نجف في الكلام إنما هي استفزاز له ليأتي أمراً يحط من منزلته.

يفاجأون بطليعتهم ينادي، فيسرع بيگ محمد، ثم يعود مصطحباً معه مأمورَ أمن حاملاً رسالة لگل. يأخذه گل إلى خيمة. يعلمه المأمور أن قائد مفرزة

مأمورة بجلبه وصلَ إلى مكان قريب وأرسله يطلب من گل محمد الابتعاد عن المحلة، أو يدلّهم بدلالات كاذبة على مكان آخر كي لا يلتقي الجمعان، كما أخبره المأمور بوصول الذخيرة المتفق عليها وأعطاه تفاصيلها ورمز التسلم. أما بقية الأخبار فهي أن إثنين ذهبا إلى مشهد وتطوعا بتسليم گل محمد حياً أو ميتاً! والسبب؟ أنهما عاصيان قاطعا طريق، ثبت لهما أن نشاط گل محمد يسد باب رزقهما! كما أن وجوده يجعل اسميهما باهتين! كما أن فربخش أكد مرة أخرى أن نقله وشيك إلى محافظة أخرى.

وإذ يطلب گل محمد من بيگ رجلين لتسليم المال وتسلم الذخيرة، يتطوع بيگ ليكون أحدهما، فيعنفه أخوه كيف يتكلم من دون أن يفكر! ألا يحتمل أن هذا كمين منصوب له؟! ثم يعلمه بأسفه على إبعاده عمه وخان محمد في تلك اللحظات الحرجة، التي يتربص له فيها الجميع. وينتدب للمهمة ستاراً، ويرسل معه رجلين.

قبل انصراف ستار يسأله گل عما يفعل بنجف، فيجيب: خذه إلى قلعته واشرح للناس ما فعل واترك ذوي القتلى يجرون حكمهم فيه!

ثم تنفرد شيرو بگل، وتقدم له الـ«گزليك» (آلة حادة عريضة الشفرة متعددة الاستعمالات) راجية: «افتح لي طريقي!». فتنحط يده برفق على كتفها، ولا تتمالك الأم نفسها من بكاء الفرح.

ويعود العم، حاملاً خبراً، وأي خبر! أعطوه عشرين ألف تومان ــ ثلث قيمة رأس گل محمد المقطوع! والذي سلّم المال هو فربخش، بحضور ضابط الشرطة الجديد، وشخص آخر بملابس مدنية، وفي مركز الشرطة. ولكن العم لا يتصور أن المال مال الحكومة.

وواضح مرة أخرى أن العم أعمق وعياً من گل، فهو يؤكد أن بندار وراء

المسألة، وأن اختياره هو ــ العم ــ للتنفيذ اختيار ذكي قام به من يعرفهم جيداً ويعرف شؤونهم، فهو أقرب الجميع إلى گل وهو الأكثر اشتهاءً!

وقال بأنه مرّ على ألاجاقي، إلا أن أهل بيته قالوا إنه غير موجود، والعم يعرف أنه يتخفى منه! والسبب؟ لأنه هو وراء المسألة. ــ لماذا؟ لقد طلب مني مالاً للتأمين؟ فيجيبه عمه: كان يمكنه أن يدفع من أموالنا التي عنده، إذن فهو يريد سرقة المزيد!

وعند الصباح، ومارال تحدث گل، تنتبه إلى أن زيور أخذت ابنها إلى البئر، فتفر راكضة خوفاً على ابنها، فتتلقاها زيور قائلة «أنا آخذةٌ ابني» لأغسل له وجهه ويديه، وأنها لن تسمح لها بعد اليوم أن تأخذه معها، فحمله على ظهرها فوق الحصان يمرضه ويتعب أمعاءه.

وينتبه العم عند الإفطار إلى وجود شيرو، فينقل له گل التماسها بالسماح لها بالبقاء، كما يلتمسه هو أن يقنع أباه وأخويه بقبول بقائها بينهم!

وإذ يعود ستار جالباً الذخيرة، وجالباً شاكياً من قرية ما، يعزم گل على الحركة، فيتقدم هو وستار الركب على أن يتبعهما الآخرون. يسأله العم ما يفعل بالمال، فيقول له: وزع نصفه على الأفراد، وسنجد حفراً ينبغي ردمها بالباقي! «أعط كل فرد حاجته، يا عماه! وزّع المال حسب تعداد أفراد عوائلهم. احسب أيضاً حساب أزواجهم وأطفالهم».

يلاقي گل محمد وستار مهجَّري أرض «ميرخان» (الذي سبق أن اشتكاهم لگل محمد وأعطى رشوة لخان محمد). ثم يلحق رهط گل محمد به.

ومع أن العم يرفض أن يساعدوا الفلاحين، إلا أن گل يذكّره بأنهم مشردون.

ثم أن گل يصل إلى وعي: لقد تركه الأرباب، فقد علموا أنه لا يريد أن

يصير قاطع طريق لهم، ولذلك: «فمن أجل ماذا نجلب لأنفسنا سوء السمعة؟». ويدرك هنا أن عمله، حتى اليوم، كان خطيراً: «إن مشكلتنا كانت في أننا استصغرنا عملنا. لقد خاطرنا، ولكن لماذا؟ لم نستطع أن نوضح هذا لأنفسنا. ولم نستطع أن نوضح للآخرين أيضاً هدفنا».

ويتجه إلى قرية امرأة عجوز كان وعدها بأن يزورهم للانتصاف من زوج ابنتها، وبعد أن يفعل ينصرف ورهطه، إلى قرية «ميرخان»، من أجل «وضع القانون وتنفيذ القانون في وقت واحد ويوم واحد. وضع القانون وتنفيذ القانون مقابل القانون... يعني قلب الحياة، جعل الأرضية والسقف في مكان أحدهما الآخر...». ولما يبدأ محاسبة ميرخان، يتذمر هذا لأن گل يجانب الحق إذ يريق ماء وجهه ويتصرف بأمواله ـ الناتجة عن العمل في أراضيه! وإذ لا يجد رحمة يطلب من گل محمد أن يقتله، ولكن گل يرفض، فهو ليس جلاداً. ويكتشف گل أن الشرف والحياء عند الملاكين يعنيان رفاه حياتهم.

ويعزم گل محمد على الذهاب للقاء جهن خان صباح الغد، وعرس ابن بندار مساءه. ويوضح ستار لگل وعمه أن عودة خان محمد ستدلّهم دقيقاً على نيّة الحكومة بشأن رهط گل محمد. ويتواعدون على التصرف على ضوء ما يجيء به خان ـ إن هو جاء.

في يوم اللقاء الموعود، نجد ناد علي قد بات ليلته في مقهى «ملك منصور» ـ محل اللقاء ـ سكراناً، وقد صحا يناجي نفسه الآن. ثم يصحو ستار، وكان نائماً هناك أيضاً. عندما يلتقي بناد علي يتحدثان حديثاً فلسفياً يثيره ناد علي نفسه.

تأتي ملك منصور، حاملة مشترياتها، يساعدها عباسجان حاملاً مشروبات حفل الزفاف إضافة إلى بعض مشترياتها.

يأتي كشافا جهن خان، ثم يأتي كشافا گل محمد.

ينصرف واحد من كل طرف ــ ليبلغ قائده، ولاشك، بأن الكشافين قد وصلوا. وبعد إيصال الخبر، يتفق الباقيان على صورة اللقاء.

يأتي جهن أولاً، ثم يظهر گل بعد إشارة بيگ، من الجانب الآخر. لا يتكلمان، بل يمتحن كل واحد منهما الآخر بالنظر.

يفاجأ گل محمد بأن جهن يحدثه عن السلام والاستقرار وسبب ابتعاده عن فراغ البال، بينما كان يتوقع أن يدور الحديث عن مشكلة بندار وشيدا وطلب «بازخان» ــ رئيس جهن في عصابة التهريب ــ من ألاجاقي وبندار. ولكن جهن يُفهمه بأن ذلك الموضوع انتهى بين باز وألاجاقي، وأنه إنما جاء ليطرح حديثه هو!

لم يكن جهن يرتدي الزي العسكري عبثاً، فهو يحدث گل ــ بأمر من الحكومة ــ عن التسليم ولبسه هو أيضاً الزي نفسه! بينما يحتقر گل ذلك علناً!

في داخل المقهى، كانت مجموعة المطربين قد جاء بها ابن ألاجاقي من المدينةَ ليوصلها إلى عرس ابن بندار، وقد دعا أفرادها الآن للشرب والغناء والرقص. يصحو ناد علي ويكتشف ــ دون أن يقول الكاتب ذلك إلا فيما بعد ــ في الراقصة ابنة عمته، فيجرّها بالقوة إلى باب المقهى، ويتصدى له جليل ألاجاقي ــ إذ اعتبر ذلك تحدياً له ــ وتتشب بينهما معركة يقطع فيها ألاجاقي أذن ناد علي، ولا ينفع استنجاد صاحبة المقهى بگل وستار، فقد وصلا متأخرين.

يطلب نادعلي من گل أن يأخذه معه، مخبراً إياه أنه كان يبحث عنه ليقول له إن «هؤلاء» يريدون أن يفعلوا برأسه ما سبق أن فعلوه بأموال ناد علي. وهنا يعود خان محمد ليخبر گل أن الحكومة تريده هو لا خان محمد.

وفي «قلعة چمن»، والوقت فجر، نجد قديرا قد اغتسل وحلق، فيما أخرج عباسجان أباهما ليشم الهواء، ويبدأ بوسوسة قدير مرة أخرى لقتل الأب.

وعندما تسنح له الفرصة يحاول أن يقتله وحده، فيما قدير نائم، ولكن الأب يحس فيصرخ ويصحو قدير ليجرّ عباساً عن الأب، ويضربه ويطرده من البيت.

وفي الصباح نشاهد استعدادات العرس ببيت بندار، التي يتوّجها نحر قدير ـــ مأموراً ـــ بعيراً: آخر إبل أبيه التي باعها لبندار!

ويعود عباسجان إلى بيت أبيه ـــ لا يدري لماذا بالضبط ـــ ويصارع نفسه للتخلص من خوفها كي يقتل أباه، ويكتشف أنه لايزال ثمة في نفسه شيء: الخوف، ومن أبيه العاجز بالذات! ثم يقهر الخوف في نفسه ويتجه نحو أبيه وينظر في عينيه.

ثم يأتي قدير ـــ لكي يجلب أخاه للمعاونة في إنزال جهاز العروس عن البهائم ـــ فيسأل عباسجان: «أفي وضح النهار؟». ويحاول هذا أن يرضيه بإنجاز المهمة الآن، إلا أن قديرا يأمره بأن يعد ناراً لأبيهما كيلا يقتله البرد، وينصرف.

وإذ يعاود عباسجان محاولة قتل أبيه يدعوه موسى ـــ بأمر من بندار ـــ للمساعدة. يذهب عباسجان، وإذ يجمع فضلات المشروب ويشربها، يتسمع أحاديث السادة في الشكوى من گل محمد، وطلبهم التوجيه من ألاجاقي ورئيس الأمن فربخش.

يعود عباسجان إلى البيت ويشرب من زجاجة سرقها، وإذ تتولد عنده الجرأة، يعزم على معرفة مخبأ مال أبيه، عن طريق تهديده ـــ أو حتى تعذيبه ـــ بسفود محمر! ولكنه يفاجأ مرة أخرى بقرع على الباب، وإذا القادم هذه المرة نادعلي.

وفيما يثرثر ناد علي قليلاً ويشرب، يتفلسف عباسجان فيغفو ناد علي، بينما ينذر عباسجان أباه: «حتى لو من أجل رضا الله فقط، فسأقتلك!».

ويأتي گل محمد إلى حفل العرس.

ويخطف علي خاكي وبلخي عباسجان، وما بين التهديد والترغيب يحملانه على الاعتراف بما سمع من حديث التآمر على گل.

يأخذ الملاكون گل وعمه إلى الغرفة العليا، حيث يحاول ألاجاقي حسم خلافه مع خرسفي، فارضاً على هذا قبول خطبة ابنته لبيگ محمد، طالباً من گل إطلاق سراح نجف. ثم يختلي بگل وعمه فينصح بالتخلص من ستار!

ومجمل طلبات ألاجاقي هي: قتل ستار!، خطبة بنت خرسفي لبيگ، إطلاق سراح نجف والاحتفال بذلك، طلب التأمين لگل، ثم شراء «قلعة كالخوني» لگل!

وهو لم يذكر شيئاً عن محاولتهم إغراء العم بقتل گل، ولم يذكر گل ذلك في حديثه، فيستنتج العم أن كل تلك المطالب ــ الوعود إنما ألقيت على اعتبار أن العم سينفذ القتل.

يرسل گل في طلب نجف فيأتون به إلى الحفل مقيداً ــ كما سبق أن توعده ــ فيسلمه.

ولا يبقى على العشاء، بل يأخذ طعامه وطعام مقاتليه وينصرفون.

ومرة أخرى يعود عباس جان إلى البيت كي يفهم هذه المرة أن أباه ميت، ومنذ الصباح!

وينتقل بنا الكاتب إلى محلة آل كلميشي، التي تتحنّى استعداداً لعرس بيگ محمد.

يأتي موفد من «سيد شرضا تربتي» (وهو متمرد سابق آخر ساوم الحكومة)، فإذا به يلبس بزة عسكرية! ويبلغ گل بأن سيده تلقى أمراً بأن يظفر بگل، تسليماً أو قتلاً!

وإذ يتداول گل مع خان، يقول لهذا إنهم يعدونه بالتأمين أيضاً! إذن فهم يريدون تضليله، وهو واثق أنهم يريدونه، ولكنه لا يدري متى سيهاجمونه.

ويجتمع المجلس العسكري! گل وخان والعم، للبحث والتداول، فيجدون أنهم مطوقون من ثلاثة جوانب، وأن أمامهم طريق فرار! ويتساءل گل محمد: لماذا تركوا لنا هذا الطريق؟ وماذا بشأن عرس بيگ؟ هل رضي خرسفي حقاً؟ إنهم يعلمون بأنه غير راض.

ويفترقون: بيگ وعمه لجلب العروس، وخان مع گل للانتقال بالعائلة إلى مرعى جديد. وإن رفض خرسفي تسليم ابنته؟ ـ سيكون ذلك محكاً، نعرف عندئذ ما ينبغي أن نفعل.

ولكن الأمر الرئيس هو أن گل كان اختار طريقه منذ أول إطلاقة: الحرب.

يصل العم وبيگ، ومعهما ثلاثة فرسان إلى (خرسف). ولكن لا أحد في خرسف! وتدل الآثار على الساقية بأن الحيوانات وردت لآخر مرة أمس. ليس ثمة إلا ثلاث أوزّات. والطاحونة تدور خالية! وفي بيت خرسفي لا توجد إلا دجاجة مع فراخها! ولا يصدق العم أن الناس هجروا بيوتهم وزرعهم ـ طوعاً ـ في هذا الفصل من السنة.

ينتبهون إلى أن امرأة تشير لهم، وكأنها لا تريد أن يراها أحد.

يأتي العم وأحد الفرسان بيتها. يقرع فلا تفتح له. يفتح العم الباب. لا يوجد في البيت غير ديك! يصعد إلى السطح، وفي ما يشبه غرفة هناك يجد المرأة. تخبره أن خرسفي فعل ما أراد! وهو الآن في الإدارة العامة (للأمن) بمشهد، حيث تحصن لاجئاً!

وابن المرأة سجين في غرفة، مقيد، مكمم الفم، لأنه رفض الذهاب إلى

مشهد مع خرسفي، أو إلى البرية كبقية الأهالي، أو أن يحبس نفسه في بيته كالشيوخ والعجائز، فحبسه رجال خرسفي!

يفك العم وثاقه ويسأله إن كان ثمة مثله آخرون، فيجيب بالإيجاب. يطلب منه أن يدور، مع الفارس المرافق، على بيوت القرية ويفك وثاق المحبوسين، وأن يطمن الناس وينادي فيهم معلناً أن ثمة غلة توزَّع نذراً! اليوم يوم العدالة! ويطلب معاول ومجارف، فتجمع له. يطلب من الناس أن يهدموا جدار مخزن خرسفي، فلا يفعلون! يعطي الأدوات بأيدي أشخاص ويأمرهم بالهدم. يدله أحدهم على مكان المخزن الحقيقي. يخرب جداره بيده ثم يدخله. يخرج معلناً للناس أن ثمة كل شيء: أنواع المحاصيل، علاوة على أوعية النحاس التي رهنها الناس عند خرسفي، ويطلب منهم أن يأخذ كلٌ حقه، ولكن الناس لا يتقدمون!

عندئذ، يجبرهم على إخلاء المخازن ونقل الغلات جميعاً إلى الطاحونة. وفي هذه الأثناء يعود بيگ ـ الذي كان ذهب يبحث عن صهر خرسفي ـ به مكتوفا. فيستنطقه العم، وبعد شيء من تعذيب يعترف للعم بأن ألاجاقي وراء كل الأمور، وأنهم يدبرون مؤامرة ضد رئيس الأمن أيضاً، وأنهم يطوّقون آل گل، فعلى هؤلاء أن يختفوا ويبتعدوا لفترة!

يتولى بيگ تنفيذ أمر العم بإلقاء الغلات في النهر!

ثم يلحق العم ومرافقوه بگل. وفيما يدور بيگ بالخيل لينشف عرقها، وگل يتداول مع عمه خبايا عمل خرسفي، يأتي قربان ليخبر گل بأن «تلخابادي» (وهو ملاك آخر) أرسل له سترة من جلد الغنم هدية، وأن فربخش يريد اللقاء به الليلة. ويوضح قربان بأنه يشم رائحة اتفاق الأرباب والحكومة على تضييق الخناق ضدهم. يبلغ گل قرباناً بموعد لقائه بفربخش، على أن يكون هو أيضاً حاضراً! وفي هذه الأثناء يرتفع صوت إطلاقة، ثم أخريات. من بين قطيع غنم

اقترب منهم ثارت تلك الإطلاقات، وقد جُرح مرافق بيگ بينما قتل بيگ أحد المهاجمين، وراح مسلّحوه يبحثون فعثروا على الآخر وجاؤوا به مقيداً: دلاور!

يستجوب العمُّ دلاورَ فيعرف أنه كانت معهما مجموعة رجال ـ لا بد أنها هربت بعد مقتل المهاجم الآخر ـ ومجموعة أخرى كان المفروض أن تهاجم بعد شروع هذه، إلا أنه يبدو أنها انسحبت لفشل البداية.

ويتم اللقاء بين گل وفربخش، وإذا بهذا قادم لتوديع گل محمد، لأنه ـ إذ فشل في تحقيق مهمته ـ تم نقله، ربما مع خفض درجته. وهو لا يَدَ له في محاولة القتل الأخيرة هذه، ولم يكن يستطيع شيئاً مقابل إغراء عمه بقتله. ويبين أثناء حديثه أنه كان يوماً، غير بعيد، ذا طموحات!

وفي المدينة، يلتقي ستار بفربود ـ مسؤول المنظمة الحزبية للمحافظة ـ فيعلمه بأن الأمور مهيأة لقتل گل محمد، وأنه يريد إذناً من الحزب للحاق به بطريقة ما، لأنه إن قُتل گل فلن يعود بمقدوره أن يعمل، بل وحتى أن يعيش! يستنكر فربود ذلك، فهو يجد فيه نسياناً للمبادئ، بل قلباً لها: فهم من أجل الحياة يموتون، ولا يعيشون من أجل الموت. ثم أنهم ليسوا أحراراً مختارين يتصرفون كيفما يشاؤون. ولكن ستاراً لا يريد خيانة گل محمد، وهو يشبّه التخلي عنه بتسليم الحزب سلاحه في تبريز بعد انسحاب قوات «الفرقة الديمقراطية» مع الجيش الأحمر، بعد الحرب العالمية الثانية، مما شجع الجيش الإيراني على تصفية الحزب وإبادة أعضائه وجماهير الشعب بوحشية قليلة النظير في مدينة تبريز.

وفي مونولوج داخلي لستار نتعرف على شخصيته ومكوناتها أكثر: إنه من ضحايا احتلال تبريز، ففيها قتل أبوه وانتهكت حرمة أمه وقتل ابنه واغتصبت زوجته! من جملة عشرين ألف إنسان قتلوا بلا دفاع على أبشع وجه وبمختلف الأسلحة.

ويعلن ستار قراره النهائي، وهو الدرس الذي تعلمه من نكسة تبريز سنة ١٩٤٦: لا تتعاهد، وإذاما تعاهدت فأوفِ.

يحذره فربود بأن السلطات تتحين الفرص للقبض على رفاقه، فكيف يريده أن يجد له طريقاً للمشاركة في عصيان مسلح، دون إعطاء الحكومة مبرراً لتصعيد هجومها؟!

ثم تقع محاولة اغتيال الشاه المريبة في طهران، وتعلن الأحكام العرفية رسمياً فيها، وبشكل غير رسمي في أنحاء مختلفة من إيران، وبشكل خاص في خراسان وأذربيجان.

وقبل أن يذهب فربود إلى العاصمة، حيث استدعي، يصدر تعليماته للمنظمات الحزبية بالانتقال إلى السرية التامة.

ويصور الكاتب اجتماعاً تآمرياً للجنة الأمن يعقد في حديقة قائمقامية سبزاور يوم الرابع من شباط/ فبراير سنة ١٩٤٩: يذهب فربخش إلى القائمقامية، وعلى سلالمها يلتقي ألاجاقي وشمل ياخوت وأحد منفذي هذا ــ حبيب لاشخور قاتل آتش! يدخلون مكان الاجتماع حيث تجري مناقشة التحضيرات للاحتفال في اليوم التالي لمناسبة نجاة الشاه من المحاولة. ويعرض نقيب الشرطة أن أنباءً وردته بأن «المخلين بالأمن» ــ بعد فشل محاولتهم واعتقال زعمائهم في العاصمة ــ يريدون الإخلال باحتفالات الشعب بهذه المناسبة في المدن المختلفة! ويقترح ألاجاقي وملاك آخر تسليم مهمة المحافظة على الأمن بأيدي المواطنين ــ الفرحين بسلامة مليكهم! وتوافق اللجنة، فيوعز القائمقام بتعطيل الباصات العامة أعمالها الاعتيادية للتفرغ لنقل «أبناء الشعب» إلى مكان الاحتفال. وبناءً على اقتراح النقيب يتقرر إطلاق سراح السجناء ــ من المجرمين ــ مؤقتاً، ليشاركوا الدرك والشرطة في التعبير عن فرحتهم! كما

يقبل اقتراحه بضرورة «علاج الواقعة قبل وقوعها» وبأيدي أبناء المدينة! بحيث يتم كل شيء بحلول عصر اليوم نفسه! وعلى هذا ينبغي اعتقال المخلّين هذه الليلة! أسماؤهم جاهزة، وأوامر اعتقالهم موقّع عليها!

يعقد الاحتفال في اليوم التالي، ويقوم ذلك البلطجي حبيب لاشخور إياه بمهمة الخطابة فيه! والخطاب مليء بالتحريض ضد «الخونة»، الذين يجري اصطيادهم والاعتداء عليهم في الشوارع!

يتذكر ستار رفيقه الحداد أكبر، فيسعى ليخبره ويهرّبه، ولكنه يواجه بأوباش ألاجاقي الذين وصلوا تواً، وتسمّره في مكانه عينا قدير! ولكن قديراً يسحبه خفية ويأخذه ليخفيه في مكان ما، وإذ يسعى لتخليص أكبر، بوساطة قدير، يشاهد قميص أكبر الدامي أولاً، ثم أكبر نفسه مشقوق الخاصرة! كما ينهب الأوباش محل رفيقه الآخر، ويركبون دراجاته متبخترين بها!

يذهب ستار إلى مخبأ فربود، فيودعه ويسلمه دفتره الذي دوّن فيه «كل ما تعلمه»، لأنه ذاهب للحاق بگل محمد، كي يكون الوحيد الذي لا يخونه. وفي هذا الوداع العاطفي يرتعش صوت فربود وهو يقول له: «أتمنى لو أمكنني أنا أيضاً أن تكون لي حميّتك... ولكنني حبيس».

وفي مقر گل محمد، يأتيه «سيد شرضا تربتي» ليقنعه بانتهاء أمره وفشل القضية التي يحارب من أجلها، فالفلاحون جبناء، وهم سيتركونه عند قيام الواقعة إذ يجدون من هو أقوى منه. وهو يريد أن يبرئ ذمته، ويخبره بأنه يحترم صداقته مع گل ولذلك ينبهه. إنه لا يطلب بيعته، فهو يعرف أنه لن يعطيها، وإنما يريد أن يكون قتالهما شريفاً وبلا كراهية!

وبعد استيضاح گل محمد منه يقول إن تأخير قتله كان بسبب تفرق الحكومة، والحكومة متحدة الآن: كانت الطلقة طلقة حظ، لا طلقة قتل الشاه!

ثم يبلغ كَل محمد أنه جاء ليسدد بعضاً من دينه له، واعتذر عن العشاء معهم لأن أمامه عمل كثير، فعليه أن يهيئ رجاله للقتال!

وهو كان قال لكَل محمد «إن زماننا انتهى، زمانك انتهى»، وإذ يواجه أريحية كَل الآن فهو يقول له: «إنك لتثير الحسد حقاً، يا كَل محمد!». ثم ينصرف.

ينحر كَل محمد خروفاً سميناً لأهله ورجاله وضيفيه: ستار وقربان بلوج.

يأتي مأمورا أمن. فيطلب كَل إبقاءهما على مبعدة، ويرسل لهما من يتسلم ما عندهما، فهو لم يعد يحب أن يرى مأمورا. ثم يتفرغ لحيدر، ابن ملا معراج، الذي كان ينتظر منذ بعض الوقت. فيخبره هذا، نقلاً عن أبيه، أن السلطات تجمع القادرين على القتال والعارفين بالمنطقة لحشدهم ضده. كما أن الأرباب لم يعودوا يكتفون بالتهديد وإنما هم يؤشرون بيوت أنصار كَل ليبعثوا مرتزقة يحرقون ويسرقون!

وفي انتظار خبر مأموري الأمن يسأل كَل عمه: كم عدد مقاتلينا؟، فيقول له إنهم سبعة وعشرون. يطلب كَل محمد أن يجلبهم إليه فريقاً فريقاً، ويطلب من خان محمد كيس المال.

أما قربان، فالأخبار التي جاء بها سيئة كلها: رفع الأرباب رؤوسهم وأعملوا بفلاحيهم ضرباً وسلباً وتهجيراً. وقد جاء هو نفسه كي يُقتل مع كَل!

وإذ كان حيدر ينتظر موافقة كَل على اقتراح أبيه بتهييج الفلاحين وتحشيدهم، يصرفه كَل على أن يوافيهم هو ـ كَل ـ بالأخبار. وينبهه ستار إلى أن يقبل الاقتراح. وإزاء إلحاحه، وتعجبه من رفض كَل محمد تسليح الفلاحين لمنع الهزيمة، يقول كَل محمد في قولة لمّاحة ذكية: «ليست إراقة الدم ضرورية

للتحقق من الانكسار. لم يُرَقْ في خرسف دم، ولكننا انهزمنا في خرسف. رفضَنا الناس في خرسف. دفعَنا الناس في صدورنا في خرسف».

ويذكر له قربان بالتفصيل القوى المجمّعة ضده. ويجدد ستار طلبه حشد الناس وتسليحهم، ومع ذلك فهو يتجه إلى عمه لمعرفة عدد المقاتلين، ويرمي له بكيس المال، فيغضب خان محمد مطالباً بأن يعرف ما يريد عمله بالمال! وعندما يعرف أنه يريد توزيعه على المقاتلين وصرفهم، يكاد يموت غيظاً.

ويحاول گل إبعاد ستار أيضاً بحجة توجيهه للاهتمام بشخص ما، ولكن ستاراً يفطن إلى ذلك ويقول له إنه إنما جاء ليقاتل إلى جانبه، ليقتل معه، ولكنه يراه يقص أجنحته بيديه! ويقترح عليه ستار أن يهرب فيختفي، إلا أن گل محمد يرفض لأنه «يخاف الخوف» و«يخاف العار من الخوف أكثر». فينصرف ستار لتنفيذ ما كلفه به.

وإذ يأتي أحد مقاتليه ليخبره أن الطبّالَيْن قدما، متصورين أن ثمة عرس، يستقر رأيه أخيراً على إقامة حفل عرس، لذلك المقاتل، وتوزيع الطعام بين الناس.

ويعود ستار ومعه بعض فقراء الفلاحين، طالبين القتال إلى جانب گل، كما يخبره بأن الشخص الذي كلفه بتهريبه قد رفض الهجرة.

يرفضهم گل محمد.

تبلغه «بي بي» (وهي عجوز فقدت ابنها في الخدمة العسكرية فوقفت نفسها على خدمة گل محمد) بأن أبا خطيبة «كاظم» (مقاتله الذي يريد تزويجه) قد عقد لابنته على شخص آخر من المدينة، خفية!

يطلب من مقاتليه أن يُحلّوه، ويعرض عليهم الانصراف!

ثم ينقلب إلى أمه.

وإذ يطلب خان محمد من عمه تفسيراً لما يفعل أخوه، واصفاً عمله بالجنون، يقول عمه: «أتبحث عن العقل هنا؟ إن العقلاء على أرضهم، يفلحون».

وستار أيضاً لا يفهم ما يفعله گل محمد، ويدرك أن معركته تستحيل إلى نزاع وجداني، ولكنه لا يستطيع الانسحاب منها!

ويطرح بيگ على عمه الأسئلة نفسها. ويتوسل العم إلى هذا أن يبقى، فله على الحياة حق! إنه شباب العم، والعم يريده أن يبقى! ولكن بيگ لا يستطيع. وفي هذه الأثناء يأتيهم ناد علي، متعباً هو وحصانه، ليخبرهم أن الأفاعي انطلقت، وربما ستقتلهم الليلة. وهذا كل ما عنده ليقوله لگل محمد.

يستعرض الكاتب أحاديث الناس وشائعاتهم عما جرى في المدينة، وما يجري في الريف. يستغرب الناس صرف گل محمد لمقاتليه، ويقول البعض إنهم هربوا من حوله ليلاً! وعدا عن تجنيد الأهالي، يجمع مقاتلو جهن خان الخبز واللحم والدواب من الأهالي: بحكم جهن خان، بأمر الشاه! ولا يكتفي الناس، خوفاً وجبناً، بالدلالة على الطريق، وإنما يوقع بعضهم ببعض أيضاً! ويعمل المرجفون على إسقاط گل محمد من أعين الناس أولاً، قبل الإجهاز عليه.

وفي الصباح تصحو قلعة گل على بلقيس تعد الخبز. تقترب مارال منها. تنقل لها مارال: أكّد گل على أن تبقى النسوة، وقال إن المأمورين سيأتون إلى هنا، فدلِّوهن على مكان الرجال!

وفي حوار مؤثر بين مارال وبلقيس، تكرر هذه مقولتها المأثورة: «الطلْي الذكر للسكين!».

يأتيهم حيدر ملا معراج مرة أخرى، ويخبرهم أن من بين من يتهيأ لمواجهتهم ــ عدا من يعرفون ــ قوات ألاجاقي! بزعامة بندار! أيضاً.

وقد طلب منه أبوه أن يأتيه بتصميم گل. فيقول له إنهم سينقلون المعركة

إلى الجبل، لأنهم لا يريدون أن يصاب أحد بأذى، فالحكومة «تريد رأس گل محمد، مكسوراً أو مقطوعاً».

وأمام طلب حيدر أن يرافقهم، يرفض گل، ويفهمه أن مافعله وما فكر أن يفعله إنما كان من أجل الحياة! لهذا فهو لا يريد أن يأخذه هو ــ حيدرا ــ إلى معركة نتيجتها اللاحياة. وليس معنى هذا أنه أضاع نفسه، فإن عمله «بدأ بالاضطرار، وبالغرور تواصل». وأنه إذ يفكر في عمله الآن فهو ينوي «في هذه المحلة الأخيرة أن» يتمّه «بالعشق».

وينطلق گل محمد للحركة، فيطلب من أمه الذخيرة، فيما يذهب لتوديع صبراو ــ الذي كان صارع فهداً فدفعه عن قطيعه! يطلب صبراو اللحاق بهم فيرفض گل، بحجة بقائه على رأس النساء. وأمام إصرار صبراو يقول له: إنك ستصير أباً! فيقول هذا: قد علمتُ!

ويحاول أن يُحلّ عمه، بوصفه محباً للحياة، ولكن العم يرفض، في حوار رائع آخر، فيكشف أن الرجل على بساطته البدوية وحسه الغريزي الذكي، شاعر ناضج أيضاً: «لقد علمتُ، وأعلم أن الإنسان لا يعيش بالماء والخبز والهواء فقط. علمت وأعلم أن الإنسان يحيا بالإنسان، أن الإنسان حي بحب الإنسان».

كما أنه لا يوفق في التخلص من مارال وإقناعها بالبقاء، إلا بعد لأي شديد.

وتودع بي بي گل محمد في وداع عاطفي لا يقل بكماً وصمتاً عن وداع بلقيس لبيگ.

ورغم صخب العم في توديعه ابنته وزوجها، إلا أن حرارته كامنة في اقتضابه واقتضاب وصيته!

ثم «تطوف» بلقيس بخان محمد وتأخذه إلى گل، وهناك تودعهما معاً حتى يفكّها العم عنهما.

وفي ذلك الوقت فقط تتم تسمية ابن گل محمد، إذ يسميه العم: گل مد (وهو مخفف محمد).

ونصل آخر أقسام الكتاب: زيور، المفروض أنها ذهبت مع كلميشي وعبدوس إلى مرعى العائلة، كانت انفصلت عنهما وذهبت إلى قلعة سنگرد! تصور المتهيئون لقتال گل محمد أنهم سيستفيدون منها، باستغلال غيرتها، ولكنها إنما جاءت تطالب جهن بالابتعاد عن طريق زوجها، إذ هو لم يكن سيئاً للناس. يطلبون منها أن تدلّهم على مكان زوجها، فتتخيط شفتاها! فيأخذونها أسيرة، إلى «قلعة ميدان» ــ حيث منزل گل وأهله.

يلتقط جهن ابن گل محمد من بلقيس ليحتمي به من بندقية ربما كانت موجهة نحوه! ولكن بلقيس تعنّفه وتعيّره: نعرفك، ما كنت لتضع قدماً هنا لو كنت تظن أن ثمة من يمكن أن يوجه إليك بندقية! كما أن أولادي لا يقتلون أحداً في مضاربهم! فيؤمن على كلامها، وينزل عن مركبه، ويطلب ماءً. تسأله ماذا يأكل رجاله كي تعده لهم! فلا يطلب سوى الماء. ويطلب بندار أيضاً ماءً.

ويطلب جهن من بلقيس أن تُحلّه لأنه سيقتل بلوجيا مثله، كما يطلب منها أن تدله على مكان أبنائها، فتقول له: لو كنت رضعت من ثدي أمك لما طلبت هذا مني!

يصفعها بالسوط يميناً ويساراً، بلا فائدة. يهدد بإلقاء ابن گل محمد في التنور، بلا فائدة أيضاً. فيصفعها مرة أخرى أيضاً. يرجوه ناد علي ألا يحرق الطفل، مقدماً له حصانه فدية. ويتوسل إليه دلاور.

وإذ يخرج صبراو المحموم فيوقع برجال جهن تجريحاً، تطلب مارال من دلاور أن يخلّص ابنها، فينتهز هذا الفرصة ليخطفه من يد جهن ويختفي. ويأمر جهن رجاله أن يرموا صبراو.

وتغطي بلقيس جسد صبراو ــ الذي لا يزال قابضاً على خنجره ــ بجلد الفهد، ثم تسأل جهن: ماذا تريد بعد؟ فيوعز لرجاله بالحركة، معلناً: سنأخذ النساء معنا: زوجتيه وأمه. فتقول له بلقيس: «كنا سنأتي من ذاتنا، أيها القائد جهن!».

وإذ يعيد دلاور الطفل لمارال، يسلم بندقيته لبندار قائلاً: «هذه بندقيتكم، أنا لن آتي»!

ويفر منهم حيدر، بلا حصان، فقد ترك حصانه في الصحراء ــ لأنه سيعرف طريق العودة ــ ويلتحق بگل محمد.

ولكن گل يرفضه، محذراً إياه أن عودة الحصان من غير فارسه تعني شؤماً للأب، وهو لا يريد له الأذى، ويتوسل إليه، ويقنعه، حتى يدفعه عنه!

ثم يطلب إثنين من رجاله ليصرفهم ــ بذريعة إيصال حيدر. يتجاهل عمه وبيگ وستار طلبه، ولا يبقى غير خان محمد وقربان بلوج، فيأمرهما بذلك رغم استنكار خان: «تبعدنا عن المعركة؟».

يحتج خان محمد متسائلاً من أخيه الأصغر: «دعني أبتعد عنكم وأنا مرتاح البال. فقل لي إذن، لماذا تطرحني بعيداً عن وسط الميدان؟»، فأجابه وهو يمد يده نحوه: «تعال نتوادع، يا أخي الخان، تعال نتوادع. إذا كان مقدراً أن يبقى أحدنا، فالأفضل أن يكون أنت. إن حقدك يلائم هذه الدنيا أكثر من حبي. الحقيقة أن فؤادي يريد أن تبقى أنت!».

ولما يرى خان محمد عمه ينهار لخبر مصرع صبراو، يأتي ليودعه فيقول له عمه: «ابق حياً! ابق حياً! اسمع ما يقول عمك: ابق... حياً! أريدك أن تستخدم حقدك. هذه الدنيا التي عرفتها تستحق حقدك أكثر مما تستأهل أريحيتي». ويضيف بأنه أحق من الآخرين بأن يبقى لأنه أدرك خيراً من الآخرين أنه كان عليهم أن يبادروا إلى قتل الأعداء.

وبعد انصراف المجموعة يجلس الآخرون صامتين حزناً على صبراو، حتى ينعر گل محمد نعرة بكاء!

ثم يتدارسون الموقف تكتيكياً، ويقرر العم أن خير وسيلة هي الحملة الليلية، بشرط أن يكون جهن قد بات الليلة في سنگرد، ويرسلون بيگ للتحقق من ذلك.

يروح العم في مونولوج داخلي، بعضه مسموع، ولما يناديه گل ليصحو، يصارحه عمه بأنه كان يتمنى أن يقاتل شاباً مازحاً، ولكنهم سرقوا فتوته ومرحه بلا رجولتهم! وراح يتهدد ويتوعد: لو بقي حياً فلن يكون عنده غير الحقد والقتل.

ومرة أخرى يغريه گل محمد بالهرب، فيرفض، لأن لا حياة له بدون گل وبيگ، إلا إذا شاءت له الصدفة النجاة. وهو لا يأسف إلا على أن گل متعب. فيؤمن گل على كلامه ويخبره أنه إنما أحس التعب منذ عودته هو ـ العم ـ من خرسف. فليلتها فهم كل شيء، وفهم أنه أمام الحكومة، وأن نهايته الفشل: «إذن فقد كنا ـ دون أن ندري ـ نأمر الأرباب أن يعيدوا كل ما أكلوه حتى الآن. لم نكن نقول ذلك، ولكن بنادقنا كانت تقوله... كانت بأيدينا البنادق، ونحارب، وكنا ـ دون أن نسعى إلى ذلك ـ إلى جانب أناس لم تكن عندهم غير أيد خالية وأفواه فاغرة». «فالبنادق لا تستطيع المساومة، البنادق تريد الحق كله ولا تترك مجالاً للصلح والمصلحة. بعد أن تنطلق الطلقة من فوهة بندقيتك لا يعود للصلح والمصلحة إلا معنى واحد. معناه أن كل ما كنت تريده حتى اليوم تضعه جانباً وتعود إلى الوجه الآخر للعملة. يعني أن تصير عاملاً للظلم».

ويؤكد هذه المعاني ذاتها في حوار لاحق مع ستار. كما يؤكد له فكرة استقرت في دماغه وسبق أن قالها: «عانيت أرقاً كثيراً وفكرت طويلاً حتى توصلت إلى هذا المعنى: إنني جئت في الوقت غير المناسب. أتيت مبكراً أو متأخراً، لا أدري. ولكنني علمت أنني أتيت في غير وقتي».

وفي جواب ستار على تساؤل گل لماذا بقي هو إلى جانبه في حين أن لرفاقه خطاً خاصاً ومنهجاً، نجد الجواب عرفانياً متصوفاً حقاً كما قال له، عنه، فربود سابقاً، كما يعلن ستار صراحة بأنه ترك الحزب بعمله هذا.

تقتل زيور حارسها البلوجي وتلتحق بگل، ويلحق بها نادعلي، الذي أربكه هذا القتل فلم يعد يدري ما يفعل!

وفي الجانب الآخر، حيث العدد كثير، تعرب مارال عن أسفها لإنجابها وضرورة أن تكون مع زوجها في هذه اللحظات، ولكن بلقيس تطمنها وتسليها: «إن أردت ألا يسكنه القلق ويتملكه الاضطراب، فعليك أنت هنا أن تستقري. إن اضطرابنا يفرح العدو. إذن فتحملي الألم يا عزيزتي، تحملي».

يشعل گل نيراناً في مواقع مختلفة من مستقره، فيحار جهن والعقيد ــ الذي أوفد خصيصاً لتصفية گل ــ وسيد شرضا. وعندما تُسأل بلقيس عن تعداد أفراد گل تجيب: [«ألف نفر!» فيقول لها جهن: «إن أحداً لا يمازحك، يسألونك كم نفر مع گل محمد؟». فقالت بلقيس مرة أخرى: «ألف نفر، أفلا ترى؟ بعدد الشعلات، أفلا ترى الشعلات؟»].

وفيما يتدارس قادة الهجوم الموقف، تنتبه مارال إلى أن زيور قد ذهبت، ومع أن بلقيس تزعم لها أنها ذهبت إلى المرعى، إلا أن مارال واثقة أنها إنما ذهبت إلى گل محمد، فتسلم طفلها لبلقيس وتنهض. ثم تنطلق فتواجه جهن: «أريد الذهاب إلى حيث زوجي!».

وفي جانب گل محمد، يبلغ هذا خطته ونواياه لعمه وستار: «لن يقع منا في يدي جهن إلا ظروف الطلقات الفارغة». ويثنّي عمه مؤكداً: «حتى ولا طلقة!».

ولما كان القرار أن يقاتلوا إثنين إثنين، فقد ودع گل وستار العم وبيگ، وانطلقا إلى مقرهما.

يصاب گل، ولكنه يطمّن ستاراً إلى أن بمقدوره القتال بعد، وفي هذه الأثناء يرى ستار مارال بمنديل رأسها الأحمر فينبه گل إليها.

ويرى گل البلوج يساقون إلى المعركة، فيما جهن قابع في مكانه البعيد، فيعيّره في داخله، ولا يدري كيف يقتل أولئك المساكين، ولكنه يعزم أخيراً: «ليس ذنبي يا إخوتي!».

ويجد ستار فرصة ليضمد جرح گل، ليجده عميقاً فاغراً فوّار الدم!

ثم يصاب ستار، فيطلب من گل محمد أن يتآخيا بالدم، كما أراد هذا قبل قليل.

ويصيب بيگ من ضابط ركن العمليات مقتلاً، ثم «نظر گل محمد إلى أعلى، فلم يستطع أن يرى من أخيه إلا جزءاً من قذاله وصقيع الرصاص الهاطل حوله. كان المدفع الرشاش قد انطلق شغّالاً مرة أخرى ومن زاوية أخرى هذه المرة. لم يكن گل محمد يبعد ناظريه عن طرف أخيه، كما لو كان أسير سحره ما يزال. لم يكن بمقدوره أن يحرك جفناً أو يسحب نفساً. رعشة، رعشة بالقوة، كان ذلك بيگ محمد الذي راح يتحرك حركة ذات ارتعاش مثل شجرة في مهب الريح. لأن الفتى الكلميشي كان قد أقام جسده ــ تحت مطر الطلقات اللامنقطع ــ ورفع بندقيته فوق رأسه وراح يتناثر. ركع مرة، ثم نهض مرة أخرى، استقام، وفي هذه المرة حصده رشاش جهن. إذن، فقد انقلب بيگ محمد أيضاً من علو التلة التي كان يحتمي بها وتدحرج، تدحرج وهبط ــ مثل كرة من رصاص ــ على شقوق وطيات متن الجبل، وعلق ــ إلى الفوق من ستار وگل محمد ــ على مبعدة عصاه، بأصل صخرة، وبقي على تلك الحال، مفتوح العينين، وجهه بلون العنّاب، وقذاله دام، دون أن يفك قبضة يده عن بندقيته. وارتفع صوت من الصخرة: «أخي».

ولا يتوقف الرشاش عن العمل، وفي هذه المرة ــ في عبوره الأفقي ــ مر على ظهر بيگ محمد فحمله على الحركة بشكل يجعلك تتصور أنه انبعث للحياة مرة أخرى فتحرك. ثم سقط، وفي هذه المرة قرب متراس أخيه».

وإذ يعرف العم أن بيگ قتل، يحس أنه هو أيضاً أصيب بالعمى. فينزل ــ دون اهتمام بالرصاص المنطلق ــ وقبل أن يصاب يرمي البندقية من يده.

وبقيت زيور ومتراس خان محمد يقاومان فيمنعان سرعة حركة أفراد جهن. وفي حين تقدم قادة الفريق المقابل، ويطارد بابقلي بندار حصان مارال ليصطاده، ونجف أرباب قطيع الخراف فيصيب عبدوس ويلقي كلميشي في حفرة، تتصدى له شيرو ببندقية.

يهبط خان محمد لاستخلاص أخيه، ولكن هذا يؤكد عليه أن يفلت كي يرضى عنه! ويلح عليه ويفهمه أن هذا أمره! فيودعه خان محمد، ويودع بيگ وعمَّه مقسماً أن يفي بوعده.

ويجرجر گل ستاراً إلى النبع كي يشرب ماءً، بناء على طلبه، وهناك يموت ستار مطروحاً على وجهه فوق الماء. ويغمى على گل.

يأتي جهن مع أفراده، آمراً إياهم بقطع الرؤوس وحملها بدلاً من نقل الجثث كاملة، فهي ثقيلة. ولكن أحد أفراده ينبهه إلى أن أحدهم حي: گل محمد.

يقطعون رأس العم، وينقلون جثث الباقين فيطرحونها تحت قدمي العقيد، استعداداً لقطع رؤوسها، وإن كان هذا متردداً في ذلك.

يقول جهن لگل إنه يريد إصدار الأمر بقطع رأسه، فهل يريد أن يوصي؟ فيرفض. هل يريد أن يرى أحداً من أهله؟ يرفض أيضاً. ولكن جهن يوغل في العداء، فجلب بلقيس. طلبت بلقيس ماءً، وغسلت شفتي ابنها [ثم أذاقته منه ــ

كان مذاق الماء طازجاً مرة أخرى. غسلت بلقيس وجه ابنها، ونظرت إليه وابتسمت، وقالت: «حلال فيك حليبي، يا ولدي»].

ثم نظرت إلى بيگ محمدها، أبعدت القذال عن جبهته ووضعت قبلة على عين الفتى.

إلى جانب بيگ محمد كان يتمدد ستار، فوضعت بلقيس يداً على جبهته، وأغمضت جفونه نصف المفتوحة، وقالت «ولدي».

ثم ذهبت زاحفة على ركبتيها إلى منام زيور ونظرت إليها. كان وجه زيور النحيف حياً وأنور منه في أي وقت مضى. غطت بلقيس وجه كنّتها بذيل منديل رأسها ونهضت. سلمها جهن رأس العم. أخذت بلقيس الرأس المقطوع، أمسكت به أمام عينيها، وحدقت لحظة في عيني خان عمو المفتوحتين. ابتسمت له وقالت: «مرحى لرجولتك... يا رجل الرجال. مرحى لغيرتك التي كانت». ثم سلمت الرأس المقطوع لجهن وانسحبت. لم تجزع قط. ولكن إذ تحركت لتبتعد، كانت أشبه ما تكون بنتفة تبن يمكن أن يحملها الهواء، وإمّا كانت تنقل خطوها بثقل فذلك لأن وقر الحزن كان ثقيلاً، وإلا فإن بلقيس لم يكن لها وزن. كانت عجوزاً وجوفاء، لأنهم جردوها من ثقل حياتها فما كانت تجر على قدميها شيئاً غير الحزن والعظم].

ويعجز جهن في العثور على من يقتل گل محمد، بمن فيهم قدير وشيدا، وينسحب الأهالي الذين حشدوهم قسراً، ويقتفي أثرهم مرتزقة كقدير. ويأتي نجف أرباب فيقتل گل، أما «بابقلي بندار، فلكي لا يتخلف عن نجف أرباب، هجم بوحشية على جثة ستار وقطع رأسه من الوريد إلى الوريد».

والطبالون الذين أجبرهم نجف على القرع والنفخ، اضطروا «ولكنهم كانوا يبكون وهم يعزفون، وما كان يخرج من البوق والطبل لم يكن لحناً مسروراً،

وإنما على عكس طلب نجف، اكتسب البوق والطبل لحناً حزيناً. كان اللحن على إيقاع الخطى التي تجَرجَر...».

وبلغ الأمر أن انفض الجميع عن الركب، بحيث أن معسكر جهن وزملائه ـ قبل أن يصل المدينة ـ لم يكن بمعيته غير رأس مقطوع وثلاثة رجال مشدودين على أبواب(٥)، وثلاث نساء ساكتات أقعدن على بعير».

يستعرضون الجثث والأسيرات في المدينة. «كانت عيون الكلميشيات قد قرّت، لا يبكين ولا يضطربن. بقيت العيون في قعر أحداقها يابسة ساكنة». كما أن «ثرثرة واستهزاء السفلة، تحت وجه وعيني أم گل محمد الصامتتين، كانت تنقطع أنفاسها شيئاً فشيئاً، والناس ـ عرفوا أو لم يعرفوا ـ في كل خطوة كانوا يقطعونها مرافقةً، وفي كل لحظة يتقدمونها، كان صمتهم يزداد عمقاً وخطواتهم ثقلاً وصاروا ـ من دون أن يعلموا ـ يجرون خطاهم كما لو كانوا يشيّعون ذوي قرباهم».

يصفّون الجثث والرأس. يلتقطون معها صوراً. يلقون كلمة في المتفرجين عن مساوئ الفساد، وانتهى الأمر. دفنوا الجثث على مبعدة من الرباط، وانصرفوا.

«سحبت بلقيس لجام البعير إلى ما فوق قبر ابنيها، وأنامت الحيوان لحظة فوق القبر. استقر البعير ففتحت بلقيس بهدوء منديل رأسها، وجمعت حول يدها ما كان لها من شعر وضفائر فقصتها من الجذور بالسكين، ورشتها فوق القبر. فتحت ماهك (زوجة صبراو، الذي جاؤوا بجثته أيضاً) ونشرت شعرها وقصت ما عندها من شعر وضفائر ثم رشته على القبر. ولم يبق إلا عمل واحد كان ينبغي أن تقوم به بلقيس: ضفيرة شيرو ـ الأمانة. فكت بلقيس عقدة المنديل ونثرت شعر شيرو ـ الذي أودعه بيگ محمد ذات يوم عند أمه تحقيراً ـ على قبر أخويها».

وفي نثر أحلى من الشعر، ينقل الكاتب بحث رفاق ستار، وكلميشي، عن المقتل، واستنجاد شيرو لاستعادة القطيع الذي تعرض للسلب، وخالها المخلَّف جريحاً، و«سَمَن» وهي تبحث عن زوجها خان محمد، ومارال تدعو جمل زوجها للبحث عن محل قتله. لقد استدعى دولت أبادي ــ هنا ــ كل التعازي التي تبكي واقعة كربلاء!

يجتمع موسى وقربان بلوج وناد علي ليحفروا قبرين لستار وزيور، إلا أن مارال تطالب بجسد زيور.

وتقص شيرو ما نما لها من شعر فتنثره على قبر ستار: «كلهم إخوتي!».

ويبعث قربان موسى لمصاحبة مارال، فهو يجب أن يختفي، مؤكداً له أنهما سيعثر أحدهما على الآخر ذات يوم.

ويهدي نادعلي فرسه لقربان كي يهرب بها قبل طلوع الفجر ليختفي أنى يشاء، ولكن هذا يرفض لأنه اعتاد المشي، ولا يريد أن يربط نفسه بالبحث عن علف وماء للحيوان.

ويجلس نادعلي على حجر قرب قبر ستار: «سأبقى جليس ستار الليلة».

وينهي الكاتب روايته ــ كالعادة ــ بتأريخها. ولكنه هذه المرة يضع تاريخين: ١٩٦٨ و١٩٨٣/٤/٩ ــ وواضح أن هذا الأخير تاريخ إعدادها للنشر.

* *

أدرك كم يتلف التلخيص النصوص الأدبية، ولكنني أردت التعريف، فأرجو أن أكون وفقت في تقديم هيكل خارجي كامل لهذه الرواية الرائعة، اكتفى بإراءة هيكلها العظمي دون لحمها ودمها وــ وهو الأهم ــ روحها.

* *

قد يتبادر للقارئ الأجنبي أن الرواية تقليد لـ(إينجه ممد)، أثر الكاتب التركي ياشار كمال الرائع، فموضوعهما واحد، واسم بطليهما واحد. ولكن من يعرف التاريخ الإيراني مجرد معرفة سطحية ينكر ذلك: فتاريخ الشعب الإيراني، على اختلاف قومياته، حافل بالانتفاضات الشعبية الفلاحية والتمردات الفردية منذ تمرد كاوه الحداد على الضحاك، مروراً بقيادة أبي مسلم الخراساني للانتفاضة الناجحة ضد الأمويين، وصولاً إلى «نهضة» ميرزا كوچك خان في غابات گيلان وانتفاضة الشيخ محمد خياباني في تبريز، أوائل قرننا الحاضر هذا، و«قيام» الرائد پسيان في خراسان ثم اتخاذ هذه الحركة قوالب أكثر تنظيماً في تشكيل «الفرقة الديمقراطية» حكومة مستقلة ذاتياً في أذربيجان ـ وإن في ظل الاحتلال السوفييتي ـ هي التي يذكرها كاتب كليدر على لسان ستار وفي مونولوجاته الداخلية ـ وتشكيل قاضي محمد حكومة في كردستان في أواسط القرن. كما يمكن عد عمليات «منظمة الضباط» التابعة لحزب توده منها أيضاً، وكذلك النشاط الفوضوي ـ الإرهابي الذي مارسته منظمة «فدائيان إسلام» بقيادة نواب صفوي، التي نفذت عمليات أصابت النظام بالذعر والشلل فترة ليصحو من تأثيرها فيمارس قمعاً وحشياً جديداً وينفذ الخطط المرسومة لإيران ودورها. أقول، إن هذا التاريخ المليء بالانتفاضات والتمردات يغني أي كاتب عن استعارة فكرة التمرد من تاريخ شعب آخر أو أدبه. وحتى على فرض قيام هذه الاستعارة أو النقل، فإن قصة تمرد گل محمد تبدو لنا، نحن القراء، صادقة أتم صدق لأنها تحكي حياة رعاة إيران وفلاحيها، كرداً وبلوجاً بالخصوص، ويكفي دولت آبادي للدلالة على قدرته أنه أقنعنا بهذا الصدق.

وربما ذكرتنا حركة گل محمد نحو (سر مزار) لفصل عمه عن الأرملة، بتحرك (زاپاتا) ضد أخيه في موقف مشابه في رواية جون شتاينبك، ولكن

التشابه ينتهي عند الحركة نفسها، وقد كسا دولت آبادي تحرك بطله رداءً إيرانياً جعلنا نحسه، ونصدق أنه تحرك إيراني حق، يعني: شرقي وإسلامي: فگل محمد لا يعاقب العم على فعلته بالقتل لأن الإسلام لم يصدر حكماً كهذا، ولأن المجتمع لا يهضم إيصال الأمور إلى هذا الحد من أجل امرأة! وإذا كان المرء يتحرى أوجه تشابه لتفاصيل من هذا القبيل، فإنه سيجد في بحث رفاق ستار عن مقتله لدفن جسده شبهاً ببحث الحواريين عن عيسى إثر اختفائه بعد الصلب، للغرض نفسه، أو ربما ــ وأنا أرجح هذا التشبيه ــ بحث بني أسد عن جثث الحسين وأصحابه ودفنهم بعد واقعة كربلاء، وإن كانت استحالة ستار إلى الصوفية ــ في آخر الرواية ــ ترجح التشبيه الأول.

ولكن التشابه الأشد والأرسخ، هو الذي أقامه دولت آبادي ــ دون أن يذكره طبعاً، وربما أن يقصده أيضاً ــ بين نهاية بطله المتمرد گل محمد وما يرويه التاريخ عن نهاية المأساوية للثائر الشهيد الإمام الحسين، سواء في صرفه مقاتليه قبيل المعركة النهائية، أو في إصراره على المواجهة وهو يعرف نتيجتها الحتمية، أو في ما تبع ذلك من حز الرؤوس وحملها مستقلة للمباهاة واستعراض النساء أسيرات على جمال. ولكن هنا أيضاً، نتلمس هذا التشابه فكرياً، بينما نتلقى الأحداث ووقعها ــ كما تلقاه قبلنا القارئ الإيراني ولاشك ــ سلساً مرياً، دون إقحام، لا لمعرفتنا بمدى عمق تشيع الإيرانيين وانسياب هوى الإمام الحسين إلى نفوسهم، وفيها، فقط، وإنما لأن الكاتب قدمها لنا بأسلوب أقنعنا بأنه ما كان يمكن للأمور إلا أن تتم على ذلك النحو.

* *

في قصص دولت آبادي الريفية ــ الرعوية، وهي الأكثر من بين قصصه، وفيها يتألق، تتميز لغته بسطوع خاص. فهي فارسية/ كردية، بمعنى أنها تضم

مفردات كردية كثيرة يحس هو بالحاجة إلى وضع قاموس لها آخر الكتاب(٦) من جهة، وإنها تستعمل المفردات العربية استعمالاً صحيحاً(٧) من الجهة الأخرى. وهو لا يستعمل هذه اللغة في الحوار فقط، بل وفي السرد والوصف أيضاً. وذلك ما يجده القارئ في رواية كليدر كلها، ولذلك فالتدليل عليه يحتاج إلى اقتباس الرواية جميعاً!

ولكن من الضروري أن نشير هنا، بتأكيد، على الجو البدوي السائد في الرواية، لا من حيث اللغة فقط، وإنما في وصف الشخصيات أيضاً: أحاسيس ونوايا ورغائب:

* «**عما قليل سيجلس خان عمو إلى الخوان فيأكل هنيئاً. خبزاً وسمناً ولبناً، ووراء ذلك سبعة أكواب شاي. ما أحسن من ذلك؟ خبز ساخن وماء بارد وهواء عذب**» (ص١٣٩٤).

* يتداول گل محمد مع قربان بلوج في موضوع موعده مع جهن خان، فيقول گل بأن قربان بلوجي وجهن بلوجي وأن نصف گل نفسه بلوجي أيضاً. فماذا يريد جهن، وماذا يريد هو، قربان؟ بعد أن يحذره قربان من جهن، يقول له بأنه هو **يرهن** عينيه لقاء ما يقوله له. فيجيبه گل محمد: «**يأمرني قلبي** بأن أعتبرك امرء صدق، يا قربان. لا أجدك رجلاً **بادل شرفه ببطنه**. عندك شبع وصبر، مع أنك لم تأكل خبزاً شبعاً. ولهذا يأمرني قلبي أن أعتبرك امرء صدق». فيخبره قربان بأنه ــ شأنه شأن كل إنسان آخر ــ يحب شيئاً، وإن لم يحب فهو يستطيع أن يعيش. ــ وماذا يحب قربان؟: «**الهمّة**، يا گل محمد خان، **الهمّة!** الشيء الذي حتى كثيره قليل للرجل» (ص١٩٢٧).

ويكفي هذان المثالان، والمثال السابق عن فرحة كلميشي بفعلة ابنه بيگ محمد بأخته وزوجها، للدلالة على ما أريد، ولأضف إليها شجاعة شيرو في

المعركة التي أدت إلى تحطيم عظام زوجها، وكل شخصية بلقيس وتصرفها انتهاءً، أو ابتداءً، بقولها «ذَكَر الطلْي للسكين».

* *

وكما عهدنا في كتاباته السابقة، يعتمد التصوير الحسي الملموس، وقد ازدادت قدرته بهذا الصدد في هذه الأثناء:

* «كان نهداها ممتلئين حسني التكوين، **كما لو أنهما طائران متوجّسان يريدان الخروج من صدر ثوبها**. وقد غطتهما ذيول منديل رأسها، **فكان النهدان يتموجان باضطراب في كل حركة**. وكانت شليتتها[٨] **الطويلة تلف نصف دورة** ــ مع كل خطوة، **في انسجام مع تموج نهديها** ــ حول ساقيها...» (ص١١).

* «بقي سؤال الفتى دون جواب. وإذ التفت **لم تر عيناه غير الغبار الذي كان يقوم من تحت حوافر الفرس**» (ص٢٤٢).

* وفي وصف موسى لحاله مع حياكة السجاد «كما لو أن المرء ينحبس بين سدى الحياكة ولحمتها. أحياناً **أتصور أنني أنا نفسي أحاك** في طيات السدى واللحمة. قد لا تصدق، ولكنني في بعض الليالي، عندما أنهض عن الجهاز وأخرج من باب القاعة، **أتصور أنني نسيت نفسي على النقوش**» (ص٨٧٧).

* «كان **التعب** قد أخذ، للتو، **يتصاعد شيئاً فشيئاً من نخاع عظامه. كالعلف إذ ينمو**. خيطاً خيطاً، شعرة شعرة، من قلب التراب يستل نفسه» (ص١٠٤٣).

* «عيناه الصغيرتان ــ **قُل ذبابتين**» (ص١٤٠٢).

* وفي وصف برودة الهواء، الناشئة عن سرعة حركته: «**الهواء لص**» (ص٢١٠٧).

* حتى المشاعر والأحاسيس يجري تصويرها على هذا النحو الملموس.

فهو إذ يصف بخيلاً يقول: «**عندما يمد يده في جيبه تحسبه يمدها على لدغة عقرب**» (ص٢٩٠٤).

وقد برع، في هذه المرحلة أيضاً، في وصف المشاعر ونقل الأحاسيس، وكانت معالجته لها السبب الرئيس في طول الرواية.

* فمارال تدرك، من مراقبتها لخطيبها دلاور في السجن، حاله دون حاجة لسؤال، ولكنها ــ مثله ــ تعجز عن الكلام: «أفانعقد لساناهما؟ لا، كان لسان مارال طليقاً، ولكنها كانت تحس أنها لا تستطيع الكلام. كانت شفتاها ماتتا ولسانها اختنق. كان الإحساس بأن صدرها امتلأ بألفاظ، كانت حتى الآن غريبة عنها، يخنقها» (ص١٧).

* وعندما تفاجئها عينا گل محمد عند البركة ثم يتركها وينصرف: «مارال، المحدقة في ابتعاد الرجل والبعير، سألت نفسها لحظة: لماذا ذهب إذن؟ لم يجر ذلك من شعورها على لسانها، كانت فطرتها وغريزتها تقولان ذلك. ولهذا السبب أيضاً، فعندما انتبهت لنفسها خجلت من ظهور أمنيتها الباطنية. طأطأت رأسها، وجلست لحظة واضعة كوعيها العاريين على ركبتيها، شابكة قبضتيها، ألقت رأسها إلى أسفل، حنت كتفيها وفي شك قاتل انغمرت في غم وتفكير. شك وغم. غم وتفكير. كانت ارتعبت من نظر الرجل غير المتوقع. لو أن الرجل هجم عليها فلربما مزقت عروقه وجلده بأظفارها. كان سيعفرها بالتراب والأشواك. كان سيستولي عليها. حمامة في منقار شاهين. تورد البرعمة وتندعك الزهرة. كان فراش الأرض سيدمى وحصن غرور المرأة سينهدم في خط مؤلم. انهدام الحِمل الذي لم يصل المقصد. برأس مطأطأ أين يمكنها أن تولي وجهها؟ والآن، لم يقع ذاك. ترك الرجل وانصرف، وهذا التفكير الوجل عبَر خيال مارال بسرعة صاعقة، مخلفاً وراءه ميلاً غريزياً نما من الأعماق.

أمنية في الرأس. أمنية حارت مارال من يقظتها فيها: لماذا يجب أن يرفع هذا الميل، هذا الثعبان النائم، رأسه من لفّته؟ أفلم تكن لها ذكرى غرامية مع دلاور؟ أفلم تحل هي ــ مارال ــ دون التفكير الخاطئ نفسه حتى الآن؟ فلأي سبب إذن تريد من قعر قلبها لو أن الرجل لم يهرب؟ أوهام. أوهام. تفكير عبث. قلب التراب ينبض» ( ص ص٤٧-٤٨).

* وتفكر زيور في طول غياب گل محمد: «ولكن لماذا لم يأت گل محمد؟ يجوز أنه بقي في الطريق ليلاً. لا، لا يبقى. لم يكن قلب زيور يريد ذلك. يجوز أنه... يجوز أن گل محمد استدار من هناك واتجه إلى كليدر؟ يجوز، يجوز! كل شيء من أجل حرق فؤاد زيور بالنار ممكن. كل شيء يجوز» (ص٦٦).

* وإذ يعود گل محمد تنهض بلقيس لغسل رأسه، مانعة زيور من القيام بذلك، صارفة إياها إلى تدفئة الشاي لزوجها، داعية مارال ــ قبل زواجه بها ــ وشيرو لمساعدتها هي في الغسل: [الشاي ساخن]. قالت زيور ذلك، ووضعت قدما على عتبة الباب. داخل صدرها كانت نعرة وحشية تلتهب. [دعيني على الأقل أغسل رأس زوجي وشعره. ليت رأسي يذهب إلى القبر!]. ولكن النعرة كانت في رأس المرأة فقط، كانت ترنّ في قلبها وفي عروقها. كانت هي التي تقول وهي التي تسمع... وهذا مجيء گل محمد!

«متى إذن ستتركنه لي؟ انظري كيف يمسحن بالأيدي على رأسه وشعره! كما لو أنه طفل ولدته أمه اللحظة. إنه رجل، يا ناس! اتركنه لزوجته! حسناً، حسناً! خذنه مني. خذنه. اجعلن منه مومياء. احتفظن به داخل زجاجة لأنفسكن! ولكن زوجته أنا. أنا أيضاً عندي أسنان. أستطيع أن أقرقش. لأقرقشكنّ. لأعلكنّ حنجرتك، يا بلقيس!» (ص٧٥).

* وعندما يجد كلميشي أخاه حزيناً خائباً بعد فشل حملتهم لخطف «صوقي»

إلى «مديار»، ويعرف أنهم خسروا فرداً: «[من تعني؟ گل محمد؟]. [ــ «لينقطع لساني. لماذا گل محمد؟ مديار»]. وجد الحزن والخوف لوناً آخر. عينك، لا. فقدت يدك. مات مديار. حسناً، حسناً، إذن، فلم ينقصم ظهرك بعد. گل محمد موجود. لا داعي للغم. ليس الغم كبيراً...» (ص١٩٨).

* وتتمّل رجل كلميشي، فيتلوى من الألم المدغدغ. وينتبه ابنه بيگ محمد فيماحكه. يدفع عصاه نحو قدمه ويدغدغه. يطلب منه الأب أن يكف ولكن هذا يتمادى، فيضطر الأب لملاواة ابنه وأخذ العصا منه بالفن والقوة، حتى يخجل الفتى لأن الشيخ تغلب عليه: «آلم كلميشيٌ ابنَه. أحس نفسه متألماً. كان يتمنى لو أنه لم يتمكن من أخذ العصا من قبضة بيگ محمد. ولكنه قد أخذها. لم يكن ثمة طريق عودة. ولو كان، فأنّى يُعلَم أن العجوز كان سيغفر لنفسه؟» (ص٢٠٦).

* وعندما يروي بيگ محمد لأبيه ما فعل بأخته شيرو وزوجها، بعد فرارها وزواجهما: «أكان صحيحاً؟ أكان هذا صحيحاً؟ جزّ بيگ محمد ظفيرة شيرو النافرة وجلبها معه؟ لا، لم يكن ذاك قابلاً للتصديق! ولكن لم ينبغي ألا يصدّق؟ ينبغي أن يصدق كلميشي هذا. إلى الجحيم بالعمل. اللعنة على أبي العمل. ترك العجوز لجام البغل، خرج من بين التبن. ضغط هدب قباء الفتى بين قبضتيه، وحدق جيداً إلى عينيه ووجهه، وفجأة انفجر رأسه وصدره بضحكة مجنونة. كان كل جسده يرتجف. وإذ صار شجرة دلب عجوز وسط عاصفة غريبة، فقد جرت الدموع من عينيه. مضى إلى باب المنزل ويده في ساعد ابنه. بلسان انفتح بالثناء على ابنه: [قمت بعمل في محله. في محله. حلال حليبك. الكمال لعمرك. أعدت عليّ عمري. إلهي، ربي، خذ مني حياتي وهبها لبيگ محمد. استقام ظهري. ارتفع رأسي. رفعت رأسي يا بيگ محمد. ليحسن إقبالك، يا طليي. لينفتح حظك. ليضئ طالعك. ليسلم بدنك ويصفُ يومك. آهاي.. أيتها

العجوز، أرِ شعرَ النافرة لمارال أيضاً. اجعليها تعلم بين من تعيش! أعدي له شاياً. أعدي لابنك شاياً. وهات «چگورَ»هُ. أريد صوتاً. في هذا المنزل الليلة حفل، هاي!» (ص٥٤٩).

ولغة الكاتب، كما لاحظنا سابقاً، شعرية، ووصفه كذلك:

* «هزات الحصان البطيئة المتساوقة. مداومة وموقعة. إغفاءة. نوم، صمت، نسيان» (ص٤٨).

* «... كانت مارال أيضاً مشغولة بالحياكة في الظاهر، ولكن قلبها كان يتراقص في صدرها. كانت تبدو بلا قرار. مع أنها كانت تعي الكآبة الكدرة التي ألقت ظلها على المحلة، إلا أنها ــ وليكن ما يكون ــ لم تكن تستطيع إبقاء قلبها ونظرها بعيدين عن گل محمد. إذن، فقبل أن يتجه بصرها إلى شغلها ألقت نظرة على گل محمد.

«هكذا ربما يستطيع الورد أن ينمو في البرد. متى كان الحزن والإحباط سدّين أمام العشق؟ إن طبع النار الالتهاب، وطبع الدم الجريان..» (ص ص٤٤٠-٤٤١).

* «أما الآن وقد بخلت الشمس بوجهها على قلعة چمن، أو أن السحاب مدّ على عينيها ستاراً من كدر...» (ص٥٦٨).

وينتشر هذا على صفحات الكتاب كله، كما في وصف قلق شيرو وترقبها قبل فرارها (ص ص١٣٨-١٤٨)، ووصف محاولة اختطاف صوقي ( ص ص ١٦٤-١٨١)، اكتشاف اختفاء شيرو (ص ص١٨٩-١٩٣). وكذلك وصف مصيف آل كلميشي، وأحاسيس گل محمد التي تصور إحباطه تجاه الوباء وفاقة أهله، ومونولوجه الداخلي بعد افتراقه عن عمو مندلو وقد رفض هذا مشاركته، مونولوج شيرو قبل لقائها بزوجها إثر عودتها من بيت ألاجاقي، مونولوج ماه

درويش بعد معركته مع زوجته، مونولوج شيدا بعد طرده ماه درويش، وصف الدور اللئيم الذي يلعبه قدير في تحريك ماه درويش من جانب وتحريض شيدا ضده من آخر، ووصف جبن ماه درويش في كل المواقف، تفكير رهط گل محمد، كل على انفراد، في غارتهم على ابن الخالة، حديث ناد علي مع قدير ــ وهو في الواقع حديثه مع نفسه ــ ومونولوج بندار، بعد عودة شيدا هارباً، وتحليل بندار لما يمكن أن يفعل وإدراكه لعبث ذلك ثم انتقال الكاتب إلى وصف لقاء بندار الفعلي بگل محمد وحديثه معه، وصف تكاثر الإشاعات وتناقلها عن گل محمد ورهطه، مدحاً أو قدحاً.

ولا يتصورنّ القارئ أن إطناب دولت آبادي سرمدي. فهو أستاذ في الاختصار أيضاً:

* «سحب ماه درويش أيضاً قامته الطويلة إلى فوق الحصان. صورة علي الأكبر(٩)» (ص٥٠). = رشيق وسيم.

* وعندما تلجأ صوقي إلى خيمة آل كلميشي، وليس هناك غير النسوة: يحدقن إليها متسائلات، ثم تسألها بلقيس من هي: «لم تترك صوقي النسوة في الظلام أكثر من ذلك. قالت: [لابد أنكن سمعتن اسمي قبل هذا. اسمي صوقي. أنا...].لم تكن ثمة حاجة إلى مزيد كلام. انخدش الليل بذكر مديار، وانطوت النسوة على أنفسهن ولزمن الصمت...» (ص٣١٢).

* وإزاء قلق زيور واضطرابها، توصي بلقيس ابنها: «ما ينقصها هو أنت. لا تتركها وحيدة طويلاً! أدفئها بين وقت وآخر!» (ص١٩٤١).

وإذا كان دولت آبادي ناجحاً جداً في الوصف والسرد عموماً، فهو هنا يستعرض قدرة خاصة على وصف مشاعر الأذلاء الجبناء أيضاً:

* «في جوف المقهى كانت عينا عباسجان تبصبصان وشفته السفلى تبدو

مثل قطعة لباد أزرق تهدلت. وضع گل محمد قدماً داخل المقهى وذهب رأساً إلى جهة عباسجان. كان عباسجان يبدو كالأخرس، وحتى إن أراد أن يقول شيئاً تملقاً فهو لم يكن ليستطيع. إذن، ففي الوقت نفسه الذي سمّر فيه عينيه ـــ الشبيهتين بمسكوكتين عديمتي القيمة، غير ثابتتين وحقيرتين ـــ ضاحكاً ضحكة عديمة الطعم باهتة، على گل محمد، ونسي نفسه بحيث أنه نسي أن يلملم شفته السفلى» (ص٢٢٨٢).

* «سارع سيد، مأمور التلفون، خطاه هو الآخر. ولكنه لم يكن يدري ما يفعل في آن واحد بمنديل رأسه الذي لا ينعقد، بمعطفه الذي كان ينزلق ساقطاً عن كتفيه وبـــ گيوتيه، اللتين كانتا ـــ عند ركضه ـــ تتطايران من قدميه لحظة فلحظة. وقد كان في هذا الاضطراب أن طارت فردة گيوة سيد من قدمه، وسقطت هذه المرة مباشرة في ساقية الماء، فاضطر ـــ رغم الاستعجال الذي كان فيه للذهاب إلى البيت ـــ أن يعود ويأخذ بالركض وراء گيوته ـــ يداً على المنديل ويداً على حاشية ذيل المعطف فوق كتفه ـــ قريباً من جرف الساقية، واضطر أخيراً أن يقفز إلى الماء ثم يخرج ـــ بساقي سروال مبتلين ومعطف مخضل وگيوتين منقوعتين، ويعود ينشغل بعقد منديله وفي الوقت نفسه بالإسراع في مضيه» (ص٢٣٧٥).

كما يقدم نماذج رائعة عن تطابق الأحاسيس والانطباعات مع سلوك الأفراد. فستار لم يكن مهتماً بنجف أرباب، الذي أسره گل محمد وراح يجرجره معه، كما أنه لم يكن مهتماً لما كان يدور بين هذين الإثنين من حديث. ولكنه عندما سمعه يقول عن الفلاحين اللذين قتلهما: «فلاحان صفيقان مثل البعر والدمن المتناثر في طول هذه البلاد وعرضها! كم تريد من هؤلاء الذين أيديهم في أفواههم وبطونهم بأجورهم، كي أوفرهم لك خلال يوم واحد؟»، لم يعد ستار غير مبال: «سحبت

ستاراً ــ ... ــ سريعاً كلماتُ نجف أرباب، فثبت نظره على وضع وجه وعيني نجف، فأحس أن أكثر الألوان على وجه الأرض بعثاً على النفور، هو لون عيني نجف خان سنگردي الأزرق هذا» (ص ص٢٠٨٦-٢٠٨٧).

وقد أقنعنا الكاتب بانسياب گل محمد إلى قلب مارال، رغم خوفها ــ وربما نفورها ــ الأولي منه بسبب اللقاء عند البركة. ربما بسبب موقف بلقيس من زيور، ربما لعقم زيور، ربما لعفاف گل محمد عنها عند البركة، وربما لكل هذه الأسباب مجتمعة، إضافة ــ طبعاً ــ إلى شخص گل محمد نفسه: «قليل الكلام قليل السماع. جبين مغلق، حاد الذكاء، قاطع بطيء الغضب، له طبع الفهود. كان رجلاً ممن يضعون أيديهم على ما يريدون. لا يتيح فرصة كي يملأ طريقٌ طويلٌ الفجوةَ بين أفكاره وأفعاله. كثير التحمل شديد الروح» (ص٢٠٢). حتى أننا لنجد توزع قلبها عند تغلب گل محمد على حصانها، وسيطرته عليه، طبيعياً للغاية: «كانت مارال، المغرورة النشطة، تقف وتنظر. گل محمد و«قره». لحظة مفعمة بالصراع. جانب من تلزم؟ أتكون راغبة في انتصار «قره» أم في تسلط گل محمد؟ تريد هذا أم ذاك؟ في لحظة واحدة أدركت أنها لا تستطيع أن تختار واحداً بين قره وگل محمد. كان لهذين الإثنين قيمة متساوية عند مارال» (ص١١٠). وبعد أن يروّض قره: «لم يكن بمقدورها أن تدرك ما إحساسها الباطني تجاه قره. لقد صار قره وگل محمد معاً. وإن لم يصيرا بعد فسيصيران في هذه السفرة. الحصان، وجد رجله. الحصان والراكب» (ص١١٤). مع أنها لا تزال تفكر في خطيبها: «ولكن، إن طرق هذا سمع دلاور، فأية حال ستصيبه؟» (ص١١٤). وهكذا، فليس غريباً أن تفكر دائماً في گل، رغم أنه «في هذا الأمر ألف عيب! وليكن! أين عينا مارال المبصرتان لتستطيع أن ترى؟ إن العين المبصرة لتضيع في هالة النار والدخان التي تتصاعد من القلب...» (ص٢٥٥).

وإذا كانت الرواية ملأى بالتحليلات النفسانية، وكلها جميلة، فأجملها وصف مشاعر زيور:

* حباً: «... روحي فداك، يا رجل. تعال، مثل أم سأفسح لك تحت جناحيّ. اتساع روحي موطئ قدميك. عيناي تراب طريقك. دُس عليّ. دقّ حافرك على صنحراء روحي. اجر سريعاً عليّ. اضربني بالسوط. لتكن ضفائري زمام حصانك. أهديك روحي. انظر نيابة عني. تنفس. أنفاسي ملكك. زيور دفْعُ بلاء عنك. ولكن لا تمتنع عليّ. لا تهرب. إنني أثلج. أستحيل صخراً يا گل محمد...» (ص١١٩).

* أو غيرة: «ولكنني رأيت أن هذه الفتاة سمّرت عينيها على المعركة بينك وبين قرة. تنصبّ من عينيها نار. مم شوقها؟ إذ جررت نفسك إلى جانب عرف الحصان وجدتها تريد انتصارك. إنها أرادَتْك. تريدك. أدري. أرى. فلست عمياء. ليتك سقطت على جبهتك على الأرض! ليتك انكسرت. متّ. ليتك تموت يا گل محمد، أخرس الله لساني» (ص١١٩).

وكذلك في حرص بلقيس وحذرها ــ لا خوفها ــ على ابنها. فهي تفكر، مثلاً، فيما يجري بينه وبين المأمورين داخل الخيمة، هكذا:

«عسى ألا ينهرهما گل محمد! لا يجب إطالة الحديث مع مأمور الديوان. إنه بلاء. ينبغي تركه يمرّ. مثل الخسوف أو القحط أو الجفاف. ينبغي مداراته والهرب من قبضته في أول فرصة» (ص ص٦٧٩-٦٨٠).

وبقية التحليلات لا تكاد تعد، من ذل ماه درويش، ونفور شيرو منه لذلك، وحقد دلاور، وغرور شمل، وتواضع ستار، ووساوس الأفغاني، بل حتى مشاعر «قره آت» إذ يركبه گل محمد بعد غياب!

كما أن الحوارات رائعة بديعة، وأخص منها ــ مثالاً لا حصراً ــ إضافة إلى المونولوجات التي ذكرتها، حوار گل محمد مع نفسه ليلة عودة أمه وشيرو،

وحواره المفاجئ مع ستار، والمدمر مع مارال، وقوف بلقيس بوجه خان محمد تأييداً وحماية لشيرو! والحوار السلس المفعم بساطة وصدقاً بين العم و«خوجه الأعور» في محلة خرسف، حيث يتجلى وعي طبقي عميق في حديث العم والحقيقة المرة في حديث خوجه، دون افتعال أو شعارات، مع أن الحديث كله سياسي ــ اقتصادي بحت! وما تلاه من حديث للعم مع المرأة العجوز هناك أيضاً، كم هو مقنع لأنه بسيط! وحوار گل محمد مع قربان، الذي يلمّح له فيه أنه صار يشك فيه هو أيضاً، ويثور هذا معبراً عن مرارته وأنفته.

* *

ولكن للرواية هنات: أولها ما يجده القارئ من استباق في إبراز گل محمد على حساب أخيه الأكبر فعمه فأبيه، دون مبرر واضح، ودون عرض مقدمات تؤدي بالقارئ إلى فتح حساب خاص له. ثم تحميل الشخصيات أفكاراً أكبر من وعيها الطبيعي، كما وجدنا عن قدير مثلاً، وكذلك ناد علي وبندار. والتسرع في إيصالنا إلى ما سيجري بين گل ومارال منذ لقائهما في محلة أهله، والخرق الحزبي لستار، الذي أشرنا إليه سابقاً. ربما أمكن الكاتب تفسير ذلك أو تبريره!

ولكن ثمة مآخذ لا يمكن تبريرها قط:

ــ لا يكفي مارال أن تسبح في البركة عارية في وضح النهار، وإنما تتمدد على صخرة بعد السبح!

ــ اطمئنان ماه درويش إلى مارال وتحميلها رسالته إلى شيرو!

ــ اهتمام ستار بگل محمد من «أول نظرة»! ثم محبته لأمه لا باعتبارها مجرد أم، بل لأنها أم گل محمد!

ــ اهتمام ستار وعنايته بدلاور وهو يعرف نواياه ضد گل محمد!

ــ إنقاذ قدير لستار وسعيه، معه، لإنقاذ صديقه أكبر الحداد!

## ١٠ــ الأعمال المسرحية:

وقد كتب دولت آبادي، إضافة إلى القصة القصيرة والرواية وغيرهما، مسرحيات ــ كما ذكرنا ــ طبع منهما اثنتين في كتابين مستقلين: «الشدة، أو الضيق» (١٩٦٢) و«ققنوس» (١٩٧٩).

ولعل استعراض هاتين المسرحيتين يقدم فائدة في إلقاء مزيد من الضوء على الشخصيات التي يخلقها دولت آبادي، والمعين الذي يستخرجها منه، وتصوير حياتها ثم مصائرها:

### أ ــ الشدة (أو الضيق):

مسرحية من أربعة فصول، تحكي حياة ناس يسكنون بيتاً مؤجراً على هيئة غرف مستقلة، قد يكون هو الشدة ــ التي اختارها الكاتب اسماً للمسرحية. وقد تكون هذه الشدة أو الضيق أوضاعهم التي يعيشون فيها. وهؤلاء الناس هم:

ــ آتكه: التي لا تغادر جهاز، أو بالأحرى إطار، حياكة السجاد في السرداب، حتى أنها فقدت لونها وكل بصرها. وأخوها ناصر الأعمى الذي يعزف الكمان مستجدياً ويبحث عن عمل لنفسه ولزملائه في ملهى ليلي ما.

ــ رحمن: الذي مهما عمل يضيع كدّه مع رب عمل محتال، أو بائس هو الآخر. وأخوه نادر.

ــ سيّده: صاحبة البيت (أو مستأجرته كلاً ومؤجرته جزء في الواقع). وزوجها، الذي لا نعرف له شغلاً، وابنها حسين، الحلاق اسماً العاطل فعلاً والذي يعتاش عليها.

ــ غلام، وزوجته ربابه وطفله حسن: ربما كانوا الأكثر بؤساً، فهو يصطاد القمل ليبيعه لمعهد باستور! ومع ذلك تحبل زوجته فيبيع دمه ليغذيها سمناً

كرمانشاهيا[١٠]، ولكنه يُغشى عليه فيأكل السمن في الطريق شيئاً فشيئاً علّه يستطيع الوصول إلى البيت مشياً.

ـ مه جبين وأمها شبه العاجزة وزوجها وثوق، الذي يتزوجها لقاء إعالتها وإعالة أمها مدى الحياة: نفسها متفتحة ولكن حظها عاثر، فبعد أن يعاشرها جلال يتلقفها نادر، الذي يهجرها عندما يُقبل في سلك الشرطة، ليتزوج ابنة عريف فيها، ويفكر في الانتقال إلى بيت أهل زوجته!

ـ وجلال مع أخيه إسماعيل: ذهب جلال ليعمل في المسرح، ولكنهم استخدموه معلنا! وعندما تزعل راقصتهم يطلبون منه أن يحلق وجهه جيداً ليرقص بدلاً منها! وعندما يرفض يطردونه!

ـ وآخرون مثل هؤلاء.

* ويفكر الجميع في مغادرة البيت:

فإسماعيل، مثلاً، يقول: «أنا إن بقيت أسبوعاً أو أسبوعين فسيصيبني الدق»[١١].

وسيده تقول: «كل من يذهب، في أي وقت، أمر حسن. الله معه».

* وبؤسهم متأصل: فعندما تعاتب مه جبين جلالاً:

«لماذا إذن سوّدت مصيري؟». يجيبها مستغرباً:

«أنا سوّدت مصيرك؟ أنت من يوم جئت من [بطن] أمك إلى الدنيا كنت سوداء المصير. لا أنت وحدك، بل كلنا».

وعندما يقول جلال:

«إن ناس هذا البيت يتلفون واحداً واحداً بشكل ما...»، يجيب رحمان:

«إن ناس هذا البيت قد تلفوا منذ دهر، يا أحمق».

وفيما يطارد قصاب المحلة مه جبين ويطلّق زوجته من أجلها، ويوسّط سيده عندها، وتيأس هي من عودة جلال إليها، تتاكد زوجها كي يطلقها، ولكن هذا يرفض التطليق: لأنه لم يُعلفها ويسمّنها كي تتمرد عليه ذات يوم! فتقرر الفرار والابتعاد بحيث لا يستطيع الوصول إليها.

وفيما يغادر ناصر وأخته آتكه البيت فراراً من العار الذي يحسه لاتهام مه جبين لها بالحبل، وسكوت الآخرين المؤيِّد، يأتي أهل جلال وإسماعيل من قريتهم:

«عجوز في لباس ريفي ـ متعب مفلوك، «زوّادة» على الكتف.. ومن ورائه زوجته، وابنته الشابة وأربعة أطفال من السادسة حتى الثانية عشرة من أعمارهم، يحمل كل منهم قطعة أثاث عتيقة..!».

ولنا أن نتصور في أية مباءة كان هؤلاء يعيشون، حتى جاؤوا إلى «الشدة» مفضلينها عليها!

**ب ـ ققنوس (طائر الفينيق):**

وهذه مسرحية «للقراءة» من مشهد واحد، هو مشهد تداعٍ.

قد تكون صعوبة تجسيدها هي ما دفع الكاتب إلى التنبيه على أنها للقراءة، وربما كان قصده أن يهيئ المتلقي نفسه لتفكير هادئ متمعن لا يتوفر معه الانبهار المسرحي.

تدور المسرحية في جلسة تحقيق، يحاور فيها محقق «مثقف» متهماً، ساعياً إلى تخريبه نفسياً: يعرض عليه رقائق زجاجية فيها صور لمعذبين مشوهين، يصاحبها بتعليقات وشروح محطمة للأعصاب.

والمتهم هو (إبراهيم)، ثم (باغچه سرائي)، ثم نعرف أنه (إبراهيم إبراهيمي باغچه سرائي).

لا يزال المحقق يطلب بعض المعلومات، ولا يزال المتهم صامداً. ويخبر المحقق رئيسه بأنه «سيقنعه» الليلة بأن يكشف الأمر، في محل مخصوص، إذ أنه لا يطمئن للجدران التي يحادثه ضمنها الآن! كما أن أم المتهم موجودة هناك!

ونعرف أن المكان، الذي يدور فيه المشهد، هو المكان الذي كان يجتمع فيه المتهم إبراهيم بمتهم آخر ـــ لم نره بعد ـــ هو نور الدين.

ونعرف من سير التحقيق أن نور الدين ـــ النظري، عضو القيادة المركزية ـــ في تحركه لتجنيد الأعضاء يطلب من زميلته في العمل الوظيفي (گوهر) الانضمام إليهم، إلا أنها تعتذر، فيطلب منها أن تدلَّه على أحد ربما يقبل، فتدله على إبراهيم. وهم الثلاثة زملاء في دائرة واحدة. يطلب منها نور الدين استطلاع موقفه فتفعل، ثم تخبر نور الدين بموافقة إبراهيم، فيخبرها أنهم سيتصلون به. وكان «ققنوس» رمز الاتصال.

وقد اعترفت الفتاة بهذه المعلومات عند التحقيق معها، ثم أُطلقت فتزوجت، ونحن نسمع اعترافاتها في فيلم يعرضه المحقق.

ويصرح المحقق لإبراهيم بأن نور الدين، أنفسي، كان متهماً قبل سنوات، وأنه ـــ المحقق ـــ «احتفظ» به لستة أشهر فـــ «استحال» أثناء ذلك، وتعاون معهم.

ونفهم من حديث المحقق (آريا) مع رئيسه (عديم الاسم، مجرد: آقا [= السيد]، وصار آقا من قمصلة ونظارتين رأيناهما)، أنهم ينصبون كميناً لاصطياد نور الدين بوساطة إبراهيم. فهل «استحال» باتجاه مضاد هذه المرة؟

ثم يعلن المحقق تذمره من إبراهيم لأنه صيّره أسيره لمدة أربعة أيام لم ير فيها زوجته وأطفاله! وهو الآن يتحرق على شخص يتحدث إليه، فيطلب من إبراهيم أن يسأله بعض الأسئلة، وبلهجة «آدمية».

وهنا يتم التداعي، حيث نجد نور الدين يحدث الأم، ويظهر إبراهيم على هيئة نور الدين، ثم ينتقل الحديث ليجري بين (إبراهيم) و(إبراهيمي) و(باغچه سرائي)!

ويصل الأمر حد أن نور الدين عندما يتلفن، في التداعي، يعلن له إبراهيمي (مرضه)، ويطلب منه القدوم لإسعافه، بينما يكذِّب باغچه سرائي ذلك، ويعلن أنه لا يحب أن يراه!

ويخرج إبراهيم من تداعياته مستيقظاً، هو وآريا، على صوت التلفون. ينتبه آريا إلى أنه لا يرفع السماعة إلا عند الجرس الثالث، فيقدّر أنه يتعمد ذلك لتنبيه نور الدين، وعلى هذا يقرر التعجيل بموعد «إقناعه»، علّه يستطيع هو أيضاً أن يذهب لرؤية زوجته وأطفاله.

ولكننا نراه بعد التعذيب ـ الإقناع مكسور الكتف، فقد ألقى بنفسه تحت شاحنة عابرة لم يمكن إنقاذه من تحتها إلا بشق الأنفس!

وينتظر آريا وفريق عمله وصول نور الدين، وما أن يصل القادم حتى يرمونه بالرصاص صلياً، ولكن إبراهيم يفرح عندما يراه لأنه ليس نور الدين، ويعلن أن نور الدين لن يأتي. وحين يعلم الـ(آقا) بالموقف، يوعز لآريا بأنه لم يعد بحاجة لإبراهيم، فعليه أن يتخلص منه، ولكن «بعد التتويج».

وفيما يعد آريا حديدة محمية ليسم إبراهيم بعلامة التاج، يتحدث إبراهيم ـ مدفوعاً بحمرة الحديد المحمي ـ عن النار وإبراهيم، حتى لنجده تماهى بالنبيّ إبراهيم نفسه!

وفي حين يسأل آريا إبراهيم إن كان يريد أن يرى أمه فيرفض، يسأل إبراهيم آريا عما يجب أن يفعل لينهي عمله سريعاً.

ـ أمزق قميصك، أسدّ فمك، أربطك على كرسي، وإن أتيحت لك فرصة فلك أن تطلق شعاراً.

وفيما يبادر إبراهيم إلى تسهيل وتسريع مهمة جلاده، يقول له، أغلق فمي، فلو أنني بقيت أبداً فليس عندي ما أقوله، سوى أنني أسمع صوت الشعب الغاضب.

وإذا كان إبراهيم يتلهف، حتى إلى ما قبل قليل، على الماء، وآريا يحرمه منه بناء على الأوامر! يسأله بعد الكي إن كان يريد ماء، ولكن إبراهيم لا يجيبه بغير: الصوت! الصوت! الصوت!

يلملم المحقق ـ الجلاد أغراضه ويخرج، فيلتقي أم إبراهيم الهابطة عن السلالم، وتقترب الأم من ابنها قائلة:

«أنا أيضاً أسمع. أنا أيضاً أسمع صوت الشعب. إبراهيم، إبراهيم، يجب أن أنقلك إلى الشارع».

* *

إذا كان دولت آبادي قد تمكن من طبع «الشدة» ثلاث مرات قبل الثورة، فإن «ققنوس» لم تر النور إلا مرة واحدة بعد الثورة، ثم نامت في أدراج الرقيب بعد ذلك، ولم تخرج بعد.

# الهوامش

(١) العباءة النسائية الإيرانية.

(٢) حمل حمار (خروار)، وحدة وزن مألوفة في إيران تعادل ثلاثمائة كغم.

(٣) وسيلة التدفئة التقليدية الإيرانية. مصدر حرارة يغطى ببطانية أو ما أشبه، يجلس أو يتمدد تحتها أهل المحل.

(٤) جمع «گيوه»، حذاء نسيجي الوجه نعله من جلد مدبوغ طبيعياً. ورقّاع الگيوات لا يرقع القديم منها فقط وإنما يضيف تحسينات على الجديد منها لإطالة عمرها أيضاً.

(٥) استعملت هنا بدلاً من النقالات أو التوابيت، لتيسير حمل الجثث.

(٦) نسي الكاتب، أو ربما الناشر، أن يدرجه في «كليدر»، مع أنه أشار إليه عند استعمال أول لفظة غريبة.

(٧) مع أن الفارسية تضم نسبة عالية من المفردات والتعابير والتراكيب العربية، إلا أن المفردات العربية تستعمل فيها وقد اكتست معنى، أو معاني تختلف ـــ لهذا الحد أو ذاك ـــ عن معانيها الأصلية في العربية.

(٨) «شليته»: تنورة قصيرة نسبياً عريضة، من قماش خفيف، تلبسها الريفيات والبدويات عادة فوق سراويل طويلة.

(٩) فتى الإمام الحسين، وقد استشهد في كربلاء معه، يوصف بوسامته وجمال قوامه.

(١٠) يعتبر آية في الجودة والنقاوة.

(١١) الغم الشديد أو البرحاء، وقد يعني السل أحياناً.

# الفصل الثالث

## هوشنگ گُلشيري

(١٩٣٧ ـ ٢٠٠٠)

ولد گلشيري في مدينة أصفهان لأب، مع أنه كان عامل بناء ماهراً، إلا أن عيشته كانت عيشة قريبة من الكفاف، خاصة وأن عائلته كانت كبيرة نسبياً (سبعة أطفال)، حتى أنه يضطر للانتقال إلى عبادان بحثاً عن عمل، فيبقى هناك منذ سنة ١٩٤٢ حتى ١٩٥٥.

يتعلم الطفل هوشنگ في عبادان، ويعمل في العطلات الصيفية، فمارس مع أخيه الأكبر أشغالاً مختلفة، بما فيها اليدوية.

تعود العائلة في سنة ١٩٥٥ إلى أصفهان، إحدى أجمل مدن إيران إلى حد أنها وصفت بأنها «نصف الدنيا» وكانت عاصمتها على أيام الصفويين، فيتعرف الفتى هوشنگ على مسقط رأسه. ويقوده اهتمامه الأدبي، وبحثه عن النشاطات الإبداعية، إلى جمعية أدبية تكون مفتاح ولوجه إلى حزب توده (= الجماهير، وهو الحزب الشيوعي الإيراني)، حتى يُعتقل شهوراً من أواخر سنة ١٩٦٣ إلى أوائل ١٩٦٤.

يبتعد في ذلك الوقت عن الحزب، معللاً ذلك بانطباعاته السلبية عن أعضاء الحزب نتيجة تعرفه عليهم عن كثب في السجن!

انفصل ومجموعة من الشباب عن الجمعية الأدبية، التي كانت تضم شعراء كلاسيكيين، وأنشأوا جمعية خاصة بهم، وكانوا أول من أدخل «بدعة» قراءة القصة ونقدها في جلسات، كما أصدروا مجلة متواضعة.

في هذه الفترة، يكتب گلشيري روايته الأشهر «الأمير احتجاب»(*) ويقرأها ـ أثناء تطور العمل فيها ـ في الجمعية. ثم يعطيها لناشر، ينام أثناء قراءتها! ولعل غموضها ورتابتها النسبية هما السبب في أن صدورها تأخر حتى سنة ١٩٧٠. ولكن عندما صدرت، سرعان ما أُعِدَّ عنها فيلم حصل على جائزة مهرجان السينما، ثم تعدد طبعها حتى نالت، وعن طريقها كاتبها، شهرة عالمية.

وأصدر بعدها مباشرة، في ١٩٧١، رواية «كريستين وكيد».

اعتُقل گلشيري ثانية، لمدة ستة أشهر، في سنة ١٩٧٤، دون أن يعرف السبب. وبقي لا يعرفه أمداً، مخمناً أنه معاودته النشاط في الجمعية الأدبية في أصفهان. ولكنه سمع لاحقاً أن بقايا الأمراء في أصفهان اشتكوا من روايته «الأمير احتجاب» لـ«أسد الله علم»، وزير البلاط ذي النفوذ، الذي قرر أن «يفركوا له أذنه»! وكان من نتيجة هذا الاعتقال حرمانه من الحقوق المدنية، والحكم بتحريم العمل الحكومي عليه.

نشر في هذه الأثناء مجموعته القصصية «مصلاّي الصغير»، فصودرت نسخ من طبعتها الثانية، ثم مُنعت تماماً. وفي هذه الفترة ذاتها (١٩٧٤ وما بعدها) يعمل محاضراً في كلية الفنون الجميلة.

اشتغل في كتابة السيناريو، فكتب سيناريوهات عدد من الأفلام المأخوذة من قصصه، كما كتب مسرحية «سلامان وآبسال».

---

(*) ترجمتُها مؤخراً، وهي الآن لدى المجلس الأعلى للثقافة في مصر، الذي سيتولى نشرها ضمن المشروع القومي للترجمة.

وفي سنة ١٩٧٧ تصدر روايته «الحَمَل الضّائع للراعي ـ الجزء الأول: دفن الأحياء».

وبعد سعي ومثابرة دائبين استغرقا عشر سنوات منه ومن عدد من زملائه الشعراء والكتّاب، يبدأ «مركز كتّاب إيران» فعاليته، تنظيماً مهنياً ـ ثقافياً للأدباء، في سنة ١٩٧٨. ويسافر گلشيري إلى الولايات المتحدة مدعواً من «البرنامج العالمي للكتابة» ـ وهو منظمة أمريكية ـ ويبقى هناك إلى ما بعد نجاح الثورة وعودة آية الله الخميني بشهر.

يشتغل مدرس ثانوية، ثم محاضراً في كلية الفنون الجميلة، وينشط في «مكتب الدراسات الثقافية»، و«المركز المستقل للعاملين في التعليم». وفي ١٩٨٠ ـ ١٩٨١، إبان «الثورة الثقافية»، يُفصل من الخدمة!

وقبل ذلك، في سنة ١٩٧٩، تصدر له رواية «المعصوم الخامس، أو حديث شنق، ذلك الفارس الذي سيأتي، حياً» (برواية الخواجة أبو المجد محمد بن علي بن أبو القاسم الورّاق المدير، مدوّن الحديث: هوشنگ گلشيري».

وفي سنة ١٩٩١ تصدر له في السويد رواية «في بلاد الهوى» (تفنن في الهزل في سبعة فصول)، وفي سنة ١٩٩٢ يصدر رواية «المرايا ذوات الأبواب»(*)، التي كان كتبها في الولايات المتحدة.

ويضطر مرة أخرى إلى النشر خارج بلاده، فتصدر روايته «كتاب الجن» في السويد سنة ١٩٩٧.

وقد نفدت طبعات كتبه كلها، ولكن لم يسمح بإعادة طبع أي من رواياته عدا «الأمير احتجاب» و«المرايا ذوات الأبواب»، الأمر الذي أوهم كثيرين ـ وأعترف أنني كنت من بينهم ـ بأنه كاتب مقلّ، في مجال الرواية في الأقل.

---

(*) ترجمتُها هي الأخرى وهي تنتظر النشر لدى المجلس الأعلى للثقافة في مصر.

ليس هذا فقط، وإنما جرى تركيز غريب على «الأمير احتجاب» بحيث أن الرواية تماهت مع الكاتب، أو أن الكاتب اختُزل إليها وكأنه لم يكتب غيرها، في حين أنه كتب قصة «المعصوم الثاني» التي يراها الناقد ضياء موحد المقابلَ الإيراني لقصة بورخيس «الإنجيل برواية مرقص»، إضافة إلى عدد من القصص على مستوى أفضل قصص العالم القصيرة.

* *

كان گلشيري يولي أهمية كبيرة للقاءات والمناقشات الوجاهية، فعمل في المنظمات التي نشط فيها على عقد أمثال هذه اللقاءات، وكانت جلسات الخميس الأسبوعية في الجمعية التي أسسها في طهران، للاستماع والنقد، ذات أثر واضح في تربية وتخريج «الجيل الثالث» من الروائيين والقصصيين الإيرانيين، حتى ليقول روائي منهم، هو شهريار مندني پور، إنهم تخرّجوا منها كما تخرج الكتّاب الروس من «معطف» غوغول.

* *

أول ما يلفت النظر في روايات گلشيري قصرها عموماً، وفي أدناه جدول بتعداد صفحاتها كما أورده هو، اعتماداً على طبعاتها الأُوَل:

الأمير احتجاب: ٩٥

كريستين وكيد: ١٣٤

الحمل الضائع للراعي: ٢٢٤

المعصوم الخامس: ٨٢

في بلاد الهوى: ١٥٤

المرايا ذوات الأبواب: ١٥٨

كتاب الجن: ٤٨٠ (استثناء ؟).

وثاني ما يلفت النظر، وفي قصصه أيضاً، اعتماده الكامل والخالص تقريباً على تيار الوعي والاسترجاعات والمونولوج الداخلي، حتى وُصف بأنه أول من أدخل المونولوج الداخلي الحقيقي إلى الرواية الفارسية.

ويرى بعض النقاد أن ما اشتُهر من أعماله الروائية، كالأمير والمرايا وكريستين وكيد هي مجرد قصص طويلة، وأنه لم يكتب غير روايتين: الحمل وكتاب الجن!

وأصدر گلشيري عدة مجموعات قصصية، كما نشر عدداً كبيراً من القصص لم تُجمع في كتاب، وكان نصيب كثير من قصصه، كما رواياته، عدم السماح بتجديد طبعها. وأصدر سيناريو فيلم على أساس قصته القصيرة «المعصوم الأول»، وآخر على أساس ملحمة «إثنا عشر رخّاً» من شاهنامة فردوسي.

وإذا كان گلشيري بدأ شاعراً، فقد واصل كتابة الشعر حتى أواخر ستينيات القرن الماضي. وكتب العديد من المقالات والبحوث في الشعر، الحديث خاصة، وفي النظرية الأدبية ونقد أعمال غيره من الكتّاب، الإيرانيين خاصة.

أضف إلى ذلك بحوثاً في الفولكلور ــ المحلي خصوصاً ــ وفي النصوص الأدبية الفارسية القديمة.

* *

وسأحاول فيما يلي إلقاء نظرة على أعماله الروائية، مذكّراً القارئ بأنني لم أطّلع عليها جميعاً، وقد اعتمدت في عرض بعض أعماله على ما كتبه كتّاب ونقّاد إيرانيون:

## ١ ــ الأمير احتجاب:

أمير من بقية أمراء القاجار[١] السابقين، يجلس في كرسي استراحته ويجتر ذكرياته وهو يسعل، مستعرضاً عزّ عائلته في كنف جده الأكبر، ثم انحدارها إلى أسوأ أحوالها في يومه هو، ويواصل السعال والاستذكار حتى الموت.

إذا كان الجد الأكبر يفتعل الذرائع كي يقتل واحداً من الفلاحين بين أوان وآخر كي يحافظ على الاحترام اللازم له! فقد كان يشترط أن يكون القتل بلا دافع حقيقي، إذ لابد أن يكون الضحية اعتباطياً كي تتحقق سيادته!

وبقي الجد الأكبر أميراً ــ والياً لإقليم كبير ما، رغم أنه لم يقتل غير عشرات، لكن ابنه لم يبلغ ذلك المركز حقاً، مع أنه كان يقتل في الدفعة الواحدة المئات: يسلمهم للمدافع والبنادق بالمئات فينتهون، والسبب في عدم صيرورته أميراً حقيقياً أنه كان ينفذ أعمال قتله تنفيذاً لرغبة الآخرين، أو تملقاً لرغباتهم.

وإذا كان الجد الأكبر يبيح لنفسه أن يقتل أخاه لمجرد أنه طالب بحقه في تركة أبيهما، ويُلحق به زوجته وأبناءه، فإن أبناءه أو أحفاده لم يعرضوا مثل هذه الوحشية.

وفي حين كان الجد الأكبر ينطوي بيته على حريم كبير، ولم يكن يقضي ليلة من دون أن يفترس صبية جديدة، فإن واحداً من أبنائه لم يعرف عنه مثل هذا النشاط، حتى تصل السلالة إلى بطل الرواية، الذي لم يكن عقيماً فقط (إذ لم يخلّف) وإنما عنيناً أيضاً (أو أصيب بالعنة مبكراً). زوجته كان يصيبها الضجر من مغازلاته، حتى لتطلب إليه أن ينتهي سريعاً لأنها تريد أن تقرأ أو أن تنام، وعندما تقرأ له مذكرات جده الأكبر وتشير إلى غزواته الغرامية، تغمزه بأنه ليس فتى هذا الميدان. وكانت تحرضه في البداية على امتلاك حريم، إلا أنها بعد إحساسها اليأس الكامل منه في هذا الميدان ترضى له أن يكتفي بخادمتهما «فخري»، وهي تدري

أنه يكتفي من النوم معها بدفن رأسه في صدرها، والتمدد إلى جانبها، ومطالبتها بلبس ملابس زوجته ـ أرملته، والضحك كضحكتها حية وميتة!

وكما فقد الحفيد قدرة جده الجنسية ـ رمز تسلطه النفساني على فلاحيه ـ فقد أيضاً قدرته المالية، ومعها سلطته القيادية، على موائد القمار، حتى بات يبيع موجودات بيته واحداً بعد الآخر.

إنه ذويّ متعدد الاتجاهات، تام النصاب، حتى إذا ما جاء حوذيه ـ الذي صار نذير موت المعارف والأقارب يبلغه كلما قضى واحد منهم ـ ينعي إليه نفسه، فإن ذلك لا يفاجئنا.

* *

الرواية، كما هو واضح، ليس فيها حدث مباشر العلاقة بشخوصها، وإن الأحداث يتسرب تأثيرها إلى الشخصيات، لكننا نجدها جاهزة لا تعمل الرواية على كشف تطورها. فما الذي أدى إلى الاهتمام الفائق بالرواية على صعيدي النقاد والقراء (طبعت حتى الآن عشر طبعات كانت آخرها سنة ٢٠٠٠ في ٥٥٠٠ نسخة)؟

أكانت هذه الرواية تحكي حقاً أفول السلالة القاجارية، كما يُفهم من القراءة البسيطة لها، وكما فهمها أمراء هذه السلالة الباقون فشكوا كاتبها؟

إذا كانت كذلك، فقد كانت حقاً سعياً مجانياً وجهداً لم يكن له ما يبرره. فقد انتهت تلك السلالة يوم سقوطها في عشرينيات القرن الماضي، غير مأسوف عليها.

أم أنها كانت بياناً، وفي الوقت نفسه إعلان نعي، للنظام شبه الإقطاعي، شبه العبودي الذي كرسته تلك السلالة؟ ربما، ولكنها لم تكن لتستحق وقفة طويلة لأن رضا خان، وقد صار «شاهاً» سنة ١٩٢٥، الذي أسقطها، واصل نظامها الإقطاعي بل شدد وتيرته واستغلاله، ولأن ابن رضا خان، محمد، أعلن

«ثورته» «البيضاء» منذ أوائل ستينيات القرن العشرين، فنقل الزراعة إلى علاقات إنتاج رأسمالية، وبدأت رحلة العلاقات الإنسانية ذاتها تخرج من الأسر الإقطاعي ــ العبودي السابق.

يقول علي رفيعي، معد ومخرج مسرحية عن الرواية: «ليست قصة الأمير احتجاب حكاية السلالة القاجارية. إنها.. مسألة القسوة... وــ عن طريق القسوة ــ مسخ الإنسان وسلب هويته».

أما گلشيري نفسه، فيرفض أن تكون قصة السلالة القاجارية، بل وحتى أن تكون رواية انحلال طبقة الأشراف عموماً، بل يعتبرها «قصة مسخ البشر». ما الذي يحدث لشخص عندما تضعه في حدود سجن العائلة وتقطع كل ارتباطاته بالعالم، فنرى ما الذي يحدث جزءً جزءً..».

وقال في موقع آخر: «إن معرفة الذات ومعرفة الآخر، وكذلك التعرف على تاريخنا نحن الإيرانيين هو الاهتمام الأكثر محورية لهذا العمل».

وفي تقويم آخر لها يقول: «الأمير احتجاب كلها تكنيك بالنسبة لي، كانت استعراض مقدرة تماماً».

* *

انصرف گلشيري إلى دراسة فترة حكم القاجاريين، دون أن يوفر العادات والتقاليد واللغة، وحتى طرز اللباس ووسائل الزينة، سواء للأشخاص أو للأشياء، وعندما فرغ من كتابتها نسي ذلك كله! فقد سأله مترجمها إلى الفرنسية عن معاني بعض الجمل فلم يعرف! لأنه لم يعد في الجو! ويقول هو نفسه: «يسألونني الآن عن بعض المفردات، مثلاً (ابن العم النبيل) ما معناها، أنا لا أعرف، ولكنني كنت حينئذ أعرف، وليس فيها [الرواية] أية كلمة خطأ، يعني أنني كنت أعرف كل مصطلحات دورة آل قاجار».

* *

وعدا عن كون الرواية رتيبة، بالمعنى الذي أوردناه، من حيث عدم وجود حدث يتصاعد، مما يجعل صحيحاً القول «بأنك تتمكن أن تقرأها أنّى فتحتها»، كما قال أحد النقاد، فإن اعتمادها الأساسي على تيار الوعي، وروايتها على لسان فخري، الخادمة ـ الجارية، وفخر النساء، الزوجة، وقراءات فخر النساء في تاريخ الأجداد، أضف إلى ذلك انعدام التذكير والتأنيث في اللغة الفارسية، حتى في الضمائر، يجعلها صعبة القراءة حقاً. لذلك لم يكن عجباً أن يقول گلشيري نفسه: «عندما كنا نعدّ كم شخصاً أعجبتهم الأمير احتجاب في طهران بعد حسيني [ناقد] والآخرين، ثم وصلنا إلى الرقم أربعة وخمسة تعبنا فتركنا العد»!

كما لم يكن عجباً أن الناشر الذي كان يريد أن ينشرها، بعدما سمع الإطراء عليها، فشرع في قراءتها، نام وهو يقرأها! فتأجل إصدارها سنة كاملة!

## ٢ ـ كريستين وكيد:

يصف گلشيري نفسه كريستين وكيد بأنها «رواية في سبع قصص قصيرة متصلة، هي: الدمية الصغيرة، لعبة شطرنج، امرأة بعينيّ، كريستين وكيد، في مركز كروي من المرايا المعرقة، شهر عسل لكيد، والسابع». أما الكاتب والناقد حسين سناپور فيقول: «إنها تروي علاقة رجل أصفهاني بامرأة إنجليزية، من التعارف حتى الانفصال، **قطعة قطعة**، في سبعة مقاطع زمنية مختلفة ومتتالية. الفرق الأساسي بين توزيع كريستين وكيد إلى فصول، بالمقارنة مع الروايات الكلاسيكية، هو تجزئة الفصول واستقلالها النسبي».

إن الفرق الأساسي بين تقسيم فصول كريستين وكيد بالمقارنة مع الروايات الكلاسيكية هو كونها مجزأة ومستقلة إلى حد ما. إن المقاطع الزمنية للفصول مستديمة ومتسلسلة. أي أن الفصول تتقدم وتتأخر على نحو خطي مع أحدها الآخر، وليس في هذا فرق عن التقسيم إلى فصول في الروايات الكلاسيكية. ولكن في الفصول ذاتها أحداثاً لا تروى على أساس التقدم والتأخر الزمنيين للرواية. إن ابتداء كل فصل هو في انتهاء أحداثه. والرواية، أو السرد غير المرتب للأحداث التي وقعت في الماضي البعيد أو القريب يُقدَّم إلى أمام. وعلى هذا يمكن عدّ فصول الرواية «مقطّعة»، بمعنى كون الأجزاء المربوطة معاً متناثرة ومستقلة، أو أنها ــ في الأقل ــ لم ترتب على أساس الزمان المتقدم»[٢].

## ٣ ــ المعصوم الخامس،

### أو: حديث شنق ذلك الفارس، الذي سيأتي، ميتاً:

إذا كان گلشيري يحكي في رواياته المتعددة، وقصصه القصيرة أيضاً، أحداثاً بسيطة بأساليب مجزأة، فإنه في هذه الرواية «لا يتجه أصلاً إلى حياكة أحداث»، كما يقول الناقد منوچهر آتشي.

ويضيف:

«إن أحداث «الفارس الذي سيأتي» تستقر جذورها في المعتقدات الإيرانية القديمة، التي تجلت بصور مختلفة في آداب الــ«أوِستا»[٣] إلى ميدان الآداب الكلاسيكية الفارسية، وأشار إليها شعراء، وبعض كتاب، اليوم... ولكن العمل

الذي قام به گلشيري في «المعصوم الخامس» عمل مختلف، وقائم على حيل لغوية، تستقر ــ في تعبير ما ــ في منطقة الشكلية الحديثة، بل حتى أن شراراتها ما بعد الحداثية تنير ظلمات الأحداث العتيقة. إن گلشيري لا ينصرف في هذا الكتاب قط إلى الحدث. ولكنه يدخل هذه الحلبة بوصفه «مدوِّن هذه الدورة». في تقديري، إن كل ما ينقله گلشيري، في الطيات المتتالية ولكن غير المنظمة من القصة (أو القصص) عن لسان أبو المجد الوراق... أو الآخرين..، هو ثمرة مهارة ذهنه وعمقه»(٤).

«إن گلشيري يفرض، على نحو ما، منذ ابتداء القصة **(التي هي ليست بالقصة)** أسلوبه وسياقه، ونظرته العصرية على القارئ..»(٥).

## ٤ ــ في بلاد الهوى:

«بلاد الهوى، بلاد الجن والأوراد، مقلوب العالم اليومي، بحكومته وقوانينه الصارمة..

«ميرزا يد الله درب كوشكي، ابن الأربع وستين سنة، ينجح بعد أربعين يوماً من الرياضة، حسب تعليمات كتاب استحضار الجن، في استحضار جعفر، الجني المطلوب، كي يحقق له أمانيه العراض في الرخاء والنعيم..».

«بلاد الهوى، موطن الجن والأوراد، مقلوب العالم اليومي، هي تفنن في الكوميديا ــ بحكومتها، قوانينها الغلاظ الشداد وآدابها الخاصة، كما تتكشف جزئياً أثناء الرواية، هي العالم الذهني لعمل أدبي، خلق أدبي للعالم...»(٦).

وإذ تحوي هذه الرواية حدثاً، فإنني سأنقل عن الكاتبة المذكورة هذا العرض:

«جعفر متخصص في حياكة الـ«گيوات»، يعتاش في الأربع والعشرين ساعة على لوزة، ولا يخرج من بدنه فضلات غير الديدان».

«زوجة الميرزا الأولى متوفاة، والأثر الراهن نتيجة عطش الميرزا الشهواني للعنق البلوري، وامرأة جعفر وبنتيه التوأمين، وفي مرحلة ما كل نساء الهوى جئن بأمر جعفر لتمشية عمل الميرزا، ولكن عندما تسقط عباءاتهن نجد لهن ظاهر زوجته الأولى ولباس نومها. يصاب الميرزا بالحمى، وفي حين يسحب أقرباء جعفر خيوط لباس الزوجة الأولى وكل قماش مناسب آخر لاستعماله في حياكة أثر جديد، يكتب بلا انقطاع»(٧).

«تخلص ميرزا من المرض في نهاية القصة، حظه في لعبة النرد، وفي الدنيا التي تقبل عليه بفضل عمل جعفر ومساعديه المستمر، علامة نجاح گلشيري الفني في الكوميديا في «أهل الهوى»..

«والاعتراض الضمني الوحيد للقصة هو على غشاشي الفن والذين يبيعون قيشاني مسجد الشيخ لطف الله في الخارج..»(٨).

## ٥ ــ المرايا ذوات الأبواب:

كاتب يدعوه المهاجرون الإيرانيون، المقيمون في أوروبا، لعقد جلسات قراءة قصصه في أوروبا، وتقترن زيارته بانهيار جدار برلين. يلتقي في باريس بـ(صنم بانو)، الفتاة التي أحبها في صباه وشهد زواجها من غيره. تدعوه صنم للإقامة معها في بيتها الذي يضم ما تدعوه «بيت اللغة» ــ وهي حجرة مكتبة تجمع فيها الإصدارات الحديثة من الكتب الإيرانية ــ كما أنها تشتغل في مكتبة مدينة إقامتها ويمكنها أن تجلب له ما يريد من كتب، حتى غير الموجودة في تلك المكتبة (إذ يمكن طلبها من المكتبات الكبرى) كي يتفرغ للعمل غير منقطع

عن تراثه. ولكن الكاتب يريد أن يعود إلى بلاده، إلى بيته، حيث تربطه زوجته بوقائع الحياة.

وتبدو قصة الرواية شبيهة بسيرة ذاتية، إذ أن گلشيري يتعمد إضفاء إشارات عن شواخص من حياته على شخصية ذلك الكاتب: معالم عبادان وأصفهان ـ حيث ولد گلشيري وعاش وتعلّم، وطهران ـ محل إقامته الأخير، ثم أوربا حيث هو مدعو الآن.

ويعرض گلشيري بطريقة مقطّعة، وبإضافة ما يرويه في القصص التي يقرأها بطله، حياته.

## ٦ ـ الحَمَل الضائع للراعي، و
## ٧ ـ كتاب الجن:

من المؤسف أنني لم أعثر على هذين العملين، اللذين يعتبرهما أكثر نقاده ـ وخاصة الأخير منهما ـ الروايتين الوحيدتين له، ويعتبرون ما ذكرناه آنفاً مجرد قصص طويلة. ولم أقرأ ما يمكن التعرف بوساطته على محتواهما.

* *

إلا أننا إذا أردنا أن نقيس على ما سبق، فإننا لن نجد فيهما أيضاً، أي حدث يتصاعد ليكوّن رواية بالمفهوم الذي ألفناه.

ولذلك، يفرض هنا سؤال نفسه: كيف لنا، ومن قبلنا النقاد، أن نعتبر گلشيري روائياً إذن؟ أين فنه القصصي إن لم يكن لقصصه ورواياته حبكة تتطور؟ كيف يمكن تقويم منجزه في حقل القص إن لم يكن يقصّ؟ وتفريعاً على هذا السؤال: أكان مرشحاً حقاً لجائزة نوبل؟ كما نُشر عنه أكثر من مرة.

لابد من التذكير بأن گلشيري كان يقص: أي أن في قصصه ورواياته موضوع، ولكنه في رواياته لا يصور لنا حركة هذا الموضوع، تطوراً فيه، بقدر ما يلقي عليه أضواء من زوايا مختلفة فيزيد معرفتنا به. ويمكن توضيح ذلك بصورة أكثر عينية في هذه المقاطع من روايته «الأمير احتجاب»:

* «تضع فخري عصابة الرأس المثلثة في جيب مريلتها، تغير قميصها، تجلس أمام المرآة وتزوّق وجهها سريعاً، تمشط شعرها وتذهب إلى غرفة الطعام، فتجلس أمام الأمير، وهو يتناول عشاءه، وإما يصعد الأمير إلى فوق تجمع فخري الأطباق وتغسلها، وتزوّق فخر النساء نفسها وتدخل غرفة النوم ليظهر الأمير حوالي منتصف الليل ويقول بصوت خفيض: نائمة يا فخر النساء؟..».

* «رفعت الخوذة ووضعتها على المنضدة. كانت الرفوف ملأى بالأشياء الصغيرة. ضربتها بالمنديل. عندما ارتفع الغبار تراجعت إلى وراء، قالت: **أفمات هؤلاء الخدم والخادمات؟** قلت: **لقد أمرت ألا**... كان المفتاح عندي. وضعت أصبعاً تحت ذقني. رفعت رأسي. كان أصبعها طويلاً، مثل جسدها الذي كان بكل تلك البرودة وذلك البياض. طويلاً وبلا دم. كان ثدياها صغيرين ومدوّرين وشعرها ناعماً. كانت قالت لي: **إنني أحب الظلام، أيها الأمير، قبل أن تأتي إلى فوق السرير، تذكر أن تطفئ ذلك المصباح**. نظرت إليها، نظرت إليّ محدقة. كان أصبعها تحت ذقني: **أمرت، ها؟ فلايزال ثمة دم أجداد فيك**. قلت: «**أمام فخري في الأقل**..» ضحكت: **تخاف من فخري، ها؟ إنها بنت وديعة، أيها الأمير**. مسدت بيدها على شعر فخري. جمعت فخري كتفيها. راحت تنظر إلى زهور السجادة. قالت فخر النساء: «**عزيزتي فخري، غداً عندما تنفضين هذه سأعلمك كيف ترتبينها جميعاً. إن ممسحة الباب هذه صغيرة جداً. خذي الكتب إلى غرفتي**». ـ

* «قال الأمير: **كانت سندات الملكية في يد عمّ أبي. وكان الأطفال أيضاً**،

**حتماً، ملتصقين بسروال أمهم. أمسك أحد الخيّالة بيد زوجة أبي. وضربت أنت، بظاهر كفك لطمت وجه عم أبي الذي وقع في هذه الضربة على أرضية الغرفة. وتناثرت السندات أيضاً في الغرفة. قيّد أحد الخيالة يديه ورجليه. ووضعت أنت وسادة على وجه عم أبي وجلست فوقها. كان مراد يقول هذا.**

قال الجد: **كان قد أرسل خبراً: «هذه الأملاك إرثي أنا أيضاً من أبي. واحدة لك، واحدة لي». ابن امرأة قروية حافية معي، مع الأمير الكبير!**

* «وصاح الأمير احتجاب، الذي كان يعرف أن فخري خرقاء جداً وتنسى دائماً أن تطلق خصلتي شعر على مقدم جبينها، صاح:

**لا تمسحي كل هذا الأحمر على خديك السمينين. يجب أن تتعلمي أن تتزوقي مثل فخر النساء، أفهمت؟ ثم أن هذا الخال اللعين يجب أن تكوني وضعته على الزاوية اليسرى من شفتيك، لا على خطمك القروي.**

بكت فخري وأخفت وجهها، الذي كان يلتهب من صفعات الأمير، بين يديها. كانت كتفاها السمينتان المملوءتان كما داخل ثوب سيدتها المستعمل ذاك.

**ــ ولكن، أيها الأمير، هي كانت سيدة. سيدة. ثم، ماذا أفعل ليديّ؟ كانت يدا فخر النساء نحيلتين وبيضاوين.**

مسح الأمير دموع فخري. أمسك يديها السمينتين والمليئتين لحماً ــ اللتين تفغّان رائحة صابون وخليط الطين والتبن ــ بين يديه البيضاوين الخاليتين من الدم.

**ــ لا تحملي همّاً، إنني أحب هاتين اليدين بالذات، هاتين اليدين. وحاولي أنت أيضاً أن تزوّقي وجهك كما فخر النساء، أطلقي شعرك فوق ثدييك، وبضعة الخصل هذه على جبينك. وفي كل ليلة البسي الثوب التول الأبيض ذا الحواشي المدورة.**

تشبثت فخري بيدي الأمير. وضعت شفتيها على جلد يد الأمير. كانت حامية. ركعت:

**ــ ولكن الصحون، من يغسل الصحون؟ من يكنس الغرف؟**

.......

**ــ هذا شغل فخري. أنت سيدة هذا البيت، أفهمت؟ فخري يجب أن تغسل الصحون نظيفاً، وتكنس الغرف. وعندما أقرص كفلها تضحك مقهقهة وتهرب فتذهب إلى المطبخ».**

* «أمسكت بالتصوير أمام المرآة.. ونظرت إلى نفسها أيضاً: لو أن وجهي صار أنحف قليلاً. لو أن الأمير يسمح بأن أضع هذه النظارة. يقول: «**ماتزال عيناك لم تضعفا بعد.** كان يضع القلم بين أصابعي ويضغط. كان يقول: **أنا معلمك المنزلي.** لماذا لم ينجب؟ مع فخر النساء أيضاً لم ينجب.

...........

يلتذ دائماً بأن يضع وجهه بين ثديي الواحدة. وبسرعة أيضاً يستولي عليه النوم. **مهما قلت: يا عزيزي الأمير، اختنقتُ. يكفي بعد.** فهل ينفع معه؟ يقول: **كان جدي ينام كل ليلة مع فتاة بكر.** يقول: **لم أعد رجلاً، وإلا لما اضطررت إلى الاكتفاء بك.** غادرته رجولته، ولكنه في كل ليلة يريد. ومرة أخرى يضع رأسه بين ثدييّ ويغلبه النوم».

* «قلت: **قالت يا فخري، أنت أيضاً تلتذين؟** قلت: **كلا يا سيدتي.** قالت: لماذا تضحكين مقهقهة إذن؟ قلت: **لأنه يضع يده في صدري.** قالت: **أفنمت معه حتى الآن؟** فقلت: **لا يا سيدتي».**

* «كان الأمير واقفاً في الظلمة، كان يمسد بيديه الباردتين على جسد فخري العاري. ذهبت إليه بطيئاً. وضعت يدي على كتفه، قلت: **أيها الأمير،**

هذا قبيح، إذن ففي الأقل اعقد عليها مثل جدك الأكبر. لم يلتفت الأمير. كان يقبّل عنق فخري. طوّق خصري، خصر فخري، بيده. وقال: أنا لا يصير لي أطفال، يا فخر النساء. قلت: فهاتها، لا أقل، إذن إلى السرير، لا يصير هنا. قال الأمير: حسناً، انتظري أنت قليلاً فقط. خرجتُ من الغرفة. إنهما لايزالان ملتفّين على بعض، في تلك الزاوية».

* «كان أبي إنساناً طيباً، يقول مراد، كان مراد يعرف أبي جيداً. قالت فخر النساء: قتل كثيرين، ولكن حُسن أبيك أنه لم يكن الأمر يجري أمامه، إنه لم يكن يومياً، إنه في ساعة واحدة و.. تمام. دفعة واحدة ما بين مائتين وخمسمائة جريح وقتيل».

* «كانت فخر النساء تقول: ليس هذا شغلاً، إنك لتخدع نفسك. يجب أن تمارس عملاً هو عمل، يسوّد في الأقل صفحة في التاريخ. احمل بندقية واذهب عند سور البستان واستهدف شخصاً يمرّ من هناك فارمه. ثم قف وتفرّج على نزَعه. أما إذا كنت لا ترتاح لشخص معين، فإن رأيت هذا الشخص يقرأ بيت شعر خطأ أو يتمخط أو حتى أنه وضع قدمه على مصطبة بيتك كي يعقد شريط حذائه، فلست مجازاً بأن تستهدف رأسه. إن انتخاب الشخص كلما كان أكثر عشوائية كان أفضل. إن من يبحث عن مسوّغ لقتل إنسان هو قاتل وكذاب، وفوق هذا دجال يريد أن يخدع نفسه. لو أنك أردت أن تقتل فلا حاجة بك إلى سبب. ينبغي أن تستهدف رأس الشخص، صدره، وتضغط الزناد، فقط. انظر، تعلّم من أجدادك الأكرمين. عندما كانوا لا يجدون صيداً كانوا يضربون البشر، وحتى الأطفال».

«قال الأمير: يا مراد، هاقد جئت مرة أخرى. أفلم أقل مئة مرة؟..

.....

صاح الأمير: يا مراد، أمات أحد ما مرة أخرى؟ ها؟

.....

**قال مراد: يا عزيزي الأمير، أعطاك الأمير احتجاب عمره.**

**فسأل الأمير: الأمير احتجاب؟**

**قال مراد: ألا تعرفه؟ ابن العقيد احتجاب، حفيد الأمير الكبير، حفيد حفيد الجد الأكبر الأفخم الأمجد. أعني خسرو، ذاك الذي كان في أيام الاستقبال يقف عند يد الأمير الكبير ويمسّد الأمير الكبير على شعره بيده ويقول: يا ولدي، لا تصر مثل أبيك قوّاداً».**

## الهوامش

(١) السلسلة التي حكمت إيران من سنة ١٧٨٦ لغاية ١٩٢٥، حين أسقطها رضا خان وأسس على أنقاضها سلالته التي أسماها الـ«پهلوية».

(٢) «قراءة جمعية للكُتّاب» ــ تأليف: عدد من الكتاب، جمع: حسين سناپور، الناشر: نشر ديگر، طهران، ط١، ٢٠٠١. مقالة سناپور، بعنوان «معرفة أسلوب گلشيري في المرايا المعرّقة لكريستين وكيد، على الصفحات ١١٩-١٤٤، وهذا المقبوس من ص١١٩.

(٣) أوستا (أو: افستا(ق) كما سماه العرب)، كتاب الزرادشتية المقدس.

(٤) «قراءة جمعية..»، مصدر سابق. مقالة آتشي بعنوان «نظرة ثانية على كتاب المعصوم الخامس أو حديث شنق ذلك الفارس الذي سيأتي، ميتاً» على الصفحات ١٤٥-١٤٩ من هذا الكتاب. وهذا المقبوس من ص١٤٦.

(٥) ص١٤٧، والتأكيد لي.

(٦) «قراءة جمعية..»، مصدر مذكور. ومقالة هايده آگاهي هذه، منشورة على الصفحات ١٥٠-١٦٠، وهذا المقبوس من ص١٥٠.

(٧) نفسه، ص١٥١.

(٨) نفسه، ص١٥٢.

# الفصل الرابع

## رضا براهني

والدكتور رضا براهني واحد آخر من المبدعين الذين يجري تجاهلهم عمداً في إيران الحالية، بعد أن كانت سلطات العهد المباد تحسب له حساباً وتعتقله أحياناً، خاصة عند وقوع أحداث ذات طابع عالمي في إيران، كانعقاد مؤتمرات ثقافية وفكرية عالمية، وذلك لمنع لقائه بممثلي الثقافة العالمية، مع أن أولئك الممثلين كان يتم انتقاؤهم من قبل سفارات الشاه في الولايات المتحدة وأوربا، وكان يتم إرشاؤهم ببطاقات السفر ومجانية الإقامة والتنقل عند المجيء، وتحميلهم بالهدايا السخية عند المغادرة.

وأذكر أن الشيء الوحيد الذي قرأته عن الرجل، في الصفحة الأدبية لإحدى الصحف اليومية، أن أحد الكتاب قال عنه في اجتماع ما إنه مجنون! وذلك بعد مشاركته في تأسيس مركز للكتاب والأدباء!!

والدكتور رضا براهني، عدا عن نشاطاته الواسعة في ميدان الكتابة والنشر والتدريس الجامعي، كان نشطاً أيضاً في مجال العمل المهني للكتّاب ـــ ويحاول أن يبقى كذلك في هذا المجال ـــ وفي الدفاع عن حقوق الإنسان والحريات العامة ـــ ولعله لا يزال يفعل ذلك اليوم، مما جلب له تهمة الجنون! ـــ ولذلك

كانت محاضراته التي يلقيها في الشعر أو النقد أو نقد الآثار الأجنبية ــ تستقطب اهتماماً وحضوراً واسعين، لا من قبل المتخصصين فقط، وإنما من لدن المهتمين بالأحداث العامة أيضاً، رغم ابتعاده عن الموضوعية في بعض الأحيان، وسلبيته وقسوته في أغلبها.

بدأ رضا براهني الكتابة والنشر في مجال النقد الأدبي، فصدر له أول كتاب «عن الخيام وفيتزجيرالد في عصر فيكتوريا» سنة ١٩٦٠ في اسطنبول، وتبعته كتب «خلاصة الذهب في النحاس» سنة ١٩٦٥ و«النقد التحليلي ــ عن فردوسي» سنة ١٩٦٥ ــ ١٩٦٦، و«التجربة والخلق في الشعر والشاعرية» سنة ١٩٦٧، والجزء الأول من النص الكامل لــ«الذهب في النحاس ــ في الشعر والشاعرية» سنة ١٩٦٩، و«كتابة القصة» سنة ١٩٦٩، و«المصراع: منظومة وزنية عديمة النظير ــ عن فردوسي» سنة ١٩٦٩، و«جنون الكتابة» سنة ١٩٧٢، و«الكيمياء والتراب» سنة ١٩٨٥. وقد صدرت هذه جميعاً في طهران.

وكان في ذلك الوقت يكتب الشعر، فنشر أول دواوينه تحت اسم «غزلان البستان» سنة ١٩٦٢، ثم أعقبه بــ«الغابة والمدينة» سنة ١٩٦٤، و«ليلة من الظهر» سنة ١٩٦٥، و«مصيبة تحت الشمس» سنة ١٩٧٠، و«الوردة على مدى القمر» سنة ١٩٧٠، و«ظل الله ــ أشعار السجن» سنة ١٩٧٥ بنيويورك ثم سنة ١٩٧٩ في طهران، و«الأقنعة والقيود» سنة ١٩٧٧، و«همومنا الكبيرة» سنة ١٩٨٤. وقد صدرت هذه جميعاً في طهران.

أما في المسائل الاجتماعية، فقد نشر أول كتاباته بعنوان «التاريخ المذكر ــ موجبات تشتت الثقافة في إيران» سنة ١٩٧٢، وتبعه بــ«شهادة في الكونگرس» باللغة الإنگليزية في واشنطن سنة ١٩٧٦، و«آكلو البشر المتوجون» بالإنگليزية أيضاً في نيويورك سنة ١٩٧٧، ثم «ماذا جرى

وسيجري في ثورة إيران» سنة ١٩٧٩، ثم «التاريخ المذكر ــ الثقافة الحاكمة والثقافة المحكومة» سنة ١٩٨٤. وقد صدرت هذه الكتب ــ عدا ما أشير إليه ــ في طهران.

ثم نشر كتابي سياحة وسفر، بعنوان «رحلة مصر» سنة ١٩٧٢، و«رحلة مصر ــ جلال آل أحمد[1] وفلسطين» سنة ١٩٨٤.

وكتب مسرحية بعنوان «لعب، لا داعي للعب» عرضت بالإنگليزية في الولايات المتحدة في أول أيار ١٩٧٣.

كما بدأ الترجمة مبكراً أيضاً، فقد نشر ترجمته لــ«سجين الرمل» لأنتوان سنت أگزوپري سنة ١٩٦١، و«كليوباترا» لكارلو ماريا فزانزرو سنة ١٩٦٣، و«جسر على نهر درينا» لإيف آندريچ سنة ١٩٦٣، و«ريتشارد الثالث» لوليام شكسبير سنة ١٩٦٣ و«العرب وإسرائيل» لمكسيم رودنسون سنة ١٩٦٩ و«فانون» لديفيد كات سنة ١٩٧٣. وقد نشرت جميع ترجماته في طهران.

أما في الرواية، فقد صدر له «العصر الجهنمي للسيد إياز ــ القول الأول» سنة ١٩٧٢، و«أخَوا آخر الخط على خط واحد» سنة ١٩٧٤، و«من بئر إلى بئر» بنيويورك سنة ١٩٦٦، ثم بطهران سنة١٩٨٣، و«المُثلة» (نص إنگليزي) بنويورك سنة ١٩٦٧، و«ماذا جرى بعد العرس؟» سنة ١٩٨٣، و«نشيد القتلى» سنة ١٩٨٣، ثم «أسرار بلادي» سنة ١٩٨٨.

وكل رواياته، عدا اثنتين، مفقودة، ويبدو أنه لم يتمكن من إعادة طبعهما، إذ صدرت له طبعات جديدة من بعض كتبه النقدية، مع أن طبعاتها الأولى لم تنفد بعد، ولكنه لم يتمكن من تجديد طبع أي من رواياته!

وقد قرأت له أربع روايات، هي ما آثرت أن أعيد قراءتها مع القارئ.

## ١ ــ من بئر لبئر

قصة معتقل يجري نقله في سيارة، معصوب العينين. لا يجرؤ على التفكير في عمل آسريه، بل يكتفي بنقل تأملات زميله في السجن ــ الدكتور ــ عن ذلك العمل. ومن الحوار الذي يجري بين الحراس، نفهم أنهم سيذهبون به إلى (رشت)[٢]، ومنها إلى (رودبار)[٣] ــ مقصدهم النهائي. الآسرون أيضاً يتحدثون عن الدكتور، ذاكرين ــ بطبيعية ــ مقاومته ومخاوفه.

في الفصل الثاني ينتقل الراوي ليحدثنا عن أيامه الأولى في المعتقل مع الدكتور، الذي كان يرتاب فيه. وعند اطمئنانه إليه، يحدثه عن الجلواز الذي قلع أظفاره: كان مثقفاً! وبأية مهارة وعناية يقتلع! بتأن! وعندما كان الدكتور يصرخ، كان يطلب منه أن يسكت: فهو لا يستطيع أن يواصل عمله والدكتور يصرخ! ولما لا يكف عن هذا الصراخ، يلطمه!

ثم نتعرف عن سبب اعتقاله: باع مسدساً قديماً صدئاً، لحاجته إلى المال، إلى صديق اتضح في ما بعد أنه من مجموعة تمارس الكفاح المسلح ضد السلطة، كانت تريد اختطاف مسؤول كبير. يوصيه صديقه أن يسعى لإبعاد نفسه عن المجموعة وإلا فإنه سيعدم معهم، وينجح. يقترح عليه المأمورون التعاون معهم، فيستشير زميل سجنه الدكتور، وبناء على نصيحة هذا يطلب إطلاق سراحه وإعطاءه مهلة ليفكر في الأمر. لا يُرفض طلبه فقط، وإنما ينال عليه ضرباً مبرحاً أيضاً.

ومرة أخرى يعود بتفكيره إلى السيارة، حيث يطلب منه الضابط الذي يقود آسريه أن يساعدهم على إعداد تقرير جيد عن سفرتهم الراهنة.

وفي فصل تال تدخل السيارة رشت. يقرر الضابط أن يسلموا الراوي إلى سجن المدينة، ويخرج هو مع أفراده للتسلية.

يكون من حسن حظ الراوي أن الضابط المناوب في السجن إنسان شريف يحس بأنه متورط في عمله، وهو يفكر في تركه، ولكن لا يدري كيف. ولذلك، فهو يبقي الراوي ــ السجين في غرفته ليجاذبه الحديث حتى الثالثة صباحاً.

وفي فصل آخر يستعرض الراوي ذكريات أبيه عن نضاله مع ميرزا كوچك خان(٤)، وكيف أن الأب لم يفقد الأمل بعد انتهاء حركة الميرزا، لكنه فقده في العشرين سنة الأخيرة، ويستعرض الكاتب هنا تطورات حركة رجال الغابة وتردد قائدها الميرزا بين موقفه الأصلي ونصائح السوفييت له بتغيير موقفه نظراً لتغير الموقف الدولي.

ثم يتذكر أمه، التي لم تخرج طوال عمرها ــ البالغ ستاً وستين سنة ــ من قريتها إلا مرة واحدة رقدت فيها في مستشفى في مدينة رشت لمدة أربعة أيام.

كان سلّم المسدس لأمه، بعد استعادته، موصياً إياها ألا تعطيه لأحد، حتى له هو نفسه! وهو الآن قادم مع المأمورين علّه يقنعها بتسليمه إياه!

تصر الأم على الإنكار، فيفتشون البيت على طريقتهم: يمزقون فراشه، ويحطمون موجوداته، عدة مرات! ويسعى رجال الأمن لإقناع القرويين بإرشادهم إلى مكان المسدس، ويقدمون لهم الإغراءات للحصول على معلومات منهم، ولكن دون جدوى، إذ ينكر هؤلاء أية معرفة لهم بمكانه.

تشهد طفلة هناك ضرب الراوي ــ حميد ــ وأمه المبرّح، فلا تعود تتحمل ذلك، فتتغافل الحراس وتقترب من حميد لتخبره بأنها تعرف مكان المسدس: حفرة جمع أوساخ دورة مياه (حبيب)، أي: بئر مرحاضه!

ويبدأ التفتيش هناك، دون جدوى، فتزعم الفتاة بأن المسدس في بئر أخرى، ثم في بئر ثالثة. ويستمر التفتيش حتى يسقط الضابط في إحدى الآبار، ويتلقى ذلك بشكل طبيعي يبلغ حد الأريحية!

يودع الراوي أهله ليعود مع حراسه، فيسلمه الأب ورقة مدعوكة.

وفي الفصل الأخير يعود الراوي إلى سجنه في طهران، حيث سلّم حراسه المسدسَ، وتلقوا مكافأة إيفادهم نقداً. ويجد الراوي الدكتور في وضع سيئ نتيجة تعذيبه الأخير.

يتذكر حميد الورقة، فيخرجها ليقرأها، ولكنه يجدها بخط غريب، يسأل عنه الدكتور فيخبره أنها مكتوبة بالروسية، وأنه ـ الدكتور ـ يعرف قليلاً من هذه اللغة، ويقرأها له. إنها وصية الأب، التي يذكر لابنه فيها تعداد البنادق والمسدسات والذخائر التي دفنها في الغابة، ويوصيه فيها بأن يسلمها لأصحابها! في الوقت المناسب!

ويثنّي الدكتور على الوصية بأن يقول لحميد إنها وصية له هو أيضاً، ثم يغطي رأسه ـ للمرة الأولى ـ بالبطانية.

وعندما يأتي الحارس في مروره المألوف على السجناء، وهو حارس كان يتعاطف مع الدكتور، يكتشف ـ وحميد ـ موته، فيبكي الحارس على كتف حميد بصوت مرتفع، دون خوف من رؤسائه وبلا خجل.   .

* *

كتبت الرواية، حسب توضيح الكاتب في آخرها، في شباط ١٩٧٣، ونشرت ـ كما علّق الكاتب أيضاً، بعد ذلك ـ «سنة ١٩٧٥ في إحدى مجلات المعارضة خارج البلاد. وقد أدخلت تغييرات طفيفة على النص» (حين طبعها في كتاب).

وإن المرء ليعجب كيف ولماذا اكتفى الكاتب بالتغييرات الطفيفة رغم مرور ثماني سنوات بين طبعها في مجلة وصدورها في كتاب، وهي مدة تمرّس فيها الكاتب في الكتابة النقدية.

ذلك أنه ليس في سرد الرواية ما يميزه، ولم يبذل الكاتب جهداً ملموساً في تصوير شخصياته، خاصة الرئيسة منها، وبقي أبوه ــ البطل الحقيقي ــ في الظل. والحدث الرئيس في القصة، ومنه أخذت اسمها، وهو التفتيش من بئر لأخرى، يبدو مفتعلاً تماماً، مقحماً، أراد به الكاتب السخرية من النظام الملكي ممثلاً برمز بارز له: ضابط الأمن. فمع الضابط مأمورون هم عادة من يكلفون بمثل ذلك التفتيش، بل إنهم عادة ما يرغمون المعتقل على القيام به.

* *

ومع ذلك، ففي السرد لمحات جميلة وتشبيهات بارعة: فبعد أن يرفع المأمورون العصابة عن عيني حميد في السيارة، يصف نفسه:

* «كنت كفرخ كسر البيضة لتوه، فأخرج رأسه...».

ويصف حركة مميزة لرفيق سجنه، الدكتور:

* «عندما كان يلف خصلات شعره حول أصابعه في حلقات، كان كما لو أنه يريد أن يقتلع شعره فيسحب خيالات ذهنه مع جذور شعره من دماغه».

وفي وصف ضابط ضخم الجثة مجدور الوجه:

* «كان عقيد رياضي مجدور الوجه يقف أمامنا. كان كأنه جبل من الجدري».

وفي وصف موقفهم أمامه:

* «أدّينا التحية العسكرية ووقفنا ــ نشطين ــ منتصبي القامات كأقلام الرصاص».

ولكن هذه الإضاءات ليست موفقة دائماً، كما في هذا الوصف:

«وذاك الذي صوته خفيض عار..»، إذ كيف يكون الصوت عارياً؟!

* *

يقدم الكاتب لروايته بالتنبيه على أن «كل شخصيات هذه القصة خيالية، وأي تشابه محتمل بينها وبين أشخاص حقيقيين هو مصادفة بحتة».

ويصدّرها ببيت شعر لمولوي:

لا يقلّ جسدي من لسع بعوضة   أُلَخْبِط ملك نمــرود بريشة.

## ٢ ــ ماذا جرى بعد العرس

رواية بضمير الغائب المفرد، تتحدث عن السجين «رحمت»، الذي يأتيه الحارس ليبلغه أن عنده غروب اليوم زائراً، فليتهيأ. يعرف أنها زوجته، ويتذكر مرة سابقة هيأوه فيها للزيارة، ولكن بعد انتظار ساعات لم يكن ثمة من أثر لزوجته! وكان حارس مقبول السلوك قد رافقه في حركته على طريق تلك الزيارة، وهو يتمنى لو يرافقه الحارس إياه هذه المرة أيضاً، رغم أنه رآه في حلم يمارس الجنس مع زوجته هو، وفي زنزانته!

يأتي طعام المعتقل، فيخشى أن يتأخر على الموعد إن هو انشغل به، وعندما يخبر حارس النوبة المسائية بذلك يخبره هذا بأنهم سيأتون لاصطحابه بعد العشاء. ثم يسأله الحارس عن حال جرحه، فيستغرب لمعرفته به، إلا أن الحارس يخبره أنه كان في غرفة «التمشية»(٥).

يثير اسم غرفة التمشية ذهنه، فيعود به إلى ما بعد اعتقاله مباشرة، حين اقتادوه معصوب العينين، واخزين إياه في ظهره ليتعثر، ويسمع لأول مرة بالاسم.

وقد تم اعتقاله، ويجري تعذيبه، لأنه سب الملك في حالة عصبية. يسوطون باطن قدميه حتى ليحلم بأنه يبول ويركض في مدينة قزوين، حيث يتفرج عليه الناس الذين يحترمونه، ولكنه يواصل البول عليهم. ويجد نفسه يبول تحت

التعذيب! وعندما يغمى عليه ينقلونه إلى غرفة إدارية عادية، الشيء الوحيد غير الإداري فيها كابلات معلقة هنا وهناك، ويجري معه تحقيق محوره سبابه، ولكنه يشمل كل حياته!

يتساءل: أتستحق شتيمة كل هذا؟! إن بإمكان الملك أن يشتمه أيضاً! وهو، في مستقره الحالي، لا يتحدث عن تعذيب، إلا أنه يحلم مرة أخرى بزوجته تحدثه من ثقب في المرآة: تسأله، ولا تفهم جوابه!

ينطلق من أحلامه ليروي واقعة تعارفهما، فزواجهما، قبل اعتقاله بنحو ستة أشهر. ويروي أيضاً زيارتهما لمرقد الإمام الرضا(٦)، إذ كانت زوجته نذرت بأنها إن حصلت على زوج طيب فستقوم بالزيارة.

ويأتي الحارس لاصطحابه من حيث هو إلى محل ملاقاة الزائرين ــ إدارة الشرطة، ويصحبه مقيداً، على غير العادة، لأنه ــ الحارس ــ أضاع مفتاح جامعة اليدين! وليس ثمة من يتحمل مسؤولية كسرها! فيلتقي زوجته ويجلس لمحادثتها وحارسه مربوط معه!

تخبره زوجته بأنها فهمت أنه سيسجن ما بين سنتين إلى أربع، ثم تنتبه إلى قيده فيلازمها البكاء. يحاول التسرية عنها حتى بالكذب. ثم يفكر باحتمالات بقائه في السجن أكثر من ذلك لسبب ما، ويتذكر اقتراح مأمور الساواك عليه بالتعاون: فمجرد اعتذاره عن الشتيمة لا يكفي لإسقاط الحكم عنه. ولإقناعه بالتعاون، صوّر له المحقق لذة الحياة في حالة التعاون، والمشكلات الناجمة عن عدمه: تشديد شك الساواك به، والإخبار عن أية هفوة تندّ عنه أثناء مدة محكوميته.

وماذا سيكون مصير زوجته؟ إنه يفكر منذ الآن بعدد من أصدقائه الذين يمكن أن يتقربوا من زوجته فيتلقفونها! ثم ربما ترحب زوجته بالخيانة نظراً لعطشها الجنسي[؟!] فكّر أولاً في أن أباها وأمها سيأخذانها إلى بيتهما.. ولكن

كيف الحيلولة بينها وبين أبناء العم والعمة والخال والخالة؟ ويجره التفكير إلى أن يعرض على زوجته أن يرسل لأبيها وكالة من السجن، تمكنها من اختيار حياة أخرى، فهي جميلة وشابة ويمكنها أن تتزوج غيره.

وفي طريق عودته إلى المعتقل، يفكر في الغرام وفتراته، وكيف أنه ــ بعد فورة عشقة لزهرة ــ زوجته ــ صمم أن ينقطع عن حبها، وقد تخلص من محاصرتها، أو تصور ذلك، إلى أن جاءته إلى المدرسة وكاشفته بأنها تدري أنه يحبها ويريد أن يكف عن حبها!

في المعتقل، نظراً لضياع مفتاح جامعة اليدين يقررون كسرها بحجر لإيداعه الزنزانه، فيفشلون، حتى يقرر ضابط السجن المناوب أن يكسرها بطلقة في منتصفها. ويفشل الضابط في ذلك، فيقرر أن ينام الحارس المرافق لتلك الليلة مع رحمت في زنزانته.

يشجع النومُ معاً الحارسَ على التبسط في الحديث، فيبدي إعجابه بجمال زوجة رحمت. ويروي له قصة حياته: فقدانه أهله في زلزلة قزوين، وإنقاذه لطفل من تحت أنقاض الزلزال، ونقله فتسليمه إلى دار الأحداث، وكيف أن هذا الطفل زاره بعد مدة في مدرسته فعرف منه أنه يشتغل الآن لدى السافاك، في أوين(٧).

يحس رحمت خوفاً من مقاصد الحارس الضخم القوي الملتصق به!

يتذكر أنهم استدعوه للتحقيق مرة في وقت غير مألوف، وجمعوه في جوال واحد مع محقق تصوره ــ نتيجة خطأ في قراءة الاسم ــ رحمت شهير، في حين أنه رحمت شهير، فيطالبه بعنوان رفيقه سپهر، ويروح رحمت في تأملات عن أعمال المقاومة المسلحة التي ينشط فيها سپهر هذا.

وفي أثناء الحديث يعترف له الحارس بأنه كلف مرة بالذهاب إلى الجامعة وكتابة تقرير عما يرى ويسمع، فوجد أن النساء والرجال مختلطون متشابكون

يسرحون ويمرحون معاً، واكتشف أن «المثقفين» جميعاً هكذا. ـــ كيف؟ فيضع الحارس سبابة يد بين سبابة ووسطى اليد الأخرى، فيشكل منظراً جنسياً قبيحاً. ثم يعترف لرحمت بأنه أضاع المفتاح ليبقى معه وليقول له كل هذا!

وفيما يغفو الحارس، يصيب الأرق رحمت، وبعد عدة محاولات ينام ليصحو على الفور على حلم غريب: موجودٌ نوراني يُخرجه من السجن إلى الشارع، إلى جنوب المدينة، إلى البرية، فإلى مدينة صغيرة ملأى بالمساجد والقبب والمآذن والقبور، وهناك ينيمونه على بطنه فوق الأرض ويغرزون مسماراً في عموده الفقري، ويصحو على أول ضربة مطرقة تريد أن تغرز المسمار في جسده فيجد رفيق قيده يحاول الاعتداء عليه!

* *

يبدو الكاتب هنا أكثر سيطرة على مادة قصته، فقد قدم لنا بناء لشخصية بطله رحمت، تطور عبر القصة كلها، ولم يكن جاهزاً منذ بدايتها. وحبكة الرواية مقبولة لا خلل فيها، كما أن التداعيات تأتي منسابة بلا قسر، إذ تثيرها في كل مرة كلمة أو إشارة أو تذكُّر واقعة ما.

ويبدو الكاتب أكثر سيطرة هنا على مادته اللغوية أيضاً. إنه لا يعتمد على تشبيهات بسيطة لتوضيح الفكرة التي يريد إلقاءها، وإنما يقدم صورة كاملة، يعرض جوّاً. ففي وصف ضربة السوط على باطن القدم:

* «لم يكن ذلك سوطاً. بسرعة البرق، كانوا يضغطون قطعة جمر حمراء على كف قدمه. تحترق قدماه. يحس بمثل وضع المكواة على خط كيّ السروال، ثم يأتي صوت جزّ وجزّ، ويتصاعد البخار، لا بد أن البخار تصاعد من اتصال تلك الجمرة بباطن قدميه».

* وهو يصف إحساس رحمت عندما يحاولون فتح جامعة اليدين بسلك معدني: «كان يتمنى لو يرفع، لحظة، عصابة العين فيعاين كل شيء. لربما لن ينتبه أحد إلى عمله هذا، لشدة ما نسوا وجوده. إن جامعة اليدين الآن أهم حتى منه».

وعندما تتعدد الاتصالات الهاتفية لحل هذه المشكلة:

* «فكّر رحمت بالمسائل التي يطرحها فقدان مفتاح ما. يتجرجر رئيس المحققين والجنرال زندي پور من فراشيهما، ليأمرا بما ينبغي عمله بشأن جامعة يدين لم تفتح. ربما كان... [حارسه المرافق] قد أضاع المفتاح عمداً كي يراقب، بشيطنة، الأعمال التي يراقبها الآن».

وفي وصف بعض الأحاسيس الناشئة عن التعذيب يقول:

* «في اللحظة التي تسبق هبوط أول سوط في اليوم الأول من التعذيب، أحس دقيقاً هذا الإحساس نفسه. كان يريد أن يعرف مدى الألم. كانوا يضربونه كما لو أنهم يريدون إشباع فضوله».

* *

ويؤرخ الكاتب لتحرير الكتاب: آب/ أيلول ١٩٧٤.

وكانت طبعته الأولى، والوحيدة في إيران، قد تمت سنة ١٩٨٣.

وإضافة إلى التذكير المألوف عن عدم حقيقية الأحداث والشخصيات، يصدر الكاتب روايته بقولة لميكائيل أنجلو: «كلما تحمّل الرخام نحتاً أكثر فصغر حجمه، كبر التمثال».

ولا بد أن هذه الملاحظة جزء من الرواية!

## ٣ ــ نشيد القتلى

يقول الكاتب في بطاقة تعريفه لهذه الرواية إنه أتم مسودتها الأولى في شتاء ١٩٧٤ وربيع ١٩٧٥، وأنهى مسودتها الثانية في شتاء ١٩٧٥، ولم يفرغ من إعدادها للطبع إلا أواخر سنة ١٩٨٢.

يستهل الكاتب روايته بثلاثة أبيات شعر، أولها لمولوي:

عندي رجُــلٌ حورية     أنا أدعى الرجُل الحورية

وآخر لصائب تبريزي:

عندما يساقط الجليد الأحمر من السماء     يخــضر طالع الفنانين الأسود

أما الثالث فهو لحافظ شيرازي:

تتحطم سفينة أهل الفن     والاتكاء عليها أفضل من ألا تنقلب فوق هذا البحر

ثم ينبه إلى أن كل شخصيات الرواية خيالية، وأن أي تشابه احتمالي بينهم وبين أناس حقيقيين هو مصادفة محض. وسيلاحظ القارئ أن مثل هذا التنبيه يبدو لازمة لعمل كل الروائيين الإيرانيين! مع أنه لا يستطيع استبعاد التشابه بين بطل الرواية محمود شريفي وكاتبها نفسه.

وعندما نتقدم في قراءة الرواية نجد أن اسمها مأخوذ من بيت شعر أيضاً، فالبطل يجيب على طلب زوجته بأن يقول لها رأيه فيها، بقوله:

العشاق قتلى معشوقيهم     لا يصدر عن القتلى نشيد

* *

**الفصل الأول، وقد أسماه الكاتب: «البطل القبيح»**

يدور هذا الفصل أساساً حول تأملات بطل الرواية، التي تدور حول فكرة أنــ.... «هم» إن أتوه هذه المرة فستكون المرة الأخيرة. وامرأته تعرف ذلك. كما تعرفه ابنته أيضاً.

ثم نعرف أن «هم» إنما هم زوار الفجر الذين ـــ بعد زيارتهم الأولى لبيته ـــ جعلوه ينال حكماً بالسجن لمدة سنة «لتحريك شبان البلاد ضد مصالح البلد العليا بوساطة مؤلفاته الأدبية». وبعد استجواب وتعذيب متواصلين يحكم عليه بتلك السنة، ولما كان قد قضى تسعة أشهر رهن التوقيف فإنه يقضي ثلاثة أشهر أخرى ويخرج.

وقبل أن يخرج يستدعيه رئيس المستنطقين إلى مكتبه، حيث يفهمه أن بمقدوره أن يلغي حكمه في أية لحظة وأن بإمكانه جلبه متى شاء، ولذا فإن عليه مراقبة نفسه وضبط لسانه، وإن سأله أحد أين كان هذه المدة فعليه أن يقول: حدث سوء تفاهم ثم أزيل، ولكن الأفضل أن يقول: إنه كان على سفر!

كما أن سلطات «الأمن» أوعزت إلى الجامعة بنقله من التدريس إلى عمل إداري.

والمسألة الثانية التي تشغل هذا الفصل هي سلوك الناس من حوله، وخاصة زملائه، تجاهه. فبعد أن تهرب هؤلاء من مقابلة زوجته أثناء اعتقاله خوفاً، راحوا الآن يتجنبونه بطولة! إنهم ينعون عليه إطلاق سراحه خلال هذه المدة القصيرة، بل إطلاق سراحه أصلاً!

**الفصل الثاني، واسمه: حديث أصحاب الحوريات.**

بطل الرواية، الدكتور محمود شريفي، يمارس عمله الجديد مسؤولاً عن مكتبة كلية الآداب، ويحاول أن يتم كتابة قصة يكتبها عن مهاجمة الذئاب لقرية ما.

تنفقد الصورة المعلقة فوق رأسه على الجدار ـــ ومثلها على جدران كل تأسيسات الكلية، وهي تضم الشاه وزوجته (في لباس جامعي؟) ـــ من غرفته، وبما أن الشاه وزوجته، أو زوجته وحدها على الأقل، على وشك زيارة الكلية لحضور حفل، ولأن الحرس الإمبراطوري وجهاز الساواك سيتسلمان الكلية،

يشعر محمود شريفي بالرعب. ينبه إلى اختفاء الصورة فيعدونه بالتحقيق والبحث، ويطلب غيرها لتعليقها بالمناسبة فيتعثر طلبه بتأخيرات روتينية (يعرف أنها متعمدة)، فيذهب ويشتري صورة غير قياسية للشاه: ولي عهد طفل يجلس على ركبة أبيه الملك!

يحاول أحد أساتذة الكلية ــ الدكتور عرب، وهو صديق لعميد الكلية ــ الاعتداء على طالبة في المكتبة، ولكنه يواجه بفرّاش يفضحه. وعندما يأتي عميد الكلية إلى المكتبة لمعالجة الأمر يكتشف تبدل الصورة فيأمر برفع الصورة الجديدة لأنها غير قياسية! ويعرف الطلبة بالفضيحة، فسرعان ما ينظمون تظاهرة ضد الأستاذ، يطعّمون شعاراتها بشعارات ضد الرعب والإرهاب.

ومن بين زملاء الدكتور شريفي نجد الدكتور خرسندي بمنزلة الصديق. ومع أن هذا لا يبدو إلا ساخراً مقلداً للأساتذة، إلا أنه يتميز بحس سياسي عال، ونفهم من أحد أحاديثهما المشتركة أن الدكتور «قاصد» عميد الكلية، عضو في وكالة المخابرات المركزية، وأن لمحمود علاقة بالمقاومة الفلسطينية، وأن وثائق نشرت في الغرب ضد الإرهاب كان لمحمود دور في إعدادها وتسريبها إلى الخارج.

يتصل نائب عميد الكلية بالدكتور شريفي تلفونياً في منزله ليعلمه بأن العميد أراده لتنظيم معرض للكتب المنشورة في الخارج عن إيران (واضح أن العميد يريد أن تكون حصته هو من الكتب المعروضة كبيرة) وكتب ناشرين إيرانيين غير جامعيين.

ويعلم شريفي من نائب العميد هذا أن صورة الشاه قد وجدت! وأنه هو ــ شريفي ــ مدعو لحضور المؤتمر الذي ستفتتحه الإمبراطورة، وهذا أمر غريب إذ أنه لا يدعى إلى أمثال هذه المناسبات.

يذهب إلى الكلية بعد أوقات الدوام الرسمي وينظم المعرض.

عندما يعود إلى بيته آخر الليل يزوره خرسندي، ليخبره أنه مسافر عن

قريب إلى الخارج وأنه لن يعود! ثم يتكشف عن أشياء أخرى أهمها: أنه يدري أن التقارير المنشورة في الخارج، والتي قرأ بعضها منشوراً في مجلة أميركية، هي ناتج عمل الدكتور شريفي، وأنه إن اعتقل فسيعتقل بسببها، لأن أي متخصص باللغة الإنكليزية يمكنه أن يكتشف ذلك، ولا شك أن العميد، الدكتور قاصد، سيشهد بذلك إن لم يكن أبلغ به أصلاً!

ورغم إنكار شريفي يرفض خرسندي هذا الإنكار ويعرض عليه الغرض من زيارته هذه: إذا اعتقل محمود فليشهد بأن كاتب تلك التقارير هو خرسندي نفسه، وذلك ليتجنب التعذيب ونتائجه والسجن من بعده، إن بقي حياً، فإن خرسندي ليس في نيته أن يعود إلى إيران الشاه قط! أما إذا جرى اعتقاله قبل سفر خرسندي فليتحمل إلى اليوم التالي لسفر خرسندي ويشهد بعد ذلك.

يتم انعقاد المؤتمر، بدون حضور الإمبراطورة ــ التي تصاب بزكام يوم الافتتاح! ــ ويصاب الدكتور شريفي بالغثيان (لاضطرابه عموماً، أو لنمط الأساتذة الإيرانيين الذين يلقون كلمات في المؤتمر؟) ثم يغمى عليه. وعندما يصحو يجد حوله أربعة من مسؤولي الكلية، ممن لهم ارتباط بالساواك، يقول أحدهم: إنه عملُه، إنه عملُه! ثم تأتي زوجته فتصطحبه إلى البيت.

في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي يقرع جرس بيته الطالب أكبر صداقت ويطلب الكلام معه. يُدخله البيت، ويقدم له إفطاراً خفيفاً. يخبره صداقت أن الساواك هاجموا دار الطلبة ليلاً، ملاحقين زعماء جمعية الطلبة، الذين هرب أغلبهم، وهو يطلب الآن:

١- أن يدلّه الدكتور شريفي على مكان يختفي فيه مؤقتاً.

٢- أن يوصل قائمة، بأسماء الجامعيين المعتقلين، إلى الخارج بوساطة أحد المستشرقين الذين يحضرون المؤتمر.

يتصل شريفي بخرسندي، ويتفقان على أن يؤوي هذا صداقت. في هذه الأثناء تصيب صداقت نوبة صرع، يفقد أثناءها الوعي حتى يبول على نفسه. وتتبرع زوجة شريفي بإيصاله إلى منزل خرسندي، ويوافق زوجها بعد أن تقنعه بأن ذلك أكثر أمناً.

يذكّره صداقت، وخاصة أسنانه، إذ صحا من نوبة الصرع، بـ«إيشيق» الذي تعرف عليه في سجنه الأول:

كانت رجله قد تقيحت، ونظراً لاستغاثته وصراخه المستمرين وما يشبه تمرد المعتقلين الآخرين، نقل إلى مستشفى الشرطة. يعالجه الطبيب ولكنه يطلب منه مواصلة التظاهر بالتألم، لأنه يريده ــ ككاتب ــ أن يرى إيشيق: المناضل المسلح.

ينام تحت تأثير منوم قوي، ويصحو على حوار بين الطبيب وإيشيق، يفهم منه أن إيشيق شاعر وأنه أملى شعره على الطبيب الذي نسخه وحفظه في مكان أمين، وأنه ألقي عليه القبض بعد اشتباك مسلح أصيب نتيجته بجراح وأن الطبيب أجرى له عملية استغرقت عدة ساعات، ولكن مأموري الساواك عذبوه بعد العملية مباشرة، وفي المستشفى بالذات. احتج الطبيب وهدد بترك المستشفى إن لم يبتعد الجلاوزة، فأمهله رئيس الساواك أجلاً، وسيأتي مأموروه غروب اليوم لتسلمه. ولا يطلب إيشيق من الطبيب إلاّ إبقاءه منوماً في المستشفى بعيداً عن أيدي الساواك.

يتحدث شريفي مع إيشيق، بالتركية. يحاول الحارس ــ الموكل بإيشيق ــ منعهما ولكنهما لا يكفان، إذ يريانه عاجزاً عن فعل شيء لمنعهما: فهو ينادي على ضابطه ولكن ما من مجيب، فيضطر لإطلاق رصاصة من بندقيته في الهواء ليستدعي الضابط.

يجلب الضابط جريحاً يجعل سريره بين سريري إيشيق وشريفي: ظاهرياً، لكي يجعل الحديث بين الإثنين صعباً. يحاول الجريح استدراجهما للحديث فيفشل

إذ يحذران. يأتي الدكتور بحجة التفقد، ولكي ينبههما ــ في الواقع ــ إلى أن الجريح ليس من منتسبي الساواك فقط، بل ومسؤول مهم فيه أيضاً.

وإذ يتبادل إيشيق معه الحديث يعرف منه أنه هو الذي أصابه بجرحه!

ينتهز إيشيق خلو الغرفة من غيرهم فيقفز من النافذة منتحراً!

ولكنه لا يقع على رأسه كما كان ينتظر، وإنما على بطنه، التي تتمزق، وتتدلق أحشاؤه إلى الخارج، فيأخذ هو بسحب أمعائه ليتحقق موته، ولكن يلحق به مأمورو الساواك فيقيدون يديه من وراء، ويستدعون الدكتور والمستنطق المسؤول عنه.

ويفهم شريفي من الدكتور، بعد عودته، أنهم خاطوا بطنه ونقلوه إلى السجن، حيث أعدم بعدئذ.

ويفيق شريفي من خواطره على صوت زوجته وهي تخبره أن «رزمته وصلت إلى المرفأ بسلام».

يؤنبه ضميره لأنه جعل زوجته توصل أكبر صداقت إلى بيت خرسندي، ولكن زوجته تنكر عليه ذلك، فهي قد شاركته في أعمال أكثر خطورة من جهة، كما أن عملها كان محسوب النتائج من الجهة الأخرى: فلو أنه هو الذي أوصل صداقت لكانت مخاطر ذلك أكبر.

يذهب شريفي إلى الكلية، ويحضر جلسة المؤتمر. فجأة، يغلق عميد الكلية أبواب قاعة المؤتمر ويهمس شيئاً في أذن الأستاذ المحاضر كي يحثه ــ فيما يبدو ــ على إنها كلمته. يسمع الحضار هتافاً:

«نطالب بإطلاق سراح الطلبة المعتقلين! نطالب بإطلاق سراح الطلبة المعتقلين!».

ثم يفتح الطلاب باب القاعة ويدخلون. يعتذرون من الحضار ويطلبون عشر

دقائق من وقتهم: يخطب أكبر صداقت معلناً أن الساواك هاجموا ليلة أمس دار الطلبة أولاً ثم دار الطالبات، واعتقلوا عشرات الطلبة والطالبات بتهمة واهية هي: وضع قنبلة في مخزن مكتبة الكلية لتفجير الإمبراطورة أثناء زيارتها!

يعتبر محمود شريفي أصل عمل الطلبة خطأ، فإن أياً من الحضور لم يكن جديراً بالخطبة، ولن يساعد أي منهم في نقل أخبار الاعتقالات والتعذيب للعالم الخارجي، ولهذا فعمل أكبر صداقت مجازفة لا معنى لها، مع أنه قام بعمل لا يمكن أن يقوم به أي طالب. وعلى هذا قرر اللحاق به!

«خرج محمود من الكلية مسرعاً، وحث الخطى نحو سيارته. ركب وأدار محركها وانطلق بها. كان يريد أن يتحرك وراء طابور الطلبة، وإن أمكن أن ينقذ أكبر صداقت من المهلكة».

وما إن يجد الحرس الإمبراطوري ومأمورو الساواك الأساتذة الأجانب قد انصرفوا حتى ينزلوا من شاحناتهم ويبدأوا إطلاق النار. يرى محمودُ أكبرَ صداقت بين الأشجار فيفتح له الباب. يعترضه ثلاثة من الحرس ومدني، ويطلبون من صداقت النزول والتوجه إلى إحدى الشاحنات: كل الطلاب إلى الشاحنات! يردد صداقت النظر بين الشاحنة وسياج الجامعة. وفجأة يعلو صوت أحد عملاء الساواك من منتسبي الكلية، من وراء: «امسكوه! زعيمهم يهرب!». ونظر محمود ليرى صداقت متجهاً إلى السياج، والمدني يصوب مسدسه نحوه، فقفز وضرب المدني بكلتا قبضتيه في ظهره، ولكن صوت رشاش يلعلع، فيرى محمود أكبر صداقت خافقاً على السياج عدة مرات، ثم ينحشر بين قضبانه والدم يسيل منه!

يصل محمود إلى الجسد، ينتبه إلى أن المدني إلى جانبه فيقول له: «لماذا قتلته؟»، فيقول له هذا: «اذهب إلى سيارتك واجلس فيها ولا تبرحها». وعندما يجلس في سيارته يجلس معه إثنان من الحرس. يرى في مرآة سيارته سيارة

ميرسيدس بنز جميلة جداً تقترب، تقل عميد الكلية وشخصاً أنيقاً طويلاً يعرف أنه رآه سابقاً ولكنه لا يتذكره ولا يتذكر أين رآه.

ينتبه الناس في الشارع إلى أن صداقت قتيل، فيهتفون ويحاولون نزع جسده عن القضبان. يصدر الأنيق أمراً، فيهرول عدد من الحرس، ويحاولون انتزاع الجسد. تدور معركة بالأيدي بين الطرفين من خلال القضبان حتى ليخشى محمود أن ينقسم الجسد إلى قطعتين: عليا بيد الحرس وسفلى بأيدي المواطنين! ينكسر الحرس، ويوشك المواطنون أن يظفروا بالجسد، فيوعز الأنيق بأمر آخر، ويسرع حامل رشاش فيزخ الهواء فوق رؤوس المواطنين بالرصاص مجبراً إياهم على التراجع. يتكلم حارس آخر بجهاز اتصال فتأتي سيارة إسعاف تحمل الجثة ـــ تحت تهديد السلاح ـــ وتنطلق بها مع بعض الحرس!

ينقل محمود إلى سيارة غير سيارته، بعد أن أوصلت الميرسيدس صاحبها إلى مبنى كلية الآداب، ثم عصبوا عيني محمود.

تلف به السيارة مدة، ثم يؤتى به إلى محل ما، ينزل مرافقوه ويطلبون منه أن يسلم يده بيد أحدهم. لفوا به أربع مرات. صعدوا به سلماً. وعبروا به ممراً. ثم لفوا به عدة مرات أخرى، وذهبوا به من هنا وهناك. ثم هبطوا به سلماً ركضاً، حتى وصلوا إلى المحل المطلوب. أجلسوه على كرسي ودخل شخص أو إثنان. لا بد أنهما معروفان لديه، فقد شم رائحة «برنيان» العفنة. ثم يأتي شخص آخر يوعز بربط يديه وراء ظهره، ويسمع صوت صعود شخص على منضدة أو مرتفع ما. ويخاطبه شخص، ربما الصاعد: [«أتدري ما نفعل بمن ينطق بحرف ضد الحكومة؟»، ولم يمهل محموداً كي يجيب أو يسأل. أوعز بأن يفتحوا فم محمود. وأجاب الشخص المتشخص على سؤاله بنفسه: «إننا نغلق فمه، هكذا». وأحس محمود ـــ الذي بقي فمه مفتوحاً ـــ بقشعريرة عجيبة، ثم

أحس أنه، من فوق رأسه، من مرتفع، ثمة ماء دافئ ومالح ومثير للاشمئزاز ينصب في فمه. حاول أن يغلق فمه، ولكن شخصاً ما أمسك بشعر رأسه وسحبه بإحكام إلى أعلى، وصرخ: «افتح فمك، أبقه مفتوحاً بعد!». وبقي فم محمود مفتوحاً بلا إرادة، وانصب سيل بول الرجل الواقف على المرتفع إلى فمه].

ثم يتركه، مصدراً أمراً إلى الإثنين بالبقاء معه ومراقبته.

لكن محموداً يكتشف أنه لم يكن ثمة من يراقبه أو يحرسه!

وبعد أن يغسل وجهه يتسلل إلى سيارته، وبها إلى خارج الجامعة متجهاً إلى البيت.

بعد ثلاثة أيام، بعد انتهاء المؤتمر، يعتقلونه.

**الفصل الثالث: حديث ذوي العيون المرايا.**

في هذه الأثناء يكون خرسندي قد غادر إيران وتلفن لشريفي من تركيا معلناً له ذلك.

قبل أي تحقيق يتعرض المعتقلون جميعاً لوجبة ضرب همجية.

لتجاهل التعذيب ونسيان آلامه يتذكر قراره ــ بعد سجنه الأول ــ بأن يفعل شيئاً، ويكون ذلك الشيء إجراء تحقيق عن السجون والتعذيب. وتشاركه زوجته في عمله.

يذهب مع زوجته إلى بيت صديقهما إسماعيلي ليراقبا سجن (قزل قلعه)، متذرعين له بحجة واهية. يفاجئهما عصراً، وعندما يعرف ما يفعلانه يثير دهشتهما بوسادة كبيرة مملوءة بالوثائق: تصاوير، أشرطة صوت وصحف إيرانية وأجنبية!

يتنكران كمتسولين لمراقبة مداخل ومخارج معتقلات أخرى، فيجمعان معلومات إحصائية تقريبية عن عدد من يعتقلون كل يوم.

بعد الانتهاء من ذكرياته يعود إلى دنيا معتقله الجديد.

يُضرب كل يوم مساءً لمدة تسعة أيام.

ثم يأخذونه لامتحان خطه أمام خبير خطوط أميركي، ومرة أخرى للتعرف على جثث.

ويتعرف على جثة أكبر صداقت، أما الجثتان الأخريان فيعرف ـ بمساعدة تصوير ـ أنهما مرافقاه أثناء اقتحام قاعة المؤتمر على الحضار وإلقاء صداقت خطبته تلك.

ويبتعد مرة أخرى عن آلامه بتذكر الوقائع التالية لانقلاب ١٩ آب، الذي أطاح بحكومة الدكتور محمد مصدق، و«إعدام» معلمه للغة الفارسية في تبريز دون محاكمة، وحديث أبيه عن حشده ـ مع آخرين ـ لقاء مبلغ من النقد الأجنبي ليهتف: جاويد شاه! (= ليخلد الملك!). وفعالية أبيه يوم ١٥ خرداد (= ٥ حزيران، سنة ١٩٦٣ ـ وفيه قامت تظاهرات احتجاجية على اعتقال المرحوم خميني وإبعاده أول مرة إلى تركيا)، ووقائع ذلك اليوم أمام مبنى الإذاعة.

كما يتذكر صراع أبيه مع السرطان، وصراعه هو لوضعه في مستشفى يقبله قبل موته، ويتذكر موت أبيه ودفنه.

ثم يصحو على ألم شديد في كل بدنه، وخاصة في ساقه اليسرى، لا بد أنه هو الذي أيقظه من غيبوبته، فعدا عن الضرب بالـ(كابل) كانوا قد قلعوا أظافر قدميه، وبدأوا الآن ـ بقيادة الشخص الأنيق نفسه الذي رآه في باحة الجامعة واتضح له الآن من صوته أنه الشخص نفسه الذي بال في حلقه ـ يجرون عليه تظاهرة قتله بالرصاص!

وتنتهي الرواية وهو يدخل زنزانة تحت الأرض وينبطح على أرضها مفكراً في طيور أخيه وفي المقاومة.

* *

هذه هي الخطوط العامة لهذه الرواية، التي تقع في أكثر من أربعمائة صفحة، ولعل هذا العرض يبين مدى صعوبة اختصارها، لأن المهم فيها ليس أحداثها بقدر ما هو أحداث خلفيتها وأسلوب الكاتب في الطرح. وللتعرف على أسلوب الكاتب، أشير هنا إلى الأمثلة التالية:

١ ــ في وصف قدوم زوار الفجر في المرة الأولى:

أ ــ «في المرة الأولى، عندما جاؤوا. كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. بمجرد أن قرعوا الجرس نهض كما لو أنه كان يجب أن يتلقى، مع ذلك الجرس، خبر إعدامه. وبعد ذلك الجرس الأول بالذات، استولى سكوت ممتد نسبياً، سكوت كان ــ في ذلك الظرف ــ يجعل كل المعاني خلواً من معانيها». (ص٥).

ب ــ «كان ذو الشاربين الطويلين قد نظر إلى التصاوير المعلقة في الصالون، كان ثمة تصوير واحد لزوجته في لباس العرس، ولكنه لا يبين جمال زوجته بشكل جيد. كان محمود يحس دوماً أن زوجته صارت بعد العرس أجمل. وإما رأى ذا الشاربين الطويلين في حالة التطلع إلى تصوير زوجته فقد أحس أنه سيفترق عن زوجته عما قريب». (ص٧).

٢ ــ وفي وصفه لتعامل الناس مع سجين سياسي سابق:

أ ــ «في الشهور الأولى بالذات من تحرره من السجن تبدل محمود من أستاذ في الأدب التطبيقي إلى أستاذ في التوقعات. عندما كان يتحدث إلى شخص، كان بمقدوره أن يحدس أية ذريعة سيتخذها ذلك الشخص لينهض وينصرف. بين محمود والشخص، بسبب الذريعة التي سيختارها، كان يقوم نوع من المنافسة، ينشأ نوع من نزاع لا يجري على اللسان. كان يخيط عينه بالشخص ويبحث عن تلك اللحظة النفسية الخاصة التي يصير فيها انفصال الرجل عنه حتمياً». (ص ص١٨-١٩).

ب ــ [قالت زوجته: ــ «صرنا بحكم المصابين بالجذام. ذهب كل أصدقائك من حولنا. لم نسمع الكثير من الأهل والأقرباء. وأشجع الناس لم يتلفن غير مرة أو مرتين».

ــ «ماذا عن المهندس هشيوار؟» ــ «أغلق التلفون!». ــ «والدكتور نايين؟» ــ «ذهب إلى الخارج!». ــ «والكتّاب؟». ــ «تلفن أحدهم فقال إن الصحاب قلقون جميعاً. ولكن الوضع بشكل يجعل عمل أي شيء غير ممكن». ــ «من كان ذاك؟». ــ «لم أفهم. لم يذكر اسمه. أراد أن أعرف من صوته. وأنا لم أستطع التشخيص. لا بد أن هذا الإنسان الشجاع سيقول لك اسمه في الوقت المناسب». ــ «... وماذا عن الناشرين؟». ــ «لم يكونوا أفضل من الكتّاب». ــ «وأساتذة الجامعة؟» ــ «أأنت تمزح؟»]. (ص١٣).

٣ ــ وفي المقارنة بين العلاقات داخل السجن السياسي وخارجه يقول:

أ ــ «ما هذه الفاصلة التي تقوم خارج السجن بين سجين سياسي والناس الآخرين؟ في الجامعة، يحلق السيد وجهه، ويلبس طقم بدلة مع قميص نظيف مرتب. يصب ماء الكولونيا، الذي أهدته إياه أخته حديثاً، على يديه، وفي حال هي نصف صفع ونصف طبطبة يضرب حول أذنيه وتحت غبغبه. طبيعي أن التجاعيد والطيات والشعر الأبيض، للكهولة، الظاهرة فوق الأذنين، لا يمكن للمرء أن يضعها في جيبه فيخفيها، ولكن ثمة الكثيرين الذين يصبغون، وسيحين وقت ذلك أيضاً، ثم عندما يدخل الكلية يصافح الأساتذة أستاذاً أستاذاً، وفي بعض الأحيان يفقد الاحتياط فيصافح طلبة الدكتوراه أيضاً، ولا يقدم لطلبة الماجستير غير ابتسامة، أما طلبة البكالوريوس فلينكتموا! عليهم أن يلقوا التحية، وإن كان لهم عمل معه فعليهم اللحاق به، ويقول الواحد منهم «سيدي الدكتور» ما لا يقلّ عن خمس مرات حتى يسمع الدكتور، وعندما يسمع فليس ضرورياً أن يلتفت.

من فوق كتفه بالذات يمكنه أن يقذف معلومات العالم نحو الطالب، مثل بصقة يلقيها من الشارع عقيد من فوق كتفه ونجماته إلى زقاق متروك. ومثل هذا الإنسان، بتحقيقاته الكثيرة حول أسلوب التنقيط في اللغة الفرنسية، وتصحيحه العاشر لـ«بوستان»[٨] سعدي[٩]، ومع بعض الانتفاخ في غبغبه عن مولانا[١٠] وخواجه[١١]، ومختصره عن كلاب بافلوفِ وبيانات فولكيه، والكتابة التلخيصية في الفرنسية والإنكليزية والروسية والألمانية، ورض فكوك الطلاب من أجل التلفظ الصحيح لمفردات اللغات العالمية الأربع، وتاريخ الملوك، حسناً، أين كان محمود؟ ها.. لماذا يهتم امرؤ كهذا، هو بهذه المواصفات، ولا يهم ما إذا كان شيخاً أم شاباً، بإنسان اسمه محمود شريفي حدث أن صار بينهم فكان أشبه ما يكون برقعة غير مناسبة على قباء ثقيل ملون؟ ولكن السجن يختلف.

«كيف؟ أحياناً، لا يمضي أكثر من عشر دقائق حتى يتعرف سجينان بعمق على بعضهما. الكاسة في اليد، والقدح البلاستيكي داخل الكاسة، والبطانية على الكتفين، يعرج غارقاً في رائحة البول والعرق والعطن، وجهه وجسده مجرّحان، متعب، إذ ينقلونه من الانفرادي الذي كان وحيداً فيه ويريدون أن يلقوا الآن مسكيناً آخر فيه، مثل عنز أجرب، إلى زنزانة أخرى، هي أيضاً انفرادية، ولكنهم كانوا يريدون أن ينام فيها شخصان، وحتى ثلاثة ـ لأنهم ألقوا القبض على عدد جديد من طلبة الكلية الفنية فكانوا بحاجة إلى مكان ـ والآن بعد مضي شهر ونصف يدخل أحدهما زنزانة أخرى فيرى سجيناً آخر. ينهض السجين الآخر، يرفع بطانية، يبسطها، وإذ ينغلق باب الزنزانة يقبل رأسه ووجهه. «يا أخي تفوح مني رائحة البول والعرق والعفن، لا تقترب هكذا!». «ولكن، ألا أبعث أنا أيضاً هذه الروائح؟ إن أربعمائة أو خمسمائة شخص في هذا المبنى الآن تنبعث منهم هذه الرائحة نفسها!». ومع أنهما لم يكونا مستعدين

في تلك الساعة لإفشاء شيء من إضبارتيهما لأحدهما الآخر، ففي خلال أقل من أربع وعشرين ساعة يبلغ اعتماد أحدهما على الآخر حد مقارنة اتهاماته وجرائمه باتهامات وجرائم الآخر، ويقول أحدهما للآخر أشياء لم يكونا مستعدين لقولها طوال أكثر من شهر من التعذيب ـ الذي كانا يتلقيانه مثل وجبة يومية ـ لمستنطقيهما. ويتفتحان، لأن كونهما شخصين في زنزانة انفرادية دليل على أن الخطر قد ارتفع، ليس ثمة موت أو سجن مؤبد. وعندئذ، يقوم أحدهما بتمثيل دور المستنطق والآخر بدور الحارس الأصلع». (ص ص١٩ ـ ٢١).

ب ـ «كان محمود يدري أن السجين السابق ليس سابقاً فقط، بل هو سجين دائمي. ليس للسجين السابق وجود». ويقول أيضاً:

«كان غارقاً في داخله، وكانت الأحداث المتعلقة بحدث خاص ـ حدث مطاردته، سجنه، تعذيبه، أو حدث كيفية وخطر فضح النظام ـ تشغل ذهنه إلى حد أنه نسي أنه يمكن أن تكون ثمة في الخارج شمس أيضاً، وأن الشمس ربما كانت جميلة ولذيذة أيضاً». (ص١٨٩).

ووصفه يتجلى جميلاً، ومرحاً، مهما كان الموضوع الذي يصفه. ففي وصفه لأكبر صداقت محشوراً ـ مصلوباً بين قضبان سياج الجامعة يقول:

أ ـ بقي ذراعا الجسد فوق القضبان بصورة لا تجعل بإمكان الجسد أن يسقط بفعل تأثير الجاذبية الأرضية. لو أراد أحد أن ينشر جسداً بذلك الشكل على القضبان لأمكنه أن يفهم حتماً أنه يريد الإتيان بعمل مستحيل. لقد وُضع أكبر صداقت على سفود القضبان...

«لو لم تكن حياة أكبر صداقت حياة جميلة، ولو كانت تركيباً من الفقرِ والبؤس والصرع والتشرد والأفكار السياسية المبهمة والمثيرة للأوهام، فقد كان موته جميلاً وغنياً». (ص ص٢٢٤-٢٢٥).

وفي وصفه لعملية البول في فم الدكتور محمود:

ب ـ «حاول محمود أن يتقيأ بول الرجل من فمه إلى الخارج، ونجح إلى حد ما أيضاً. ولكن يبدو أن الرجل لم يكن قد تبول ليومين أو ثلاثة. وكان عنقه يوشك أن ينكسر تحت ضغط يد الماسك بشعره أمام الرجل الواقف على المرتفع. وجد محمود أنه ليس بمقدوره أن يلفظ البول من فمه، فقد فتح بول الرجل ثقب حلقه وراح ـ بتلك الملوحة والرائحة الطازجة لكلية الرجل ومثانته ـ ينزل داخل حلقه ويسخن بطنه. وشرع محمود فوراً يبول. هل ارتخى ظهره؟ هل أثارته رائحة بول الرجل؟ أفي الأمر مسألة نفسية خاصة؟ لم يكن يدري. ولا زال يبتلع بول الرجل من حلقه مقشعراً. ولكن بوله انتهى. وانتهى بول الرجل. لم يكن محمود يرى الرجل، ولكنه كان يعتقد أن من بال لا بد أنه صاحب ذلك الصوت المتشخص. سحب الرجل سحابة بنطلونه، ومن ارتفاعه ذاك صاح: «أيها السيد الدكتور محمود شريفي! أتدري ماذا نفعل بمن يريد الحرية؟ تدري؟ نبول في فم من يريد الحرية! أفهمت؟ أرضيت؟! كانت بطن محمود ملأى ببول الرجل، ولكن محموداً كان متعطشاً لشيء آخر. كان يريد من صميم قلبه أن يعرف من هو الرجل. كان فؤاده يريد أن يتفرج بعينه على هذا الرجل الواقف هناك في الأعلى، فوق منضدة أو مرتفع آخر. كان مستعداً أن يسمح بأن يبول الباقون أيضاً في فمه على أن يؤذن له بأن يعرف من كان ذلك الرجل. وقد تركه الرجل، الذي كان أمسك بشعره وأجبره أن يبقي فمه مفتوحاً. كان واضحاً أن الرجل الذي كان فوق قد حقّر الآخرين أيضاً. فهو إذن قائد هؤلاء جميعاً، أو أنه كان ـ بنظر هؤلاء ـ موجوداً خارقاً للعادة. وكم كان تصويبه جيداً. من هناك في الأعلى بال بشكل دقيق في فم محمود. وفجأة صرخ محمود: «من أنت؟ ماذا تريد مني؟»، وصاح الرجل من أعلى: «انكتم! اخرس!..» (ص ص٢٣٣ ـ ٢٣٤). وفي وصف إحدى عمليات التعذيب:

جـ ـ «...وجاء نحو محمود، أخذ ذراع محمود، بَرَمه، وفي هذه الأثناء ضرب بجمع يده خاصرة محمود. تلاشت أنفاس محمود. كما لو أن فجوة كبيرة في مكان ما من جسده امتصت كل هواء بدنه. فتح فمه كي يخطف الهواء، ولكن كما لو أن شيئاً سد حلقه. ترك المعاون ذراعه، وفي وضع انعدام الهواء وانقطاع النفس ذلك سمع محمود: «لا تتدخل أنت.. يابن الـــ.......ـــة!». وما أن سقط على الأرض حتى وضع رأسه فوق الأرض وراح يبحث عن الهواء. كما لو أن الهواء كان إبرة وقد ضاعت فوق الأرض. وما أن انفتح طريق نَفَسه حتى ابتلع إلى أعماق بدنه قدراً من الهواء بحيث أحس نفسه قد انتفخ مثل بالون». (ص ص٣٦٠ ــ ٣٦١). وفي وصفه الاستعدادات لقدوم الامبراطورة، ثم تصوره لمقدمها، يقول:

د ــ «لم تكن الجامعة كما رآها صباحاً. بدت خالية خالية. كنسوا أوراق الأشجار، جمعوها، ونقلوها. وكانت أشجار الشارع الغربي داخل الجامعة، بظلالها، ترسم خطوطاً منتظمة على العشب. لم يكن يتردد إلا عدد من الأساتذة والموظفين ومأموري مؤسسة الأمن. أما القوى المزاحمة، قوى الطلبة، فقد أبقيت خارج الجامعة. كان بمقدور محمود أن يتصور: تستقر هليوكوبتر «فرح» على العشب. تتطاير سيقان العلف اللينة فجأة بسبب دوران المروحة عظيمة الحجم للهليوكوبتر. ثم مقدار من الشعر الملون ووجه أنثوي، وعطر وساق جميلة القوام ولباس أنيق. وبعد توقف المروحة، يهبطون من الهليوكوبتر. لوحة من جمال مخلوط، ملخبط، طويل وقصير، وجلال لم يستقر في مكانه، أو شيء يسعى للاقتراب من الجلال. يقف رئيس الوزراء، مثل دب أقرع في مسرح دمى، العصا في اليد، ويمد يده مصافحاً، ثم رئيس الجامعة، أقرع أيضاً، ووجهه الذي لا ينفع إلا لسخرية الدكتور خرسندي العصبية الماهرة، والظالمة، وعازف الكمان الباكستاني، بعينيه الهامدتين الساكنتين، يحدق إلى الوجه الأنثوي. عندما تنطلق المرأة، يتحرك الجميع وراءها،

ويعرف الجميع أنهم يشتركون في مجرد عرض واحد، عرض غال، ولكنه خال من اللطف. يتظاهرون بأن المرأة تعرف كل شيء وهم لا يعرفون أي شيء. كما لو أن كل كتب مكتبات العالم في العلم والفلسفة والأدب والفن قد قرأتها هذه المرأة، وأنهم في حضور هذه المرأة يتعلمون لأول مرة ألفباء العلوم البشرية. يدخلون الكلية، ثم يبدأون بتقديم الإيضاحات وتسلم الإرشادات والأوامر، ويذهبون بعد ذلك إلى القاعة، فيتسلمون التعليمات والأوامر الأصلية. إنهم يرجحون أن تبدو المرأة على صورة أعقل وأذكى دمى العالم، دمية لا واقعية لها، وبرغم انعدام واقعيتها ترى بعيون زجاجية أعماق بقية الدمى وتقرأها. ثم تمتلئ كالنابض، وبصورة مقررة تلفظ الكلام الذي كان ينبغي أن تلفظه، ولا تغلط قط في قولها، في نظرة اهتمامها، في عصبيتها، في فرحها، ولا في إبداء رأيها. وتقوم حقيبة يد الدمية الكبيرة والجميلة، وصبغ أظافر يديها ورجليها، وزينة شعرها، وأهدابها وحواجبها، وأحمر شفتيها، وخواتم اليد، والأقراط، وقلادتها النادرة وعديمة النظير، بإغراقها في تصنع متعدد. يبدو أن هذه المرأة لا تتجرد أبداً من هذه الملابس والألوان والتزيينات، ولا تحرز واقعية أبداً. وهي تبدو ممشوقة رشيقة خفيفة بحيث لو أن أحداً مسّ بيده خديها التركمانيين أو أخذ ذراعها فإن الرعد والبرق سيقصفان كل مكان، ومن تجرأ فلمسها يستحيل رماداً ويختفي». (ص ص١٢٢-١٢٣). وفي وصفه لزوجة محمود يقول:

هـ ــ «جاءت سهيلا إلى المطبخ. كانت ترتدي قميصاً وتنورة. وبرغم القلق الناشئ عن وجود أكبر صداقت فقد كان خداها موردين بعد. كانت آثار المحبة الليلية ظاهرة على وجنتي زوجته بحيث أوشك محمود أن يعتذر لأكبر صداقت لأنه ــ رغم مصائب صداقت غير المعلومة ــ مارس الحب مع زوجته الليلة الماضية». (ص١٥٧).

ولا تعوزه السخرية في الوصف:

أ ــ «حلق وجهه نظيفاً بحيث لا تبقى جرأة لدى لحيته كي تظهر حتى تشريف الإمبراطورة». (ص١٥٨).

ب ــ «ووجهه المدور السمين الذي... كما لو كان عجيزة أنبتت أنفاً». (ص١١٠).

* *

والأمثلة التي قدمناها على أسلوب الكاتب في الوصف تكفي للدلالة على أسلوبه في السرد أيضاً.

* *

تعود أحلام البطل وتداعياته إلى أيام طفولته وصباه في تبريز. ويتذكر أباه كلما توتر نفسياً: بعد دواره في مكتبه، بعد غثيانه في جلسة المؤتمر، وألخ.

ويتعمد إحداث التداعيات عندما يتعرض للتعذيب، بناء على نصيحة زميل علّمه الطريقة الصحيحة لتجاهل آلام التعذيب.

* *

ونفهم أن محموداً تركي، وأنه ــ وأباه ــ يعتزان بتركيتهما، كما يعتز بها طبيب مستشفى الشرطة.

كما نفهم أن النضال عند أبي محمود تتعدد ساحاته، وقد تختلف تفصيلاته، إلا أنه يبقى نضالاً أساسياً ضد نظام القمع والإرهاب الإمبراطوري، سواء كان ذلك في إسناد تأميم النفط في الخمسينيات أو احتجاجاً على اعتقال الخميني ونفيه في الستينيات.

* *

والرواية، أضيفُ، ليست عسيرة الاختصار فقط بل غير ممكنة، لأن الوصف والتأملات تستغرق صفحات طويلة، ربما كانت هي أساس الرواية، كوصف «إيشيق»، مقتل «صداقت»، المقارنة بين استشهاد صداقت وتحقير محمود بالبول في فمه، تأملاته حول شخصية البائل، وصف الدكتورين «علي خان» و«فيلسوف» ـــ من أساتذة الجامعة «المحنطين» ـــ والمكالمة الهاتفية للدكتور خرسندي، ووصفه لجرذي مطارد في «حمراء» بيروت، أو المشهد في بيت المستنطق ـــ الذي استدعاه إليه كي يواصل التحقيق معه هناك لمرضه (مرض المستنطق لا محمود)! وتعذيب شخص ـــ فيما يشبه اللعب ـــ في مقر «اللجنة»، وتداعياته الفكرية في اليوم الثامن لاعتقاله وتركه دون تحقيق أو تعذيب، أو تداعياته أثناء امتحان خطه من قبل خبير الخط الأميركي.

## ٤ ـــ أسرار بلادي

هذه الرواية أيضاً تتصدرها ثلاثة نصوص: الأول لابن خلدون، من مقدمته، يتناول أساليب خاصة للتعذيب تجعل ضحيتها يبوح بكل الحقائق. والثاني بيت شعر لناصر خسرو[١٢]:

الذئب المفترس، وإن كان واجب القتل، إلا أنه خير من الظالمين.

والثالث قول لأحد الأخوة كارامازوف، ديمتري، من رواية دستويفسكي المعروفة، جاء فيه: «أظن أن بي من القدرة ما يكفي ليجعلني أتغلب على كل شيء، كل الآلام، إلى حد أن أقول، وبكل نفس من أنفاسي أقول: **أنا موجود!** في خضم آلاف العذابات ـــ موجود! أتلوى من التعذيب ـــ ولكنني موجود! جالس في السجن ـــ ولكنني موجود! أرى الشمس، وإذا لم أستطع أن أرى الشمس فإنني أعلم بأن الشمس موجودة! ومعرفة هذا الأمر: أن الشمس **موجودة**، هي كل الحياة».

كما يتصدر الرواية تنبيه على خيالية أحداث وشخصيات الرواية.

والرواية مقسمة إلى أقسام مرقمة، يضم كل منها كتباً، مرقمة أيضاً، فيما تضم هذه فصولاً ــ بلا أرقام، وإنما ــ مسماة.

**يطالعنا الفصل الأول من الكتاب الأول من القسم الأول باسم: الحقد الأزلي:**

مستشار عسكري أميركي، برتبة عريف، ينتقل من منطقة جبلية وعرة تغطيها الثلوج، في شاحنة يقودها هو، وبمعيته مترجم إيراني. يرفض المستشار السماع لنصيحة سواق سيارات آخرين بالمبيت في مقهى طريق ثم استئناف الرحلة بعد مرور سيارات أكبر وأثقل تفتح أمامهم الطريق، وذلك لأن التعليمات تمنع مثل هذا المبيت، كما كانت تفعل في كوريا.

يطاردهما ذئب، يبتعد عن الشاحنة ويقترب منها حسب حركتها. في صباح اليوم التالي، عندما يستيقظ المترجم من النوم «ما أن رفع رأسه حتى تيبس في مكانه رعباً. كان مثل كابوس وكان كأنه يجلس على قلبه تماماً. وقد بسط خطمه على زجاجة الشاحنة على نحو جعل الجليد الثقيل الذي على الزجاجة يذوب. كانت عيناه تحدقان إلى ديفيس (العريف). كان يضع قبضتيه، على نحو مؤدب، تحت صدره، وكان شعره البني الفاتح مغموراً بالجليد المتجمد، لا يرمش له جفن. كان لهذا الحيوان روح. شل لسان المترجم، وكان ــ عملياً ــ يخشى النظر إلى الحيوان. لم يكن ليقظة المترجم أدنى أثر على وجه الحيوان. كان لهذا الحيوان هدف. كان يبدو وكأن لحم ديفيس الأبيض البراق قد سحره. لم يكن المترجم يعرف ما يفعل. كان يتصور لو أن هذا الذئب يرفع رأسه عن الزجاجة، ويتراجع، ثم بقفزة واحدة يضرب رأسه شديداً بزجاجة الشاحنة، فلابد أنه سيهشم الزجاجة. وبعد؟» (ص٣٦). ثم:

[قال ديفيس: «لا أفهم، لماذا لا يبالي هذا الحيوان بك. يكتفي فقط بالنظر إليّ؟». «وكان يقول حقاً. فطوال هذه المدة، لم يكن الذئب قد أعار المترجم أي انتباه»] (ص٤٠).

وبعد أن يحاول العريف قتل الذئب أو تخويفه، ويفشل، يفرض على المترجم أن يترك الشاحنة ويذهب إلى القرية لجلب العون. يقول له الشيخ الذي جمع له بعض الأهالي: [«عسى أن يكون ذئباً عادياً. عسى ألا يكون ذئب (سبلان)[١٣]. فسأل المترجم:

«ما فرق ذئب سبلان عن الذئب العادي؟». فقال الشيخ:

«يسمونه: قاتل الأجانب. ذئب سبلان قاتل أجانب. ذات مرة قتل قزاقاً روسياً، وقبل بضع سنوات قتل عقيداً إنكليزياً. لا شأن له بالمحليين. إن كان هذا هو الذئب نفسه فليكن الله في عون الأميركي. هذا الذئب يتلاعب بالإنسان. حتى الشيطان لا يستطيع الخلاص من شره» (ص ص٤٢ ــ ٤٣).

ولكن عندما عاد، مع الأهالي، وجد زجاجة الشاحنة محطمة ولا أثر للذئب أو العريف ــ ولكنهم عثروا على العريف في مكان قريب، وقد انشقت حنجرته حتى لكادت رقبته تنقطع فينفصل رأسه عن جسده! والعجيب أنه لم يأكل قطعة لحم واحدة من جسده، بل تركه وشأنه.

ويقول طبيب المستشارين ــ بعد أن يفحص الجثة ــ إن ذلك غريب، فالعريف مقتول، ولكن بأسنان ذئب.لو لم يكن فعل الأسنان وأثرها واضحين لكنت أجزم بأنه مقتول عمداً.

وأثناء السفرة وتوقفاتها كنا قد عرفنا أن العريف الأميركي إنسان لا جيّد ولا رديء، وهو ــ بشكل عام ــ جبان، وهو بسيط يسأل أسئلة تدل على سذاجته، ويثرثر كاشفاً ما يعتبر من الأسرار في هذه البلاد. من أسئلته:

[ ـ «لماذا ترفض عواهر تبريز أن يمارسن الغرام مع الأميركان؟». ـ «لا أدري والله. ينبغي أنِ تسألهن». ـ «ولكن لماذا كن على استعداد للنوم مع الروس؟». ـ «متى؟». ـ «عند احتلال تبريز من قبل الجيش الأحمر». ـ «لا أدري. ثم إن من الأفضل ألا تشرك بغايا تبريز في الحرب الباردة بين الكتلتين الشرقية والغربية». ثم قال المترجم:

ـ «لا أظن أن الموضوع هو كونهم روساً. فقد كان عدد من الجنود السوفييت أتراكاً». ـ «يعني؟»

ـ «لا أدري، ربما كانت مسألة اللغة ذات شأن».

ـ «وربما كانت الأمة والقومية والترهات من هذا القبيل. ثم إذا ما اتهمتني بجعل قانون الحرب الباردة يشمل البغايا، فها أنت أيضاً تجعل موضوع اللغة والقومية يشمل حالهن. إن معرفتي بالتاريخ والجغرافيا ليست جيدة، ولا أعرف الفوارق اللغوية أيضاً. في تصوري العاهرة عاهرة، إنها تفكر دائماً في مال الرجل، لا في لغته وقوميته»] (ص١٧).

أما الأسرار التي يفضحها فهي:

ـ «لماذا تذهب ابنة الدكتور شايان مع الرائد إلى كل مكان؟ فالبنت تتناول الإفطار مع الرائد، ثم يذهبان معاً إلى غرفة نوم الرائد، ثم يخرجان معاً، يتناولان الغداء، ثم يعودان فيذهبان إلى غرفة نوم الرائد...» (ص١٨). و:

«ديفيس على اطلاع دائماً على كل شيء، ومن سذاجته أنه يقول كل شيء للجميع. ويرتبط أكثر هذه الأخبار بعلاقات الضباط الأميركان بالضباط الإيرانيين وعوائلهم، أو روابط المستشارين فيما بينهم. كيف أن عريفاً يقوم بخدمة[١٤] النقيب (براون). أية من الـ«باجيات»[١٥] حبلت من الرائد (وود). امرأة أيٍ من الضّباط

الأميركان طلبت الطلاق منه.. في القنصليات الأميركية، من استأنس مع من أو من راقَصَتْه أو اختفت فجأة. لماذا ذهبت ابنة قائد الفرقة مع الملازم (بيلي) إلى طهران. وابنة أي محافظ تتكاتب مع أي ملازم أميركي» (ص٢٢).

كما يفشي للمترجم أنه غير مستعد للسفر على الطريق البري من تبريز إلى طهران لأن أحد الأميركان دهس ثلاثة أطفال فقتل أحدهم، وأراد أهله أن يقتلوه إلا أن السلطات أنقذته، وتسترت على الحادث، بعد أن دفعت المستشارية مبلغ ٢٥٠ تومان(١٦) لأبي الطفل وأمه (ص٢٣).

وهكذا يجد القارئ أن هذا الفصل ـ لعموميته وامتلائه بالمعلومات المتنوعة ـ يبدو مقدمة تعرض أرضية الرواية، خلفيتها، أكثر مما هو جزء أساسي فيها، ويعزز ذلك أن الفصل يروى بضمير الغائب، على خلاف بقية الفصول.

**وننتقل بعده إلى الفصل الثاني من الكتاب نفسه، الذي يحمل اسم: النقيب الأميركي والعقيد الإيراني:** مع اتساع قدوم المستشارين الأميركان إلى إيران يستخدم الجيش الإيراني، حتى بالإجبار، أو بالإجبار عموماً، من يعرف الإنكليزية مترجماً لهم.

يتعرف المترجم حسين تنظيفي على العقيد جزايري، وهو ضابط إيراني مدمن على الأفيون، قميء، لا يهتم بمظهره، ولا يطالب بالاحترام العسكري، الذي يستحقه رسمياً.

يفهم المترجم أن هذا العقيد كانت له زوجة، بارعة الجمال، أعجب بها الجميع، وتحرش بها الجميع، حتى رآها قائمقام المدينة الثري، فانتزعها منه. وعندما انتقل إلى طهران، أخذها معه، ولم يحرك العقيد ساكناً لأن «... من تذهب مرة، ينبغي أن تذهب إلى الأبد» (ص٦٠).

وتخلص العقيد عدة مرات من أوامر نقله، بالرشى والوساطات. وهو

يقتني الحمام والقطط، والكناري وطيور الحب، يدخن الأفيون ـ ويدل وجهه على أنه لا يدخنه للتسلية! يتكلم الفارسية بلهجة تركية غليظة. لا يعرف الإنگليزية، ويبدي ـ عملياً ـ أنه لا يحب الأميركان: «كان يجد نفسه ضحية الاستثمار، ولكن لم يكن بمقدوره أن يفعل شيئاً. كان واضحاً أن هذا الإنسان، حتى إن فكر بالتمرد، فلم يكن بمقدوره أن يفعل شيئاً» (ص٦١).

ونتعرف على حقيقة غريبة: وهي أن الحكومة الإيرانية لا تدفع رواتب المستشارين الأميركان ومخصصاتهم الرسمية فقط، بل ونفقاتهم الشخصية أيضاً، بما فيها نفقات مباذلهم!

يعمل النقيب الأميركي (شارلز كروسلي)، الذي يترجم له حسين تنظيفي، على ترصد العقيد لإهانته وتحقيره دائماً، بشكل يستفز حتى المترجم الهادئ المطيع المسالم بطبعه.

تنتهي خدمة النقيب المقررة في إيران، فتتقرر عودته إلى الولايات المتحدة. وبدلاً من الذهاب إلى تبريز والتهيؤ للانتقال منها إلى طهران فبلاده، يقرر قضاء أسبوعه الأخير في أردبيل، حيث مقر العقيد، وحيث يشدد اضطهاده للعقيد خلال هذا الأسبوع بشكل لا يطاق.

ينزعج ضباط الصف الإيرانيون، يتألمون، ولكنهم لا يدرون ما يفعلون. وفكر بعضهم في عرض الأمر على الجنرال الإيراني.

يبلغ توتر العلاقات ذروته عشية اليوم الذي كان ينبغي أن يسافر فيه النقيب إلى تبريز، حيث يبعث العقيد في طلب المترجم ـ ويدهش هذا لرؤيته حليقاً مرتباً يلمع كل شيء فيه حتى الخال الكبير على أنفه، ولا أثر للأفيون على وجهه أو تصرفاته ـ ويطلب منه أن يترجم له بدقة ما قاله النقيب في اليوم السابق، وخصوصاً كلماته الوسخة. ولكنه يهمل الأمر بعد ذلك، ويقول للمترجم إن النقيب «ربما عاد إلى بلاده

قبل الوقت المقرر»، ويلحق بالمترجم للانضمام إلى النقيب كي يجعله يرى أنه، العقيد، «أيضاً يحلق لحيته. اليومَ يومٌ يحلق فيه العقيد جزايري لحيته».

في ذلك الصباح، يقوم العقيد ودزينة من ضباط الصف، بتمزيق النقيب بنيران رشاشاتهم.

يعتقل العقيد وبقية القتلة، ومعهم ضابط كان يتمتع بإجازته ذلك اليوم، إضافة إلى المترجم ويوضعون في زنزانات انفرادية.

ويروى هذا الفصل بضمير الغائب أيضاً.

**الكتاب الثاني**

**ويحمل فصله الأول عنوان: «أقوال جار الجنرال شادان».**

جنرال مهيب مرتب مهندم منظم، يركب حصانه كما لو كان حصاناً صغيراً يجلس عمودياً على حصان كبير! «كان بين الجنرال والحصان نوع من الرفقة. كانا صديقين جيدين جداً ومتعاطفين» (ص١٢١).

وكان من المهابة بحيث لا يجسر أحد على النظر إلى عينيه، ولذا فليس غريباً أن يقول رضا شاه:

«لو لم أصر أنا شاهاً، فقد كان يجب أن يصير شادان الشاه» (ص١٢١). وهو في منتهى الأدب، يجامل أصحاب الدكاكين، ويرد على تحياتهم بأحسن منها.

كان يزور معمل الصابون الذي يملكه راوي هذا الفصل، ويتعرف على العمال بالاسم، ويحادثهم ويتلطف بهم. ثم يوصي صاحب المعمل بأن يرسل له عشرة أو إثني عشر كيلو غراماً من الصابون، وينتخب عاملاً يأمر بإرسال الصابون معه إلى بيته!

«بعد ساعتين أو ثلاث يعود العامل. لم يكن ممكناً أن يزور أحدٌ منزل

الجنرال ولا يلقى استقبالاً حاراً. من هذه الناحية ليس ثمة فرق بين عامل ورب عمل. كان الجنرال يستبقي العامل، وربما حتى يصدر أمراً بأن يضعوا أمامه طعاماً جيداً، وربما يعطي العامل إنعاما. كنت أعرف أنه يعطف على العمال. ما كنت قط لأسال العامل نفسه عما جرى له في منزل الجنرال. إنهم يستحون أن يقولوا أيَّ استقبال حار لقوا، وأي إنعام جيد وضعه الجنرال في جيوبهم. لم يكن العمال يقولون شيئاً بهذا الصدد. لا لي ولا للعمال الآخرين» (ص١٢٢).

وهو يخرج إلى الجبال في الصباحات الباكرة في الربيع، ويتناول إفطاره هناك. يوافيه صاحب معمل الصابون إلى هناك ويفطر معه.

إنه حاكم المدينة ويعرف عنها كل شيء.

وعندما يخرج مع زوجته لا يكلمه أحد. وإنما يحيونه فقط، ويرد هو على تحياتهم. تتبختر هي أمامه، ويمشي هو على بعد خطوات وراءها، محدقاً إلى أمام، في مؤخر عنقها. وهي جميلة جداً، رشيقة بامتلاء، «وعيناها أسود عينين في المدينة. يقول الجميع إن الجنرال عاشق صيد. وهو لم يعقد على هذه المرأة، بل اصطادها» (ص١٢٤).

فتنت زوجته كل أهل تبريز فصار الجميع «(ملوثين)، وهؤلاء أسوأ من أن يصيروا عاشقين(١٧): مخلوط من العشق والشعر والجنون والسكر والثمل ونشوة السكر، والفرار إلى الجبال والصحارى، والبقاء طوال الوقت في المسجد والخرائب» (ص١٢٥).

وفي الأغلب تكون معها أختها الأصغر، وهي أكثر امتلاءً وأجمل ولها الفتنة نفسها. وأحياناً يصطحبهم مراسل للجنرال، يمشي خلف الجنرال، وما أن تقف إحدى المرأتين حتى ينفلت المراسل إلى أمام ويتلقى أوامرها وينقلها إلى الجنرال ثم ينفذ تعليماته بشأنها.

وأحياناً تخرج الأختان بمفردهما «الأختان، مثل طائرين جميلين، واحدة أجمل من الأخرى، إحداهما أكثر رمزاً من الأخرى، أكثر (تلويثاً)» (ص ص١٢٦-١٢٧).

وكان كل مراسلي الجنرال وسيمين.

لاكت الناس الحياة الداخلية للجنرال وزوجته وأختها ومراسليه، حتى لم تعد أختها تخرج معها.

وزوجة الجنرال «عندما تنطلق مع صديقتها، (ماهي)، يعني زوجة العقيد جزايري السابقة، لا يعلم المرء أياً منهما أجمل من الأخرى. كانت ماهي لعبة، أفتى من زوجة الجنرال بسبع أو ثماني سنوات، وربما عشراً. كانت ماهي تبريزية، ولعبة بكل معنى الكلمة. ولكن امرأة الجنرال كانت معروفة بعينيها، مثل أخيها وأختها، كما كانت معروفة بشعرها» (ص١٣٤).

وقد تزوج الجنرال بهذه الزوجة بعد أن رأى أخاها. «والناس يلغطون كثيراً على الجنرال وأخي زوجته من جهة، وعن هذا الأخ وأختيه من الجهة الأخرى» (ص١٣٤).

وفي مراسم يوم الجيش يلقي به حصان جديد إلى الأرض، فيسقط الجنرال من ارتفاع بضعة عشر قدماً.

يشيع الناس بأن شخصاً يقع تلك الوقعة لابد أن يفقد رجولته. ويواصلون الإشاعات فيقولون إنه ــ لذلك ــ يبدل مراسليه، وإن مراسليه مع زوجته...

ثم غاب الأخ، وقيل إنه صار أهم من الجنرال نفسه.

ووقعت فضيحة للجنرال في شيراز، أو أصفهان.

وقتل الجنرال وهو متقاعد. قتله شاب، وكان كلاهما عاريين!

ويقال إن زوجته تسكن الآن بيتها الموجود في شمال طهران[١٨].

ولا يعرف الراوي شيئاً عن ابنتهما.

**أما الفصل الثاني، الموسوم بـ«أقوال مترجم سابق»، فهو مقسم إلى رسائل:**

في الرسالة الأولى، يقول: التحق فتى باسم (هوشنگ) منقولاً إلى مدرستهم بتبريز، في الصف السادس الثانوي. وهو وسيم، ثري، طويل القامة. أراد الطلاب ومدرس الرياضة ضمه إلى فريق كرة السلة، التي كان يلعبها على درجة من الجودة، ولكنه كان يرفض أن يخلع بنطلونه ويلبس السروال الرياضي، فترك اللعب وانطوى على نفسه.

صار يرافقه في الذهاب إلى المدرسة والعودة منها مراسلان.

يؤذي هوشنگ المترجم، ربما حسداً، إلى حد أن يصب عليه البنزين ويشرع في حرقه! في المدرسة، ويحاول ذلك مجدداً في دار سينما!

وأخيراً يأتي الجنرال إلى المدرسة: عند اصطفاف الطلاب يوعز مدرس للمترجم السابق بأن يتقدم الصفوف، ثم يأتي المدير ومعه ضابط، يتحدثان قليلاً، ثم يشير له ناظم المدرسة أن يتقدم. ينظر إليه الضابط، ثم يصفعه «صفعة قوية. كانت يده ثقيلة بشكل عجيب. كما لو كانت تزن طناً. تلويت وسقطت إلى الأرض». كان ذلك الضابط جنرالاً. وكفَّ هوشنگ منذئذ عن محاولة إحراقه.

ويذكر المترجم السابق أيضاً أن الجنرال كان ضابط الارتباط (بين الجيشين الأميركي والإيراني). وأنه كان معجباً جداً بالملازم (بيلتمور). ويشاع أنه جاء يوماً بزوجته إلى المستشارية بسيارته الشخصية لا العسكرية.

وقد حصل الملازم على نوط اللياقة لدوره في توثيق العلاقات بين الإيرانيين والأميركان، ولا يدري المترجم السابق إن كان ذلك بسبب علاقته بالجنرال.

وترقى في الجيش، وقتل في فيتنام وهو برتبة مقدم. وينهي الرسالة طالباً من المترجم الجديد أن يحقق عن بيلتمور من زوجة الجنرال ولا يكتب إليه هو بعد.

ويضيف المترجم على رسالته تذييلا، إذ أنه رأى حلماً ذكره بواقعة، وهي مشاهدته ــ مع أبيه ــ لإعدام أحد السياسيين المعارضين في تبريز. ينظر المحكوم إلى المترجم وأبيه، ثم يسمر نظره على ضابط، فيطلب أبو المترجم منه أن يعودا لأن الضابط رآهما! ويطلب الأب من ابنه عدة مرات أن ينظر إلى وراء كي يرى إن كان الضابط يتعقبهما والمترجم ينفي، حتى عنّفه الأب: أأنت أعمى؟ ألا تراه؟ ويلتفت المترجم فيراه، ولحق الضابط بهما ولكنه اجتازهما دون أن يكلمهما. ولما سأل أباه عنه أجابه: «مسؤول كل الإعدامات. هو الذي يصدر الأوامر. ويقف هو نفسه أيضاً، وينظر» (ص١٦٣).

**والفصل الثالث يحمل عنوان «تقرير استخبارات».**

بناء على اقتراح مركز المستشارية، وموافقة الشاه ورئاسة أركان الجيش، تم تعيين الجنرال شادان ضابط ارتباط بين القوات المسلحة الإيرانية في آذربايجان وإدارة المستشارية في تبريز.

«خارج المستشارية، في المدينة ذاتها، يتمتع بشهرة أسطورية. عند فرار الديمقراطيين[١٩] من آذربايجان، كان الجنرال على رأس قوات الجيش الإمبراطوري التي دخلت تبريز وتمكنت ــ خلال فترة قصيرة ــ من اعتقال العسكريين الهاربين أو أولئك الذين التحقوا، في زمان حكم الفرقة، بقوات الفرقة. لقد جرى قتل عدد من هؤلاء في الشوارع. وقد تمكن الجنرال، بمجموعات من تشكيلات مدنية جرى تشكيلها باسم أهالي المدينة ــ وكان أكثر أفرادها في الواقع من محسوبيه ــ أن يعثر على عدد من فدائيي الفرقة، الذين كانوا اختفوا في بيوتهم أو في أماكن أخرى، وقضى عليهم بوساطة هذه

المجموعات نفسها. والجدير بالذكر أنه لم يكن حينذاك جنرالاً، وبعد ذلك ـــ في ظل هذه الخدمات بالذات ـــ صار مقدماً فعقيداً، ثم بفضل الخدمات الثمينة التي قدمها في نهضة الثامن والعشرين من مُرداد[٢٠] ترقى إلى رتبة عميد» (١٦٦).

وعند مقتل النقيب كروسلي اشتغل بحماس وجد ودراية، وبلا كلل، ولم ينم لمدة ثمان وأربعين ساعة. وكان هو الذي انتخب منفذي الإعدام من الأميركان: شخصين كانا على وشك العودة إلى الولايات المتحدة! وجاء بزوجة العقيد السابقة علّها تقنعه بأن يتكلم. طلب بستاناً، يخص أحد أصحاب المعامل، للاعتقال والتحقيق، ثم أعدم الضابطين والإثني عشر ضابط صف باثنتين من رشاشات ضباط الصف، التي قتلوا بها كروسلي.

«يلغط الناس بهذر كثير، كما ذكر لي جواسيس، عن علاقة الزوجة والزوج، علاقات أخت الزوجة بأختها، وعلاقة أخي زوجة الجنرال ببعض الأحداث المريبة وغير المخطط لها... على العموم، أعتقد أن الإشاعات المتعلقة بالجنرال وعائلته لا أساس لها. أما فيما يتعلق بالإشاعات المتعلقة بالجنرال، الجنسية، فليس ثمة شواهد موثوقة. ومن الجهة الأخرى، فتلك إشاعة أيضاً. إن عدد مراسلي الجنرال الشبان هو السبب في تلك الإشاعات» (ص١٧١).

«في علاقاته مع زوجته، أخت زوجته وأخي زوجته، والجنود المحيطين به، لا يتمسك بأي مبدأ أخلاقي، ولكنه ـــ في معالجته للأخلاق بشكل مجرد ـــ شديد التمسك بالمبادئ . يعني أن الجنرال يحمي أخلاقاً لا يعمل بها» (ص١٧٥).

**والفصل الرابع، الأخير، من هذا الكتاب، عنوانه: قول مترجم سابق.**

وهو يضم رسالة ثانية من ذلك المترجم يقول فيها إنه عثر على مذكرات العقيد (الملازم السابق) بيلتمور، وأنه يرسل إلى الراوي ما يتعلق منها بإقامته في إيران وذكرياته عنها.

**الكتاب الثالث**

**ويحمل فصله الأول اسم: قول بيلتمور**

تستّر الجنرال على مقتل النقيب كروسلي بحيث «لم يذكر أحد تقريباً، يعني عدا الذين شهدوا ما وقع، شيئاً عن اغتيال النقيب. وكذلك ــ بسيطرته الشديدة ــ لم يتسرب إلى خارج المعسكر قط. لقد كانت معلومات الدنيا عن قتل النقيب كروسلي أكثر بكثير من معلومات أهالي أردبيل، ولم يكن لهذا أن يصير عملياً إلا في ظل فعالية الجنرال المكثفة» (ص١٨٩).

يشترك في التحقيق القنصل الأميركي في تبريز، ومبعوث وكالة المخابرات المركزية من طهران، وإثنان من مأموري الساواك، وبيلتمور. وهم لا يصدقون أن القتل محدود بحدوده تلك، وإنما يعتبرونه جزءً من وقائع الحرب الباردة! وقد شارك مرة في التحقيق أخو زوجة الجنرال ــ الذي انضم الآن إلى الساواك.

عند اعتقال العقيد وجماعته لم تكن (ماهي) ــ زوجته ــ لتتجاوز الثلاثين من عمرها.

والجنرال لا يعتبر العقيد، وإنما كروسلي، مقصراً. ومع ذلك رتب صدور الحكم عليه وعلى جماعته، كما رتب تنفيذ الحكم وأشرف على تنفيذه، لأن ذلك ــ في نظره ــ ما يجب أن يكون، إذ أن الإعدام سياسي.

وأخت زوجة الجنرال (تهمينه)، أصغر من أختها، (سودابه)، بخمس سنوات أو ستّ، وهي أسمن منها، وأقل جمالاً. بسبب تحطم حبها تركت دراسة الآداب في الجامعة. بدت يوم الإعدام كأنها حامل في شهرها الرابع أو الخامس، أو أنها وضعت حملها ولكنها لم تعتن ببطنها. وكانت تلبس السواد. (ولنلاحظ هنا أن سودابه ــ في التاريخ شبه الأسطوري لإيران ــ كانت زوجة خائنة لأحد ملوك الفرس القدامى. أما تهمينه فهي زوجة البطل رستم، لم يعاشرها

زوجياً غير ليلة واحدة كان ثمرتها (سهراب)، الذي ذهب بعد بلوغه لقتال رستم دون أن يعرف من هو، فقتله رستم بخدعة وهو يعرف أنه ابنه!).

يوم الإعدام، يأخذ الجنرال الملازم بيلتمور إلى بيته على الإفطار، ثم يتركه مع زوجته وأختها بحجة أنه يريد تقديم تقرير إلى قائد الفرقة، وعندما يريد بيلتمور أن ينسحب هو أيضاً للسبب نفسه يمنعه الجنرال لأنه لا ضرورة لذلك، ولأن المرأتين تستمتعان بحديثه!

تتركه المرأتان وحده، فيشغل نفسه بالتطلع إلى الحديقة. فجأة تمسك بعينه، من وراء، يدان نسويتان ويطلب صوت أن يحزر من؟! يتصور أنها تهمينه، ولكنه يدهش إذ يجدها سودابه، وفي قميص نوم لايغطي من بدنها شيئاً. يستغرب:

[ ــ «ولكن فكري، ماذا يجري لو رآك الجنرال في هذا الوضع معي؟ أرجوك اذهبي وارتدي ملابسك، وسأذهب أنا أيضاً؟». ــ «كف عن المزاح بعد. لو أن الجنرال لم يكن هو نفسه يريد، أتظن كان يمكنني أن أقْدم على هذا الأمر؟». ــ «ماذا تعنين؟ أفأراد الجنرال بأن تأتي إليّ على هذا النحو؟...». ــ «معلوم. لقد رتب هو نفسه كل الأمور. إنه هو الذي ينتخب دائماً». ــ «ماذا تعنين؟ لا أفهم». ــ «إنه يقوم بأفضل انتخاب. وقد جرى انتخابك منذ شهور، منذ أن قدمت إلى إيران. وقد أراد الجنرال هذه المرة ــ استثناءاً ــ أن أرى أيضاً هذا الإنسان العجيب. رأيتك، وأحببتك. وأنت الآن هنا. وأنت مجبور الآن أن تأتي. إذا لم تأت فسأحدث فضيحة: أصرخ وأطلب المراسلين. كما سيأتي الجيران. تصور: يريد أميركي أن يتجاوز على امرأة الجنرال! هيا، تعال». ــ «وماذا عن أختك؟». ــ «أختي تحس نفوراً من هذه الأمور. اليوم، جاءت إلى هنا بصورة استثنائية. إنها لا تفكر إلا في شاب فُقد وضاع قبل سنتين. مالك ومالها؟ لقد ذهبت. لقد فهمت أن الجنرال جاء بك إلى هنا من أجله ومن أجلي. هيا، تعال» (ص ص٢٠٩-٢١٠).

وفي غرفة النوم المبتذلة، التي تليق ببغي عجوز أكثر مما بامرأة الجنرال الجميلة التجددية، تقول له:

ــ «هذه الغرفة تاريخية. لقد حل الشاه بهذه الغرفة، وحل بها أخوته أيضاً. كما حل بعض الوزراء. وجاء المراسلون أيضاً. لم يكن ينقصنا ــ أنا والجنرال ــ إلاّك. ولكننا نريدك لهدف خاص. فالجنرال مغرور جداً» (٢١١).

ولم يفهم أي غرور هذا!

بعد أن يضاجعها، يأتي الجنرال، عارياً والمسدس في يده. يخاف بيلتمور، ولكن الزوجة تقول له:

ــ «لا تخف، إنه لن يعضك. لا تخش مسدسه. انهض واذهب. انتقم منه لمراسليه» (ص٢١١).

وبعد مدة يذهب ثلاثتهم، مع أخت الزوجة وأخيها، للصيد: الجنرال وزوجته وأختها في سيارة عسكرية، والأخ في سيارة بيلتمور. يخبره أن أخته حامل، وأنه ــ بيلتمور ــ قد نجح في «مهمته!» وأثناء الحديث بينهما ينكر أن يكون الجنرال عشقه هو أولاً ثم أحب أخته.

ويسأل بيلتمور الجنرال لماذا لم يخبره بأن زوجته حامل، فيتهرب هذا من السؤال، ثم يقر بالواقع:

[ ــ «والآن قل لي: ممن الطفل؟ مني أو منك؟». ــ «إنك تبالغ في التدخل الآن». ــ «أنا لا أبالغ. من حقي أن أعرف». فقال: ــ «ولكن ابنة المحروق هذه ليست معي أو معك فقط. ثم، ينبغي أن تعلم أنني لا أستطيع الإنجاب. وقد قضت معك وقتاً أكثر مما فعلت مع أي شخص آخر. ولهذا السبب، فالمحتمل أن تكون أنت أبا الطفل» (ص٢٢٣). كما لا يستبعد الجنرال أن يكون الطفل من أخيها!

ويقتل فهدٌ أحد المراسلين، بينما يصطاد الجنرال أربعة فهود.

وفي الليل يدخل (هوشنگ)، أخو سودابه ـ التي ينادونها بـ«أُلي» ـ خيمة بيلتمور، ويطلب مساعدته على الرحيل إلى أميركا، لكي يتمكن من سحب أخته وابنها بعدئذ إلى هناك.

[ ـ «أية أخت؟ أي ابن؟...». ـ «أختي الصغرى ولدت من حبيبها ولداً. أخفيناه. عمره الآن ثلاث سنوات. في بيتي..». ... «ماذا حل بحبيب أختك؟». ـ «مات». ـ «لماذا؟». ـ «قتله الجنرال». ـ «لماذا؟ كيف؟..». سألت: ـ «ولكن لماذا قتل الجنرال حبيب أختك؟». ـ «كان الجنرال يريده. ولكنه لم يسلّم. قاوم، فقتل». ـ «بهذه البساطة؟ ألم تُقدَّم شكوى على الجنرال؟ والمحكمة؟ والقانون؟». ـ «المحكمة والقانون هما الجنرال ذاته».. (ص٢٣٦).

يستغل بيلتمور هذا الوضع فيلوح لهوشنگ بالذهاب إلى أميركا، ولكن ليتدرب فيعود مأموراً للـ: (س آي أ)، خاصة وأن هوشنگ «عنده نقاط قوة ونقاط ضعف أغلب المأمورين والجواسيس. إن التطلع، التعقيد الفكري، الابتلاء النفسي الموازي للذكاء، الشجاعة، وحتى ـ في أكثر الأحيان ـ الجاذبية البدنية تشكل صفات أكثرية المأمورين ـ إلى حد الإجماع» (ص٢٣٦).

ويفهم هوشنگ تلميحات بيلتمور بوضوح، وينضم إليه في كيس نومه!

وفي الصباح التالي تشرع تهمينة بقتل الجنرال بالبندقية، انتقاماً لحبيبها (ناصر). يحاول بيلتمور صرفها عما شرعت فيه:

[ ـ «إن كان الجنرال قاتل صديقك، فلماذا لا تخبري الحكومة؟». ـ «أيها السيد الأميركي، إن لهذا القاتل يداً في كل مكان. يمكنه أن يقتل عشرات الآخرين ولا يصيبه شيء» (ص٢٤١).

ويطلب عريف أميركي من بيلتمور مساعدته في «تبني» ـ إقرأ: شراء ـ

طفل إيراني لأنه وزوجته لا طفل لهما. لا يعترض بيلتمور من حيث المبدأ، ولكنه يطلب وقتاً لمشاورة الجنرال. عندما يشاوره ــ بدون ذكر التفاصيل ــ يريد الجنرال أن يستغل الفرصة ليتخلص من ابن تهمينه.

في هذه الأثناء يقنع بيلتمور هوشنگ بخطة السفر كما يريدها هو، ويقدمه للمستر فوتوز، القنصل.

ويرى ابن تهمينة فيذهله جماله، فيفاتحها بأن تتزوجه ليأخذها، والطفل، بعد انتهاء مهمته، إلى الولايات المتحدة. ولكنها ترفض، لأنها ترى أن وظيفتها تربية الطفل ــ الذي كانت السبب في مقتل أبيه وجده. ولأنها تجد أباه حياً فيه، وهي تسمع صوت الأب دائماً يطلب منها أن تربيه ولا تسلمه لغيرها. ولأنها تعتبر بيلتمور حليف الجنرال، أولاً وآخراً، فهي ترى أن طريقها تختلف عن طريقه.

ــ «إنك أبو طفل أختي، دون أن تكون زوجها. وإضافة إلى ذلك، فقد كانت لك علاقة مع الجنرال نفسه. كيف يمكنني أن أسلم طفلاً ابن ثلاث سنوات، لرجل بريء قتل على يدي الجنرال، إلى يديك؟ كيف يمكنني أن أسلم جسدي الطاهر إلى يديك، أنت الذي وضعت جسدك تحت تصرف آدمية مثل (ألي) وآدمي كالجنرال؟! ماذا أجيب ذكرى ذلك الرجل، الذي مات من أجلي؟ لقد كنت ضجيع أفسد شخصين في هذه المدينة، أما أنا فلم أعشق إلا مرة واحدة، ولم أمارس الحب إلا مرة واحدة. ولم أسمح قط ليد رجل أن تمس جسدي بعد» (ص ص٢٧٠-٢٧١).

[قلت: ــ «إنك تريدين تربية طفلك على نحو يجعله ينتقم لأبيه. إن القتل، وتربية طفل من أجل القتل، ليس هدفاً ذا قيمة كبيرة». فقالت: ــ «لا تنصحني أنت، أيها السيد الملازم بيلتمور، بهذا الشأن. فالكل يعرف أن حياة عسكري أميركي كان قبلاً في كوريا، وهو الآن في إيران، معجونة بالقتل والجريمة. لو لم يكن القتل هدفاً ذا قيمة كبيرة، فلماذا تربون الناس لكي يقتلوا، ولا تأنفون أنتم

أنفسكم من قتل الناس؟ عندما تربون أناساً كي يقتلوا أناساً آخرين، أفلا تظنون أننا يجب أن نربي، نحن أيضاً، أناساً كي يقتلوا قَتَلَتَكم المدربين؟ أولا تظن أنني لو سلمت ابني بيديك فإنك ستجعل منه غداً قاتلاً لكي يقتل أناساً آخرين، أناساً لم يظلموا أحداً في حياتهم؟ إن مسيريْ حياتينا ليس منفصلاً عن أحدنا الآخر فقط، وإنما أحدهما ــ دقيقاً ــ مقابل الآخر..» (ص٢٧٢).

وبعد ثلاثة أيام، تأخذ طفلها وترحل.

يطلب بيلتمور من مركز المستشارية العسكرية بطهران أن يبحث عنها ويخضعها للرقابة، لأنها سياسية متطرفة! ولكنها، كما يقول في مذكراته عن يوم رحيله إلى طهران والعودة منها إلى أميركا: «..صارت قطرة ماء وتبخرت، أو غارت في الأرض. تحطمت كل جهود الجنرال، والجندرمة، والشرطة، والمستشارية، والساواك، وشرطة النجدة، والركن الثاني في الجيش. لم يستطع أحد قط أن يعثر على أثرها» (ص ص٢٧٦ ــ ٢٧٧).

ونفهم من مذكراته أنه أصيب بما يشبه الجنون في فيتنام، لقصفه محل لم يكن مطلوباً قصفه، ويهرب من المستشفى، ويرى الضابط الرابط بين جيش فيتنام الجنوبية والقوات الأميركية، مع امرأته، أو عاهرة، فيتصوره الجنرال الإيراني وزوجته، يكلمهما فيحاول أحد أفراد الانضباط العسكري إبعاده عنهما، ولما يفشل يلقى القبض عليه لإعادته إلى المستشفى.

وفي المستشفى يتصور أمه وأباه، اللذان يزورانه، الجنرال وزوجته فيحدثهما على هذا الأساس مما يجعلهما يتصوران أن لا علاج له، أو أن معالجيه لم يعطوه دواءً، أو أعطوه دواءاً غير دوائه، للتخلص منه، فهو قد أباد قرية كاملة مما سبب لقيادته ورطة!

**القسم الثاني: الكتاب الرابع**

**الفصل الأول منه باسم: قول العقيد جزايري.**

وقوله وصية! وليس كلاماً عادياً.

يسرد وقائع قتل النقيب كروسلي: زار ضباط الصف العقيد في بيته يوم إجازة مراسله. لقد اتخذوا قرارهم بقتل النقيب بشكل علني، يجعل الضباط يفهمون أنه لا ينبغي السماح للأميركان بدخول المعسكرات الإيرانية. ويضيفون: إن كروسلي يهيننا ولا يعلّمنا، وقد انتخبك أنت لأنك أضعف الضباط. ولكن العقيد يخاف، فيرفض، ويطلب منهم ألا ينتظروا من مدمن مخدرات أن يشاركهم عملهم. فيقول له أحد ضباط الصف وهو أجرأهم وأحسنهم كلاماً ــ بعد أن يستعرض موضوع زوجته وإدمانه وانقطاعه عن المجتمع ــ إن هذا النقيب صار القشة التي قصمت ظهر البعير. «إنه راحل قريباً، ولكنه يريد أن يخلّف وراءه حثالتك ثم يرحل. ونحن نتصور أننا، قبل أن يغادر إيران، ينبغي أن نقضي عليه. لا من أجلك فقط، ولكن من أجلنا أيضاً، ومن أجل الجيش أيضاً. ومن أجل الشعب الإيراني أيضاً. ينبغي أن نبين أن بالإمكان الوقوف بوجه الأميركان» (ص٣٠٠).

وهم لا يطلبون منه إلا ترك مخزن الأسلحة مفتوحاً كي يأخذوا اثنتي عشرة رشاشة مع أمشاط عتادها. يوافق أخيراً، فيتخلص من معاونه ــ الملازم حميدي ــ بأن أعطاه الإجازة التي كان هذا طلبها منذ مدة. أما المترجم، فقد قرر إبعاده عن النقيب بأي شكل كان، على أن يعامل بشكل اعتيادي كي لا يعتبر بعد ذلك مشاركاً في الأمر.

ويفكر العقيد أكثر في الأمر، فيقتنع به حتى ليقول:

ــ «لست قاتلاً. وما كنت لأريد قتل أحد. ولكني كنت أحس انعدام الفائدة،

انعدام الهوية، وانعدام أي شيء. إن موت النقيب كروسلي يضع أمامي هدفاً آخر. إنه ينقذ من هذا التحقير. إن موته طريق نجاتي» (ص٣٠٢).

ثم يتذكر حياته الماضية: بعد احتلال الجيش لمدينة تبريز بنحو أربع سنوات، بعد انسحاب حكومة الفرقة منها، تزوج ماهي. حاول تطويرها ودمجها بالحياة الاجتماعية، ولكن لأنها كانت بلا خلفية، لم ينفع معها ذلك. غرر بها أولاً عقيد، صديق لزوجها، ثم قائمقام أردبيل، الذي أخذها إلى طهران.

بعد رحيلها التجأ إلى الشيخ صفي[٢١]، وصار يلازمه أكثر أوقات فراغه. وهو مصمم على التقاعد، وبيع بيته وتسليم حيواناته لشخص يحبها، والرحيل إلى كربلاء لمجاورة الإمام الحسين. وقد قوّى مجيء كروسلي هذه الفكرة عنده.

**الفصل الثاني، واسمه: قول حسين ميرزا**

في الشق الأول من هذا الفصل تواجهنا تداعيات حسين هذا:

قضى ستة عشر شهراً في زنزانة انفرادية. لذلك، ولأن أحداً لم يسمع بقتل كروسلي وإعدام ضابطين وإثني عشر ضابط صف بسببه، يعتبره زملاء السجن قد جن بسبب حبسه الانفرادي الطويل! يقول له السجناء: إن صدّقك (عبد الله خان) فسنصدقك. يواجه عبد الله خان، وعندئذ يفهم أن شكله قد تبدل بصورة لا توصف، إذ يريه وجهه في مرآة مكسورة ويطلب منه أن يفعل كما فعل هو، بعد حبسه في الانفرادي لمدة سنتين: أن يترك التفكير في أي شيء ويجلس تحت الشمس، فالشمس تجدد الحياة!

يجلس تحت أشعة الشمس، فيتذكر كل قصة حياته.

أما الشق الثاني من هذا الفصل فيوفر معلومات عن القضية، وعن مصائر الجنرال وعائلته وزوجته، إذ يمتلئ السجن بأناس تختلف محكومياتهم وأسبابها، وهو باق في مكانه، ولم يعد يهتم إن كان أحد يصدّق قصته أو لا يصدقها.

ويلتقي في السجن بأحد مراسلي الجنرال، الذي كان يرافقه عندما قتل الفهدُ المراسلَ الآخر، فيحدثه هذا المراسل عن الكثير من المسائل المتعلقة بالحياة الخصوصية للجنرال والملازم الأميركي وزوجة الأول وأختها. ويخبره أن الجنرال قتل في شيراز أو أصفهان، وقد وجد عارياً في غرفته بالفندق، ومعه فتى في السادسة عشرة أو السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره، عارياً هو الآخر. ولكن المراسل لا يعتقد أن لهذا الفتى علاقة بالأمر، وإنما هو مجرد تغطية لعمل سياسي مهم! وواضح من هذر هذا المراسل أن الفتى هو ناصر الإبن، ابن ناصر وتهمينه. كما ينقل له أن بعض المراسلين أخبروه أن الجنرال أرسلهم ذات يوم، قبل ١٧ ــ ١٨ سنة إلى ناصر الأب، حبيب تهمينه، ليخبره أن يذهب بأسرع وقت إليها، في بيت الجنرال، فالبيت خال ويمكنهما الاختلاء باطمئنان. وعندما يصل البيت، يجد الجنرال هناك، فيطلب هذا معاشرته، فيرفض ويهرب، إلا أن المراسلين يقبضون عليه ويربطونه، ويبدأ الجنرال بضربه بالسوط حتى الموت. تأتي تهمينه ولما تجده ميتا تهاجم الجنرال، ثم ترمي نفسها على القتيل وتبكي نادبة: ناصر! ناصر!

ويسمع حسين أيضاً أن زوجة العقيد جزايري «صارت عشيقة لعدد من رجال البلاط، ويقال إنها حتى شوهدت في غرف نوم واحد أو إثنين من أخوة الشاه، ثم قيل إنها تنقلت من يد لأخرى حتى صارت امرأة أحد أكبر رجال البلاط.

ويقرأ في السجن اعترافات، ورسالة ندم، لسجين سياسي كان حاول اغتيال الشاه، في جريدة، ويضطرب فجأة لأنه يرى في الجريدة التي يقرأها صورة ماهي، إلى جانب رئيس دولة أجنبية، ممن كانوا يترددون على إيران تحضيراً لاحتفالات مرور ٢٥٠٠ سنة على تأسيس الملكية في إيران!

وفي السنوات التالية يرى صورها في الصحف كثيراً، ولكن ليست بمفردها

أبداً، «كما أن صورها لا تنشر أيضاً قرب صورة فرح (زوجة الشاه) أو أشرف (أخته)، لأن هاتين أذكى من أن تسمحا بنشر صورتيهما إلى جانب صورة ماهي، فجمال ماهي يقضي على أية واحدة» (ص٤٢٩). ولكن تصاويرها كثيرة مع ديگول، پومپيدو، تيتو، سيدار سنگور، هيلا سيلاسي، سپيرو أگنيو (نائب نيكسون)، كنستانتين (ملك اليونان) وكيسنجر. وفي المرة أو المرتين التاليتين، اللتين جاء كيسنجر فيهما إلى إيران، حل في بيت ماهي. ورغم ذلك، ورغم جمالها، فإن اسمها لا يذكر أبداً!

وفي بعض الصور يظهر معها رجل أصلع وأنيق، يذكر أحياناً على أنه مرافق الشاه.

ورأى حسين مرة صورة، ذكرت تحتها أسماء الجميع، عدا ماهي بالذات! هي والأصلع وسنگور دون ذكر اسمها أو اسمه، مع أليزابث تايلور وعدد من السيدات الأجنبيات في بيتها، بدون ذكر اسمها أو الأصلع. لم يعرف المترجم غير أنه جنرال. ويتساءل المترجم أين الجنرال الذي كان زميل العقيد والذي أشرف على التحقيق معه (شادان)، وأين الجنرال الذي ذكره هذا على أنه زوجها حينذاك.

كما يفهم من المراسل أن أخا زوجة الجنرال كان حاضراً كل مراحل التحقيق مع قتلة النقيب الأميركي، وأنه قد صار بعد ذلك مهماً، أهم من الجنرال نفسه.

أما الأخت فقد سافرت إلى شيراز أو أصفهان وأقامت هناك، ومع أنها احتفظت بجمالها إلا أنها لم تعد تعتني بنفسها ولا تلبس غير السواد، وقد أبدلت اسمها إلى: تهيمنه ناصري!

وفي هذه الأثناء كان أخو العقيد جزايري قد عثر على وصية أخيه، وسلمها لأم المترجم لأنه الوحيد الذي يثق به.

تقوم ثورة شباط ١٩٧٩ فيُخرج الشعب السجناء على الأكتاف، ومن بينهم المترجم حسين ميرزا تنظيفي، وقد تساقطت أسنانه وهبط وزنه من ٧٠ إلى ٤١ كيلو غراماً، وتساقط كل شعر رأسه وأصيبت معدته بقرحة طويلة. كان في الثالثة والأربعين يبدو مثل شيخ في الستين!

يذهب إلى أردبيل ليتحقق من أخي العقيد فيجده قد مات بالسرطان. يتوسل بزملائه وزملاء (عبد الله خان) من السجناء، لمساعدته في جمع المعلومات، فيجلبون له نسخاً من كتب تقدير للعقيد والنقيب حميدي والعرفاء، تحمل تاريخ وجودهم في الاعتقال! وقد أصدر الجيش بيانين لفلف بها القضية:

١ ـ الموت المؤسف للعقيد جزايري والنقيب كروسلي والنقيب حميدي والعرفاء، نتيجة خطأ بالترجمة، أدى إلى تفجير الشاحنة التي كانت تقلهم إلى مكان تجربة الألغام الجديدة.

٢ ـ ذكر مكان دفن جثث الضحايا: فوق مرتفع جنوبي أردبيل، مع قرار تسمية ذلك المرتفع منذئذ بـــ: مرتفع الفدائيين.

فيذهب المترجم، مع أصحاب له، ويحفرون هناك، قرب العلم المهتز والرقعة، التي تحمل اسم المرتفع، فلا يجدون أثراً لجثث الضحايا.

ثم تموت أم المترجم.

وفي الشق الثالث من الفصل نفسه نواجه الجماهير وثورتها في الشارع.

يقرر أهالي تبريز الذهاب إلى طهران للمشاركة في الأحداث، ويأخذونه معهم. يقيم في بيت يجده له زميل سجن سابق قريباً من مركز طهران. يشاهد ـ لقربه من حركة الناس ـ التظاهرات اليومية والشعارات التي يهتف بها الناس أو يخطونها على الجدران، وينقلها لنا.

ذات يوم، تمر من زحام التظاهرات سيارة فيها امرأة كانت ذات يوم

صاحبة «أجمل وجه نسوي في المدينة»، وفي المقعد الأمامي رجل «مهما ضغطت على ذهني، لم أتذكر أين رأيته. ولكن الأمر المفروغ منه أنني رأيته قبلاً في مكان ما، عن قرب، وربما عن قرب شديد»، «وإلى جانب المرأة ذات الشعر والحاجبين السود، كانت تجلس امرأة أخرى، بدنها أصغر وأكثر ترتيباً من المرأة التي عرفتها. كان لها شعر كث بلوطي، وقد وضعت نظارة سوداء تغطي نصف وجهها تقريباً» (ص٤٥٥). ولأنه عرف امرأة في السيارة وتصور أنه عرف رجلاً، فقد قرر تعقيب السيارة.

يحاصر، مع راكب وسائق التاكسي الذي استقله وسائق تاكسي آخر، السيارة، ويطلب من «السيدة شادان» النزول. تتكر شخصيتها، بينما يتساءل الرجل ـــ الذي يتصور المترجم أنه يعرفه ـــ عن حقه في المطالبة بنزولها، دون أن يدير وجهه نحوه. ثم يدير وجهه، ويرى المترجم في يده مسدساً صغيراً، فيجده شبيهاً بزوجة الجنرال ولكن أصغر منها سناً. بعد أن يهدده هذا، يقول له المترجم: إنك «السيد شجاعي مراغي»، أخو السيدة شادان. لا ندعك تذهب. لنا معك شغل. أنت أيضاً يجب أن تأتي معنا» (ص٤٦٠). ويهاجم السيارة. وفيما تحاول زوجة الجنرال دفعه منها وتضربه المرأة الأخرى بحقيبة يدها على رأسه، يرفع يده ليسحب الحقيبة ولكنه يسحب النظارة فيصاب بالذهول. وتذهل هي أيضاً، لا لأنها عرفته، وإنما من شكله الذي ـــ رغم نصيحة عبد الله خان له بالجلوس تحت الشمس ـــ بقي عليه أثر السجن. ثم قالت للرجل: «هوشنگ، هوشنگ، يبدو أن هذا الرجل شريك إضبارة حبيب الله! ذلك الشخص الذي بقي حياً نفسه. افعل شيئاً إذن» (ص٤٦٢).

يتلقى ضربة على رأسه فيفقد وعيه ولا يعود يرى شيئاً أو أحداً.

عندما يفيق، يفهم من السائق والمسافر أن المرأة التي طلب توقيفها والرجل ذا المسدس قد أوقفتهما الجماهير وسلمتهما إلى أيدٍ أمينة.

ثم يلاقي فتى، يأخذه الحماس فيثرثر، ويسأله عن عمله، ويفهم أنه كان سجيناً، ويعرف من لهجته أنه تبريزي، فيسأله إن كان يعرف امرأة من المناضلات اسمها تهمينه، يعرفها كل شباب تبريز لنضالها، وأغلبهم بسبب ابنها، الذي أعدم قبل سنوات حين بدأت ــ فيما يقال، نضالها. ثم يعرف المترجم أن المقصود هي تهمينه ناصري!

يعاون المترجمُ الشابَ في ربط تمثال للشاه بالحبال وإسقاطه.

ولكن الشاب ــ الذي يعرف عنوان تهمينه ــ اختفى بعد إسقاط التمثال، كما اختفى رفقاؤه.

ويستغرق الشق الرابع من هذا الفصل حلم، يقول عنه الراوي نفسه: «لم يكن للحلم الذي رأيته أي ربط بأحداث ذلك اليوم، أو الأيام السابقة واللاحقة له. كما انه لم يكن له ربط بي أنا أيضاً. كان حلم إنسان آخر، حلم إنسان من جنس آخر. كان حلماً عجيباً. كيف يمكن أن أكون حلمت كهذا الحلم؟» (ص٤٩٤). علماً بأن الحالم يتذكر، إضافة إلى ما يرى في الحلم، وقائع أخرى من حياته!

يحلم أنه فتاة عقدت منذ مولدها على ابن عمها، ولأن ابن عمها مناضل فهو مضطر للاختفاء أو الهرب من إيران. وفي يوم عودته، وقد أقامت له أمه حفلاً، وفيما تنتظره ابنة عمه، يأتي إلى الحفل فإذا به مشطور طولياً!

وفي الشق الخامس يتذكر المترجم أنه سبق أن سمع بتغيير أخت زوجة الجنرال لشخصيتها، ويتذكر اسم تهمينه ناصري. هل ذكره له مراسل الجنرال في السجن؟ أم أنه سمعه ضمن إشاعات الناس في تبريز قبل سجنه؟

يذهب إلى الشارع الذي قال له الشاب إن تهمينه تسكنه، ويبحث عنها، فيتأكد أنها لا تقيم هناك. ويلتقي نفس الفتى مصادفة أمام جامعة طهران، ولكن الفتى يفلت منه!

ثم نتصوره يحلم، ولكن بعد انتهاء ما نتصوره حلماً نعرف أنه كان يهذي في غيبوبة، إذ يعرض لنا في هذيانه قصة رستم وسهراب بمنظور جديد، ربما أراد به التبشير بالوحدة والوعي؟

يعود الفتى إليه، ثم يفهمه بأنه ــ لكي يرى تهمينه ــ عليه أن يكتب عنوانه ويعطيه إياه ليسلمه إلى من يعرفها فيعطيه لها، وتقرر هي أن تلاقيه أوْ لا. فيفعل.

وفي اليوم التالي، يعود إلى قرب الجامعة، إلا أنه ينهار فيقع على نقّالة، ويجد شخصاً على نقالة قربه. وفجأة ينهض هذا الشخص لأنه سمع قرارات الحشد الجماهيري أمام الجامعة تتلى، ولا يسمع لنصيحة الطبيب بأن يتمدد ليفحصه جيداً!

يتعارفان. اسمه إبراهيم، وهو مدير مدرسة ثانوية.

يأخذه إبراهيم إلى بيته، كي تراه أمه ــ فهي تريد أن ترى أحد سجناء الشاه السياسيين. أما أملها الآخر فهو أن ترى الإمام الخميني. ولكن المترجم لا يتحمل العطف الذي يلقاه من أهل البيت وجيرانهم، فيهرب في الصباح التالي. يلاحقه إبراهيم، فيأخذه معه، كي يذهبوا مع بقية أفراد العائلة إلى منطقة في شرقي طهران.

في السيارة يحدثونه عن جارة لهم عجيبة: رقية خانم. كانت فتاة ماخور، عاشرها جارهم الحاج گلاب، وفجأة استتابها وأخذها إلى مرقد الإمام الرضا فعقد عليها. لم يشهد إبراهيم المرأة تصلي قضاءاً أو تكسر صيامها. وهي تعنى بأمه وتختلي بها طويلاً، وقد علّمت زوجته ونساء المحلة على إعداد قنابل مولوتوف.

يذهب المترجم، حسين، وإبراهيم وابنه إلى أمام سجن قصر في استقبال السجناء الذين سيطلق سراحهم، علّ حسين يرى تهمينه هناك.

فجأة، يتشبث بإبراهيم شخص ويصرخ به: ساواكي! جلواز! ماذا تفعل هنا!؟ وبصعوبة يخلصونه من يديه القويتين. ولكن في هذه الأثناء يأتي شخص من وراء حسين ويغرز في ظهره ما يبدو مسدساً، ويطلب منه الحركة بلا صوت! يستنجد إبراهيم بالناس، فيستغل حسين الفرصة وينطرح أرضاً ليتخلص، ولكن تصيبه طلقة، ويطلق آسره اثنتين أخريين تضيعان. ويعرفه حسين: «التفتُّ. لم أكن لأصدق. لم يكن ثمة شك في أنه هو. أفلم يلقوا عليه القبض؟» (ص٦١٣).

لا يحسّ أحد من الناس بحقيقة ما جرى، ولا تكتب الصحف عنه شيئاً. ومع ذلك يبقى حسين غائباً عن الوعي ثلاثة أيام، ويزرقونه ثلاث قناني دم.

ينقلونه إلى البيت، ويرى لأول مرة الحاج علي گلاب وزوجته، وإن كان لا يرى شكلها لأنها «تلف وجهها بإحكام شديد». يبحثون المشكلة والاحتمال الراهن بالخطر، وبتكرار المحاولة. تقترح رقية البحث عن إحدى الأختين وسيجدون ــ بلا شك ــ هوشنگ. وتطلب منهم أم إبراهيم، من غرفتها حيث هي قعيدة، أن يكلفوا رقية بالبحث عن إحدى الأختين، لأنها تمتلك الفن اللازم والحس الضروري والإيمان المطلوب بالله.

يحس المترجم شيئاً فشيئاً أن رقية أكثر من مجرد هذه المرأة الملفوفة المنزوية، بل هي تشبه السحرة والفوالين، الذي كانت أمه تراجعهم في طفولته وحداثته بتبريز.

يعلن زوجها موافقته ــ التي لا تستطيع التصرف بدونها ــ وتحصل على الأذن بالتحري، على طريقتها.

تتأجل عودة الخميني إلى إيران يومين آخرين، فتصاب أم إبراهيم بإغماء، والإغماء خطر عليها. ومع أن حسين كان قرر ألا يذهب لرؤيتها حتى تستدعيه، فقد قرر الذهاب في الوضع الراهن، ولكنه تهاوى ولم يستطع.

كانت رقية قد اكتشفت في بيت أحد جيرانهم، الحاج جبار، حيتين، فيما يشبه الإلهام، وقضت عليهما. ابنة الحاج جبار لا تصدق كيفية اكتشاف الحيتين. وهي تأتي إلى حسين وتطلب منه مقابلة مشاركيها في الرأي والتحدث إليهم. وتجيب على سؤاله بأنهم يعرفون تهمينه ناصري بشكل غير مباشر، فيتفقان على موعد لذلك الغرض: يوم الأحد، الساعة الخامسة عصراً. ولكن الفتاة تستشهد في تظاهرات صباح الأحد، وبدلاً من الذهاب معها إلى الموعد، ها هو يحضر مجلس فاتحتها.

وفي منتصف الليل يسمع من يناديه. ينصت، فيعرف صوت أم إبراهيم، يزورها فتتحدث معه ثم تصدر حكمها: أنت عديم الإيمان!

في اليوم التالي يأتي مرتضى، أخو زوجة إبراهيم، ليخبر حسيناً أنه عرف أن تهمينه ناصري قد ذهبت إلى كردستان: إن كردستان تطالب بالحكم الذاتي، وقد ذهب بعض زعماء الجماعات السياسية إلى هناك ليقيموا الأسس الأولية للائتلاف.

في نقاش أمام الجامعة يفهم مرتضى أن سودابه ــ زوجة الجنرال وأخت تهمينه ــ كانت تسكن شارع (وزراء)، فيقرر حسين الذهاب إلى هناك، ويقرر مرتضى مرافقته وكذلك أحمد، إبن إبراهيم.

تقرر رقية الذهاب معهم، مع أن زوجها غير موجود لاستحصال إذنه، لأنه لا يصلح أن يذهبوا بدون امرأة. يعثرون على البيت ــ الخالي ــ ويدخلونه. يجدون صوراً لسودابه والجنرال شادان.

بطريقة ما تبعد رقية مرتضى عن البيت، لأنه خطر عليه!

يجدون تمثالاً بالحجم الطبيعي للجنرال. ثم يجدون عالماً من التصاوير وعدداً كبيراً من الرسائل يأخذونها جميعاً ويخرجون.

في بيت إبراهيم، ينتظر المترجمَ ألبومُ صور ــ جمعتها بنت الحاج جبار، وجاءت بها أمها إلى حسين عله يوصلها إلى من هم أهلها: تصاوير من التظاهرات وللشهداء.

وبين تصاوير بيت سودابه يجد مظروفاً مكتوباً عليه: «نهاية قضية خمسة عشر شخصاً»!

«الآن يمكن إعلان كل شيء على الدنيا. إن المطر الذي يهطل واضح جداً في التصاوير.. إذن ففي ذلك الفجر المبكر حتى أنهم التقطوا صوراً» (ص٧٠١).

من بين الرسائل التي يجدها، يدور الكثير من رسائل هوشنگ عن بيلتمور. يبدو أنه أبو الطفلــ(...ــة). ويبدو أن سوسن، ابنة سودابه، تريد معرفة أبيها، والأم تضغط على هوشنگ بينما يتهرب بيلتمور من هوشنگ.

كما يجد مجموعة رسائل العقيد جزايري ــ وهي أشبه بالخاطرات ــ إلى زوجته ماهي. نفهم منها أن عقيداً، باسم عزتي، جعله يدمن الأفيون كي يستولي هو على ماهي. كما نفهم أن سودابه تختلي خلوات مريبة بماهي.

وفيما هو يقرأ هذه الرسائل ــ الخاطرات ــ يفاجأ بوجه نسائي لا مثال لجماله، ينظر إليه ويبكي. لا يعرفها. تمد يدها بجريدة فيها أخبار مختلفة لا يجد له علاقة بأي منها. وآخر ما تريه إياه خبر إشعال الحرائق بالمبغى العمومي.

تتلفع بعباءتها، وتترك جزءاً من وجهها مكشوفاً حتى يدرك أنها رقية!

تعترف له أنها جاءت تستعين به على العثور على أمها.

يذهبان معاً إلى المبغى فيريان آثار الحريق والخراب، ويجدان أمها محترقة.

ويتعاون الطبيب القانوني بإصدار جواز الدفن وتسليم الجثة لحسين، دون ذكر لاسم رقية في أوراق التسليم.

وعشية قدوم الخميني تحلم أم إبراهيم بالخضر، الذي يزوجها للنبي سليمان، فتبدأ بالغناء ويصحو أهل البيت، الذين تطلب منهم أن يلبسوها ثياب عرسها، فيفعلون.

يقنعهم حسين بأن يأتوا لها بجهاز التلفزيون إلى غرفتها كي تشاهد الخميني على شاشته، إذ يتعذر تمكينها من مشاهدته شخصياً في ازدحام الاستقبال. وفي فجر اليوم التالي يقنعها ابنها بذلك، بيسر، الأمر الذي يدهشه.

وفي الصباح يذهبون لاستقبال الإمام العائد. يدور بين الناس لغط عن قطع التلفزيون لبث برنامج عودة الإمام واستقباله، وبث النشيد الإمبراطوري بدلاً منه. يفكر إبراهيم في العودة إلى البيت، وفي الوقت نفسه يأتي ابنه داعياً إياه إلى البيت، وتناديه رقية، من الجانب الآخر، لتقول له إن زوجته تدعوه. يسرعون جميعاً إلى البيت فيجدون أم إبراهيم ميتة، ثم ينتبهون إلى أن التلفزيون مكسور بفرشاة شعر! ويجدون في يد العجوز ورقة، لما تسحبها رقية من يدها يجدونها وصية لابنها: ادفنّي فور موتي!

يشقون مسيرهم في الشارع الخالي وسطُه، المملوء جانباه بالبشر، ثم يتوقفون لوصول سيارة الخميني، ويتحركون خلفها مباشرة إلى (بهشت زهراء)، وهناك يتلقف الناس الجنازة ويتناقلونها بالأيدي، حتى يوصلونها مدخل المقبرة، باعتبارها جنازة شهيد.

يدفنونها لصق قبر أم رقية: فقد كانت هذه آخر مدفونة ليلة أمس، وأم إبراهيم أول مدفونة صباح اليوم! تتاح الفرصة لرقية كي تندب أمها، خاصة وأنها تعول «أماه، يا أماه»، فالحاج گلاب يقول: كانت لها مثل الأم!

ومن لوعتها تهيم فترة على وجهها في المقبرة الواسعة.

في اليوم التالي، تتصل فرشته ــ زميلة رقية السابقة، والتي رافقتها وحسين إلى الطب القانوني لتسلم جواز دفن أمها ــ بحسين ــ وكان أخبرها يوم ذاك بوجود بيت خال لديه بإمكانها البقاء فيه إن أرادت ترك المبغى. يواعدها، وينقلها إلى البيت الذي كان تحت تصرفه، في زقاق (آذر)، والذي انتقل منه الآن لخطورته عليه، طالباً منها أن تدعي، أمام من قد يسأل، بأنها أخته.

ويتصل به هوشنگ ليخبره أنه أوقع بـ«أخته»، وأنه يعرف محله، وأنه وراءه!

تذهب رقية للتأكد من وضع بيت زقاق آذر، وتعود لتقول إنه ليس هناك أحد. وإن عندها خبراً سيئاً له: تهمينه ناصري ميتة، مدفونة، وإنها هي رأت قبرها أثناء هيمانها في المقبرة.

يذهب إلى المقبرة متسللاً ليلاً، مجهزاً بقدوم ومسحاة ونور. ينبش القبر المذكور فيجده خالياً.

في اليوم التالي يحس أن أفضل مكان للبحث عن فرشته هو بيت سودابه. يذهب إلى هناك فيشاهد هوشنگ يخرج متخفياً، ويعبر متنزهاً قريباً حيث يبدل ملابسه ــ النسائية ــ ويركب سيارة. يلاحقه، فيجده يتوقف أمام زقاق آذر. يجد رقية هناك. بعد انتظار، تنصرف السيارة. تذهب رقية إلى البيت: لا خبر ولا أثر عن فرشته، ولكنها تجد رسالة موجهة إلى حسين. الرسالة من المترجم الذي كان مرافقاً للعريف الأميركي الذي قتله الذئب! يخبره فيها أن تهمينه حية، مضطرة للاختفاء وتلفيق كذبة للتخلص من أيدي أعدائها! ويذكر له أيضاً ما غمض له من حياة تهمينه: ذهب الجنرال، بحثاً عن أحد مراسليه، إلى شيراز، ولحقت به هي، مع ابنها، إلى هناك. وهناك قتل الجنرال، وأعدم ابنها بتهمة قتله. وقد نقلت جثته إلى جبل سبلان، حيث يعيش هذا المترجم، ودفنتها هناك. ويضرب له المترجم

موعداً معقداً للاتصال به بعد مدة. ويفهم من الرسالة أن الأرجح هو أن هوشنگ يريد التخلص من تهمينه لأنها تعرف الكثير من أسراره.

يذهب حسين إلى زقاق آذر ليلتحق بالجمع، يدخلون البيت فلا يجدون أحداً ولا أثراً فيه. يقررون الذهاب إلى بيت سودابه. ولكنه يرى رقية مرة أخرى، التي تأخذ له من بيته رسالة من هوشنگ يقول فيها إنه قتل أخته فرشته، كما يعرف أنه تلفن نحو عشرين مرة إلى إبراهيم ليقول إنه قتل أخت حسين، وإنه يريد أخته هو: سودابه، وإلاّ فالقتل مصير حسين أيضاً.

يدخلون بيت سودابه. يجدون كل شيء على حاله، عدا تصاوير الجدران، التي خلعت. ثم يتذكرون غرفة الزهور فيحاولون دخولها، كالمرة السابقة، ولكن يفشلون. ولكن الحاج جبار يأتي بإثنين من رفاقه للمساعدة. يكسرون الزجاج ويدخلون. رائحة عفن وعطن رهيبة، يظن بعضهم أنها نتيجة لكون الغرفة مغلقة تماماً لمدة، ولكن هذا غير معقول! يكتشفون أن بعض الأصص منقولة، ثم ينتبه إبراهيم إلى أن جداراً جديداً هناك! بعد معاناة يخربونه، ويا للهول: امرأة مصلوبة بالمسامير تنظر إليهم، ولفّة ملابسها وأشيائها بيدها!

يذهب حسين إلى بيت مرتضى، ومن هناك يتصل بإبراهيم، الذي يخبره بأن هوشنگ تلفن، وأنه يعرف بأن حسين ذهب إلى بيت أم زوجة إبراهيم، وأنه يعرف العنوان، وسيلاحقه!

هناك، قريباً من مقر الـ(همافر)[٢٢] يسمعون بأصوات الاشتباك بين هؤلاء والحرس الإمبراطوري.

ينصب الناس المواضع ويقاومون.

يستشهد الحاج گلاب في الليلة التالية، ليلة ٢٢ بهمن: عشية انتصار الثورة!

يقوم الحرس الإمبراطوري بهجوم آخر. يفقد حسين رشاشته فيهرب من حديقة البيت الذي هو فيه ويركض حتى يتعب. يصل مسجداً، يطلب من حارسه السماح له بالنوم فيه. يرسله الحارس إلى الداخل فينام بين عشرات النوّم، الذين يكتشف في الصباح أنهم قتلى وأنه قد نام بين الموتى!

يقول إبراهيم لحسين أن رقية قالت لفرنگيس ــ زوجة إبراهيم ــ إنها تعلم أن حسين يحبها، وهي لذلك تطلب منه ألا يذهب إلى المنطقة التي يقع فيها بيتها وبيت إبراهيم، لكي لا يراها كثيراً. ويفهم إبراهيم أيضاً أنها هي أيضاً تحب حسيناً، أو أن ما صنعه لها قد أثر فيها أي تأثير. ويقترح عليه الزواج منها، خاصة وأن أهل زوجها سرعان ما سيضايقونها ويطردونها من بيته.

عصر اليوم التالي يأتي خبر الانتصار الحاسم للثورة.

وعندما يذهبون إلى الطب العدلي لتسلم جثة الحاج گلاب يجد حسين تنظيفي (مصادفة) الفتى الذي ساعده في إسقاط تمثال الشاه، بين الشهداء. ويكتشف أحمد، ابن إبراهيم، أوراقاً في جيبه! فيفحصها إبراهيم (بأي حق؟)، ليجد فيها (مصادفة أيضاً!) رسالة موجهة إلى حسين!

عند العودة من المقبرة يخبر الحاج جبار حسيناً أنهم ألقوا القبض على هوشنگ!

وفي اليوم التالي، يعدم (نصيري)[٢٣] وثلاثة آخرون، فيرقص إبراهيم فرحاً، ولكن وضعه الصحي يتدهور نتيجة للرقص، وللهياج العاطفي، ثم يتقيأ، فيتحسن.

يتصل بهم الحاج جبار تلفونياً، ويحدث حسيناً عن إعدام أربعة من كبار الضباط، ويقول إن بعض المعتقلين هربوا، بينهم واحد باسم شجاعي، حتى أنه ظنه هوشنگ، ولكنه تحقق فوجد هوشنگ لا يزال معتقلاً.

يطرد أخو الحاج رقية، مع طفلها الرضيع، من بيتها، فتلجأ إلى منزل الحاج جبار، وصيّ زوجها.

تفتتح المدارس. يطلب إبراهيم من تلاميذه أن يقدم كل صف قائمة بأسماء شهدائه. يبكي بكاءاً مريراً عندما يجد العدد كبيراً. يعطل المدرسة ويذهبون جميعاً إلى بهشت زهراء، ويبكي ــ صامتاً أو بصوت ــ طوال الطريق. يعودون إلى البيت، فيطلب إيصاله إلى غرفة أمه. يخلع قبعته ومعطفه ويستلقي على فراشها ويبكي.

فيما تذهب فرنگيس إلى التلفون العمومي لتأخذ تلفون بابك پور أصلان ــ المترجم الذي تقيم تهمينه في جواره ــ حسب الموعد، يتصل پور أصلان نفسه، فيتواعد حسين معه على اللقاء.

تخبره فرنگيس عندما تعود بأن رقية وطفلها في بيت زقاق آذر ــ البيت الذي كان تحت تصرف حسين.

يمر على إبراهيم قبل الخروج فيجده نائماً.

يخرج إلى موعده مع بابك پور أصلان. يلتقيان، يتحدثان، ويعرف من بابك أن الذئب قاتل الأجانب يقترب منه شديداً ولكن لا يهدده، وأن الخطر عليه يزداد عندما يبتعد الذئب عنه.

يعود حسين إلى البيت فيرافقه بابك.

إبراهيم يغني من غرفة أمه بصوت عال حتى ليجمع الجيران. يدخل عليه حسين وبابك فيحتضن هذا. ويبكي. ثم يحتضن زوجته ويبكي. بإلحاح شديد يدفعون الجيران خارجاً. يختلي بزوجته فيتعالى بكاؤهما معاً. يذهب إليه ابنه فيحتضنه ويبكي. وعندما تخرج زوجته تقول لهم إنه كان يوصي!

ويموت إبراهيم، كما كان يتمنى: وهو نائم! وكل أهل البيت نيام.

بعد دفن إبراهيم يذهب حسين إلى رقية ويحثها على السفر فوراً والإقامة في بيته بتبريز. ويكتب وصية يسلمها إياها! وتحذره رقية من البقاء طويلاً في بيت زقاق آذر.

في الشق السادس من هذا الفصل نجد حسيناً عائداً إلى بيت زقاق آذر بعد مجلس فاتحة إبراهيم. يستعرض عناوين الصحف ويأخذه النوم. يحلم مستعرضاً حياته وأحلامه. ثم يسمع جرس الباب الخارجي ـ لا ندري أهو استمرار حلم أم الواقع؟! ـ فيفتحه دون سؤال عن هويه الطارق ـ لأنه يعرف : تهمينه ناصري! ثم يسمع جرس باب الشقة نفسها. يخاف أن يفتح، ولكنه يفتح. ولكن ليس من يجده أمامه تهمينه وإنما نفسه! ويقع!

**القسم الثالث ـ الكتاب الخامس**

**ويتشكل من فصل واحد، عنوانه: أوراق من استنطاق سودابه شادان.**

نعرف أن خطة الفرار بطائرة الشاه كانت من أجل تهريب ماهي لأنها ـ كما قالوا ـ «تعرف أسراراً عدة. يقولون إن هذه الأسرار تتعلق بالشاه وبالنفط». و«كان الجميع يعتنون بماهي. لم أكن أعرف سبب ذلك. لا يعرف أسرار ماهي إلا ماهي. نحن لم نكن نعرف... أخي يعرف تلك المسائل.. معلوماته أكثر من الجميع». أما عن هوشنگ فتقول: «فعل بيلتمور شيئاً بحيث أرسلوا أخي إلى أميركا. بقي عدة سنوات في أميركا، وعندما عاد، لم يأت إلى تبريز في البدء... ثم صار أخي يأتي إلى تبريز مرة كل ثلاثة أشهر. كان الجنرال والمحافظ، وأخي، وقائد الفرقة، وشخصاً أو شخصين آخرين يعقدون جلسات في بيتنا. كنت أحس أن أخي صار شخصاً مهماً،

حتى لكنت أرى الجنرال يحسب له أحياناً حساباً، وكما لو أن الجنرال كان ينفذ أحياناً أوامر أخي.. ثم صار أخي معاون رئيس جامعة، فمعاون أحد الوزراء، ثم سافر مرة أخرى إلى أميركا.. وكانت ماهي صديقة حميمة لأخي. كانت تقول أحياناً إن أخاك صار كبيراً جداً، له نفوذ كبير في البلاط...» أما عندما يقول لها المستنطق:

«إننا نعرف أنك كنت تتركين بيتك مرة في الأسبوع تحت تصرف الجنرال يابلونسكي (وهو أميركي) ومرافقيه وأخيك. أيام الإثنين». فهي تجيب:

«كذب. أنا لا أعرف شخصاً باسم الجنرال يابلونسكي. أيام الإثنين أنا أصلاً لا أكون في البيت. أيام الإثنين، من الساعة العاشرة صباحاً حتى منتصف الليل، كنت أكون في بيت ماهي. كيف يمكن أن أترك بيتي تحت تصرف الجنرال الأميركي وأصحابه؟».

ونعرف من المستنطق أن يابلونسكي أحد أكبر دلالي الأسلحة في العالم.

وأن ماهي كانت تسلم بيتها لسودابه كي تعده لضيوف حفلها الأسبوعي أيام الإثنين! بينما تذهب هي مع المذكورين أعلاه إلى بيت سودابه!

**الكتاب السادس**

**وهو من فصل واحد، عنوانه: «قول ماهي».**

ولا ندري إن كان هذا القول ورد في مذكرات؟ خواطر؟ فمن عثر عليها وأين؟

نفهم منها أنها عشيقة فرزام ــ مرافق الشاه ــ لا زوجته. وأنه يحصِل، من كل معاملة، على ملء صناديق من الدولارات. ولكن الصناديق التي تسلمها

أخيراً أخطر الصناديق. «حتى لو قتلوا فيلقاً من فيالق الشاه فيجب ألا تقع في يدي أحد».

وترتيب الأشخاص الذين ترد أسماؤهم، من حيث الأهمية، على النحو التالي: فرزام، هوشنگ، و ــ ربما ــ ماهي. «لفرزام ماض، أما (هوشي) (هوشنگ) فله المستقبل». «أكثر ما كان يمكنني أن أكونه أنني كنت مكنسة مشدودة إلى ذيل فرزام[٢٤]، ولكنهم لا يعلمون أن في بيتي ــ حتى في غياب فرزام ــ كان يجري تعيين ستراتيجية العمل ضد المعارضة في الخارج. كنا أنا وهوشي وزاهدي[٢٥] وشخص أو إثنان آخران. ولكن كوني مجهولة مرجعه إلى كوني امرأة. فالمرأة، حتى في تلك المواقع العليا، كانت تعني لا شيء...».

وهي بعد أن هربت مع القائمقام وتركت زوجها العقيد جزايري، تعرفت بوساطة سودابه على هوشمندي ــ الذي بقيت معه نحو ثلاثة أشهر أو أربعة وحبلت منه، وأجهضت، وقدمها إلى ضرّاب، الذي قدمها للشاه.

وكانت تأخذ بيت سودابه بالحيلة. فقد أوعزت لها بأن تزين بيتها لأنهم ربما سيحتاجون إليه في بعض المناسبات، ثم سرقت منها مفاتيح البيت، وصنعت من كل واحد منها أربع نسخ «واحدة لي، واحدة لهوشنگ، وواحدة لفرزام. وأخذ فرزام الرابع أيضاً قائلاً إنه ليابلونسكي... ثم أرسلنا (ألي) (=سودابه) إلى عند سوسن (ابنتها، في إنكلترا). كان مقرراً أن تُنصب الأجهزة في ثلاثة بيوت مختلفة بحيث لو انكشف أحدها في المستقبل تجري الاستفادة من الثاني، وإن انكشف هذا أيضاً فمن الثالث. أما إذا انكشف الثالث أيضاً فيجب أن تقوم السفارة عندئذ بقيادة العمليات. وقد رفعوا جدار بيت (ألي) فنصبوا الأجهزة داخل الجدار. لم تفهم (ألي) شيئاً... فقد كان عيب (ألي) غباءها». «وبهذا الترتيب، كان أفراد فرزام ويابلونسكي والسفير

وهوشي، على اتصال بكل مكان في الدنيا أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، ومن هناك بأماكن أخرى».

كما نفهم من قولها أن هوشنگ اختفى شهرين في حمام سونا ببيت تاجر تركي القومية يتاجر بالفوانيس والمراحيض الإفرنجية والجِبْن! بعد هروبه من الاعتقال.

ويقتل فرزام بصورة فجيعة بشقته في لندن.

وتصعق ماهي خوفاً فتهيم على وجهها في شوارع لندن، وبعد أن تعود إلى الشقة تموت بشكل غامض، أو أننا نتصورها ستموت.

**الكتاب السابع**

**وهو أيضاً فصل واحد، عنوانه: قول هوشنگ**

(لقد كانت حجة ماهي ــ أو حجة الكاتب في درج قول ماهي ــ أنها كانت تكتب خواطرها عن حياتها مع فرزام. فما هي حجة هوشنگ يا ترى؟!).

يحتال على حارس بيت سودابه بعد مصادرته أيام الثورة ــ وهو متنكر كامرأة ــ فيكلفه هذا بسقي الأشجار! ثم يكلفه بتنظيف الزجاج، ويعطيه مفاتيح المنزل! لهذا الغرض. فبأي اطمئنان يفتح أقفال الجدار الذي أخفي الجهاز وراءه، ويشغل الجهاز، ويتصل! اكتشفه الحارس فيما الجهاز يأمره بأن يخفي الجهاز ويبتعد عن المحل. يدري أنه يعرف الحارس ولكن نسي أين رآه! ويعرفه الحارس فيتساءل: «كيف هربت من يد الحاج جبار ولماذا فعلت بصديقي ما فعلت؟ قاتل! جاسوس!». وقد كان هذا الحارس مرتضى ــ شقيق فرنگيس زوجة إبراهيم! الذي سبق أن حذرته رقية من هذا البيت ودخوله!

ويقتل مرتضى!

كما يذكر هوشنگ في قوله أن ماهي قتلت، بأن ألقيت من الطابق الخامس إلى الشارع. وهو يرى يد يابلونسكي خلف مقتلها ومقتل فرزام.

وينقل لنا إشارات من تنظيرات فرزام بخصوص البرجوازية والبروليتاريا في البلدان المتخلفة، يناقش بها السفير الأميركي. كما يذكر أشياء عن أوضاع الناس في القسم الشمالي من طهران ــ ناحية الوجهاء والموسرين ــ التي لم تتبدل إلا قليلاً، حيث نجد وصفاً جميلاً جداً لنتائج المطاردات والإعدامات، وخوف أهالي المتنفذين السابقين وتحاشي بعضهم بعضاً في كل مكان عدا مجالس الفاتحة والمقابر!

ويخبرنا أيضاً أنه ذهب إلى بيت ماهي ــ في طهران طبعاً ــ حيث شغّل الجهاز المنصوب عندها وتلقى تعليماته بإتلاف كل ما في خزانته الحديدية. أخرج محتويات الخزانة فلم يجدها تعدو صوراً لماهي في محلات مختلفة مع شخصيات مختلفة.. وفيما هو يقضي الوقت بانتظار تعليمات جديدة يتصل بماهي في لندن! ويسألها إن كانت تريد شيئاً من تلك الصور. تتردد أولاً، ثم تخبره بعدئذ أنها تريد صور طفولتها، وصورها مع جزايري، وصور جزايري نفسه. فيستغرب هوشنگ ــ رغم ذكائه ــ من هذا الطلب!

كما نفهم من قول هوشنگ أنه كان تلقى أمراً بتصفية الجنرال شادان. وعندما وصل إلى غرفة هذا في الفندق بشيراز وجده جريحاً لا يدري من طعنه، ولكنها امرأة. يجرده هوشنگ من ملابسه، فيبدأ بالهذيان. يقّصبه هوشنگ! «رفعت الساطور فنزلت به في منتصف صدره دقيقاً.. ثم أنزلت الساطور، مثل قصاب محترف، فشققت جسده. قطعت رأسه، ولكنني لم أفصل نصفي جسده. سحبت يديه، وجئت بهما فوضعتهما بين فخذيه، ووضعت رأسه

المقطوع بين يديه، ثم مددت الجسد عديم الرأس على المنضدة الضخمة...». (ولكن كل ذلك لم يخلف عليه هو إلا قطرات من الدم!).

ويعلمنا أنه يفهم أن القاتل ـ أو الأصح: الشارع في القتل ـ هو ناصر، فقد ألقي القبض عليه واعترف وأعلن عن اسمه عندما عاد إلى الفندق! لاشك أنه علم أنه لم يقتله بالضربة الأولى فعاد يتمم عمله!

ويفرض هوشنگ نفسه مرة أخرى على تاجر الفوانيس، فيضطر هذا إلى إيوائه في بيته مرة أخرى، بشرط أن يحبسه داخل حمام السونا ويأخذ معه المفاتيح عندما يغادر البيت! إذ أنه كان استولى على امرأته في اختفائه الأول! ولا يكتفي التاجر بذلك، بل إنه ـ في اليوم التالي لإيوائه ـ يسفّر زوجته وأطفاله إلى خارج طهران. ويخبر هوشنگ أن خادماً تأتي مرتين في الأسبوع لتنظيف البيت. فيحس هذا بالقلق لأنه لم يكن يدري بالخادم، ويخشى أن تكون ذات ارتباط بحكومة الثورة!

ويسجل في قوله قتله لحسين تنظيفي، الذي جاء أمر قتله من (السي. آي. أ.) حاسماً.

وفيما هو جالس يستذكر في الحمام أحس بالسونا يزداد حرارة. رأى الخادم وتذكر أنه سبق أن رآها. وأخذ يتذكر شيئاً فشيئاً حتى تأكد أنه رآها في المبنى الذي تقع فيه شقة حسين بزقاق آذر. وتقف رقية أمام الحمام وتبدأ تحدثه، فيعرف بأنها تعرف أنه في الداخل، وأنها تعرف من هو: قاتل حسين، صالب فرشته، وقاتل مرتضى!

وتتركه في الحمامِ المتصاعدةُ حرارته، ينشوي ـ (حتى الموت؟).

**القسم الرابع ــ الكتاب الثامن**

**وهو من فصلين، أولهما: رسالة تهمينه،** وهي إلى بابك پور أصلان.

ونعلم منها أنها قرأت مذكرات هوشنگ، وأنها هي، لا ابنها، التي طعنت شادان. كما نعرف بالخبر اليقين عن مقتل هوشنگ في حمام السونا.

ونعرف أيضاً أن سوسن ــ ابنة سودابه من بيلتمور ــ نتيجة مراسلاتها مع تهمينه أعطت هذه عنوان تاجر الفوانيس، فقامت هي ــ تهمينه ــ بإعطائه لبابك، الذي أعطاه بدوره لرقية.

وتؤكد تهمينه في رسالتها أن سوسن لم تقتل فرزام، وإنما قتله حارسه بإيعاز من الــ (سي. أي. أ)، وأن ماهي لم تقتل، بل انتحرت.

وأن سوسن نفسها قد اختفت في لندن.

**ويحمل الفصل الثاني عنوان: «آخر الكلام».**

ونجد فيه رقية قلقة جداً على تهمينه لمدة أسبوعين أو ثلاثة، حتى تصل رسالة تهمينه. وتصل بعدها برقيّة من خادمتها، تعلمهم فيها أن تهمينه اندفنت تحت أنقاض كوخها وماتت: كانت عندها ثلاثة أكواخ (هي مغارات في الجبل)، كانت تريد أن تفتحها من الداخل وتوصل ما بينها كي تصير كوخاً واحداً كبيراً. قامت هي نفسها بالعمل، وحدها، فانهار الكوخ.

كانت رسائل سوسن إلى تهمينه منتظمة، كثيرة، وكانت أحياناً تسرق دفاتر كبيرة من بيت ماهي فترسلها إلى تهمينه، بما في ذلك رسائل أشخاص مختلفين إلى ماهي.

ومع انتهاء صفحات الرواية، نجد تاريخ انتهاء كتابتها: ٦٣/٢/١٠ (=١/٣/١٩٨٤).

* *

لاحظ القارئ، ولابد، صعوبة تلخيص هذه الرواية بسبب اتساع أحداثها وامتداد زمانها وتعدد وتناثر شخصياتها، وأرجو أن يضيف إلى ذلك التعقيد الناشئ عن حقيقة أن الأحداث لم ترد مرتبة زمنياً في الأصل، وإنما أعدت ترتيبها في التلخيص لتيسير أمر المتابعة على القارئ. ولعل أبرز مثال على عدم ترتيب الأحداث زمنياً هو «قول حسين ميرزا».

ولكن السبب الأهم لصعوبة التلخيص يكمن في أن الرواية ـ إضافة إلى كونها رواية أحداث ـ أرادت أن تكون رواية أفكار أيضاً. فالجزء الأكبر من قيمتها يكمن في هذه الأفكار، وعلى هذا فماذا يفعل من يريد الاختصار برسائل العقيد جزايري، أو سبب احتفاظ ماهي بها، أو وصف التصاوير التي التقطتها (شكوه) ابنة الحاج جبار. أو تداعيات ماهي من ص١٠٩٧ إلى ص١١٦٦ وأكثرها أفكار ومشاعر؟!

وحسب المقاييس الفنية، ربما كان من الأفضل لو أن الكاتب قسم هذه الرواية إلى عدة روايات، رواية لكل خط رئيسي فيها، خاصة وأن لجوء الكاتب إلى الطريقة التي رأيناها في رواية الأحداث لا تبدو مقنعة من جهة، ولا تتمتع بالوحدة الكافية المطلوبة في عملية القص من الجهة الأخرى. كما أن تشتت الشخصيات على هذا المدى الواسع كان على حساب تصويرها بشكل كاف. فـ (ماهي) مثلاً، الشخصية الخطيرة في عمليات وكالة المخابرات المركزية إلى حد اختيارها لمرافقة رؤساء الدول عند زيارتهم إيران، والهرب مع الشاه في طائرته، لم نعرف كيف ارتبطت بالوكالة ولا كيف ارتفعت في سلم مراتبها. وصحيح أنها تقول «إن المرأة ، حتى في تلك المواقع العليا، كانت تعني لا شيء...»، إلا أن هذا لا يبدو مقنعاً عندما نجدها مستسلمة خانعة وأحد الرؤساء يغتصبها. وصحيح أن وكالة المخابرات تعيش على الفساد الأخلاقي وتتمرغ

فيه، وقد حدثنا عن ذلك هوشنگ، وبيلتمور قبله، ولكن لا يبدو مقنعاً أن تمر حادثة الاغتصاب بسلام دون أن يتحمل المغتصب أكثر من الصفعة التي تلقاها من «مُعاشِر» ماهي.

كما يبدو أن حب الكاتب للاستطراد قد ذهب به بعيداً حين سوّد صفحات عدة عن ملاعبة الطيور وتقديم معلومات عن الطيور وأوصافها وأسمائها، أو حين حدّثنا بمرض ابنة عمه ــ خطيبة أخيه ــ النفسي، وإخضاعها لشعوذات الرمالين.

ولابد أن الكاتب يسوِّغ مثل هذه المآخذ بإخلاصه للعنوان الذي اختاره لروايته: أسرار بلادي، فهو يجد نفسه مكلفاً بأن يكشف كل الأسرار!

* *

في هذه الرواية أيضاً، كسابقتها، يبرز الكاتب مواطنيه الترك ولغته التركية، ومثلها أيضاً تقع أحداثها الرئيسة في طهران وتبريز من إيران، وإن اتسعت فإلى منطقة تركية أخرى كأردبيل وجبل سبلان.

* *

وصفِ الكاتب عيني، ملموس، وهو يضفي على الأشياء حياة وروحاً:

«تبدأ الغابة أولاً ذرّة ذرة. وكانت تلالها مثل رؤوس أصابها الجرب فتناثر شعرها، ثم فجأة تبدو المرتفعات المحيرة والمخيفة، بضفائر الأكمات الكثة، بآلاف العيون المرموزة للطيور والحيوانات، والفواكه والأوراق، والهواء داخل المرتفعات والسماء السائدة فوقها» (ص١٢).

«كانت اللغة التي نستعملها هي الإنكليزية. كان الجنرال يتكلمها أفضل من المرأتين، ولكن إنكليزية تهمينه كانت أفضل من إنكليزية (ألي). وعندما كانوا

يتكلمون مع المراسل، لم أكن أفهم أصلاً، لأنهم كانوا يتكلمون بالتركية. فيما بينهم كانوا يتكلمون الفارسية، ولكن قليلاً جداً. كانوا يتكلمون الفارسية والإنكليزية بتأن، ولكن عندما كانوا يكلمون المراسل كانت أفواههم وشفاههم تسرع، كما لو أنهم يسيرون على منحدر. ثم ــ إذ يكلمون معي ــ كانوا يبطئون مرة أخرى. كانت لأفواههم ثلاثة مبدلات سرعة: المبدل الثالث للتركية، والثاني للفارسية، والأول للإنكليزية» (ص٢٠٨).

كان أحد العرفاء المشتركين في قتل كروسلي يحبّ أن يغني، وكان عذب الصوت، وقد زاد تعذيبه لأنه كان يغني بالتركية. لم يطلب منه العقيد أن يغني بعد أن فهم ذلك، ولكنه تطوع للغناء: [«فليضربوني يا حضرة العقيد، اللذة في أن يغني المرء بعد الضرب»... شرع العريف يغني. كان يغني ملوعاً مهموماً. كان يبدو كما لو أن كل الضرب الذي تلقاه ذلك اليوم قد استحال في وجوده فراح العذاب الجسدي يتفجر بصورة ترجيع ساخن ملتهب مملوء بالهم، من حنجرته] (ص٢٠٢).

«الزنزانة الانفرادية تمسخ الإنسان. لا يبقى إلا قلب يتبدل إلى قبضة في الفراغ، تصيبها حكة من الداخل، فيجد الإنسان إحساساً خاصاً لا يمكن وصف مجموعه، لأنه تضعف رجلاه أحياناً، تصيبه الحمى حيناً، يستقر العرق على رأسه ووجهه، ثم فجأة ينهض فيذرع طول الزنزانة، ويريد ــ إن أمكن ــ أن يركض سريعاً أو يضرب رأسه بعمود من الخرسانة المسلحة. ثم يحس فجأة أنه يجب أن يذهب فيتبول أو يفرغ أمعاءه. فهذا، أخيراً، هو عمل ما، وهو يقلل طول الأربع والعشرين ساعة. كما لو أن البول والتغوط صديقان يراهما المرء فيتسلى معهما، ومرة أخرى: القلب ذاته، القبضة الخالية ذاتها، والألم العصي على العلاج ذاته، والإحساس الذي لا يمكن وصفه.

«في البدء، يتقزز المرء من رائحة البول والعطن المستقرة على لباسه، ثم يحس أنها ـ بالمناسبة ـ ليست رائحة سيئة وأنها مؤنسة موت المرء التدريجي، ثم يتمنى المرء لو أمكنه أن ينام ـ بدلاً من ست ساعات أو ثمان أو عشر ـ أربعاً وعشرين ساعة، لأن لطف النوم أكثر من لطف اليقظة. ليس في اليقظة شيء، في حين أن في النوم ـ حتى لو كان ثمة كابوس ـ ثمة شيء، يعني أن الأمر السيئ والأمر الجيد أفضل كثيراً من الشيء المتوسط. صارت الحياة بالنسبة لي تكراراً رتيباً لعذاب بلا حادثة. أتمنى لو أقدّم أحد ذراعي لأجد مؤنساً. أي شي: حماراً، كلباً، فأراً، قطة، أو حتى أفعى. أتمنى لو رموا بي في زريبة، فأصير مؤنساً لعدة بغال نافرة. إن الزنزانة الانفرادية أسوأ تعذيبات العالم» (ص ص٤١٦-٤١٧).

«في السجن الانفرادي فهمت أن الناس، حتى أسوأهم، حتى أكثرهم ظلماً، هم غنيمة للمرء. كان بمقدوري أن أتحمل الجنرال شادان لسنوات. كان يمكنني أن أجيب على استنطاقات المستر فوتوز. لقد ثبت لي أن الاستنطاق هو الإجابة على أكبر تحقير في الدنيا. إن التعذيب ليس تحقيراً. عندما يتعرض المرء للتعذيب، لا يزال أعلى من المعذب. لأن معلومات المعذب أقل من معلومات متلقي العذاب، فهو يعذبه دائماً. ولكن الاستنطاق تحقير مشؤوم. إن شخصاً يمنح نفسه الحق أن يطرح على المرء أي سؤال يريد عنه، فيما لا يستطيع المرء أن يسأله عن شخصه أي سؤال. وهذا أكبر تحقير. ولذا فليس اعتباطاً أنهم يعذبون أولاً ثم يستنطقون. كما لو أنهم بتحقير الاستنطاق يعوضون عن تفوق الضحية في وقت التعذيب.

«ولكن الزنزانة الانفرادية مفازة جرداء. لو أرادوا وضع هابيل في زنزانة انفرادية لكان يرجح أن يعيش مع قابيل قروناً تحت سقف واحد. ليست الزنزانة

الانفرادية قاتلة للإنسان ولكنها أسوأ من القاتل بدرجات. إن المرء ليستجير من الزنزانة بقاتله» (ص ص٤١٨-٤١٩).

«في التعذيب الجسدي، بكل أنواعه، تنوع. يرى الطرف الآخر أن المرء لا يعترف تحت السوط أو الكابل، فينتقل إلى جهاز الصعق الكهربائي أو جامعة اليدين الميزانية، أو يقلع الأظافر، أو يعلق من خصيتي المرء ثقلاً فيخصيه، أو يلوط به أو يعلق كيس علف برأسه، أو يعلقه من رجليه بالمقلوب. ولكن ليس بمقدور أي مسلِّط تعذيب أن يخلق رتابة انفرادية بشكل مصطنع. إن الزنزانة الانفرادية مطلق، ألم مقزز مغث مجنن مطلق. لا يساويها عذاب. ليس اعتباطاً أن عدّها (دانتي) جزءاً من عذابات الجحيم الأصلية، وأن أوقف (بيكيت) حياته على وصفها، وأن تصفها كل أجهزة التجسس والأمن لتحطيم روحية أقوى سجنائها. حينئذ يفهم المرء أن وجود الآخرين ـــ لا الناس الآخرين فقط بل حتى أي حيوان ـــ هو جنة له على وجه الدقة. وعلى خلاف الكثيرين من الفلاسفة، صدقوني، فالمجتمع ـــ حتى أسوأه ـــ جنة في مقابل رتابة الزنزانة الانفرادية. بعد سنوات قال لي أحد السجناء الدينيين.. إن الإمام موسى الكاظم كان سجيناً لمدة سبع سنوات ـــ على إحدى الروايات ـــ أو ثلاث عشرة سنة ـــ في رواية أخرى ـــ في سجن انفرادي. فقلت له: كان جديراً إذن بأن يكون إماماً» (ص٤٢١).

* وفي وصف كشف جسد (فرشته) في غرفة زهور بيت سودابه:

«كنا مرتعبين مبهوتين ننظر إلى الوجه الشبيه بالتمثال، كما لو أن هذا الموجود قد انبثق منا واحداً واحداً، فتثبت بالجدار، وكان له معنى لم نستطع قط، بالحدسيات الصغيرة لضمائرنا التافهة، أن نفهمه. وبالمناسبة، لم يكن يتعلق به. كان مربوطاً بغرفة الزهور نفسها. كان حدس الحاج جبار صحيحاً. كانت

غرفة الزهور هي التي اكتسبت رائحة. كأن تلك المرأة حاملة اللفافة لم تعش قط في أسوأ مكان بالدنيا، ولم يجد الدنس طريقاً إلى وجودها قط. كانت مسمى طلب معنى اسمه من أعماق العالم. مسمى تبدل عملياً إلى اسمه. كانت ملاكاً حقاً (فرشته = ملاك بالفارسية). ملاكاً مصلوباً في غرفة زهور متروكة. ذات معنى وراء المعاني العادية» (ص٨٨٩).

* وهو يصف الثورة، عند وصفه لحظات اشتباك الـ (همافر)، ثم الـ (همافر) مع أبناء الشعب، بقوات الحرس الإمبراطوري، فانظر كيف يصور الثورة:

[فجأة، لم يعد أحد يتفرج على التلفزيون. كان ما يعرضه التلفزيون مهماً، أهم ما يمكن للتلفزيون أن يعرض (عودة الخميني)، ولكن أحداً لم يكن يتفرج عليه. ولم تعد أم مرتضى الإنسانة التي كانتها. فتحت النافذة، وركضت إلى الباحة... ركضنا جميعاً إلى الباحة.

ـ «ماذا جرى يا مرتضى؟». ـ «الصوت يأتي من المعسكر». ـ «ماذا يفعلون؟».

ـ «ينبغي أن نذهب فنرى».

كان صوت الرمي يصل الأسماع الآن أكثر حدة. ثم عادت أم مرتضى إلى الغرفة، وفي خلال ثانية لبست ثياباً سميكة، ورفعت شادرها (غطاء رأس كالعباءة) ومفاتيحها.

ـ «إلى أين أنت يا أماه؟». ـ «لا تتصور أنك رجل وبطل. أنا أيضاً أريد أن آتي فأرى ما وقع». ـ «إن الأمر جدي هذه المرة». وقال أحد الشبان: ـ «حتى الآن لم تحدث ضجة في هذه الظروف». وفجأة قالت أم مرتضى: ـ «يا

مرتضى، لقد جاء إلى باب البيت». فقال مرتضى: ــ «من؟». ــ «كل شيء». فقال مرتضى: ــ «ظننتك تتحدثين عن شخص ما». فقالت أمه: ــ «جاء مثل إنسان. إنه يقرع الباب. إنه، منذ الآن، مربوط بنا». فقال أحد الشبان: ــ «كان مربوطاً بنا قبلاً أيضاً». ــ «قبلاً، كنتم تذهبون وراءه. إن كنتم تريدون كنتم تذهبون، وإن لم تكونوا تريدون فلم تكونوا لتذهبوا. الوضع الآن مختلف. لقد جاء هو في طلبنا». فقلت: ــ «ما هو؟». ــ «مهما كان فهو هو. إن كان ثورة فهي الثورة. إن كان انقلاباً فهو الانقلاب. مهما كان فهو هو». ــ «أماه، إبقي أنت في البيت». ــ «أفلا ترى ما يجري خارجاً؟ أفبقيت بقية النسوة في البيوت كي أبقى أنا؟». فقلت: ــ «إن كنت تخشين على مرتضى، فنحن جميعاً معه». ــ «أنا أخشى عليه، لا أنكر ذلك. أنا قلقة على كل الفتيان والفتيات. ولكن أريد أن أكون أنا أيضاً موجودة».

وانطلقنا. فتح مرتضى الباب. في الزقاق، كانت الأبواب تنفتح الواحدة بعد الأخرى. كان الجميع ينطلقون، مسرعين. وكانت بعض النسوة مع أطفالهن الصغار. وكان بعضهن يحملن صغارهن. وكان صوت إطلاق النار قريباً، قريباً جداً. وكان عدد يهتفون: «الله أكبر!» ثم زاد مرتضى وأصدقاؤه فجأة سرعتهم، يركضون، وأركض وراءهم. وورائي يركض فتيان آخرون، وفتيات. وأنا الذي لا أعرف المحلة، كان ينبغي أن أكون تابعاً. أينما كانوا يذهبون كنت أنا أيضاً أذهب... وبعضهم، في هذا البرد الشديد، كانوا حاسرين حفاة، ربما لأنهم، هذه المرة، لا يذهبون إلى مكان آخر لرؤيته. لقد جاء، بقدميه كلتيهما، إلى أبواب بيوتهم. وكان ينبغي أن يعطوه الجواب اللازم، لأنه لا يجوز صرفه عن الباب كي يذهب إلى باب شخص آخر. لم يكن أمام (الجامعة). لم يكن في (سلطنت آباد) و(لويزان) و(باغشاه). لم يكن في ميدان

(سپه)، ولا ميدان (خراسان) ولا ميدان (شوش) ولا ميدان (آذربايجان). (الأسماء بين الأقواس هي المناطق والمحلات التي تحركت فيها الجماهير، وتصادمت مع بقايا قوات النظام الإمبراطوري، فحققت انتصار الثورة ومنعت قادة الجيش في تنفيذ مخططهم الانقلابي ــ س). كائناً ما كان، جيداً، سيئاً، جميلاً، قبيحاً، مضيئاً، مظلماً، فقد كان هناك والآن، وكما لو أنه لا يتعلق بأي مكان وزمان آخرين عدا هنا وهذا الوقت. وكان الناس أيضاً مجرد هؤلاء فقط. أما الناس الآخرون فإما أنهم لم يكونوا، وإما ــ إن كانوا ــ أنهم لم يكونوا لهنا أو لهذا الوقت...» (ص ص٩١١-٩١٤).

* أما الجماهير، فهي هكذا:

«وأية أسنان بيض كانت للجماهير! تحت الشوارب الشمطاء، الشوارب السود، بين اللحى الشمطاء واللحى السود، في هالة الشفاه الجميلة للفتيات، كانت للجماهير أسنان بيض. كنت قد نسيت أصلاً أن للجماهير أسناناً، وأن الأسنان بيضاء، وأن الأسنان تبرق من أعماق ضحكات الجماهير المسرورة، وكما لو أن الجماهير تنطلق في سفر في خضم الريح» (ص٤٧٣).

* *

ووصفه حاد قاس، وإن كان يغلفه بسخرية، أو قل إن هذه السخرية تزيده حدة:

* مع تقدم المستشارين الأميركان يبدأ الركن الثاني في الجيش (المخابرات) بالبحث عمن يعرفون الإنگليزية لاستخدامهم مترجمين. مسؤول الركن الثاني في تبريز عقيد مجدور الوجه يحلق وجهه مرتين يومياً «كما لو لينبه الناس إلى جدري وجهه»، ومأموروه لا يعرفون غير الفظاظة:

«عندما ألقى أفراد العقيد ساويزي بحسين تنظيفي ـ باللكمات والرفسات والضربات على الرأس ـ في غرفة عقيد الركن الثاني، كان أمر حسين قد انتهى. نهض العقيد من وراء منضدته على عجل، وجاء ليقف صدراً لصدر أمام حسين. كان حسين قد ألقى رأسه ـ مثل خروف التضحية ـ إلى أدنى، ولكن في اللحظة التي سبقت إلقاء رأسه بالضبط، رأى وجه العقيد الضخم المثقب ففهم أن كوابيس كهذه لا تأتي المرء إلا عندما يصاب بجنون مؤقت أو عندما يأكل كوارع وكرشة مع الثوم وينام فوراً عميقاً، وإلا فإن كوابيس من هذا القبيل لا تأتي الناس في اليقظة وفي الأحوال العادية» (ص٥٥).

وعن النقيب كروسلي يقول:

* «كان المترجم يتصور أن النقيب كروسلي، عندما يحلق ذقنه صباحاً، كان يفكر في لحية العقيد الخشنة الشمطاء فيجر الموسى بشكل أكثر إحكاماً فيحلق خديه ووجنتيه وظاهر شفتيه وتحت حنكه، البيضاء والحمراء، مرتين. ربما في هذا الوقت نفسه من الصبح كان العقيد جزايري يقف ـ داخل جدار من القط والحمام والكناري وطيور الحب ـ أمام المرآة، ويفكر في الوجه الأحمر والعينين الزرقاوين والرموش الطويلة المرتبة للنقيب كروسلي، فيتخلى ـ بنوع من التسليم والتوكل ـ عن حلق لحيته. ربما كان العقيد يفكر أنه لابد أن يكون ثمة فرق بينه وبين هذا النقيب الأمريكي. مع أن الأميركان لم يكونوا احتلوا إيران، ولكن لم يكن بمقدور الأميركان أن يعيشوا بدون إحساس باحتلال البلدان الأخرى. كما لو أن العقيد فهم هذه المسألة بلا وعي، ولهذا السبب كان يريد إظهار معارضته لحس الاحتلال هذا عند النقيب، بطريقة ما» (ص٦٢).

وفي وصف موظف العدلية الذي أنجز شكليات تبني العريف الأميركي للطفلة الإيرانية:

* «لم يكن رئيس العدلية موجوداً. أما معاونه، وهو رجل قصير سمين نوعاً ما له عينان وحاجبان سود وشاربان غليظان نوعاً ما، ستالينيان ــ نوع من الشوارب ينمّيه بعض معلمي آذربايجان ومثقفيها، ربما بوصفه علامة ثقافتهم ــ فكان مثل كل بيروقراطيي إيران أنيقاً: إذ كان يرتدي طاقم جاكتة وبنطلون من النوع واللون عينهما، أنيقيْ الفصال، لونهما كحلي، وقميصاً أبيض ذا ياقة منشاة، ورباط عنق أحمر، وزرّيْ أكمام كبيرين لافتين للنظر، وحذاءين أسودين براقين. كما لو أن هذا الرجل لم يصعد من سلالم العدلية (التي وصف الكاتب ازدحامها وقذارتها قبلا ــ س)، وإنما وُضع له سلم متحرك من الخارج فدخل الغرفة من النافذة» (ص ص٢٥٨-٢٥٩).

وهو يصف البرتقال، الذي يقدم للمترجم فيشاهده لأول مرة!:

* «أخذت أنظر إلى أيدي الضباط الآخرين. كانوا يقشرون ــ بمهارة تامة ــ بالسكاكين ورؤوس أظافرهم ــ برتقالاتهم. فالتقطت أنا أيضاً برتقالة وانشغلت بها. ولكن الحظ لم يكن حليفي، للأسف. قلعت قشر رأس البرتقالة، مقلداً الضباط، ولكن ــ لعدم معرفتي بمحتويات البرتقال ــ فقد قلعت بعضها أيضاً، ثم حاولت ــ كالآخرين ــ إحداث خطوط كخطوط المدارات المفترضة حول الكرة الأرضية، بسكين. ولكن السكين انغرزت أعمق من اللازم داخل البرتقالة فانسابت عصارة البرتقال، من طرف سكيني ومن الجدران التي أحدثتها في جوانب البرتقالة، على يدي. تجاهلت الأمر. وبما أن الآخرين كانوا وضعوا سكاكينهم في أطباقهم، فقد فعلت الشيء نفسه، ثم حاولت ــ بمساعدة أطراف أناملي ــ أن أوزع البرتقالة إلى مقاطع طولية من فوق، كالآخرين، ولكن كلما كنت أضغط كلما كانت العصارة تتجمع في يدي وتسيل وتنتشر بين أصابعي وحتى على ظاهر كفي. كان الضباط

ينظرون بدهشة إلى برتقالتي. كانت البرتقالة قد انتقعت، صارت شيئاً لزجاً كثير العصارة باعثاً على الاشمئزاز. وكانت قد تضاءلت، كما كانت يداي قد انتقعتا تماماً..» (ص٣٤٨).

في وصفه لقوافل السجناء التي مرت عليه في السجن:

* «.. وكان الرقم خمسة آلاف وخمسمائة وأربعة وثلاثون قد قام بإضراب عن العمل، والإضراب ــ عموماً، دائماً، في أية حكومة ــ مخالف لمصالح البلاد، بل هو مخالف لمقام الشعب الإيراني. ماذا يريد الناس؟ أمعلوم ما يقول الشعب هنا؟ ولكن المقصود شعوب البلدان الحرة والمتمدنة. فنحن، على أية حال، جزيرة ثبات[٢٦] في دنيا تعصف بها الأزمات والإضرابات والذهول. كل الدنيا مصابة بالدوار. شعب إيران فقط لم يصبه الدوار» (ص٣٧٦).

والأحداث التي جرت في إيران أثناء سجنه:

* «تفضل الشاهنشاه آريا مهر[٢٧] بافتتاح. لقد افتتح هذا السيد إلى حد أنه لم يعد بمقدور ثقب ــ مهما كان ضيقاً ــ أن يبقى مسدوداً» (ص٣٧٧).

في وصف مرض عبد الله خان بعد تحريره من السجن:

* «أصاب الألم بطن عبد الله خان فأخذوه إلى المستشفى. بيّن التصوير الشعاعي أشياء لم يفهم منها عبد الله خان شيئاً. فتحوا البطن ليجدوا ما هناك. كانت كل الأمعاء، وكامل المعدة، وجزء من الصدر، قد أصابها السرطان بالتمام والكمال. لم يبق إلاّ أن يندلق السرطان مثل مكبرة صوت من حلقه فينطلق بالغناء. فتح عينيه. كان صوت رشاش يأتي من الخارج. كما كان المطر يهطل. ثم فتح عينيه أكثر قليلاً، وأكثر، وفتح عينيه على سعة بحيث أصبح إطار النافذة حدقتي عينيه» (ص٣٧٧).

وعبد الله خان نفسه:

* «من أردبيل إلى بهشت زهرا[٢٨]، لم يكن عبد الله خان المسكين قد رأى غير السجن» (ص٣٧٨).

وعن مصير العقيد ورهطه يقول:

* «ربما كانوا أحرقوا أجسادهم، وربما كانوا دفنوها في المسيلات المتروكة في أطراف تبريز فراحت مياه الربيع ـــ في مسيلها من الجبال ـــ تعبر من فوق عظامهم كلسية اللون، المصقولة، فتصب في خزانات ماء المدينة. وربما كان الناس يشربون عصارة أرواح هؤلاء الشهداء مع الماء الذي يشربون، فيتجرعونه جرعة جرعة» (ص٣٩١).

* وتعتقل السلطات متسللاً سوفيتياً، مواطناً بسيطاً جاء للحاق بزوجته التبريزية، فتعتبره هذه السلطات جاسوساً وتريد أن تستل منه اعترافاً بمعرفته المسبقة لمجموعة العقيد وتسليمه هذه المجموعة تعليمات قتل النقيب.

«مد الجنرال شادان يده، فأمسك أذني وجرّني، وجاء بي إلى حيث المتسلل، وأمسك بوجهي أمام أنفه السمين بالضبط. كما لو كان مقرراً أن نفهم ـــ عن طريق تقارب أنفاسنا ـــ أننا كلينا جاسوسان ولابد أن نعترف على أحدنا الآخر» (ص٣٩٥).

وفي وصفه لأم إبراهيم وجمال عينيها:

* «من هذه الزاوية، كانت تبدو أضخم وأكثر لحماً. وخاصة أسفل وجهها، الحنك ولحم العنق ومقدم الفم. ولكن حكومة عينيها، فوق كامل ذلك التل العظيم من اللحم، كانت بلا منازع» (ص٦٥٦).

* *

وهو يتوخى دقة كاملة في الوصف، ولا يكتفي ــ لهذا الغرض ــ بالتأثير البصري. ففي وصفه لتنفيذ حكم العرفاء بالنقيب كروسلي، مثلاً:

* «كان النقيب كروسلي منفرداً وحده، مثل القدر، يتجه بمحاذاة الجدار الشرقي للمعسكر نحو شمال المعسكر.كان قد بلغ منتصف الجدار الشرقي. كانت المسافة التي تفصله عن حسين والعقيد نحو مائة أو مائة وثلاثين خطوة. رفع العقيد يده، ووضعها على ذراع حسين، وضغط ذراعه بقوة. تعجب حسين، التفت، ونظر إلى وجه العقيد جزايزي الصافي وعينيه الراضيتين. برغم الصفاء والرضا، كان الوجه مثل سؤال معقد. كان العقيد، عملياً، يضحك. وكان يبدو، عملياً، ثملاً. فجأة ارتفع صوت رشاش، لا رشاش واحد بل عدة رشاشات، من جذر أذني حسين. تصور حسين أن صوت الرشاشات سيتبدل فوراً في ذهن النقيب كروسلي إلى سؤال: «بإذن من؟»، ولكن الوضع الكلي للنقيب كان بشكل جعل حسين يحس أن النقيب يتجه مسرعاً ليستقبل الرشاشات، لأنه ــ من اللحظة التي سبقت تثقيب الرشاشات له ــ التفت نحو الرشاشات، وعلى تلك الحال ــ بكامل هيكله، فوق الشمس المنبسطة على أرضية المعسكر المرشوشة بالماء ــ ارتطم بالأرض. وبقي صوت الرشاشات بضع ثوان بعد سقوطه يدق سمع حسين. كان ضباط الصف يريدون التأكد من أن كل إطلاقاتهم أصابت هدفها، ولم يعد للهدف من وجود» (ص ص١١٤-١١٥).

أو في وصفه لعيني امرأة:

* «وتصير العينان سوداوين سوداوين، ثم تنغلقان كي تفعلا فعلهما، ثم إذ تفتح عينيها يبدو وكأن زورقين أسودين ألقي بهما في بحيرتين شفافتين صافيتين» (ص٢٨٦).

أو في تفسيره لسبب قتل النقيب:

* «أما الباعث (على قتله) فقد قلته أنا، كما قاله الآخرون. وكان هدفهم واضحاً تماماً. كان معسكر بأكمله قد شهد ما جرى، وكان الهدف أن يفهم أفراد المعسكر، وعن طريقهم أفراد المعسكرات الأخرى للجيش الإمبراطوري، أنه في ضوء النهار تماماً، في أواخر ربيع آذربايجاني جميل، عندما تغرق قفائر سفح سبلان بالعسل، وتصخب شهوة أرض مُغان[٢٩]، ويتحلب صدر الأرض بآلاف الفواكه وعصاراتها الملونة وتجر تراب غرورها إلى عين السماء والشمس، يمكن تثقيب نقيب أميركي ـ يتبختر على المكان والزمان في حين أنه لا حقّ له في أن يطأ بقدمه تلك الأرض في تلك اللحظة من الزمان ـ بمئات الإطلاقات.

«أتصور أن ربيع مغان المجنن لم يكن عديم التأثير في ضباط الصف، أيضاً. إن حمى العيش بافتخار والموت بعلوّ رأس هي حمى ربيعية، وكان ضباط الصف أسرى تلك الحمى. لا أظن أنه كان بمقدورهم أن يقتلوا النقيب في شتاء أردبيلي زمهريري...» (ص٤٠٨).

* *

وإذا كان الكاتب قد أضفى على شخصياتٍ كإبراهيم ومرتضى كل الاندفاع الثوري، وصوّر تصرفاتهم مقرونة بالعاطفية والحماس، فهو لم ينس أن يجعل حسين ـ وقد عانى تجربة السجن الطويلة تلك ـ رصيناً معقولاً: يأتي إلى موضعهم شخص يدّعي أنه ضابط قوة جوية انتقل اليوم إلى صفوف الثوار. ثم يفهم مرتضى من حديثه أنه ضابط حرس إمبراطوري. (وفي هذا تباين كبير، فقد أعلن عدد كبير من ضباط القوة الجوية ولاءهم للثورة وبيعتهم للخميني بينما بقي الحرس الإمبراطوري يحارب كل من حاول التمرد). وعندما يشرح مرتضى ذلك لإبراهيم يشير هذا له أن يعتقله على أن يذهب هو

للتحقق من أمره، كي يحاكموه إن ظهر كذبه. ولكن حسين يفكر على النحو التالي:

«الآن، إن كان يفترض أن نحاكم نحن هذا الشخص، فبأي حق نحاكمه؟ لمجرد أننا على هذا الجانب من الخط وهو على ذاك الجانب؟ لا تصح محاكمة شخص في موضع قتال، والقضاء عليه. ليس موضع القتال محل محاكمة!» (ص٩٣٦). ولا يكتفي بالتفكير، بل يطلب ـــ ويصر في طلبه ـــ إطلاق سراح الضابط دون محاكمة.

* *

وإذا كان الكاتب يستعرض في وصفه أحياناً قدرته على الإطناب، فهو لا ينسى أن يرينا آيات من الإيجاز أيضاً. ففي وصفه للحظة التي سبقت مقتل حسين يقول:

«فتحت الباب. سطع نور فجأة بيني وبينه. ما رأيته، على الصفحة الحادة والبراقة لذلك النور المفاجئ، لم يكن تهمينه ناصري. كان كائناً آخر. على عتبة الباب، أمامي تماماً، كان يقف شخص. لم يكن في ذلك شك. لم يكن تهمينه ناصري. أمامي، لم يكن ثمة غيري. كان من يقف أمامي، أنا نفسي. رأيت، امتلأت رعباً. سقطت» (ص١٠٥٧).

وهو لا يعتمد السرد دائماً في وصفه، بل ربما يلجأ إلى الأساليب البلاغية المعروفة للتعبير عن فكرة أو ترسيخها. فبيلتمور مثلاً يصف علاقته بسودابه على النحو التالي:

«وقد احتفظت بسر علاقتي العظيم كما يحتفظ طفل بمسكوكة ثمينة في قبضته» (ص٢١٢).

* *

ولكن ذلك لا يبرئ الرواية من مآخذ كثيرة. فحسين تنظيفي في «قولـــ»ـــه، يستطرد استطرادين طويلين (من ص٣١٧ إلى ص٣٣٣) و(من ص٣٣٣ إلى ص٣٣٦) ليبين لماذا صار مترجماً. أفيريد الكاتب أن يصوّر كم اختلت حواس حسين نتيجة السجن الانفرادي، أو نتيجة تجربته كلها؟

ونجد عنده استطراداً آخر (من ص٣٣٦ إلى ص٣٧٤) عندما يروي قصة حياته، ولا نجد ربطاً لهذا الاستطراد بالرواية الأصلية وأحداثها. أفأراد الكاتب وضعنا في صورة الفقر والجهل السائدين في تبريز؟ أفيحتاج ذلك إلى نحو أربعين صفحة؟ وما معنى قصة لقائه بالسيد الغريب ومشاهدة المرأة الغريبة لذلك اللقاء واختلال حواسها، ثم موتها! نتيجة لذلك؟!

وعندما يعود حسين إلى بيته، بعد إسقاط تمثال الشاه، ينام ــ كما في السجن ــ على الأرض ويحلم (ص ص٤٩٤ ــ ٥١٧). ويبدو حلمه استعراضاً لقدرة الكاتب على السرد أكثر مما هو إشارة لحدث ما أو ذو ارتباط بأحداث الرواية.

ولحرصه على تسجيل كل أحداث الثورة وجزئياتها، يضيع المنطق أحياناً. فهو عندما كان ممدداً على النقالة لم يسمع شيئاً، بل نبهه جاره في النقالة الأخرى إلى أن قيادة الحشد تقرأ القرارات. ومع ذلك، فهو يدرج لنا نص القرارات من أولها! (ص٥٥٠).

أو يغطي على كل المفاجآت والمصادفات بقوله إنها كانت معجزات، كما يفعل على لسان حسين مثلاً ــ على (ص٥١٨).

ويفرض عليه التشبيه، أحياناً، نفسه، بحيث يورده دون حساب. فعندما تقدم حسين للفحص، في شبابه، عندما أراد الالتحاق بكلية الطب على نفقة الجيش، يقول: «ثم قادنا إلى غرفة كبيرة، تشبه كثيراً قاعة التشريح في الكلية الطبية...» (ص٣٤٨)، فما عرفه بتلك القاعة؟

# الهوامش

(١) أديب إيراني معاصر متوفى، كتب القصة والبحوث الاجتماعية كما ترجم بعض الآثار العالمية.

(٢) و (٣) مدينتان في شمال إيران.

(٤) من نشيطي حركة المشروطة الثوريين، وكان من أهالي الشمال، نفي داخلياً بعد انتكاسة حركة المشروطة، وعاد إلى بلدته بعد انتهاء مدة نفيه، لينظم مع عدد من رفاقه القدامى حركة «رجال الغابة» نسبة إلى الغابات التي كانت منطلق الحركة ومخبأ رجالها، وانضم إليهم عدد من قادة مقاتلي حركة المشروطة الآخرين، للنضال ضد حكومة آل قاجار المتهاوية، وفرقة القوزاق التي نظمتها في البلاد، بقيادة عقيد روسي، وذلك أيام الحرب العالمية الأولى.

بعد اندلاع ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا دعمت حكومة السوفييت أولاً حركة الغابة، وأرسلت محرضين ثوريين للعمل معها، ولكن بعد مجيء رضا خان إلى السلطة في إيران، وعرقلته حركة القوات البريطانية من إيران لدعم قوى الثورة المضادة في روسيا، عرضت الحكومة السوفييتية على ميرزا كوچك إنهاء عملياته والتفاهم مع الحكومة أو الانتقال إلى روسيا السوفييتية ليقيم فيها لاجئاً، ولكنه رفض، مفضلاً وقف حركته مؤقتاً ــ دون إعلان ــ ليستجمع قواه ويعاود نشاطه.

وفي محاولته التسلسل إلى تركيا أو العراق، قضى عليه الجليد وزمهرير الشتاء، ليلحق به جلاوزة رضا خان فيحتزوا رأسه ويعودوا به إلى مدينة رشت يعرضونه للمباهاة والتخويف.

(٥) الاسم الملطَّف لغرفة التعذيب.

(٦) الإمام الثامن، عند الشيعة الإثني عشرية، تعتبر زيارته شبه فرض عند حديثي الزواج.

(٧) منطقه في شمال طهران، أنشأ فيها النظام الملكي آخر سجونه وأحدثها.

(٨) = البستان، ديوان شعر في «ديباچه = مقدمة» وعشرة أبواب مختلفة.

(٩) الشيرازي (١٢١٣؟ ــ ١٢٩٢م)، من أكثر شعراء الفرس شعبية. حكيم ومتصوف. له ــ عدا بوستان ــ «گلستان= حديقة الورد» وأكثره منثور، وديوان شعره.

(١٠) جلال الدين مولوي، المعروف بالرومي (١٢٠٧ ــ ١٢٧٣م). متصوف، شاعر، منشئ الطريقة المولوية. له «فيه ما فيه» وديوانه الشهير بــ«مثنوي». مدفون في قونية بتركيا.

(١١) الحافظ، شمس الدين الشيرازي (١٣٢٥ ــ ١٣٩٠م)، أشهر الشعراء الغنائيين الفرس. عرف وترجم على نطاق عالمي. تبلغ شعبيته الذروة في إيران حيث يستفتح بديوانه! ولا يكاد يخلو بيت فيه قرآن من هذا الديوان!

(١٢) ١٠٠٤ ــ ١٠٧٥؟م. شاعر وداعية ديني فارسي. تبنى الدعوة الفاطمية وعمل على نشرها. حاول التوفيق بين المعتقدات الإسماعيلية والفلسفة اليونانية فكتب «جامع الحكمتين». زار مكة وفلسطين وسوريا ومصر، فكتب «سفرنامه» (= كتاب السفر).

(١٣) جبل في محافظة أردبيل شمال غربي إيران.

(١٤) يحمل تعبير «يقوم بخدمة...» في الفارسية معنى مزدوجاً، والمراد هنا هو المعنى المبطن: اللواط.

(١٥) جمع (باجي)، بمعنى المرأة أو الأخت الكبرى. ولكنها تختص عند أتراك إيران بالخادمات.

(١٦) = ٤٠–٥٠ دولاراً حينذاك.

(١٧) العاشق، في تركيّة إيران، يعنى من يصل به العشق حد ترك كل شيء والإنصراف إلى نظم الشعر والتجوال لغنائه: تروبادور إيراني.

(١٨) منطقة سكن الأغنياء والوجهاء.

(١٩) فرقة الديمقراطيين أو الفرقة الديمقراطية، وتسمى اختصاراً بالــ«فرقة». منظمة أسسها الشيوعيون واليساريون، في آذربايجان الإيرانية، وشكلت حكومة محلية في فترة من الحرب العالمية الثانية ــ عند احتلال الاتحاد السوفييتي للجزء الشمالي من إيران. تركت الأمور وانسحبت انسحاباً غير منظم مع القوات السوفييتية، التي كان انسحابها منظماً، فدخل جيش الشاه وأجهزته القمعية المدينة ليعاقبوا أنصارها والمتعاونين معها وحتى المواطنين العاديين عقاباً وحشياً.

(٢٠) الانقلاب الأنكلو ــ أميركي في ١٩ آب/ أغسطس ١٩٥٤، الذي أطاح بالدكتور مصدق وحكومته.

(٢١) الجد الأكبر لسلالة الصفويين التي حكمت بلاد فارس وبدلت اسمها إلى إيران من عام ١٥٠١ إلى عام ١٧٣٦ (م). وكان رجل دين صوفياً.

(٢٢) عمال خدمات الطيران العسكري. وقد أعلنوا ولاءهم للثورة قبل انتصارها فهاجمهم الحرس الإمبراطوري وأوقع فيهم خسائر كبيرة بالأرواح!

(٢٣) قائد حرس الشاه عند انقلاب ١٩ آب ١٩٥٤، ورئيس السافاك لفترة. عزله الشاه واعتقله ــ قبل سقوطه ــ ككبش فداء، فوقع في أيدي الثورة.

(٢٤) يقول المثل الفارسي: لا يستطيع الفأر أن يدخل الجحر، ومع ذلك يشد في ذيله مكنسة!

(٢٥) المقصود: أردشير زاهدي، صهر الشاه وسفيره في الولايات المتحدة لاحقاً، لا أبوه: قائد الانقلاب ضد مصدق.

(٢٦) وصف الشاهُ إيرانَ قبل الإطاحة به بمدة قصيرة نسبياً بأنها «جزيرة ثبات وسط بحر هائج».

(٢٧) شاهنشاه آريامهر = الإمبراطور ذو الرفق الآري ــ اللقب الرسمي لشاه إيران.

(٢٨) المقبرة العمومية في طهران.

(٢٩) أحد أخصب وديان إيران الزراعية. يقع في الشمال، وتقوم فيه منشآت زراعية وحقول تربية حيوانات عديدة.

# الفصل الخامس

## إسماعيل فصيح

ربما كان إسماعيل فصيح أشهر كتّاب الرواية المحدثين في إيران. فعلاوة على ترجمة روايته «ثريا في غيبوبة»، سنة ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤ إلى الإنكليزية بعد صدورها بشهور (وربما كانت ترجمت إلى لغات أخرى أيضاً)، وانتهاء بترجمتها إلى العربية في مصر سنة ١٩٩٥(*)، جرى تناولها في عدد من مجلات آسيا وأفريقيا (وربما على مستويات أخرى لا علم لي بها).

وإسماعيل فصيح من مواليد أوائل سنة ١٩٣٥، أنهى دراسته العليا في الولايات المتحدة وعاد ليعمل في شركة النفط الوطنية الإيرانية، قسم المناطق الغنية بالنفط، وفي سنة ١٩٨٠ «صار متقاعداً» ـ كما يقول في خلاصة حياته التي يذيل بها بعض كتبه ـ بعنوان أستاذ مساعد في كلية نفط آبادان.

نشرت أولى رواياته «الشراب الخام» سنة ١٩٦٨، وآخرها «أسير الزمان» سنة ١٩٩٥(١). كما نشر أول مجموعاته القصصية «التراب المعروف» سنة ١٩٧٠، وآخرها «رموز السهل المشوش» سنة ١٩٩١.

---

(*) صدرت بترجمة محمد علاء الدين منصور عن المجلس الأعلى للثقافة، تحت رقم (٤)، ضمن المشروع القومي للترجمة.

وهو غزير الإنتاج نسبياً[٢]، فقد كتب من الروايات «الشراب الخام»، «القلب الأعمى»، «قصة جاويد»، «ألم سياوش»، «ثريا في غيبوبة»، «شتاء ٦٢»، «البازي والأبوام»، «فرار فروهر» و«الخمر العتيق» ثم «أسير الزمان».

أما في مجال القصة القصيرة فقد نشر «التراب المعروف»، «لقاء في الهند»، «عقد وقصص أخرى» و«منتخب القصص» ــ وتضم مختارات من تلك المجموعات الثلاث ــ ثم «رموز السهل المشوش».

كما أن له ترجمات «الوضع الأخير» ــ وهو بحث في تحليل السلوك المتقابل، من تأليف أ. هاريس و«الألعاب» ــ وهو كتاب عن علم نفس العلاقات البشرية، من تأليف «أريك برن» ــ و«البقاء في الوضع الأخير»، و«أساتذة القصة» ــ وهي مجموعة من كتابات أشهر الكتاب العالميين انتخبها وترجمها، و«رستم نامه» (كتاب رستم)، من تأليف البروفسور ويلمونت وباكستون، و«معرفة الذات بأسلوب يونغ».

ويقيم فصيح الآن في طهران، ويعمل أحياناً في برامج التخصص باللغة الإنگليزية وكتابة التقارير بالإنگليزية في صناعة النفط.

ولا صوت له ــ هو الذي «صار متقاعداً» في أول حملات التطهير فيما يبدو ــ في الحياة العامة، ولا تتم الاستفادة من رواياته أو قصصه القصيرة في الأعمال السينمائية أو التلفزيونية في إيران ــ على كثرتها ــ ولا أذكر أنني قرأت اسمه طيلة أكثر من عشر سنوات في صحيفة يومية! سواء في صفحة أدب أم غيرها! عدا خبر قصير عن ترجمة «ثريا في غيبوبة» إلى العربية.

ورغم أنه نشر ما يشبه «البراءة» من ماضيه ــ ولا أقول نقداً ذاتياً، فليس عند الرجل مما ينقد غير الشرب وعشرة النساء، في رواياته طبعاً ــ تتمثل في

روايته «الخمر العتيق»، التي تكاد تكون «رفسنجاني نامه»[٣] منذ سنة ١٩٩٥، إلا أنها لم تخدمه في تغيير وضعه، إذا كان ذلك هدفه منها.

ولما كنت حصرت همي بالرواية، فإنني لن أتناول في هذه القراءات قصصه القصيرة.

## أ ـ البدايات الأولى:

### تلمّس الطريق؟

#### ١ ـ الشراب الخام:

«الشراب الخام» قصة خريج إحدى الجامعات الأمريكية العائد إلى إيران ليعمل في شركة أمريكية تبيع مواد كيماوية وأجهزة مختبرية، يستدعيه رئيسه ـ صاحب الشركة ومديرها الأمريكي ـ يوماً ليبلغه أن موظفة فرع الشركة بمدينة خرمشهر أبرقت مستقيلة، ونظراً لأنها موظفة جيدة ولأنه ليس ثمة سابقة تستدعي استقالتها، يرجوه السفر إلى خرمشهر ليراقبها ويرافقها و، ربما، ليحرسها في طريق عودتها إلى طهران. وعلى الطريقة الأمريكية، فقد رتب المدير كل شيء لتسهيل مهمته: حجز له بطاقة ذهاب بالطائرة إلى خرمشهر، وبطاقة إياب بالقطار منها ـ ربما كانت على مقعد في العربة نفسها، وربما حتى المقصورة نفسها، التي ستعود فيها الموظفة المستقيلة. ويُطْلِع الموظف على الملف الإداري للموظفة المستقيلة فيتعرف على شكلها من صورتها في الملف.

يصيب الطائرة عطل فتضطر للهبوط الاضطراري في منطقة قبل خرمشهر، ونظراً لضيق الوقت يقرر الموظف ـ الراوي الالتحاق بالقطار

هناك فيصله ليلاً، ويدخل مقصورته فيجد فتاتين نائمتين، ولا يستطيع هو النوم فيقضي وقته بالتدخين والقراءة، وعند الصباح يكتشف أن إحدى الفتاتين ميتة في مقعد ـ سرير المقصورة، ويعرف بعدئذ أنها الموظفة المستقيلة العائدة. ويجري تحقيق أولي يتضح منه أن «مهين حميدي» ربما ماتت منتحرة.

يعود إلى طهران فيقدم تقريره إلى رئيسه، ويعتبر الموضوع منتهياً بالنسبة له، إلا أن التحقيق يتواصل في طهران فيسمع إشاعات بأن مهين حميدي كانت حاملاً، وكانت مخدرة بالهروئين. وعندما يسأل سكرتيرة الشركة، التي زاملت هذه عندما كانت تعمل في مركز الشركة بطهران، عما إذا كان محتملاً أن تنتحر لحملها، أنكرت ذلك بحسم، واصفة مهين بالشجاعة الأخلاقية وتحملها العالي للمسؤولية.

ثم يكلف المديرُ الراوي بزيارة أخت المنتحرة (ولا عائلة لها غير أختها) ليطلب إليها أن تعيد إليهم أية أوراق تخص الشركة يحتمل أن توجد بين أغراضها الشخصية، ويعثر الراوي بين تلك الأوراق على دفتر مذكرات يفهم منه أن مسؤول فرع الشركة في خرمشهر اصطاد الفتاة بخدعة في مخزن الشركة، وخدرها بالهروئين واغتصبها واحتجزها مدة تحت مفعول الهروئين حتى سلب كل قدرة لها، ولكن قوة إدراكها ومقاومتها تنتصر فتقرر الهرب، وتتمكن منه، فترسل برقية الاستقالة تلك وتعود بالقطار إلى طهران حيث ترافقها ـ دون انتباهها ـ الفتاة الأخرى في المقصورة نفسها، ونفهم بعدئذ أن هذه الفتاة عميلة مسؤول الفرع. وعندما يعود ليسلم أخت المنتحرة أجور شقيقتها يصطاده مسؤول فرع خرمشهر وإثنين من الجلاوزة المرافقين له، وتحت الضرب والتعذيب الوحشيين يجبرونه على إعادة دفتر المذكرات (وكانوا ينتظرونه في شقة الأخت بحثاً عن هذا الدفتر) ويلقنونه درساً ـ يشفعونه بتهديده بخطف أخيه العليل ـ كي لا يفتح فمه فيحدّث أحداً بما قرأ فيه.

تتطور علاقات الموظف ـ الراوي (الذي نفهم أنه يبرأ تدريجياً من صدمة كبرى بوفاة زوجته النرويجية بأمريكا عند الوضع مع وليدها) بشقيقة مهين لتصل إلى ما يشبه الحب والاتفاق على الزواج، حتى يأتي يوم تختفي فيه هذه، لتتصل به بعد أيام لتخبره أنها ربما كانت قتلت مسؤول فرع الشركة بخرمشهر، الذي اختطفها واغتصبها هي الأخرى وخدرها، وتطلب منه إرشادها إذ أنها تريد تسليم نفسها إلى الشرطة. يمنعها من ذلك، وبعد سلسلة من مغامرات جيمس بوندية يعود إلى بيت الجريمة فيأخذ حقيبة الفتاة ـ التي كانت تركتها هناك وولت هاربة ـ كما يأخذ مقص الجراحة المغروز في رأس القتيل، والذي يخصها أيضاً. وفي عملية هي مزيج من أحداث السحر ووقائع الأفلام الهندية يجعل (زهرا حميدي) ـ التي تعتقد أنها قاتلة ـ تعثر على حقيبتها، ثم مقصها، ويتصور أنه أبعد عن رأسها فكرة أنها القاتلة، ولكن صراعها النفسي يقودها إلى الانتحار بعد أيام.

* *

مدخل الرواية، هو مدخل قصص موباسان، إذ كان بمقدور الكاتب أن يتحدث مباشرة عن مهين حميدي ومشكلتها وسفر عودتها إلى طهران، إلا أنه آثر إيفاد الراوي ليحدثنا عن ذلك. ومع أن الكاتب أراد تبرير حشر مدير الشركة الأمريكي بالإشارة إلى أنه ربما كان وراء الأحداث، وربما كان رئيس عصابة تهريب مخدرات، بل ربما كانت شركته نفسها غطاءً لمؤسسة أخطر وأهم مهمتها تهريب المخدرات، إلا أنه لم يقنعنا بذلك، لأنه لم يذكر تفاصيل كافية ولا قدّم برهاناً على ذلك. دع عنك أن ذلك لا علاقة له بأحداث الرواية أو بشخصياتها.

ونظراً لإدخال الموظف ـ الراوي في الأحداث، فقد كان لابد من الحديث عنه على محور ـ أو محورين في الواقع، يوازيان محور أحداث الرواية

الأصلية ــ فنثر على امتداد الكتاب شذرات من حياة زوجته المتوفاة في أمريكا وصدمته النفسية التي أدت به إلى محاولة الانتحار، وأخيه الدارس ــ المدرس ــ المتصوف المقيم في الولايات المتحدة. وحياة الكاتب الحالية، وتاريخها، وصديق طفولته وصباه، الذي عاد إلى لقائه بعد عودته هو من الولايات المتحدة وعودة ذاك من باريس:

«ناصر تجدد، نعوذ بالله، كان كاتباً، أو كان يريد أن يصير كاتباً. من بين كل مسالك الحياة، كان يريد شغل الكتابة الشريف حرفة. كان شاباً ذا استعداد. ولكن لابد أن عيبه كان أنه يريد أن يكتب في إيراننا المحبوبة شيئاً ذا وزن، مثل الأعمال الأدبية الجديدة في فرنسا، وعن هذا الطريق يحصل على معاشه في إيران. كان ذلك أمراً رائعاً وبلا نظير، ويمكن التوفيق فيه، خاصة وأن الناس في الأزقة والقرى في بلاد الجواهر كانوا ــ ما شاء الله ــ قراء روايات وقصص قصيرة!».

ويموت ناصر تجدد منتحراً، أو شبه منتحر، دون أن نعرف علاقته بأحداث القصة الأصلية.

كما نقرأ الكثير عن أخي الراوي العليل، وتقارير شبه يومية عن صحته، ثم القرار على تسفيره إلى الولايات المتحدة لمواصلة علاجه، وانشغال الراوي بعلاقة جنسية لطيفة ثرية مع سكرتيرة الشركة، وعلاقة شبه غرامية، مأساوية النهاية، مع زهرا حميدي.

* *

تتميز «الشراب الخام» بما يلي:

١ ــ التنبيه في بداية الرواية إلى أنها ــ أحداثاً وأشخاصاً ــ خيالية، وإلى أن أي تشابه لها مع أحداث الواقع وأشخاصه مجرد مصادفة.

ويظل إسماعيل فصيح يصدر كل رواياته بهذا التنبيه، عدا واحدة، هي «قصة جاويد»، التي أكد في مطلعها أنها قصة حقيقية وأن أحداثها رواها له بطلها.

٢ ـ أثناء سير أحداث الرواية، يطالع البطل ـ الراوي رواية، هي هنا «الصغار السود العشرة»، لأگاثا كريستي. ويرويها لنا بالتقسيط. وسنجد هذه الظاهرة تتكرر أيضاً في روايات عديدة أخرى للمؤلف.

٣ ـ الاهتمام بالجزئيات والتفاصيل في وصف الأشخاص واللباس والطعام، مما يخلق وهماً ـ أو قناعة ـ بحقيقة ما يجري.

٤ ـ اهتمام خاص بوصف الطعام. الطعام عند إسماعيل فصيح دائماً باذخ، وحتى إن لم يكن باذخاً فوصفه مثير للشهية:

«بالنسبة لي، إن الأغذية المتنوعة والمتعددة، المكونة من البيض واللحم والبصل والزيت والحنطة والبطاطا والدجاج والملح والخضروات والطماطم والفلفل والذرة والحمص واللوبياء والباذنجان والفواكه، هي أساس الارتباط بالكون. جسدي طويل وضخم ومثل الحصان التركماني مدرب، وكهذا الحيوان النجيب أيضاً عندي شهية حادة لا تنتهي. لا شيء مثل طعام شهي جرى طبخه بالطعم والرائحة واللون والأسلوب الخاص به، يوفر لذة،، قلَّ ما أتذكر أنني أضعت وجبة غذاء. وإذا لم يتح لي المجال فلم آكل، فإنني لا أنسى ذلك. حتى في الأزمات الروحية والأعاصير العصبية، أجلس إلى الطعام فآكل بغضب ونفور شديدين. إن الأكل غريزة ونفور شديدين. إن الأكل غريزة دفاعية آريانية». (ص ص٢٢٠-٢٢١).

٥ ـ يمتاز وصف إسماعيل فصيح بخفة الروح والنكتة، ويستوي في ذلك عنده إن كان يصف حادثة سارة أو كارثة مفجعة. ففي وصفه لزينة فتاة:

«كان شعرها مشدوداً بشكل من الشدة والترتيب حتى لكأن شعرة واحدة ما كان مسموحاً لها أن تشتبك بأخرى» (ص٢٤). و

«عنده سنّان من ذهب، وأربع أسنان بنية». (ص٢٢٩). وفي وصفه لحياة القرية الإيرانية:

«أتذكر كم كانت تفوح من كل القرية رائحة الدمن وبعر الخراف؟ أتذكر في السنة التالية عندما ذهبنا صيفاً إلى (كريم آباد)... من بعد ثلاثة فراسخ كانت الرائحة الرطبة للمستنقعات والدمن والخراف والبقر، أتذكرها؟ أتذكر الأطفال بوجوههم الملأى بآثار الجدري ورؤوسهم ووجوههم المغبرة وأنوفهم المتدلية مخاطاً والسابحين في القذارة؟ أتذكر ذلك الشخص الذي يجلب بقرته وحماره إلى كوخه فينيمهما إلى جانب زوجته وأطفاله؟ القرية تعني هذا» (ص١٥٧).

٦ ــ عندما يريد، فهو أستاذ الإيجاز والتعابير غير المباشرة. ولا أظنه تأثر في ذلك بهمنغواي قدر ما تسلط عليه اختصاصه في دراسة وتدريس إعداد التقارير، حتى تملكه:

«شكرت الله (= انتهيت من الطعام) ثم نهضت» (ص١٥٤).

«إضافة إلى الصداع، كان كل باطني منقلباً. كان جسدي يقفُ كله. كنت أدري أنني ينبغي أن أتقيأ كي أخف». (ص١٥٠)

«ولكن الليل عزيز حقاً. كل ورقة مالية وقعتها، وقعتها أثناء النهار، وكل مشروب شربته، شربته ليلاً» (ص٢٢٧).

بل هو يشير إلى التقارير مباشرة، فهو يعد خلاصة بشكل تقرير عن وضعه والمحيطين به ومجمل الأحداث (ص١٧٨ ــ ١٨٣).

٧ ــ البطل ــ الراوي، هو «جلال آريان». وآريان هو الاسم الإيراني،

الكلي، للجنس الآري. ويعني ذلك بوضوح أنه إيراني أصيل. وهو وأشقاؤه أولاد زواج متعة (زواج مؤقت) من «أرباب حسن آريان»، وعلاقتهم تكاد تكون معدومة بإخوانهم وأخواتهم من الأم الأخرى، أم الزواج الدائم.

وسنتعرف على هؤلاء الأشقاء في روايات أخرى، وعلى إخوانهم الآخرين في غيرها.

وبطل الرواية، ورفيقه الأصلي: ناصر تجدد، من سكان قلب طهران القديمة. ومع أن طهران ليست أقدم مدينة في إيران، إلا أن كونها العاصمة يراد به تأكيد أصالة إيرانية البطل.

٨ ــ أما الشخوص الأخرى الرئيسة فهي إما أتراك: وهم كبقية الناس فيهم الجيد والرديء، الشريف والشرير، وإما عرب؛ وهم جماع السيئات! فمن الصفات المسلّمة لعربي أنه «أحمق، حمار، وبلطجي» (ص٣٤).

خادمته العربية قذرة، والعربية الأخرى ــ المكلفة بمراقبه مهين حميدي في القطار والتي يحتمل (إلى قرب اليقين) أن تكون هي التي قتلتها ــ كذابة، جبانة، ومتلصصة.

أما الشخصيات العربية الأصلية، رئيس فرع الشركة في خرمشهر، صمد خزاير، فهو مقزز، يرتكب جريمة تخدير مهين حميدي ليغتصبها، ليس إلا، ولا يكتفي بذلك، إنما يكرر الشيء ذاته مع أختها.

ويبدو ذلك غير معقول من شخص عملي ــ تاجر مخدرات ــ لا يشغل نفسه بأمور أخرى قد تكشف جانبه ذاك، ولكن الكاتب يريد أن يقول شيئاً معيناً بالذات:

«إن بمقدور مهين حميدي... أن تكتب أحد أكبر وأصدق الكتب عن إزالة بكارة جسم وروح فتاة إيرانية بوساطة عربي في الزمان والمكان» (ص١٨٢).

وأظن من الأفضل أن نقرأ «جسم وروح إيران» بدلاً من «فتاة إيرانية»، لأن الكاتب ـ الراوي، يقول بعد الاعتداء على جلال آريان من قبل العربي وصاحبيه:

«الآن فهمت ما كان مذاق هجوم العرب على الإيرانيين» (ص١٤٠).

٩ ـ مع أن اللغة الفارسية ملأى بالمفردات العربية، إلا أن الكاتب يورد الألفاظ، وخاصة التراكيب، العربية بأخطاء إملائية لا تستساغ من كاتب، خاصة وأنه عاش مدة طويلة في منطقة عربية. أفأراد بإيرادها على هذه الشاكلة السخرية من اللغة العربية أيضاً؟!

١٠ ـ بما أن أحداث الرواية تدور سنة ١٣٣٨ الفارسية (= ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ الميلادية)، وهي الفترة التي شهدت استقرار النفوذ الأمريكي في إيران، فقد رأى الكاتب ألا يغفل الإشارة إلى ذلك. إن الأمريكان، عنده، موضع مدح بسيط عموماً، ولكن:

«أهذا فريق جيمس؟ ولكن على كل حال، من هو وأين هي الحقيقة؟ لقد كان أمريكياً. إنه يؤمن بإله الدولار. لقد كتب ذلك على تمام أوراق عملتهم»[٤] (ص١٤٣).

وهي كذلك فترة التطورات الاجتماعية للعصر البهلوي الثاني (عصر محمد رضا شاه) التي كان من أبرز مظاهرها كثرة الهجرة من الريف إلى المدن، وخاصة العاصمة طهران، إلى حد عجز المدن عن استيعاب المهاجرين وتقديم الخدمات المدينية لهم، وحمى جمع المال حتى أن أخا ناصر تجدد يحمله على التنازل له عن حصته من إرث أبيه كي يكفله عندما يريد السفر إلى أوروبا.

١١ ـ تحمل الرواية إشارات إيجابية إلى الزرادشتية:

«أنا عندي أقوال سيئة، أفعال سيئة... وأفكار سيئة كثيراً[٥]. وأفكر حالياً بأن أتوب وأصير طيباً» (ص١٨٧).

* *

خلاصة القول: إن إيران والإيرانيين ــ إيران الأرض والتاريخ ومهين حميدي وزهرا حميدي وحتى جلال آريان ــ أصابها الضرر على أيدي العرب، وقد كان الأميركان أخيراً، ربما، وراء هذا الضرر.

وقد أراد الكاتب، في رأيي، أن يؤكد بذلك قومانيته، ولكن بشكل فج تفوح منه رائحة شوفينية تبعث على الأسف.

ورغم مرور ست سنوات بين أحداث الرواية وإسقاط الأميركان ــ مع الإنگليز ــ للبطل القومي الدكتور محمد مصدق، فإن موقف الكاتب من الأميركان لا يتسم بعداء واضح وصريح. وربما كان لا يزال يعيش في وهم ذلك البطل[٦]!

**٢ ــ القلب الأعمى:**

و«القلب الأعمى» قصة قلب لا يبلغ شأوَ عماه قلبٌ آخر فيما عرف الناس ويعرفون! إنه قلب مختار، ابن «أرباب[٧] حسن آريان»...

تحدثنا هذه الرواية عن الشق الثاني، الأصلي، من عائلة آريان: أبناء زوجته ذات عقد الزواج الدائم: كوكب خانم.

تبدأ الرواية بتلقي صادق آريان، أحد أبناء حسن، مكالمة تلفونية تخبره أن أخاه مختاراً تعرض لحادث وأن وضعه وخيم، ثم يفهم أنه في الطب العدلي. وعندما يصل إلى مبنى الطب العدلي وينتظر مع ابن ذلك الأخ وابنته نتيجة

التشريح لتقرير سبب الوفاة، تندلق عليه الذكريات والتداعيات الفكرية التي تستعرض بتفصيل نسبي أكثر من خمس عشرة سنة من حياته.

وهذا المدخل للرواية، غير موفق هو أيضاً، إذ لا يمكن استعراض مدة بهذا الطول خلال فترة انتظار من بضع ساعات تتخللها طبعاً ساعة أو ساعتين من حوار بين الحاضرين تبتعد بالراوي عن ذكرياته، ولكنها عقدة موباسان التي لا زالت تتملك الكاتب.

* *

حسن آريان نفسه إنسان طيب بسيط مؤمن، على طريقته، فهو يصلي ويصوم ويكد على عياله نهاراً، وتعد له زوجته بساط الشراب فيجلس ليشرب مع أخيها غير الشقيق، في الأغلب، ووحده، نادراً، يسليه في شربه الحديث وشعر حافظ شيرازي وهدفه في الحياة أن يصير شاعراً، ويرجو أن يصير له ولد ويبقى حياً بعد إنجابه عدد من البنات.

وبين اليأس والرجاء يولد له مختار، ويا لبؤس العالم بمولده، ويا لتعاسة إخوته بهذا المولد، ويا لفرحة أمه الدائمة، وفرحة أبيه المؤقتة، بهذا المولد!

فعدا المناكدات والمشاكسات الطفولية والصبيانية، وحب التسلط على أخواته ثم إخوانه، يقرر ذات يوم التخلص من التبعية التامة لأبيه عن طريق افتتاح عمل خاص به، ونظراً لافتقاره إلى المال يقر رأيه على أخذ عقد ذهبي من فتاة نصف مشلولة خرساء تقيم في بيتهم شبه خادمة. وإذ ترفض إعطاءه العقد، وبين الجذب والشد يتمزق ثوبها كاشفاً عن صدرها، وإذ تنشغل بستر صدرها لا يكتفي مختار بسرقة عقدها وإنما يسرق بكارتها أيضاً، دون أن تستطيع الاستغاثة، ولكن يشهد الحادث ــ دون أن يفهمه تماماً ــ الأخ صادق، المتذكّر ــ الراوي حالياً وقد كان طفلاً صغيراً.

عندما يعلم الأب بالسرقة (وربما بشكل غامض بالاغتصاب) يقرر ذبح الابن، إلا أن جدته تهرّبه من البيت، فيلتحق بالخدمة العسكرية ويأوي إلى ضاحية ــ صارت اليوم مدينة ــ «ورامين»، في جنوب شرقي طهران.

في هذه الأثناء تضع الفتاة الخرساء، گُل مريم، حملها سراً في البيت، وتنقذه بما يشبه المعجزة من تصميم جدة مختار وأمه على إلقاء الوليد، وكان فتاة، في المرحاض و«دلق» إبريق ماء فوقه!

تقرر گل مريم إيجاد مكان مناسب لوليدتها، فتضعها فجر اليوم الثالث لمولدها عند باب أحد وجهاء المحلة، حيث تتربى في ذلك البيت وتظل الأم تراقبها من بعيد وهي تستوي فتاة حسناء نظيفة مرتبة حسنة التربية تحيا حياة شبه مرفهة، تدعى «فرشته» (= الملاك)، تنظم الشعر، وتنشره منذ حداثتها.

أما مختار، فيتواطأ في مثواه الجديد مع امرأة تغويه بالاشتراك معها في قتل زوجها، ثم يكتشف أمرهما بعد القتل، فتسجن هي مدة وهو مدة أقصر منها، وتخلف منه ولداً، يدعى «قدير».

وبعد إنهاء خدمته العسكرية ومحكوميته في السجن يمهد خاله لمصالحته مع أبيه، فيعود إلى البيت مجدداً، ويستقل إلى حد ما بأحد دكاكين أبيه، ويبقى سلوكه في البيت متحكماً مناكداً مناكفاً مشاكساً لأدنى سبب وبلا سبب، مترصداً بشكل خاص قرة عين العائلة من بعده: رسول، الذي كان ــ إضافة إلى هشاشته ولطفه ووسامته وبشاشته ــ ظريفاً لطيفاً محباً لكل خير، ويبشر بمستقبل علمي، وفني، زاهر، وهو يذكِّر القارئ، حتى في رقة جسده، بالمسيح(٨).

وبعد أن كان يتهيأ لإنهاء دراسته الثانوية، وكان الحديث يدور جدياً عن إيفاده في بعثة إلى فرنسا، على حساب الدولة لتفوقه، للتخصص في الطب،

تؤدي ضربة من مختار إلى سقوطه وإصابته بنزيف كاد يودي بحياته، إلا أن النتيجة «تحسنت» إلى فقدان عقله وبقائه مدة في المستشفى!

بعد أن يموت الأب، يبدأ استئثاره بكل أموال العائلة بمختلف الحجج، حتى أنه ليقرض أمه ــ لقاء رهن ــ لتجهيز إحدى شقيقاته في زواجها، فتنفق أمه ما يبقى بين يديها من مالٍ قرضهِ عليه هو! وتبقى مدينة له!

كل هذا يدور والعائلة تمارس الصلاة والصوم على أتم وجه، فالأم «كوكب خانم» وأمها «گُلين خانم» ــ اللتان يختلط الدين عندهما بالخرافة والمراسم الدينية بالطقوس الأساطيرية، رغم أنهما متدينتان حقاً ــ تطرحان بشكل جدي، وبكل بساطة، فكرة التخلص من وليدة «گل مريم» على هذا النحو الذي ذكرناه، وتعاودان تلك المحاولة بعد اعتداء مختار عليها فحملها المجدد، وربما كانتا ستفعلان لو لم يولد الطفل ميتاً! وهما لم تلوما مختاراً على فعلتيه، بل لا تذكرانهما في حديثهما، حتى في غيابه، وكأنهما لم تكونا!

ومختار نفسه يصلي، سواء في البيت أو الجامع، ولا يترك الصلاة حتى مماته. ويتم تزويج مختار بمراعاة كل الأصول والآداب الدينية، ولكن أهل مختار لم يخبروا أهل العروس بماضي مختار السيئ، وحتى مجرد إخبارهم أنه سجن مدة.

* *

ولا يكتفي مختار بالمعاملة السيئة لإخوانه، وإنما يعامل زوجته بمثلها حتى تجن، ثم تموت! وعدا عن ذلك فهو قذر، ويبقى قذراً حتى بعد تضاعف ثروته عدة مرات وصيرورته «وجيهاً»، ويده تتلاعب دائماً بمقدم بنطلونه!

* *

عندما يبلغ قدير الحلم يفاتح صادق أخاه مختاراً بأمره، ويبلغه بأنه يعرف بأنه ابنه، ويطلب منه مساعدته ليدرس ويعمل، ثم يأخذ قديراً إليه ليقنعه بذلك، ولكن مختاراً يطردهما شر طردة.

وعندما يغيب صادق في الولايات المتحدة للدراسة، يفهم من رسائل الأهل أن قديراً يعشق فرشته، أخته، وتميل هي إليه، فيخطبها من العائلة التي تبنتها ولكن العائلة ترفض، وبعد محاولات متعددة وأمام الرفض المتكرر يهاجمها فيسكب على وجهها حامضاً يشوه خلقتها ويطرحها في المستشفى بين الموت والحياة.

وعندما يعود صادق من دراسته، ويزور فرشته في المستشفى يجد عندها تعلقاً شديداً بقدير، لا مجرد شفقة عليه، وأنها لا تعتبره مسؤولاً عما جرى لها بقدر مسؤولية عائلتها بالتبني، بل بقدر مسؤوليتها هي!

وعندما يقابل صادق قديراً يهاجمه، يهينه، ويضربه عقاباً على فعلته، ولكنه يكتفي بأن يقول له: هل تعرف من هي؟ أتعرف من كانت؟

وتبقى هاتان المسألتان غامضتين: ما سر تعلق فرشته، «ابنة العائلة»، الوجيهة، المتعلمة، الشاعرة، بقدير، مجهول الأب، شبه الأمي، شبه العاطل؟! ولماذا لم يُفهم صادق قديراً قبل سفره ـــ وحتى بعد هذه المواجهة ـــ أنها أخته؟! ثم هل كان قدير يعرف أنها أخته فكان يريد الانتقام من أبيه بالزواج منها؟ وهل كان ذلك المختار سيهتم بالأمر إن وقع؟!

على كل حال، فإن وفاة مختار تتم على يد قدير، عمداً أو سهواً أو بمجرد المصادفة.

* *

وإلى جانب هذا الخط العام للرواية، هناك خط جانبي يحدثنا عن حب بين صادق وابنة خالته «زهرة»، وتقدم أحدهم لخطبتها فيما كان صادق يتهيأ لسفر الدراسة، ثم زواجها وهو في الخارج، وبعد عودته يعلم أن زوجها في ورطة مع القانون، وأنه مختف، وبناءً على إلحاح «فرشته» يزورها في مقر عملها ممرضة في آبادان، ويقنعها بالتدريج باستحصال الطلاق من زوجها، ثم يتزوجها هو.

إضافة إلى خط ثالث يتابع حياة «علي» الأخ الآخر لمختار الذي يبتعد عن عائلته بعد زواجه من ابنة أحد «الوجهاء» ويرتقي في سلك الخدمة العامة حتى يصير معاوناً، ثم مديراً، للإذاعة.

* *

تختلف هذه الرواية عن سابقتها، وعن الكثير من روايات فصيح الأخرى، بأن الكاتب لا يقرأ أثناءها كتاباً معيناً، وتظهر فيها ــ على خلاف سابقتها أيضاً ــ معرفة تفصيلية بالأدوية، وتكثر فيها الأحلام.

وتتشابه معها، ومع الأخريات أيضاً، في حرصه على تحديد التاريخ، فالرواية تتحدث عن سنة ١٣٣٨ (=١٩٥٩ ــ ١٩٦٠)، ويؤكد الكاتب ذلك مراراً: فالأحداث تدور في عهد زاهدي، بعد مصدق (ص٢٢١)، ويذكرنا أنها بعد سقوط مصدق (ص٢٢٦)، ومرة أخرى يتحدث عن احتضار حكومة مصدق ومجيء زاهدي (ص٢٤٩) ثم (ص٢٧٦). ولا يترك فرصة لتحديد الزمن (ص٢٩١)، وخاصة عندما يصف لقاءه بقدير (ص٣١١).

وهنا أيضاً يحرص الكاتب على وصف تطور وضع مدينة طهران ــ جغرافياً وسكانياً على الأقل ــ خاصة على الصفحات ٣١٤-٣١٥ و٣١٦ و٣٨٥.

وإذا كانت المنقصة الرئيسة في «الشراب الخام» تشتت الرواية إلى ثلاث روايات، فإن علة «القلب الأعمى» ــ إضافة إلى كونها تضم ثلاث روايات

أيضاً ــ أنها تنطوي على نقائص أخرى: فأرباب حسن والخال ميرزا يد الله يتحدثان عن تطور الشؤون الاجتماعية في عصر پهلوي الجديد سنة ١٩٣٨، بلا مبرر معقول (ص١٢٩) بينما كان هذا العصر قد بدأ سنة ١٩٢٥، وإن أردنا سلطة رضا شاه ذاتها فسنة ١٩٢٠.

وإذا كانت الرواية هي تداعي أفكار الراوي وخواطره، فوقت هذا التداعي المحدود لا يسمح باستعراض فترة طويلة كتلك، كما أسلفنا، ثم إن مواصلة التداعي بالأسلوب نفسه منذ الفصل الرابع (ص ص١٦١-١٦٣) فما بعد تبدو غير معقولة أصلاً.

كما أن في حبكة الرواية نقاط ضعف لا يمكن غفرانها، فمع أن وصف موت «فرخنده خانم»، زوجة مختار، جميل حقاً (ص ص٢٨٥-٢٨٧)، إلا أنه ليس غير ممكن فقط بل مستحيل أيضاً، فهي تغرق في حوض الماء المنزلي (لا يتجاوز عمقه عادة نصف متر!). وانتحار رسول ــ الأخ الذي فقد عقله ــ كبير الدلالة حقاً، لكن العمل بحد ذاته والدلالة من ورائه لا يعقل أن يبدرا عن مجنون: إذ كان ذلك احتجاجاً منه على انتزاع مختار لآخر سند ملكية من أمه! (ص٣١٣).

* *

ومرة أخرى نواجه الوصف خفيف الظل في هذه الرواية:

«... ذهب لزيارة كربلاء فجلب من البصرة معه التيفوس» (ص٢٧٧).

«... كانا تحت المطر وأمام أنظار الكسبة» (ص٢٧٨).

«... كان السيد خدادادي أمرءً متوسط السن قبيح الوجه» (ص٢٨٠).

«يعني، أيمكن لمختار أيضاً أن يبكي على شيء في هذه الدنيا؟» (ص٢٠٤).

«في الغرف الفوقانية، كانت كوكب خانم تهيئ جهاز عرس «عشرت»

(ابنتها). في المدينة كان مختار يشتري أراضي جديدة في طريق كرج. كانت فرخنده خانم حاملاً ببطنها الرابع. وقد ولدت كل من «شوكت» و«فيروزه» (أختي مختار أيضاً) بنتاً. وعندما يجتمعن معاً كانت الأثداء في أفواه الأطفال ورائحة البول تملأ الغرفة» (ص٢٠٧).

ولكن الرواية لا تخلو أيضاً من مباشرة: فقدير، الذي أبدل اسمه إلى كامران، يتصف «بخصوصيات روحية معقدة ومخيفة» (ص٣٣٧) لا يقودنا الكاتب إلى التعرف عليها وإنما يلقيها هكذا، مباشرة، في أوجهنا.

* *

ويبقى فصيح سيداً في انعكاس الحالة النفسية على وصفه الأوضاع:

فبعد الضربة التي أدت إلى ضياع رسول: «جاؤوا بعربة عند المغرب إلى رأس الزقاق فحملوا فيها رسولاً. وبعدئذ، عاد صادق مذهولاً مهموماً فصعد إلى سطح المنزل كي يمر بحيوانات رسول. كان القفص مفتوحاً طيلة هذا الوقت، وقد جاءت قطة فقتلت طيراً. كانت تأكله، وقد فرت الطيور الأخرى. طرد صادق القطة. اغتم قلبه من بقايا جثة الطير. جاء إلى حافة السطح فوقف وعاين كل الباحة والغرفة الرئيسة. كان بساط الشراب المتروك على النصف ما يزال في وسط الغرفة. وكان عود السيد «قره گوزلو» مطروحاً على كرسيين. وكان بساط الشاي لا يزال منصوباً هو الآخر في زاوية الباحة. مع ذهاب الشمس كانت الباحة مظلمة ويبدو ماء الحوض كدراً قذراً. كان فضاء البيت وكل محلة «درخونگاه» يبدو خالياً يابساً جريحاً، هبط الغروب على مفرقه مثل سيف كبير» (ص ص١٣٦-١٣٧).

وبعد عودة رسول من المستشفى مجنوناً:

«في تلك الليلة بكى صادق وبهجت وعشرت سراً. لم يسبق لهم أن تعلموا

البكاء خفية. ولكن منذ تلك السنة فلاحقاً، بعد موت أبيهم وبعد أن فقد رسول عقله، تعلموا ذلك» (ص١٦٨).

وبعد عودة صادق من دراسته في أمريكا، يصف لقاءه بمختار:

«بقي بديناً بشكل يبعث على الدهشة، ولكن لوجهه نحول وشحوب الأشخاص المصابين بمرض كليوي أو سكري. كان رأسه أصلع كله، ولكن صلعه ليس من النوع القبيح بذاته، وإنما كراهة شكل الجمجمة والأذنين والجبهة هو الذي يجعله مخيفاً. كانت ثمة شعيرات شمطاء متفرقات لا تزال وراء رأسه، ولكنها كانت من الندرة والتباعد بحيث فقدت خاصيتها كشعرات رأس. كان حاجباه رفيعين قليلي الشعر لونهما بني فاتح، وكانت هذه الشعرات وحدها ربما هي التي حافظت على لون شعره ما قبل خمس وعشرين سنة. كانت عيناه تبدوان، بين غضون الوجه، أصغر، ولبياضهما صفرة مرضية ومرطوبة. كان لأطراف فتحتي منخريه، علاوة على الشعر الطويل، بقية لون أبيض مما للأشخاص المصابين بفقر الدم. كان شاربه طويلاً وممتلئاً، ولكن وجهه محلوق جيداً، ولابد أن ذلك تم على يد حلاق. كان لباسه كله جديداً تماماً، من الصوف الإنكليزي الرمادي، ولكنه كان مدعوكاً مكرمشاً. وكان بلا رباط عنق. وكان زرّ ياقة قميصه مزرراً. وكالسابق، كان يلبس كل شيء بلا ذوق وبلا حجم مناسب» (ص٣٣٢).

* *

إذا كان إسماعيل فصيح قد أعلن آريته، أو إيرانيته، في «الشراب الخام» عن طريق تهجم فج سمج على العرب، فهو هنا يحاكم الإسلام، مما يذكرنا بمواقف الإيرانيين القدامى، الذين درجنا على تسميتهم بالشعوبيين، الذين لم يقبلوا ولم يهضموا أن يحكمهم ــ هم ذوي الحضارة العريقة ــ عرب البادية ولو باسم دين جديد.

لذلك، فعندما يأتي الخال في أواخر الرواية لزيارة صادق كي يقنعه بشراء حج مكة[9] لأمه، يصف الكاتب كلمات الخال بأنها:

«كانت آخر كلمات وألوان الحقيقة في حياة طهران» (ص٣٨٧).

**٣ ــ قصة جاويد(*):**

اسم هذه الرواية بالفارسية «داستان جاويد»، ويمكن ترجمته إلى «القصة الخالدة» أو «قصة جاويد» ــ وجاويد اسم علم مذكر هو بطل الرواية، كما أن «جاويد» صفة تعني «خالد» ــ وهي الترجمة الأرجح في نظري. وكما سبق أن ذكرت، تتميز هذه الرواية عن كل روايات إسماعيل فصيح السابقة واللاحقة في أنها، بدلاً من تقديم بضعة أسطر تنكر أية علاقة لها بالواقع وتتبرأ من أي تشابه بين أحداثها وأشخاصها بأشخاص الواقع وأحداثه المشابهة، تتصدر طبعتها الثانية مقدمة من صفحة كاملة ارتأيت ترجمتها كاملة لأهميتها:

«خلافاً لباقي مؤلفات الكاتب، فإن «قصة جاويد» رواية حقيقية لفتى زرادشتي تقع في العقد الأول من القرن[10]. إن المصيبة والظلم الواقعين على إنسان مؤمن يشكلان نسيج الرواية الأصلي. وقد تم الحفاظ في الرواية أيضاً على انفعالاته الروحية وقوة إيمانه بسنن أجداده التليدة.

«تم تعرف الكاتب على بطل الكتاب الأصلي في سنوات حياته الأخيرة في جامعة خارج البلاد، فكان ذلك ملهم خلق هذا الكتاب. اكتملت مسودة هذه الرواية في أوائل الخمسينيات[11] بعد سنوات من البحث والمتابعة المستقلين، ولكن بدء الطبعة الأولى للكتاب تأخر إلى أواسط النصف الثاني من العقد ذاك.

---

(*) صدرت بترجمتي عن المجلس الأعلى للثقافة في مصر، تحت الرقم ١٨٠، ضمن المشروع القومي للترجمة.

«إن الكاتب، في خلق هذا الأثر على صورة قصة، سعى أيضاً إلى إعادة خلق أحاسيس وآلام وبواعث انكسار فؤاد الفتى الزرادشتي وبواعث يأسه وغضبه بشكل بسيط وخام كما تلقاها هو ذاته ووقع تحت تأثيرها، في الزمان والمكان الخاصين بها. إن مرور نصف قرن على تاريخ وقوع الرواية، وخاصة التحولات العظيمة في تاريخ إيران المعاصر، قد يجعل بعض الانفعالات، كانفعال القهر آخر الكتاب عند خروج جاويد من (درخونگاه)[١٢] سنة ١٣٠٩[١٣] غير ملموسة. والمرجو أن يدرك القارئ الإيراني، منفتح القلب ذلك.

«وإذا ما أراد القارئ، فبالإمكان قراءة هذا المؤلَّف على أنه رواية. ولكن في الأبعاد الواسعة لفهم رواية ما، لابد من رسم خطوط، وهي ترسم فعلاً. وأخيراً، فإن الجواب على السؤال التالي: هل إن الرسالة الأخيرة هنا هي انتصار الإيمان الطاهر والمحكم على فساد روح ظلال الأفراد، غلبة النور على الظلمة، انتصار الخير على الشر، أو أنها أمور كلية وواهية وسياسية أخرى، هذا الجواب هو مهمة القارئ المنصف والخالي من الغرض والتعصب» إ. ف. ١٣٦٣/٦/٢٤» (= ١٩٨٤/٩/١٤).

واختلافها المهم الثاني عن أغلب روايات فصيح الأخرى أن أبطالها ليسوا من آل آريان ولا ممن حولهم. ويمكن صرف النظر عن هذا الاختلاف إذا تذكرنا أن جاويد لا يقل آرية أو إيرانية عن آل آريان.

* *

الرواية قصة فتى زرادشتي في الخامسة عشرة، يغادر مدينة يزد[١٤]، ويقنع بصعوبة عمه العجوز، الموبَد[١٥]، بمرافقته، ليذهب إلى طهران، حيث ذهب أبوه كعادته سنوياً ليبيع محصولاته من الثمار الجافة، مصطحباً معه، على غير العادة، زوجته وابنته ذات الثلاث سنوات.

ومنذ السطر الأول يخبرنا الكاتب أن حركتهما تبدأ في أواخر صيف سنة ١٣٠١[١٦].

في الطريق يموت العم العجوز فيتركه الفتى ــ حسب وصيته ــ في أرض مرتفعة ويتابع سفرته مع حماره، الذي يسرق منه على مشارف مدينة قم[١٧]، وعندما يبحث عنه ويجده مربوطاً في زريبة، يضربه صاحب الزريبة ضرباً مبرحاً يجبره على نسيان حماره، فيبدأ بالتفكير بمواصلة الرحلة مشياً على الأقدام. تخدمه المصادفة فيلتقي عائلة وجهاء كانت سيدة فيها تزور قبر زوجها المتوفى حديثاً ترافقها أخت زوجها وزوج هذه الأخت. يروي لهؤلاء الأشخاص باختصار قصته، وعندما يذكر لهم اسم المشتري، الذي يراجعه أبوه سنوياً ويريد هو بدء البحث عن أبيه منه، يتبادلون نظرات ذات معنى، ونفهم بعدئذ أن ذلك المشتري أحد أمراء العائلة القاجارية ــ التي يعمل انقلاب رضا خان على تصفيتها بالتدريج ــ وأن الأرملة الشابة في هذه المجموعة هي ابنة ذلك الأمير!

يرق قلب الأرملة فتطلب إيصاله إلى طهران، فيحملونه معهم، ويدله حوذي عربتهم على الزقاق الذي فيه قصر صاحب العزة «ملك آرا».

بعد محاولات، يدخل القصر فيكون مصيدته التي لايخرج منها قبل مضي دهر. ويفهم بالتدريج أن أباه «مات» في القصر، وأن أمه أصيبت بصدمة فقدت فيها القدرة على النطق وربما عقلها!

يلتقي أمه وشقيقته في زاوية من أحد سراديب القصر، وبعد اللين والمحبة التي يحيطهما بها تستعيد الأم وعيها، دون نطقها.

يريد أن يأخذ أمه ويرحل بها، ولكن خدم القصر يرفضون لأن الأمير لا يقبل. ولا نفهم لماذا يرفض الأمير إبعادهم والتخلص منهم، إلا من إشارات إلى أنه ينتظر أن تخفت الضجة! وهذا التبرير غير معقول، فلم تكن ثمة ضجة أصلاً،

ولم يكن بمقدور فتى زرادشتي غر، لا أحد له في العاصمة، وأمه الخرساء، أن يحدثا ضجة، وحتى إن تمكنا من إحداث مجرد همهمة فلم يكن ثمة من سيعنى بهما لزرادشتيتهما من ناحية، ولأن الأمير أمير، من الجهة الأخرى!.

عن طريق الروح الوحيدة الطاهرة في البيت، ثريا، ابنة الأمير، يتلقى مساعدة مالية ويقنع خادمتها الصبية بأن تساعده، فتفعل، ويهرب بعائلته إلى محطة القطار في قصبة «ري» تمهيداً للسفر إلى يزد، ولكن يخيب فأله، إذ يصطاده البواب والحوذي ومباشر الأمير ــ الذين كانوا يتربصون به في المحطة ــ مع أمه وأخته ويعودون بهم إلى القصر، بعد أن يشبعوه ضرباً في الطريق. وعند وصولهم القصر يكسرون له ساقيه، بأمر الأمير، كي لا يعود يفكر بالفرار، ولا يستطيعه إن أراده.

أثناء هذا الضرب المؤدي إلى الكسر تستعيد أمه قدرة النطق. وإمعاناً في الإيذاء، يختتونه كي «يتطهر» فيصلح لخدمة الأمير، إذ أنه مجوسي نجس!

ومع اختلاس رضا خان التدريجي للسلطة، والأفول السريع لنجم ملك آرا مع زوال ملكية آل قاجار السابقة، يسعى الأمير لشراء بيت ابنته ــ الملاصق لقصره الواسع ذي البستان ــ وتصر هي على الرفض لأنه ذكرى زوجها. يحذرها أبوها من كون البيت خربة آيلة إلى الانهيار في أية لحظة، ولكنها تصر على الرفض. كما أن الأمير يتزوج في هذه الأثناء من خادم ابنته، شبه الطفلة، زواجاً مؤقتاً، ولكنها تفعل ما لا ندريه بحيث يغضب عليها ويسلمها لجلاديه الذين يضيعونها بعد إنزال عقاب وحشي، ولا ندري تفاصيله، بها، ثم يسلمونها إلى مبغى. ويكافح جاويد ــ بناء على توسلات أمها، ثم خالتها، وبذلهما كل ما كان عندهما من مصاغ لينفقه في هذا السبيل ــ حتى يجدها ويخلصها، ويتزوجها لحمايتها ــ رغم أنه كان قد عرف أنها كانت السبب المباشر في انكشاف خطة هربه نتيجة طمعها.

وذات يوم يحدث حريق، أسبابه واضحة الريبة، يأتي على بيت ثريا وأثاثه، ولا تسلم هي وطفلتها إلا بسعي وتضحية الفتى جاويد.

وعندما يستدعون الدكتور، أخا زوجها المتوفى، لمعالجة الجرحى والمكلومين روحياً، يلاحظ جاويد، من بعيد، أنه يعطي ثريا وخادمتها ـ خالة خادمتها السابقة ـ أفيوناً للتهدئة، ويعاود إعطاء ثريا الأفيون. ثم عندما يبدو وكأنه سيغادر البيت، فتوصله الخادم إلى الباحة الخارجية يعود ـ بذريعة ما ـ إلى البيت، ويشاهده جاويد من بعيد يدخل غرفة ثريا مرة أخرى ويخفت النور فيها.

بعد مدة يشاهد جاويد أن وجه ثريا يدل على مرضها، قد سمن بشكل غريب، ثم تنتشر الإشاعات بأن ثريا حبلى، لابد من الجن، أو من الحمام العمومي!

يستذكر جاويد ما جرى ليلة الحريق فيعرف أن الدكتور نزهت هو الجاني فيقابله ويقنعه ـ حتى بالتهديد ـ أن يخطب أرملة أخيه كي يتزوجها فيغطي جريمته. ويطالبه جاويد بأن يُفهمها بأنه يدري بسرها ـ على الأقل، بعد أن يرفض الدكتور الاعتراف الصريح، علها ترضى بالزواج لستر الفضيحة، ولكنها تواصل الإصرار على الرفض، وبصلابة.

كل هذا، والأمير ـ فيما يبدو ـ لا يدري، حتى يدري ذات يوم! وكما يتوقع جاويد، يقدمونه هو ضحية، فيأمر الأمير بقطع آلته التناسلية كي لا يستطيع إحبال امرأة أخرى طيلة عمره! رغم اعتراض ابنة الأمير وتوسلاتها وإصرارها على أن الجريمة لم تكن، ولا يمكن أن تكون، من فعل جاويد، ورغم معرفة الأمير نفسه بذلك، مما يجعلنا نستغرب إصراره هذا.

وعندما يتم ذلك، يصحو جاويد ليجد نفسه ملقى في السرداب، ويفتقد أمه وأخته. وبعد أيام يفهم أن أمه ماتت من صدمة ما أصابه وأن أخته نقلت ـ بأمر الأمير ـ إلى أحد بساتينه خارج المدينة لتبقى بعيدة عن جاويد: رهينة في يد الأمير!

ولا نفهم مبرراً لهذه التعقيدات. فالأمير كان بمقدوره صرف الفتى وأهله من أول فلم يفعل، وكان بمقدوره أن يتركه يهرب بهم فلم يفعل، وبمقدوره الآن أن يقتله وينهي المسألة ولكنه لا يفعل! أو أن الكاتب لا يريده أن يفعل!

بل حتى قتل الأب يبدو غير معقول، إذ كان باعثه خلافاً على الحساب! وتصلب موقفه مما أثار نخوة الأمير! ولا يمكن أن نصدق أن الأمير هو الذي يتحاسب مع مورّد أطعمة البيت أصلاً.

على كل حال، مع صعود رضا خان إلى رئاسة الوزارة، وصدور قوانين جديدة وقصقصة أجنحة بقايا آل قاجار المالكة سابقاً، ومنها ملك آرا، تزداد مضايقة هذا من أجل احتساب الضرائب المترتبة عليه واستيفائها منه! حتى يختفي! ويبدأ البحث عنه، ثم مطاردته، والبحث عنه في بيته وبيت ابنته، فبساتينه، وبيوت أصدقائه! وتشتد المطاردة لتبلغ ختم بيته بالشمع وترك الجناحين الخاصين بابنته وابنه العائد من أوروبا ــ بعد غيبة سبعة عشر عاماً دكتوراً مزيفاً. وكان الأمير قد أحدث تجديدات في بناء قصره فخصص جناحاً لابنته وآخر لابنه. كما تبلغ شدة المطاردة مراجعة الشرطة للبيت والتحري فيه عدة مرات ثم وضع حارس على بابه لاصطياد الأمير إن هو غامر بالمجيء!

وفجأة، يأتي الأمير ذات ليلة حاملاً حقيبة ثقيلة بيد وسيفاً مرصع القبضة باليد الأخرى، ليُبلغ جاويدَ أن لا ملاذ له غيره، مع أنه يعرف مدى أذيته له، كما يعلمه بأنه واثق من أن جاويد سيساعده لأنه يريد العثور على أخته. ويدل جاويد على مخبأ سري وراء خزان ماء في الحديقة التي كانت ضمن بيت ابنته الذي ألح كثيراً، وأحدث الحريق، من أجل شرائه. وهناك يسلم جاويد مسدسه ويطلب منه أن يقرر موقفه: فإما أن يطلق عليه النار فيقتله ويفقد أخته، وإما أن يخفيه ويحرص على حياته وسلامته مدة قصيرة حتى يتاح له الخلاص حين

سيسلمه أخته يوم تركه البيت، فإيران كلها. يمتنع جاويد عن قتله ويعاهده على إيوائه وخدمته، التي تمتد لتشمل تزويده ببعض الأمتعة والاحتياجات المنزلية، ثم المشروب والمخدر ـ اللذين يتمنع جاويد أولاً عن جلبهما لكنه يرضخ بعد ذلك ـ ثم المطالبة بامرأة يتمتع بها، وحتى تعيين ليلا ـ زوجته المؤقتة سابقاً و«زوجة» جاويد الحالية، بما أنه ليس «زوجاً» لها ـ الأمر الذي يرفضه جاويد رفضاً قاطعاً! ودواء خاصاً لا يمكن تهيئته إلا عن طريق الدكتور نزهت، الأمر الذي يرفضه جاويد أيضاً بحسم.

مع مرور الأيام، يعثر جاويد على حوذي الأمير، الذي سبق أن سرح من خدمته، وهو الذي أخذ أخت جاويد ونقلها إلى أحد بستانيْ الأمير بأمره، ويتعامل مع هذا الحوذي على تسلم أخته منه لقاء مبلغ من المال، فيخدعه الحوذي ويسرق ماله ويختفي، ولكنه يجده مرة أخرى طريح إحدى المستشفيات، وبعد معاناة طويلة يفهم منه في أي من بستاني الأمير أخته، وأين مكانها من البستان على وجه التحديد. وفي هذا الوقت ذاته تقل مناكفة «زوجته» ليلا ويزداد تأنقها وزينتها ـ الأمر الذي ينتبه إليه جاويد غير أنه لا يعيره اهتماماً! وفي اليوم الذي يتجه إلى المستشفى ويعرف بالمكان القطعي لأخته يقابل إحدى خادمات القصر، التي تنبهه إلى تبرج زوجته وتأنقها، وظهور مال عندها، وتغيبها عن البيت بمجرد خروجه هو، ولكن كل ذلك لا يثير ريبة خاصة عند جاويد!

المهم، بعد أن يذهب جاويد إلى البستان الذي دلّه عليه الحوذي، ويدخل قفص الدجاج الذي يعرف أن أخته فيه فلا يجدها، يفهم أنها مدفونة هناك. يحفر الأرض يجدها، أو بالأحرى يجد آثارها: عظاماً صغيرة وقطعة من الثوب الذي كان عليها عندما افتقدها. فيعود عازماً على تصفية حسابه مع الأمير. وعندما يقترب من المخبأ تترامى إلى سمعه أصوات، عندما يتنصت عليها يميز صوت

«زوجته» ليلا، إضافة إلى صوت الأمير، ويفهم من الأصوات في أية حال هما! ورغم أنهما في تلك الحال يلح الأمير على ليلا أن تحدثه عما جرى للطفلة يوم رافقت هي ــ ليلا ــ الحوذي أثناء نقلها! فيفهم جاويد أن ليلا هي التي قتلت أخته عن طريق الخطأ، مما اضطرهما إلى دفن «أفسانه»!

يقرر أولاً أن يهاجمهما في مخبأهما ويقتلهما معاً، ولكنه يتذكر سيف الأمير ومسدسه، فيعرف أنه لا يقدر على ذلك، فيقرر ما هو خير: يحكم إغلاق بوابة المخبأ من الخارج، ويفتح مجرى الماء ليملأ خزان الماء فيحبسهما هناك. ويمهد لمغادرة البيت وطهران كلها، فيعطي الخادم الباقية مالاً ويخبرها أنه «أرسل» زوجته وأنها لن تعود، ويطلب منها هي أن تذهب أنى تشاء لأن البيت سيغلق ويختم عن قريب. ثم يزور ابنة الأمير ويخبرها أنه قرر العودة إلى يزد.

يعود إلى يزد ويبقى مدة يسوي فيها أموره هناك، ثم يعود إلى طهران، وإلى القصر، فيدخله ليلاً من حيث لا يراه أحد، ويجد خزان الماء مملوءاً كما تركه فيفرغه ثم يفتح المخبأ فيجد الجثتين وقد بدأ فيهما النخر، ويجمع الأموال ويأخذها معه ويخرج، ويعيد ملء الخزان بالماء. ويودع المحلة وينصرف.

ونفهم من المقدمة، التي ترجمناها في مقدمة هذا التعريف، أنه غادر إيران.

* *

إضافة إلى الاختلافين الشكليين الذين ذكرناهما بين هذه الرواية وسابقتيها، فهي تتميز بدخول الموضوع رأساً، ومباشرة السرد دون التعكز على المدخل الموباساني أولاً، ثم إن سردها متسلسل تسلسلاً تاريخياً بسيطاً يكاد يخلو من التداعيات.

وقد تخلص الكاتب هنا من تشنيعه المباشر وغير المباشر على العرب، فالمجرمون هم، أساساً، ملك آرا ــ وهو أمير قاجاري من أتراك إيران ــ

إضافة إلى خَدَمه الفرس. كما تخلص من تشنيعه الفج المباشر على الإسلام، واكتفى بتقديم صورتين «محايدتين» عن سلوك هؤلاء، وعقائد الزرادشتيين. فقال عن هذا الطريق ما أراد أن يقول.

فهو يحدثنا منذ الصفحات الأولى عن الروح الخالدة في المفاهيم الزرادشتية، ويستعرض آداب ورسوم ومراسم الزرادشتيين، وعندما يرى جاويد ثريا ابنة ملك آرا ــ قبل أن تسافر إلى الخارج كي تضع حملها هناك ــ تقول له:

[ ــ «لم تكن تدري أن الناس هنا على هذا القدر من الشر وسواد القلب. أكنت تدري؟».

فهز جاويد رأسه نفياً. وقال: ــ «لم يكن الناس أشراراً سود القلوب في البدء».

ــ «أأنت متأكد؟». ــ «نعم». ــ «ألا تزال تعتقد هذا؟». ــ «لم يكن ناس هذه البلاد هكذا... كانوا أساساً أطهاراً عارفين لله...». (ص٢٠٠)].

ويصف طهارة الزرادشتيين، حتى أنهم ليكرهون إحراق موتاهم كي لا يدنسوا النار ــ مظهر الطهر ــ بأجسادهم، في حين يصف قذارة زوار الأضرحة وقذارة أفعالهم ما بين مسح وتقبيل وتمسح (ص٢١٠).

وبينما يغتسل جاويد بالماء الزلال يقشعر بدنه من قذارة الماء الراكد الذي يعتاش ويغتسل ويتوضأ به ملك آرا (ص٢٩٧).

وهو ــ الذي لم يؤذ أحداً قط ــ بقي يتعرض للأذى منذ اقترابه من طهران حتى غادرها بعد سبع سنوات: سرق حماره، ضربه سارق الحمار وطرده، ضربه بواب ملك آرا دون سبب منذ أول مراجعته، ثم:

«مرة أخرى حدق الخادم المصفر بعيني الفتى. ثم أشاح رأسه عابساً. وجعّل الاشمئزاز والغضب أسنانه البنية ــ التي تشبه تماماً نوى تمر متفسخة متربة ــ

في أعلى فكه وأسفله ــ تبدو للعيان. أتلع رأسه إلى الوراء، بصق، واستغفر الله كما لو كان رأى كفر إبليس على مبعدة شبر واحد منه» (ص ص٢٦-٢٧).

ويسرقه البواب نفسه عندما يعرف أن عنده مدخراً للعودة إلى يزد، ويطارده الخدم وأولادهم وأولاد الجيران بالأذى:

«كانت محلة كلما رأى فيها امرؤ مظلوماً سرعان ما صار هو ظالماً. كلما رأى امرؤ فيها مجنوناً سرعان ما صار مؤذياً للمجانين» (ص٩٦).

وبعد أن تعرفنا على دين جاويد وأهله بكل نبله وطهارته، يقدم لنا الكاتب دين ملك آرا ومن حوله. فهو بعد العشاء يجلس ليتناول الخمر (ص٨٠)، التي يوصلها إلى باب بيته بائع يهودي، ويقيم مجالس التعزية للإمام الحسين ويبكي ــ ويتبعها بالسكر بعد انصراف الناس، وهو يتمسك بالصلاة ويلزم أفراد عائلته بها (ص٢١٦)، وعندما يعود ابنه من غيبته الطويلة في أوروبا يذبح له إثني عشر خروفاً (ص٢١٦) (تيمناً، لابد، بالإثني عشر إماماً)، ويهتم ملك آرا بطهارة شكلية لماء وضوئه (ص٢٧٨).

* *

كما أنه في حين يواجه الكذب يومياً أكثر من مرة طيلة السبع السنوات التي أقامها في طهران (من المسلمين طبعاً)، لم يكذب هو قط، وينبهنا الكاتب إلى ذلك صراحة (ص٢٨٣)، ونلاحظه نحن دائماً: فعندما يسأله ملك آرا، مثلاً، عما إذا كان رأى الدكتور نزهت وأخذ منه الدواء الذي طلبه: «خفَّت الحادثة التي وقعت قبل ثلاثة أيام في مستشفى فيروز آبادي لتسعف جاويد» (ص٢٩٢) فلم يكذب. والحادث أنه رأى الدكتور، فقال لملك آرا ــ صادقاً ــ إنه رآه، في حين كان أكد للملك آرا أنه لن يذهب لرؤيته. كما لم يكذب على ثريا، ابنة ملك آرا، بشأن زوجته ليلا، بعد أن حبسها حبسة القتل، فقد قال لها:

[ ــ «توفرت فرصة... فذهبت ليلا». ــ «أذهبت وحدها»؟. ــ «لا. ذهبت مع أحد المعارف القدماء». ــ «ألن تعود بعد؟». ــ «أبداً. لن تعود ليلا بعد»] (ص٣١١). ولا يكتفي بذلك، وإنما يوصي الخادم، بعد أن يحثها على ترك البيت، بألا تكذب أبدا (ص٣٢٤).

* *

وإذا كانت كل تلك الإيضاحات غير كافية كي نتوصل إلى التمييز بين الديانتين، فإن توصية بواب قصر الأمير لجاويد تعرفنا على دينه، أو على الأقل على مفهومه عن الدين:

[ ــ «يمكنك أن تؤمن ــ وبعدئذ تذهب فتقبل يد السيد. إن الأمير يأذن بأن تبقى لتخدم الأسياد هنا. لقد أدى الأمير الكثير من أعمال الثواب، وكانت أمه سيدة (= من نسل محمد)، وهو من أحفاد سبط النبي، رحيم القلب. سيعطيك عملاً... نظر إليه جاويد في الظلمة. تجاهل قول «غلومعلي»: «تؤمن» ــ بل حتى أنه مسح أثرها فوراً من ذهنه ولوحِ روحه. فقد كان له إيمان لم يكن لهذا الرجل اللص والأبله أن يشم رائحة عمق أساسه وشموخه ورسوخه» ص٤٤]. و:

«كان يراقب مجلس تعزية[١٨] ملك آرا ويفكر: أي علم وفكر لهؤلاء الناس حقاً عن هذه المراسم؟ في تعاليمه الدينية الابتدائية، منذ الطفولة، علموه أن الدين ارتباط فكري للإنسان بدنياه. علموه أن علامة الرجل المؤمن أو المرأة المؤمنة هي الوفاء لمفهوم قول الخالق، والحفاظ على الأساس الفكري والخصوصيات القومية الفارسية ثابتتين...» (ص٤٩).

وإذا لم نكن قد فهمنا بعد، فهو يفيدنا بصراحة لا متناهية قبل انتهاء الرواية بصفحتين:

«وأبعد قليلاً، كان يرى أيضاً قبة ومنائر مسجد سيد نصر الدين، المستقر بآياته العربية والكوفية يثقله النعاس الإجباري الحاصل عن الهجوم والغيبوبة اللذين لم تستفق منهما إيران منذ ألف وثلاثمائة سنة» (ص٣٢٧).

* *

وبعد، فالرواية تحافظ على أسلوب إسماعيل الوصفي المرح. ففي وصفه لختان جاويد أولاً ثم قطع آلته التناسلية، يقول:

«كان منذ البدء، في هذه الدنيا، دقيقاً ضئيل الحجم، صغيراً ولا شيء، وها هو بالتدريج يصير أصغر فأصغر» (ص١٩٧).

وفي أحد حواراته مع ملك آرا بعد إخفائه إياه:

«أصدر ملك آرا من فمه صوتاً كان المرحوم غلومعلي (خادمه وبوابه وجلاده عند اللزوم) يصدره من حوضه» (ص٢٨٤)، و:

«ذهب إلى فراشه فتمدد، ينتظر مرة أخرى، يصغي إلى الصمت السمح لليل وصوت ابيضاض شعر رأسه» (ص٢٨٩). وفي مسعاه المستمر للتعرف من «أبي تراب»، حوذي ملك آرا (وجلاده عند اللزوم أيضاً) على مصير أخته أفسانه:

«حاول مرة أخرى، ولو لمدة خمس ثوان، أن يستخرجه من فم الموت، الذي كان يكره أن يتسلم خادم ملك آرا» (ص٢٩١).

* *

والتاريخ، كما في رواياته الأخرى، لازمة أخرى لا مفر منها، تحديداً ووصفاً:

فالأحداث تبدأ سنة ١٣٠١ (١٩٢١ ـ ١٩٢٢) ـ بعد سنتين من دخول

رضا خان على رأس فرقة من القوزاق في مؤامرة دبرها الإنكليز لإقامة نظام حكم ينسجم مع تطورات القرن العشرين ولتشديد تدخلهم ضد الثورة البلشفية في روسيا.

والعصر عصر استقرار العهد البهلوي (الأول) ومخاوف بقايا عهد آل قاجار (ص٥٢) «مدينة طهران لا تزال في النوم القاجاري المدوخ» (ص١٠٩)، فرضا خان لم يصر رضا شاه بعد، بل كان قد صار رئيس وزراء في تلك الأثناء. ومع تقدم الرواية، تبدأ ملَكية رضا شاه (ص٢٠٢)، فتزداد مضايقة ملك آرا من أجل الضرائب (ظاهرياً؟) (ص ص٢١٢-٢١٤)، ويودع المحلة، عند انتهاء الرواية، سنة ١٣٠٩ ( ـ ١٩٣٠).

كما أن الرواية لا تخلو من الأحلام، ص٨٧، ص٨٨، ص٢٤١ وص٢٤٢ مثلاً.

* *

ومع التطور الملحوظ في أسلوب الكاتب وتطور صياغته لحبكة الرواية، إلا أنه لم يتغلب بعد على الثغرات الصغيرة فيها:

فعقدة القصة: قتل أمير لتاجر، كانت فيما نفهم، بسبب خلاف على المال، ومع ذلك لم نجد شاهداً آخر في الرواية على بخل الأمير، بل إنه عندما يحتفل بعودة ابنه وابنته ـ بعد وضعها ابنة السفاح الغصبي خارج البلاد ـ يوزع مسكوكات ذهبية على خدمه (ص٢١٥) ويذبح لهما إثني عشر خروفاً تضحية (ص٢١٦).

وإذا كان بمقدور هذا الأمير قتل امرئ وتضييع أثره، فما سر احتفاظه بامرأة ذلك الشخص وابنته الطفلة في بيته، وهما لا تستطيعان شيئاً أمام نفوذه؟

وجاويد يسمع «سراً من ثريا خانم أن ملك آرا جعل جواز سفر الدكتور كيومرث خان (ابنه) باسمه، واحتفظ به لديه، فكان جاويد يخاف هذا الأمر ويخشى أن يكون ملك آرا قد خرج من البلاد، أو أنه سيخرج أخيراً بدون أن تطوله يداه» (ص٢٤٦). ومع ذلك، فهو لا يخبر مأموري الحكومة بذلك!

وهو يرفض دائماً أن تحدثه ليلا «زوجته» عما وقع لها بعدما سلمها ملك آرا لخدمه كي ينقلوها إلى أحد بستانيه البعيدين، ثم نقلهم إياها إلى أحد مباغي طهران. وآخر ذلك الرفض على ص٢٧٢، فلماذا؟

وهو يصر على حشر المال في يدي أبي تراب، النائم بلا وعي على فراش الاحتضار في المستشفى (ص٢٧٥)، فلماذا؟

وهو لا يخشى تهديد ملك آرا بأن تضيع أخته، ويصيبها ما أصاب ليلا، (ص٢٨١)، فلماذا؟

وهو لا يقبل مالاً من ثريا قط ــ علماً بأنه سبق أن قبله منها مرة قبيل محاولة الفرار، (ص٢٨٦، ص٢٩٠)، فلماذا؟

ومع أن ليلا كانت تراقبه بشكل أثار ريبته بعد ما آوى ملك آرا، ومع أنه وجدها متأنقة متبرجة ذات يوم، وقد بالغت ذلك اليوم في الشكوى من ملك آرا وشتمه ولعنه، وفي التودد إلى جاويد حد الادعاء باستعدادها ــ بعد الفراغ من ملك آرا، وقد فهمت الموضوع ــ أن تطيع جاويد فتلحق به أنى أراد أو تذهب حيثما يأمر (ص ص٢٩٣-٢٩٤)، إلا أنه لا يستغرب ذلك ولا يشك فيه، بل يتفاءل به! بعد خبرته بها وبالحياة!

كما أنه لم يأخذ كلام الخادم ــ الطباخة ــ التي حذرته من تصرفات ليلا الأخيرة ــ مأخذاً جدياً (ص ص٢٩٨-٢٩٩)، فلماذا؟

بعد أن أوضح الكاتب موقفه، وبيّن رأيه في سبب تلوث إيران، لابد لنا أن نأخذ الأسماء المهمة التي أطلقها على شخوصه على غير ظاهرها بل نفسرها على أنها رموز:

فثريا هي الثريا، السماء أو الإيمان:

«إن كان هناك إيمان في هذه المحلة، فهو عند هذه المرأة» (ص١٢٦). «وكانت ثريا خانم لا تزال واقفة تنظر ـــ ومثل كل امرأة في هذه المحلة والزمان، كانت بلا إجازة وبلا إرادة» (ص١٥٩). و«لا يفكر أحد، حتى في أظلم زوايا خياله، أن هذه المرأة يمكن أن تكذب. لا يتصور أحد، حتى في أظلم زوايا ذهنه أنها تأتي عملاً إدّاً...» (ص١٦٨).

أما جاويد ـــ الخالد، فهو إيران. فقد قالت له ثريا:

ـــ «لك أصل وجوهر طاهران». فقال جاويد: ـــ «كلنا من جوهر واحد ووطن واحد»... فنظرت إليه ثريا خانم، وقالت: ـــ «لا أظن» (ص٣١٢).

أما أخته أفسانه: الأسطورة، فهي خرافة أن تستعيد إيران مجدها ونقاءها ـــ حياتها الحقيقية.

* *

وتبقى المسألة المهمة الأخرى، التي أراد الكاتب تسجيلها فيما أظن: إن من جملة ما انتصر، وهو جدير بالنصر: العهد البهلوي، على العهد القاجاري.

«في هذه المدينة، في عاصمة البلاد، أيضاً، في هذه النقطة من تاريخ إيران، كان آخر ملوك القاجار ـــ أحمد ميرزا، الابن الطفل لمحمد علي شاه، بوصاية عضد الملك ـــ قد أجلس بدلاً من كوروش وداريوش (= دارا) على رأس البلاد الملكية، وكان الأمراء التافهون في كل مكان...» (ص١٨١). وجّاء بدلاً منهم: رضا شاه: «ذلك الرجل الكبير» (ص٢٠٥).

فآل قاجار كانوا يتلفعون بالإسلام ويتدثرون بالتشيع، فيما استرق رضا خان لنفسه لقب پهلوي ــ وهو اسم فترة من تاريخ إيران العتيق ــ وراح منظّره، محمد علي غروغي، يُهيئ له تاريخاً جديداً بينما كان هو يسعى إلى التحديث على طريقة أتاتورك.

## ٤ ــ ألم سياوش(*):

تتصدر الطبعة الثانية لمجموعة «عقد وقصص أخرى» القصيرة لإسماعيل فصيح، المطبوعة سنة ٢٥٣٧ الشاهنشاهية (وتعادل سنة ١٩٧٧ ــ ١٩٧٨ الميلادية) قائمة تحمل، بين أسماء مؤلفاته: «لماذا مات سياوش؟»، بدون ذكر تاريخ طبع أو نشر.

بينما تحمل الرواية التي أكتب عنها الآن معرّفاً، تحمل في صفحة «هويتها» هذه المعلومات: الطبعة الأولى، فروردين ١٣٦٤ (= آذار ــ نيسان ١٩٨٥)؛ ولذلك وضعتها في تسلسلها المعلن: الرابعة بين روايات الكاتب.

سياوش في التاريخ شبه الأسطوري الإيراني ــ كما تحدثنا الشاهنامه، وكما يعرفه إسماعيل فصيح في أواخر الرواية ــ : ابن كيكاوس، الملك الإيراني من السلسلة الكيانية... تقع عليه عين امرأة أبيه الجديدة «سودابه» فيعجبها وتراوده عن نفسه، فلما يتمنع عليها تدس عليه عند أبيه، الذي يمتحنه حسب رسوم بلاده بأن يحمله على عبور نار مستعرة. يجتاز سياوش النار منتصراً، فيصمم على ترك أبيه ومملكته وبلاده، وينتهز فرصة الحرب مع التورانيين ــ أعداء الإيرانيين التقليديين ــ ومع أنه على قاب قوسين أو أدنى

---

(*) صدرت بترجمتي عن المجلس الأعلى للثقافة في مصر، حاملة الرقم ٣٩٥، ضمن مشروعه القومي للترجمة.

من النصر عليهم، يلتحق بهم فيقربه ملكهم أفراسياب منه ويزوجه ابنته، ولكنه سرعان ما يقتل بدسيسة من گرسيوز شقيق الملك التوراني! ويخلف ثمرة هذا الزواج طفلاً اسمه كيخسرو(١٩). ينداح دم سياوش على الأرض فتنبت شجرة، شجرة من دم! (ص ص٣٢٢-٣٢٣).

وقد أوردت هذه الخلاصة لأن إشارات تتكرر في الرواية لسياوش الشاهنامه، ولأن أحد أبطال أحداث مقتل سياوش الرواية كان نقّالاً(٢٠) ذات يوم، ولأن ابن سياوش الرواية المزعوم اسمه خسرو هو الآخر!

* *

أما قصة سياوش الرواية وألمه وسبب موته فهي، باختصار، كالآتي:

يولد سياوش لعائلة بارزة، فأبوه دكتور من الأعيان، يعمل مدة وكيلاً لوالي محافظة فارس ثم ينتخب عضواً في مجلس النواب ويعين بعدها عضواً في مجلس الشيوخ. ولكن هذا الابن لا يحب عائلته، التي ليس فيها غير الغرور والتظاهر والفخر بالمال والتنازع عليه، فيتخذ مسلك الدراويش ويميل إلى الزرادشتية (وربما يعتنقها)، وأخيراً يترك عائلته وقصرها الفخم في طهران ليقيم في بيت متواضع داخل بستان في (كرج) ــ وكانت حينها ضاحية ــ شمال غربي طهران، يكتفي فيه بأقل متع الحياة: فحتى الشراب يعده بنفسه، وأكثر نفقاته فيه هي على الكتب.

وإلى هناك تلتحق به ابنة أخته غير الشقيقة «فَرُّخ»، ثم تفاجأ العائلة العريقة بزواجهما، وولادة طفل «لهما» يسميانه خسرو. وبعد أقل من سنة، في يوم الانقلاب الأنگلو ــ أمريكي الذي أطاح بحكومة الدكتور مصدق ــ سنة ١٩٥٤ ــ تسمع العائلة بموت سياوش غرقاً في نهر كرج، ربما منتحراً. وبعد تحريات (لا ندري إن كانت جرت حقاً) يتدخل الأب، السناتور، ونقيب شرطة ــ كان

يقيم في الطابق الثاني من منزل أهل فرّخ، وكان خطبها لنفسه لكن أباها رفضه بإصرار ــ لإغلاق القضية دون العثور على جثة المتوفى.

* *

هنا أيضاً يطالعنا «جلال آريان»، بطل ــ راوي «الشراب الخام»، راوياً وبطلاً مرة أخرى. وبدلاً من أن يرسل من طهران إلى مكان آخر، تستدعيه هنا أخته «فرنگيس» ــ التي يرد اسمها عرضاً في «الشراب الخام» ــ من آبادان إلى طهران، نظراً لوقوع مشكلة أدت إلى عرقلة زواج خسرو إياه من ابنتها «ثريا».

ورغم أن جلال مكسور الساق ــ ولهذا لم يحضر حفل الزواج ــ إلا أنه لا يسرع بالذهاب إلى طهران فقط، وإنما يدور بسيارة شقيقته منذ وصوله لمدة يوم وبعض يوم، باحثاً عن خسرو، متحرياً عن الأسباب الكامنة وراء اختفائه، حتى يصل إلى الحقيقة.

في حفل الزواج، يأتي عم خسرو، وهو مجنون، حاملاً خروفاً صغيراً فيدخل الباحة التي أقيم فيها حفل الزواج، وفجأة صرخ طالباً انتباه الحاضرين، وأعلن: إن هذا دم سياوش الذي تدفعون الآن ثمنه! ذبح الخروف وأخذ يهزه ويديره حول رأسه حتى لوّث ثياب العروسين وأكثر المدعوين بالدم، ثم غادر الحفل! وهنا بلغ التأثر بخسرو حداً أنه أوصل عروسه وأمها إلى بيتهما وتركهما ليبحث عن «الحقيقة والصدق» ويفهم معنى كلمات «عمه» المجنون!

وعندما يصل جلال آريان إلى طهران يشرع في البحث هو الآخر، فيتوصل إلى حقيقة أن خسرو لم يكن ابن سياوش بل هو ابن «عباس ديوان لقا»، زوج أمه الحالي والذي يعتبره، كما العائلة، ابنه بالتبني، وأن فرّخ لما حبلت به أسرعت إلى بستان كرج عند خالها ــ غير الشقيق لأمها ــ فتزوجت

منه لتغطية فعلتها، وذلك لأن ديوان لقا كان معتقلاً، من قبل حكومة مصدق للتحقيق بشأن اختطاف، ثم مقتل مدير الشرطة العام في ذلك الوقت، فلم يمكنها الزواج منه.

وبعد سقوط حكومة مصدق وإطلاق سراح ديوان لقا يأتي ليطالب سياوش ـ بناء على طلب فرّخ ـ بالطفل، ولكن سياوش يرفض فيقتله، ثم يجبر أخاه غير الشقيق ـ الخادم في بيت أبي سياوش والذي يوصل المال والكتب إلى سياوش في كرج ـ على دفنه، وعندما يدفنه هذا يجده مقطوع الرأس. ثم يأخذه أخوه معه بسيارته الرسمية إلى طهران، ويدخله مقره وهناك يجبره على كتابة إقرار بأنه تسبب، عن طريق الخطأ، في وفاة سياوش بإعطائه دواء خطأ! لقاء مشاركة هذا الأخ، «أوسامد» (مخفف: الأوسطى محمد)، يعده ديوان لقا وفرّخ بمبلغ من المال، ثم يستبدلانه بقطعة أرض بائرة في منطقة نائية. وبعد مدة ترتفع قيمة الأرض، ولما لم تكن مسجلة رسمياً باسمه، ينتزعانها منه ويعطيانه بدلاً عنها، المال الذي كان متفقاً عليه أصلاً، نقداً. فيحقد عليهما ويدبر الفضيحة التي وقعت يوم زواج ابنهما.

أما الشاهد الآخر، وهو «كلثوم سلطان» ـ خادم بيت الزوجين ـ فيقطعان لسانها ويلقيان بها في محل متروك بطهران.

ويتوصل خسرو في بحثه إلى النتيجة نفسها، أو إلى الجزء الأعظم منها، فلا يتحملها، لأن أباه بالتبني، الذي يحبه حباً جماً، اتضح أنه أباه الحقيقي، وإن كان ذلك مفرحاً فهو محزن في الوقت نفسه، لأن أباه الحقيقي ظهر قاتلاً! ومن قتل؟: «ما كان سياوش وما آل إليه؟ ماذا فعلوا به؟ ذلك البطل الطاهر الذي تساوي شعرة متفسخة واحدة منه ألفاً منا...» (ص٣١٥).

على كل حال، يموت ديوان لقا في المستشفى متأثراً بجلطة قلبية اصابته

لانهيار زواج ابنه (وربما لأن الحقيقة ستتكشف)، ثم ينجو خسرو من محاولة انتحار، وتنتهي بذلك الرواية.

* *

ماذا يريد الكاتب أن يقول؟ من هو سياوش؟ إنه ليس سياوش الشاهنامه قطعاً، رغم التمويهات التي ربما أراد بها الكاتب إيهامنا بأنه يعيد قصة سياوش الشاهنامه بمنظور جديد. كما أن ملاحظته الروتينية في بداية الرواية ـــ من أن شخصياتها وأحداثها هي من صنع خيال الكاتب مغالطة كبيرة هنا، فمصدق ليس خيالياً، ومدير شرطته شخص حقيقي كان اسمه «أفشار طوس»، وما كان إسقاط الأول ولا اختطاف الثاني، ثم قتله، خيالياً أيضاً.

وعندي، أن إسماعيل فصيح بعد أن طرح مقولته الرئيسية في بعث الأمة الإيرانية على يد رضا شاه «پهلوي»، وتغيير الحال والشروع في إصلاح البلاد وأمورها على يديه في «قصة جاويد»، أراد أن يقول إن مصدق حاول إكمال ذلك، ولكنه، «ذلك البطل الطاهر الذي تساوي شعرة متفسخة واحدة منه ألفاً منا» سرعان ما قضي عليه بتلك الصورة الرهيبة: فإلغاء تأميمه للنفط هو قطع رأسه!

ولعل خير مثال على «طهارة» مصدق تعويله الزائد على الأميركان، في حين يصر فصيح على وصف الانقلاب الذي أطاح به على أنه أمريكي، وليس أنكلو ـــ أميركياً.

* *

وإشارات الكاتب إلى ذلك، التي تبرر هذا التفسير، كثيرة. فخسرو، ابن سياوش، خطيب ثريا، كما تصفه أمها:

«هو ذاته جيد، جيد جداً... خريج جامعي. يحمل شهادة دكتوراه، وعنده

عمل في مؤسسة الميزانية والتخطيط. حفيد السناتور الدكتور إيمان... وفوق ذلك، فخسرو إيراني متعصب وذو شخصية، يفخر بكونه إيرانياً. وعنده نوع من الأخلاق والصفات الصادقة من الصدق والرجولة...» (ص١٨). و:

«... لم يكونا يريدان أن يقيما حفلاً في بيتهما ــ يعني في بيت العقيد أبي خسرو. ولم يكونا يريدان نادياً أو فندقاً، أو ما شاكل ذلك. كان قلباهما يهويان شيئاً إيرانياً، ولكن بسيطاً وتقليدياً. كان الشباب قد فكروا فيما بينهم ــ يعني ثريا وخسرو وأصدقاؤهما ــ تكلموا كثيراً، وأخيراً صمموا أن يكون حفلاً إيرانياً بسيطاً مثل أعراس الزمن القديم، له ــ كما يقول علي رضا صديق خسرو، صفاء. تقرر أن يقام حفل في باحة المنزل، يقيمه مطرب حوضي (مطرب شعبي يغني عند حوض ماء المنزل ــ الذي كان جزءاً تقليدياً من باحات البيوت الإيرانية القديمة) (ص١٩).

وخسرو، في رأي الراوي، ذهب يبحث عن «الصدق والحقيقة» ــ هكذا مطلقاً ــ ولذلك يشبهه بزرادشت (ص٤٥)، وما بين الجد والمزاح يحكي لنا قصة سياوش الشاهنامه (ص ص٦٨-٦٩) ويحاول الربط ما بين سياوش الرواية والدكتور مصدق وسياوش الشاهنامه بتكرار (ص٦٨ مثلاً).

وتقول أم زوجة سياوش إن هذا:

«قال لي يوماً إنه خرج من ذلك البيت (بيت أبيه) كي ينقذ روحه» (ص٨٥).

ويقول الدكتور، صديق الراوي وسياوش ــ عن هذا:

«كان سياوش يتألم من الوضع الاجتماعي الموجود. من رتابة كل النظام القائم حينذاك، ومن انعدام الحقيقة والصفاء، ومن فقدان العدالة السيئ الذي كان موجوداً، والذي هو موجود دائماً بالطبع. كان سياوش يحب أن يخالط الطبقات

الدنيا جداً بحرية. لم يكن بينَ يديه مال كثير. كان يذهب فيبيع كتبه ويذهب مع الحمالين والمتسولين ومنظفي الأحواض، يجالسهم، يحادثهم ويدخن معهم، ويدعوهم جميعاً إلى الصفاء والحقيقة» (ص١١١). و:

«كان يقول إن الشيء الذي هو الجوهر الأصلي لحياة صميمية لم يكن موجوداً في تلك العائلة. لم يكن ثمة طهر ووحدة، ولا صفاء جمعي: أن يكون الكل للفرد والفرد للجميع. كان هذا هو ألم سياوش» (ص١١٢). و:

«أبدل سياوش الاختلافات الطبقية إلى محبة إنسانية» (١١٥)، ويتضح من دفتر مذكرات سياوش ــ الذي أودعه خسرو عند خطيبته ــ زوجته ثريا ــ أنه مجرد مقتبسات من الأوستا وشروح لها. (ص ص٢١٤-٢١٥). ويقول الراوي لثريا:

«إن مركز طوفان حياة خسرو هو أبوه سياوش. ولهذا ليس فقط كمجرد شاب اسمه سياوش إيمان، وإنما مفهوم «سياوش إيمان» ــ الذي يعني في هذه المعمعة مراماً وحيداً نقياً، يعني أن يكون المرء خالصاً، يعني فكرة المحبة والطهر في هذا المجتمع» (ص٢١٩).

وعندما استدرج الراوي أخيراً «أوسامد» دافن سياوش إلى الاعتراف الكامل، أربكه التشابه بين مقتل سياوش الشاهنامه وسياوش الرواية، خاصة وأن أوسامد بعد أن ينهي روايته يستشهد بفردوسي:

«فصل عن السرو الفضي رأسه فسال الدم منه إلى الطست»، فيسأله: ــ «يا سيد أوسامد، رأس سياوش إيمان؟» (ويعلق): «خشيت أن يكون قد اختلط عليه الأمر،أو أنه يغالط» (ص ص٣١٠-٣١١).

وفي طريق عودته إلى آبادان بالطائرة بعد حل المعمى، يفكر الراوي:

«أحس أنه ليس مهماً من قتل سياوش إيمان بقدر ما هو مهم ما الذي قتل سياوش إيمان...» (ص٣٢٥).

أما تأكيداته على الربط بين سياوش إيمان ومصدق، فلا تعد:

فهو مات «قبل اثنتين وعشرين أو ثلاث وعشرين سنة» (ص٢٧). يعني سنة ١٩٥٣، سنة سقوط مصدق. و:

ـ «متى كان ذلك؟». «لا أدري. كان ذلك طبعاً قبل سنوات. سنة واحد وثلاثين وإثنين وثلاثين (=١٩٥٢ ـ ١٩٥٣)، سنوات الدكتور مصدق» (ص٤٠).

«سياوش يموت بعد ولادتي بسنة، يعني آخر سني زمان مصدق» (ص٦٩).

وخالة خسرو لا تحب الحديث الساخر، بل حتى الإشارة المازحة، عن سياوش (ص١٧).

ويوم غرق سياوش المزعوم: «من ألاعيب القضاء والقدر أنه كان يوم الثامن والعشرين من مُرداد[٢١] إياه» (ص٨٦).

«تعرف أن سنة اثنتين وثلاثين (١٩٥٣) كانت سنة ساخنة سياسياً وقومياً وسنة مصدق الكبير والقومي الإيراني. في الشوارع كانت التظاهرات دائمة. كانت أمريكا تريد الإطاحة بمصدق. باختصار، كان الشعب في حالة حمّى وهياج. ولكن سياوش في تلك السنة، كان يقرأ كتاب الأوستا ليل نهار. يعني يقرأه للجميع: للشحاذين وباعة التذاكر ومساعدي السائقين» (ص١١٢).

«في عشية السابع والعشرين من مرداد اثنتين وثلاثين[٢٢] أبيد رجل طيب في إيران وهم (الطيبون) دائماً يبادون». فقلت: «مثل الدكتور مصدق». قال: «مثل سياوش إيمان، المتمرد» (ص١١٤).

مع أن (أحمد وفا)، والد فرّخ ـ زوجة سياوش ـ يستدرج إلى الحديث عن

الوقائع وهو سكران، ويتعمد إخفاء بعض الحقائق، إلا أنه يذكر تفاصيل لا تبدر عادة من سكران، بل هي في الواقع تبيان لموقف الكاتب:

[سألت: ــ «هل استحصل (ديوان لقا) له (لخسرو) دفتر نفوس باسمه؟». ــ «ما أدراني، والله! تلك السنة كان سياوش درويشاً ومجنوناً. لم يكن يهتم بهذه الأمور أو بالمجتمع. لم يكن يهتم بمصدق. لم يكن يعنى بالحكومة. كانت أمريكا تلك الليلة تدير انقلاباً وتستبدل الحكومة. ولكن سياوش كان في دنياه الخاصة»] (ص١٧٤).

وفي الحلم الطويل الذي يراه الكاتب آخر الرواية، عندما يسأله الشيخ ــ الدرويش عن «إيمان»، يعلق:

«الآن فهمت أن مقصوده كان سياوش لعبتهم. أردت أن أقول: تمالك أعصابك، ليلة السابع والعشرين من مرداد تلك تخلصوا من مصدق، لم يعد موجوداً... مات» (ص٢٢٩).

* *

وأرجو ألا يتوهم القارئ أن تمجيد إسماعيل فصيح لرضا شاه ينساب ليشمل ابنه محمد رضا، فإصلاحات رضا شاه كانت ــ كما رأيناها في «قصة جاويد» عميقة، أو في الأقل ذات جدوى: سياسياً، في تصفية آل قاجار، واجتماعياً: توحيد وتحديث الأزياء وإجراء إحصاء للسكان وإصدار دفاتر نفوس لهم[٢٣].

أما مستجدات عصر محمد رضاه شاه، فشكلية، هامشية. وبعث لفوضى عامة:

*«أخذت سيارة أجرة من خدمة المطار... سيارة أجرة خدمة مطار «خاص» على طريقة طهران الحديثة... جاء بي، مع مسافرين خارجيين، كل منا «بشكل خاص»، إلى طهران» (ص١٢).

*«وفي بداية لقائه بأخته بعد مجيئه إلى طهران تقول له:

«... أغبطك على أنك لست هنا، في هذه المدينة الرديئة، حجرية القلب، ميتة القلب» (ص١٥)، بحيث يستغرب جلال، فهذه أول مرة يسمع أخته فيها تشكو» (ص١٦)، و:

* «... من وراء رأسها وعنقها وشعرها الكستنائي، كان ثمة منظر مشوش ومكشوف لشمال طهران يبدو من بين العاصفة ـ بتقسيمات الشوارع الجديدة والأبنية الحديثة، من الفولاذ والكونكريت، التي تضغط كغول العالم الحديث على أفق جنوب طهران الملفوف بالضباب» (ص١٦). و:

* «في إيران، كانت ثريا قد أعفيت من الخدمة العسكرية في العهد البهلوي الثاني، بحكم القرعة» (ص٣٠). فقد استحدث محمد رضا تجنيد الخريجات، بحدود.

* وهناك شحة بصل في طهران!

[ ـ «في العصر البهلوي؟». ـ «ثمة في طهران قحط دائماً في شيء ما. في علب الزيت النباتي يضعون للدعاية والمنافسة مسكوكات ذهبية، أما البصل فينبغي استيراده بالباخرة من الهند لأن فيه قحطاً»] (ص ص١٠٨-١٠٩).

* الكهرباء مقطوعة في جنوب المدينة!

«بعد الجادة القديمة وصلت تجريش (شمال طهران) ومن هناك إلى نياوران (شمال طهران أيضاً، وفيها كان قصر الشاه الصيفي ومقره الرسمي) والشارع الغربي. لابد أن سكنة هذه البيوت لا يعرفون أن لـ (جواديه) و(زقاق الشيخ معزز) وجوداً! أو أن الكهرباء مقطوعة بين ميدان (إعدام) و(مفرق گلوبندك)(٢٤). في شمال المدينة لم تكن الكهرباء ذلك الزمان تنقطع في أي وقت من الأوقات» (ص١٣٢)، و:

* «من استدارة (شهرآرا) انحدرت. كنت أعرف هذا القسم الجديد من طهران إلى حد ما. إن شهرآرا واحدة من مئات الأحياء الجديدة عديمة الحساب، التي بزغت من كل مكان في الأرض خلال ربع القرن الأخير في طهران، مثل الفطر الوحشي بعد ليلة ممطرة» (ص١٥٩). و:

* «إن كنت محظوظاً، فالعامل الوحيد ــ في الليالي داخل مستشفيات طهران ــ الذي لا يشتغل، عدا عزرائيل، هو التلفون» (ص ص٢٣٤-٢٣٥). و:

* «بضعة الشوارع بين (بهار) و(شهرآرا) قطعتها خلال مدة ساعتين ونصف، الشبيهة بالمعجزة، لأنني لم أصادف في طريقي غير سبع أو ثماني انسدادات طريق ناشئة عن الزحام» (ص٢٨٨).

* *

تحمل «ألم سياوش» السمات الرئيسة التي شاهدناها في «الشراب الخام»:

* ورود شخص من خارج الأحداث للتحقيق فيها، متابعتها، وروايتها.

* أهمية التاريخ والتأكيد عليه في سطور الرواية. فمنذ أول سطر نقرأ: «أوائل اردیبهشت سنة ١٣٥٥»[٢٥] (ص٥).

* تلازم تحركات الكاتب قراءته لكتاب ما (ص٨). والكتاب هو «غريب» كامو. ولم أجد ارتباطاً له بأحداث الرواية ولا بحالة الراوي النفسية، رغم جهد الكاتب في إلقاء مثل هذا الارتباط.

* تتكرر الأحلام في هذه الرواية أيضاً: حلمان على ص٢١٣، وحلم يمتد من ص٢٢٧ إلى ص٢٢٩، الخ.

* التأكيد، المباشر وغير المباشر، على القومية الإيرانية، وإن كان قد تخلص هنا من النظرة الشوفينية إلى العرب. فــ«مطرود» خادم الراوي في

آبادان (ص٩) لا نقرأ ما يشينه، بل إن الراوي قد ائتمنه على بيته وما فيه عند سفره إلى طهران.

* لا تزال الحبكة تعاني من نقاط ضعف في سرد إسماعيل فصيح. فأولاً: من غير المعقول أن يتمكن الراوي من لف طهران ومقابلة كل أولئك الناس ومحادثتهم، والعثور على وقت فائض لقضاء ساعة غرام مع خالة خسرو، وإكمال قراءة «الغريب»، خلال المدة القصيرة التي تغطيها هذه الأحداث، خاصة بعد حسم ساعات التوقف بسبب الزحام! وثانياً: ثمة إقحامات ترد في أحاديث بعض شخصيات الرواية هي غير طبيعية في السياق. وقد ذكرنا بعضها، ومنها أيضاً في وصفه للذي فتح له الباب عند زيارته بيت أم سياوش:

«كان له صوت يشبه أصوات نقّالي مقاهي شيراز» (ص١٣٣). فهل تتشابه أصوات النقالين إلى هذا الحد؟ ولماذا نقّال من شيراز بالذات؟ إنه إقحام سمج لمجرد أن الكاتب يعرف أن «أوسامد» كان ذات يوم نقالاً في شيراز! ولم يكتف الكاتب بذلك، بل انه افترض في قارئه البلادة، أو بطء التفكير في الأقل:

«سألته عرضاً: أنت السيد (محمد كوه گرد)، صحيح؟» (ص ص١٣٣-١٣٤).

* *

ويبقى إسماعيل فصيح مبرزاً في السرد والوصف والاختصار:

* « كان الصوت الوحيد الآخر الذي يأتي هو صيرورة شعري رمادياً» (ص٦).

* «أعددت لقمة خبز وسمك وخضروات ورفعتها إلى أعلى (= تناولتها بفمي) ثم غسلتها (= شربت فوقها شيئاً) فأنزلتها» (ص٢٨).

* «وفي شقة متداعية بمبنى متداع نصف قديم في آخر زقاق قديم بشارع

(بهار) كانت تعيش. كانت أبنية الزقاق من قطع الآجر المربع القديم المبني بإسمنت عديم اللون حائله، التي قضت أيام جدتها منذ زمن بعيد...» (ص٧٣).

* «كان الجو رطباً، تفوح منه رائحة الزيت والكسل» (ص٩٢).

* «كانت إحدى يديّ حول عنق المقود ويدي الأخرى على أكرة ذراع المبدّل، وكان جسدي في حضن المقعد الأمامي، ورجلي على دواسة البنزين والكابح، ومع هذه جميعاً كنت أتقدم في السواد غير السيّال كثيراً لزحام المرور في مفرق (گلوبندك) و(باب همايون) وميدان (توپخانه) باتجاه شارع (فردوسي)، بسرعة كما تتحرك ريشة ضائعة في تراب أسود» (ص١٣١).

* «بعد نصف أبدية انتظرتها تحت المطر اللجوج السمج، جاء أحدهم أخيراً ففتح الباب، ثم أخذ يظهر شيئاً فشيئاً. كان امرءاً عجوزاً طويل القامة مثل عمود مشنقة. وجه أسمر حاد التقاطيع طويل إيراني، وبشرة يابسة جعداء متدلية، شاربان ولحية بيضاء، ولكن له قيافة خادم: يرتدي سترة وبنطلوناً أزرقين داكنين، مع صديري ولكن بلا ربطة عنق. تفحصتني عيناه الدقيقتان بعبوس وريبة. دعاني مكرهاً. كان له صوت كأصوات نقّالي مقاهي شيراز. وثمت مصباح ما فوق الباب، النيوني، كان شعره الأبيض يبرق لمعاناً» (ص١٣٣).

* «... على أية حال، فهذه الليلة عندما جاءت العجوز «منوّر السلطنة والا» (أم سياوش) متكئة على العصا ومرتعشة، نحوي، كنت أتصورها قبل نيف وأربعين عاماً في شيراز، فلم أكن لأراها ذات جمال يعتد به» (ص١٣٧).

* «كان وجهها اليوم منتفخاً مغموماً، بدون مسحوق وصباغ. لم يكن ثمة إلا أحمر داكن على شفتيها كان يبدو ــ على وجهها مخطوف اللون ــ مثل دم اندلق من فمها. وكانت تفوح منها رائحة العطر ورائحة تبغ وينستون ورائحة دعوى ومرافعة» (ص ص٢٦٦-٢٦٧).

* «وكانت السيدة كمالي شيئاً لا يقل نحافة عن شاحنة خلاطة إسمنت تبدو، حتى في اللباس الأسود وغطاء الرأس الأسود، مثل جبل من الأرز والسمن الكرمنشاهي» (ص ص٢٧٥ ــ ٢٧٦).

ولكن ذروة سرد فصيح ووصفه في هذه الرواية تتجلى، في نظري، في مشهدين:

١ ــ تعرف الراوي، جلال آريان، على فرّخ ــ أم خسرو ــ في المستشفى:

[«بدأت الاستفسار منها عن خسرو بالسؤال عن الصحة والأحوال. سألت عن حالها. قالت: «مرسي»، وضحكت، ثم، بعبوس وشكوى ودية قالت: «عجباً، أيها السيد المهندس ــ لماذا إذن لم تشرف منزلنا؟»، وكأنني ارتكبت، جدياً، خطأ فاحشاً إذ لم أطر من آبادان إلى حضنها»] (ص١٠٠). ثم:

[قلت: «كيف حال جناب العقيد (زوجها ــ الذي كان يعاني من غيبوبة الموت في المستشفى)» فقالت: ــ «أحسن. منذ ليلة أمس حتى اليوم أحسن كثيراً»... قالت: «ماشاء الله أحسن كثيراً».

نظرت، كان العقيد ابن المرحومة تحت كيس الأوكسجين يصدر عن صدره وحلقومه كل صوت عدا صوت تنفس الحياة] (ص١٠١).

ــ وأخيراً، طرحت عليها آخر أسئلتي. قلت: «يا سيدة ديوان لقا، تلك الليلة التي توفي سياوش في اليوم التالي لها، هل كان في بستان كرج أحد غيرك وغير سياوش وخسرو وتلك الخادم الريفية؟». نظرت محدّقة إليّ. كانت عيناها مضطربتين. لقد أمسكتُ بيديها وساقيها، ورفعتُها عالياً، وألقيتُ بها في الوديان السوداء لأسرار ورموز ما قبل ثلاث وعشرين سنة من العذاب... لم تكتف بأن

لم تجبني، وإنما طأطأت رأسها بغضب وقطع رابطة، ولم تنظر إلي مرة أخرى، بل حتى لم تودعني. انسلّت بقدمين مسرعتين وراحت، عادت إلى غرفة زوجها» (ص١٠٧).

٢ ـ لقاء الراوي بالعم المجنون (شهروز)، الذي خلق المشكلة بتخريبه حفل الزواج. قال هذا العم:

[ ـ «أنا.. أنا ليلة أمس، ليلة أمس ذهبت.... أخذت انتقام دم سياوش... أخذته والله».

التفتّ فنظرت إليه. فكرر جملته مرة أخرى كالببغاء. قلت:

ـ «أخذت انتقام دم سياوش؟». فقال:

ـ «أوهوم... انتقام دم سياوش الطاهر... بالله».

ـ «أكان ذلك عملاً جيداً؟».

ـ «دم سياوش!». واتخذ صوته جرس تقليد النقالين. قال:

ـ «سياوش بطل إيران الطاهر... الذي قتل على يد گرسيوز عديم الدين أخي أفراسياب عديم الدين».

تذكرت كلام «لي لي خانم» (أم فرّخ «زوجة» سياوش): كان (أوسامد آقا) في تلك الأوقات يقرأ للأطفال الشاهنامه. أو كان يروي لهم قصص الشاهنامه. قلت:

ـ «ممن أخذت انتقام سياوش يا شهروز؟».

ـ «من... من... (سودابه) سيئة الفعال».

ـ «من سودابه؟».

ـ «أوهوم، من سودابه ومن گرسيوز عديم الدين ابن الكلب الذي أمه حرمله»[٢٦].

ـ «من كانت سودابه يا شهروز؟».

ـ «تواطأت سودابه مع گرسيوز».

ـ «وما فعلا؟».

ـ «أساءت سودابه إلى سياوش. أصابت سياوش بعين. خربت سياوش الطاهر». فسألت:

ـ «ماذا فعلت؟».

ـ «إنها أدت بسياوش... إلى القتل. گرسيوز عديم الدين ابن حرمله... شدّ يد سياوش... من وراء... قطع رأس سياوش في الطست. ودم سياوش الطاهر... انصب إلى طست الرماد».

ـ «ثم ماذا جرى؟».

ـ «ثم... فار دم سياوش... وانهرق على الأرض».

ثم لزم الصمت. عاد إلى دنياه. كما لو أن قلبه قد ابترد.

ـ «وانتقمت أنت لدم سياوش الطاهر من سودابه وگرسيوز».

ـ «أوهوم، أوهوم...».

أردت أن أسأله: أأخبرك أوسامد آقا بأن سودابه وگرسيوز يقيمان حفل عرس؟ ولكن لم يطاوعني قلبي. فهمت ما كان يجب أن أفهم. لم أرد له أن يخرج من الحال الهادئة نسبياً التي كان فيها»] (ص ص١٥٥ ـ ١٥٦).

* *

تمتاز «ألم سياوش»، إضافة إلى ما تقدم، بتدخلها السافر في السياسة. فإضافة إلى موازاة أحداثها لأحداث إسقاط حكومة الدكتور محمد مصدق، والانتقادات الجانبية للأوضاع الاجتماعية والمدنية، نجد إشارات متعددة ــ كما أسلفنا ــ إلى طهارة مصدق وإسقاط الأميركان له، ونقرأ:

* عندما يجد الراوي سيارة خسرو ويحقق بشأنه في المنطقة، يسأله عامل المرأب، الذي كان هو يستجوبه:

«قل لي! إنه ليس من مثيري الفتن والمجاهدين الذين يقولون عنهم؟» (ص ١٢١). و:

* «كان راديو صوت إيران يبث من إحدى المحطات... وكانت ثمة محطة أمريكية تبث للقوات الأمريكية نكات وموسيقى روك، وفيها يجري بحضور الإمبراطور افتتاح المعرض الثالث عشر للتكنولوجيا الحديثة بحضور ممثلي ثلاثة عشر بلداً. وعدا ذلك كان يتم ــ برسالة موجهة من الإمبراطور آريامهر ألقاها السيد علم وزير البلاط الإمبراطوري، وبحضور السيد أمير عباس هويدا رئيس الوزراء ــ افتتاح المؤتمر الثالث الكبير لعمال إيران في ملعب آريامهر الكبير بطهران. وكان مقرراً أن يأتي نلسون روكفلر إلى طهران بوصفه ضيفاً عالي الشأن على الإمبراطور آريامهر. ثم أنه في مواجهة مسلحة بشارع (أميريه) بطهران بين «مأموري الأمن» والعناصر الإرهابية والهدامة المسماة بالــ«مجاهدين» قتل أربعة من الإرهابيين وجرح أحد المأمورين، إلا أن جراحه ليست وخيمة» (ص ص١٣٠-١٣١).

* *

مع انتهاء «ألم سياوش» ينتهي تاريخ ــ رواية إسماعيل فصيح لانتهاء عصر الظلام الأول في التاريخ الإيراني وفق منظوره، وهو يمتد من الفتح

الإسلامي حتى سقوط دولة آل قاجار حوالي سنة ١٩٢٠، وقيام العهد القومي الإيراني الحديث، ولو متعثراً، ثم سقوطه هو الآخر. لتبدأ رواياته الأخرى تعالج مسائل أخرى سنأتي عليها إن أتيح لنا مواصلة هذه القراءات.

## ب ــ رفض النظام الثوري

### ٥ ــ «ثريا في غيبوبة»

تبدأ الرواية، كالعادة التي عرفناها في الروايات السابقة ــ عدا قصة جاويد ــ بالتنبيه على خيالية الأشخاص والأحداث، وكما تلك الروايات أيضاً يطالعنا التاريخ الدقيق لبدء الأحداث، فعلى الصفحة الأولى نقرأ أنه أواخر صيف ١٣٥٩ (= ١٩٨٠)، وهو بعد شهرين من بدء الحرب العراقية الإيرانية (ص٣). كما تعج الرواية، كسابقاتها أيضاً، بالأحلام: ٢٤، ص٣١، ص٤٥، ص٥٤، وغيرها، ولكن الأحلام تختلط هنا بالتصور أو التداعيات حتى لا نعود نستطيع التمييز بين هذه وتلك (ص٤٥) و(ص٥٤)، والسبب في ذلك إصابة الراوي بجلطة دماغية أصابته في (آبادان) عند بدء الحرب وشفي منها جزئياً، فذاكرته تعمل على النحو التالي:

[ ــ «... يعني أن شيئاً ما، أريده أن يأتي فوراً إلى خاطري، يمكن ألا يأتي أحياناً. ولكن الأسوأ أن مشاهد لا أريد أن أتذكرها تنهمر فجأة أحياناً وتبقى أغلب مشاهد الماضي تحجب نظري...».

ــ «أتأتيك في النوم أيضاً؟».

ــ «عند النوم كثيراً. ولكنها في اليقظة عجيبة. فهي تأتي ولا تتزحزح»]. (ص٨٦)].

وفي هذه الرواية، لا يعرف الراوي الأدوية فقط، وإنما الأجهزة الطبية أيضاً، كما أن اللازمة الأخرى موجودة أيضاً، فعلى (ص٣١) يشتري الراوي كتاباً من مطار اسطنبول هو هذه المرة «كلاب الحرب» لفردريك فورسايت، تدور أحداثه عن المرتزقة ونشاطاتهم.

والراوي هو جلال آريان إياه، الذي عرفناه في «الشراب الخام» و«ألم سياوش». ولكنه لا يشرب الخمر هنا، لأنه يتناول أدوية تتعارض مع الخمر حتى الموت (ص١٣)، كما أنه تعهد لأخته ألا يمسّها.

ونجد هنا ذكراً للأكراد واللُر (ص٢) كجزء من الشعب الإيراني، وإن كان الكاتب لا يتناولهم بالتقويم ولا يعطي فيهم رأياً ولا يصدر حكماً.

وقد زالت هنا الشوفينية من نظرته ضد العرب كأفراد، وإن كانت فيها بعض الدونية، فأول عربي نصادفه له زوجة مع «سبعة أو ثمانية أطفال» (ص٢) والعربية التي نلاقيها صامتة تهز رأسها وتلطمه بين حين وآخر.

والعربي الذي يذكر أكثر من مرة: مطرود آل مطرود، خادم، وقد كان ثقة ائتمنه الراوي، وآخرون، على بيوتهم عند مغادرتهم إياها بسبب الحرب (ص٥٦). وابنه أصيب بشظية فقطعوا له رجله، ولكنه مع ذلك تطوع للقتال في الجبهة (ص٣٠٦). وثمة عربي آخر أرفع شأناً، فهو صاحب مكتبة (ص٢٠٠)، وليس العرب هم الذين اعتدوا على إيران في هذه الحرب، بل هم «الصدّاميون الكفرة» (ص٧١).

* *

الراوي نائم بمستشفى في آبادان يستجم من جلطة دماغية بعد سقوطه وإصابته بكسور ورضوض، وبما أن وضعه الصحي كان مقبولاً فقد اشتغل ــ بعد نشوب الحرب ــ في بعض أعمال الخدمات بالمستشفى.

تستدعيه أخته فرنگيس، كما في «ألم سياوش» للمساعدة: فابنتها ثريا، التي تستكمل دراستها العليا في باريس ــ بعد موت زوجها في بداية الثورة (ص٤٩) و(ص٧٨)، تسقط عن دراجتها ذات يوم فتصاب بغيبوبة وهي راقدة الآن في مستشفى، بعد أن كانت تستعد للعودة إلى إيران. تطلب فرنگيس من شقيقها أن يلتحق بابنتها في باريس لمتابعة وضعها وترتيب أمورها. وتذكر، استطراداً، أن عائلة فرنسية صديقة لثريا هي التي أدخلتها المستشفى وهي التي ضمنت تسديد نفقاتها، وعليه فمن جملة مهماته إيجاد طريقة لتحويل المال إلى باريس لسداد دين هذه العائلة ولتسديد نفقات المستشفى الراهنة واللاحقة.

يحصل الراوي بمنتهى السهولة على موافقة السفر (في ظروف بداية الحرب وبجواز سفر لابد أنه مليء بتأشيرات دخول أمريكية!) ويتجه إلى تركيا عن طريق البر كي يستقل طائرة منها إلى باريس.

وتكون سفرته البرية الفرصة التي يريدها الكاتب ليحدثنا عن نماذج من تاركي إيران زمن الحرب، كما ستكون إقامته المؤقتة في باريس فرصته للحديث عن تاركي إيران قبل الثورة وبعدها:

«عندما أنظر أرى كل مسافري الحافلة اليوم تقريباً يتصفون بالحال نفسها. فيما عداي وعدا واحد أو إثنين من الطلبة الجامعيين. لقد أخذ الجميع ما يملكون وها هم يمضون، أو أنهم عادوا ليأخذوا المزيد ويذهبوا...» (ص٦).

ومن بين رفاق السفر هؤلاء موظف خطوط جوية سابق، هو وهاب سهيلي، ذهب إلى تركيا بانتظار تأشيرة دخول إلى أمريكا يفترض أن يرسلها له ابنه، أو ابن زوجته، أو صهره (لا يفهم الراوي أيهم، لأنه لا يستطيع تمييز الصدق من الكذب في حديثه) عن طريق السفارة الأمريكية في باكستان أو في لندن (وذلك أيضاً ما لا يفهمه الراوي). وهو يسافر محمّلاً بمئات ألوف

الباوندات الاسترلينية والدولارات الأمريكية على شكل صكوك مسافرين مخبأة في بطانة لباسه.

والسيدة كيومرث پور، حاملة شهادة الدكتوراه في البيولوجي، المسافرة إلى ألمانيا، محملة بأثقال من المصاغ.

في ذكره لصفوف انتظار وقود المحركات والتدفئة، فإن وصفه لها، وصف محايد، كما أن وصفه للانتظار في الجمرك الحدودي محايد أيضاً: لا ثر للشرطة وإنما بضعة شبان ملتحين يساعدون الركاب في إنزال وتفكيك أمتعتهم. ولكن:

«يصرخ رجل، متوسط العمر ملتح، بفظاظة، من أمام الباب الضيق أنه إن كان أحد يحمل نقداً أجنبياً إضافياً أو ذهباً أو أي شيء ذا قيمة، فعليه تسليمه لقاء إيصال، وإلا فإنه سيكتشف ولا يسمح له بالسفر. إن المسافرين إلى الخارج ـ الذين كانوا قبل سنوات ـ كثيري النقيق وممتلئين كبراً، صاروا الآن صماً بكماً وهم ينتظرون. لا ينبسون ببنت شفة. لا يريدون إلا أن يذهبوا مهما وقع. الوضع اضطراري. لم يعد السادة سادة. ولم تعد السيدات أيضاً سيدات. جزءاً من مجموعة» (ص١٤).

وحتى هذه الإشارة السلبية هي أخف كثيراً بما لا يقاس من واقع الأمور، فلم يكن ثمة ـ ولا يوجد الآن ـ شخص ينبه المسافرين إلى مثل هذه الأمور، وإنما كانت (وما تزال) تكتشف ولا يكتفى بإعادة المسافر وإنما يطارد قانونياً أيضاً.

يريد أن يقنعنا الراوي بتضامنه مع النظام، إلى حد أنه ينبه الشاب المسؤول عن التفتيش البدني إلى نقص في طريقة تفتيشهم (ص١٦).

وهو ينتقد نوعاً ما وضع التفتيش والمعاملة على الجانب الثاني من الحدود: تركيا (ص ص١٧-١٨)، في محاولة للإيحاء بمقارنة، ولكن انتقاده هذا

«فاتر»، إذ لا يشير بشيء إلى فظاظة المأمورين الأتراك أو افتعالهم التأخير لابتزاز الرشى من المسافرين.

* *

يصل الراوي إلى باريس، ويقضي أوقاته بين المستشفى والفندق لمتابعة حال ابنة أخته، وتبقى هي راقدة موصولة بأنواع الأجهزة يشرف عليها أطباء يؤكدون أن حالها جيدة إلا أن غيبوبتها تبدو لا علاج لها.

ومع أنه كان اتفق مع أخته على تهيئة المال كي يجد طريقة لتحويله إلى فرنسا إلا أنه لا يستعجل هذا الأمر، ويبدو عدد من المهاجرين الإيرانيين المقيمين في باريس أشبه ما يكونون بالضباع وهم ينتظرون فرصة للانقضاض عليه وإجراء صفقة التحويل له. فهو لا يتخذ قراراً قاطعاً مع (نادر پارسي) بهذا الشأن، وتوفر له (ليلا آزاده) أكثر من وسيط ولكنه لا يقرر.

يبقى بانتظار إجراءات رسمية عن طريق الكلية التي أكملت ثريا دراستها فيها، ولكن هذه الإجراءات ـــ بعد تأخيرات روتينية ـــ تفشل لأن ثريا لم تعد طالبة من جهة، ولأن إقامتها في فرنسا منتهية منذ زمن، فوجودها غير قانوني، من الجهة الأخرى.

وبعد شهور من القلق والتوفز والانتظار تموت ثريا، فيدفنها ويعود وهو لا يدري كيف سيواجه شقيقته.

* *

في فترة الانتظار بباريس، يجد الكاتب فرصته للحديث عن مقيمي باريس من الإيرانيين، والذين يسميهم أحدُهم ـــ نادر پارسي ـــ بالجيل الضائع، وتصفهم ليلا آزاده، صديقة الراوي وحبيبته ذات يوم، على النحو التالي:

«إن المدامات والمسيوهات، الذين تراهم هنا يأكلون ويشربون ويرقصون، هرب نصفهم من الثورة الإيرانية، كما هرب الباقون من الحرب» (ص٧٢).

فكريم پور، الذي يشرب ما لا يقل عن عشرين زجاجة جعة في اليوم، شيوعي. إذ تقول له ليلا:

[ ــ «في نظامكم القادم لا يصنعون إلا عَرَقاً بلشفياً».

ــ «هذا أيضاً موجود».

ــ «بالقسائم». فيضحك كريم پور:

ــ «يوجد بلا قسائم أيضاً»]. (ص٧٣).

وفي حوار مع السيدة كريستيان شارنو ــ التي نقلت وزوجها ثريا إلى المستشفى ــ يعتذر لها عن عدم تلبية دعوتها له لقضاء ليلة رأس السنة في بيتها بحجة حضوره محاضرة للكاتب عباس حكمت، تسأله شارنو إن كان هو الذي ألف رواية عن تمرد إنسان:

[ ــ «كانت ثريا تقول إنها إحدى الروايات الجيدة التي ساعدت على قيام الثورة الإيرانية».

ــ «لابد». ــ «ماذا يفعل الآن؟». ــ «من؟». ــ «المسيو حكمت. لابد أن يكون أحد زعماء الثورة الثقافية ــ أليس كذلك؟».

ــ «بقدر ما أعرف، فإن المسيو حكمت في لندن ــ يعني أنه مقيم في لندن منذ مدة».

ــ «لم يعد حتى بعد انتصار الثورة؟».

ــ «ذهب بعد انتصار الثورة».

ــ «لم؟». ــ «لا أدري... حتماً لأننا ليس عندنا جعة».

فتضحك مقهقهة: ــ «يشرب جعة؟». ــ «هكذا سمعت».

ــ «أشعلوا الثورة وهربوا. يوقدون المشعل، وبعد ظهور النار يصرخون من إحراقها. لا؟». ــ «لا. لا يمكن التعميم»] (ص٢٠٣).

ولكنه لم يقدم نموذجاً إيجابياً من بين المهاجرين كي نقنع بعدم إمكان التعميم. فحتى الأستاذ الدكتور (عبد العلي آزاده)، أبو ليلا، الشيخ المريض المهاجر منذ زمن، هو «رجل طويل القامة، وسيم الطلعة، محترم، ظاهر الديبلوماسية، له شاربان وحاجبان مثل فرشاة بيضاء، وشعر كث أبيض أجعد، مثل نصف كيلو من القطن الطبي» (ص١٣). ومع أن ليلا تعتبر نفسها واحدة من هؤلاء الضائعين، إلا أن الراوي ليس عنده لمؤاساتها غير أن يذكّرها بكتاباتها السابقة، وأن بمقدورها أن تخلق آثاراً مثلها وأفضل!

وهو لا يضيف شيئاً عندما يقارن الضائعين في باريس بالمقيمين في مناطق الحرب الإيرانية، أو بين مقيمي أمريكا ــ الذين يسمع عنهم ــ ومقيمي إيران. (ص ص١٩٤-١٩٥).

وتبدو هذه المقارنات فجة غير مقنعة، فمقيمو إيران يسمع عنهم من إذاعة إيران ــ وهي متحيزة بالطبع ــ ثم أنه لا يعرض، أو لا يبالي بأسباب ضياع أولئك وبقاء هولاء.

مطرود خادمه، وابنه المتخلف عقلياً، بقيا في آبادان لأنه لا مكان آخر عندهما يذهبان إليه، يموتان إن رحلا!

وهو يستعرض هؤلاء المهاجرين تلخيصاً في أواخر الكتاب على النحو التالي:

«وهاب سهيلي يحمل حقائب تكاد تنفجر امتلاءً، ولكنها محزومة بالحبال،

متجه إلى أمريكا ويقول إنه يحمل صكوك مسافرين من فئة مئة پاوند مخبأة في بطانة سترته وبنطلونه. والسيدة الدكتورة كيومرث پور حاملة دكتوراه الميكروبيولوجي، محتضنة طفليها، تخرج من الحدود باكية. ونادر پارسي، الذي يشرب كونياك (كوروازيه) في مقهى (دولا سانكسيون) هو لعبة بأيدي النساء. وبيجن كريمپور، الحالم بإضفاء الجمال على مفهوم الحياة الاشتراكية في إيران، فتح مكتباً في باريس، املأ قدحك!... وفي (روسان جاك) يتبرعم محفل الأصدقاء القادمين للرقص، بحضور الآنسة فرانسواز ميتران. ليلا آزاده، الحسناء ونابغة الكتابة الإيرانية، عروس كل محفل هنا، ولكنهم مزقوها بزجاجة مكسورة، وعباس حكمت يسر بجعة (أمستل) ويقرأ شعر دراويش ملتهباً من أشعار أواخر العهد القاجاري، في عشق إيران. وصفوي، المترجم القوي، يفكر في ترجمة كتاب عن (الجاكينگ[٢٧] إلى الفارسية. الأستاذ الدكتور عبد العلي آزاده سكران من «القهوة الإيرلندية»[٢٨] والنبيذ الأبيض الغالي، يغفو بالـ(سنتي سايزر)[٢٩]، لأنه ينبغي شرب كأس الحياة كاملاً. وقاسم يزداني، القادم من (تربت حيدرية) إلى الـ(سوربون)، يغوص في بحر علم الكيمياء بفلسفته المعصومة عن المعاد ويوم القيامة. والجنرال قائم مقامي فرد، بيطار الجيش الإمبراطوري الإيراني، وشركاه، يلاحق ــ آخر الليل ــ عشيقات الآخرين بسطل ثلج وقناني الشمبانيا. والأستاذ أحمد رضا كوهسار يطبع في (لاسوسيته) بيان (إيران الحرة ــ إيران الأبدية). ونادر پارسي وعباس حكمت يتعاركان بالأيدي ــ بشأن مقالة نقدية وشتائم حمقاء ــ في La Gallerie des Glaces [٣٠] بقصر فرساي. والسيد بيگلري، الأخصائي بلغة الرموز وكشفها في الـ«ساواك» هو سائق وصبيُ خدمةِ ذي المقام العسكري بباريس. والسيد مير محمدي، الأمي، يبحث في ليلة عيد الميلاد بسيارته الـ(أودي) عن منزل ابن أخته عند برج إيفل... إنه دولاب الهواء يدور، والحياة التي تنقضي. C'est la vie [هي الحياة]». (ص ص٣١٦-٣١٧).

وهكذا ينتقد الكل ويسخر من الكل ويدين الكل، دون أن ندري ما يريد.

* *

ومشغوليات السادة المقيمين في باريس ــ لاشك أنها مشغوليات مقيمي أمريكا وإنكلترا كذلك نفسها ــ عدا الطعام والشراب الفاخرين، وإصدار السياسيين منهم للبيانات السياسية، مطاردة زوجات أو خطيبات أو محبوبات أصدقائهم، إلى حد أن أحدهم يخادع ليلا آزاده ذات ليلة فيوصلها إلى البيت، ويطلب منها كأس شراب فتضطر لفتح الباب له كي لا يحدث ضجة، إلا أنه يستغل وجوده في شقتها ليطارحها الغرام ويخطبها! ولما تمنعت عليه كسر زجاجة شراب وهاجمها ومزق رحمها وأدنى بطنها!

ولا ننسى أن ليلا واحدة من القلة، وربما كانت الوحيدة، التي كان الكاتب أشار إلى أنها يمكن أن تعود إلى الكتابة والنشر (= الخلق)، الوحيدة التي لم تجف تماماً. أيريد أن يقول بهذا إنها تعرضت للتعقيم!

* *

وتحظى لوعة الغربة بنصيب من براعة إسماعيل فصيح أيضاً. فليلا نفسها، بعد أن تحدثه بتلك الواقعة، تعقب:

* «عمتي وزوجها الفرنسي لا يعرفان إلا عموميات. حتى أبي وأمي ــ اللذان هما في مارسيليا ــ لا يعرفان... هذا على الأقل من محاسن الغربة... يمكنك ــ إن أردت ــ أن تتمزق إرباً إرباً وتتفسخ وتموت فلا يدري أحد. حتى أختي پري، التي هي الآن هنا، لا تدري». (ص٩١).

* وفي ليلة عيد الميلاد تبعث له برسالة إلى فندقه:

«... بابا قدم شمبانيا... ماما قدمت خاويار[٣١]. غداً، وهو جمعة، سنذهب

إلى (بوردو). نحيا حتى نموت. في (آبادان...)، يموت الصبيان حتى يحيوا». (ص١٦٦).

* *

ويلمع إسماعيل فصيح في ميدان لم يسبق له ولوجه: وصف الحرب وويلاتها:

* ففي الحلم ــ الذكرى على ص٣١، يقتل أخ أخاه وإثنين آخرين من أفراد البسيج[٣٢] لأنه كان قد صحا لتوه من النوم فتصورهم مهاجمين عراقيين! ولذلك حاول الانتحار. إنه في السادسة عشرة، وهو وأمثاله جاؤوا إلى الحرب بعد تدريب بضعة أسابيع!

* وعندما يعود الراوي إلى بيته من المستشفى، في بدء الحرب، لجمع بعض أغراضه، يجد فئران النخيل تملأ البيت، وقد قرضت الكثير من أشيائه، فيرش عليها، ولها، سماً فيموت بعضها فوراً:

«تمكنت أن أرسل فئران النخيل، الموجودة في المجاري، إلى ديار العدم بالــ (دي دي تي). ولكن إيران لم تكن اخترعت بعد (دي دي تي) لفئران نخيل صدام حسين كلبيّ الدين» (ص٥٥).

* وفي حوار له مع ليلا آزاده:

[ ــ «حسناً. سمعت أنها الحرب». ــ «وأية حرب»! ــ «كيف هي؟». ــ «قذرة ومجنونة. ذوو دين الكلاب يدكون المدن والشوارع والمنازل والناس الأبرياء...»] (ص٧١).

* «العامل الذي أصابت بيته قذيفة كاتيوشا... قتلت زوجته وأمه وأطفاله الأربعة أو الخمسة بالشظايا. وهو نفسه، إذ كان داخل المطبخ، أصيب برجله فلم

تكن حاله سيئة جداً. جاؤوا بأجساد زوجته وأمه وأطفاله بسيارة (جيب). كان هو أيضاً جالساً في زاوية من السيارة. وقد جاء معه بقطعة من المقوى مكتوب عليها (مملحات) فأعطاها، باكياً، لأحد الطلبة. سأله الطالب ـــ الذي كان يعرف بما جرى ـــ بحرقة: «ماذا يوجد داخلها يا أبتاه؟» كان العامل يضرب بجمع كفه على رأسه ويقول: ـــ «لا أدري لأيهم تعود». تصورنا، في البدء، أنه يقصد المملحات. فتح الطالب غطاء العلبة، ونظر. كان العامل يقول برتابة: ـــ «لا أدري لأيهم تعود». كانت في العلبة يد طفل مقطوعة من الكتف ـــ من أثر الشظية كما يبدو. وكان العامل يلطم رأسه ويقول: ـــ «لا أدري لأيهم تعود...» (ص٨٧).

* «قبل حركتي من طهران، ذهبت إلى مجلس فاتحة السيد جليلي ـــ من أقرباء زوج فرنگيس، وقد توفي نتيجة لسرطان المعدة والبانكرياس. (ما زال الناس في إيران، في هذا العهد، كما أعلم، يموتون بسرطان المعدة والبانكرياس وما إلى ذلك)». (ص١٣٤).

والكاتب واع لأهمية المقابلة والمقارنة في تقديم صورة كاملة عما يريد الحديث عنه:

* «يجيء شخصان قرويان أيضاً فيجلسان إلى جانبنا ويأكلان رزاً وقيمة[٣٣]. إنهما لا يأكلان الرز والقيمة هكذا، إنهما يمارسان الغرام مع الرز والصلصة. رأساهما على مبعدة التقبيل من صحن الرز والقيمة. يجمعان هذين في لقمة مدورة بالخبز، ويحملانها نحو الفم. يبقى جزء منها في الفم ويعود جزء آخر مرة أخرى إلى الصحن، إن بين الفم والرز والقيمة ارتباطاً ووحدة قائمين. ويلحسان الأصابع أيضاً. لا يحبان الملعقة. أما سهيلي فيأكل حتى الرز الخالي بالشوكة» (ص٨). و:

* «السيدة كيومرث پور وحدها تنزل بطفلها إلى حاشية الجدول وتدعوه

إلى التبوّل. إن شهادة الدكتوراه في البيولوجي، التي تحملها، لا تساوي شروي نقير. وتحت نور مصباح عمود الكهرباء كان لمعصمها الذهبي وفوران بول طفلها النوع نفسه من الطيف الضوئي» (ص١١).

* *

سرد الكاتب ووصفه هما ما عرفناهما في رواياته السابقة:

* فهو يصف عمارات (أكباتان) السكنية على النحو التالي:

«إنها مبانٍ على نمط ناطحات سحاب نيويورك تقف الآن تعيسة ناقصة، منذ زمان ما قبل الثورة، عاطلة باطلة بين رياح الخريف والفضاء الخالي المبتلى بالحرب، مبهوتة حيرى. إنها مجمع سكني زعماً. تشبه بدقة مكعبات لعبة ركّبها طفل عند الشبع ثم تركها على النصف لما استولى عليه النوم». (ص٢). و:

* «أتقدم إلى أمام فألمس يد ثريا. يدها باردة مثل ظرف من صدف، مضمومة مشدودة. كأنه لا ضغط دم عندها أصلاً، حتى ولا دم. ولكن نبضها يدق سريعاً. أنحني فأقبل جبهتها عديمة الحرارة. في تلك الثانية لا أفكر حتى بفرنكيس. لا أفكر إلا بهذا الموجود. ثمة شيء في عيني حارق. أحاول السيطرة على نفسي». (ص٣٧). و:

* «أترك شيئاً فوق وجهي، يمكن أن يكون ابتسامة» (ص٦١). و:

* في ليلته الأولى بباريس يتعرف على بغي فيلتقطها، أو بالأحرى تلتقطه هي فيقبل، ويذهب بها إلى مائدة المهاجرين ـــ مقيمي باريس، ويعرفهم عليها بوصفها الآنسة إديل فرانسوا ميتران، تجلس وتطلب شراباً:

«يصل مشروبها فلا تعامله إديل بأنثوية. يعني أنها، مثل فتوات طهران القدامى ـــ الذين كانوا يتلقفون ثمالة الكأس ـــ ابتلعته. أو لابد أنها كانت تظنه

حصة حكومية، ويمكن أن يأتي جنود الفرقة الأجنبية في أية لحظة فيرفعونه من أمامها». (ص٦٣). و:

* «مقهى (دولا سانكسيون)، على خلاف اسمه الرنان، لم يكن مأوى مقدساً. إنه في الحقيقة مزبلة قديمة متداعية كأن سقفه وأرضيته وجدرانه وستائره ليس فقط لم ترمم منذ الثورة الفرنسية الكبرى وإنما لم تغسل أيضاً» (ص٦٥). أو:

* «أدخل زقاقاً ضيقاً قذراً يؤدي إلى زقاق مقفل أضيق وأقذر. والمبنى الذي ندخله هو شيء خرب قديم من المقرر أن ينهار الآن أو بعد ساعة» (ص١٨٨).

وبعد ظهور علائم الموت الدماغي على ثريا:

* «من... المسير نفسه الذي قطعته تلك الليلة، الليلة الثانية أو الثالثة من سفرتي الراهنة إلى باريس، مع ليلا مشياً على الأقدام. ولكن ذلك كان قبل قرن. وكان ذلك نهراً آخر. كانت تلك سيارة أخرى. لا يسوغني أن أتمشى بطيئاً هكذا وسط الماء. أذهب إلى قعر الماء. إلى ما تحت الأمواج. إلى قاع النهر. تحت الوحل. لا تصر حماراً يا مسيو آريان! طاب مساؤك يا مسيو آريان!» (ص٢٨٦).

ولا يزال الكاتب يزين وصفه أو سرده أو حواره بسخرية قد تبلغ حد السواد.

ففي وصفه لغرفة الفندق التي أقام بها في اسطنبول مع سهيلي:

* «غرفتها أكبر كثيراً من حجرة تلفون» (ص٢٣). وفي وصفه لحاله في المستشفى في آبادان قبل قدومه إلى باريس، يقول:

* [ ــ «عندما اندلعت الحرب في آخر أيام الخريف أو أول أيام الشتاء كنت راقداً في المستشفى رقم (٢) لشركة النفط في آبادان». ــ «لماذا؟». ــ

«الاستشفاء من جلطة دماغية». ــ «لا!». ــ «أنا أيضاً لم أكن أظن أنَّ عندي» ــ «ماذا؟». ــ «شيء يصاب بجلطة دماغية»]. (ص٧٧). أو:

* «إن العثور على نادر پارسي ليس صعباً. فخلال هذه السنوات صار نحيلاً جداً طويلاً جداً، كما أن رأسه يشبه بيضة رسمها طفل بقلم الماجيك على نصفها الأسفل صورة عينين ونظارة وأنف وفم ولحية معزى» (ص١١١). و:

* «في فندق بالما أنتقل إلى غرفة أصغر وأرخص ــ غرفة ذات منظر ــ في الطابق الأخير تحت السقف الصفيح. غرفتي الجديدة لا يزال لها حمام خاص... ولها شرفة صغيرة نصف دائرية جميلة تنفتح على حديقة الكنيسة ومقبرتها الصغيرة، ولم تكن سيئة. إذا رغب قلبك، فبإمكانك أن تجلس في الشرفة وتتجمد» (ص١٢٩).

ولعل أطرفها حديثه عن دعوة قاسم يزداني إياه على العشاء. وقاسم يزداني طالب يحضر للدكتوراه في الكيمياء، مؤمن فقير يهتم بشأن ثريا كثيراً حتى ليظنه خالها يعشقها:

* «لأن المطر انقطع، أقترحُ أن نخرج فنتناول عشاءً مختصراً. يشكرني ويقول إنه ينبغي أن يقيم صلاته ثم يكمل كتابة تقريره المختبري. يقول إنه يأكل عشاءً مختصراً في البيت. ليس عنده ثلاجة، وليس في غرفته خوان ملابس أو صندوق. لا أستطيع أن أحدس ما يقصده بـــ«عشاء مختصر في البيت» ــ إلا أن يكون يغلي أكياس الشاي المستعملة، التي يتركها تجف، مرة أخرى ويتناولها مع (گز)[٣٤] أصفهان. إنّ تصورَّ بأنه سيتلفن إلى ماكسيم[٣٥] ليجلبوا له عشاء لهو جنون». (ص١٩٣).

وتأتيه ليلا ذات يوم تتفجر غيظاً فاقدة الأعصاب. تعطلت سيارتها فتطلب منه أن يقودها لها. يفحصها فتسأله:

* ــ «كيف وضعها؟». ــ «عال!». ــ «مُشين». ــ «كيف جئتِ بها، يا بنية؟». ــ «أوضعها سيئ تماماً؟». ــ «تحتاجين أولاً إلى بنزين وماء ودهن على وجه السرعة. كل ما هنالك أن شمعها لا يولد شرارة، مولّدها لا يولّد، مبردة هواء محركها لا تبرد، وحارقة وقودها لا تحرق. بطاريتها هابطة فهي، لذلك، لا توصل كهربائية. فيما عدا ذلك وضعها ممتاز» (ص٢٣٦).

والكاتب لا يهمه أن يمازح الموت نفسه، فعباس حكمت:

* «تزوج أرملة نمساوية ألغي دفتر نفوسها في حادث سيارة» (ص٢٥٢).

ومع ما ذكرناه من أمثلة، فالكاتب يكرر نفسه مراراً:

* ففي وصفه لشركات نقل الركاب التعاونية يقول: «في كل زاوية أطلعت شركة رأسها من الأرض مثل فطر بعد ليلة ماطرة» (ص٢).

* والغرفة التي انتقل إليها في فندق (بالما) «أكبر كثيراً من حجرة التلفون». (ص١٢٩).

ومن المآخذ التي يحسها القارئ أنه لا يفهم بأية لغة يدور الحوار في باريس: فنصف كلام الفرنسيين يدور بالفرنسية ــ ويترجمه الراوي جملة جملة ــ ونصفه الآخر بالفارسية!.

وسلوك الراوي يبدو غير مقنع. فهو حريص على عدم إخراج أموال من إيران، وهو لا يرمي جواربه جانباً بعد أن وجد فيها ثقبين جديدين. (ص١٥٥).

* *

تبقى المسألة المهمة هي ما الذي يريد الكاتب قوله.

صحيح أنه يتظاهر بموالاة الثورة، وراويه حريص على اقتصاديات البلاد، وهو يدين إلى حد ما مغادرة إيران والإقامة خارجها، وتعجبه القصص

«الثورية» و«الجهادية» التي تنشر لكتّاب مبتدئين في نشريات مؤسسات الثورة أو تقرأ من إذاعة طهران، إلا أننا لا نستطيع الكف عن التفكير في المسكينة ثريا التي تنام طزيحة فراشها في غيبوبة تامة بالمستشفى ثم تموت أخيراً، ولا ننسى أن ثريا عرفناها في «ألم سياوش» وكان واضحاً أنها إيران ذاتها، أو «رؤيا إيران» في الأقل!

**٦ ـ شتاء ٦٢(*)**

مرة أخرى يكلَّف جلال أريان، موظف شركة النفط المتقاعد، بمهمة هي هذه المرة البحث عن ابن خادمه، الذي نعرفه أيضاً: مطرود، المدعو إدريس الذي فُقد في أوائل الحرب العراقية ـ الإيرانية.

يتعرف جلال في مركز الشرطة في طهران على دكتور في الكومبيوتر، قادم لتوه من الولايات المتحدة، أُغري بالعمل في (أهواز) لتأسيس وإدارة مركز كومبيوتر (ص ص٩-١٠)، ولما كان جلال ذاهباً بسيارته إلى (آبادان) فهو يعرض على القادم الجديد: الدكتور منصور فرجام، أن يوصله معه.

يصطدم القادم منذ اللحظة الأولى لوصوله أهواز بضعف التخطيط والتنظيم، بالروتين، بالوعود والتعهدات التي لا تعدو أن تكون ثرثرة فارغة.

فطهران ترسله إلى فندق حجزت له فيه حجزاً «مؤكداً» غرفة، إلا أن الفندق يعلمه أنه ليس فقط لا حجز له ـ مؤكدا كان أو غير مؤكد ـ وإنما لا إسم له أصلاً (ص١٢)، ثم يهمله موظف الفندق وينصرف إلى عمله، بحيث لم يبق أمامه وأمام مرافقه إلا «تصوير الإمام الخميني بالحجم الطبيعي الكامل وهو يلوّح لنا بيديه» (ص١٥)، فيفهم جلال أريان أن فرجام «جاء إلى مكان هو ليس

(*) ترجمها محمد علاء الدين منصور باسم «شتاء ٨٤»، وأصدرها المجلس الأعلى للثقافة في مصر، ضمن مشروعه القومي للترجمة، تحت الرقم ١٩٥.

مكانه، ولا فرصة له فيه» (ص١٦)، فيلجأ إلى صديق له، طبيب مقيم في أهواز، يدعوهما إلى بيته حيث يذهبان لقضاء الليلة على أن يتابع كل منهما عمله في الصباح التالي. وهو يوضح لهذا الطبيب:

«صديقي العزيز الدكتور فرجام، دكتور في الكمبيوتر، وحيد، واصل لتوه من أميركا. تقرر أن يعمل مدة لشركة النفط الوطنية الإيرانية. هنا أقيم له استقبال حار مناسب من قبل إدارة أمور سفر وتجهيز العاملين... فرشوا له سجادة حمراء، وأي فرش!» (ص١٧).

والطبيب المقيم في أهواز:

في سنوات مضت كان يعتبر نفسه حتى اشتراكيا. كان قارئ كتب ومن أهل الهوى والأدب. في زمان ازدهار الكتاب والشعر والمسرحيات، في عهد الشاهنشاه آريامهر، كان الدكتور قد كتب ثلاث مسرحيات أو أربعاً وقصة قصيرة، أُنتج عن إحداها فيلم، وحصل على جائزة أيضاً. ولكن ذلك الزمن انتهى الآن، أما عمل طبابته فهو يمارسه حتى بعد تقاعده أيضاً. إنه ـ كما يقول ـ «ممنوع القلم، ولكنه ليس ممنوع السماعة...» (ص١٨).

وهذا الطبيب ساخط، ولكن بهدوء، على الوضع. فعندما يقول له جلال آريان في الهاتف إنهما في فندق «فجر» يسأل: ـ «زجر؟» (ص١٧). وكانت هذه لازمة لا لأعداء الثورة فقط وإنما لكل الساخطين على النظام الجمهوري ومؤاخذيه وحتى من لا يحبونه لأي سبب. وهو يحدث آريان عن إحدى معارفهما المشتركة فيقول: «... كانت في البدء تدير لهم[٣٦] الكومبيوتر. ولكن لأنها إمرأة، فأنت تعرف الباقي خيراً مني. ولكن هذه كانت في زمان الشاه أيضاً مؤمنة ذات شخصية، ورصينة...» (ص٢٧). ولكن زوجها أعدم، بتدبير مبعثه سوء الطوية والأغراض الشخصية «والآن أيضاً ممنوعة من مغادرة البلاد بسبب زوجها» (ص٢٨). و«حاول بعض السيئين عدة مرات طردها من العمل. كان ثمة حاج اسمه أبو غالب

يحفر لها كثيراً. تقاذفوها في كل الإدارات من هذا الطرف إلى ذاك. ويمكن أن يطردوها أخيراً. لو لم تكن ممنوعة الخروج لسافرت. آذوها كثيراً» (ص٢٩).

وتقيم هذه السيدة، مريم جزايري، حفلة عيد ميلاد، تدعو إليها آريان ورفيقه فرجام بناء على توصية من الطبيب (الدكتور يار ناصر). يحدثها آريان عن عمل الدكتور فرجام المزمع قائلاً:

[طلبوا منه أن يخطط وينفذ ما يلزم لإقامة مركز تعليم ولغة فنية وتكنيكية، مرتبط بمركز التعليم الحرفي والفني للشركة، وإلى جانبه مركز لتعليم علوم الكومبيوتر الجديدة. فيسأل الدكتور يار ناصر مازحاً:

ــ «باللغة العربية[٣٧] أم الإنكليزية يا دكتور؟» (ص١٦)]. ثم:

[كان الدكتور يار ناصر، المبهوت بحديث ومشاريع ومُثُل منصور فرجام قد سحب نفساً عميقاً وغار في كرسيه عميقاً:

ــ «يا سيدي الدكتور، أتظن السادة الأخوة يمكنهم أن ينفذوا كل هذه الأمور عملياً؟...» فيقول منصور فرجام:

ــ «ما من سبب يجعلهم لا يفعلون. أنا أدلهم على الطريق، ولديهم القدرة المالية اللازمة للتنفيذ...» فيسأله الدكتور:

ــ «هل استقروا؟ هل لديهم التخطيط والتنسيق والقوى الإنسانية اللازمة؟»..

ويتنهد الدكتور يار ناصر تنهيدة أخرى] (ص ص٦٤-٧٥).

والدكتور يار ناصر يعبر عن رفضه لواقع الحرب على النحو التالي: ننه بو شهري (خادم السيدة مريم شايان جزايري) استشهد أحد أولادها، وأسر الآخر، والثالث أصابه الجنون نتيجة لموجة انفجار، وهاجر إثنان آخران منهما إلى الكويت والأخير «في جبهة سومار، أو في مكان ما، نائم في موقع» (ص١٧).

أما جلال آريان نفسه، فرغم أنه يغازل الثورة والنظام الجديد، كأن يقول مثلاً:

١ ــ «إنها الحرب... وقعت مصائب على رؤوس آلاف الآلاف» (ص ص ١٠٤-١٠٥).

٢ ــ ومع وجود الحرب وشدتها في جنوب غربي البلاد، فهو يقول:

«ولكن طهران، والشمال، عملياً، لم تصبهما حمّى الحرب» (ص١٣٧). و:

٣ ــ «إن الكلمات والمفردات (في وصية إدريس ابن خادمه) هي عينها التي سمعتها حتى الآن آلاف المرات هنا وهناك، ولكنها تستقر في الفؤاد. إن الكلمات والمفردات المقدسة، هي أيضاً مثل الذين يستعملونها، ترتفع حرمتها وشرفها أو يهبطان. عندما تسمعها من قلم أو فم شخص تحبه يختلف الأمر. إذ يمكن أن تضحك، كما يمكن أن يغلبك البكاء» (ص٢٤٨).

إلا أنه سرعان ما يرد على هذه العبارات الملطّفة. فيلحق قوله(١ أعلاه) بالقول: «إن كان للنظام دماغ فإنه لا يطرد القوى التي مثلك: متخصصة ومؤمنة... ولكنك، بالله، لم ترتكبي مخالفة!... إنك مثال للمرأة المسلمة الفاهمة المجربة. إن أمك، السيدة الدكتورة جزايري، هي التي تخلت عن جنسيتها الأميركية من أجل حبها الثقافة الإسلامية، والشرق، والعمل في إيران، وحضارة إيران. هنا بالذات عملت، خدمت، توفيت. وأنت أيضاً لا تثريب على شخصيتك وثقافتك. وعندك تخصص في الكومبيوتر أيضاً. فماذا يريدون بعد، إذاً؟...» (ص١٠٨). كما يرد هو نفسه على القول (٢) بعده مباشرة: «طبيعي أن أهالي طهران، في حياتهم هذه الأيام، لا يمزق أمعاءهم الضحك سروراً. إنهم أيضاً، كالآخرين، ينتظرون ــ على نحو ما ــ شيئاً... ويشكروُن الله. إن أهالي طهران يشكرون الله دوماً: «بابا، الآن حسن». إن انقطعت الكهرباء

ساعتين يقولون: بابا، الآن حسن أنها تنقطع ساعتين. وإن انقطعت أربع ساعات يقولون: بابا، الآن حسن أنها تنقطع أربع ساعات فقط. وإذا انقطعت تماماً يقولون: بابا، الآن حسن أن ثمة نفطاً. إنْ لم يكن ثمة نفط يقولون: بابا، الآن حسن أن ثمة فحماً. إن رفسهم أحد في عمودهم الفقري يقولون: بابا، الآن حسن أنهم لم يضربونا على رأسنا. وإذا ما رفسوهم على رأسهم يقولون: بابا، الآن حسن أنهم لم يرفسونا في بطوننا... يشكرون، ويقضون الزمان في البلد الإسلامي» (ص ص١٣٧ ــ ١٣٨).

كما نجد الجواب على القول (٣) في قوله: «في هذه الأيام يعود كل شخص، في إيران، من قبر أحد ما» (ص١٥٠).

ولكنه يدخر التعابير القاسية لانتقاده للأوضاع، ولا يحاول بأي شكل من الأشكال التلطيف من حدتها: كانتقاداته المتتالية للأوضاع الإدارية في شركة النفط وتأسيساتها في ص ص٣٥-٣٦، وتنبيهاته المستمرة، سؤالاً وتقريراً، للدكتور فرجام أن يستحصل التوقيع على عقد استخدامه ولا يكتفي بمجرد الأقوال (ص ص ٣٩-٤٠)، (ص ص١٥٦-١٥٧) و(ص١٧٤).

وعندما يسأله الدكتور يار ناصر: ــ «أذهب رفيقنا إلى العمل؟» يجيبه:

ــ «أوصلته بنفسي فوضعته بين العلق» (ص٤٨).

وهو يصف العلاقات اليومية بين الرجل والمرأة على هذا النحو:

ــ «يقبل الدكتور يار ناصر رأس الطفلة آذر ويبارك لها عيد ميلادها. انتهى... لا يمد يده لمريم شايان، لأنه يبدو أنه لم يكن ثمة تقليد كهذا. ثم يقدمني والدكتور فرجام، ولا نمد أيدينا نحن أيضاً، لأن نظرة واحدة تعلن بشكل مطلق أن مَسَّ يدَ هذه المرأة أمر يخص المحارم فقط. و:

«في الممر الطويل للطابق الثالث ـ الذي تشكو أرضيته، المعدَّة من لينوليوم خارجي، ما أصابها ـ حركة مستمرة للأخوة الملتحين المرتدين جاكتات شبه عسكرية، وأحياناً للأخوات المرتديات السواد، المحجبات حجاباً إسلامياً محكماً شديداً يتسللن من هذه الغرفة إلى تلك وينتظرن مصعداً كتب في أعلاه:

[خاص باستعمال الأخوات]» (ص٣٧).

ومريم الجزايري:

«حافظت على حجابها في البيت أيضاً، ولكن لا بذلك الشكل والشمائل الشديدة المحكمة الموميائية في المبنى ذي الطوابق الأربعة» (ص٧٠). وعندما يزور الراوي الدكتور فرجام في محل عمله، لا يدلّه الحارس على مكانه بل يحيله على (آقاي فارسي) فيذهب إلى هذا ليجده مد سماط الغداء، ولكنه وقف يصلي أولاً. ينتظره ثم عندما يفرغ: [أقول: ـ «أعتذر عن إزعاجك وقت الصلاة والغداء».

ـ «لا، تفضل، أيها الحاج. أمرك؟» وينظر إليّ بسوء ظن. ثم يسأله هذا الفارسي: [ ـ «تعمل في شركة النفط؟» ـ «متقاعد». يروزني، ويقول ضاحكاً: ـ «لا تشبه المتقاعدين». يتخذ، بذراعين مفتوحتين، وضعاً رياضياً: ـ «ما شاء الله، الهيكل نشيط. أنت طلبت الإحالة إلى التقاعد؟»

ـ «إلى حد ما». فيضحك: ـ «اشتُريت خدمتك؟». إنه ليس بليداً] (ص ص٩٨-٩٩).

يعني: أنه فهم أن الراوي مطرود في التطهير.

ويعني: أن خدّام النظام الجديد بليدون.

وليس هذا فقط:

«وقد خرج فارسي أيضاً الآن من غرفته، فوقف إلى جانبنا يتسمع. يبدو أن أي تردد أو حركة لا يغيبان عن ناظريه» (ص٩٩).

ومن جهة أخرى، فقد:

«تم عقد مقاولة بناء الصالة، ولكن المعول والمسحاة، في الوقت الحاضر، هما وحدهما العاملان» (ص١٢٧). و: يتحدث فرجام «عن تقدم ــ أو بالأحرى تأخر الأمور في المركز... إن معادلة المركز العجيبة لا تزداد إلا مجاهيلها بمرور الأيام دون أن تأتي الأجوبة» (ص١٧٣). وتتصاعد لهجة الانتقادات عند الحديث عن وضع المرأة في المجتمع الجديد:

«... ربما في تلك اللحظة التي دخل فيها الأخ مفتش إدارة المخالفات والانضباط فرأى أن غطاء رأس الموظفة انزلق قليلاً إلى الوراء، ربما في تلك اللحظة ذاتها كانت المرأة قد مدت يدها لترفع ستة أضابير صندوقية عن خوان الأرشيف، أو ربما كانت في ذلك الوقت مضطربة تتساءل عما تسبب في تأخر عادتها الشهرية... عسى ألا يكون السبب، مثل أمها، سرطان الرحم. لمجرد انحسار غطاء الرأس قليلاً إلى الوراء لا ينبغي سلب حق العمل والحياة الاجتماعية من المرأة. لمجرد أن امرأة متخصصة ومجربة نسيت في أثناء الامتحان الأيديولوجي الفرق بين الغُسل الواجب عند الاستحاضة القليلة والاستحاضة الكثيرة يجب أن لا تحرم من مركز أخصائية كومبيوتر» (ص٣٧٢).

وفي استطراد صديقه ضابط الشرطة، في الحديث عن الدكتور فرجام، ينقل جلال قول هذا:

ــ «حتى إذا لم يكن مجنوناً، فسيجنّنونه هنا» (ص١٥٢). وعندما يسأل هذا الضابط إن كان يعرف المدعو (أبو غالب) يجده «يعرف السيد غالب الزركاني جيداً. يقول إنه خطر، ومع أنه خارج المسرح الإداري رسمياً، ولكن له

ارتباطات ببعض المراكز مما يجعله بذاته ذا نفوذ. وقال إنه لا يزال عنده محافظ شخصي وسيارة نيسان باترول مع سائق وحرس» (ص١٥١).

وترتفع هذه اللهجة المريرة إلى حد السخرية السوداء في ذكر معاملة بيروقراطيي النظام للدكتور فرجام، وبعد استشهاد هذا، يقول الراوي عن غسله وتكفينه: «لا أتذكر قط أن منصور فرجام لقي طوال سفره إلى أهواز هذا القدر من النظافة والاهتمام والاحترام في التعامل...» (ص٣٨٧).

* *

مريم شايان ـ جزايري، كما يتضح من النتف التي أوردناها سابقاً، بنت لطبيبة أميركية وطبيب إيراني، متخصصة في الكومبيوتر، موظفة قديمة في شركة النفط، ملتزمة ورصينة محجبة منذ ما قبل الثورة. يعدم زوجها ـ ذو الارتباطات الشكلية بالنظام القديم ـ أو يُغتال في الواقع بصورة تآمرية، فتتعرض هي لضغوط في عملها ويسحب جواز سفرها، ولها ولد يدرس في الخارج ـ منذ الابتدائية ـ لا تستطيع رؤيته.

وهي أكثر الجميع مرارة ونفاذا في نقدها للأوضاع السائدة (ص١١٥) (ص١١٦). وهي واسعة الأفق دقيقة الأحكام. فبعد أن يقول لها الدكتور يار ناصر إن الدكتور فرجام جاء من أميركا ليقوم بالتدريس وتأسيس مركز لتعليم الكومبيوتر تقول:

[ ـ «يتطلب هذا الأمر شجاعة وتضحية». يبتسم منصور فرجام، ويقول لمريم شايان: ـ «يا سيدة، أرجوك أن تعتبري كلام السيد الدكتور مجرد Compliment(٣٩) فقد جئت إلى إيران لرؤية أمي...». ـ «أين أمك؟ هنا؟» ـ «لا، في شوشتر. طلبت مني أن أبقى في إيران زمناً. أن أشتغل... ولهذا فأنا هنا». وتقول مريم شايان: «أنا واثقة أن عقيدتك وهمّتك مقدستان». (ص٧١).

والراوي قد تزوج مريم رسمياً، وعند وداعهما وهي تذهب إلى طهران تهيؤاً لسفر الخارج [تتناول مريم في اللحظة الأخيرة يدي. أتصور لمدةٍ ثانيةٍ أنها تريد أن تقبلني. ولكن سنوات من كونها إمرأة إيرانية جيدة، وخاصة سنوات الجمهورية الإسلامية، علمتها أن تكتم أحاسيسها الداخلية عن الأنظار العامة. تكتفي بأن تقول: «متشكرة»] (ص٣٤٧).

* *

أما منصور فرجام، فواضح أنه هارب من شيء في أميركا. وإلا، فليس ثمة عاقل ــ خالٍ من أي تفكير سياسي أو التزام فكري ــ يترك الحياة السهلة، المرفهة مادياً، في الولايات المتحدة، ليأتي إلى بلاد ترتب أمورها بعد انتصار ثورة هو لا يفهمها ــ إن أردنا ألطف تعبير ــ ثم تفاجأ بهجوم كاسح لابد أنه شاهد أبعاده على شاشات التلفزيون الأميركي قبل مجيئه! وهو لا يكتفي بأن يجيء إلى إيران، بل عندما يعرض عليه العمل في أهواز ــ وهي إحدى الأهداف الثابتة للهجمات العراقية المختلفة وإحدى أهم مراكز تجمع القوات الإيرانية وخدماتها اللوجستية ــ يقبله ببساطة

ووضعه هذا ظاهر للعيان. فضابط الشرطة، صديق جلال، يسأل هذا عنه:

[ ــ «أليس عاشقاً؟». ــ «الذي أدريه فقط أنه غير مجنون» (ص١٥٢)]. وشيئاً فشيئاً يفهم الراوي من أم فرجام أنه كان يعشق فتاة أميركية، وكان على وشك الزواج بها بعد انتهاء دراستها عندما ماتت في اصطدام سيارة. (ص٢١٨).

وهو يحس بالعراقيل والتأخيرات البيروقراطية. فعدا أن عقد استخدامه لم يوقع، فهو لم يتسلم أجراً ــ ولو على الحساب ــ حتى استشهاده. وهو لا يستطيع هضم الموقف من المرأة. ففي الحديث عن وضع السيدة مريم في العمل، يسأله جلال:

[ ــ «ألم نتفق على أن تتحدث أنت فينقلونها إلى قسم تعليم الكومبيوتر؟».

ــ «من يسمع الكلام. عندما يأتي حديث استخدام النساء وتدبير شغل تعليمي معتبر لهن، فالجميع يديرون رؤوسهم إلى الطرف الآخر».] (ص١٤٤).

وعن كيفية تدبير سفر مريم يقول فرجام:

ــ «أية أمور ينبغي أن تتحملها المرأة الآن...» (ص١٥٥).

وهو يرى فتاة من منسوبات السيدة مريم جزايري في حفلة عيد الميلاد التي ذكرناها، اسمها (لاله)، هاجر كل أهلها ولم يبق في إيران إلا أمها العجوز المريضة. ونفهم بالتدريج أنها عاشقة لشاب هو بين حضور الحفلة أيضاً، فرشاد، الذي أنهى دراسته الإعدادية وسيق إلى الخدمة العسكرية، والمفروض أن يلتحق بوحدته في هذه الأيام. تموت أم لاله، فتقرر الدائرة المحيطة بجلال آريان عمل كل شيء لتسفيرها إلى الخارج، ولما كانت مشكلتها مالية، فمنصور فرجام يتطوع لتقديم المال، إلى قريبها ــ أحد حضور الحفلة أيضاً ــ الذي يأخذه ويهرب به.

* *

في مجرى الأحداث يعثر جلال آريان على إدريس مطرود، ولكن قبل ذلك يُعْرَضُ عليه عمل موقت فيقبله لتزجيه الوقت ولأن أجوره مغرية (ص ص ١٠٤-١٠٥). ونظراً لبقائه شهوراً في أهواز ترجو مريم أن يفعل شيئاً، إن كان بمقدوره، بخصوص جواز سفرها المسحوب (ص١٠٩)، ويقترح عليه الدكتور يار ناصر مرة، وهو وزوجته مرة أخرى، أن يتزوج من مريم لتتمكن ــ لوصفها زوجته ــ من الحصول على جواز سفر. يستبعد جلال آريان الموضوع أولاً تماماً، ثم يعد بالتفكير فيه (ص ص١٦٨-١٦٩)، ولكنه يطرحه

هو فجأة على مريم. (ص١٩١). ويبدو موقفه غير مقنع، والكاتب يدرك ذلك طبعاً، ولذا فلا مسوّغ له عنده: «أنا أيضاً لم أكن أريد الاندماج في حياة مريم» ولكن: «في هذا الوضع القلق، ثمة أمور تتطور فجأة مثل غدة سرطانية في المخيخ. أن يصير المرء مجنوناً أو معلولاً أو شهيداً في كفة، والجنون الصامت في كفة أخرى» (ص٢٦٥).

ويتزوج مريم. ولكنه لا يمسها: مع أنه معجب بها، وهي حليلته، ويحس بحاجتها إلى مشاركة إنسانية. فهي تستغل حفلة تقام في الفندق الذي يحل فيه، دعيت إليها، فتتسلل إلى غرفته (ص ص٢٧١-٢٧٩)، ويقضيان بعض الوقت معاً، وتعرض نفسها عليه، إلا أنه يرفضها:

[ ــ «ليس الليلة». ــ «لِمَ؟». ــ «ليس هنا». فتتنهد: ــ «حسناً»].

ويبيتان ذات يوم في بيت قريبة لمريم استعداداً لسفرها في اليوم التالي إلى طهران، فتأتيه مرة أخرى متسللة في ثياب النوم، وتنام إلى جانبه في فراشه، ولكنه لا يضاجعها، بل ولا يغازلها، مع إحساسه بحاجتها الشديدة إلى مشاركة عميقة (ص٣٣٥).

* *

يتواطأ الدكتور فرجام مع فرشاد على خطة يدبرانها بليل، ولا نعرف بها إلا في الصفحات الأخيرة من الرواية. ولا ندري أكان الموضوع بالنسبة لفرجام انتحاراً أم شفقةً ــ حد التضحية بالنفس ــ على لاله وفرشاد، أم تعويضاً عن حبه المفقود، خاصة وأن لاله تشبه حبيبته المتوفاة، وخاصة أنه لا يسعفنا في إدراك ذلك، فهو يقول في رسالته ــ وصيته: «ليس ثمة منطق ولا سبب. ليس إلا عشق الموت. أو موت العشق...» (ص٣٦٤)، إلا أنه سرعان ما يضيف: «في التحليل الأخير... أنا محظوظ، إذ اتخذت الأحداث ــ في الظروف الراهنة

ـ منحى أمكنني أن أجيء إلى هنا، وفي هذا الزمن العسير... في هذه التجربة العظيمة، يمكنني أن أحصل على سهم» (ص٣٦٥).

يتفق الدكتور فرجام مع فرشاد على أن يحل محله في وحدته العسكرية، بينما يحل فرشاد في السيارة الذاهبة إلى طهران بمريم ولاله، للسفر إلى الخارج! وتشاء المصادفات أن تُضرب السيارة العسكرية التي يقودها فرشاد (أي منصور فرجام) لحظة وصولها إلى هدفها فيستشهد فرشاد رسمياً.

ويسارع جلال ـ الوحيد الذي يدري بالموضوع ـ بمساعدة الدكتور يار ناصر إلى تسلم الجثة ونقلها وترتيب غسلها ودفنها دون أن يحس أحد بما حدث. ولا نحس نحن القراء بذلك أيضاً إلا عبر تلميحات. فعندما يعاين الجثة قبل تسلمها: «أذهب إلى رأسه فأنثني. في ساعده الأيسر ـ الذي خرج من كمه الممزق، وبقي في هذه الحادثة سليماً ـ أثر جرح قديم. أثر جرح أبيض لماع وطويل ومستطيل الشكل، بطول سبعة أو ثمانية سنتمترات، تحت المرفق، هو الذي لمع ذلك اليوم تحت شمس آبادان الساطعة» (ص٣٦١) فذاك الجرح كان رآه على يد فرجام، وهو لم يكشف عن ساعد فرشاد قبلاً. ولكننا ننسى هذه التفاصيل التي مرت قبل عشرات الصفحات، ولا نلحق حتى أن نتساءل كيف احتل فرجام مكان فرشاد في وحدة عسكرية شديدة التعليمات منضبطة ـ لا حرس ثوري ولا قوات تعبئة كلاهما ضعيف الانضباط ـ خاصة قرب الجبهة، لأن السرد في خضم هذه الأحداث يخطف أنفاسنا ولا يدع لنا فرصة لإمعان الفكر.

«إنه (الدكتور يار ناصر) لم يكن يعرف بعد. إنه ينبغي أن لا يعرف والسيدة جزايري لا تعرف. لم يطاوعه فؤاده أن ينظر إلى ذلك الوجه الكابوسي. لم أدعه ينظر. كما أن صديقه (صديق فرشاد)... لم يكن يعرف أيضاً. لم أدعه أيضاً ينظر إلى وجهه. لم يكن إقناع الدكتور أمراً يسيراً. دكتور،

يا دكتور، عندي رجاء، برجاءٍ قلبيٍّ لا تنظر إلى وجهه. اسمح فقط بأن يُصدر الطبيب الخافر جواز الدفن. حباً بالله، لا تنظر إلى وجهه. قام الدكتور بالإجراءات اللازمة. واتفقنا على أن يجري تشييع الجنازة صباح الغد...

ربما أصيبت مريم بالدوار نتيجة التغييرات الحالية فأرادت أن تؤجل سفرها. ربما سيذهبون رغم كل شيء، فثمة فوضى شاملة. المسكينة مريم... ما ذنبك؟ أية تعقيدات وعذاب في اللحظات الأخيرة. إنك لا تدرين أنه كان ثمة ميعاد في الليلة الأخيرة بين لاله وفرشاد ومنصور فرجام. ولا يمكنك الآن أن تتكلمي معي لأن الأمر ينطوي على خطر الموت. أوه، مريم، يا مريم، لا تحاولي. لا تنظري إلى وراء، ولا ترتبكي. لا ارتباط لهذا الموضوع بك. إذهبي، خذي آذر وارحلي، أي سر أسود سيء وقبيح ومرعب ينبغي أن يصير من قسمتك في اللحظات الأخيرة من حياتك وإقامتك التاريخية في هذه البلاد...

«إنْ فهم أحدهم الليلة فجأة، في مستشفى جنديشابور، بالأمر فما سيقع، أُلقي القبض على جندي، من جبهات إيران في أهواز، في مطار مهرآباد[٣٩] بجواز سفر زائف وتأشيرة دخول أميركا. مرافقاته: لاله جهانشاهي ومريم آريان وآذر شايان جلبنه بسيارة مستأجرة من أهواز إلى طهران. كم يستغرق الأمر حتى تُعْرَفَ «الحقيقة»؟ عندما تعرف الحقيقة، بم سيحكمون على هؤلاء؟...» (ص ص٢٦٣-٣٦٣).

بعد الغسل والدفن يزور جلال آريان المركز لإلقاء النظرة الأخيرة وليعيد كتاب «في انتظار غودو» ليضمه إلى أغراض الدكتور فرجام، علهم يرسلون أمتعته ذات يوم إلى أمه (ص ص٣٩٥ ــ ٣٩٦).

ولا ندري إن كانت القافلة قد غادرت إيران أم لا، كما لا ندري إنْ كانت «الحقيقة» ستنكشف أم لا. ولكننا نرجو ألا تنكشف قبل رحيل القافلة!

* *

في هذه الرواية، تتجلى خصائص أعمال فصيح السابقة:

ففي أول سطر من أول صفحة نطالع: «أوائل شهر دي ٦٢ (= أواخر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٣)». ويتكرر ذلك في ــ ص١٤٦، كما يكرره في ص ٢٢٨ بقوله: «قلب الشتاء وعنفوان تشديد (حرب المدن) سنة ٦٢».

ومنذ البدء أيضاً نعرف مكان الأحداث: أهواز (ص٥).

ونجد أيضاً المعرفة الخبيرة بالأدوية، يضاف إليها هنا معرفة خبيرة بالكومبيوتر كما نجد «مراسم» قراءة كتاب تتخلل أحداث الرواية، فجلال يأخذ «في انتظار غودو» من الدكتور فرجام في ص١٢٤، ويبدأ قراءته في ص١٢٥ ليعيده إلى أمتعة الدكتور الشهيد المجهول في ص ص٣٩٥ ــ ٣٩٦.

والراوي جلال آريان، كما عرفناه، يهتم بالأكل، بحيث أنه:

«لم أتعش، نسيت. وهذا بحد ذاته رقم قياسي عالمي لجلال آريان» (ص ٣٦٧). وهو يتذكر صديقه في «الشراب الخام» ويشير إليه (ص٢٣١). ولكن لا ذكر هنا لعمله في شركة الأدوية.

* *

والكاتب يعتمد على المصادفات كثيراً في استكمال حبكته، ويخدمه الوقت تعسفاً كما في رواياته السابقة، ولكن المصادفة الموصوفة في ص١١٧ فجة سمجة بلا جدال! فهو يبحث عن وسيلة لحل مشكلة سفر مريم، ويتذكر أنه كان له صديق بين ضباط الشرطة قبل سنوات، في شرطة المرور، ويسعى للبحث عنه عله يساعده في ذلك، فلا يكتشف أنه موجود فقط، وإنما منقول أيضاً للعمل في إدارة الجوازات!

* *

سرد الكاتب ووصفه متألق، كما عهدناه سابقاً، والأمثلة كثيرة:

«... ليس للدكتور فرجام أدنى شخير أو صوت تنفس. إنه نائم بهدوء ونظيف ومرتاح، أو هكذا يبدو. لابد أنه في (سنت بول مينيسوتا)، في شقة... في غرفة فيها سرير نوم دائري أنيق، مشغول بالمذاكرات في الفراش ــ مع حورية شقراء زرقاء العينين ــ بشأن تأسيس مركز تعليم الكومبيوتر على مشارف مدينة أهواز» (ص ص٣٣-٣٤)، وفي وصفه للبيت الذي احتله (أبو غالب): «.. أشجار الصفصاف النوّاح والسرو منتشرة بشكل هندسي بديع في أطراف البستان. ولكن لا خبر عن الورد والعناية بالورود. كما استحالت الساحة والمرج إلى أرض يابسة مزحومة بالعلف اليابس...» (ص٩٦). وعن ضابط الشرطة صديق آريان:

«لو لم يكن مرتدياً بزته الرسمية ما كان بالإمكان أن أعرفه. لم أره منذ اثنتي عشرة سنة. الرائد كمال تقي زاده الإيراني ــ بوجه وبدن حائليْ اللون وشعر أبيض وشاربين أشهبين وبزة عمل. لا أثر من زينات وأشرطة الضباط الكبار في القوات المسلحة وشرطة الجيش الإمبراطوريين. متعب مترب مهلهل، أكثر شبهاً بمأمور صندوق مقبرة عاد هو نفسه من قبر آخر مواطن مجهول بعد حملة الإسكندر...» (ص١٥١). ولعل الذروة التي تسبق المقطع الذي قدمناه عما تلا تغسيل الشهيد فرجام، هي وصف الكاتب لمدينة آبادان المبتلاة بالحرب:

«إن عروس مدن خوزستان خالية خربة مهجورة، وعملياً، ضائعة... تشبه تماماً عروساً جردوها من ملابسها في منتصف ليلة الزفاف، حلقوا شعر رأسها، اقتلعوا عينيها من محجريهما، سلخوا جلد وجهها تماماً وتركوها وسط الدخان والتراب والضباب ــ أمام كلاب الصيد...» (ص٢٣٤).

كما أن روح الدعابة لم تفارقه. ففي الحفلة التي دعي إليها آريان وفرجام

في أول الرواية في بيت السيدة مريم، كان أحد الأقارب (مسعود) يحاول الاستظراف بتعليقات ساخرة مقذعة، لا تخلو من فحش، على الثورة والنظام ورموزه:

«خفض منصور فرجام رأسه إلى أسفل ثم رفع رأسه بعدئذ وحدق إلى زجاجة الـــ (بيبسي). لابد أنه يفكر أن يقرع بها رأس مسعود حتى تتحطم إلى عدة قطع. ولكنه لا يفعل ذلك، لابد أن ثمة بمقدار عقلة الإصبع في قعر الزجاجة من الحيف تبذيره...» (ص ص٧٦-٧٧). وفي وصفه للبيت الذي احتله أبو غالب:

«... يترامى من داخل البستان صوت بقرة وثغاء خروف وعنزة. فاسأل: [ ــ أيها صوت أبي غالب؟]». (ص٧٩). ويصف فرجام يقدم مالاً لمساعدة لاله على السفر:

«... يقبل الدكتور بانبساط وجه، ويأخذ محفظته الصغيرة ــ التي ترافقه دائماً مثل إصبع سادسة قد تورمت ــ ويلحق بلاله» (ص٩٣). وعندما يسمع صوت إطلاق النار وهو يتمشى مع فرشاد ذات غروب، يقول له:

«... من الأفضل أن نذهب سريعاً، وإلا فسنذهب كلانا الليلة إلى إحصائيات أخبار الساعة السابعة والنصف...» (ص٢٣٦).

* *

وقبل الانتهاء من هذا العرض لابد لي من الإشارة إلى التطور الواضح في أسلوب الكاتب، الذي يتجلى، عندي، في هذه الرواية في مسألتين:

١ ــ تطور لغة السرد والوصف كما لابد ولاحظ القارئ من النماذج التي استعرضناها.

٢ ــ التأني في طرح شخصياته، ووصفها وتحليلها بروية على مدى صفحات طويلة، وتشجيع القارئ على اكتشافها بالتدريج، وبعد أن يتصور القارئ أنه عرف كل ما يتعلق بها، يجابهه الكاتب بمفاجأة تختلف عن الكثير من تصوراته، «كما رأينا في شخصية منصور فرجام خصوصاً.

## ٧ ــ البازي والأبوام

جلال آريان مرة أخرى، ومرة أخرى ينجرّ إلى موضوع لا يخصه فينغمر فيه حتى الغرق! مرة أخرى هو موظف في شركة النفط (ص٦)، وهو مريض، ثم تصطدم السيارة التي تقله فيصاب بكسور، فيقرر رؤساؤه صرفه في إجازة مرضية طويلة (ص٦). يقرر الذهاب إلى طهران ليقيم في الطابق الأول من بيت يشغل طابقه الثاني أخوه المتصوف، الأستاذ المتقاعد خريج إحدى الجامعات الأميركية، العائد إلى إيران.

في الطائرة يلتقي مصادفة، بفتاة. تعرفه الفتاة فتقتحم إغفاءته وتذكّره بأنها إبنة صديقه (سيروس روشن) (ص٨)، وتسأله عنه!

في اليوم التالي، بعد مراجعة القسم الصحي لشركة النفط في طهران، يناديه أردشير ملك آبادي، صديق وشريك روشن، الذي سبق لجلال أن نصح ابنة هذا بأن تسأله عن أبيها (ص٢٢). ومع أنه يدعي بأنه رأى جلالاً مصادفة (ص٢٢) و(ص٢٣) إلا أننا نفهم أنه خلق المصادفة بعد أن عرف بقدوم جلال إلى طهران من ابنة روشن.

سيروس روشن رسام كان على خلاف قديم مع زوجته التي تستهين به، فيفترق عنها، ولكن أحد مديري وزارة الثقافة والعلوم، الذي يعتبره «بيكاسو إيران الخالد»، يعقد معه اتفاقاً لإعداد لوحات لتزيين الجدران الداخلية لأحد

متاحف الفن الحديثة، إلا أن هذا المدير يتبدل فيموت المشروع، ويكتئب سيروس فيترك كل شيء، حسب رؤية رواية ملك آبادي (ص ص٢٤-٢٥).

تعترف پروين، ابنة سيروس، لجلال آريان بأنها تعشقه (ص٧٧) فيرفض التصديق، وتحاول التحرش به فيتهرب منها، والسبب: «كنت أتمنى لو أنها لم تكن إبنة سيروس روشن. كنت أتمنى أن تكون مطلقة أو أرملة نظيفة... ولكنها كانت ابنة روشن وكنت أنا جلال آريان. كنا قد تكلمنا عن أبيها». (ص٧٩).

تُقتل بائعة المعرض الذي يشترك في ملكيته روشن وملك آبادي وأحمد أفشار (ص ص٥٩-٦٢) الشاعر والكاتب المعروف وزوج أم پروين حالياً. يعثر على جثة القتيلة في بحيرة سدّ كرج. يتهم بعضهم سيروس روشن بالجريمة، ولكن زوجته السابقة تكذِّب التهمة لا حباً به وإنما لأنها تجده «ليس أهلاً لذلك» (ص ص٨٣ و٧٤)، وهي ترى أن القاتل هو أخو الفتاة. (ص٧٨). تأتي جلالَ رسالةٌ من روشن، يقول فيها «الآن، وأنت في طهران، ساعد لكي تتوصل الشرطة إلى معرفة قاتل پوران الحقيقي...» (ص١١٣).

ثم يقتل أخو پوران على مصطبةِ متنزهٍ، مسموماً. (ص١٦٧).

وكالعادة، فجلال آريان بعد أن انحشر في الأمر على غير رغبة منه، بل وحتى من دون رضا، يقول لابنة سيروس: «إن عندي وإياك عملا ينبغي أن ننجزه. لقد انحشرنا في مشكلة المسكين سيروس وما شاكل. أنت نفسك أردت هذا: العثور على سيروس ومساعدته. لا تجعلينا ننسَ...» (ص ص١٨٣-١٨٤).

يأخذ پروين في سفرة إلى بحيرة سد كرج تهرباً من الانفراد بها، وعندما يعود إلى البيت يجد صديقه بهرام مع أخيه. يخرج مع بهرام ليقضيا ساعة لهو، وعندما يعود يعرف أن روشن تلفن يطلبه لأمر مهم في الساعة العاشرة في

فندق قريب، وأن أخاه عرف بذلك من الخادم فخرج من البيت. يتوقع جلال أن يكون أخوه قد ذهب إلى الموعد، فيلحق به (ص ص١٩١-١٩٢).

يتضح لجلال، كما اتضح لأخيه بعده، أن كل رسائل سيروس روشن مفتعلة، لأنها لا تقول شيئاً، وهما يتساءلان لماذا يرسلها أصلاً؟

ويكشف لنا الراوي أن سيروس روشن سبق أن اصطدم بسيارة أصابته بجروح أُدخل على إثرها المستشفى حيث فحصوه جيداً، وشفوه لا من جراحه وكسوره فقط، وإنما من أمراضه التي اكتشفوها عنده: في المعدة، والأمعاء، والمثانة، والخ... ولكنهم، وهذا هو المهم، كاشفوه بسر هائل اكتشفوه في أثناء إجراء التحليلات: «نتيجة لتحليلات أدق، قالوا لسيروس روشن شيئاً لم يكن يعرف به أصلاً. كان سيروس ـ بالولادة ـ عقيماً لا يستطيع الإنجاب...» (ص٢١٣)، ولذلك فقد طلق زوجته، وبعد أن تزوجت هذه من أفشار «ذهب سيروس فنظم وكالة وهب بموجبها كل أملاكه إلى طفليه المزعومين... بوكالة... ملك آبادي وأفشار نجفي مشتركين»، ثم قيل إنه نظم وكالة جديدة ترك بموجبها «كل نقده وممتلكاته» تحت تصرف ملك آبادي ووقعها ثم... اختفى، ويقال الآن إنه سحب من هذه الأموال حديثاً، وباستمرار وبمبالغ طائلة، وهذا أمر عجيب (ص ص٢١٥-٢١٦).

ويزعم ملك آبادي أنه رأى روشن ذات ليلة (ص٢٢٢)، كما يزعم أنه أعد قبل ثمانية أشهر وكالة جديدة ـ الأمر الجديد على الراوي (ص٢٢٤).

كان أخو بروين قد تهجم، قبل مقتله، على الراوي في بيته مما أدى إلى جرح أخيه الأستاذ ، وقد ذهب برفقة عقيد شرطة ـ قريب لصديقه بهرام ـ إلى بيت هذا حيث حذره العقيد من تكرار فعلته. وقد شاهد جلال آريان في الطابق الأول من البيت درويشاً عرف أنه قريب هذا الأخ أو قريب زوجته.

يقرر آريان ــ الآن، بعد هذا التطور للأحداث وازدياد شكه بملك آبادي ــ أن يزور الدرويش، فيفعل. وبذريعة الفأل والرمل يسأله عن سيروس روشن فيعرف أنه كان يدخن المخدرات أحياناً، وأن آخر مرة رآه فيها في هذا البيت كانت قبل نحو ثمانية أشهر، وأن روشن بقي آنذاك طويلاً مع ملك آبادي، بعد انصراف صاحبه أفشار وبائعتهم پوران، وأن أخا پوران بقي عندهما يخدم، فيخرج ويدخل غرفتهما. يقدر الراوي أن ذلك اللقاء كان لتنظيم الوكالة الجديدة. يعرف أنه في تلك الأثناء ترك عشر أو اثنتي عشرة لوحة «عجيبة غريبة» أياماً في ذلك البيت ثم نقلها، أو نقلوها! (ص ص٢٣٣-٢٣٧).

وفي هذه الأثناء تحاصر آذر أفشار (أم پروين) جلالاً فلا يدري ما تريد منه بالضبط. وهو يدهش لصراحتها، إذ تقول له ساخرة: [«.. أولاهما أن پروين وپرويز هما طفلاه (روشن) الجميلان البريئان، والثاني أنني حضرة مريم العذراء»... اجتررت المعنى المرعب لما تلفظت به وما اعترفت به، في ذهني، وكنت محتاراً هل شمّت بنحو ما موضوع عقمه أم أنها علمت بذلك رسمياً، أم لا] (ص ص٢٤٤-٢٤٥).

وقد فهم من دعوتها إياه وحديثها معه أنها تريد صرفه عن ابنتها ليغازلها هي! (ص٢٤٦). ثم تعرض نفسها عليه صراحة! (ص٢٤٧)، وفي أثناء ذلك تقول له:

«لم يكن سيروس امرءاً يكتب سطراً واحداً. لقد عرفته. ثمة حيلة» (ص٢٤٩).

وينبهنا الراوي إلى أن من بين المرات السبع أو الثماني التي تلفنها سيروس روشن لبيته، لم يكن هو موجوداً في أيٍّ منها (ص٣١٧). ثم يتزوجُ جلال پروين (ص ص٣٣١-٣٣٢)، وإذ هو يقضي معها شهر العسل تصله رسالة

يحملها سائق سيارة أمها، مع قصاصة من جريدة. تحوي الرسالة تعزية ــ هي أقرب إلى الشماتة ــ من أمها، وتحمل القصاصة خبر انتحار شخص حرقاً في فندق بمدينة قم، ذكرت الجريدة أن بعض المطلعين قالوا إنه ربما كان له علاقة بقتل أخ وأخته في طهران! وتقول الأم في رسالتها إنها، وملك آبادي، شخّصا هوية القتيل فأيدا أنه سيروس (ص ص٣٥٣-٣٦٠)، ومع أنه وپروين يكذّبان تلك العلاقة، إلا أن پروين تصر على العودة إلى طهران فوراً للتأكد.

عند العودة، يجد في بيته برقية من سيروس صادرة من قم، موجهة إليه وإلى زوجته، على عنوان أمها، يبارك فيها زواجهما. (ص٣٦٢).

وعندما يذهب جلال إلى الطب العدلي لتشخيص الجثة، يفهم من صديقه الدكتور بهرام آذري أن هذا نفى أن تكون الجثة لسيروس، كما نفى جلال نفسه ذلك أيضاً، بينما أيدت ذلك زوجته السابقة كما أيده أردشير ملك آبادي، الذي يحاول اقناع جلال أيضاً بالتأييد، «من أجل راحة بالِ أكثر من عائلة» (ص ص٣٦٧-٣٦٨).

ولدى العودة إلى الدرويش يصطحب معه هذه المرة پروين، ويفهمان أنه لم يكن في البيت يوم تنظيم الوكالة الأخيرة غير سيروس ملك آبادي وأفشار وأخو پروين (غلامخان)، الذي أرسل أخته مع زوجته وأطفاله إلى قزوين، كما أرسل الدرويش في مهمة إلى مدينة (ري) القريبة، ويبدو أنهم أخذوا كرسياً من غرفته جلسوا عليه في الحديقة (ص ص٣٨٣-٣٨٥).

ثم يعرفان أن عند الدرويش طبعة أنيقة لمثنويات مولوي، هدية من سيروس، وعليها كتابة تذكارية منه (ص٣٨٧).

يتأكد الراوي، عندما يقرأ الإهداء، أن الرسائل التي وصلته من سيروس المزعوم لم تكن منه، لأن الخطين يختلفان (ص ص ٣٨٧-٣٨٨)، ويحس أن

«شيئاً سيئاً وكذبة قذرة قد أخفيا» (ص ص٣٨٨-٣٨٩)، ولكنه يحتفظ بهذا الكشف لنفسه.

يتصل ضابط الأمن، الذي صاحب مرة عقيد الشرطة قريب بهرام آذري، بالراوي فيسأله إن كان يعرف إمرأة أخرى في حياة سيروس روشن، فينكر، ويطلب منه الضابط المجيء إلى بيت غلامخان حيث عثروا على جثة إمرأة مدفونة في الباحة. يذهب فيجدها مقطعة، ورأسها مشوه نتيجة صب حامض أو ما أشبه عليه (ص ص٣٩٤-٤٠٠).

تزور أم پروين مع زوجها ابنتها وزوجها الراوي، مدعية أن سيروس جاء إلى بيتها وسلمها وكالة جديدة، وأنه عازم على السفر إلى الخارج، ولكن زوجها لا يؤيد ادعاءها: فقد كان هو في الطابق الأعلى ولم ير سيروس. (ص٤٢٠). وتسعى كثيراً مع زوجها لإقناع الآخرين بوجود الوكالة الجديدة، بانتظار توقيع پروين عليها تأييداً، كي يتمكنوا من الشروع بتخمين أموال سيروس (٤٢٥)، ومع أن پروين تنظر إليه إلا أنه لا يساعدها برأي، ثم يتركهم جميعاً ويصعد إلى فوق، عند أخيه لقلقه عليه أكثر من اهتمامه بالحيل التي تمرر تحت (ص٤٢٦).

ويرتب مع أخيه حيلة على الهاتف يفهم منها بأن الذي طلبه مراراً على الهاتف باسم سيروس روشن هو ملك آبادي (ص٤٤٨)، وتكتمل الصورة عندما يتلفن له بهرام آذري ليعلمه بأن الجثة المكتشفة في بيت غلامخان هي جثة رجل لا إمرأة! (ص٤٥١).

وقريباً من نهاية الرواية يستعرض قصة سيروس من أولها ويتذكر لقاءه بملك آبادي عند مدخل مستشفى النفط:

«ألم يكن يدري ذلك اليوم أنني كنت هناك في المستشفى؟ ألم يكن يترصدني؟» (ص٤٧٤).

* *

على أية حال، فمثلما يتوصل هو إلى معرفة أن مقلد صوت سيروس هو ملك آبادي تتأكد الشرطة أن مقلد خطه هو ملك آبادي أيضاً، وتتوصل إلى أن مرتكب جميع القتول هو ملك آبادي.

وتفهم پروين بأنها ليست ابنة سيروش فتصاب بجلطة في الدماغ (ص٤٩٤)، كما ينتكس أخوه (ص٤٩٥).

* *

أهناك داع لأن نقول إن الرواية تتصدرها الملاحظة التقليدية نفسها عن عدم واقعية الأحداث والشخصيات؟ أو إن التاريخ يطالعنا منذ الصفحة الثانية للرواية؟ كما أن الكتاب التقليدي الملازم لروايات فصيح موجود أيضاً، وهو هنا «الرجل المتصاغر حجماً». كما أن الأحلام موجودة أيضاً، ولكن أحدها ــ هذه المرة ــ قد يكون ذا دلالة، فهو يرى پروين تسبح مع أخيه الأستاذ (وقد أصيبت هي بجلطة بينما انتكس وضع الأخ الصحي)، ثم تنطلق راكضة معه هو في حقل، عارية إلا من شريط أحمر حول رأسها (أستبقى هي؟)، والتبسط في وصف الطعام موجود أيضاً ولا يلهيه عنه وضعه النفسي المحطم. ونجد هنا أيضاً ثلاث روايات في واحدة، وإذا كانت قصة غرامه مع پروين، المنتهية بزواجهما، مقبولة ومكانها مستقر في أحداث الرواية الأصلية، إلا أن القصة الثالثة، وهي عودة أخيه من أميركا وتركه عمله هناك، تبدو نافلة، بل مقحمة على أحداث الرواية الأصلية، خاصة وأن هذا الأخ لا يفعل شيئاً ذا علاقة مؤثرة بأحداث الرواية.

وإذا كان لنا أن نعتبر أن هذه القصة لم تورد عبثاً هنا، ولا بد لنا أن نفعل، فسنصل إلى أنها تأكيد لقصة سيروس روشن: لا مجال في إيران لا للفن الحقيقي ولا للحكمة الحقيقية.

* *

وصف الكاتب وسرده هنا أيضاً لطيفان سلسان، ولتجنب التكرار والاقتباس أشير إلى نماذج تؤيد هذا القول في الصفحات ٢٤٣، ٣٦٧، ٤٣٠، ٤٤٨. كما أن لجوءه إلى الاختصار مشهود، وهو لمّاح، والأمثلة على ذلك كثيرة منها ما يجيء في الصفحات ٢٥٢، ٢٦٥، ٢٧١، ٢٧٣، ٣٧٤، ٤٧١.

## ٨ ــ فرار فُرُوْهَرْ

[ملاحظة: فروهر اسم علم مذكر، وهو رمز زرادشت، الجوهر، المحتوى].

يبدأ الكاتب هذه الرواية على نحو جيد نوعاً ما، فهو يستهلها بــ (فلاش باك)، ثم سرعان ما يجده غير مفهوم، ويكتشف بعد صفحة ونصف أنه استهلال غير جيد، فيتركه ليطرح مستهلاً آخر يبدأ به قبل الأحداث التي يريد روايتها بأسبوع، ولكنه يجد هذا المستهل أيضاً غير مناسب فيقرر «أن أبدأ سير وقائع هذه الرواية أيضاً ببساطة: من وقوعها» (ص٣). وهكذا يعود إلى طبيعته التي يرتاح إليها:

تكتشف أخته فرنكيس صديقتها منذ الطفولة، التي استمرت صداقتها معها إلى ما بعد الدراسة الثانوية فالزواج، تكتشفها بعد ترملها هي وعودتها إلى طهران، وتتجدد صداقتهما فتتزاوران.

تزورها هذه الصديقة لتشكو إليها: [«الدكتور فروهر (زوج الصديقة) ترك صبح الأمس دار الاستشفاء دون إعلام أحد، ولا يدري أحد إلى أين ذهب...».

... وإذ ذهبت السيدة فروهر لزيارته عصر أمس لم تجده... ليس معلوماً ما جرى للدكتور... إنه، بحالته تلك، قد ضاع...]. (ص٦).

ثم نعرف أن هذا الدكتور نائم في مصح نفساني مَنذ أشهر بسبب كآبة، تطورت إلى انفصام الشخصية، فإلى صيرورته «مريضاً نفسياً خطراً للغاية معادياً للمجتمع» (ص٦).

وكالعادة أيضاً لا يريد الراوي، ولا شك في أن القارئ عرف الآن من هو، أن يتورط مع هؤلاء (ص٨). ولكن ليس للهارب، عملياً، من يمكن أن يبحث عنه أو يساعد في البحث عنه (ص ص ٨–١٠)، وقد نقلت زوجته قلقها وخوفها إلى أخت الراوي، خاصة وأن الدكتور أخذ معه، عند غيابه، سكيناً حادة كانت عنده في المصح (ص١١). وهكذا يدخل الراوي القصة باحثاً عن المريض النفسي المفقود. وهذا المريض «كان أستاذاً للتاريخ في جامعة طهران... في عصر الآريا مهر. وأثناء هذه المدة ألّف سبعة أو ثمانية كتب في التاريخ وعلم الاجتماع، حتى أن أحد مؤلفاته الواقع في مجلدين نال الجائزة الملكية!» (ص١٧). «وبعد ثورة إيران الإسلامية لا أدري إن كان تم تطهيره أو أنه قدم طلباً للإحالة على التقاعد. والتصور الكلي الذي كان عندي أنه رجل إيراني متعلم، متدين مصلٍ، غارق في دنيا الكتاب والتدريس. لم يكن يتذوق الشراب وكانت حياته الخصوصية وقفاً على عائلته... وكان عندهما ابن نال الشهادة الإعدادية... ولأنه كان خاضعاً للخدمة العسكرية فقد استدعي إلى الخدمة ثم فُقِدَ أثرهُ في جبهات باختران[٤٠]... وخلال السنة أو السنتين الأخيرتين أصيب أيضاً، احتمالاً بسبب البطالة والإحباط الناشئ عن منع تجديد كتبه الآريا مهرية، باختلال الحواس وبالنسيان...» (ص١٧). تصدمه سيارة ذات يوم فترميه إلى ساقية، ويتعرض لنوع من الألم النفسي، ثم يصير سوداوياً» (ص١٧).

نتابع المعلومات التي حصل عليها الراوي من تحقيقاته فنجد الدكتور

فروهر قد ترك المصحف في سيارة أجرة، لينسى فيها أوراق مذكراته ــ التي يبدو أنه يعدها للنشر ــ فيأتي بها السائق إلى بيته، فتتركها زوجته للراوي عساه يستطيع قراءتها أولاً، ويجد فيها أثراً يدل عليه ثانياً. يقرأ الراوي فيها أنه من مواليد مدينة (ري) لا شارع (ري) كما يقول أهله (ص ص١٨-١٩) وسنة ميلاده ١٧٢٨ قبل ميلاد المسيح لا ١٣ خرداد ١٣١٣ هجري شمسي (= ٣ حزيران ١٩٣٥) أو «يوم الأربعين (يعني العشرين من صفر) سنة ١٣٥٣ هجري قمري» (ص١٩). وهو يعرف أن أول نبي، زرادشت، من مواليد ١٧٦٨ قبل ميلاد السيد المسيح، ولكن لا أحد يصدق ذلك، و«فجأة سمعت من يقول إنه بعد صعود كوروش الهخامنشي[٤١] ذاك إلى العرش، ظهر زرادشت جديد من عائلة اسبيتامان[٤٢] تلك من أجل إحياء... زرادشت الحقيقي، يعني أن رجل دين قام بثورة» (ص٢١).

يبدأ الراوي بحثه عن فيروز، أخي المفقود، فيفهم منه ومن زوجته أن أبا الدكتور مات وهو في الثانية من عمره، وأن أمه أجلسته وسط العزاء، ثم في مناحة اليوم السابع، ثم على القبر، فكان الجميع يحثون التراب والتبن على رأسه لأنه قد تيتّم« (ص٣٦).

أما الدكتور خطيبي، أحد زملاء المدرسة القدامى للهارب ثم صديقه، والذي يزوره الراوي للتحقيق، فيقول: «لم يكن ممنوعاً على ذلك النحو، من أجل إعادة الطبع طلبوا منه أن يحذف صورة الشاه والمقدمة فقط. لم يقبل. وعلى هذا: **No**». (ص٥٣). أما في حداثته، فقد عانى ــ كآخرين عرفناهم عند الكاتب ــ من مشكلة تدبير المال والضمانة اللازمين لسفر الدراسة (ص٥٥). وصارت له في جامعة كاليفورنيا ــ بركلي قصة غرام بفتاة اسكتلندية لا يعرف خطيبي ما كانت نتيجتها، ولكن يبدو أنها كانت مأساوية. (ص٥٦). وتقول زوجته إنه بعد أيام من

عيد ميلاده الخامس والخمسين طلب ورقاً وبدأ يكتب [«سيرته الذاتية» المزعومة]. (ص٦٦). فيعلق الراوي بأنها «السن التي قُبل فيها زرادشت في بلاط (الملك) ويشتاسب ـ حسبما كتب زوجك» (ص٦٦).

وفي سيرته الذاتية يتحدث الهارب عن احتلال اليونانيين لإيران، وفرض شعائرهم ولباسهم على الإيرانيين بشكل يذكّر بحملة رضا پهلوي من أجل توحيد اللباس ونزع الحجاب (ص٦٨-٦٩). ومع ذلك، فالناس مرغمون على القبول وعلى الاحتفال بيوم الاحتلال، لأنهم إن لم يفعلوا «فلا تسأل عن أرزاق القسائم»[٤٣] (ص٦٩). وإضافة إلى ذلك، فإن جميع الإيرانيين الآن «يضعون في رفوفهم ـ بدلاً من الـ«گاث»[٤٤] مجلداً من كتاب رسائل سقراط... ولأن أول اسمه «سين» فهو مناسب لبساط السبع سينات[٤٥] في عيد نوروز جمشيد جم[٤٦]، وهو يجلب فألاً حسناً!» (ص٧٠).

[إذا كانت أرزاق القسائم تذكرنا بالثورة الإسلامية، فستكون رسائل سقراط هي القرآن، ويمكن أن نتوسع في هذه التفسيرات فنجد خطيبي ـ زميل صف الدكتور ـ الذي دبر نسخة من الـ«گاث» وأخذ يوزعها وينشرها، هو «كسروي»، ذو النظرة الخاصة للإسلام والذي كفّره رجال الدين وأهدروا دمه من أجلها حتى قتل فعلاً في خمسينيات القرن الماضي. ويصرح كاتب المذكرات: «اليوم، إذ أكتب هذه المذكرات وأنظر إلى تلك الأيام نظرة ارتجاعية استعراضية شاملة، أرى أن ذلك كان أول مرة تتعرض فيها ثقافة الآريين النقية وجنس الآريين للانخداش على أيدي الغربيين النجسة» (ص٧٢).

ومع ذلك: «أتمنى لو أن كل أخواتي وأخوتي وأفراد عائلتي أخذوا رسائل سقراط فقرأوها ليفهموا شيئاً منها. ولكنهم يضعون سقراط على الرف أو داخل بساط السبع سينات وهم، كما قلت، يكتفون بالأكل والشرب وقرع الطبول

والإيقاع والرقص» (ص٧٣). أيريد فصيح أن يقول إنهم تركوا الأصل، روح القرآن، وتمسكوا بشعائر فارغة؟].

وفي حملة السلوقيين، اليونانيين، قتلت زوجته الحبيبة روكسانا (ص ص ٧٧-٧٨) وعندما انتصر الأشكانيون لاحقوا «المتغربين» (الذين تأثروا بالسلوقيين وصاروا يقلدونهم) وعاملوهم أقسى معاملة، وألقوا نسوتهم «إن كن بلا حجاب ونصف عرايا كاليونانيات، في آبار مظلمة تحت الأرض، أو قتلوهن» (ص٧٨).

وعاد أخواته وأخوته إلى دينهم القديم على هذا الشكل:

«يلبسون قباءات عديمة الشكل طويلة بيضاء، ويلفون على رؤوسهم قطعة جلد، ولا عمل لهم من الصباح حتى المساء إلا رمي الرماح، أو قطع الأحجار لقصور الأشكانيين، ويعود كل منهم مساءً إلى بيته حاملاً كيس طحين وقليلاً من اللحم. ويدعون لـــ (أشكْ)[٤٧]، وإذا مات أشكّ ما يذهبون إلى مراسيم الحزن التي تمتد أربعين يوماً بلياليها فيبكون ويضرب كل منهم رأس الآخر ويلطم صدره» (ص٨٠).

ولا يفهم الناس شيئاً من صلوت (ميترا)[٤٨] أو الأدعيه لها، ولذا فعليهم فقط «أن يدعوا، يكرروا، ويمسحوا جباههم بالتراب، ويطيعوا...»، و«قبل أن أنسى، كان معبد ميترا رجاليا فقط... لم تكن ميترا تحب النساء. على النسوة أن يقبعن في زاوية في البيت ويمارسن الأدعية هناك» (ص٨٣).

* *

ونلاحظ أن أطروحة شخصية المذكرات هي كتاب الهارب نفسه (بالإشارة)، والدعاء الذي يقرأه يشبه دعاء الصباح الذي كان يقرأه في مدرّسة (مروي). كما نلاحظ أن المذكرات تتجاهل التاريخ من حيث:

١ ــ أن صاحب السيرة يعمر على امتداد العصور.

٢ ــ يختزل أو يطيل العصور على هواه.

أفنعذره لأنه عصابي؟

ولنسجل أيضاً أن الراوي ــ وقد توغل إلى هذا المدى ــ لايزال ساخطاً على تورطه في الأمر، (الصفحتان ١٤٠ و٤١٥ خصوصاً).

* *

يقال إن الهارب ذهب إلى بيت أخيه ضابط الشرطة المتقاعد، والأكبر منه مباشرة ــ بنحو عشر سنوات ــ وبعد لقائه به يصاب هذا الأخ بجلطة دماغية فيتركه ويخرج إلى الزقاق حيث يجد ابن هذا الأخ ويأخذه معه. ولكن بعد تحقيقات الراوي، ولف ودوران من عائلة الأخ الأكبر، نفهم أن الأرجح أن الجلطة كانت نتيجة مراجعة الشرطة بحثاً عن هذا الابن، العامل في نشر المخدرات!

وينكشف لنا شيئاً فشيئاً المزيد من خصوصيات الهارب. فمن جهة:

١ ــ إنه يؤمن بمحمد ورسالته، حتى العبادة، حسب طبيبه وتأييد الراوي.

٢ ــ يؤمن بالثورة الإسلامية ويعتبرها أم الثورات، وقد بكى كثيراً، وبحرقة، لوفاة الخميني.

ومن الجهة الأخرى:

١ ــ يذكر طبيبه للراوي، شخصياً وسرياً، أنه ليلة هروب فروهر اختفت زجاجة من حامض الكبريتيك المركّز.

٢ ــ إن الهارب، في شخصيته الثانية، يلجأ إلى الوساطة كي يعفى من العمل في البلاط.

٣ ــ إن الهارب، في شخصيته الثانية أيضاً، يكتب خواطر سفره، وهو يخفيها (أيضاً) خوفاً من إدارة أمن الخلفاء!.

٤ ــ إن الهارب، في شخصيته الثانية مرة أخرى، يعرب عن امتعاضه الشديد من الرقابة: «لماذا ينبغي أن تكون الأفكار العرفانية لإنسان حر من مخلوقات الخالق العالمي تحت سيطرة أشخاص لا يفهمونها من مأموري فحص النصوص والمنع والرقابة التابعين للخليفة؟ أنا شخصياً لم أفهم» (ص٢٥٣). وعدا ذلك، فسيرة الهارب التي نعرفها ملأى بالامتعاض من الأنظمة التي تفرض الرقابة على الكتب ومأموري الرقابة وحارقي الكتب أو محوّليها إلى خمير. وكذلك من القيّمين الرسميين على الثقافة والعلوم.

٥ ــ كما يمتد عمر الهارب في الزمن، فهو يجد نفسه أكثر من شخص واحد، لقد تناسخ تكراراً.

٦ ــ وتتكرر في سيرة الهارب الإشارات إلى زعل زوجته وذهابها إلى بيت أبيها في «المحمرة»[٤٩]، حتى أنه ليقول مرة: «في تلك السنة ــ مرة أخرى في مراسم أحد نوبات زعلها الموسمي ــ ذهبت زوجتي إلى الجنوب عند أبيها وأمها...» (ص٣٩١). وزوجة فروهر الحقيقية تتحدث عنه باحتقار، ولاشك في أنها كانت تعامله على النحو نفسه.

يواصل الراوي قراءة سيرة الهارب، فيجد فيها أن: «الدين الإلهي ونظام الحكم الجيد والفن الإيراني، القديمة، في إيران الشاه السلطان حسين ذي العمامة الحمراء، كانت مدفونة، ولكنها عندما وقعت بأيدي الإنجليز راحت تلهم الدنيا وتحيي شعوب العالم وتسعدهم» (ص ص٤٠٩-٤١٠).

وتستعرض المذكرات ملوك وحكام بلاد فارس نقدياً، فكريم زند[٥٠] أمي، (ص٤٢٢)، و«في الليالي التي لا يهاجم فيها خراسان والبصرة، أو لا

يسرق فيها شيئاً، كان يصير عارفاً ومحباً للأدب» (ص٤٢٢). وناصر الدين شاه[٥١] دكتاتور مطلق، من تحدث عن الحرية والحلم أو حكومة الشعب، في عهده، «وجب قتله» (ص٤٥٧). وأمير كبير[٥٢] هو «أمير الغضب» = الجلاد، (ص٤٥٨). ولا يصدق كاتب المذكرات ما يسمعه من صديقته الإنجليزية عن سيطرة رضا پهلوي وإصلاحاته الاقتصادية ــ الاجتماعية.

ويتوقف كاتب السيرة عند نهضة المشروطة (أوائل القرن العشرين)، ثم تنقل له صديقته الإنجليزية، الأحداث التالية حتى أواخر عهد محمد رضا شاه، فيسجلها غير مصدق.

ثم يشهد أشياءً، كان آخرها موت «شخص جيد جداً هذه الأيام في إيران» فيعرف أنه «... أنا أيضاً يجب أن أنهض... يجب... أنا أيضاً أن... أنهـــ...» (ص٤٨٤)، وتلك آخر كلمات المذكرات، حيث يغادر المصح ويتوقف عن الكتابة.

وإذا ما تذكرنا حديث زوجته، فهي قد جاءته بجهاز تلفزيون، وقد شاهد فيه أخباراً، وفيلماً عن وفاة الخميني وتشييعه.

يذهب الدكتور الهارب إلى يزد، وعندما يلحق به الراوي إلى هناك يستغل الفرصة ليشير إلى أن الزرادشتيين قريبون جداً من بعضهم بعضاً حد التوحد «ولابد أنهم جميعاً على هذه الحال هذه الأيام» (ص٥١١)، ويتظاهر بعضهم بالصمم أحياناً «الأمر الذي أتوصل شيئاً فشيئاً إلى أنه، بالنسبة للبعض، لا يمكن أن يكون حربة سيئة» (ص٥٣٣).

في يزد، يترك الهارب رسالة للكاتب ــ الراوي، يطلب فيها الكف عن تعقبه لأنه ذاهب معه (مع زرادشت!) غروب هذا اليوم.

وعند لقاء الراوي مع الموبَد[٥٣]، يشرح له هذا كيف أن الزرادشتيين يتركون موتاهم في مكان مرتفع طعمة للنسور، ثم يرجعون إليهم بعد شهر

فيجمعون عظامهم ويلقون بها في حفرة مخصوصة. وأن الزرادشتيين الذين استقروا في الهند طوروا ذلك بأن أخذوا يحرقون عظام موتاهم بالكحول وحامض الكبريتيك! وكان الراوي قد وجد الإثنين في غرفة الهارب بالفندق! ثم وجد زجاجتيهما عند الحفر الخاصة خارج يزد، عند بيت النار القديم! كما يجد قرآن الهارب، الذي يضع فيه عادة بطاقة هويته! ولكن هويته غير موجودة، فيتذكر قول صاحب السيرة: «منحوسو الدهر الجيدون يُدفنون بأسمائهم وعناوينهم»! كما يجد أيضاً مذكرة منه يعلن فيها انتحاره، وحرقه لنفسه، ويجد أيضاً خاتمه الشهير!

* *

إن مشكلة كاتب السيرة، هي كما تلخصها إحدى صديقات الراوي: «إن روح الإنسان، كجسمه، يمكنها تحمل أشياء إلى حد ما. وتتلاءم أرواح بعضهم مع النظام الفكري، أو يشعرون بالسكينة. أما فروهر، الذي يبدو أنه متعلم وعالم تاريخ أيضاً، فقد خلق لنفسه ألماً مع النظام الفكري. وقد قلتَ إن سيارة ضربته، وإن النسيج الفسيولوجي لدماغه قد انشرخ. كما أن إبنه مفقود الأثر. إذا لم نقل شيئاً عن كتبه الممنوعة»، فيقول لها الكاتب ـ الراوي مؤيداً: «إنك تحسنين تركيب الأفكار، والاستنتاج» (ص ص٤٣٧-٤٣٨).

وإذا ما ترجمنا أفكار فروهر إلى لغة عصرنا فسنجدها واضحة عند الكاتب:

* «والطائرة أيضاً تجترح معجزة فلا تتأخر إلا ساعة وخمساً وعشرين دقيقة لكي تكون جاهزة للحركة». (ص٤٤٨).

* «كان لديه ألم بسيط في عينه، أجروا له جراحة في طهران ففاقّموه» (ص٤٤٨).

* «فندق پارس جحر صغير، له باب صغير، وسلالم ضيقة مظلمة» (ص٤٩٣). فالهارب، ومن ورائه الكاتب ـ الراوي، متذمر من الأوضاع السائدة بحيث لا يمكنه التواؤم معها. ولا ينفي هذا أن يكون الهارب مؤمناً متديناً ومعجباً شديد الإعجاب بالمرحوم آية الله الخميني، بل ربما أراد الكاتب أبعد من ذلك: الإشارة إلى التناقض الحاد بين أفكار خميني المعلنة وما جرى على صعيد الواقع، أثناء حياته إلى حد ما، وبعد وفاته بشكل صارخ.

* *

تحمل هذه الرواية سمات روايات إسماعيل فصيح الأخرى التي خبرناها الآن:

* التنبيه نفسه إلى عدم واقعية الأشخاص والأحداث يطالعنا قبل نص الرواية.

* والتاريخ موجود أيضاً منذ البدء: «يوم أحد ساخن، حدود الظهر، أواسط مرداد ١٣٦٨ (أوائل آب ١٩٨٩)...» (ص٣).

* والراوي عارف بالأدوية خبير باستعمالها، ويكثر استعمالها هو نفسه.

* إذا كان الراوي لا يقرأ هنا كتاباً، فهو عنده هنا مخطوطة الهارب تصاحبه. وبدلاً من أن يلخصها في أسطر ينثرها على صفحات الرواية بالكامل فتشكل نسيج الرواية الأصلي.

* يتجدد عداء الكاتب للعرب (يضاف إليه عداء للأتراك)، على لسان الهارب في سيرته، بمرارة وحد الإقذاع، ولكن مع بيان أسباب معقولة هذه المرة.

كما أن العيوب التي سبق أن وجدناها في روايات فصيح السابقة، موجودة هنا أيضاً:

* فلا يعقل إطلاقاً أن يكون الراوي قرأ المخطوطة، وحفظ مقاطع كاملة منها، في الوقت القصير الذي يزعم أن أحداث البحث عن كاتبها وقعت فيه.

* صحيح أن الراوي يبحث عن الهارب، وأن للراوي حياته الخاصة التي يحياها ويقوم بالبحث ضمنها، ولكن يبدو أن الكاتب ينسى أحياناً مهمة الراوي في هذه الراوية، فينجر إلى تفاصيل في الحياة اليومية للراوي تجعل من روايته روايتين مستقلتين.

والراوي هو جلال آريان نفسه، وأخته فرنكيس موجودة أيضاً من الصفحة ٤، حتى أن كاتب السيرة يتحدث بلغة جلال آريان. والأحلام موجودة أيضاً، مع أنها لا تختص بالراوي وإنما تشمل الهارب في شخصيته الثانية ــ المولودة قبل ميلاد المسيح ــ أيضاً.

* *

ولعل من نافلة القول أن نضيف أن إسماعيل فصيح بقي على أسلوبه الذي عرفناه ، من التعابير الهزلية ــ المازحة، وتنظيم المعلومات والاختصار عند الحاجة، أو عند الهوى.

* *

بهذه الرواية تنتهي مرحلة أخرى جديدة في نتاج إسماعيل فصيح الروائي، لم تشهد تغييراً ملحوظاً في أسلوبه ولا لغته، ولا في المعمار القصصي، ولكنها تتميز بتحول فكري، أو قل إنها بداية هذا التحول: مع أن الثورة الإسلامية غزو بشكل ما ــ عربي جديد، إلا أن الكاتب يسعى إلى قبولها في خطوطها المهمة، ولكن الواقع اليومي المعاش يخيب آماله ــ إن لم يكن يصدمه تماماً ــ فيرتد للتعبير عن سخطه عليها بهذا الشكل أو ذاك.

## ج ـ الغزل الخائب للثورة

### ٩ ـ الشراب العتيق

[الاسم الإنجليزي الذي اختاره الكاتب لهذه الرواية، ووضعه على صفحة الغلاف الأخير، هو: «النبيذ المقدس»].

هذه الرواية قصة طبيب اختصاصي بأمراض القلب والعروق من أميركا، صاحب عدة مؤلفات جامعية وعيادة، وقد تقاعد من التدريس في كلية طب جامعة پهلوي (سابقاً) بشيراز، تبدأ الرواية وهو مسافر على طائرة متجهة إلى آبادان ليلتحق بالعمل بموجب عقد مؤقت مع شركة النفط الوطنية، وقد تعاقد نظراً للأجر «ذي الرقم النجومي» الذي تقرر له، ومساهمة منه في إعمار آبادان، وللابتعاد عن جو طهران الملوث، وربما للعثور على فتاة عانس أو امرأة مطلقة يتزوجها بشكل رسمي، زواجاً مؤقتاً، لأنه منفصل عن زوجته وأولاده ـ الكبار ـ فزوجته سيئة المعاشرة طويلة اللسان مناكدة مناكفة.

عندما يصل مطار آبادان يشاهد بقايا الخراب وآثاره، يحس فخراً ورضا عن النفس أيضاً، ولكن: «لقد جاء إلى مستشفى شركة النفط كي يساعد فيحرك قسم القلب والعروق، ويجهزه، ويخدم... كان يحس وكأن المبلغ الضخم لعقده المؤقت غير مهم في الواقع. كانت آبادان هي المهمة» (ص٧). و«كان يحس أن جزيرة آبادان، منذ صباح اليوم، قد انسلّت إلى ما تحت جلده» (ص١١).

والدكتور، كيومرث آدميّت، عندما يكتب رسائل من آبادان التي خربتها الحرب، «لا يكتب لزوجته التي هجرته شيئاً، لأنه لم يبق بينهما كلام أو ارتباط» (ص١١).

وهو يشرب، من زجاجة فيتامين مركب، لأنه لم يكن يستطيع ـ في هذه

السنوات الأخيرة ــ أن يقضي لياليه بدون مشروب (ص١١). ويقضي بضعة ليال في «خلوة الأنس».

وهو يحلم، ككل أبطال فصيح، ولكن أحلامه هنا تبدو ذات معنى، أو أنها ذات ارتباط واضح بأحداث الرواية. فيحلم (ص١٢ مثلاً) أنه في بستان خرب يجد امرأة، يتضح له بعدئذ أنها شابة، ويسألها عن طريق الخروج فتقول له إنه صعب، وإنه لن يجده [ ــ «إلا إن فتحت عينيك.. ». ــ «عيناي مفتوحتان».. وقالت فقط: «أقصد عينيْ هنا..» ووضعت أصبعاً على قلبها. ــ «وهناك...» ونظرت إليــ(ــه)، وأشارت بإصبعها إلى السماء وإله الغيب»] (ص١٤). ويحلم على (ص١٦٠) أنه يرى امرأة، قيّمة على أطفال، في المكان نفسه، وعندما يسألها عن باب الخروج تشق صدرها بسكين حادة وتستخرج قلبها فتقدمه له ضاحكة».

تراجعه ذات يوم في مكتبه «امرأة شابة نسبياً، تبدو في الثلاثين أو الأربعين، ظريفة الوجه بيضاءه» (ص٢١). وقد تذكر، بلقياها، إحساس النشوة العجيب الذي أحسه صباح ذلك اليوم بعد استيقاظه من حلم مزعج! تُعلّمه بأنها ترجو مساعدته في إعادة تأسيس وتجهيز مختبر (الوحدة) الذي تعمل فيه.

ويعرف منها أن زوجها توفي في أوائل الحرب ــ وقد علمنا أن صاحبنا ينتظر مطلقة أو عانساً. وتسأله عما يفعله في آبادان، وعندما يوضح لها تسأله:

[ ــ «وماذا بعد؟» يضحك طويلاً ويقول: «أنا أيضاً، إن أمكن ترتيب زواج مؤقت، يمكنني أن أصير مثل الباقين.. »]. (ص٢٥). أهذا الحوار معقول؟ خاصة وأنها جاءت تتحدث في موضوع عمل، وأنها قدمت لحديثها بأنها تعرفه من دروسه وكتبه!

وهو رغم حبه للعمل وبقائه في آبادان وتنفيذ طلباته المتعلقة بالعمل وازدياد حبه للوضع القائم، إلا أنه ملحد. فعندما تسأله إن كان يؤمن بالله يقول: «أنا في

هذه السنوات إنسان تكنيكي عيني من شهود الإدراك المباشر. لو أن الباري تعالى، الله، تفضل بالمجيء يوماً فتحدث إليّ وأقنعني أنني ينبغي أن أؤمن به، فعلى عيني». (ص٢٧). ولكنه، مع ذلك: «دعيني أعترف بأنني أحب كتب الفلسفة والعرفان، وفي الأغلب أقرأها» (ص٢٨). وينكشف اللقاء الغريب عن دعوة المرأة إياه إلى الله أكثر من طلب مساعدته على تمشية أمور مختبر! كما أنها تعده بأنها ستفكر جدياً في موضوع الزواج المؤقت منه، إن هو صلى صادقاً لله! (ص ص٣١-٣٢). ونسجل أن اسمها پري (= حورية) ولقبها (وهو اسم عائلة زوجها الشهيد الذي لا زالت تحمله) هو: كمال.

ومع أنه يتناسى اللقاء ـــ نتيجة لتجاربه السابقة ـــ ويقرر أن پري كمال «امرأة ذات قيمة، ذات شخصية، فريدة ومؤمنة، وجاءت إلى مكتبه، وطلبت أشياء وقالت أشياء تهز أي إنسان، ذات عقل وإحساس» (ص٣٦) لا غير، إلا أنه يحاول تذكر حياة صباه، ويتذكر أمه تحثه على الصلاة، فيريد أن يرى إن كان لا يزال يعرف أن يصلّي! ويجد أنه يعرف. وينتهي إلى نتيجة: «في أعماق صدره، كان يعرف أنه كان يكنّ لـــ(ـــها) إحساساً» (ص٣٨).

وفي صباح اليوم التالي، يتذكر ـــ بعد طقوسه اليومية من حمام وحلاقة وشرب قهوة والجلوس ببرنص الحمام لمطالعة المجلات العلمية ـــ فيقوم «بروحية نصف هازلة ونصف جادة، فيعود إلى الحمام. وتوضأ بماء صنبور المغسل. ثم عاد إلى غرفة النوم. كان الوقت غسقاً. الصلاة. الحب. كان ذلك عقدهما غير المكتوب ـــ كان يريد، وهو عندما كان يريد شيئاً كان يعرف كيف يحصل عليه. صمم من أعماق فؤاده أن يُدخل سهمه من حساب ميعادهما المشترك» (ص٤٠). ثم أفرغ زجاجة الفيتامين المركب من المسكر في المغسل، وغسل الزجاجة وألقاها في سلة القمامة!

وصلّى الظهر بنية أن «يلعب شيئاً من السياسة الجيدة»، ولكنه عندما شرع فيها كانت حقيقية، ووجد أن إقامتها خير من الجلوس في المكتب!

ثم يقرر العمل، «في سبيل الله»، ساعتين أو ثلاثاً بعد أوقات الدوام الرسمي للمساعدة في الخدمات الطبية (ص ص٤٢-٤٥)، ويسأل عن «التفسير العرفاني للقرآن المجيد»، وربما من تأليف الخواجه عبد الله الأنصاري ــ الذي ذكرته له في حديثها معه ــ فيصحح له المسؤول ــ وهو طبيب معه ــ : «التفسير الأدبي والعرفاني للقرآن المجيد»، ويضيف أنه عنده في البيت، وسيقدمه له! (ص٤٧) ويخبره أن الكتاب خلاصة في نحو ١٢٨٠ صفحة لكتاب «كشف الأسرار» للأنصاري (ص٤٨). وتصير الصلاة عنده أمراً اعتيادياً (ص٤٩)، ويصير الكتاب الجديد هو الكتاب المرافق فيكون أول كتاب يقرأه بطل لإسماعيل فصيح مرتبط وثيقاً بموضوع الرواية.

وإذ صار يشاهد الناس ويخدمهم فقد صار يحس آلامهم، ويتطور هو أيضاً، حتى لم تعد الصلاة «هزلاً قليلاً وجداً قليلاً، كما لم تعد قليلاً من كلمة والتزام». (ص٥٣)، خاصة وأن يري كمال اختفت طوال أسبوع أو أكثر!

«كان ميزان قانون الاحتمالات يوصل كل مشروع الميثاق وما إلى ذلك إلى نقطة الصفر تقريباً». (ص٥٤). ثم تأتي! ويدور حوار آخر غير معقول أيضاً بينهما، إذ تسأله هل تغير فيجيب بالإيجاب، فتسأله كيف، ويجيب:

١ ــ إنه نال افتخار الكلام لبضع لحظات مع رئيس الجمهورية.

٢ ــ أدهشه «رجل دين عملي عالم عقلاني حريص جيد الحساب، عارف بالمواضيع العلمية والفنية والمفردات التخصصية، ذو وجدان حساس من أجل تقدم إيران» (ص٥٩).

٣ ــ إنه يقرأ تفسير الخواجه.

٤ ــ إنه يصلي من صميم فؤاده.

وبعد هذا الحوار البائخ يعرض عليها الزواج، فتفهمه أنها موافقة، ولكنها استشارت في الأمر أحد رجال الدين الذي نصحها به أيضاً، ولكنه طلب لقاء العريس والتعرف عليه.

تأخذه إلى رجل الدين هذا ــ وله مكتب في حسينية الأصفهانيين ــ فيعقد لهما في مراسم هي ذروة في البساطة، ويذكرهما بأن يذهبا لتسجيل زواجهما في دفتر نفوسهما. ويذهبان إلى بيتها لقضاء ليلة العرس. وعندما يدخلان الزقاق الذي يقع البيت فيه، لم يستطع الدكتور أن يقرأ اسمه جيداً أهو «بيعت» أم «جنت»[٥٤]، كما حاول أن يقرأه صباحا فلم يقدر أيضاً لعدم وضوحه!

ولا يذكر الكاتب فعل الدكتور ليلة عرسه، سوى أنه ينقل بعض شطحيات پري، كتذكيرها إياه أن الله فيه ولكنه لم يكتشفه بعد، ثم تمد يدها إليه قائلة: «تعال، يا بليدي المنقاد... أُشكر» (ص٧٤). ولم أفهم أبداً لماذا لم يصف الكاتب مراسم شكر الله تلك! إلا أن يكون انغماراً تاماً من الدكتور، فمن الكاتب، في بحر العرفان.

المهم، أن بيتها يمتاز ــ إضافة إلى مجهولية اسم الزقاق ــ بأنه يقع في منطقة غير مأمونة، وهو الوحيد الذي أعيد بناؤه، بعد الحرب ، في المحلة، وأن فيه جهاز تلفون ولكنه غير موصول.

ويعرض عليها العمل معه في المستشفى الذي يشتغل فيه فترفض، لأنهما اتفقا أن يكون زواجهما «بسيطاً وفيما بينهما»! ويتساءل منها لم لا يستقلان ببيت أكبر من بيوت الشركة، فتضع أصبعها على فمه وتحثه على النوم. ويتكرر إصرارها على أن يبقى زواجهما، لمدة فقط، فيما بينهما، حتى أنها ترفض الخروج معه إلى مطعم.

ويدعوها إلى بيته الخميس والجمعة، لأنّ خادمه لن يكون موجوداً، فتعد بالمجيء ــ ما داما سيكونان وحدهما (ص١١٦). ويذهبان إلى بيته معاً، ولكنها ترفض أن يدعو أحداً من أصدقائه المقربين للتعارف وقضاء بعض الوقت معاً! (ص١٢٦). وقد جلبت معها، من بيتها، حقيبته اليدوية بحجة أن ملابس نومه الصفراء تعجبها (ص١٢٦).

وبدلاً من الاتفاق على، والتخطيط لبرنامج اليوم التالي للعرس، تدعوه لصلاة الصبح وإلاّ فلن يكون ثمة يوم أصلا! وعندما يغازلها ترفض وتطلب تأجيل الغزل إلى ما بعد. ومع ذلك فــ: «صباح اليوم حتى الثقوب التي في الساقية المغطاة، المشقوقة وسط الزقاق، والتي يخرج الوسخ والوحل الأسود منها. كانت مبعث سرور» (ص٨٥). و«على عكس رائحة الهواء التي شمّها في اليوم الأول لوصوله مطار المدينة، فاليوم، هنا، تحت السماء الزرقاء الصافية وجو المدينة النظيف، تشم رائحة عجيبة للعطر وماء الورد لا يمكن أن تكون رائحة زهور (عرف الديك)، وكانت تبدو غير قابلة للتصديق حقاً، أو أنه كان يحس ذلك» (ص٨٦). و«حتى الرائحة القليلة للدخان والــ SH2 في الطرف الآخر من الشارع كانت جيدة وإيجابية»! (ص٨٧).

وفي ليلة أخرى، عندما يجدها متعبة يقترح الخروج لتناول العشاء في مطعم، ولكي ترضيه تقبل. ولكنه يجد المطعم كئيباً و«كوخ الدراويش» أبهج منه.

ومع أن حديثهما لم يكن غير أشعار صوفية تقرأها هي أو تغنيها مغنية هاربة من الثورة إلى لوس أنجلس (لم يذكر الكاتب اسمها، فيما كان اعتاد في رواياته السابقة ذكر أسماء المغنيات بإعجاب ظاهر)، إلا أنه يقول: «ومرت بقية تلك الليلة أيضاً بهذا الكلام **الجميل** نفسه، وغيره» (ص١٠٦).

وعندما يمزح أو يتلاعب بألفاظ الأشعار (العرفانية) تنبهه وتلزمه حده! فيعتذر.

ويطالبها بعنوان يتصل بها عليه فتقول إنها هنا في البيت، ولا تلفون عندها، كما أن بيت خالتها في أهواز ــ الذي تذهب إليه أكثر من مرة في الأسبوع ــ لا تلفون فيه، ثم تضحك وتقول: «اسمع، كلما أحسست بأنك يجب أن تتكلم معي ضع سماعتك على قلبك...». (ص١١١).

ورغم ذلك، أو بسبب كل ذلك، فــ«.. ثمة لحظات أحس فيها أنكِ لا وجود لكِ أصلاً. يعني أنني أحس أنني أحلم بكل ما هو بيننا» (ص١٠٤). و: «نظر الدكتور إلى هيكلها المتوازن وهي تتجه إلى المطبخ.. في واحد على مليون من الثانية، دون أن يفهم لماذا، أخذ فجأة يفكر بموته الحقيقي. لقد أحس، في الواقع، أنه مات، وأن روحه هي الباقية مع بري والله...» (ص١٤٠). و: «كان لحن كلام بري عصياً على التصديق، كما كان ــ في الوقت نفسه ــ مطلقاً». (ص١٥٠).

وهو لا يفهم مم تأتي وسوسته الداخلية بالخطر (ص١٥١)، (ص١٥٤) و(ص١٥٧). وتنتبه هي إلى ذلك فتقول: [ ــ «في عينيك حالة ــ لا أدري كيف أقول ــ حالة غم وخطر... الليلة، منذ الغروب موجودة. هل وقع شيء؟».
ــ «لا.. ولكن نعم. أنا أيضاً لا أدري لماذا قلبي منقبض..» (ص١٥٨).

ويتلقى عقداً للعمل بعنوان خبير أرشد في «مستوصف قلب لينكولن» المعروف، بأجر يعادل عشرة أضعاف أجره في آبادان، ولكنه يضع العقد في جيب سترته «بشيء من الإهمال». يقرر أنه لا يمكن بحثه مع بري، ولن يبحثه لأن «بري كمال لن تترك أرض آبادان في هذه الظروف» (ص١١٣).

وهي ستسافر السبت إلى أهواز. وعندما جاءت بسيارتها للقائه قبل السفر، نزل من سيارته واقترب منها كي يودعها «.. كان انقباض قلبها وغمّ عينيها واضحاً أكثر» (ص١٦٥).

وكان قد سجل وإياها مختارات شعرية عرفانية على شريط صوت، ولما

أراد أن يسمعها الجمعة وجد أن القسم الخاص بها من الشريط [«نظيف وخال»، لابد أنها كانت نعسانة عندما هيأت الجهاز للتسجيل، «أم أن پري كمال أخذت صوتها أيضاً معها؟»] (ص١٦٨).

ولم تعد من سفرها!

وعندما يتحسر على أن صوتها لم يضبط يتذكر أنه لا شيء عنده منها، حتى ملابسها التي جاءت بها إلى بيته أخذتها معها عند عودتها، وحتى ديوان حافظ ــ الذي جلبته له من أهواز هدية ــ نسيته في بيتها ولم تجلبه إلى بيته!

ولكنه عندما نام تلك الليلة «كانت پري إلى جانبه. كل ما هناك أنها لم تكن ظاهرة» (ص١٧٣). ولكن «شيئاً من رائحتها وحالتها كان هناك» (ص١٧٣) ــ على المخدة التي نامت عليها ليلتين.

في اليوم الثالث لغيبتها يبدأ البحث والتحريات. كان يحس قلقاً، ولكنه واصل التكتم، لأنها لا تحب الصخب في هذا الأمر.

إنه لا يعرف عنوان خالتها في أهواز، ولا يعرف حتى اسم هذه الخالة!

ويبحث عن مختبر «الوحدة»، ولكن لم يكن ثمة من يعرف بهذا المختبر!

وتتجلى له أمور: «قليلاً قليلاً صار يفهم بعض الأمور» (ص١٨٥)، فهو يحقق عدة اكتشافات:

الاكتشاف الأول: أن البيت الذي عرّسا فيه ليس بيتها، بل البيت المقابل له. والمهدم الآن، هو بيتها.

والثاني: أن أحداً في المحلة لم يشاهدها!

والثالث: لا أحد يعرف عنها شيئاً. ويقول بعضهم إن پري كمال استشهدت أثناء الحرب!

والرابع: أن «حسينية الأصفهانيين»، التي عقد فيها الشيخ قرانهما، ليست هي حسينية الأصفهانيين التي يعرفها الناس!

والخامس: أن الشيخ «دهدشتي» لا وجود له، وعنما يحكي قصته معه لأحد خدم الحسينية يقول هذا: «لابد أن ذلك كان منذ سنوات»! فالشيخ قد استشهد هو الآخر في أول سنة للحرب» (ص١٨٧). وعليه:

«لم يكن ثمة في كل لحمة وسداة روحة أدنى ظل من شك في أنه هو نفسه ينبغي أن يبقى ويلتحق بپري كمال. كان عشقها عشقاً وميثاقها ميثاقاً: لا الهجرة والسفر إلى طهران وباريس ولندن ولوس أنجلس. لقد كانت پري كمال پري كمال آدميت، وهي ستأتي» (ص ص١٨٧-١٨٨).

ويتذكر السادس: عندما ذهبا إلى الحسينية المزعومة لم يطلب الشيخ المزعوم منهما بطاقة هوية، ولم يسجل شيئاً إلا في دفتره!

والسابع: في المرتين اللتين جاءته فيهما إلى مقر عمله، لم تكن سكرتيرته موجودة.

أما الثامن (ويسمعه من صديق عائلة كمال «حسين زاهدي») فهو:

[«أن الاخت پري كمال بقيت في آبادان، وفي بيتهم هذا نفسه، وخدمت مجموعة إسعاف الــ (سپاه)(٥٥)، ولكن في الليلة التالية لأربعين رضا رحلت عنا..» ــ «رحلت؟». ــ «نعم، كان منتصف الربيع. تحملت المسكينة. بقيت وخدمَت الجبهة. ولكن ذات يوم، في قصف شديد من جانب (فاوِ) العراقيين المعتدين، أصابت قنبلة بيتهم، فسوي بالأرض... وقد أخرجنا جثة پري كمال ــ التي التحقت بالحق وبرضا ــ من بين الأنقاض» (ص٢٠١).

فيتصور الدكتور آدميت أن تلك المرأة كانت امرأة متفتحة القلب لعوباً،

اصطادته وعقدت لنفسها عليه ونالت منه وطراً! ولكن كم امرأة يمكنها أن تقول ما قالت وأن تصل إلى ذلك الحد من المعرفة والعرفان؟!

والتاسع (وهو أبدعها): يستولي عليه في المقبرة ــ بعد زيارته قبري رضا وپري كمال: [... هزة عجيبة أخرى كانت لا تزال بانتظاره. ففي انتهاء مجموعة (حديقة الشهداء)، قبل أن يدخل السيارة في مبتدأ قطعة من مجموعة الأموات العاديين والعموميين، وقع بصره على قبر جديد، جلب نظره... بقدمين مرتجفتين، وكما لو بفعل جاذبية من مغناطيس، أو سحر أساطير، جاء إلى أسفل حجر المزار... وكانت الكتابة على الحجر المرمري تعلن: «المرحوم الدكتور حبيب الله خداداد جنت ــ الميلاد: طهران.. ١٣١٥ (هو أيضاً من مواليد المدينة والسنة نفسيهما) ــ الوفاة: ١٨ بهمن ١٣٧٠ ــ آبادان (وهو موجود في آبادان، وذلك اليوم قريب من يوم لقائه بپري!)] (ص٢١١). حتى أنه لم يصدق، وأخذ يتحسس نفسه ويتأكد من أوراقه وبطاقة هويته!

وفي اليوم التالي، يجد بين الأوراق الرسمية المعروضة عليه إضبارة سيدة، يراد أن يقابلها لمعرفة صلاحيتها لتسلم مسؤولية أحد أقسام المستشفى، فيوافق، وعندما يقابلها تتم دهشته: إذ أنها تشبه پري كمال شكلاً ولباساً وحركات! كما أنها مثلها أيضاً تعرفه من كتبه! ولاحظ أن في عنقها شيئاً عندما حدق فيه وجده مدلاة «الله»، والشدة على لامه مائلة: إنها الميدالية التي اشتراها هو لپري نفسها! أو في الأقل مثلها. «إن پري كمال، من تحت ترابها (حديقة الشهداء)، تعمل حسب ميثاقها في آبادان» (ص٢١٥).

* *

الرواية تبدو أشبه ما تكون بإعلان «براءة» الكاتب من ماضيه: إنه يريد أن يعلن إيمانه بالدين، وبالإسلام تخصيصاً، حد التصوف. فإضافة إلى النصوص

التي اقتبسناها سابقاً، نجد نماذج أخرى كثيرة. كما أن ــ وهذا أكثر أهمية ــ جو الرواية العام يدور في تهويمات صوفية، وعقدة الرواية كلها أشبه بشطحة صوفية.

وقد استعملت كلمة «براءة» بالذات قاصداً متعمداً، لأن الحديث ينحدر أحياناً إلى مستوى الشعارات، ويسوده ابتذال يبعده عن حوار معقول بين إنسانين عاديين: رجل وامرأة يريدان الزواج **المؤقت**، ويمارسانه. خذ مثلاً قول پري: «إنني أغبط رضا (زوجها الشهيد) ــ الذي مات بشكل جميل ومات في شبابه، من أجل هدف كان يؤمن به في زماننا.. لقد أثبت ووصل.. كان بمقدوره أن يبقى حياً، أن يلعب هنا وهناك حول الجبهة وفي زواياها، ويصير الآن رئيس المحل الفلاني ــ ولكنه **بقي مع الله، فاختير، وبلغه**...» (ص ص١٠٩-١١٠)، أو مثلاً تفكير الدكتور آدميت:

«.. في زاوية من ذهنه كان عازماً أن يقترح على پري أن ينطلقا منذ الغد، قبل أسبوع من حلول شهر رمضان إلى استقباله والصوم مسبقاً! كان فؤاده يهوى ذلك..» (ص١٥٤).

ويبلغ الابتذال هاويته في الحديث عن رئيس الجمهورية، فبعد سيل المدائح الذي كاله الدكتور له، تعلق پري بالقول:

[ ــ «الآن تفهم أي طلاب هم طلاب الإمام قُدِّس سره». فيقول: ــ «وأي تَعَهد عندهم»] (ص٥٩).

ولكن، لأن إسماعيل فصيح المسكين غريب على الدين، ولأن كل حديثه ذاك إنما كان مجرد شعارات، فهو يقع في مطب واضح: فالدكتور، الذي صار ملكياً أكثر من الملكيين، بعد أن ينهي صلاته ذات ليلة يجلس ليقرأ تفسير سورتي «الممتحنة» و«الصف»، وما أن يبدأ الحديث عن الممتحنة حتى تقول

له: «هنيئاً لك. تعالي إلى هنا (إلى الفراش)، فقد قمت بالعبادة والإنفاق»، وعندما يتردد تقول: «تعال، إني أعطيك اليوم درجة نجاح» (ص١٤٢). فهي تضاجعه مكافأة على تدينه!

* *

وبعد، فالرواية تحمل السمات نفسها التي تحملها روايات فصيح الأخرى. فعدا عن التنبيه الكلاسيكي عن خيالية الأحداث والشخصيات، وتثبيت التاريخ الدقيق، وهو هنا (صباح الجمعة، ٤ بهمن ١٣٧٠ = ١٩٩١/١/٢٤)، وكثرة الأحلام ــ المقبولة هنا لأن الجو كله يشبه حلماً ــ والمعرفة الواسعة بالأدوية والعلاجات والأجهزة الطبية ــ وهي أكثر قبولاً فالبطل ليس مريضاً فقط وإنما هو طبيب اختصاصي أيضاً.

وإذا كان الكاتب قد أبدل اسم بطله ــ هل سئم من جلال آريان؟ لا أظن، بل ربما لأنه يريد شخصاً لا نعرف مباذله معرفة عينية ليلبسه عباءة الصوفيين ــ فهو لم يتمكن من تبديل غير هذا الاسم. فالبطل هو جلال آريان نفسه: من مواليد ١٣١٥، في طهران، واسم أبيه حسن، وهو يحمل الأعراض المرضية ذاتها التي عرفنا جلالاً يحملها، كما أن لغته هي لغة ذاك نفسها: «جاءت معها بابتسامتها الوضاءة وعينيها الزيتونيتين المسرورتين أيضاً» (ص٩٠). وسائق سيارته «جاء بنصف وجهه ذي الكدمات ورجليه العرجاوين معه أيضاً» (ص٢٠٥). ورغم كل هذره عن عشق الدكتور ليري ووحدانيته بها، فإنه لا يقوم ــ كجلال أيضاً ــ يوماً بمساعدتها في أعمال المنزل، لا في بيتها ولا حتى في بيته هو!.

## ١٠ ــ أسير الزمان

يعود جلال آريان مرة أخرى، كما يعود الزمان، إلى وراء أيضاً. يعين موظفاً بشركة النفط الوطنية، فيلتحق بــ(كوت عبد الله)، حيث يستقبله مسؤول إداري، وطالب يمثل طلبة المدرسة الفنية التي سيشتغل جلال مدرساً فيها. عندما يفكر في هذا الطالب وفي حسن استقباله لا يستبعد أن يكون مأمور ساواك، ولكنه يعجب به شيئاً فشيئاً: «لكن علي ويسي كان شيئاً آخر.. بسبب حس القيادة الذاتي عنده ــ ودرجاته الكبيرة ــ هو منذ الأيام الأولى «مرشد» الفصل، أو ــ حسب التعبير الذي أطلقتُه على صفوف اللغة الإنكليزية **Class Assistant**... كان من جملة وظائفه جمع الكتب والدفاتر والأوراق من المكتب وتوزيعها بين الطلاب، تمرير تقارير الحضور والغياب اليومية... و ــ أجدر وأهم من كل شيء ــ ترتيب توزيع وتعقيب الأوراق آخر كل شهر لاستحصال «معونة المصاريف» للطلبة من محاسبات إدارة الأمور المالية للمنتسبين وتوزيع المبالغ النقدية على هؤلاء واستحصال تواقيعهم.

«وواحدة أخرى من خصائص علي ويسي الجالبة للانتباه كانت، منذ تلك الأيام الأوائل، قدرته على إحالة بعض الأعمال على الآخرين و«إشراك» هؤلاء في أعمال القسم ــ وخصوصاً في مراحل مبادلة الأوراق وأخذ التواقيع لــ(معونة المصاريف) الشهرية للطلبة... ولكن كان هو من يأخذ الأموال من الــ**Cash Office** ويسلمها للطلاب واحداً واحداً ويستحصل تواقيعهم في قائمة ــ لم يكن يريد أن يذهب فلس واحد هدراً، وهذا «وجدان» عمله الجيد أيضاً» (ص٩). وهو يعرف من أحاديثه مع علي ويسي أن هذا يعرف بتسلط شركة النفط الأنكلو إيرانية على الكونسرسيوم العالمي المتسلط على نفط إيران، وكون شركة النفط الوطنية مجرد وسيلة لتقديم الخدمات والتسهيلات لتشديد النهب، فهو «قد كبر مع هذا، وهو ينتقده، ويئن غيظاً أحياناً» (ص١٠).

ويحكي له علي ويسي شيئاً من حياته: أبوه شاب من طهران، يبدو أنه كان وسيماً أنيقاً، يرى أمه ذات يوم في الشارع فيلحق بها ويعرف عنوانها ويأتيها خاطباً، ثم يأتي ومعه معمم وموظف أحوال مدنية فيعقد عليها. يعاشرها سنين فتنجب علياً هذا منه، وفجأة يختفي ويأخذ معه كل ما يدل على هذا «الزواج»!

ولكن علي ويسي كان مهموماً ذلك اليوم لسبب آخر، يعرفه الراوي فيما بعد عندما يقرأ جريدة المساء، وهو إبعاد الخميني إلى تركيا. وعلي ويسي، فيما يبدو، مناضل. يريد الراوي أن يطيب خاطره ذات يوم، فيقول له: ما مضى قد مضى، ولكن هذا يقول: [ ــ «إن ماضينا لم يبدأ بعد، يا سيدي المهندس». إنها لجملة عجيبة، ويحتمل أن تكون حبلى بتصميماته واعتقاداته» (ص ص٢٠-٢١). في هذا الحديث إياه، يعلن ويسي عن آرائه بوضوح مرتين:

[ ــ «يا سيدي، يجب ألا يترك المسيئون في المجتمع الإسلامي أحراراً في فسقهم وفجورهم.. كما تفعل الحكومة الراهنة. ينبغي ــ اعتماداً على، واتباعاً للرسول الأكرم (ص) ــ السعي لإجراء أحكام، وفرض نظم الإسلام». و«سيدي المهندس: إن عيدنا يبدأ يوم استئصال الظلم من هذا المجتمع»] (ص٢٢).

كما يتعرف الراوي ــ بوساطة أحد زملائه في المدرسة الفنية والعامل الآن معه ــ على قريب لهذا الزميل قادم من طهران: ضابط شرطة، يعرف منه أنه سبق له أن عمل في أهواز سابقاً، ولذا فقد نقل إليها الآن. ويعرف منه أيضاً أنه سبق له أن تزوج مرتين وطلّق. وهو يقدر أنه ربما كان يعمل في الساواك. ومع ذلك فالكاتب ــ وهو فيما يبدو يتعجل الإيحاء لنا بوجود رابطة بين الإثنين ــ يحدث هذا الضابط عن علي ويسي وأفكاره!

* *

أثناء تقدم علي ويسي في الدراسة، يتعرف على فتاة في فصل استحدث للبنات في المدرسة، كما يظهر بين كتبه «مفاتيح الجنان» ــ وهو كتاب أدعية ــ وكتب ممنوعة لمطهري[٥٦] أو شريعتي[٥٧]، ويحس الراوي كذلك أنه على اتصال مع جماعة سرية تصدر نشرة ضد النظام.

هذه الفتاة، شهرناز، لا تشوبها شائبة من حيث الأخلاق والانضباط، أما من حيث سرعة الضرب على الآلة الطابعة وقلة الأغلاط فيها فهي الطالبة الأولى (ونلاحظ هنا أن شهرناز، في التاريخ، هو أول اسم امرأة يرد في الـ (شاهنامه)، بوصفها من بنات الملك الكياني جمشيد، يغتصبها الضحاك[٥٨]!

وذات يوم يفاجئ الراوي علي ويسي وشهرناز منفردين في ساحة مهجورة بحديقة المدرسة، فيأتيه علي ويسي في اليوم التالي ليوضح سر الخلوة: وهي أنهما كانا يتبادلان كتاباً، وسرعان ما يزول شك الراوي المازح ــ الذي يتصور ذلك مجرد ذريعة ــ عندما يعرف أن الكتاب هو «فاطمة هي فاطمة»، لعلي شريعتي، وهو كتاب شبه ممنوع حينئذ. ويثقف علي ويسي الراوي بشيء من أفكار شريعتي، ولكن الراوي يوقفه عند حده، منبهاً إياه إلى مخاطر نشاطه ويأخذ منه قولاً بأن يكف عنه إلى ما بعد تخرجه والعمل.

ويوقف الساواك علي ويسي، مع آخرين، ثم يطلق سراحه مع بعض هؤلاء الآخرين، ولكن «بالنسبة لعلي ويسي فقط، كان من سوء حظ هذه الأيام أن يكون هذا التوقيف والإضبارة المكوَّنة نتيجة له، نقطة سرطان أو طاعون له» (ص٤١).

ويرسل الراوي في هذه الأثناء في دورة تخصصية لمدة سنة، فتنقطع عنه أخبار علي وشهرناز، ولكنه يتذكرهما لماماً ويتساءل مع نفسه عما جرى لهما. وبعد عودته، يرى زميله المذكور آنفاً فيسأله عنهما، ويقول هذا إن علياً لم

يتزوج بعد، ولكنه خاطب، ومع ذلك فوضعهما معقد لأن قريبه ــ ضابط الشرطة ــ وهو ساواكي حقاً ــ ربما كان مانع زواجهما: فهو قد رأى الفتاة، فأعجبته، وخطبها، فرفضته، فحقد عليها! ويبدو أنه لفق لأبيها تهمة المتاجرة بالأفيون فتعتقله الشرطة، ويقابل الساواكي ــ نفيسي ــ الفتاة ويعدها بالتعاون معها لإطلاق سراح أبيها.

وتتصل شهرناز نفسها بالراوي تلفونياً لتخبره أن ويسي معتقل منذ ثلاثة أسابيع، وتلح عليه في طلب مساعدته ــ فهو الذي ضمنه عند اعتقاله الأول ــ وذلك عن طريق الطلب من نفيسي بأن يتركهما وشأنهما! فيلاقي الساواكي لقاء استطلاع، علّه يجده لانَ قليلاً، ولكن «في الليلة التي دبر الدكتور حبيبيان اللقاء خلالها في النادي، ويأتي الرائد فنجلس، يتضح سريعاً، وضوح النهار، أن أي أمل في لين الرائد نفيسي هو مجرد كتابة على ريح أسفل السافلين». (ص٦٧). إذ «أنظر إليه. أجد أن ــ خلال هذه الخمس سنوات أو الست ــ علائم التبدل في الرائد نفيسي تقتصر على عشرة أو عشرين كيلو غراماً من الشحم الإضافي، وما تحت عينين منتفخ، وسطوة قوية في حالة انفجار. إنه غول بلا قرنين ولا ذنب. حسب قوله هو، إن رسمت صورته على جدار المستراح لأجفل الإبريق...» (ص٦٧). ويجد أنه لا فائدة من مجرد طرح الموضوع.

وتستسلم الفتاة فتقبل الزواج من الرائد نفيسي.

ويلاقيها الراوي ذات يوم عرضاً... فيلاحظ أن منديل رأسها أكثر التصاقاً برأسها من المألوف، لا شيء من الشعر المرتب على شكل كرة، وعندما تحكم وضع المنديل تجعله يكتشف أن رأسها حليق (ونتذكر هنا أن ذلك ماسبق أن فعله أبو علي بأم هذا عندما «تزوجها» قديماً) وترسل له شهرناز صورتها

[في قميص أزرق غامض وياقة مقلوبة بيضاء ــ حليقة الرأس. وقد كتبت خلفها بخط يدها: «فقط وفقط وفقط، لك ولله». بأي تأكيد تطلب أن أخفيها!] (ص٧٩).

ثم يجد صورة لنفيسي، يرافق فيها الشاه ورئيس الوزراء، في مجلة، فيقطعها بعناية ويضعها إلى جانب تلك ويخفيهما في مكان أمين.. (عدا عن غرابة إرسالها صورتها، وافتعال عثوره هو على صورة الآخر، فإن عمله يبدو غريباً أيضاً منه هو الخوّاف المتحسب العملي!)

ولمناسبة العام الجديد، يتلقى بطاقتي تهنئة، إحداهما من ويسي والأخرى من «SH.N القرعاء»، مع جملة مكتوبة في أسفل البطاقة: «من المقرر أن ينتقل الغول إلى أهواز، يوم الثالث عشر من الشهر الأول. أي يوم نحس نجس أغبر». (ص ص٨٢-٨٣).

ويرجوه ويسي أن يشرفه وأمه بزيارتهما في العيد. ولأنه سبق له التهرب من دعوات عديدة سابقة، يقوم بالزيارة الآن. ولكي يجعل ويسي يفهم جيداً من هو نفيسي، يحمل صورته تلك معه، ويريه إياها عندما يهم بمغادرة البيت. فينظر إليها ويسي بنفور شديد، ثم يريها لأمه، فتكون النتيجة، طبعا: «من النظرة التي ألقيها على وجه السيدة أفسانه ويسي أرى لونها قد انخطف وعينيها تحدقان إلى الصورة بشكل رديء»! (ص٩٥).

ثم يأتي رئيس ساواك آبادان، مصطحباً رئيس ساواك أهواز ــ نفيسي ــ إلى الكلية حيث يعقد اجتماعاً مع أساتذتها، ينبههم فيه إلى ضرورة الاهتمام بكل نشاط يضر البلاد والإبلاغ عنه. ينتهز الراوي تلك الفرصة فيطلب من حبيبيان ــ المعرفة المشترك ــ أن يدعو نفيسي للعشاء، بعد أن سمع أن هذا بصدد زواج جديد، عله يستطيع أن يقنعه بترك شهرناز. ولكن هذا يواجهه بتهديدات

مبطنة تخصه شخصياً، مع إشارات واضحة إلى معرفته بكل شيء عنه بما في ذلك علاقته بعلي ويسي وأمه.

ويسافر الراوي مرة أخرى إلى الخارج، ويعود إلى إيران بعد سنة.

ويلتقي ويسي فيسمع المزيد من شعاراته، ولكنه لا ينزعج منها الآن، بل يطلب المزيد.

ويسافر الراوي إلى طهران لينطلق منها إلى أميركا ليسلم ترجمة كتاب تعاقد عليه، وذلك في أواخر ١٩٧٧ ــ أوائل ١٩٧٨، وفي الطائرة يقرأ المقالة الشهيرة التي نشرتها جريدة إطلاعات في المساء السابق، فيعرف «أن النظام قد نهض، وأي رجل دين مبعد عرّض للإهانة، وحتى للبذاءة!» (ص١٣٦)[٥٩].

وفي أربعين شهداء الاحتجاج على تلك المقالة، تعتقل علي ويسي قوةٌ من الساواك على رأسها نفيسي! ويتوسط بعض الأساتذة ــ من بينهم الراوي ــ ويمارسون ضغطاً، إلى جانب ضغط رجال الدين، لإطلاق سراح الطلاب الخمسة إضافة إلى علي ويسي. (أفلا تبدو الوساطة في تلك الأيام، أيام بدء الثورة الكاسحة، غريبة؟ وأغرب منها وساطة رجال الدين وأصل الموضوع ضدهم؟! وأغرب أيضاً وساطة الراوي الذي يعرف بتعمد نفيسي؟!).

وعندما يدعو المرحوم الخميني إلى منع تصدير النفط، أيام الأحكام العرفية، يناضل علي ويسي لتنفيذ ذلك، فيجرح.

وفي استعراضه لأحداث الثورة، يأخذ الراوي نفسه الآن بإطلاق الشعارات، بل إنه يقول: «يأتي أحياناً، ما بعد الظهر، علي ويسي إلى مكتبي متعباً، فنجلس ونثرثر، ويحدثني عن آخر الأخبار المتعلقة بطيران الإمام من باريس ــ على أمل أن **نتمكن** من الانصباب ذات يوم إلى داخل الساواك **ونأخذ** آخرَّ معاقل العدو..» (ص٢٢٨).

وفي خضم النضال، يأتيه علي ويسي بمسدس ليستفيد منه عند الحاجة نظراً لاضطراب الأمور، فيأخذه ويخفيه ضاحكاً!

وإذ تميل كفة الثورة إلى النجاح يختفي نفيسي ــ العقيد الآن ــ ويقفز ذات يوم إلى سيارة الراوي ــ متخفياً بملابس امرأة، ويطلب مساعدته على الهرب، فيأخذه هذا إلى بيته، ثم يحمله ــ تحت تهديد ذلك المسدس ــ على كتابة وتوقيع ورقة يعلن فيها طلاقه لشهرناز. ويتساءل العقيد ماذا ستفيده ورقة الطلاق وشهرناز مجنونة، فيحدثه الراوي عن مشاريعه لها! (لماذا يتبسط معه ويكاشفه فيما هو فرض عليه إرادته بقوة السلاح؟!) ثم يسلم نفيسي لعناصر الثورة.

وهو يخشى على شهرناز من نفيسي، إذ أن لهذا «مأمورين وأصدقاءً في أهواز وهو يخاف أن تتحدث شهرناز ــ المحررة ــ بأشياء عن أعماله» (ص ٢٤٤). (ترى أية أمور يخشاها العقيد فوق أنه مسؤول ساواك أهواز سابقاً، ومعذب علي ويسي والمتسبب في قتل أحد أفراد حراسة شركة النفط، قبل ذلك؟!).

على كل حال، فالراوي يأتي بشهرناز إلى بيته ــ الذي سيغادره عائداً إلى أميركا في إجازة دراسية ــ وتصحبها أمها وتقوم أم علي بزيارتها والعناية بها.

وبعد التلميحات والغزل المبطن وتدخل أخت الراوي ــ فرنگيس ــ مزاحاً وجداً، يفاتح جلال السيدة أفسانه ــ أم علي ــ صريحاً بمشروع الزواج منها قبل سفره. وأثناء إقامته في الولايات المتحدة يفهم من أفسانه أن شهرناز تعرف السر! كما يعرف أنه بعد انقضاء مدة طويلة على انتصار الثورة ليس ثمة من خبر عن محاكمة نفيسي، فكيف بإعدامه!

وفجأة تصله رسالة من أفسانه، بعد انقطاع علي عن مراسلته لمدة أسبوعين:

«... أنا نفسي مضطرة الآن للإجابة على رسالتك التي وصلتنا قبل أسبوعين ــ كي تخرج من القلق المحتمل، إن كان ثمة قلق».

«إن عليا مريض للغاية وقعيد البيت منذ عشرين يوماً، وفجأة لم يعد يهتم بالعمل أو بأي شيء أصلاً. لا أدري ما سبب اختلال حواسه أو اضطرابه المفاجئ ومصيبته... لا يمكن أن يكون ذلك بسبب وفاة جده وجدته، لأنه قد أقام المراسم في حينها كاملة بدقة، وكانت حاله آنذاك حسنة. ولكن قبل ثلاثة أسابيع جاء إلى البيت عصر أحد الأيام محطماً ساهماً أصم أبكم.. وبدون أن يتكلم معي أو يسلم عليّ أو يذوق طعاماً، ذهب إلى غرفته وأغلق الباب.. وبقي يومين أو ثلاثاً لا يأكل طعاماً ولا يخرج من البيت... ذهبت إلى مقصوديان وطلبت منه أن يعوده ويكلمه ويمرر له طلب إجازة ــ ولكنه لا يكلم مقصوديان أيضاً. وفي هذه المدة لم يذهب إلى شهرناز وأمها غير مرة واحدة... وتلك الليلة ساءت حاله عن السابق أكثر. مهما فعلت لم أستطع أن أفهم ماذا قال أحدهما للأخرى.. في الأسبوع الأخير، مع أنه ذهب للعمل احتراماً لك ــ بناء على توصية... ولكنه ما زال منطوياً على نفسه ويحيا داخل نفسه، لكنه ليس عليّي ذاك... على كل حال، قلت لنفسي أن أكتب بضعة الأسطر التافهة هذه لك لكي تطمئن أن الجميع هنا، على الأقل، سالمون ــ فيما عدا انطواء وانقطاع علي هذا عن كل شخص وكل شيء... كما أن محاكمة العقيد الملعون نفيسي تمت منذ ثلاثة أسابيع، ومع أنه حكم عليه بالإعدام، إلا أن حكم إعدامه ــ يوم التنفيذ بالذات ــ ألغي فجأة وأبدل إلى السجن المؤبد... يعني منذ ذلك اليوم نفسه الذي بدأ فيه اختلال حواس علي..» (ص ص٢٦٩-٢٧٠).

«ولكن [بضعة الأسطر التافهة]... هزازة أكثر من ذلك، ومؤلمة جـ ... تجبرني هذه الرسالة، منذ اللحظة الأولى، على تغيير برنامجي فأقدم تاريخ

سفري إلى أسرع ما يمكن وأتجه إلى آبادان... إن رسالة أفسانه ليست رسالة رفع [قلق] عني وتحقيق اطمئنان أو [راحة بال] لي: إنها التماس معونة ــ وكذلك فهي تحوي، بحذر وعلى نحو غير واع، مسائل مشؤومة وأحاسيس بقيت مكتومة» (ص ص٢٧٠-٢٧١).

يعود إلى إيران ويتصل بالمحامي كوهساري ــ الذي رتب طلاق شهرناز رسمياً ــ تلفونياً:

[ ــ «ما أخبار أصدقائنا في آبادان وأهواز؟ ليلى ومجنون ويس..».

ــ «ها.. بهذا الخصوص يمكنني أن أفرحك».

ــ «أفرحني. لقد تسلمت أمس رسالة من أم مجنون أقلقتني».

ــ «لك أن تصدق أو لا. لقد عقدت ليلى على مجنون!...».

ــ «هل عرّسا أيضاً؟» يتريث فترة:

ــ «بهذا الخصوص لا أستطيع أن أفرحك، أو أن أفرح أياً كان..». فأسأله:

ــ «... وماذا عن العقيد ابن الكلب؟ لماذا انطوى عليّ على نفسه؟...»....

ــ «لا أدري إن كنت قد سمعت أم لا. أوائل أرديبهشت (أواخر نيسان) جرت محاكمة العقيد أكبر نفيسي في محكمة الثورة بآبادان لجريمة سابقة العمل في الساواك، وحكم عليه بالإعدام وهنا تنقلب الأوراق... ويقف علي ويسي نفسه في مقدمة مجموعة التقدير... الخلاصة منذ يوم أن كان مقرراً أن يعدم فيه العقيد ولم يعدم، ذهب (علي) إلى عالم الصمت والماليخوليا. «لقد سمعت من أصدقائه أصل مسار الواقعة المرة. وربما كنت تدري ولكنك لم تخبرني، أيها اللعين. ولكن إن كنت تدري، فقد كان الواجب أن تخبرني»...

ــ «ما تفاصيل الواقعة؟».

ـ «حين الإعدام، اصطف إثنا عشر مناضلاً أمام العقيد على شكل حظيرة... وكان أحدهم علي ويسي».

ـ «حسناً.. لقد كان هذا حلمه طوال أربع عشرة سنة».

ـ «فاسمع إذن. العقيد ابن الكلب، يداه مقيدتان خلف ظهره، ويستقر أمام حظيرة من شخصين (العشرة الآخرون إلى وراء). لم يكونوا عصبوا عينيه. وعندما يريدون إصدار أمر إطلاق النار، ينادي ابن الكلب هذا علي ويسي ويرجوه أن يتقدم إلى أمام دقيقة ليقول له شيئاً».

«يقول: يا ولدي ابتعد أنت. فالحائط ورائي اسمنتي، ويمكن أن تتشظى الإطلاقة فترتد إليك. لا أريد لولدي أن يصاب بجرح»... وأسأل:

ـ «وماذا قال أيضا؟...»

ـ «لو كنت تعرف الحقيقة لأمكنك أن تخمّن.. أمام إثنين أو ثلاثة من أفراد مهمة الإعدام يكشف له أنه أبوه حقاً، في أهواز.. ويقول أشياء دقيقة وتفاصيل يستحيل أن يكون يعرفها شخص غير ابن الكلب ذاك نفسه.. علي نفسه لا يقول شيئاً.. يبقى مذهولاً مبهوتاً.. مذهول! ساكت! ويقترح عليه بقية أصدقائه المناضلين أن يؤجّل الإعدام حالياً من أجل نضال عليّ ومعاناته..»] (ص ص٢٧٣ ـ ٢٧٤).

ويتلفن الراوي من أهواز إلى منزل علي ويسي، ويتواعد مع عليّ على اللقاء في غروب اليوم التالي في بيته. يأتي علي، وبعد التحيات والمجاملات:

«ينظر في عينيّ. كان يجلس إلى جانبي على مقعد الشخص الواحد عند الطرف القريب من مبردة الهواء. ومع أنه كان متكئاً، إلا أن ساقيه مضمومتان معاً ومحشورتان في زاوية، وقد تشابكت يداه، على صدره، تحت قلبه تقريباً. ثم

يدلي رأسه إلى أسفل... وكنت أولع سيجارة بولاعتي وإذا عيناي تريان اختلاجات كتفيه وصدره وكل بدنه. ثم يهزني صوت انكسار البكاء في صدره وحلقومه. لم يكن في الجملة التي قلتها شيئاً مهماً. لابد أن الانفجار كان من داخله. أو بسبب وجودي..» (ص ص٢٧٨ ــ ٢٧٩).

والطريف ــ وأقول هذا في جملة اعتراضية ــ أن همّ علي ويسي وصدمته وانطواءه ناتجة عن عدم إمكانية تنفيذ حكم الإعدام، لأنه:

[«.. وذلك اليوم.. ذلك اليوم عندما كشف السر أمام حظيرة الإعدام، لم أكن أظن أولاً أن ثمة من يعرف هذا السر.. ولكن ابن الكلب قال إن شهرناز تدري!...

«ثم قال إن شهرناز تدري منذ سنوات ــ وشهرناز الآن زوجتي الرسمية. إن قتلته، فسيكون (ذلك) قتل انتقام.. وذلك إثم..»]. (ص ص٢٨٠-٢٨١).

والطرافة، بل المسخرة، هنا بالذات. فبإمكانه هو أن ينسحب من حظيرة الإعدام ويترك التنفيذ لغيره، ثم إنه لم يكن قاضياً ليتحمل «إثم» «القتل الانتقامي»!

وهو يتجاهل، بل يجهل، المصيبة الأكبر في الأمر، وهي أن شهرناز ــ وقد كانت امرأة أبيه ــ لا تحل له شرعاً. ولو كان يدري بذلك، لكان سبباً معقولاً لصدمته، ولكنه لا يدري ــ هو المتدين العريق! كما لم تكن تدري به أمه! ولا المحامي الذي اتخذ إجراءات الطلاق، وهو دكتور في القانون!

ولو كان جلال آريان المتأمرك، الليبرالي، هو الجاهل وحده بهذا التحريم لهان الأمر.

وهكذا، فقد ذهبت كل مساعي إسماعيل فصيح لــ«تبييض صفحته» أمام النظام الجديد وإدعائه الإيمان بالإسلام، بل والتصوف فيه ــ الذي شهدناه في «الشراب العتيق» ــ أدراج الرياح!

ليس هذا فقط، فعلي ويسي ــ وهو في وضعه النفسي ذاك ــ يطالعنا مرة أخرى بشعارات لا أول لها ولا آخر (ص ص٢٨٤-٢٨٦)، ويفتعل الراوي أحاديث لا يمكن أن يكون يريد بها غير تملق النظام، من مثل:

«واحذر من محروق أب[٦٠] فتوة. مع وضع قوى الأمن، التي لم يتم تطهيرها بشكل جيد بعد، ووجود هذا المسيو[٦١] بني صدر رئيساً للجمهورية وقائداً عاماً للقوات المسلحة.. فثمة مخاطر» (ص٢٨٧). في حين أن بني صدر كان في تلك الفترة محبوب الخميني المقرب. أو مثل: «في كل البلاد لم يتحقق بعد الانسجام الكامل بين حكومة أبي الحسن بني صدر رئيس الجمهورية والمهندس بازرگان رئيس الوزراء» (ص٢٩٢). ومثل:

«عدم التجانس بين المسيو بني صدر الليبرالي والسيد المهندس بازرگان القومي الإسلامي» (ص٢٩٥). في حين أن رئيس الجمهورية لم يكن آنذاك أكثر من رئيس تشريفاتي، وكان الخلاف، في الحقيقة، بين المرحومين الخميني وبازرگان.

وكما هو جاهل في الدين والسياسة، فجلال آريان ــ ومن ورائه إسماعيل فصيح طبعاً ــ جاهل في المعلومات العامة أيضاً:

«الجنرال صدام حسين العفلقي، الذي أخذ بيده زمام أمور الدولة من أبي زوجته حسن البكر، المسلم/ الاشتراكي» (ص٢٩٥)! و«العراق الصغير ذي السبعة الملايين نسمة» (ص٣٢٧).

وطبيعي أن هذا الهذر لا يستطيع أن يفعل شيئاً، هو الآخر، في مساعي إسماعيل فصيح الظاهرة للتقرب من النظام أو ــ في الأقل ــ لاتقاء شره!

* *

على كل حال، يخبر جلال علياً بأن شهرناز في وضع نفسي أسلم بكثير مما يتصور، لأنه كان ترك كتابين في بيته وجد بعد عودته أن أحدهم قرأهما عدة مرات، ومد خطوطاً تحت بعض الفقرات الحساسة فيهما: «إن شهرناز، في أعماقها، بقي أصل وضعها النفسي سالماً، يا علي» (ص٢٨٣).

ويذهب علي بشهرناز إلى مدينة مشهد لقضاء شهر العسل، والغريب أنه يجدها باكراً حيث لم يدخل بها أبوه. (لماذا تزوجها إذن، بأفكاره تلك عن المرأة ونظرته إلى الزواج؟!). ويتزوج جلال آريان من أفسانه (ص ص٣٠٢-٣٠٣) ـ وقد نسيها فحذفها من سجل زوجاته في رواياته التي تؤرخ لمراحل أحدث، كما سبق أن نسي زوجته في «الشراب الخام» أيضاً.

ثم نفهم أن نفيسي عنده بيت في طهران مسجل باسم زوجته الجديدة (الأصح أن نقرأ: الأخيرة، فقد مضت سنوات على زواجه بها. وتسجيل البيت باسمها غريب أيضاً من العقيد، مع نظرته للنساء وسبب زواجه بهنّ وحتى نظرته للزواج أصلاً!)، كما أن عنده طفلين منها، وهي لا تزال تحته، وهذا أكثر غرابة، أيضاً.

بعد أن يعود علي وشهرناز من شهر العسل، تتطور المناوشات الحدودية بين العراق وإيران إلى حرب حقيقية، فتتصل أفسانة القلقة بشهرناز، التي تطلب منها أن تأتي إلى بيتها لتكونا معاً فتشعران بالطمأنينة (ص٣٤٤)، (ولكن المنطقي أن تذهب هي ـ التي يقع بيتها في خط النار ـ إلى بيت أفسانة وجلال!). ولكن الكاتب يبيت نية هائلة كما سيتضح! فبعد الهجوم العراقي الكاسح، يسرع جلال إلى بيت ويسي فيجده مصاباً بقذيفة، ويرى أم شهرناز قاعدة على السلم الخارجي تلطم! ويتخلص الكاتب من أفسانه! (ص٣٥٧)، ويلحقها بشهرناز، الحبلى المسكينة! (ص٣٦١).

ولست أدري أيهما أبرز: افتعال الأحداث هنا أم روعة الوصف والحوار (ص ص٣٤٩-٣٥٧) و(٣٥٧)، ووصف لقائه، بعد صحوته من الجلطة الدماغية، بعلي:

[أسحب نفساً. ــ «الأم؟». ــ «دفناها في المقبرة... في (ذو الفقاري)». يحك زاويتي عينيه. ــ «وشهرناز؟». يأتي من الخارج صوت رشقات مضادات الجو والرشاشات والقذائف. ــ «إنني الآن... قادم من هناك مرة أخرى. وينبغي أن أذهب عصراً إلى خرمشهر.. الأمور ملخبطة على أسوأ حال، وليست ثمة خدمات». ينظر أحدنا في عيني الآخر. أخمن لماذا. ــ «قالت لي الممرضة...». وفجأة ينشرخ، ومنذ البكاء الأول يضع يداً على عينيه، وإذ يتفجر صدره وحلقومه يضع رأسه قرب ساقي على الفراش» (ص٣٦٣).

ويتهدم السجن الذي فيه نفيسي بالقصف، فيهرب كل السجناء، وهو من بينهم (ص٣٦٦). ويفكر الراوي، ويحاول أن يوحي لعلي، بأنه هو المتسبب في موت شهرناز إذ خنقها وهي في المستشفى (ص٣٦٧). ولكن عليا لا يفهم أو لا يريد أن يفهم (ص٣٦٨).

ثم يعرف الراوي من الممرضة أن نائب ضابط شرطة سأل زوجة مقصوديان عن حالة شهرناز وأنها قالت له إن المسكينة لا زالت في المستشفى (ص٣٧١). ثم ينتهز فرصة فيسأل الممرضة، التي كانت خافرة يوم وفاة شهرناز، إن كان أحدهم، شيخ سمين في الستين، سأل عن شهرناز أو زارها، فتقول إن نائب ضابط في الشرطة في نحو الستين سأل عنها، وإنها ــ عندما سألها عنها ــ طلبت منه أن يعود صباحاً. (ص٣٧٥). ولكن الراوي لا يخبر علياً بكل ذلك! (ص٣٧٧). وإذا استغربنا هذا التكتم، فمن الأحرى أن نستغرب اهتمام العقيد الساواكي بمطاردة شهرناز بهذا الإلحاح وهذا الشكل الذي يعرضه

لخطر الانكشاف! ألأن عليا أخذ شهرنازه؟ ومتى كان يهتم لامرأة، خاصة بعد أن يستحوذ عليها؟

وكأن كل تلك الكوارث لم يكن كافياً، إذ:

«.. وللأسف، ففي حدود الساعة الثالثة يأتي مقصوديان فيجلب خبراً آخر سيئاً: بانهيار جسر خرمشهر يستشهد كل فتية الجامعة المناضلين، الموجودين على ذاك الطرف من الماء، أو تنفقد آثارهم، ومن جملتهم علي ويسي» (ص٣٨٢).

ولما كان جلال نفسه قد أصيب بجلطة دماغية نتيجة لموج انفجار ولمشاهدته أفسانه وهي تنازع، فبعد أن يشفى يبقى في المستشفى مدة لمعالجة ضعفه وجرح لسانه، ويعمل في هذه الأثناء في خدمات المستشفى. ويتفق مع أخته على أن يسافر إليها في طهران، ولكن ضياع أثر علي يؤخر سفره أياماً، وعندما يصل إلى طهران يفهم من أخته أن علياً أسر، وأن إحدى صحف طهران نشرت صورته في الأسر.

ويختصر الأحداث اللاحقة في سطور ـ تكوّن أحداث روايته (ثريا في غيبوبة) ـ ليعود إلى طهران حيث يلاقي صديقه القديم پزشكيان ـ قريب نفيسي ـ الذي يفهم منه أن نفيسي موجود في طهران، وأنه يشتغل في تجارات مريبة، ويجمع المزيد من المال، وأنه حذف (نفيسي) من اسمه الكامل مختصراً إياه إلى (أكبر غلام علي). وقد ذهب جلال فتأكد من عنوان محل عمله.

ثم يتحرر ويسي من الأسر، ويسأل جلالاً ـ عند زيارة هذا له في المستشفى عن نفيسي. فيعطيه عنوانه بعد أن يفهمه بأن لا جدوى من مطاردته قانونياً، وينبهه إلى أن العمل الفردي سيكون جريمة، ويأخذ منه تعهداً وقسماً على ألا يفعل ما يضره هو.

ويقرأ جلال نعي نفيسي في جريدة، فيزور ويسي مرة أخرى في المستشفى، ويعرف منه أن ذهب وقابل أباه وأجبره على الاستماع إليه بضع دقائق، ثم بصق في وجهه على ما فعله بأمه، وصفعه صفعة أطاحت به مع كرسيه على الأرض على ما فعله بشهرناز. أما ما فعله به هو فترك حسابه ــ بعد تركه المحل شبه هارب ــ لله!

* *

مرة أخرى أعيد، بأن الرواية تحمل سمات أخواتها السابقات ذاتها: فالتنبيه على خيالية الأحداث هو هو، والتاريخ موجود منذ الصفحة الأولى، حيث تبدأ الأحداث هنا في «الثاني من شهريور سنة ١٣٤٢ هجري شمسي» (٢٤ آب/ أغسطس ١٩٦٣) وتمتد لتصل إلى سنة ١٣٥٣ (١٩٧٥) على ص١٠٠ وإلى ستة عشر شهراً بعدها على ص١١٥، وإلى سنة ١٩٧٧ في ص١٢١ فإلى أواخر ١٩٧٧ وأوائل ١٩٧٨ في ص١٢٩.

كما أن الكتاب موجود أيضاً، وهو هنا (طاعون) كامو ــ مع أن الراوي لا يحب قراءته ــ بسبب سوء الترجمة ــ فيقرأ قصة بوليسية، على نحو أسهل، بموازاته. ولكن الجديد هنا أننا نجد ترابطاً بين الكتاب الأصلي والأحداث، فهو ينهي الطاعون ــ بعد سنوات ــ مع انتهاء مشكلة العقيد: استحصال إقرار تحريري منه بطلاق شهرناز، وتسليمه للجنة الطلاب، ومفاتحة جلال آريان أفسانه صريحاً بمشروع زواجه منها (ص ص٢٥٦-٢٥٧).

والبطل ــ الراوي، هو جلال آريان نفسه بالاسم، ومكان العمل: شركة النفط الوطنية. والجديد هنا أن الكاتب يشير بوضوح إلى أحداث تناولتها روايات سابقة له، فهو يسافر إلى طهران لعلاج حادث وقع أثناء زواجِ ابنة أخته (رواية ألم سياوش)، كما يسافر إلى باريس في موضوع يتعلق بابنه أخته

إياها (رواية ثريا في غيبوبة)، فكأن الكاتب يريدنا أن نعتبر أعماله كلا واحداً لا يتجزأ، أو حتى أن نعتبر مجموع رواياته سيرة حياة جلال آريان في رواية واحدة من أجزاء.

وكذلك فأسلوبه هو هو:

يطلب جلال علياً إلى بيته ذات يوم ليجلب له أوراقاً ما، ويقدم له شراب عصير البرتقال: «طبيعي أنني لا أعطيه من ماء البرتقال الذي بيدي... يرطب شفتيه ويقول: «بخ بخ، متشكر». لا أدري لو كنت أعطيته من عصيري ماذا كان سيقول» (ص١٢). و:

«.. سرعان ما أفهم أن قسم التجارة هذا بالمدرسة الفنية الصناعية لشركة النفط في أهواز افتتح حديثاً هذه السنة، وطبيعي أنه فيما عدا رئيسه الإنگليزي.. ليس له معلم آخر. ليس عبثاً أنهم جاؤوا لاستقبالي إلى سلم الطائرة، بل جاؤوا، لكي ــ إن أردت الهروب عند رؤية أوضاع مطار كوت عبد الله التابع لشركة النفط الوطنية الإيرانية ــ يلقوا عليّ السلاسل. فالمدرسة الفنية بحاجة إلى أستاذ». (ص٥). و:

«.. وأمريكا أيضاً، في هذه الأيام، بصداقة الإمبراطور/نيكسون، صارت البلد المجاور حائطاً لحائط، أو بستان اصطيافنا» (ص٤٩).

وفي وصف العقيد نفيسي في المطعم: «عندما يأتي، بعد السؤال عن الأحوال، يجلس ويسحب آهة طويلة، كما لو كانت من أعماق لوز المعدة، ويقذفها إلى الخارج» (ص١٦٢). ويصف وضع بيت أخته، بعد عودته هو من أميركا بسبب استشهاد خسرو، زوج ابنتها: «وعندما أدخل شقتهم، وأراهما وأعانقهما، تبدو تلك اللحظة نقطة أوج إراقة المرأتين، محروقتي الفؤادين والوحيدتين، للدموع» (ص١٧٧). و:

«لكن تلك الليلة، بعد نوم ساعة والقفز من النوم فزعاً بكابوس عن المحيط الهادئ، لا يؤاتيني النوم» (ص٢١٣).

* *

سبق أن أشرت إلى محاولات إسماعيل فصيح، بهذه الرواية ــ كما في سابقتها (الشراب العتيق) إلى التقرب إلى النظام، وأريد أن أزعم أنه إنما كتبهما لهذا الغرض. فعدا عن الشعارات التي مررنا بها لعلي ويسي، ثم مشاركته الفعلية بالثورة، وانقلاب الراوي ــ جلال آريان ــ من شخص لا يهتم إلا بالعيش الرخيّ، ذي ثقافة غربية، وأميركية خصوصاً، إلى شخص يتقبل الشعارات الثورية ــ وهي جوفاء هنا ــ ثم يبدأ بإطلاقها، بل وحتى وصول أمره إلى المغامرة بحبس عقيد ساواك في بيته وإجباره بقوة السلاح على كتابة إقرار الطلاق ثم تسليمه للثوار! عدا عن ذلك، وإضافة إلى ما يقرب من الدجل في عرضه لسياسة بني صدر، يجدد التملق المخجل ــ الذي بدأ في (الشراب العتيق) ــ للشيخ الهاشمي الرفسنجاني بالذات، فهو يذكره بلا سبب مقنع:

«السيد هاشمي.. من تلامذة الإمام» (ص٢١٥).

«نهض رجل دين فتي جداً، يعتمر عمة بيضاء، وجعل العجب يستولي عليّ بساعتين من الفصاحة والقدرة المدهشة على التحليل...» (ص٢١٦). و

«وتتم قراءة هذا الحكم (حكم تكليف بازرگان بتشكيل الحكومة الموقتة) على الشعب من قبل حجة الإسلام هاشمي رفسنجاني» (ص٢٣٢). وبعد انفجار مقر الحزب الجمهوري الإسلامي ثم مقر رئاسة الجمهورية، يصف ما وقع بعد ذلك:

«ولكن برئاسة (فلان) للجمهورية ورئاسة (فلان) للوزراء ورئاسةٍ حجة الإسلام هاشمي رفسنجاني لمجلس الشورى الإسلامي، يسيطر الثبات النهائي

على الحكومة» (ص٣٩٢). إذا كان مفهوماً أن تكون رئاستا الجمهورية والوزراء مهمتين لتحكيم الاستقرار، فمن الصعب أن نفهم دور رئاسة المجلس في ذلك!

* *

وطبيعي أنه لابد لافتعال الأحداث وقسر الأفكار الطارئة المبتذلة أن يأخذ سهمه من قدرات الكاتب، ولهذا فمن المتوقع أن نقرأ نصوصاً كهذه:

«إيران تحت حكومة الإمبراطور... وأميركا أيضاً بزعامة نيكسون... وبريجنيف على رأس... وماوتسي تونگ زعيم جمهورية... وإمبراطورية هيروهيتو... وشعب بيافرا الأفريقية أيضاً...» (ص٧٥)، علماً بأنه لا يريد بهذا النص التأريخ لأمر ما!

ولا ندري أسياسة الشاه الخارجية صائبة أم مخطئة: فعلى ص١٢٣ يعبر ويسي عن فرحته لأن زيارة الشاه لموسكو ومحادثاته مع الزعماء السوفييت أزعجت الأميركان، ولأن «عناق صدام مع الشاه... لا بد أن يقود الإسرائيليين ــ أعزاء قلب رأسماليي أميركا ــ إلى تقطيب واضطراب أعصاب أشد».

ويعجز عن الإقناع في طرحه للأحداث. فعندما يقطع صورة العقيد ــ وهو مع الشاه ورئيس الوزراء ــ ويأخذها معه إلى بيت آل ويسي، يصف ما جرى عندما رأت أم علي الصورة:

«ومن النظرة التي ألقيتها على وجه السيدة أفسانه ويسي أراها فجأة مخطوفة اللون وعيناها تحدقان بشكل سيئ إلى التصوير»! (ص٩٥). نحن ــ كقراء ــ فهمنا هنا أنها شاهدت في التصوير «زوجها» أبا ولدها، ولكن جلال آريان لم يتأكد بعد! إذ يقول بعد ذلك: «لست متأكداً تماما، ولكن يبدو أنها رأت شيئاً في ذلك التصوير هزها على هذا النحو»! (ص٩٥).

بل يحس هو نفسه بغرابة بعض تصرفاته ولكنه لا يستطيع تبريرها. تسأله أخته:

[ ـ «.. لماذا عدت من مشيگان أصلاً؟».

ـ «.. أفغاب عن بالك دفتر نفوسي الصادر من طهران، والذي استحصله الأرباب حسن من الناحية الرابعة؟ أنا جلال آريان». فتنظر في عيني:

ـ «نعم.. آل آريان يجنّون أحياناً أيضاً ـ خصوصاً في إقليم خوزستان ومدنه...» (ص٢٢١)].

أضف إلى ذلك، أنه لم يأت بجديد في أسلوبه هنا، وازداد تكراره لنفسه في الوصف والسرد حد الملل من أمثال قوله: «جاء معه أيضاً بـــ...» أو «المكان الفلاني لا زال في محله (وأحيل القارئ بهذا الصدد على الصفحات ٧٥، ١٢١، ١٥٧ و٢٣٩ وغيرها كثير، مع الأسف).

* *

بهذه الرواية ينتهي ما نشر إسماعيل فصيح من روايات(٦٢)، وتنتهي ـ حسب تصنيفي ـ مرحلة محاولته الانسجام مع النظام. وإذا كان قد كتب أربع روايات في كل من مرحلتيه السابقتين، فهل سيضيف اثنتين إلى هذه المرحلة الثالثة ليحقق التوازن في التقسيم العددي؟ أعتقد أن ذلك سيكون كارثة له، لا من الناحية الفكرية فقط، وإنما من حيث أسلوبه الروائي أيضاً: فقد بدأت معالمه الأسلوبية ولغته واضحة متينة منذ كتابات مرحلته الأولى، وازدادت جلاءاً في مرحلته الثانية حتى استقرت. أما في مرحلته الثالثة فلم يأت بجديد كما لاحظنا، وبدأ يتراجع، كما لاحظنا أيضاً.

# الهوامش

(١) وعاد ليصدر سنة ١٩٩٨ أربع روايات متلاحقة، لم تشملها هذه القراءات.

(٢) ينقل عنه قوله: «ثمة في حنجرتي دوما قصص تريد الانطلاق».

(٣) تعني كلمة «نامه» الفارسية: مكتوب، سِفْر، رسالة. واسم «نامه» يكوّن جزءاً من تركيب أسماء العديد من الكتب الفارسية ذات الطابع التاريخي، امتداداً من «شاهنامه» ــ كتاب الملوك أو تاريخ الملوك ــ لدقيقي ثم فردوسي، إلى «رستم نامه» الذي ترجمه فصيح نفسه عن بطل الشاهنامه الشهير.

(٤) إشارة إلى عبارة «نؤمن بالله» المطبوعة على ظهر كل فئات الدولار الأمريكي.

(٥) الوصايا الرئيسة للديانة الزرادشتية هي: القول الطيب، الفعل الطيب والفكر الطيب.

(٦) كان المرحوم مصدق مخدوعاً بالأميركان أو يتظاهر ــ أمامهم خصوصاً ــ بأنه لا يخشاهم بل يعتبرهم حلفاءه ضد الإنگليز!

(٧) «أرباب» تعني حرفياً: الرب أو السيد. وتطلق عادة على السيد الإقطاعي في الريف، أما في المدينة فتطلق على الثري أو الوجيه أيضاً، وخاصة من الملاكين.

(٨) ربما أراد الكاتب أن يحملنا على أن نتذكر به زرادشت، وإن كان ذلك مراده فهو لم يوفق في رأيي.

(٩) ويتم ذلك عن طريق إعطاء مال لشخص ليقوم بالحج نيابه عنها، إضافة إلى تغطية نفقاته طبعاً.

(١٠) المقصود هو القرن الإيراني (الهجري ــ شمسي)، أي في العقد الثالث من القرن العشرين الميلادي.

(١١) انظر (١٠) أعلاه، والنتيجة هي سبعينيات القرن العشرين.

(١٢) اسم المحلة التي تجري فيها الأحداث الرئيسة، وهي من محلات طهران القديمة جداً.

(١٣) = ١٩٣٠ ــ ١٩٣١.

(١٤) العريقة في تاريخ إيران والمركز المهم للزرادشتية.

(١٥) يعادل عند الزرادشتيين مقام الكاردينال عند الكاثوليك.

(١٦) = ١٩٢٠ ــ ١٩٢١، بعد سنتين من الانقلاب الذي جاء برضا خان قائداً للجيش فقائداً عاماً للقوات المسلحة، ومنذئذ ابتدأ انطلاقه ليصير أخيراً ملكاً على إيران.

(١٧) وهي مقدسة عند الإيرانيين، حيث فيها مرقدٍ أخت الإمام الثامن من أئمة الإثني عشرية، ومركز مهم للتعليم الديني.

(١٨) بمناسبة شهر محرم.

(١٩) كي: زائدة، وهي سابقة على أسماء ملوك الكيانيين جميعاً ومعناها الملك.

(٢٠) راوي القصص، وخاصة الشاهنامه، في المقاهي والحفلات وفي التجمعات العامة بأطراف الشوارع.

(٢١) يوم الإطاحة بمصدق.

(٢٢) عشية الإطاحة بمصدق.

(٢٣) لم يتطرق الكاتب هناك، للغرابة، إلى قضائه على الزعامات المحلية والعشائرية التي كانت تشبه كثيراً نظام الإقطاع الأوروبي الكلاسيكي.

(٢٤) من محلات طهران القديمة.

(٢٥) = أواخر نيسان ١٩٧٦.

(٢٦) قاطع رأس الإمام الحسين.

(٢٧) رياضة هي ما بين الهرولة والركض يستفاد منها للحفاظ على اللياقة البدنية.

(٢٨) مخلوط القهوة المرة والويسكي.

(٢٩) جهاز توليد صوت للمصابين في الحنجرة.

(٣٠) قاعة المرايا.

(٣١) استعارة بارعة من أول كتاب لغة فارسية، للصف الأول الابتدائي، الفصل الخاص بتعليم حرف الألف. ففي الكتاب: بابا قدم خبزاً، الخ...

(٣٢) = التعبئة، وهي ميليشيا شعبية مسلحة، وكان أغلب أفرادها، إبان الحرب، فتياناً لم يبلغوا الحلم.

(٣٣) صلصة حمص مشطور، عليها أصابع بطاطا محمرة، وفوقها قطع لحم مطبوخ.

(٣٤) المن والسلوى.

(٣٥) أشهر مطاعم باريس ومن مطاعم الدنيا المشهورة.

(٣٦) يعني للنظام الجديد.

(٣٧) وهذا أيضاً تعريض يشبه تعريضات أعداء الثورة، وخاصة الملكيين، الذين اعتبروا الثورة الإسلامية، عند انتصارها، غزوا عربياً جديداً.

(٣٨) إطراء.

(٣٩) مطار طهران الدولي.

(٤٠) كرمانشاه، محافظة في غربي إيران، على الحدود العراقية.

(٤١) الإخميني.

(٤٢) عائلة زرادشت.

(٤٣) الأرزاق التي توزع بالقسائم مدعومة، فهي لذلك تباع بأسعار منخفضة، يعتقد كثير من الإيرانيين أن عدم مشاركتهم في الانتخابات تحرمهم من القسائم، وبالتالي من الحصول على المواد الأساسية بأسعار مخفضة.

(٤٤) أحد أجزاء الـ (أوستا)، كتاب زرادشت المقدس، وهو كتاب أدعية، أو تراتيل.

(٤٥) بساط يمد قبيل بدء السنة الجديدة الفارسية، كي «تدور» عليه السنة. يضم سبع مواد غذائية تبدأ أسماؤها بحرف السين، علاوة على أشياء أخرى، أضاف إليها المسلمون القرآن.

(٤٦) الملك التاريخي الذي نشر العلم والمعرفة، وفي عصره بدأ ذلك الاحتفال العريق.

(٤٧) اسم ملوك الأشكانيين (البارثيين).

(٤٨) إلهة الشمس، أو النور، وقد انتشرت عبادتها مدة في إيران.

(٤٩) الاسم العربي، القديم، لمدينة «خرمشهر».

(٥٠) كريم خان زند (١٧٠٥ ــ ١٧٧٩م) مؤسس السلالة الزندية التي حكمت إيران ما بين ١٧٥٠ و١٧٩٤. كان مصلحاً اجتماعياً وتلقب بــ«وكيل الرعايا» وحفظ الأمن في البلاد. كانت عاصمته شيراز في ولاية فارس.

(٥١) ١٨٣١ ــ ١٨٩٦ أبرز ملوك القاجاريين وأطولهم جلوساً على العرش (نحو خمسين عاماً). لأنه نشأ تحت رعاية (أمير كبير)، فقد بدأ حكمه مصلحاً، ولكن مؤامرات البلاط أعادته إلى الخط القاجاري المألوف من الدكتاتورية.

(٥٢) ابن طباخ في منزل قائم مقام فراهاني، الوزير القاجاري. اكتشف هذا فيه نبوغاً فعمل على تعليمه وتربيته، وجعله مسؤولاً عن تعليم ولي العهد الطفل، ناصر الدين شاه، الذي استوزره عند ارتقائه العرش وجعله رئيساً للوزراء ومنحه لقب «أمير كبير» وزوّجه أخته. ولكن مؤامرات البلاط حملته على توقيع حكم إعدامه وهو سكران، فأسرع خصومه للتنفيذ في حمام (فين) في مدينة كاشان! أحد أبرز المصلحين، وفي عهد رئاسته حققت إيران سيادة حقيقية على أراضيها ونقلت التنظيم والتدريب الأوربيين إلى جيشها، وأنشأ أول مدرسة عليا على النمط الحديث باسم «دار الفنون» لعبت دوراً كبيراً في عصرنة التعليم.

(٥٣) هو عند الزرادشتيين بمنزلة الكاردينال عند الكاثوليك.

(٥٤) «البيعة» أو «الجنة».

(٥٥) حرس الثورة.

(٥٦) رجل دين، من قادة ثورة ١٩٧٩، اغتيل بعد نجاحها.

(٥٧) أستاذ جامعي، قتل في ظروف غامضة قبل الثورة، يعتبر من مؤسسي فكر الثورة الـ«إسلامية».

(٥٨) الذي يثور ضده الحداد كاوه وينتصر عليه، فيكون يوم نصره يوم العيد القومي الإيراني.

(٥٩) مقالة بذيئة نشرتها جريدة إطلاعات المسائية، بإصرار من الشاه في الغالب، هاجمت «الرجعية الحمراء» و«الرجعية السوداء ــ أي رجال الدين» معرضة بالمرحوم خميني، فكانت الشرارة التي أشعلت الثورة الإسلامية في إيران.

(٦٠) شتيمة عامة تعني كل شيء، ولا تعني شيئاً بالتحديد، ولهذا تستعمل أحياناً حتى كمزحة أو عبارة تحبيب.

(٦١) لقب يطلق، عادة، على المتغربين عموماً.

(٦٢) صدرت لإسماعيل فصيح روايات أخرى بعد الانتهاء من تحرير هذه القراءات، قد نتناولها في قراءة لاحقة.

# الفصل السادس

## غلام حسين ساعدي

في المقابلة الصحفية لأحمد محمود، التي تحولت إلى كتاب، والتي ورد ذكرها أكثر من مرة في هذه القراءات، تسأل المحررةُ الروائيَ الكبير عن ساعدي فيجيب:

«وفق المعيار الذي قدمته عن تقويم القصة واللغة والمضمون ــ بوصفه الفكر المستفاد منه في القصة ــ ينبغي أن أحب ساعدي، وأنا أحبه. أحب الكثير من قصصه».

وقد استعرت من أحمد محمود نفسه ما في مكتبته من كتابات ساعدي، وما أن قرأت سبع قصص قصيرة من مجموعته «حفلة سمر جليلة (أو: فخمة)»، حتى عجبت لتقويم أحمد محمود المذكور آنفاً، فقد وجدتها قصصاً ساذجة الأفكار والمضامين، عادية الأسلوب، وليس في لغتها ما يميزها. ولكنني وجدت تعليقاً ساخراً لمحمود نفسه عند نهاية القصة السابعة، ثم ملاحظة جادة في آخر الكتاب تقول: «إن المرء ليتعجب من استخفاف الكاتب (أو: تناوله الساذج) في القصة!».

والمجموعة موضوع الإشارة ليست من كتابات ساعدي الأولى، بل هي السابعة من حيث التسلسل، وقد صدرت له بعد أكثر من عشر مسرحيات ومجموعات مسرحيات، وعدد من التحقيقات والترجمات وسيناريو لفيلم سينمائي! وكانت المجموعة ذاتها قد طبعت ثلاث طبعات! فما الأمر؟ وما حقيقة الرأي فيه؟!

* *

ولد ساعدي سنة ١٩٣٥ في تبريز، وهي مدينة تركية السكان تقع في شمال غربي إيران، وفيها أكمل دراسته، حتى العالية، ولم يغادرها إلا للخدمة العسكرية، إلى طهران، التي أقام فيها منذئذ إلى سنة ١٩٨٢، سجن خلالها سنة ١٩٧٤، في سجن أوين، فكتب هناك روايته «تتار الضاحكة».

إن ساعدي، الذي نشر أول قصة في مجلة وهو في السادسة عشرة، أخذ يكتب المقالات والدراسات في الأمور الاجتماعية منذ أن نال الدكتوراه في الطب النفسي، وبعد الثورة «الإسلامية» كتب عدداً من المقالات السياسية التي انتبه في ما بعد إلى «حدّتها»، أو «نبهته» قوى معينة إلى ذلك، حتى خاف على حياته، فهاجر إلى فرنسا بعد ١٩٨٢، ليتوفى هناك، ويدفن في مقبرة غربائها: بير لاشيز.

أصدر ساعدي منذ ١٩٥٧ لغاية ١٩٧٧ تسع مجموعات قصصية وروايات (يسمي بعض رواياته بالـ«قصص المتصلة»)، وست عشرة مسرحية أو مجموعات مسرحية، أولها سنة ١٩٦٠ وآخرها سنة ١٩٧٥، وثلاثة سيناريوهات منذ ١٩٦٩ لغاية ١٩٧٩، وثلاثة تحقيقات ما بين سنتي ١٩٦٣ و ١٩٦٦، وترجم ثلاثة كتب خلال سنتي ١٩٦٣ و١٩٦٤، أحدها في التحليل النفسي والآخر طبي في القلب وأمراضه.

ويلفت النظر أن كتبه لا تحمل سنة طبع ولا تشير إلى عدد المطبوع منها، ومن هنا فذكر أن هذه أو تلك هي الطبعة الثانية أو الثالثة للكتاب لا تنفع كثيراً. ولكن «تتار الضاحكة» تحمل، في طبعتها الثانية، هوية كتاب وافية: فهي تشير إلى أن الطبعة الأولى كانت سنة ١٩٩٤، ونفدت في السنة ذاتها، فأعيد طبع الكتاب في السنة إياها بخمسة آلاف نسخة. وقد أعيد طبعه لاحقاً أيضاً.

## ١ ــ الخوف والفزع (٦ قصص متصلة)

من المعلومات التي قدمها ناشر «تتار الضاحكة»، عرفنا أن هذه المجموعة طبعت للمرة الأولى سنة ١٩٦٨، وأعيد طبعها في ١٩٧٠ ثم ١٩٧٢.

تنفتح القصة الأولى على «سالم أحمد»، إذ استيقظ عند منتصف الظهيرة من نومه. ويصاب بالرعب لرؤيته «أسود» وحيد الرجل. وتقع الأحداث في مدينة ساحلية أو جزيرة بائسة منقطعة عن الدنيا.

يجتمع السكان بعد صلاة العشاء، ويقررون أن يقرع الطبّال، علّ الأسود يجفل ويهرب.

وفي القصة الثانية يأتي ناس غرباء الشكل في مركب، فيرتعب منهم الأهالي، ويراقبونهم بحذر.

ينزل أحدهم، ويتضح أنه «ملاّ» يعرف القراءة والكتابة، وهو عازم على الإقامة، إذ يمكنه أن يكتب لهم الأدعية والأوراد. وهو يحب الأفضل من كل شيء، وعنده مال يكفي للتنعم بالأفضل. وهو يرى أن أفضل شيء هو: المكان الجيد فالأكل الجيد ثم المرأة الجيدة[١]. وهو يحصل على ذلك فعلا

أينما حلّ، إذ يختار خير الأماكن للسكن، وينتقي من الطعام أفضله ويتزوج أحسن امرأة.

وكان رأى في طريقه امرأة، يسأل عنها فيعرف أخاها، وينتظر عودته من البحر ليخطبها منه. يعترض الأخ لأن أخته متزوجة، وأن زوجها لم يطلقها إلا لسفره وأنه يريدها عندما يعود، فيردّ الملاّ على ذلك بأنه قد لا يعود، وقد يعود ولكنه ربما لن يريدها عند ذاك، وإن أرادها يمكن ردّه بأنها تزوجت، فالزوج «النقدي» خير من الزوج المنتظَر. ثم يعترض أخوها بأنها امرأة جيدة، ولذلك تكلّف كثيراً، ويسوّي الملاّ هذا الاعتراض بأن عنده من المال ما يكفي، وإذ يعترض الأخ بأنه يستفيد منها، خصوصاً الآن، إذ أن زوجته حامل على وشك أن تضع، في جلب الماء إلى بيته، يجيبه الملاّ بأنه سيُلزمها بأن تجلب لزوجة أخيها «مشربَتَيْ» ماء يومياً. ثم يعترض الأخ على أن الملاّ يفتقر إلى بيت وأثاث، فيُفهمه هذا بأن ذلك ليس بمشكلة، إذ يمكن الحصول على إحدى الخرائب المتروكة وتعميرها، وشراء لوازم المنزل الفائضة عن حاجة الأهالي. وهذا ما يكون، ويتزوج الملاّ.

ثم يترك الملاّ زوجته يوماً، ويغادر المكان مسافراً.

ويأتي مركب يسأل ركّابُه عن الملاّ لأن زوجته ــ في مكان آخر ــ على وشك الوضع، ويريدونه عندها، ولكن لا جدوى فهو غير موجود.

ثم تأتي السيارة التي أقلت الملاّ في سفره، حاملة هدية منه إلى زوجته (في هذه القصة) التي تضع بعدئذ طفلاً عجيب الخلقة. كما يصطاد الأهالي طفلاً عجيب الخلقة آخر، يأكل ولكنه لا يتكلم، ويبدو أنه لا ينام، وأينما يحلّ تَهبّ العاصفة!

وفي القصة الثانية يأتي مركب كبير يحمل عددا من الناس ــ يبدو أنهم أجانب ــ ينشغل الأهالي بطعامهم اللذيذ فيفضلونه على السمك، الذي يتركون صيده بعد أن ملوّه وصاروا يشمئزون من أكله بعد تعلمهم الطعام اللذيذ الدسم.

يصاب الأهالي بالتخمة، فينتفخون ويتكورون ويتدحرجون على الأرض بدل المشي، الذي لم يعودوا يقدرون عليه!

وذات غروب، إذ يصحو الأهالي ويتقدمون متشابكي الأيدي نحو معسكر الغرباء، يفاجأون بأن هؤلاء قد رحلوا! فيتساءلون ماذا يفعلون هم إن لم يعد أولئك؟ كيف سيعيشون بعد اليوم؟

وينتهي بهم الأمر إلى سرقة أحدهم من الآخر.

صحيح أن الرواية (أو القصص المتصلة) مكتوبة على طريقة أدب العبث ــ وقد كتبت ولا شك تحت تأثيره وفي أجوائه (١٩٦٨ ونحوها) ــ إلاّ أن فكرتها واضحة، وأقرب تفسير يتبادر إلى الذهن، لها، هو واقع المشيخات العربية ــ والمقصود من ورائها إيران ذاتها ــ التي أتاها الغرباء فأغروا أهلها بالنفط وسهولة الاعتياش عليه، حتى إذا تركوهم ذات يوم حلّت بهم المصيبة!

وإذا كان ساعدي قد عرض في بعض مجموعاته القصصية السابقة قدرة على السخرية، فإن هذه الفضيلة منتفية هنا، بل صار أسلوبه تقريرياً وحواره مملاً. على أن هذه الرواية تمتاز على كتاباته السابقة بأن فيها فكرة ــ أو فكرة واضحة في الأقل ــ بينما يصعب استنباط ما كان يرمي إليه من قصصه السابقة.

## ٢ ــ تتار الضاحكة:

يكتشف طبيب أن حبيبته ــ وهي زميلة له ــ تحب غيره (وهذا الغير موجود في الخارج) فيصاب بالحزن والكآبة، ويلح على مديره حتى يحصل على موافقته بالانتقال من المستشفى الذي يعمل فيه، إلى مكان ناء.. وهو يلقى في هذا السبيل تمنع المدير ولوم أخته وزوجها وسخرية أصدقائه.

ينطلق إلى محل عمله الجديد، وبعد مبيت ليلة في فندق، يقدم نفسه إلى رئيس الصحة في الصباح التالي معجّلاً في الالتحاق بمقر عمله للابتعاد عن المدينة، حتى أنه عندما يعرف بأن السيارة التي ستوصله إلى مقره ــ أو إلى قريب من مقره، في الواقع، لن تتحرك قبل الظهر، يقطع الشارع مشياً عدة مرات للتخلص من سأمه.

تأخذه السيارة إلى نصف الطريق، فينزل، وينزل خلفه ثلاثة من الأهالي. يحار ماذا يفعل بمتاعه.

يسبقه الأهالي في المسير، ثم يتوقفون ويسألونه، على البعد، إن كان ذاهباً إلى تتار؟ وعندما يجيب بالإيجاب، يعودون ويساعدونه في حمل أغراضه، ثم يسألون إلى أية تتار يذهب؟ فيعرف أن ثمة ناحيتين باسم تتار: تتار الضاحكة وتتار الباكية! ويضيف أحدهم بل إن هناك تتارا ثالثة! وبعد قليل من حديث يفهمون أن مقصده تتار الضاحكة!

وعندما يعرفون أنه الطبيب الموعود، يطغى عليهم الفرح بحيث انهم لا يدرون ما يفعلون، ويبشّرونه بأن الأهالي سيعيّدون، وستمتلئ أضرحة الأولياء شموعاً. ويحدثه كبيرهم أن الأسماء قديمة، ولكن آخر مالك لم يكن يحب أن تسمى أراضيه (ضاحكة) و(باكية)، فسماها (الفوقانية) و(التحتانية)،

وبعد تقسيم الأراضي أعاد أحد الشيوخ التسمية القديمة. ثم يحدثونه عن أسطورة تقول إن فتاة حسناء كانت تقيم مع إخوتها السبعة، أحبها أميرا الناحيتين، وألح عليها أحدهما بالرسائل حتى استمالها، بينما لم يتحرك الآخر، متصوراً أنه بثباته سيجلبها نحوه! تتزوج الأول، فينطوي الثاني حزناً ويديم البكاء، حتى تسمى ناحيته كلها بالباكية، بينما تضحك ناحية الأمير الأول، مثله.

يسرع أحد مرافقيه لإخبار الحاج ــ الذي يريد الطبيب لقاءه. يصلون مقهى الناحية، فيلقى إكرام صاحب المقهى: شايا جديداً. ثم يصل الحاج.

بعد الترحيب والاستراحة، يأخذه إلى القرية، إلى منزله، حيث يتجمع كل القرية، ويملأونه شاياً! ثم ينصرفون شيئاً فشيئاً حتى يبقى بمفرده مع كبير الناحية العليا (الضاحكة).

يعرف طبيبنا أن الحاج والأهالي جميعاً يكرهون رئيس الصحة، لأنه لم يعالج أحداً طوال عمره، ومتى ما ذهبوا إليه يجدونه مشغولاً بالأكل، وقد خصص شخصاً للتخلص منهم عند المراجعة. كما يعرف الطبيب أن الأهالي هم الذين بنوا المستوصف.

ويُفهمنا الكاتب بمختلف الوسائل: سرداً ووصفاً وحواراً، بطيبة الفلاحين وبساطتهم وصراحتهم.

وفي الصباح التالي يأخذه الحاج إلى عجوز تكاد تكون عمياء، تحوك جوراباً كي تبادله بمكعبات السكّر، ولكنها عندما تعرف بأن الذي مع الحاج هو الطبيب، تلح على الحاج أن يدخل غرفتها، ويأتيه بتفاحة هي هناك، كي يأكلها. وعندما يعتذر الطبيب تقوم هي لجلبها. وعندما يخرجان، يطلب الطبيب من الحاج أن يعيد التفاحة، لأنها لن تنزل حلقومه، ولكن الحاج يعتذر بأنه لا

يستطيع أن يفعل ذلك، وأن عليه ــ إن فعل ــ أن يهرب من القرية! فالعجوز مرضعته، وهي أبية النفس لا تقبل شيئاً من أحد، ولا تقبل أن تنزل بيته هو، وأمثالها في تتار العليا، وتتار السفلى، وما حولهما، كثر!

يعدّ الأهالي المستوصف، ويستخدم الطبيب أحد أبناء القرية، وإذ هو معه يعدّان المستوصف لاستقبال المرضى يعاود السأم الطبيب، فيتذكر أن خير وسيلة لمعالجته هي العمل، فيباشر باستقبال المرضى. أكثر مرضاه أطفال مصابون بــ(الحصف)[٢] وقد أعطاهم طبيب المدينة ــ رئيس الصحة ــ دواء أحمر يمسحون به جراحهم، ومنعهم من الاستحمام! فيعطيهم طبيب الرواية أمراً فورياً بالاغتسال، وترك ذلك الدواء، واستعمال مرهم يعطيهم إياه.

يريد الحاج أن يذهب إلى المدينة ذلك اليوم، فيرسل عدداً من شيوخ القرية إلى الطبيب كي يؤانسوه ويسلّوه. ويأخذه هؤلاء إلى بيت الإقطاعي المهجور. ويشرح أحدهم، وكان خادماً سابقاً في القصر، ما كان الأرباب[٣] وضيوفه يفعلون.

وفي هذه الأثناء تتحرش بالطبيب ابنة المرأة التي تغسل ملابسه وملاءاته ــ وهي قد تزوجت في المدينة، ولكنها خاصمت زوجها فعادت ــ لكنه يصدها محاولاً إرشادها بالإيحاء والتلقين. ويعود مدير المدرسة، صاحب البستان المجاور للمستوصف، من عطلته الصيفية، فيتعارف مع الطبيب، وينسجمان.

وفي ذات يوم، يستجيب لدعوةِ حكيمة تتار العليا فيذهب إلى هناك، حيث يجري له استقبال حافل. ثم يعرف، وهو في بيتها، أن ثمة امرأة تعسّرت ولادتها فيسرع إلى بيتها، ورغم اعتراض النسوة على أنه رجل، يقدمّ على التوليد بمساعدة الحكيمة، التي تعارك المعترضات!

وبعد أن يعود إلى قريته وبيته، يزوره أصدقاؤه، فيأخذهم جاره المدير ــ جميعاً ــ إلى بيته. وهناك يأتيه الفرّاش ليخبره بمقدم فاطمة ــ ابنة غسالة الملابس ــ إلى المستوصف. يذهب ليرى ما تريد، فتخبره أنها عائدة إلى زوجها، وتطلب منه تصويره! ولما لا يعطيها ويصرفها، تدعو عليه بالموت وعلى ابنة المدير بالعزاء! (من الواضح أنها تتصوره ارتبط بهذه في علاقة ما!) وتنصرف. وبدلاً من أن يعود إلى الضيوف، يغلبه النوم.

وعندما يرى ضيوفه ابنة المدير، يقدّرون أن صديقهم عشقها ولهذا آثر أن يبقى هناك، فيخطبونها ــ أثناء غيبته ــ نيابة عنه، فيوافق الأب والأم، وبعد أن يسألاها توافق هي الأخرى.

ويستعد أصدقاؤه في الصباح التالي للانصراف، فيودعهم، ويعود ليجد «پري» ــ ابنة المدير ــ في المستوصف، وتفهم منه أن خطبتها كانت مفاجأة له. وقد ترك له أصدقاؤه هدايا كثيرة، كان من بينها دفتر مذكرات، تطلب منه پري أن يكتب فيه بادئاً بشرح وضعه الحالي. ثم يقومان للذهاب إلى بيت أهلها، ولكن مريضاً يأتي، فتجلس تنتظره فيما يستقبل هو المريض ليفحصه.

* *

ليس في القصة حبكة، ولا أزمة ولا ذروة، ولا أي شيء مما يمكن أن يجعلها رواية. وهي ربما تصلح أن توصف بكونها جزء من السيرة الشخصية للكاتب تصور إحدى مراحل حياته. وحتى تحرش فاطمة به لم يستطع الكاتب ــ أو لم يرد؟! ــ أن يطوره ليجعل منه حدثاً دراميا كيفما كانت نتيجته. وينسى الراوي ــ البطل سأمه مدة طويلة، وهذا معقول في خضم الحفاوة به

واستعداداته وأهل القرية لإعداد المستوصف وافتتاحه ـ ولكنه يعود ليذكره بعد مرور نحو مائة صفحة، فيبدو الآن مفتعلاً.

* *

ولكن «الرواية» تتميز بأسلوب ساحر وبتعابير ظريفة:

* «يأتي نسيم بارد من الشرق **فيلحس**، برقّة، رأسينا ووجهينا...».

* «قبة مع صفين من القيشاني الأخضر، مثل نطاق أو شال لُفَّ حول القبة».

كما أن فيها بعض الالتماعات العذبة:

* فمدير المدرسة، عندما يزوره ابنه والطبيب عنده، يدعو ابنه لمشاركة الدكتور الشرب رغم إنكار الأم، فالابن يريد العودة إلى المدينة، بسيارته، ليلاً. ولكن الأب يرد اعتراضها بأنه بعد أن يشرب يقود السيارة بشكل أفضل. ولكن عندما يبقى لوحده مع الدكتور، يقول: «احفظه يا ربي!».

ولكن، كأن الكاتب لم يعجبه التأثير الذي تحدثه هذه الجملة الموحية، فمسح تأثيرها بأن أضاف عليها قول الراوي: «ثم استدار نحوي وأضاف: [أنت بلا أطفال، فلا تدري معنى أن يكون المرء أباً أو أماً]».

وأوصاف الكاتب للسأم والملل ليس فيها جديد، وقد بدت لي ذهنية، مترجمة، أكثر منها حالةً ومعاناةً حقاً:

* «كل هذا والساعة [لاتزال] التاسعة والنصف مساء. كنت تعشيت وأنجزت كل أعمالي **وصرت ملقى في وقت فارغ**».

* «أتصور أحياناً لو أنني أعيش سنة بهذا **النظم والترتيب**، فلا بد أن أصاب **بالجنون**».

* «لم تكن لي طاقة تحمّل الحلاّق، إنّ تصوّر أن أحني رأسي زمنا وأتحمل أصابع الحلاق وصوت ماكنة الحلاقة كان **يفقدني أعصابي**».

ولكن، لأن الكاتب يكتب عن الريف، ومنه، فقد التقط لنا بعض التعابير الريفية:

* «كما لو أن طحينا في فم الجميع: إذ لم يكن ينمّ صوت عن مخلوق».

وقد وجدت في تصوير الكاتب لتفكير بطله في الانتحار، وما حول الأمر، خفة ظل:

* في أول ليلة له في فندق المدينة التي سينطلق منها إلى عمله الجديد، يفكر في الانتحار، ويتصور ما سيجري عندما يكتشفون جثته: مجيء الدرك واعتقال صاحب الفندق واستدعاء رئيس الصحة الذي يفحصه ويعلن انتهاء الأمر. ويضيف:

«لو كانوا أروه حكم استخدامي لانهار مرة واحدة. ولقال مع نفسه: **[ألم يكن بمقدورهم أن يرسلوا طبيباً حياً؟]**».

وفي اليوم التالي، عندما يقدم نفسه لرئيس الصحة فيجده يتناول كباباً في الساعة العاشرة صباحاً (بسبب القرحة اللعينة)، يعدّل تصوره نوعاً، فيجده يسرع «واللقمة في حلقه، لاهثاً يصعد سلالم الفندق، وبيدين مدهنتين يفتح أجفانيَ، فيحار ثم يتبلع لقمته ويقول: [لا فائدة، قضي الأمر]».

ولكن حسّ النكتة، وحسنها، تجلى عنده في معالجته لاسم أحد الشيوخ الذين رافقوه في زيارة بيت الاقطاعي المهجور. كان اسم هذا الشيخ، وهو خادم منزل الإقطاعي، آقا جان (وهو يعني: السيد الحبيب، أو سيدي حبيبي)، وهو يروي:

«كان [الإقطاعي] يقول: [«آقا جان، أهو أنت»]، فأقول: [«نعم، يا سيدي»]، فيقول: [«انظروا يا ناس إلى وضعنا، حيث ننادي خادمنا بيا سيدي وحبيبي. تفٌ على قبر أبيك، ما هذا الاسم الذي أطلقوه عليك؟»]».

* *

ولكن طلاوة التعبير وحسنه، وحس النكتة وظرافتها، كل ذلك لا يكفي لإنجاز عمل روائي!

## الهوامش

(١) كما قال أعرابي قديم إن خير ثلاث في الدنيا تتلخص في اللحم: ركوب اللحم، أكل اللحم، ودخول اللحم في اللحم.

(٢) نوع من الطفح الجلدي الحاد.

(٣) الإقطاعي، الشيخ، المالك.

# الفصل السابع

## إبراهيم يونسي

جرت العادة أن يطرح المبدعون إبداعاتهم أولاً، ثم يمارسون عمليات التفسير والتنظير في ما بعد. ولكن إبراهيم يونسي خالف هذه القاعدة، إذ كتب «فن كتابة القصة» قبل أن يكتب أية رواية.

بدأ يونسي مترجماً، وحازت أول ترجمة له ــ وكانت لرواية ديكنز «الآمال الكبيرة» ــ على عنوان أفضل ترجمة لسنة ١٩٥٩ من «جمعية الكتاب الإيراني».

كان في السجن، وقد تعلم الإنكليزية هناك، وأتقنها خلال سنتين أو نحو ذلك! وواصل الترجمة، فترجم كتباً أخرى لديكنز، وأغلب روايات توماس هاردي. ومن خبرته الأولية المتراكمة من الترجمة، تجمعت لديه مواد دفعته لإصدار قاموس إنكليزي ــ فارسي، وازداد اهتمامه بفن القصة فكتب كتاباً صغيراً عن مكسيم كوركي ثم ألف كتابه «فن كتابة القصة»، الذي طبع أكثر من عشر مرات منذئذ.

* *

ولد إبراهيم يونسي في كردستان إيران في حدود سنة ١٩٢٥، وتخرج من الثانوية العسكرية، فالكلية العسكرية، وتخرج ضابطاً في سلاح الفرسان. ونظراً لارتباطه بالتنظيم العسكري لحزب «توده»، فقد اعتقل بعد انقلاب زاهدي سنة ١٩٥٣، وأحيل على المحكمة العسكرية التي حكمت عليه بالإعدام، وأبرمت الحكم، ثم أبلغ بتخفيف الحكم عنه قبيل التنفيذ نظراً لأنه مصاب بعلّة: إذ كان فقد إحدى ساقيه أثناء الخدمة.

درس الإنكليزية في سجنه، وكان قد تعلم الفرنسية في المدرسة قبلها، وصار يترجم عن الإنكليزية، روايات أولاً، ثم كتباً في الجغرافيا السياسية، في أنثروبولوجيا الكرد، في السياسة وفي تاريخ الفن.

بعد أكثر من عشرين سنة مترجماً، كتب روايات كافح لاستحصال موافقة الرقيب على نشرها، وتمكن فعلاً من إصدار بعضها:

* مقبرة الغرباء
* العاشقان
* أمّي بكت مرتين
* دعاء لآرمن

ولم يوفّق، طوال نحو عشرين عام تقريباً، في استحصال الموافقة على نشر روايته «شخص يشبهني»، لأن الرقيب يعتبرها تمجيداً لحزب توده (وهو الحزب الشيوعي الإيراني) لا يستحقه هذا الحزب!

## ١ ـ مقبرة الغرباء

تبدأ بوصف حياة السجناء السياسيين من أعضاء حزب توده، بعد نكبة حزبهم. فيهم «المتعصبون» ـ وهم الذين حافظوا على شرفهم الحزبي ـ وفيهم «النادمون» ـ الذين نشروا «براءات»، ثم انحدروا تدريجياً ليصيروا جواسيس على زملائهم في السجن، بل وحتى على سجّانيهم!

والراوي هو أحد هؤلاء السجناء، وهو من المتعصبين، وإن كان يرى أن السبب الرئيس لـ «التعصب» صار عناداً مع النظام وجهاز قمعه لا غير.

تنفتح الراوية في «فلاش باك» يطل على حياته وهو طفل، عندما اعتقل أخوه، وراحت عائلته تنتقل من مدينة إلى أخرى، وحين استقرت ـ أو كادت ـ في مدينة (بانه) الصغيرة، اعتقل الأب، ثم أطلق سراحه بكفالة، ولم يفهم لماذا اعتقل ولماذا أطلق سراحه! ونفهم نحن القراء، من أجوبته على أسئلة زوجته، ما لم يفهمه هو: ابنه هارب والسلطات تبحث عنه.

ويحدثنا عن القائد العسكري للمنطقة، الذي ربما كان يمتاز عن «أغاوات»[١] أو «خوانين»[٢] المنطقة باصطياد الغلمان بطرق مبتكرة. وأخو الراوي ـ الذي اعتقلوا أباه ثم أطلقوه من أجله ـ صبي وسيم.

يزور مباشر القائد، «متطوعاً»، العائلة ليفهمها بفائدة أن تذهب ابنتها للخدمة المؤقتة، والصبي لخدمة الخان ـ القائد، شخصياً. يفعلان، ولكننا نجد الصبي معتقلاً في البيت، ثم في المعسكر، والفتاة مسافرة إلى آذربايجان (الإيرانية) لتجلب توصية من عقيد ما للقائد.

يتذكر الأب اعتقاله، والتحقيق معه، وسجنه، ولكننا نفهم أن ذلك لا يتعلق بالقصة الراهنة، وإنما هي «فلاش بك» للأب. إنهم الآن في «المدينة

الصغيرة»، التي انتقلت إليها العائلة بعد فرار ابنتها، ولأن البنت تأتي إلى هذه المدينة عاهرةً، دون أن تدري أن عائلتها استقرت فيها، فإن الأب يلتقيها مصادفة ويقرر على أثر ذلك الانتقال من هذه المدينة أيضاً، وتقتل البنت قبل الهجرة الجديدة لعائلتها، ويبدو أن الأخ المعتقل هو الذي قتلها فور إطلاق سراحه.

يأتي الأخ ذات مساء إلى البيت، ويحكي لأهله قصته: أراد قائد الفرقة مراودته عن نفسه، بعد تهديده بصورة غير مباشرة، لكنه سرق مسدس القائد وهرب. وإذ يتشرد في البلاد، يعرف بقصة أخته، ويجدها مصادفة فيعزم على أخذها إلى أهلهما، ولكنه يكتشف أن الأهل في المدينة نفسها، فيفكر في شرف العائلة وسمعتها. يفاجئ أخته ويقتلها، ويختفي مدة، ليأتي أهله بعدها. فيصمم الأب على تهريبه إلى العراق.

وفي اليوم السابق لسفره، وبعد أن أعدت له العائلة بعض احتياجات السفر، يأتي القائد في إحدى زياراته للمدينة، فيحاول أن يقتله، لكنه يفشل.

يُعتقل، ويعتقل أبوه، ويتسلم قائد الفرقة عريضة الأم التي تطلب فيها العفو عن ابنها لحماقته التي ارتكبها بفراره! إنها لم تدرك بعد أنه هو الذي حاول اغتيال قائد الفرقة، فقد كان ابنها قرر ذلك عندما سمع مخبر الأمن يخبر أهله بزيارة القائد.

ووسط فرح الناس واستبشارهم سراً بمحاولة الاغتيال، يعدم الأخ، ويتعاطف الأهالي مع العائلة، ويشاركونها همومها.

وكلما تقدمنا في الرواية نعرف أنها قصة المدينة الصغيرة ــ لا قصة تلك العائلة ــ التي يمكن تعميم حالتها لتصير قصة إيران.

وتسير مع هذه القصة قصة أخرى، موازية، هي قصة إبراهيم، المتعصب

الآخر، والذي ترك العمل الحزبي بعد خروجه من السجن. إنه يعيش مع أبيه، الملاك الصغير والموظف الكبير، الذي يتصرف مع ابنه كما لو كان أخاه. وكان الأب ينصح ابنه دائماً بالابتعاد عن الحزب، متهماً الحزب بالخيانة والجاسوسية، محذراً إياه من العاقبة السوداء للحزب، انطلاقاً من وجهة نظر، وتبريرات، ماركسية! في حين أن الأب لا يعرف من الماركسية غير ما قرأه ــ متلصصاً ــ من عبارات في كتب ابنه!

ومع أن الأب متفهم واسع الصدر في معاملته لابنه، إلا أنه يصر على تزويجه بفتاة يريد الفتى غيرها. وهو ــ الأب ــ يعامل زوجته معاملة شيخ العشيرة لأفراد رعيته، فالعلاقة بينهما تشبه علاقة سيد بعبده. كما أن الابن ــ رغم صراحة أبيه معه ــ يخفي عن الأب حبه لفتاة أخرى، حتى أن القارئ ليفاجأ عندما يعرف بوجود هذه الفتاة أصلاً!

وتقترب الرواية من نهايتها عندما يلتقي بطلا القصتين مصادفة في طهران، فيجددان صداقتهما التي انقطعت زمناً. وإذ كان أبو إبراهيم قد جلب إلى طهران للعلاج، فإن الراوي يحث إبراهيم على لقياه ومصالحته، وهذا ما يكون.

* *

الرواية منسجمة ومقبولة حبكة وبناء، لولا ما ذكرنا من المآخذ.

وأسلوب الكاتب في السرد والحوار ساخر، وهو يفجأنا بسخريته منذ البدء: «في الليل تجد عدة أشخاص جالسين حول بعضهم في الزنزانات، أو في الساحة ــ إن كان الخروج إلى الساحة مجازاً ــ ويشربون الخمر «سراً». إنهم يشترون الخمر من السجن. يشربون، لكنهم لا يقولون لأحد: تفضل. أحياناً يديرون رؤوسهم ويبتسمون.. أما المجاملات... فلا مجاملات» (ص٧).

وسخريته موجودة حتى في الحديث المؤلم:

«زوجتي ـــ كما لو كانت أمس بالذات قد أخذت مني مالاً فذهبت إلى السوق واشترت الجاكتة التي أحبها ـــ تفتح من خلف القضبان، بين لحظة وأخرى، ياقة معطفها، ولكنني لا أنتبه... ما لقاء ثلاث دقائق لكي انتبه إلى ملبسها؟ أخيراً ينفد صبرها، تدفع ثنية المعطف بعيداً، وتقول: «أتحب لونها؟ كنت دائماً تحب اللون الفستقي ـــ اشتريتها أمس!». إنها تريد الحصول على تأكيد مجدد لمحبتي» (ص٨).

كما أنه دقيق وحسي مؤثر في الوقت نفسه:

«ذات يوم، ظهرت المرأة الهمدانية حديثة القدوم قرب التل، واتخذت مسيرها باتجاه بيت الخالة فاطمة. سحبت أمي ـــ التي كانت تجلس عند النافذة ـــ نفسها فجأة، ثم تقدمت مرة أخرى ـــ بحالة طمعٍ وأملِ إنسان جائع يرى أمامه، بعد زمن من الجوع، طعاماً لذيذاً ولكنه غير مسموح له أن يقترب منه: ألقت وزن جسدها بلا انتباه إلى أمام، أوشكت أن تسقط برأسها في الإيوان، كما لو كانت تريد أن تطير من النافذة. لم تكن تمتلك سيطرة على عضلات وجهها: بقي فمها فاغراً، صار وجهها أكثر نحولاً وعيناها أكثر غوراً واتساعاً وقلقاً من ذي قبل، وشقّ حبلا نظراتها ـــ مثل مخرزين ـــ شادر العاهرة وراحا ينبشان جسدها ويلاحقان الثنيات الخفيفة لأعضاء جسدها تحت الشادر. وما أن مرت من رأس منعطف الحاشية الجنوبية لبيت الخالة فاطمة، حتى سقطت أمي، دون إرادة، إلى وراء وارتطم رأسها بالجدار، محدثاً صوتاً مخيفاً» (ص٧٠).

## ٢ ــ العاشقان

هي قصة موظف مالية يتزوج فتاة حسناء نجيبة يعشقها ــ وتعشقه ــ ضابط وسيم أنيق. وهي رقيقة رشيقة لم يجد أبوها ــ شيخ العشيرة ــ الضابط كفؤاً لها ــ أو بالأحرى: له ــ فلم يزوجها إياه.

والراوي أيضاً ضابط، عندما ينتقل إلى مدينة أشنو [يه] الحدودية، ويستقر فيها، يجد أن موظف المالية وزوجته هناك، ثم يأتي إلى المدينة أحد ضباط الاستخبارات، بكل السمعة السيئة المحيطة باسم شغله. تنتبه زوجة الراوي، وتنبه زوجها، إلى أن ضابط الاستخبارات ــ گودرزي ــ هو نفسه شهرياري، الضابط العاشق. وكان الزوج قد اكتشف وجوده في المدينة أيضاً، إلا أنه تظاهر بالتجاهل، في حين أنه يفكر بالشكوى عليه، ولكن: مم وعلام يشتكي؟ وما أدلته؟

يخلو الزوج لأفكاره، ويفكر في مواجهة العاشق ومناقشته بصراحة، فيجد موقفه ضعيفاً.

وتوازي القصة قصة أخرى عن تزويج عائلة كردية عراقية ابنتها لشيخ في الثمانين، بعد أن كانت تزوجت من حبيبها، الذي يسجن ظلماً خمس سنوات، مما يضطرها للهرب، ويتم إلقاء القبض عليها ويحرقها أبوها ــ الآغا. يعود الزوج السجين، ويكتشف ما جرى، فيقتل الآغا ومباشره، انتقاماً.

وذات يوم، والضابط يتبع عن كثب حبيبته «أفسانه» في سوق المدينة، تسحب من حقيبة يدها المسدس ــ الذي كانت حثّت زوجها على شرائه ــ فتضرب حبيبها، ثم تضع فوهة المسدس على صدغها وتطلق النار.

لا يقتل حبيبها، بل يصاب في كتفه. ولما تسقط هي يتلقاها، يوسّدها ذراعه،

ويأخذ منها المسدس فيضع فوهته على جبهته! لقد أرادت «تحرير»هما: لقد انقذتَني من الموت مرة، ولكنك ألقيت بي إلى الأبد في النار!

* *

في الرواية عمليات، هي أكثر من مجرد محاولات، لتحطيم الزمن، كانت ــ في رأيي ــ ستكون أحلى موقعاً لو أن الرواية كانت تسرد قصة واحدة.

ويعرض الكاتب مشهداً دبره العاشقان ليلتقيا في حفل مسرحي، ولكنه لا يكتفي بذلك، وإنما يقدم تلخيصاً للمسرحية التي يجري عرضها، لم أجد له مبرراً، خاصة وأن المسرحية عادية المستوى مبتذلة الموضوع.

وقد بدت لي الرواية، في قصتها الأصلية: قصة گودرزي ــ شهرياري وأفسانه، قصة روميو وجوليت عصرية، فتصورت الكاتب أعاد قراءة، وكتابة، رائعة شكسبير، ولكنه أكد لي أنها قصة حقيقية جرت أحداثها أيام رضا شاه الذي ملك وحكم إيران ما بين ١٩٢٠ و ١٩٤١.

## ٣ ــ أمي بكت مرتين:

وهذه قصة عائلة كردية تفقد أباها وتُفرض عليها الإقامة الإجبارية في منطقة عسكرية، قرب ثكنة، في مدينة (مراغه) ذات الأغلبية الساحقة التركية. تأخذ العائلة تموينها اليومي من الثكنة، حيث يحرص الجميع ــ من الطباخ إلى حارس الباب ــ على تحميل الابن الصغير تحياتهم لأمه مع الطعام الذي يتسلمه يومياً!

يتذكر الفتى إخفاءه ــ بمساعدة أمه ــ لكردي هارب من حملات الأنفال العراقية، ثم تهريب الأم إياه عندما تحس بأن زوجها نوى تسليمه ــ فالأب

مخبر يتعاون مع السلطات، ويخدم الآغا، وإن كان يحاول أن يخفي عن الناس ما يفعل، ولكنهم يعلمون!

عندما يذهب الأب مع قوة عسكرية لاعتقال المختفي الجريح، ويعثرون عليه، لا تشتغل بنادقهم ــ فقد كان الصبي أخرج أقسام النار منها ــ فيكون ذلك سبباً في إلقاء القبض على الأب ثم إعدامه. والصبي يعرف بأنه مسؤول ــ بشكل ما ــ عن مقتل أبيه، إلا أنه لا يعاني من تأنيب ضمير، بل لم يتأثر كثيراً من إعدام أبيه! كما أن أمه تهوّن عليه بأنه لم يكن يقصد سوءً، وإنما هي شيطنة طفل.

وبعد مدة يعودان إلى مدينتهما، حيث تموت أمه.

ويقوم هو بزيارة إلى مراغه، ويذهب إلى بيت العجوز التي كانا يقيمان عندها، كما يزور عائلة معلمه الذي كان لطيفاً جداً نحوه ونحو أمه، على أمل البقاء في مراغه عشرين يوماً، إلا أنه عندما يعرف بزواج الفتاة ــ قريبة العجوز ــ التي أحبها أثناء إقامته وأمه، لا تعود المدينة تحلو له، فيغادرها عائداً.

صار مناضلاً، ينشط في كردستان العراق، حيث يحب راعية ربما كانت ابنة «كاكا أمين» ــ الهارب من مجزرة الأنفال، الذي سبق أن ساعده على الهرب.

عند عودته من إحدى العمليات سيئة التنظيم ــ وربما كان سوء تنظيمها متعمداً للإيقاع به؟! ــ يُلقى عليه القبض في نقطة تفتيش خفيّة على الطريق. ومن الذي ينقذه، بعد أن عثروا على اللفافة حول ساقه (وفيها يخفي الرسائل الحزبية)؟ إنه كاكا أمين نفسه، الذي سبق لأمه هو أن عالجت جراحه فأنقذته من الموت، وأعانه هو على الهرب منقذاً إياه من موت محقق بسحبه أقسام

النار من بنادق مطارديه: يرمي كاكا أمين الضابط بالنار، ويتشابك مع العريف، ملحاً على الفتى أن يهرب، ليعدم هو بعد أيام في راوندوز (العراق).

والأرجح، أن هذه المغامرة ليست مجرد عرفان جميل شخصي، وإنما كان كاكا أمين عمل مع الاستخبارات العراقية لغرض كهذا!

* *

يؤخذ على الرواية أن الأم تفكر، وتدرك، بأعلى مما يسمح به مستواها: مستوى امرأة كردية تعيش في قرية نائية، رغم كونها زوجة «آغا»، وأن الصبي يتذكر أحداث صباه ويرويها ــ ولو في شبابه ــ على نحو ناضج ــ ويبقى لغزاً كيفية تعرف الهارب ــ عميل الاستخبارات العراقية ظاهرياً الآن ــ على الفتى بعد كل هذه السنوات!

## ٤ ــ دعاء لآرمن

امرأة مرهقة وطفلها وكلبها المطيع المنتظر لأوامرها دوماً، شريدة عند الحدود التركية الإيرانية، يعثر عليها (شيرو آغا) فيأتي بها إلى منزله ويوصي أهل بيته بالعناية بها. يبدو أنها أرمنية، ويلخص الآغا وضع الأرمن بقوله: «أمة تعيسة، أتعس من أمتنا».

المرأة مهاجرة هاربة من مطاردة الأتراك للأرمن، إلى داخل الأراضي الإيرانية، فيما كان رجال قومها يشاغلون الأتراك لإنقاذ النساء والأطفال. ومن جملة المقاتلين «هوسپ» زوجها ــ الذي «يساوي ألف كردي رديء» كما يقول شيرو آغا ــ والذي يعرفه الآغا ويمتدحه دائماً ويخاف ــ من ظاهر كلام المرأة

ـ أن يكون أصابه ضرر، ولكنها تطمئنه أنه كان سالماً إلى ما قبل ثلاثة أيام أو أربعة. وهو الذي أوصاها بالمجيء إلى هنا.

ويحرص شيرو آغا على إخفاء أرمنيتها عن أفراد عشيرته وعن رعيته، مخافة أن يخبروا الأتراك، فيوصي أهل بيته بتسميتها (آمين) [= آمنة]، بدلاً من اسمها الحقيقي وهو آرمن.

والأحداث تقع في زمان «الغازي» أتاتورك، الذي طرد اليونانيين من تركيا وقتل الأرمن والكرد، وألقى أطفالهم في النار أمام أنظار آبائهم وأمهاتهم، فصار غازياً!

بعد أيام، يأتي طفلان، هما أخوان، جائعان منهكان وخائفان. تعرفهما آمين، ونعرف أنهما من الهاربين، وقد دفعهما أبوهما وأمهما إلى الأمام علّهما ينجوان من أيدي الأتراك! فيضمهما شيرو آغا إلى بيته أيضاً.

وفي هذه الأثناء تستمر محاولات قائد القوة التركية، التي تحارب الأرمن، لاستخلاص آرمن من شيرو آغا، دون نجاح، في حين تنبه زوجة الآغا زوجها إلى أن آرمن حامل.

ذات يوم يظهر سائق شاحنة نفد وقود سيارته، ولابد له أن يذهب إلى مقهى بين مدينتي (خوي) و(سلماس) لتدبير الوقود. ويساعده شيرو أيضاً، وتنعقد بينهما أواصر صداقة متينة. وهذا السائق أرمني هو الآخر.

ويأتي في يوم آخر أحد أفراد العشيرة، وكان مهاجراً، محتضراً لإصابته بالتيفوس، كي يموت على أرضه. مع أن الآغا يكلف خدماً بالعناية به، ويعزله عن أهل بيته، إلا أن آرمن تقوم على خدمته ليلاً، متمردة على أوامر الآغا، لشفقتها الزائدة على المريض. يكتشف شيرو الأمر فيعنفها والخدم ــ الذين

أهملوا واجبهم وأخفوا ما تفعله عنه، ولكن لم تكن للتعنيف فائدة، فقد أصيبت بالعدوى، وهي شديدة القلق الآن على ابنها.

يرسل الآغا السائق في طلب طبيب من مدينة (أرومية)، فيأتي هذا ويعالجها ويعقم مكان مبيت الفلاح والبيت كله، وتنشأ صداقة حميمة بينه هو أيضاً وبين الأب. وفي عودة الطبيب إلى المدينة يرافقه شيرو آغا وامرأته وابنه، فيستقبلهم الأسقف ويصطحبهم إلى الكنيسة ـ وقد عرف من الدكتور بما فعلوه لآرمن والأخوين ـ ويلقي هناك خطبة يشرح فيها للناس ما عمل شيرو آغا، فيعرب الحضور ـ بعد الخطبة والقداس ـ عن الشكر والمحبة للعائلة، في حين يستدعي قائد الفرقة الآغا في اليوم نفسه ويعتقله!

يبقى ابن العائلة، وهو راوي القصة، في المدينة فيكمل دراسته الابتدائية، وفي هذه الأثناء ترحل آرمن إلى طهران لتقيم مع أخيها بعد العثور على عنوانه، وتتزوج بنتا شيرو آغا.

يعود الولد بعد أمه وأبيه بشهر، بعد انتهاء دراسته ونجاحه في الامتحان، إلى القرية. وفجأة تأتي آرمن وطفلها وزوجها ـ وقد قُطعت ساقه، بعد محاصرة وهروب ومغادرة إيران إلى سوريا حيث تتبناه سلطة الانتداب الفرنسية وتسفّره إلى فرنسا للعلاج، ومنها عاد إلى طهران ـ ثم إلى القرية. والقصد من مجيئهما هو الزواج! إذ أن هوسپ، لما دخل بها، لم يكن ثمة قسيس لعقد زواجهما! ومع أن الأم تتعجب، وربما تستنكر بصمت، نجد الأب (شيرو آغا) متفهماً! زاعماً «يحدث هذا عندنا أيضاً»!، كما يأتي السائق معهما أيضاً، فهو الذي أوصلهما.

وإثر كلمة من الأب، يدعون الدكتور وزوجته إلى القرية، فيسرع السّائق إلى الذهاب إلى المدينة لإبلاغ الدعوة، وجلبهما.

وأثناء إقامة المدعوين عند الآغا يقنعه هوسب بتسجيل ابنه في مدرسة ثانوية في طهران ــ بدلاً من تبريز حيث كان يريد تسجيله ــ وهكذا يكون، إلى أن يُنهي الفتى دراسته.

* *

والرواية حافلة، إلى جانب هذه الأحداث، بتأملات الكاتب المباشرة أو المنقولة على لسان الراوي، كما تستعرض الخلفية التي تقع عليها الأحداث في عبارات سريعة تشبه ضربات ريشة رسام.

* *

والرواية ليست رواية آرمن وحدها، بل رواية كل أم، فإن اهتمامها وعواطفها تتسع لتشمل لا البيت الذي احتضنها وابنه الذي صار تحت كفالتها في طهران، بل الأخوين الصغيرين الهاربين من الترك، وكل من يتصل بها.

* *

يروي ابن الآغا، يادو، خمسة عشر فصلاً متسلسلاً من الرواية، ثم تتسلم آرمن زمام الفصل السادس عشر لترويه وهي محمومة بالتيفوس، ثم يعود يادو ليروي أربعة فصول أخرى، وترجع آرمن لتروي الباقي.

* *

عيب الرواية هو ما لاحظناه على بعض روايات يونسي الأخرى: أبطالها أعلى فكرياً من زمانهم ومكانهم.

ولعل أروع ما في الرواية هو المشهد الذي يفاجئ فيه الطبيب وشيرو آغا زوجة هذا وهي تحمل ابن آرمن نحو السماء وتتلو الدعوات لسلامة الأم، بمشاركة الأخوين.

## ٥ ــ شخص يشبهني

هذه الرواية لم تصدر بعد، مع أنها منجزة منذ أكثر من عشرين عاماً، ومسلّمة إلى الرقيب كي يوافق عليها، ولم يوافق رقيبان أو ثلاثة توالوا على المنصب حتى الآن! فهل سيهيأ رقيب يفرج عنها ذات يوم؟!

تحكي الرواية جزء من سيرة الكاتب، ورغم أن بطلها شخصه هو، إلا أنه وصفه بأنه شخص يشبهه! فلماذا؟ لأنه الآن لم يعد ذلك الشخص، إنه يتحدث عن الشخص الذي كان آنذاك.. من منظوره اليوم... مسألة ديالكتيكية بسيطة!

مشكلة الرواية، التي جعلت الرقيب «ينام عليها» عشرين عاماً، أنها تتوسع في معالجة فترة اعتقال، محاكمة، إدانة، ثم سجن الراوي ــ الكاتب. وهو في هذا لابد له أن يتعرض لسيرة وصمود وبطولة رفاقه في المحاكمة، الذين دينوا مثله، وحكموا ــ كما حكم هو ــ بالإعدام، وامتازوا عنه بأنهم أعدموا، وهو إذ يعرض خصالهم الإنسانية الرائعة ويطري بطولة مواقفهم، فقد ارتكب إثماً لا يسمح الرقيب بترويجه بين الناس! والمؤسف حقاً حرمان القراء من هذه الرواية، لا لأنهم حرموا بذلك من الاطلاع على فترة مهمة من تاريخ بلادهم، وتعريف بأبطالهم الوطنيين، فقط، وإنما لأنهم حرموا أيضاً من نص أدبي رائع، ربما كان أحلى ما فيه تصوير سوق أولئك الأبطال إلى ساحة الإعدام، ومشاعر الراوي ــ الكاتب، ما بين فرحة النجاة واستصغار الذات بسبب هذه النجاة ذاتها!

### الهوامش

(١) جمع «آغا» = سيد.

(٢) جمع «خان» = رئيس العشيرة. وتستعمل هاتان الكلمتان كلفظتي تبجيل.

# القسم الثالث

---

# حلقة الوصل

# أمير حسن چِهِل تَنْ

ولد أمير حسن چهل تن في طهران سنة ١٩٥٦ لعائلة متوسطة، وهو يعتبر مولده ذاك ونشأته في تلك العائلة تجربة حددت أساس إنجازه ككاتب.

وتخرج في سن الثانية والعشرين مهندسَ كهرباء من جامعة العلوم والصناعة في طهران، ولكنه نشر أثناء دراسته الجامعية مجموعتين قصصيتين: الأولى سنة ١٩٧٦ بعنوان «صيغة»[١] والثانية سنة ١٩٧٨، باسم «دخيل على الشبّاك الفولاذي».

وبعد كفاح مع الرقابة، وصلت روايته الأولى، «روضة القاسم»[٢]، إلى المطبعة سنة ١٩٨٣، وطبعت، وكانت في مرحلة التجليد عندما أوقفت! وبقيت موقوفة طيلة السنوات السبع عشرة الماضية، دون أن يلوح في الأفق ما يبشر بأنه سيسمح لها بالنشر ذات يوم... وقد طبعها له بعض أصدقائه خارج البلاد.

وفي سنة ١٩٩١ أصدر رواية باسم «قاعة المرايا»، ثم صدرت له مجموعة قصصية بعنوان «لم ينادني أحد بعد ذلك» سنة ١٩٩٢، وأخرى باسم «لم يبق شيء حتى الغد» سنة ١٩٩٨، ثم أصدر روايته الثالثة «نبات المحبة» في أوائل سنة ١٩٩٩.

وبينما هو يواصل مساعيه لاستحصال موافقة الرقابة على تجديد طبع أعماله السابقة، قدم لناشره رواية بعنوان «عشق، وسيدة لم تكتمل»، وهو لا يدري متى ستصل هذه الرواية إلى أيدي القراء، حيث لم تتم الموافقة على إعادة طبع «صيغة» و«دخيل على الشباك الفولاذي» في إيران، لذلك صدرا في كتاب واحد في ألمانيا، كما لم تفرج السلطات عن «روضة القاسم»، فبقيت طبعتها الوحيدة التي رأت النور في خارج إيران(*).

ولكن «قاعة المرايا»، بعد أن وجدت ترحيباً بين القراء، حظيت بنشر مجدد في طهران.

ويكتب چهل تن المقالة أيضاً، وقد نشر مقالات عدة في أهم المجلات الثقافية الإيرانية، كما نشر في صحف ألمانية.

ولعل أهم مقالاته الأدبية، «التخصصية»، مقالته المعنونة: «الكتابة عمل خطر»، التي طرح فيها آراءه عن فن الكتابة القصصية، ثم مقالتيه «العامتين» اللتين تتناولان أموراً ثقافية عامة، وكانت إحداهما باسم «لو كانت المعرفة جرماً» ــ وقد انتقد فيها منع استعمال أطباق تلقي البث التلفزيوني ــ و«ليس للكلمات جدوى» ــ التي طالب فيها المسؤولين بالتوقف عن الكلام والانصراف إلى تنفيذ وعودهم بشأن الحريات العامة.

وهو يعمل منذ سنوات، مع عدد من زملائه، على إعادة إحياء «مركز كتّاب إيران»، الذي أعلنت الجمهورية الإسلامية حله منذ نحو عشرين سنة، مما شكّل خطراً لا على حريته فقط، وإنما على حياته ذاتها أيضاً، رغم بعث المركز مجدداً.

* *

---

(*) أفرج عنها أخيراً، وقد بعث لي الكاتب ــ مشكوراً ــ بنسخة منها.

صدرت لچهل تن، كما ذكرت قبلاً، ثلاث روايات، إحداها خارج إيران، فلم يسبق لي الاطلاع عليها، ولذلك كادت هذه «القراءات» تخلو منها. إلا أن الكاتب، كما ذكرت قبلا أيضاً، تفضل مشكوراً فأرسل نسخة من الطبعة الإيرانية التي أفرج عنها مؤخراً، ولأنها رواية الكاتب الأولى، فقد رأيت وضعها في موضعها الصحيح من تسلسل أعماله، ولهذا فقد درستها وأدرجتها فيها، رغم أن القراءات كانت قد اكتملت بالشكل الذي خطّطته لها أصلاً.

## ١ ــ روضة القاسم:

هي رواية تحكي اختفاء، أو «ضياع» ــ كما يقول الأهل والأقارب، ويصدق الراوي فينقل عنهم ــ فتى اسمه «قاسم» من الجامعة ذات يوم، وعدم عودته إلى بيته. يحكيها لنا أخوه الصغير، فتتسرب إلينا على جرعات؛ فالراوي طفل يتحدث، وعلى هذا فمن المعقول جداً أن يشرّق في كلامه ويغرّب، ويحكي عن انطباعاته وذكرياته، عن مسموعاته ومشاهداته، في البيت والمدرسة والمحلة: الجار «أشتري»، الذي لا يمكن أن يضيع ولده، بل حتى ولا كلبه، «لأنه عضو في مجلس المدينة، يلبس البدلة والكرافته، امرأته تحضر اجتماعات المجلس وتتخطف لاقطة الصوت وتتحدث كالرجال وتتلقى التصفيق. حرمان الناس من مجالس التعزية والـ«روضة» التي كانت تعلم الناس شيئاً عن دينهم وإحلال التلفزيون محلها، الذي يعلم بعض الناس تمثيل دور الهنود الحمر وبعضهم الآخر كيف يضعون أيديهم وراء أقفية بعض ويمثلون أدوار الحب والغرام. ويلف حكايته، ويغلفها بهذه الأخبار والإشاعات، ولكن العجيب أنه يفعل ذلك بمهارة لا تضيع الخط الأصلي للرواية.

ليس هذا فقط، بل أن الخلفية التي يعطينا إياها الكاتب عن العائلة، في حديث العمة «بلقيس» وزائرتها الفتاة، تضعنا في جو يجعل ما يقع للعائلة باختفاء قاسم أمراً معقولاً، اعتيادياً، نتوقعه وإن كنا نرفضه.

ويعطينا الراوي ـ الطفل الحكاية على جرعات:

تحاول الأم وابنها الصغير رؤية رئيس الجامعة للسؤال عن ابنها الشاب ومصيره، فتصرفها سكرتيرته، لأن الموضوع ليس من اختصاصه ولا معرفة له به!

يأتي رجال الأمن فيفتشون البيت، وغرفة الابن «الضائع» بشكل خاص. وبعد يومين أو ثلاثة يأتي أحد معارف الأب ـ من الرسميين ـ فيخبره أن على النساء أن يلبسن السواد وينهين الموضوع!

الأهل والجيران مقتنعون أن قاسماً مات (تحت التعذيب؟ إعداماً؟) ولكنهم لا يذكرون ذلك أمام الفتى وأمه. نحن نفهم همساتهم وإشاراتهم في ما يتعلق بذلك، ولكن الراوي لم يدركها بعد، رغم أن العم «يحيى» صار يلبس ربطة عنق سوداء منذ غياب قاسم أو «ضياعه».

ويفكر الخال حسين في أن يأخذ كتب قاسم ليخفيها، ثم يذهب «للبحث عن قاسم» ـ كما يفهم الطفل ـ الراوي ـ فيضيع هو الآخر! ويتحمل الراوي همّاً جديداً، إذ «من بقي حتى يذهب فيجد قاسماً والخال حسين؟». لكنه سرعان ما يعرف أن الخال لم يضع، بل قتل: «سمعت ذلك بأذني»!

بعد انقضاء أكثر من نصف الكتاب حجماً وسنتين ونصف زمناً، تجد العائلة ابنها، وتتهيأ لاستقباله، ويذهب العم لتسلمه، ونجد أهل البيت في انتظار هذا الحدث، ويصور لنا الطفل ـ الراوي قلق الأب وشرود الأم في انتظارهما، ثم استقبالهما، وبقية الأقارب، قاسم.

ولكن قاسماً القادم، المعثور عليه، «ليس قاسمنا» (ص١١٧)، كما يقول الراوي، إذ «ليس لنظرته حركة» (ص١١٧)، وهذا طبيعي، حسب قول أحد الأقارب، فـ«هناك لم يكونوا يروّحون عنه بالمراوح» (ص١١٦). ومع أن الأم «تمسد على جراح قاسم، برؤوس أصابعها التي تضم كل مراهم أطباء الدنيا» (ص١١٨)، إلا أن حاله من السوء بحيث تقول خالته (رباب): «ليته لم يتم العثور عليه» (ص١٢٣).

تتداول كبيرات العائلة أمره، ويقررن تزويجه ابنة خالته، خطيبته منذ الطفولة. ومع أن أمه تعرف أن ذلك خطأ، فليس مرضه مرض يوم أو يومين، إلا أنها تستجيب لضغط أخواتها ونسيباتها، ونصائحهن.

يتم العقد وقاسم في شروده التام وصمته شبه المطبق.

ويستغل الكاتب الفرصة ليصف لنا مراسم العقد التقليدية في إيران، التي أضيف إليها التصوير الفوتوغرافي، الذي يجد فيه الكاتب فرصة ليديم وصفه بلقطات فوتوغرافية، سريعة، هو الآخر (ص ص١٣٨-١٣٩).

ولكن قاسماً ينتقل من الصمت، واصطياد حمامات الجار ـــ الملا حسين ـــ وضمها إلى صدره حتى تموت، إلى التجوال في أسطح المحلة منذ المغرب فما بعده، حتى يقود المهندس أشتري حملة جمع تواقيع من الجيران تؤدي إلى نقل قاسم، بمعونة الشرطة، إلى دار المجانين، حيث يبقى مدة، نطلع فيها على صفحات من سوء المعاملة هناك، وسوء الإدارة في أمثال هذه الأماكن.

يتحسن وضعه بعد مدة، وتستعد العائلة لعودته إلى البيت، ويطلب من أهله أن يجلبوا له في هذه الأثناء كتباً، في زيارتهم القادمة، كما يطلب من عمه ألا ينسى أن يعطي الفرّاش إنعاما عن خدمته الطيبة، خاصة وأن راتبه ضئيل، وأن لديه خمسة أطفال. فتذكّرنا أمه بسر «ضياعه»:

« ــ هنا وتفكر في هؤلاء؟

ــ في كل مكان أفكر في هؤلاء» (ص١٦٩).

ثم يعود إلى البيت، بعد أن يكون قد أفهم خطيبته بأنه إنما يخرج ليرى أصدقاءه وزملاءه القدامى، ويكون قد كسبها إلى صفه بحيث قررت أن تكون رفيقة طريقه.

وفي البيت يُعلّم أخاه (الراوي) ــ الذي نعرف أن اسمه (فرهاد) والراوية توشك على نهايتها! ــ أن خالهما حسين «لو لم يقتلوه لقتلهم»، وأنه كان من «فدائيي الشعب» (ص١٨٢).

ويطلب من أخيه مساعدته: يكلفه ــ يوم خلو البيت من الأهل ــ أن يجلب له من شخص يعرفه حقيبة، لا يذكر له ما فيها!

وتنتهي الرواية والصبي الصغير في الطريق ينقل الحقيبة فعلاً.

* *

وقد أخذت الرواية اسمها من مجلس الروضة الذي تحضره الأم، وتطلب فيه إحدى القريبات من «الملا» خصيصاً أن يقرأ فيه روضة القاسم بالذات.

* *

أول ما يلفت النظر في هذه الرواية اقتصادها بالكلمات: «تنتخب العمة بلقيس، بخفة يد تامة، برؤوس أصابعها، الخضار المتساوية الطول من السلة وتضعها على اللوح فتفرمها بالسكين» (ص٥).

هذان أول سطرين من الرواية!

وعلى هذا النهج تمضي، دون أن يحس القارئ وجود حشو فيها.

وحتى بداية الرواية، التي تتحدث فيها هذه العمة عن عائلة زائرتها، وعن زوجها هي ــ الذي طلقته بمجرد اختفائه بعيد إسقاط رضا شاه ــ وذكرياتها

عنه وكيف أنه حملها على رفع حجابها، وحضور الحفلات الساهرة، والقبول بوجود الـ«نجس» على مائدة تجلس إليها، وحتى قرع الكؤوس مع البعض، أقول: حتى هذه البداية و/هذه الأحاديث ليست نافلة، بل أريد بها تصوير البيئة التي تربى فيها قاسم ونشأ.

ومع أن الراوي طفل، يبدو لنا أنه يشط في حديثه هنا وهناك، إلا أن حديثه كله، وحتى هذره، موظف لإضاءة بقعة هنا وواقعة هناك.

إن السرد كله، رغم أنه على لسان الطفل إياه، ليس فيه زيادات:

* «عندما ضاع قاسم، جاء أيضاً تحديق أمي في الفراغ. بقي، صار جزءً من أمي، مثل سبابة رجلها عديمة الأظفر، مثل الخال في عنقها» (ص٥٥).

* «لو أعطيت ذرة من هذا الألم للأرض، لصار القمح مرّا» (ص٩٤).

* «لم تكن الخالة رباب تدري أنهم أخذوا قاسماً. لم تكن تدري أن قاسماً ضاع مرة أخرى. ولكن لم يكن ضرورياً أن تسأل من أحد. ولم يكن لازماً أن يقول لها أحد. فقد كان ذهاب قاسم معلوماً من كل أشياء البيت: من طريقة مشي أمي. من سعال العمة بلقيس..» (ص١٥١).

وكذا الوصف:

* «الدمع الذي تمسحه العمة بلقيس ــ بزاوية عصابة رأسها ــ يكفي لجعل صحراءٍ كاملةٍ خضراءَ» (ص٥٧).

* «جدتي من السمنة بحيث يمكنها أن تسخِّن، بنَفَسها، غرفة كاملة...» (ص٦٢).

* «لو صببنا جدتي والخالة أقدس في هاون، ودققناهما مخلوطتين، فسينتج إنسانان جيدان مضبوطان» (ص٦٣).

* «عينا ابنة ستارة خانم مثل عيني دمية: كأنهما زرّان أسودان في ملعقتي حليب» (ص٨٤).

وبأبسط التعابير يضع الكاتب تاريخ أحداث روايته؛ فالأحداث تدور وطريق كربلاء «مسدود» (ص١٠٢): إذن، فهي تقع بعد ثورة ١٩٥٨ في العراق، حين بردت العلاقات بين العراق وإيران فانقطع حجيج الزوار الإيرانيين إلى المراقد المقدسة في العراق. ثم تأتي إشارة أخرى لتزيد الزمن تحديداً: بعض سجناء سجن قصر (وهو سجن قديم شهير في طهران) رأوا قاسماً «ولكن في الـ (الكميتة)» (ص١٠٤). والكميتة، أي اللجنة، هو الاسم المختصر للجنة الأمنية الأميركية ــ الإيرانية، التي أنشأتها وكالة المخابرات المركزية في إيران، مع التحضيرات لإنشاء جهاز المخابرات الإيرانية الذي اشتهر بعد ذلك باسم «ساواك»، وباشرت عملها بهذا الاسم سنة ١٩٥٩.

ويتوج الكاتب روايته بإنهائها، كما رأينا، ببساطة تامة:

قوله عن الخال إنه لو لم يُقتل لقتل، لأنه من فدائيي الشعب، ويسلك فرهاد طريق أخيه قاسم من دون شعارات طنانة: إنه يجلب له الحقيبة المطلوبة.

كل هذا، والرواية هي الأولى للكاتب، والكاتب لا يزال في السادسة والعشرين من عمره.

## ٢ ــ قاعة المرايا

اسم الرواية هذه مأخوذ من اسم قاعة في قصر «گلستان» ــ أحد قصور عائلة آل قاجار[٣] المالكة، الأمر الذي يجعل القارئ يحس ابتداءً أن للرواية علاقة بعهد تلك العائلة. وعندما يبدأ القراءة تتكشف أمامه أسماء الشخصيات؛

وكل منها مركّب من مفردات، عربية أحياناً، وتلك إشارة ثانية إلى ذلك العصر الذي راجت فيه أمثال هذه التسميات. ولكن عندما يمضي المرء في القراءة قليلاً تبدأ الأحداث تتضح لتكشف بصراحة عن تاريخها المحدد: أواخر ذلك العصر، أوائل القرن العشرين، أيام النضال من أجل المشروطة(٤).

وهي تحكي قصة فتاتين من عائلة متوسطة تعيشان كأختين، وليستا كذلك، في كنف أب متعلم يحب امرأته ويربي فتاتيه على قسط كبير من الحرية، وأكبر من التعلم والتثقيف.

وتشارك الفتاتان في أحداث المشروطة ـ بالتفرج على التظاهرات والاعتصام أمام مجلس الشورى، وهجوم القوزاق على المجلس واعتقالهم المتظاهرين، وحتى المتفرجين ـ الأمر الذي يجر إلى مطاردتهما مع مربيتهما، فتفرقهما وتشتتهن، حتى تعتقل الكبرى... مع غيرها من النساء... ولكنهن يهربن من المكان الذي اعتقلن فيه، بمساعدة نسوة في الجوار.

وفيما تعترض الأم المريضة لدى الأب على توريطه الفتاتين في نشاطاته، حرصاً وخوفاً، تبدي العمة اعتراضاً أكثر شراسة، بينما هي لا يعنيها من الأمر كله غير تزويج البنت الكبرى ـ التي هي ابنة أخيها الحقيقية ـ زواجاً تقليدياً من ابن عائلة مناسبة، لذلك تعرض الفتاة في الجلسات النسوية الخاصة وفي الحمام! ثم تدفع الفتاة الثانية ـ المتبناة ـ إلى زواج غير موفق، لمجرد أن تزيحها عن الطريق ليتسنى تزويج ابنة الأخ زواجاً مناسباً.

أما الأب، الذي تصوره العمة غير مبال بتزويج ابنته، حتى لكأن تثقيفها الزائد يؤدي إلى بوارها، فهو يفكر بتزويج ابنته، ولكن ليس باعتبار ذلك قدراً لابد منه، ينبغي إنجازه مبكراً دون اهتمام بأمر غير ثراء الزوج ومنزلته.. والزوج الذي يفكر فيه الأب لابنته هو صبي صرّاف، من نشطاء حركة

المشروطة.. يشارك الأب في نشاطه الخطر من إخفاء المطبعة وتوزيع المنشورات وحتى تنفيذ عمليات الاغتيال، التي ينتحر بعد تنفيذه إحداها بنجاح..

وفيما كان الأب يسعى للاختفاء بعد فشل حركة المشروطة وسيطرة القوزاق، لصالح الشاه الدكتاتور، على الأوضاع، يصاب بجرح خطير، يدل الجو الذي يصفه الكاتب مرافقاً لإعادته إلى بيته على أنه سيموت متأثراً به.

وقد أضاف الكاتب على أحداث الرواية تفصيلات وتلوينات لا لتصوير الأحداث والوقائع فقط، وإنما لجعل قارئه يعيش في الجو الذي مضى عليه أكثر من تسعين عاماً، واهتم باستخدام تعابير مما كان سائداً في ذلك العصر، أو طريقة لفظ مفردات صارت تستعمل الآن بصيغة أخرى..

ونظراً للايجاز الذي يشحنه الكاتب برؤاه، فإن روايته قصيرة نسبياً، وهو لا يعمد إلى استخدام محسنات لفظية، بقدر ما يعتمد العبارات الواضحة، الموحية. فعندما يستشهد خطيب البنت غير المعلن، ويفاجأ الأب بابنته تبكي، يطلب منها الصبر، ويطلب منها ومن أختها المتبناة أن تبقيا له، ولكن المتبناة «كانت تعرف، وكانت «ماه رخسار» [ابنته الحقيقية] تعرف، وكانت السجادة والستارة والوسادة تعرف أن المخاطب الأصلي هو ماه رخسار».

وتحذرها الخادم من لقاء معلمها للغة الفرنسية، لأنه «مبتلى»، ودليل ذلك أنه «لم يكن لوجهه لون»!

ولتصوير الصمت الكثيف يقول:

«حل صمت: صمت. دون أن تغني عصافير الكناري، أو يهز نسيمٌ رؤوسَ الأغصان في همس حفيف».

وللدلالة على الكثرة والكثافة يقول:

«كانت نظرة بسيطة وبريئة. تحمل ملء صدر من كلامٍ لم يُقَل، قاله ميرزا [الأب] كله، وسمعته شاه زمان [زوجته] كله».

* *

وقد أشار من تناولوا الرواية بالنقد والتحليل إلى أن الكاتب عالج فيها زوال عائلة قاجارية، وتوسع آخرون في ذلك فاعتبروه سعى إلى معالجة زوال العهد القاجاري كله، ولكنني تصورت هدفه أكثر تواضعاً: إنه يريد أن يصور فشل حركة المشروطة نفسها فقط. وعندما ناقشته في هذين التصورين رفضهما معاً. وأوضح:

«إنني أعتقد أن «قاعة المرايا» ــ على رغم ظاهرها ــ تنطوي على عدة طبقات خفيفة. يمكن أن يكون بعض هذه الطبقات كالآتي:

ــ ميل المفكرين إلى إحداث التغييرات الاجتماعية، دون أن يتوفر لديهم الاستعداد اللازم لإدراك ما إذا كانت ضرورة هذه التغييرات جاهزة عند الناس.

ــ في المجتمعات التي عاشت في ظل الاستبداد قروناً طويلة، يتحول الاستبداد إلى أمر ذاتي، ومؤسَّس، في أفراد المجتمع واحداً واحداً.

ــ يمكن أن تتبادل القدرة السياسية والسلطة السياسية المواقع فيما بينهما، ويمكن أن يستمدا قوتهما من منشأ واحد.

## ٣ ــ نبات المحبة

قصة المرأة أيضاً!

اختار الكاتب جواً معقداً ومتشابكاً يحكي من خلاله قصة امرأتين، صديقتين، من القشرة العليا للطبقة المتوسطة الإيرانية، نالتا قسطاً وافراً من التعليم، امتدت حياة إحداهما من بطرسبورغ إلى مدن شمالي إيران الساحلية فطهران،

والأخرى من بيروت وطهران إلى برلين ولندن، جغرافياً، وحياة كلتيهما من أوائل القرن العشرين إلى ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية تاريخياً.

تحقق «رفعت»، أثناء هذه الرحلة الطويلة تاريخياً، العميقة جغرافياً، أنوثتها كاملة: فهي تحب وتتزوج وتنجب وحتى ترضع، وتفيض على ابنها حباً ورقةً أثناء الإرضاع حتى لتستثير غيرة زوجها الشديدة مما يحملها على طلب الطلاق منه، الذي يرحب به هو سريعاً. ولا تكتفي بذلك، بل تتزوج رجلاً آخر بدأ عاشقاً لعزفها على الكمان، ولكنه ينفر منها بعد ستة أشهر، مما يحملها على تركه هو الآخر.. بل إنها تستجيب لعشق رجل آخر، وتعاشره معاشرة الأزواج، وتندفع في حبه حتى تخدم أغراضه التجسسية ضد السوفييت لصالح ألمانيا النازية، مع ما ينطوي عليه ذلك من خطر، خاصة بعد احتلال السوفييت لجزء من إيران أيام الحرب.

أما بطلة الرواية، شمس الضحى، فلا تعرف شيئاً من ذلك كله، فهي تبقى عانساً عذراء تحلم بفتى رأته من شق الباب، وتعشق على البعد إثنين من أصدقاء أبيها.

وتبقى تعاني من عبء عذريتها، حتى تضطر إلى إزالتها بعملية جراحية للتخلص من الأمراض التي كانت تسببها لها، فينبجس الحليب من ثدييها، ولكنها عندما تغادر عيادة الطبيب حيث أجرت العملية، تفاجئها العادة الشهرية في الطريق، وتحيض حيضاً كثيراً حتى تسقط في الشارع غارقة في دمها.. وتبقى دون أن تستجيب لنصيحة صديقها في أن «تبحث عن رجل» لنفسها.

وتنتهي الرواية بمأموري الحكومة السوفييتية يبحثون عن الجاسوس النازي، وشمس الضحى النازفة، التي لا ندري إن كانت ستموت أم ستبقى تحمل معها عذريتها لما تبقى من حياتها.

* *

إن چهل تن كاتب قضايا المرأة بامتياز، وهو يعالج مشكلاتها بجرأة تعتبر كبيرة ـ نظراً لظروف إيران الإسلامية ـ مما يسبب، إضافة إلى حجز الرقابة لهذه الرواية من رواياته، أو منع تلك المجموعة من مجموعاته القصصية، مطالبة إياه بحذف مقطع هنا وتحوير آخر هناك، مما يضفي غموضاً إضافياً ـ غير ما تقتضيه ضرورات العمل الفني ـ على معالجاته، يجعل بعض كتاباته تستحيل إلى طلاسم غير مفهومة أو صعبة على الإدراك.

* *

وينطبق على لغته في هذه الرواية ما سبق وأشرنا إليه في التعليق على روايته الأولى. ففي تصوير خطبة رفعت الأول نقرأ: «في وسط الصالون اقترب جهانگير، دون اهتمام بشيء آخر، من رفعت. طأطأ رأسه بشكل غير ملحوظ تقريباً، ومد نحوها باقة ورد ـ ومع كل هذا اللطف والوقار، كان غرور متمرد يلتهب من عينيه.. مدت رفعت يداً مرتجفة إلى أمام، تناولت باقة الورد، وقربتها من أنفها. انعقد لسانها. ابتسمت. **أين ربط هذا الأمير فرسه؟**».

* *

وتتميز هذه الرواية باستفادة الكاتب من السخرية في السرد والوصف أيضاً. ففي وصف كثرة الأطفال في مجلس ما، مثلاً، يقول: «كانت عشيرة من الأولاد والبنات تندلق بين آباط وسيقان الكبار».

# الهوامش

(١) «صيغه» في الأصل: «صيغة الزواج المؤقت»، أي النص الذي يتلى لتوقيعه، ثم صارت علماً على هذا النوع من الزواج، كما تطلق اللفظة على المرأة التي يتم الزواج بها مؤقتاً.

(٢) «روضه»، اسم عام على قصائد الرثاء والمديح في أهل بيت النبي، وخاصة الإمام الشهيد الحسين وصحبه.

(٣) حركة المطالبة بالدستور، التي امتدت منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى بدايات القرن العشرين، وبلغت ذروتها في ١٩٠٨ حيث تغلبت إرادة الشعب على قمع الشاه وحكومته وقوات القوزاق التي نظمتها له روسيا القيصرية وكان يقودها عقيد روسي.

# فهرســت

الطبعة الأولى / ٢٠٠٧

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

ليس هذا لكتاب تأريخاً للرواية الفارسية في إيران، وإنما هو - بقدر ما يدل عنوانه - قراءات فيها: إنه محاولة تعريف بها اعتماداً على نصوصها.

ولقد قسمتُ الكتاب إلى ثلاثة أقسام، جعلتُ الأول منها للمؤسسين، وضعت فيه صادق هدايت وبزرگ علوي، والثاني لكتّاب الجيل الثاني؛ الذي تناولت فيه سبعة منهم. وإذ يؤسفني أنني لم أستطع أن أتناول غيرهم هنا، إلا أن عذري أن للآخرين - أولاً - سمات وخصائص من ذكرت، وثانياً: لأن ذلك كان سيوسع الكتاب إلى آلاف الصفحات - إن كنت أتبع النهج ذاته بالنسبة لهم جميعاً. وفي القسم الثالث، تناولت واحداً من الكتّاب المحدثين، نموذجاً لزملائه من الجيل الثالث - وإن كانوا يرفضون أن يوسموا بذلك، بل ولا يؤمنون أساساً بـ «ترقيم الأجيال» الأدبية، بل حتى بالتقسيم إلى أجيال أساساً.

أما النص الوارد في العنوان «في إيران» فقد تعمّدته لتبيان أن المقصود بالقراءات هو الروايات الصادرة في إيران، ولا علاقة لها بما قد يكون صدر في أفغانستان أو طاجكستان.







٢٠٠٧
سعر النسخة داخل القطر ٣٦٠ ل.س في الأقطار العربية مايعادل ٧٢٠ ل.س